من كنوز القرآن
٩

القصص القرآني

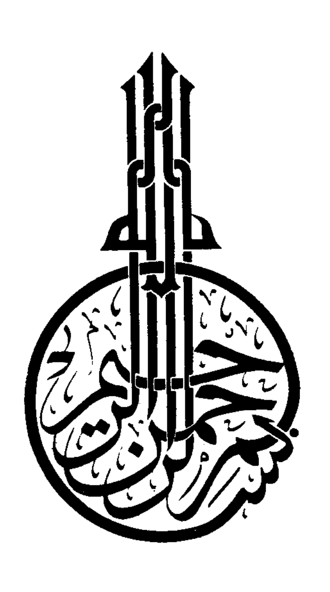
عرض وقائع وتحليل أحداث

تأليف
الدكتور صلاح الخالدي

الجزء الثالث

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت




القصص القرآني

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المرحلة الثالثة
خروج موسى ببني إسرائيل وغرق فرعون وجنوده

[١]
أحداث ما قبل الخروج

ملأ فرعون يهيجونه على موسى:

كان الملأُ من قومِ فرعون طغاةً ظالمين مفسدين، مثلَ فرعون، وكانوا معادين لموسى عليه السلام وأتباعِه المؤمنين، وكانوا منفذين لأوامر وتعليمات فرعون في تعذيب المؤمنين.

ولما رأوا دعوةَ موسى تنتشر، وأمْرَه يشتدُّ ويقوىٰ، قاموا بتهييج فرعونَ ضدَّ موسى وأتباعِه، وكأنَّ فرعونَ يحتاجُ إلى مَنْ يهيِّجُه ويحثُّه على تعذيبهم!!.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧].

قالوا له: لا تتركْ موسى حُرّاً في نشر الدعوة، ولا تتركْ قومَه يؤمنون به أحراراً، فإنْ فعلْتَ ذلك فسوف يُفسدون في بلادك، وسوف يُقبلُ عليهم الناس، ويدخلون في دينهم، وبذلك يَنفضّون ويتخلّون عنك، ويتركون عبادتَك، فمَنْ يعبدُك بعدَ ذلك؟ فإذا كنتَ تريدُ المحافظةَ على خضوعِ الناس وعبادتِهم لك، فعليك أنْ تعذبَ موسى وقومَه المؤمنين وتضيقَ عليهم.

وردَّ فرعونُ على تهييجِ الملأ بأنه مدركٌ لخطورةِ موسى وقومِه المؤمنين، وأنه مهتمٌّ بهم، وسوف يحرصُ على حربهم ومواجهتهم، وذلك بأن يُقتِّلَ أبناءهم، ويتركَ نساءَهم للاستعبادِ والاستذلال والخدمة.

وطمأنَهم بأن الأمْرَ تحت يده، فهو قويٌّ قاهر، قادرٌ على حربِ هؤلاء والقضاء عليهم، وأنهم لن يَغلبوه.

متى قال الملأُ هذا القول؟

قالوه بعدما رأوا الآياتِ البينات، القاطعةِ بأنّ موسى رسولٌ من عند الله، وبعدما انتصرَ الإيمانُ وآمنَ السحرة، وآمنَ الرجلُ المؤمن، وبعدما ظهرَ للجميع كذبُ فرعون وافتراؤه، وبعدما هُزمَ فرعونُ أمامَ الحق!!

الملأ يرددون اتهامات فرعون لموسى:

مع كلِّ هذه الآيات أصرَّ الملأُ على كفرهم، وقاموا بتحريضِ فرعون على المؤمنين، لأنه طُمسَ على قلوبهم، فلا تتأثرُ بالآيات ولا تُقبلُ على الإيمان.

وما كان الملأُ إلاّ مُرَدِّدين لكلامِ طاغيتهم فرعون. فلما قالَ عن موسى إنه ساحرٌ كذاب، قالوا عن موسى إنه ساحرٌ كذاب.

ولما طلبَ فرعونُ قتلَ موسى لأنه يخشى إفسادَه في الأرض: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾، قالوا عن موسى وأتباعِه إنهم سيفسدون في الأرض: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ . . .﴾.

في تصوُّرِهم المقلوب: تأليهُ فرعون وعبادتُه هو الصلاحُ والإصلاح، أما الدعوةُ إلى تأليهِ الله، وإفرادِه بالألوهية والربوبية والعبادة والحاكمية، فهي الإفسادُ والفساد، ومَنْ دعا إلى ذلك فهو مفسدٌ في الأرض، ولذلك يجبُ القضاءُ على المؤمنين بتهمة الإفساد!!.

معنى قولهم لفرعون: «ويذرك وآلهتك»:

ونقفُ لحظةً أمامَ قول الملأ لفرعون: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾:

معناه: إنّ موسى وقومَه المؤمنين يعبدون الله، ولا يعبدونك ولا يعبدون آلهتَك، فإنْ سكَتَّ عنهم، فإنهم سيتركونك، وإنَّ موسى سيقضي على عبادتك وعلى عبادة آلهتك، لأن الناسَ عندها سيعبدونَ اللّهَ ربَّ العالمين.

ويعترفُ الملأُ بأنَّ لفرعونَ آلهةً يؤلّهُها ويعبدُها، «آلهةً» بالجمع، وليس إلٰهاً واحداً. وهي ما كان يؤمنُ به فرعونُ من الأصنام والأوثانِ والكواكب، ويعتبرها أرباباً آلهة.

وهذا اعترافٌ منهم بأن فرعونَ كان يعبدُ آلهة! ولا تَعارضَ بين كونه يَعبدُ آلهة، وبين تصريحِه بأنه إلهٌ لقومه.

دعا فرعونُ قومَه إلى تأليهه، وذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ..﴾ [القصص: ٣٨].

وأَخبرهم أنه ربُّهم الأعلى. قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ ..﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٤].

اعتبرَ فرعونُ نفسه إلهاً ورباً لقومه، ودَعاهم إلى عبادته، وكان له آلهةٌ يعبدُها ويؤمنُ بها.

أي: كانَ فرعون يَعْبُدُ ويُعْبَدُ!! ولا معارضةَ في ذلك!!

قال سيد قطب في الظلال: «إنَّ فرعونَ لم يكن يَدّعي الألوهيةَ بمعنى أَنه هو خالقُ هذا الكون ومدبرُه، أو أن له سلطاناً في عالمِ الأسبابِ الكونية. إنما كان يَدّعي الألوهيةَ على شعبه المستَذَلّ! بمعنى أنه هو حاكمُ هذا الشعب بشريعته وقانونه، وأنه بإرادته وأَمره تمضي الأمور...

كذلك لم يكن الناسُ في مصر يعبدون فرعون بمعنى تقديم الشعائرِ التعبدية له، فقد كانت لهم آلهتهم، وكان لفرعون آلهتُه التي يعبدها كذلك، كما هو ظاهرٌ من قول الملأ له: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، وكما يُثبتُ المعروفُ من تاريخ مصر الفرعونية، إنما هم كانوا يعبدونه بمعنى أنهم خاضعون لما يريدُه بهم، لا يعصون له أمراً، ولا ينقضون له شرعاً. وهذا هو المعنى اللغويُّ والواقعيُّ والاصطلاحيُّ للعبادة...

... ولقد كان فرعون إنما يستمدُّ هيبتَه وسلطانَه من الديانة التي تُعْبَدُ فيها هذه الآلهة.. بزعْمِ أنه الابنُ الحبيبُ لهذه الآلهة! وهي بنوّةٌ ليست حسية! فقد كان الناسُ يعرفون جيداً أنّ الفرعون مولودٌ من أبٍ وأمٍّ بشريّيْن. إنما كانت بنوّةً رمزية، يستمدُّ منها سلطانَه وحاكميتَه، فإذا عَبَدَ موسى وقومُه ربَّ العالمين، وتركوا هذه الآلهةَ التي يعبدُها المصريون، فمعنى هذا هو تحطيمُ الأساسِ الذي يَستمدُّ منه فرعونُ سلطانَه الروحيَّ على شعبه المستَخَفِّ...»[1].

تجاوبَ فرعونُ مع تحريضِ الملأ، وأعلنَ خطتَه في مواجهةِ موسى وأتباعه، إنها تقتيلُ أبناء المؤمنين، واستحياءُ نسائهم، وهذه الخطةُ عودةٌ منه للخطةِ السابقة التي اعتمدها فرعونُ في مواجهةِ بني إسرائيل قبل ولادة موسى عليه السلام.

تقتيل أبناء المؤمنين واستحياء نسائهم مرتين:

وهذا معناه أنَّ تقتيلَ وتذبيحَ فرعون أبناء بني إسرائيل واستحياءَ نسائهم كان قد وقع مرتين:

المرة الأولى: قبلَ ولادةِ موسى عليه السلام، وذلك ليحولَ بين بني إسرائيل وبين العزة، وليُبقيهم مستعبَدين له. وأشارتْ إلى هذا عدةُ آياتٍ قرآنية، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ

---

(١) في ظلال القرآن ٣:١٣٥٣ ـ ١٣٥٤ باختصار.

سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

المرة الثانية: بعدما آمنَ الناسُ بموسى، وذلك ليصدَّهم فرعونُ عن الإيمان به ومتابعته.

ودليلُ هذا التقتيلِ والاستحياءِ الثاني قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر: ٢٥].

ودليلُه أيضاً هذه الآية: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

ومعنى قول فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾: نحن قادرون عليهم، نتحكمُ فيهم ونقهرُهم ونُذلُّهم ونُخضعُهم، إنهم لا يقهروننا ولا يغلبوننا، فالأمنُ مستتب، والوضعُ مسيطرٌ عليه، ولا يشكِّلون خطراً علينا..

ونفذَ فرعونُ خطتَه وتهديدَه، وصبَّ على بني إسرائيل ظلمَه وإفسادَه وطغيانَه، وكان يقتِّلُ أبناءهم ويستحيي نساءهم، لا لذنبٍ ارتكبوه إلاّ لأنهم آمنوا باللّهِ العزيزِ الحميد.

آمن بموسى شبان بني إسرائيل وليس كبارهم:

وأدّى البطشُ الفرعونيُّ إلى تردُّدِ رجالِ بني إسرائيل في الإيمان، بل وتراجعهِم عنه، طلباً للنجاة بأنفسهم، وكان الذين آمنوا بموسى في هذه المرحلة هم فتيانَ وشبابَ بني إسرائيل!!

قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس: ٨٣].

الراجحُ أنَّ الكلامَ في الآية على الذين آمنوا بموسى من بني

إسرائيل، وليس من المصريين. والراجحُ أن الهاءَ في «قومه» تعودُ على موسى عليه السلام. أي: ما آمنَ لموسى واتبعه إلا الذريةُ الفتيانُ الشبانُ من بني إِسرائيل.

أما الرجالُ الكبارُ من بني إسرائيل فلم يؤمنوا بموسى في البداية، لأنهم كانوا يخافون من فرعون وملئه، يخافون أنْ يَفتنوهم ويُعذبوهم ويقتلوهم، ولهذا تركوا الإيمانَ في أول الأمرِ خوف الفتنة والقتل: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾.

وكان رجالُ بني إسرائيل الكبار يخافون الفتنةَ والقتلَ من فرعون، لأَنهم يعرفونَه، عالياً مستكبراً في الأرض، وظالماً جباراً باغياً على الناس، ومفسداً مسرفاً في سفك الدماء: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

إنَّ الرجالَ الخائفين يفكرون كثيراً قبلَ أنْ يختاروا الإيمان، لأَنهم يَخافون البطشَ والأذى، فيُؤْثِرون السلامةَ على الإيمان. أما الشبان الصادقون فإنَّ اللّهَ قد غرسَ فيهم الهمةَ والإرادة، والاندفاعَ والحماسة، فيُقبلون على الإيمان، مهما انتظرهم من خطرٍ وتهديد!

هذه هي طبيعةُ الشباب والكبار غالباً، ولهذا نرى الدعواتِ الصادقةَ تقومُ على أكتافِ الشباب في البداية، ولا يأتيها الكبارُ إلاّ بعدما تستقرُّ ويصلبُ عودُها وتنتصرُ على أعدائها.

وإذا كان هذا هو موقفُ الشباب والكبار من الدعوات غالباً، في مرحلة التأسيس، فلا عجبَ أنْ نرى تراجعَ رجالِ بني إسرائيل عن الإيمان في بداية الأمر، نظراً للثمنِ الباهظ المترتب عليه، بينما اندفعَ الفتيةُ المتحمسون الصادقون نحو الإيمان، وتحملوا ما تحملوا من طغيان فرعون!!

موسى يوصي المؤمنين بالصبر والثبات:

توجَّهَ موسى إلى هؤلاء الشباب الرجال، المختارين للإيمان رغم

ارتفاع الثمن ومشقة الطريق، توجَّه إليهم مثبِّتاً مصبِّراً، يدلُّهم على الزادِ الذي يتزوَّدون به، والمددِ الذي يستمدون منه. قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

الزادُ هو الاستعانةُ بالله، والصبرُ على مشقةِ الطريق.

الاستعانةُ بالله ليستمدوا منه المدد، وليعتمدوا على قوتِه وحفظِه ورعايته، وليستهينوا بفرعون وبطشِه وجبروته.

والصبرُ هو ثباتُهم على الحق، وعدمُ تراجعهم عنه، مهما وُجِّهَ لهم من تهديدٍ ووعيد، ومهما صُبَّ عليهم من تعذيبٍ وترهيب.

وقد قرنَ القرآنُ بين الاستعانةِ بالله والصبر على اختيار طريق الله، فهما زادٌ ضروريٌّ لكل صادقٍ في السيرِ إلى الله.

إنه ليس لهؤلاء الرجالِ الشبان إلا الله، فهو الذي يستعينون به ليحميهم مِنْ فرعونَ وملئه، وهم يطلبونَ منه أنْ يُفرغَ عليهم صبراً، كما طلب السحرة ذلك من قبل، عندما قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

حقيقة إيمانية: الأرض لله والعاقبة للمتقين:

وبعدما وضعَ موسى أيديهم على الزادِ قدَّمَ لهم حقيقةً إيمانية قاطعة، أَتْبَعَها بسنةٍ ربانية مطردة. قال لهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ مالكِ السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، ومُلْكُ مصرَ في الحقيقةِ لله، واللّهُ هو الذي منحَ ملكَها لفرعون امتحاناً واختباراً، وإذا لم يؤمنْ بالله، فسوف يسلبُه ملكَه، ويمنحه لغيره.

وبما أنَّ الأرضَ لله، فإنه هو الذي يورثُها مَنْ يشاءُ من عباده، ويمنحُها له، ثم ينزعُها منه ويورثُها غيرَه، يفعلُ هذا بحكمته ومشيئته

سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

إنَّ موسى عليه السلام يقدمُ من خلال هذه الحقيقةِ الإيمانية بشرى وأملاً لأتباعه المؤمنين، بأنَّ اللّهَ سيورثُهم ملكَ الأرض، وهذا معناه أنَّ مرحلةَ الاضطهاد والتعذيب ستنتهي، وستعقبها مرحلةُ الإنعامِ والرخاءِ من الله، حيث سيملكُهم الأرضَ ويورثُها لهم.

والسنةُ الربانيةُ المطردة هي: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. فالصراعُ مستمرٌّ بين المتقين والكافرين، وهذا الصراعُ له جولاتٌ وجولات، قد يتغلبُ الكافرون على المؤمنين في بعضها، ولكنَّ العبرةَ بالنتائج والخواتيم، فالغلبةُ في النهايةِ للمؤمنين، والعاقبةُ للمتقين.

فإذا ما واجه الشبانُ المؤمنون أذى واضطهادَ فرعون في هذه المرحلة، فلْيَصبروا ويستعينوا بالله، لأن العاقبةَ لهم.

كبار الإسرائيليين يتبرمون بموسى وهو يرد عليهم:

وبينما كانَ الشبانُ الرجال يدفعون ثمنَ إيمانهم، ويتلقَّوْن أذى وتعذيبَ فرعون وملئه، كان الكبارُ من بني إسرائيل يلومون ابنَهم موسى عليه السلام، ويتبرَّمون منه ومن رسالته، ويعتبرون وجودَه سبباً في زيادةِ تعذيبِ فرعون لهم. قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩].

قالوا له: كان فرعونُ وملؤه يعذبونَنا ويؤذوننا مِنْ قبلِ أنْ تأتينا، وها هم ما زالوا يعذبوننا ويؤذوننا بعدما جئتنا، وبعدما بعثَك اللّهُ نبياً، وأعطاك الآياتِ والمعجزات، فما الذي تغيَّرَ بقدومك؟ لم يتغيرْ شيءٌ نحو الأحسن؟ فما زال العذابُ والتقتيلُ مصبوباً علينا! فماذا استفدْنا منك ومن نبوتك؟؟

وهذا التبرمُ منهم يكشفُ عن طبيعتهم العجيبة، فهم لا يريدون أن يتحملوا المسؤولية، ولا يَدفعوا ثمنَ النصر والتمكين، وإنما يريدونَه نصراً سهلاً وتمكيناً ميسوراً، بدون جهدٍ ولا مواجهة، ولا ثباتٍ ولا تضحية.

وقد ردَّ موسى على شكوى ولوم هؤلاء بأنْ فتحَ لهم بابَ الأملِ والرجاء، ودعاهم لاستشرافِ المستقبلَ المشرق، وتحمُّلِ مسؤوليتِهم وأَداء واجبهم، ليصلوا إليه مؤمنين مجاهدين ثابتين: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

ويَحملُ كلامُ موسى عليه السلام دلالةً هامة، يلاحظُها مَنْ يتابعُ تاريخَ بني إسرائيل فيما بعد، بعدَ دخولهم الأرضَ المقدسة.

فهو يقولُ للشبانِ المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ..﴾.

وهذا ردٌّ على ادعاءاتِ الإسرائيليين ـ واليهود من بعدهم ـ بأنَّ اللّهَ أعطاهم الأرضَ المقدسة لأنهم من نسلِ إبراهيمَ ويعقوبَ عليهما السلام، وأَنها ستبقى لهم حتى قيامِ الساعة، وأنه لا ينزعُها منهم مهما فعلوا، فموسى يقولُ لهم قبلَ وصولهم الأرضَ المقدسة، إنَّ الأرضَ المقدسة ـ كباقي بقاع الأرض ـ لله، وليستْ لهم، وإنَّ اللّهَ يمنحُها لمن يشاءُ من عباده، إذا كانوا متقين صالحين، وهذا معناه أَنهم إنْ لم يكونوا متقين فسيسلبُهم اللّهُ الأرضَ المقدسة.

وموسى عليه السلام يقولُ للرجال الإسرائيليين: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. وهذا تأكيدٌ لما قالَه للشبان، فإنَّ اللّهَ سيستخلفُ الإسرائيليين في الأرض المقدسة، ويمكنهم فيها، من باب الامتحانِ والاختبار، لينظرَ أعمالَهم بعد الاستخلافِ والتمكين. فإنْ وَفوا بالشروطِ المطلوبة للاستخلاف، وشكروا اللّهَ عليه، أَبقاهم فيها، وإنْ نقضوا العهدَ وخالَفوا الشروط، وعملوا المنكرَ والباطل، فإن اللّهَ سيحرمُهم منها. وهذا ما حصلَ منهم وحصلَ لهم فيما بعد!

موسى يعرض الموادعة وفرعون يرفضها:

ومضتْ فترةٌ على هذا الوضع، موسى عليه السلام ينشطُ في دعوتِه، والشبانُ الصادقونَ من بني إسرائيل يستجيبون له، والرجالُ الكبارُ يتبرَّمون منه ويلومونه، وتعذيبُ فرعونَ وملئِه يزدادُ ضدَّ المؤمنين الإسرائيليين، وموسى يُصبِّرهم ويثبِّتهم!

وأرادَ موسى عليه السلام أنْ يكونَ نوعٌ من المهادنةِ والموادعةِ بينه وبين فرعون، لتخفَّ حدةُ المواجهة، ويتمكنَ من تربيةِ وتقويةِ أتباعه المؤمنين.

طلبَ موسى عليه السلام من فرعونَ وملئِه أنْ يعتزلوه، وأنْ يَدعوه مع أتباعه. قال الله عز وجل: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٢١].

لقد طلبَ موسى عليه السلام من فرعون وملئه أنْ يُرسلوا معه بني إسرائيل، وأنْ يُسلموهم له، ولهذا قال: ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧].

وطلبَ منهم أنْ لا يَعلوا ولا يتكبَّروا على الله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾.

ولكنهم لم يَستجيبوا لطلبه، فلم يُرسلوا معه بني إسرائيل، واستعلوا على الله ولم يَخضعوا له، وهَددوا موسى بالتعذيبِ والرجم، فلجأَ موسى إلى الله، ناصرِه وحاميه، واستعاذَ به من شرهم: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾.

وهذا درسٌ إيمانيٌّ ضروريٌّ لكل مؤمنٍ يواجهُ الباطل، فعندما يستكبرُ أصحابُ الباطل على الله، ويؤذون المؤمنَ الصالح، فعليه أنْ

يعوذَ بالله ويلجأَ إليه، ويرجوه حفظَه وعنايتَه ورعايتَه، فهو الذي يحميه منهم، ويُعيذُه من شرهم.

وطلبَ موسى عليه السلام من فرعون وملئه أنْ يعتزلوه وقومَه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾.

يقول لهم: بما أنكم لم تؤمنوا لي، وأَصررتم على الكفر والتكذيب، فَدَعوني مع مَنْ آمنَ بي، واعتزلونا واتركونا، وارفعوا عنا تعذيبَكم واضطهادَكم، وكفّوا شرَّكم عنا، وانتظروا ما سيكونُ في المستقبل.

وهذه دعوةٌ من موسى إلى مهادنتِهم وموادعتِهم، ليوقفَ شَرَّهم وبطشَهم، وليُقبلَ على أتباعِه بالتربية والتثبيت والإعداد.

ولكنَّ القومَ الجبارين الظالمين لم يَقبلوا هذه الموادعةَ والمهادنة من موسى عليه السلام، ولم يَتركوه مع قومه، ولم يعتزلوه، وإنما استمروا في تطبيقِ خطتهم الخبيثة في حرب المؤمنين.

وهذه هي طبيعةُ الطغاةِ الظالمين، حيث لا يَقبلون مهادنةَ ولا موادعةَ ولا مسالمةَ دعوةِ الحق، واعتزالَ أصحابِها، إلا لتحقيقِ مكاسبَ ومصالح لهم في ذلك، فإنْ لم تكن لهم مصلحةٌ من المسالمةِ والموادعة، استمروا في المواجهةِ العنيفة، بهدفِ طمس نورِ الحق وسحقِ رجاله.

موسى يطلب من أتباعه التوكل على الله:

أَقبلَ موسى عليه السلام على أَتباعه المؤمنين يُربّيهم، ويُعمقُ فيهم معاني الإيمان والثبات، ويطلبُ منهم التوكلَ على الله، والصبرَ على ما يواجهونه في سبيل الله. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٦].

يأمُرُ موسى عليه السلام أتباعَه أنْ يُحسنوا التوكلَ على الله، وتفويضَ أمورِهم إلى الله، لأنهم يواجهون كفاراً عتاةً جبابرة، ولا يُثبِّتُهم أَمامهم إلاّ الله، ولا ينجيهم منهم إلاّ الله.

والتوكلُ على الله من معالمِ الإيمان الأساسية، ولا يَجوزُ أنْ يتركه المؤمنُ لحظةً من حياته، وبخاصةٍ إذا كان يواجهُ الباطل الحاقدَ المتنفش.

ومَنْ توكلَ على الله بصدقٍ فإن الله سيحفظُه ويَحميه، ويرعاه ويكفيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وكما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الزمر: ٣٦ - ٣٧].

وقد تجاوبَ المؤمنون مع دعوةِ موسى عليه السلام، وأَعلنوا توكُّلَهم على الله، وتضرُّعَهم إليه: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

متى يكون المؤمنون فتنة للكفار؟:

طلبوا من الله أنْ ينجيهم من فرعون وملئِه، ووصفوهم بالظلم والكفر، وسأَلوه أنْ لا يَجعلهم فتنةً لهؤلاء الكافرين الظالمين.

قال مجاهد: معنى ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: لا تُعذِّبْنا بأيدي آلِ فرعون، ولا بعذابٍ من عندك، فيقولُ قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عُذِّبوا ولا سُلِّطْنا عليهم، فيُفتنوا بنا.

وعلقَ الإمامُ ابنُ كثير على كلام مجاهد فقال: المعنى: لا تُظْفِرْهم بنا، ولا تسلِّطْهم علينا، فيظنوا أَنهم إنما سُلِّطوا علينا لأنهم على الحقِّ ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك[١].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢: ٤١٠.

وهذا الدعاءُ من المؤمنين يدلُّ على فطنتِهم وحكمتهم، فالأصلُ في المؤمنين أن يكونوا دعاةً للآخرين، وأنْ يُقدموا لهم الدعوةَ بالكلامِ والمواقفِ والسلوك والممارسات، وأنْ يَعيشوا دينَهم بعزةٍ وكرامة، وصدق والتزام، حتى لو كانوا مضطهدين!

فإذا ما نظرَ إليهم المراقبون أُعجبوا بمواقفِهم الصادقةِ الثابتة، وعَلموا أنَّ دينَهم هو الحق، لأَنه دفعهم إلى هذه المواقف، وبذلك يكون المؤمنونُ دعاةً بمواقفهم، وقدواتٍ بسلوكهم، يُقدِّمون شهادةً عمليةً لدينهم.

فإذا لم يكن المؤمنون كذلك كانوا فتنةً للذين كفروا. إذا لم يثبتوا على الحق، وضعفوا أمامَ أصحاب الباطل، وتراجعوا عن دينهم، ورَضوا أنْ يستذلَّهم ويستعبدَهم الكفار، كانوا فتنةً لهم، وقدموا شهادةً سيئةً لدينهم، حيث سيقولُ الكفار: ما هذا الدين الذي أَفرزَ هؤلاء؟ لو كان صحيحاً لانعكسَ على حياةِ المؤمنين به، ولارتقى بهم نحو القمة، إنَّ واقعهم السيء دليلٌ على أنهم على باطل، ودينَهم باطل.

وبذلك يكونون قد صَرَفوا الآخرين عن دينهم، بسببِ واقعِهم السيء، وبذلك يكونون فتنةً للكافرين الظالمين.

وطلبُ المؤمنين بموسى عليه السلام أن لا يكونوا فتنةً لأعدائهم الظالمين الكافرين، كطلبِ المؤمنين بإبراهيم عليه السلام من قبلهم، الذي ورد في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٥].

استمرَّ اضطهادُ فرعون وملئِه للمؤمنين، وتعذيبُهم وقتلُهم، وواجَهَ المؤمنون هذا بصبرٍ وثبات، واعتصامٍ باللّه، وتوكلٍ على الله.

التربية السرية وصلاة الإسرائيليين في بيوتهم:

وأَوحى اللّهُ إِلى موسى وهارون عليهما السّلام أنْ يُربيا أتباعَهما في بيوتهم بصورةٍ سرية، لا تُلفتُ أنظارَ آل فرعون. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ٨٧].

وهذه الخطوةُ السريةُ من أجلِ المحافظة على هؤلاء المؤمنين، فاتخذَ موسى وهارونُ عليهما السلام لهم بيوتاً خاصةً في مصر، بيوتاً بعيدةً عن عيون المراقبين الراصدين، بيوتاً سريةً يقيمونَ فيها، ويتربّون فيها، ويعبدونَ اللّهَ فيها.

وقد أَذنَ اللّهُ للمؤمنين في هذه الفترةِ الحرجةِ الشديدة من الاضطهادِ والتعذيب أنْ يُؤَدوا عباداتِهم في هذه البيوتِ السرية، ويَجعلوها قبلة، ويُقيموا الصلاةَ فيها: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ . .﴾.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾: أُمِروا أنْ يتخذوا بيوتَهم مساجد.

وقال مجاهد وغيره: كانوا خائفين، فأُمِروا أن يُصلّوا في بيوتهم. .

وفي روايةٍ أُخرى عن ابن عباس قال: قالتْ بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: لا نستطيعُ أنْ نُظهرَ صلاتَنا أمامَ الفراعنة. فأذنَ اللّهُ لهم أنْ يصلّوا في بيوتهم، وأُمِروا أن يجعلوا بيوتَهم جهةَ القبلة.

وفي روايةٍ أُخرى عن مجاهد قال: لما خافَ بنو إِسرائيل من فرعون أنْ يُقتلوا في الكنائس الجامعة أُمِروا أنْ يجعلوا بيوتَهم مساجد مستقبلةً للقبلة، يصلّون فيها سراً[1].

وعلق سيد قطب على معنى الآية وفهمِ السابقين لها بقوله:

---

(١) تفسير ابن كثير ٢: ٤١٠.

«وتلك هي التعبئةُ الروحيةُ إلى جوارِ التعبئة النظامية، وهما معاً ضروريان للأفرادِ والجماعات، وبخاصة قبيلَ المعارك والمشقات. . .

وهذه التجربةُ التي يعرضُها اللّهُ على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة، ليست خاصةً ببني إسرائيل، فهي تجربةٌ إيمانيةٌ خالصة.

وقد يجدُ المؤمنون أنفسَهم ذاتَ يوم مطارَدين في المجتمع الجاهلي، وقد عمت الفتنة، وتجبَّرَ الطاغوت، وفسدَ الناس، وأنتنت البيئة ـ وكذلك كان الحالُ على عهدِ فرعون في هذه الفترة ـ وهنا يرشدُهم اللّهُ إلى اعتزالِ الجاهليةِ بنتنِها وفسادِها وشرِّها ـ ما أمكنَ في ذلك ـ وتجمُّع العصبةِ المؤمنة الخيرةِ النظيفةِ على نفسها، لتطهِّرَها وتزكّيها، وتدرِّبَها وتنظمها، حتى يأتيَ وعدُ اللّهِ لها. .»(1).

أخذ آل فرعون بالسنين ونقص الثمرات:

وأمامَ ازديادِ بطشِ وتعذيبِ فرعون وملئه للمؤمنين بموسى عليه السلام قدَّمَ اللّهُ لهم آياتٍ جديدة، تدلُّ على الحقِّ وأنه مع موسى ومَنْ معه، ليقيمَ عليهم الحجة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣١].

أَخَذَ آلَ فرعون بالسنين ونقصِ الثمرات، لعلهم يتذكرون.

و«السِّنين» جمعُ سَنَة. والمرادُ بها سنواتُ المحلِ والقحط والجدب، حيث ينحبسُ المطر، وتنقصُ المياه، ويتأذى الناسُ كثيراً بذلك.

و«نقص الثمرات» هو ما ينتجُ عن المحلِ والقحط، حيث تصابُ

---

(1) في ظلال القرآن ٣:١٨١٦.

الزّروعُ بالآفات، ولا تحملُ الأشجار ما كانت تحملُه من الثمرات، فتكونُ ثمراتُها قليلةً ناقصة.

وكان ما أَوقعه اللّهُ بآل فرعون من السنين ونقص الثمرات آيةً بينةً لهم، لو أَنهم فتحوا عقولَهم وقلوبَهم لها، لأنَّ مصرَ أرضٌ زراعيةٌ خصبة، غزيرةُ المياه التي تأتيها من نهرِ النيل، كثيرةُ الزروع والثمرات، وسنواتُ الخصبِ والرخاء تأتيهم متوالية. فإذا ما أَصابتْهم السنينُ ونقصُ الثمرات فعليهم أنْ يفكِّروا، وأنْ يحاولوا تعليلَ ذلك وبيانَ أَسبابه، بتذكُّرِ ما يفعلونَه من كفرٍ بالله، وتعذيبٍ لأوليائه المؤمنين، وعليهم أنْ يَعرفوا الآثارَ الخطيرةَ المترتبةَ عليهم في حياتهم واقتصادهم وبلادهم.

إِنهم إنْ فعلوا ذلك فسوفَ يتذكَّرون ويعتبرون، وبذلك يتخلَّون عن ما هم فيه من كفرٍ وظلم وعدوان.

ولكنهم لم يفعلوا ذلك، أي: لمْ يَعتبروا بهذه الآيات، ولم يَعرفوا حقيقةَ وهدفَ الامتحان والبلاء الذي أَوقعه الله بهم، لأن قلوبَهم مغلقة، وعيونَهم مطموسٌ عليها، وعقولَهم مغيبة، فلا يستفيدون مما أَوقعه اللّهُ بهم.

وهكذا أَصحابُ القلوبِ المغلقة من الكافرين والظالمين والغافلين في أيِّ زمانٍ ومكان، لا يَعتبرون مما يوقعُه اللّهُ بهم، ولا يتذكَّرون مما يقدِّمُه اللّهُ لهم، كما قال اللّهُ عنهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥]. وقالَ عنهم: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: ١٢٦].

قوم فرعون يتطيرون بموسى ومن معه:

تعاملَ آلُ فرعون مع آياتِ الله وابتلائه لهم بقلوبٍ مطموسة مغلقة، فإنِ ابتلاهم اللّهُ بالحسنة، وقدَّمَ لهم الرخاءَ والنعمة، اعتبروها

من سعيهم وكدِّهم، وثمرةً لحسنِ تخطيطهم، ونتاج عقولهم، واغتروا بها فرحين: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ . . .﴾.

وإنِ ابتلاهم اللّهُ بالسيئة، وأحلَّ بهم المحلَ والقحط، نسبوا هذا إلى موسى عليه السلام ومَنْ معه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

و«التطيُّر» هو: التشاؤم، وذلك بأنْ يتشاءَمَ الإنسان، ويعتقدَ أنَّ الشرَّ الذي أَصابَه إنما كان بسببِ فلان، وليس بتقديرِ وإرادةِ من الله.

لقد اعتبرَ فرعونُ وملؤُه موسى وأتباعَه المؤمنين سببَ ما حلَّ بهم من نكباتٍ ومصائب، وأساسَ ما وقع بهم من بلاءٍ وسوء. فهم في نظرِهم نذيرُ شؤم، ورسلُ خراب، ولهذا كانوا يتشاءَمون ويتطيرون بهم، ويَزيدون من اضطهادِهم وتعذيبهم.

وردّت الآيةُ تشاؤُمَهم وتطيرَهم بأنَّ ما أَصابهم فهو من الله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾. فاللّهُ هو الذي يُقدِّرُ ما يشاء، ويوقعُ بهم ما يشاء، ويعاقبُهم بما يشاء.

وإنما أَصابَهم بالسيئة جزاءً لهم، بسببِ ما ارتكبوه في حق المؤمنين من شرورٍ ومصائب، فهم السببُ في ما أَصابهم، وليس موسى ومَنْ معه.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: مصائبهم عندَ الله، تصيبُهم من قِبَلِ الله..[١].

وتطيُّرُ الكافرين بأصحابِ الحق وتشاؤُمُهم منهم خُلُقٌ جاهليٌّ مطردٌ فيهم، على اختلاف الزمان والمكان، حيث يعتبرونَ أصحابَ الحق هم السببَ في ما أصابهم من المصائب والنكبات.

فقد تطيَّرَ قومُ ثمود بصالح عليه السلام ومَنْ معه من المؤمنين،

---

(١) تفسير ابن كثير ٢: ٢٣٠.

فردَّ عليهم بأن طائرَهم عند الله. قال تعالى: ﴿قَالُواْ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧].

وهنا تطيَّرَ آلُ فرعون بموسى عليه السلام ومن معه، فردَّ اللّهُ عليهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وهذا ما ردَّ به الرسلُ الثلاثةُ على تطيُّرِ أهلِ القرية الكافرين بهم. قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٨ ـ ١٩].

ملأ فرعون يضحكون من آيات الله المتتابعة:

لم يتفاعل الملأُ من قومِ فرعون بالآيات والابتلاءات من الله، وكانوا يضحكونَ منها. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَاۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف: ٤٦ ـ ٤٨].

وانظرْ إلى غفلةِ وضلالِ القوم، إن اللّهَ يُعطيهم الآيات ويوقعُ بهم العقوبات، لعلَّهم يَستيقظون ويَعتبرون ويَتعظون، ويتخلَّون عن الكفر، ويَرفعون العذابَ عن المؤمنين. ولكنهم يضحكونَ من آياتِ الله، ويتندَّرون عليها، وكأنَّها أمرٌ مُسَلٍّ يدعو إلى التسليةِ والضحك والسخرية!!

وأكثرَ اللّهُ عليهم الآيات، وكلُّ آيةٍ أكبرُ مما قبلَها، وموقفُهم منها هو هو، لم يتغير: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَاۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وما نَفعُ الآياتِ والتنبيهاتِ مع مَنْ يستقبلونها بقلوبٍ مغلقة،

وعيونٍ مطموسة؟ وصدقَ اللّهُ القائل: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقولُه: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ مجمل، يُشيرُ إلى الآياتِ الكثيرة، التي أعطاها اللّهُ لهم، لكنه لم يذكُرْها.

آتى الله موسى تسع آيات:

وهذه الآياتُ المجملةُ هنا مبينةٌ في مواضع أخرى من القرآن، إنها تسعُ آيات.

قال تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ..﴾ [الإسراء: ١٠١].

آتى اللّهُ موسى عليه السلام تسعَ آياتٍ بينات، موجَّهةٍ إلى فرعون وقومه، تدلُّ على أنه رسولٌ من عند الله.

من هذه الآياتِ آيتان معجزتان بيِّنتان، قدَّمهما موسى لفرعون لما قابلَه أولَ مرة، وهما العصا واليد، وقد تكلّمنا عنهما في المباحثِ السابقة.

ويُشيرُ إلى هاتين الآيتيْن قولُ الله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢﴾ [النمل: ٩ ـ ١٢].

ويدلُّ قولُه: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ على أنَّ العصا واليدَ آيتان ضمنَ تسعِ آياتٍ إلى فرعون وقومه.

العصا واليد معجزتان للتحدي:

وهاتان الآيتان قدمهما موسى عليه السلام، واعتبرهما دليلاً له على نبوتِه، لأنهما خارقتانِ للعادة.

ونَعرفُ أنَّ تعريفَ المعجزة هو: هي الأمرُ الخارقُ للعادة، يُجريه اللّهُ على يدِ النبي تصديقاً له في دعوى النبوة.

وعندما تكونُ هذه المعجزة ـ الآية ـ موجهةً إلى الكفار فإنها تكون مقرونةً بالتحدي، حيث يتحداهم النبيُّ أنْ يأتوا بمثلها أو ينقضوها، وعند ذلك يَعجزون، لأنَها من فعلِ الله الذي لا يُنْقَض، فتثبتُ الدعوى بهذه المعجزة، وهي أنَّ مَنْ جرتْ على يديه المعجزةُ رسولٌ من عند الله!!

وهذا ما حصلَ مع موسى عليه السلام، فلما تحدّاه فرعونُ بحشدِ السحرة على اعتبارِ أنه ساحر، وألقى السحرةُ حبالَهم وعصيَّهم، ألقَى موسى عصاه، فلقفتْ حبالَهم وعصيَّهم.

فالعصا واليدُ أوضحُ آيتين من التسعِ آيات، لأنهما معجزتان مقرونتان بالتحدي، والهدفُ منهما إثباتُ نبوةِ موسى عليه السلام.

وبعدما ثبتَ لفرعون وقومِه نبوةَ موسى عليه السلام من خلال آيتي العصا واليد، كان الأصلُ أنْ يتجاوَبوا معهما، وأنْ يؤمنوا بموسى عليه السلام، لأن الحجةَ قامَتْ عليهم. ولكنهم كفروا عناداً وليس جهلاً، وحاربوا موسى عليه السلام وأتباعَه.

السبع آيات الأخرى ليس فيها تحدّ:

فلما ازدادَ بطشُ فرعون وملئِه بالمؤمنين وتعذيبُهم لهم، قدَّمَ اللّهُ لهم سبعَ آياتِ أُخرى، وهي الباقيةُ من الآيات التسع. فما هي الآياتُ السبع؟

هي المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣٥].

ما هي الآياتُ المذكورةُ هنا؟.

هي: السنين، ونقصُ الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، والرجز..

الحقيقةُ أنَّ الآياتِ سبعةٌ وليست ثمانية، والرِّجْزُ ليس آيةً مستقلةً تُضافُ لما قبلها، ولكنه بيانٌ لتلكَ الآيات، لأنَّ الرجزَ هو العذاب، والعذابُ هو ما أَوقعه اللّهُ بفرعون وقومِه، وهو الآياتُ السبع: السنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم.

وكان قبلَ هذه الآيات السبع آيتان معجزتان، وهما العصا واليد. فيكونُ المجموعُ «تسعَ آيات».

الآياتُ السبعُ المذكورةُ في سورة الأعراف لم تكن معجزاتٍ يُرادُ بها التحدي، كالعصا واليد، وإنما هي «ابتلاءاتٌ» من الله لفرعون وقومِه، وعذابٌ أَوقعه بهم وصَبَّه عليهم، بسببِ بطشِهم ببني إسرائيل وتعذيبِهِم لهم. فعذَّبهم اللّهُ بهذه الآياتِ والابتلاءات السبع، لتستيقظَ قلوبُهم، ويَعرفوا ربَّهم، ويُدركوا أَنه عقابٌ منه لهم، وأنه لا نجاةَ لهم إلاّ بالإيمانِ بالله، ورفعِ العذاب عن المؤمنين.

وهذه الآياتُ السبعُ يبدو أَنها متتابعةٌ في وقوعها، حسبَ ذكْرِها في آياتِ سورة الأعراف، ولْننظرْ فيها واحدةً واحدة.

السنين ونقص الثمرات:

الأولى: السّنين. وهي جمعُ «سَنَة»، والمرادُ بها سنةُ الجدبِ والقحطِ والشدة والمحل، حيث تنحبسُ الأمطار، وتقلُّ المياه في الأنهار.

لقد ابتلى اللّهُ آلَ فرعون بسنواتِ المحلِ والجدبِ، عقاباً لهم على تعذيبهم لبني إسرائيل، ولكنهم لم يرتدعوا.

الثانية: نقصُ الثمرات: وهي نتيجةٌ للآية الأولى، فعندما تنحبسُ الأمطارُ وتقلُّ المياه، تجفُّ وتيبسُ المزروعات، وتنقصُ ثمراتُ الأشجار.

فأُصيبَ قومُ فرعون بنقصٍ في ثمراتهم، أدى إِلى ضعفٍ في حياتهم المالية والاقتصادية والغذائية.

وهاتان الآيتان الربانيتان هما المذكورتان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ . .﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وبدلَ أنْ يعتبرَ آلُ فرعون بهاتين الآيتين ازدادوا كفراً وعناداً وتكذيباً، واعتبروا موسى عليه السلام ساحراً يُريدُ أنْ يَسحرهم. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾ [الأعراف: ١٣٢].

الطوفان والجراد:

وبما أَنهم لم يعتبروا بالآيتيْن: سنين المحل ونقصِ الثمرات، ولا بالمعجزتيْن قبلَهما العصا واليد، فقد أَرسلَ اللّهُ عليهم آياتٍ أُخرى من بابِ إِقامة الحجة عليهم.

الثالثة: الطوفان: حيثُ أَجرى اللّهُ عليهم الماءَ طوفاناً، بعدَ سنواتٍ من الجدبِ ونقص الثمرات.

قال الإمامُ الراغبُ عن الطوفان: «الطوفان هو كلُّ حادثةٍ تحيطُ بالإنسان. . وصارَ متعارَفاً في الماء، المتناهي في الكثرة، لأجْلِ أنَّ

الحادثةَ التي نالَتْ قومَ نوح كانت ماء...»[1].

لقد جعلَ اللّهُ الطوفان آيةً وابتلاءً وتعذيباً لهم، ففي السابق ابتلاهم وعَذَّبهم بنقصِ المياه، والآنَ عَذَّبهم بكثرةِ المياه، وهو سبحانه حكيمٌ فيما يبتليهم به، وما يعلمُ جنودَ ربك إلا هو.

الرابعة: الجراد: والجرادُ معروف، وهو آفةٌ ماحقةٌ تُبيدُ المزروعات والثمار.

قالَ الإمامُ الراغب في معناه واشتقاقِه: «ويَجوزُ أَنْ يُجْعَلَ الجرادُ أصلًا، فيشتَقّ من فعله جَرْدُ الأرض. ويصحُّ أنْ يقال: إنما سميَ بذلك لأنه يَجردُ الأرضَ من النبات.

يقال: أَرضٌ مجرودة: أي: أكلَ الجرادُ ما عليها حتى تجردت...»[2].

أي أنَّ الجرادَ سميَ بذلك لأَنه يجردُ الأرض، ويُزيلُ ما عليها من نبات.

فبعدما أرسلَ اللّهُ الطوفانَ على آل فرعون، وزالَ الفيضان، كانَ الموسمُ الزراعيُّ جيداً، فاستغلّوا ذلك بالزراعة، ولا سيما أَنه مرتْ بهم سنواتٌ سابقة من المَحْلِ ونقصِ الثمرات.

ولما زرعوا أَراضيهم ونبتَ زرعُهم فرحوا واستبشروا، فأرسلَ اللّهُ عليهم هذه الآيةَ الرابعة، حيث سلطَ عليهم أَسرابَ الجراد، فأكلتْ مزروعاتهم، وقضتْ بذلك على آمالِهم.

القمّل والضفادع والدم:

الخامسة: القُمَّل: بضمِّ القاف وتشديدِ الميم. ولم تَرِد «القُمَّل» في غير هذا الموضع من القرآن.

---

(١) المفردات: ٥٣٢.

(٢) المرجع السابق: ١٩١.

قال الإمام الراغب: «القُمَّل: صغارُ الذباب. والقَمْلُ ـ بإسكان الميم ـ معروف»[1].

والمرادُ بالقُمَّلِ في هذا الموضع «السوس» الذي يصيبُ السنابلَ والحبوب ويقضي عليها.

قال ابن عباس: القُمَّلُ هو: السوسُ الذي يَخرجُ من الحنطة، وقال بهذا القول مجاهد وعكرمة وقتادة[2].

وهذه الآيةُ ابتلاءٌ آخرُ من الله لهم، فقد أَرسلَ الجرادَ عليهم، فأكلَ مزروعاتهم، والزرعُ الذي نجا من الجراد، وحَمَلَ الحَبَّ في سنابله، استبشرَ به أصحابُه خيراً، واعتبروه مكسباً مضموناً لهم. ولكنَّ اللّهَ لهم بالمرصاد، فما أَنْ حصدوا الزرع، وما أَنْ احتفظوا بالحبِّ فرحين مستبشرين، حتى فاجأهم اللّهُ بآيةٍ جديدة، لم يحسبوا لها حساباً، فأرسلَ على حبوبهم «القُمَّل» ـ السوس ـ فنخرَ الحبوبَ وقضى عليها.

السادسة: الضفادع: وهذه آيةٌ جديدةٌ أَرسلَها اللّهُ عليهم، تضافُ للآياتِ السابقة، وهي ابتلاءٌ من الله أَوقعه بهم، ومصيبةٌ ساقَها إِليهم.

وكيفيةُ إِرسالِ الضفادع عليهم مبهمة، لم تَرِدْ تفاصيلُ لها، فلا نعرفُ كيفَ أَرسلَها اللّهُ عليهم، ولا مهمتَها فيهم.

ولم تَرِدْ كلمةُ ضفادع في غيرِ هذا الموضعِ من القرآن.

السابعة: الدّم: وهو الآيةُ السابعة، ولم يبين القرآنُ تفاصيلَ هذه الآية، فكلُّ ما نعرفُه أَنَّ اللّهَ ابتلاهم بالدم ليعتبروا، وجعله آيةً ليتعظوا.

والآياتُ الخمسُ الأخيرةُ مجموعةٌ في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ

---

(١) المرجع السابق: ٦٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٢: ٢٣١.

﴿ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ولا تخبرُنا مصادرُنا الإسلاميةُ الوثيقة ـ المحصورةُ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ النبوية الصحيحة ـ عن تفاصيلِ هذه الآيات، بينما فصَّلَتْ ذلك الإسرائيلياتُ ورواياتُ العهدِ القديم الذي يؤمنُ به اليهود.

ولا نغادرُ البيانَ القرآنيَّ عن هذه الآيات، ولا نطلبُ تبيينَها في الإسرائيلياتِ وغيرها.

موقف سيد قطب من الإسرائيليات حول تلك الآيات:

ونقتدي بسيد قطب في موقفِه منها، ونحبُّ أنْ ننقلَ فقرتَه في ذلك لما فيها من دلالة، واستئناسَه بكلامِ التابعيِّ سعيدِ بن جبير رحمه الله.

قال سيد قطب: «فأمّا كيفَ وقعتْ هذه الآيات، فليس لنا وراءَ النصِّ القرآنيِّ شيء، ولم نجدْ في الأحاديثِ المرفوعة إلى رسولِ الله ﷺ عنها شيئاً.

ونحنُ على طريقتِنا في هذه «الظلال» نقفُ عندَ حدودِ النص القرآني في مثل هذه المواضع. لا سبيلَ لنا إلى شيء منها إلا مِنْ طريقِ الكتاب أو السنةِ الصحيحة.

وذلك تحرزاً من الإسرائيلياتِ والأقوال والروايات التي لا أَصلَ لها، والتي تسربَتْ ـ مع الأسف ـ إلى التفاسيرِ القديمة كلِّها، حتى ما ينجو منها تفسيرٌ واحدٌ من هذه التفاسير. وحتى إنَّ تفسيرَ الإمامِ ابن جرير الطبري ـ على نفاسة قيمته ـ وتفسيرَ ابنِ كثير ـ على عظيمِ قدره ـ لم ينجُوَا من هذه الظاهرةِ الخطيرة..

وقد وردتْ رواياتٌ شتى في شأنِ هذه الآياتِ عن ابن عباس، وعن سعيدِ بن جبير، وعن قتادة، وعن ابن إسحاق.. رواها أبو جعفر بن جرير الطبري، في تاريخه وفي تفسيره.

وهذه واحدةٌ منها: لما أَتى موسى فرعونَ قالَ له: أَرسلْ معي بني إسرائيل، فأبىٰ عليه.

فأرسلَ اللّهُ عليهم الطوفان، وهو المطر، فصَبَّ عليهم منه شيئاً، فخافوا أنْ يكونَ عذاباً. فقالوا لموسى: ادْعُ لنا ربَّكَ أنْ يكشفَ عنا المطر، فنؤمنَ لك، ونرسلَ معك بني إسرائيل! فدعا ربَّه! فلم يؤمنوا، ولم يُرسلوا معه بني إسرائيل!!

فأنبتَ اللّهُ لهم في تلك السنة شيئاً، لم يُنبتْه قبلَ ذلك، من الزرعِ والثمرِ والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنّى! فأرسلَ اللّهُ عليهم الجراد، فسلَّطه على الكلأ.

فلما رأَوا أَثَره في الكلأ عرفوا أَنه لا يُبقي الزرع. فقالوا: يا موسى: ادعُ لنا ربَّك ليكشفَ عنا الجراد، فنؤمنَ لك، ونرسلَ معك بني إسرائيل. فدعا ربَّه، فكشفَ عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يُرسلوا معه بني إسرائيل!

فدرسوا وأَحرزوا الحبَّ في البيوت، فأَمِنوا وقالوا: قد أَحرزْنا الحب. فأرسلَ الله عليهم القُمَّل ـ وهو السوسُ الذي يخرجُ منه ـ فكان الرجلُ يُخرجُ أَربعةَ أَجربةٍ إِلى الرحى، فلا يردُّ منها ثلاثةُ أَقفزة[1].

فقالوا: يا موسى: ادعُ لنا ربَّك يكشفْ عنا القُمَّل، فنؤمنَ لك، ونرسلَ معك بني إسرائيل. فدعا ربَّه فكشفَ عنهم، فأبوا أنْ يرسلوا معه بني إسرائيل!

فبينما هو جالسٌ عند فرعون، إذ سمعَ نقيقَ ضفدع. فقال لفرعون: ما تلقى أنتَ وقومُك من هذا؟

---

(١) الجريب والقفيز: مكيالان للحبوب، والجريب أربعة أقفزة، أي أنه عندما كان يطحن حبه، ما كان يخرج بنتيجة لأن السوس قد أكله!!

فقال: وما عسى أنْ يكونَ كيدُ هذا؟

فما أَمسوا حتى كان الرجلُ يجلسُ إلى ذقنه في الضفادع، ويهمُّ أنْ يتكلمَ فتثبُ الضفادعُ في فيه.

فقالوا لموسى: ادعُ لنا ربَّك يكشفْ عنا هذه الضفادع، فنؤمنَ لك ونرسلَ معك بني إسرائيل! فكشفَ عنهم فلم يؤمنوا.

فأرسلَ اللّهُ عليهم الدم، فكانوا ما استقوا من الماءِ من الأنهارِ والآبار، أو ما كان في أَوعيتهم، وجدوه دماً عبيطاً!

فشكوا إلى فرعون، فقالوا: إنا قد ابتُلينا بالدم، وليس لنا شراب!

فقال: إنه قد سحرَكم!

فقالوا: من أينَ سَحَرَنا، ونحنُ لا نجدُ في أَوعيتِنا شيئاً من الماء إلاّ وجدناه دماً عبيطاً؟

فأَتوه فقالوا: يا موسى: ادعُ لنا ربَّك يكشفْ عنا هذا الدم، فنؤمنَ لك ونرسلَ معك بني إسرائيل! فدعا ربَّه، فكشفَ عنهم! فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل!

واللّهُ أعلمُ أي ذلك كان... والصورةُ التي جاءتْ بها هذه الآيات، لا يؤثرُ اختلافُها في طبيعةِ هذه الآيات. فاللّهُ سبحانه أَرسلَها بقَدَره، في وقتٍ معين، ابتلاءً لقوم معينين، وفقَ سنتهِ في أَخْذِ المكذبين بالضراء، لعلهم يتضرعون...»[1].

كانت الآيات السبع رجزاً وعذاباً من الله:

هذه الآياتُ السبعُ كانت ابتلاءً وعذاباً من الله لفرعون وملئه، بسببِ بطشِهم ببني إسرائيل المؤمنين.

ولذلك سماها القرآن «رِجْزاً»، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ

(١) في ظلال القرآن ٣:١٣٥٨ ـ ١٣٥٩.

عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٥].

قالَ الإمامُ الراغب عن معنى الرجز: «أصْلُ الرجز: الاضطراب. ومنه قيل: رَجَزَ البعير رجزاً. وناقةٌ رجزاء: إذا تقارب خَطْوُها واضطرب، لضعفِ فيها. وشُبِّهَ الرجزُ به لتقاربِ أجزائه..»[1].

فسُميتْ هذه الآياتُ السبعُ رجزاً لأنها ابتلاءٌ وعذابٌ متتابع صبَّه اللّهُ عليهم، وأدتْ هذه الآياتُ إلى «اضطراب» أحوالهم وفسادها.

لكن هل اعتبروا من ذلك العذابِ المتتابع المتلاحق؟

قوم فرعون يعدون الإيمان ثم ينكثون:

عند وقوعِ الرجزِ عليهم كانوا يلجأون إلى موسى عليه السلام، ويطلبونَ منه دعاءَ ربه ليرفعَه عنهم، ويتعهَّدون له بالإيمانِ ورفعِ التعذيب عن بني إسرائيل، وكان موسى يدعو الله، فيستجيب الله له ويرفعُ عنهم العذاب، واللّهُ يعلم أَنهم لن يؤمنوا كما وعدوا، لأنَّ قلوبَهم مختومٌ عليها، ولذلك كانوا يعودون إلى ما كانوا عليه من التكذيبِ والتعذيبِ، فيوقعُ اللّهُ بهم عذاباً وابتلاءً جديداً، فيفزعونَ إلى موسى، طالبين الدعاءَ واعِدين الإيمان، وعندما يرفعُ العذابُ يخلفون الوعد، وهكذا.

وسَجلتْ هذا الموقفَ منهم آياتُ القرآن. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٥].

---

(١) المفردات: ٣٤١.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٧ ـ ٥٠].

بتلك الآيات التسع أقامَ اللّهُ الحجةَ عليهم، ولكنهم لم يحسنوا التعاملَ معها، وأصرّوا على موقفهم من العنادِ والتكذيب والتعذيب، وساروا مع فرعون، وتابَعوه على كفره وباطله، وبذلك خسروا خيري الدنيا والآخرة.

فرعون يستخف قومه ضد موسى:

واستخفَّ فرعونُ قومَه، واستهزأ بموسى عليه السلام، ودعا قومَه إلى المقارنة بينه وبين موسى.

وورد هذا في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٤].

أَرادَ فرعونُ أن يُبقي قومَه متابعين له، وخشيَ أنْ يتخلّوا عنه ويؤمنوا بموسى عليه السلام، فنادى فيهم مذكّراً بسلطانه وملكه، وقدراتِه وصلاحياتِه.

قال لهم: أَنا الملك، وملكُ مصر لي، أَتصرَّفُ فيها كما أشاء، تجري أَنهارُها من تحتي، وأَمنحكُم ما أَشاء، فأنا ربكم الأعلى، أَملككُم وأَرزقكُم وأُعطيكم وأَضركم وأَنفعكم!!

وأنتم ملكي وأَتباعٌ لي، لا وجودَ لكم بدوني، ولا خيرَ لكم إلاّ عندي.

فمن أَفضلُ لكم؟ أنا ومعي هذا الملك والسلطان، أم موسى الذي لا يملكُ شيئاً؟

موسى لا ينفعكُم بشيء، فكيفَ تتبعونه؟ بل إنّ موسى لا يملكُ شيئاً لنفسه، إِنه مهينٌ ذليل، وهو لا يكادُ يبين ويفصحُ عن ما في نفسه، وكلامُه ليس قوياً ولا فصيحاً.

وقد زعم موسى أنه نبي، وهو كاذب، فإذا كان صادقاً فلماذا لا يملكُ المال؟ لماذا ليس عنده أَسورةٌ من ذهب؟

لو كان نبياً صادقاً لكان غنياً يملكُ المالَ والذهب والمتاع، ولجاءتْ معه الملائكة، تمشي معه وتؤيِّدُه، وتطلبُ منكم اتِّباعَه، فبما أَنه لا يملك الذهب، وليس معه ملائكة، فهو كاذب!!

سمع قومُه كلامَه، وأيَّدوه في كلِّ ما قاله، وأَطاعوه واتبعوه، ورضوا أَن يكونوا ذليلين أمامه.

تعليق سيد قطب على استخفاف فرعون بقومه:

قال سيد قطب: «إِنّ مُلْكَ مصر، وهذه الأَنهارُ التي تجري من تحت فرعون، أَمْرٌ قريبٌ مشهور للجماهير، يبهرها، وتستخفُّها الإِشارةُ إليه..

والجماهيرُ المستعبدةُ المستغفلةُ يُغريها البريقُ الخادعُ القريبُ من عيونها، ولا تسمو قلوبُها ولا عقولُها إِلى تدبرِ ذلك الملكِ الكوني العريض البعيد..

ومن ثم عرفَ فرعونُ كيفَ يلعبُ بأَوتارِ هذه القلوب، ويستغفلُها بالبريق القريب.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾؟.

وهو يعني بالمهانةِ أَنَّ موسى ليس ملكاً ولا أَميراً ولا صاحب سطوة ومالٍ مشهود. أم لعلَّه يشيرُ بهذا إِلى أَنه من ذلك الشعبِ المستعبدِ المهين، شعب إسرائيل.

أما قولُه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فهو استغلالٌ لما كان معروفاً عن موسى قبلَ خروجِه من مصر من حبسةِ اللسان، وإلا فقد استجابَ اللّهُ سؤالَه حين دعاه: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾.. وحُلَّتْ عقدةُ لسانه فعلاً، وعادَ يُبين!!

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾؟

هكذا. ذلك العرَضُ التافهُ الرخيصُ! أَسورةٌ من ذهب تصدقُ رسالةَ رسول! أسورةٌ من ذهب تساوي أكثرَ من الآياتِ المعجزة التي أيدَ اللّهُ بها رسولَه الكريم!

... ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

واستخفافُ الطغاةِ للجماهير أمرٌ لا غرابةَ فيه، فهم يعزلونَ الجماهير أوّلاً عن كلِّ سبل المعرفة، ويحجبونَ عنهم الحقائقَ حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويُلقونَ في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبعَ نفوسُهم بهذه المؤشراتِ المصطنعة. ومن ثم يسهلُ استخفافُهم بعد ذلك، ويلينُ قيادُهم، فيذهبون بهم ذاتَ اليمينِ وذات الشمال مطمئنين.

ولا يملكُ الطاغيةُ أنْ يفعلَ بالجماهيرِ هذه الفعلةَ إلا وهم فاسقون، لا يستقيمونَ على طريق، ولا يمسكونَ بحبلِ الله، ولا يزنون بميزان الإيمان.

فأما المؤمنون فيصعبُ خداعُهم واستخفافُهم واللعبُ بهم، كالريشة في مهبِّ الريح...»[1].

فسق قوم فرعون أدى لاستخفاف فرعون بهم:

تخبرُ الآياتُ السابقة عن استكبارِ فرعون وغطرستِه وصَلفِه وتجبُّرِه وهذا أدى إلى استخفافِه بقومه، استخفَّ بهم وبعقولهم وأفكارهم وشخصياتهم.

---

(١) في ظلال القرآن ٥: ٣١٩٣ ـ ٣١٩٤ باختصار.

استخفَّ بهم لما قال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

واستخفَّ بهم لما قال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

واستخفَّ بهم لما قال لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

واستخفَّ بهم لما قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

واستجابَ قومُه له في كلِّ ما قالَه لهم، ووافقوه على كلِّ ما قدمه، وساروا معه في كل ما دعاهم إِليه.

لماذا فعلوا ذلك، لأَنهم فاسقون، ففسقُهم قادهم إِلى سخافةِ عقولهم، وتفاهةِ تصوراتهم، وضآلةِ شخصياتهم، وحقارةِ اهتماماتهم ولذلك داروا في فلك فرعون، وكانوا «أصفاراً» ضائعةً أمامه!

ولا تُعتبرُ الآيةُ: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ تعليلاً وتفسيراً لسرِّ استخفافِ فرعون بقومه، وسرِّ طاعتِهم ومتابعتِهم له. وإِنما تسجلُ تعليلاً قرآنياً مطرداً لكلِّ ظاهرةِ استبداد واستخفافِ على اختلاف الزمان والمكان.

إِنه لا يستخفُّ بأَتباعه إلاّ حاكمٌ طاغية مستبد، متجبرٌ متألِّه، يقتدي بفرعون، ولو كان مؤمناً صالحاً مستقيماً متواضعاً لما استخفَّ بقومه.

وإِنَّ القومَ ـ أيَّ قوم ـ لا يتابعون طاغيتَهم رغم استخفافِه بهم واحتقارِه لهم إِلا إذا كانوا فاسقين خارجين عن طاعةِ الله، فاقدين لوجودهم وشخصياتهم.

الفاسقون يقبلونَ الاستخفاف، ويستجيبون للاستعباد، والرجالُ المؤمنون يرفضون الاستخذاءَ والتبعيةَ للطغاة.

موسى في موقف عظيم أمام فرعون:

ودليلُ هذا موقفُ موسى عليه السلام أَمامَ فرعون، حيث واجهه برجولةٍ وقوة وعزة.

ففي جولةٍ من جولات المواجهة بين موسى وبين فرعون جَرَتْ هذه اللقطةُ التي سجلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٣].

فلما خاطبَ موسى عليه السلام فرعونَ وأَقامَ عليه الحجة وقدَّمَ له الآيات أغلظَ فرعونُ له القول، وقال له: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

اتهمه سابقاً بأنه ساحرٌ مبين، واتهمَه الآن بأنه مسحور، يتخيلُ أنه نبيٌّ بسبب السحرِ الذي سيطرَ عليه.

ماذا كان ردُّ فعلِ موسى عليه السلام على اتهامِ فرعون وغلظته له في الكلام؟

هل سكتَ له واستخذى أمامَه؟ هل «بَلَعَ» الاتهام؟

ما كانَ له أن يفعل ذلك، لأَنه رسولٌ كريم، ومؤمن عزيز.

ردَّ على فرعون ردَّيْن:

موسى يبين لفرعون كذبه ومغالطاته:

الأول: كشفَ له حقيقةَ نفسِه من الداخل، وهو أَنه يعلمُ ويوقنُ أَنَّ غيرَ الله ليس إلهاً، وأنه لا إله إلا الله، وأنه وحده هو الذي ينزلُ الحقَّ والخير والبصائر، ولكنه يغالطُ ويخالفُ هذا العلم اليقينيَّ الداخليَّ الفطري، فيدَّعي الألوهيةَ والربوبية، ويتخذ غيرَ الله رباً، وذلك من باب

العناد والاستكبار: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ . . .﴾.

وهذا التحليلُ العجيبُ الصريحُ من موسى عليه السلام لنفسيةِ فرعون ومواجهتُه به، يتفقُ مع تحليلِ نفسيات آلِه وملئه، الذي وردَ في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٢ ـ ١٤].

فالقومُ كانوا يوقنون أنَّ موسى عليه السلام رسول، ولكنهم اتهموه بأنه ساحرٌ مبين، وجحدوا رسالتَه، من بابِ الظلم والعلوّ والعناد والاستكبار، وليس من بابِ الجهلِ ونقصِ الأدلة: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا ـ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ـ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

ولا ننسى أنَّ قولَه: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ جملةٌ معترضةٌ في الآية لبيانِ حقيقةِ يقينهم بأنَّ الآياتِ حق، وأنَّ موسى رسول، وأُدخلتْ ضمنَ الحديث عن علوهم وتكذيبهم ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا. . ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾. فالآيةُ حللتْ نفوسَهم من الداخلِ قبلَ أنْ تكملَ الحديثَ عن استكبارهم، فجاءَ التعبيرُ مع الجملة المعترضة التحليلية هكذا: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا ـ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ـ ظُلْمًا وَعُلُوًّا. .﴾.

ففرعونُ كان يعلمُ الحقَّ، ومع هذا يُكذبُ عناداً واستكباراً. وقومه كانوا يوقنون بالحقِّ، ومع هذا يجحدونَ به ظلماً وعلواً!!.

فرعون مثبور هالك:

الثاني: بعدما حللَ لفرعونَ نفسيتَه من الداخل، بَيَّن له خسارتَه وهلاكَه، فقال له: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

و«مَثْبور» اسمُ مفعول، بمعنى هالك مقهور خاسر.

قال ابن عباس: «مثبور»: ملعون.

وقال مجاهد وقتادة: «مثبور»: هالك.

وقال الضحاك: «مثبور»: مغلوب[1].

وهذه الأقوالُ متقاربةٌ ومرادة. فمعنى مثبور: هالك ملعون خاسر مغلوب.

أي: يا فرعونُ لا تغترَّ بملكِك، ولا تنخدعْ بسلطانِك، فإنَّ هذا كلَّه لن ينفعك، ولن يدفعَ عنك عذابَ الله، وعندما يقعُ بك عذابُ الله فسوف تخسرُ كلَّ شيء، ستكون مثبوراً مغلوباً هالكاً مسحوراً. فانظرْ للمستقبل ولا تغترَّ بالحاضر، لأن العبرةَ بالخواتيم!

إنَّ هذا الردَّ الصريحَ القويَّ من موسى عليه السلام يناسبُ اتهامَ فرعون الغليظَ الشنيع:

فرعونُ يقول: يا موسى أَنتَ مسحور.

وموسى يقولُ له راداً عليه: يا فرعون أنت هالكٌ مثبور!!

وفرعونُ كاذبٌ فيما قال، وموسى صادقٌ في ما قرر. وواحدةٌ بواحدة والباديُ أظلم، ولكلِّ مقامٍ مقال!!.

ولا يتعارضُ هذا الردُّ الصريحُ مع وصيةِ الله لموسى وأخيه هارون عليهما السلام، عندما وجَّههما إلى فرعون، حيث أَوصاهما أنْ يقولا له قولاً ليناً. قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣ ـ ٤٤].

لا يتعارضُ معه، لأَنه سبقَ أنْ قالَ موسى لفرعون قولاً ليناً، وهو من الحكمةِ المطلوبة، ولما ردَّ فرعونُ الحقَّ وأغلظَ لموسى القول، ناسبَ أنْ يردَّ عليه موسى بوضوحٍ وصراحة، وهذا من الحكمة المطلوبةِ أيضاً، ونعلمُ أنه لكلِّ مقامٍ مقال!!.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٦٦.

لقد أبلغَ موسى فرعونَ الدعوة، وأقامَ عليه وعلى ملئِه الحجة، وعلموا وأَيقنوا أنه رسولُ الله، لكنهم أَصروا على كفرهم عناداً.

موسى يدعو على فرعون وملئه:

وأَعلمَ اللّهَ موسى أنَّ فرعونَ وملأَه لن يؤمنوا، وأنه قد خَتَمَ على قلوبهم، لأَنهم اختاروا الكفر وأَصروا عليه.

عند ذلك دعا موسى عليهم، بأنْ يطمسَ اللّهُ على أموالهم ويشددَ على قلوبهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾ [يونس: ٨٨ ـ ٨٩].

أَشارَ موسى عليه السلام في دعائِه إلى أنَّ فرعونَ قد استخدمَ وسيلتَيْن ماديتيْن ضمن وسائلَ أُخرى، ليصدَّ الناسَ عن سبيل الله. وهما: الزينة والأموال.

الزينةُ هي الدنيا وزخارفُها ومصالحُها ومنافعُها، حيث كان يأمرُ ملأَه أنْ يُعطوا مَنْ يطيعونَهم من زينةِ الدنيا، إغراءً وترغيباً لهم، ويَحرموا المؤمنين بموسى من هذه الزينة.

وكان يأمُرُ ملأَه أنْ يَمنحوا الموافقين لهم من الأموال الكثير، ليشتروهم ويَكسبوا ولاءهم، ويَحرمونَ المؤمنين بموسى من هذه الأَموال.

واللّهُ هو الذي آتى فرعونَ وملأَهُ الزينةَ والأموال، ولو كانوا مؤمنين لاستخدموها في طاعة الله وشكره.

والطغاةُ الظالمون يستخدمون الزينةَ والأَموالَ التي يؤتيهم اللّهُ إِياها

وسائلَ مؤثرةً في الترغيبِ والترهيب، ويستعملونها في الصدِّ عن سبيل الله! فيتأثرُ بهم ضِعافُ الإيمان، فيُقبلون عليهم راغبين في ما عندهم، ويتخلَّوْن عن كل ما يزعجهم أو يغضبهم، خائفين أنْ يُحرموا من عطاياهم.

الله يستجيب دعاءه ويوصيه:

دعا موسى ربَّهُ أنْ يطمسَ على أموال فرعون وملئه ويهلكَها ويقضيَ عليها ويبيدَها، حتى لا يستخدموها في الصدِّ عن سبيله. كما دعا ربَّه أنْ يشددَ على قلوبهم، ويطبعَ عليها، فلا تقبلُ الحقَّ ولا تهتدي به، لأنهم هم الذين اختاروا الكفر والصدَّ عن سبيل الله!

وكان موسى عليه السلام محِقاً مصيباً في هذه الدعوة، لأَنهم أَصروا على كفرهم وعنادهم، ورفضوا ما قَدَّمَ لهم من آياتٍ بينات، فماذا بقي بعد ذلك؟ لم يبقَ إلاّ أنْ يدعوَ اللّهَ عليهم بهلاكِ أموالهم والطبع على قلوبهم.

وقد استجابَ اللّهُ دعوتَه، ويبدو أَن أَخاه هارون كان يدعو اللّهَ معه، ولهذا قال له: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

وهكذا طمسَ اللّهُ على أموالِ فرعون وملئه، وطبعَ على قلوبهم، وأوصى موسى وهارون عليهما السلام أنْ يَستقيما على طريقه، ويثبتا على دينه، ولا يتبعا سبيلَ فرعون وملئه: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وهكذا انقسمَ الناسُ في مصر إلى معسكريْن متميزيْن:

معسكرِ الكفرِ الذي يمثلُه فرعونُ وملؤه وقومه.

ومعسكرِ الإيمان الذي يمثلُه موسى وأخوه هارون عليهما السلام، ومَن اتبعهما وآمن بهما!!

[٢]

خسف الله بقارون وكنوزه

كان قارونُ إسرائيلياً من قوم موسى، لكنه خرجَ على قومه بني إسرائيل، وانحازَ إلى فرعون وملئه، ونصرَهم على قومه. وقد ابتلاه اللّهُ بالأموالِ الكثيرة، فاستغلَّها في الإفساد والطغيان، ونصحه المؤمنون من قومه فلم يستجبْ لهم، وصار فتنةً للآخرين، وقضى اللّهُ على فتنته، بأنْ خسفَ به وبدارِه وكنوزِه الأرض.

وقد وردتْ خلاصةُ قصته في آخرِ سورةِ القصص، التي اختصتْ بالحديثِ عن قصة موسى عليه السلام، من ولادتِه، إلى خروجه ببني إسرائيل من مصر، وغرقِ فرعون.

مواضع ذكر قارون في القرآن:

وردَ اسمُ قارون أربعَ مرات في القرآن.

الأولى: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤].

الثانية: في قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩ ـ ٤٠].

الثالثة: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ ..﴾ [القصص: ٧٦].

الرابعة: في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: ٧٩].

وسوفَ نقفُ مع آياتِ القرآن، نتعرفُ منها على مظاهرِ «الفتنة القارونية»، وانتهائِها، ولن نأخذَ في ذلك شيئاً من الإسرائيليات وغيرها، على منهجِنا المعروفِ في التعاملِ مع أحداث القصص القرآني.

قارون من قوم موسى وهو أحد الطغاة الثلاثة:

تخبرُنا آياتُ القرآن أنَّ قارونَ إسرائيلي وليس قبطيّاً: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾.

ولا نعرف نسب قارونَ الإسرائيلي، ولا مدى قرابتِه لموسى عليه السلام. كما لا نعرفُ كيف كانتْ بدايةُ قارون، ولا كيف تطورت أمورُه.

كلُّ ما نأخذه من آياتِ القرآن أنَّ قارونَ الإسرائيلي كان من كبارِ الأغنياءِ زمن فرعون، وأنه اغترَّ بأموالِه وكنوزه، ولذلك انحازَ إلى جانب فرعون، ضدَّ قومه بني إسرائيل، وأنَّ فرعون اعتمدَ عليه وعلى قوتِه المالية في دعمِ نِظامه.

وأخبرَنا القرآنُ أنه لما بَعَثَ موسى عليه السلام نبياً رسولاً إلى فرعون وملئه، كان «الثالوثُ الباغي» يحكم مصر، وهو المتمثلُ في فرعون وهامان وقارون. ولذلك نصتْ آيةُ سورةِ غافر على أنَّ اللّهَ أرسلَ موسى عليه السلام إلى هذا الثالوث: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ . . .﴾.

وهذا يعني أنَّ قارون كان في قمةِ قوته وفتنتِه وقتَ بعثةِ موسى عليه السلام، وأنه كان جزءاً أَساسياً من النظامِ الحاكم في مصر، ومساعداً رئيسياً لفرعون.

وأَشرْنا في ما سبق ـ عند حديثنا عن مؤمن آل فرعون ـ أنَّ النظامَ الفرعوني كان يقوم على قوى أربعة:

الأولى: القوةُ الماليةُ الاقتصادية، التي يمثلُها قارون.

الثانية: القوةُ الإداريةُ التنفيذية، التي يمثلها هامان والملأ.

الثالثة: القوةُ الإعلامية التأثيرية، التي يمثلُها السحرةُ المسترْهَبون.

الرابعة: القوةُ الفرعونية، حيث كان فرعونُ يستخدمُ القوى الثلاث ويسيطر عليها، ويوظفُها في إِخضاع شعبه له.

ولذلك قرنت الآياتُ بين الطغاة الثلاثة: فرعون وهامان وقارون! والجامعُ الذي يجمعُ بينهم هو الكفرُ والطغيان والفساد.

طغيانُ فرعون بسببِ ملكه وسلطانه، ولهذا دعا قومه إلى عبادته.

وطغيانُ هامان بسبب وظيفته ومركزه.

وطغيانُ قارون بسبب ماله وكنوزه.

واتفقَ موقفُ الطغاةِ الثلاثة، حيث استقبلوا موسى عليه السلام بالتكذيب، واتهموه بأنه ساحر كذاب.

وتَرْكُ قارونَ لقومه بني إسرائيل، وانفصالُه عن موسى الإسرائيلي مثلِه، وانحيازُه لفرعونَ القبطي ضدَّ قومه، دليلٌ على التقاءِ الكفار على الكفر والطغيان، مهما اختلفتْ أُصولُ وأجناسُ الكفار، فالكفرُ ملةٌ واحدة.

وقد أشارَ القرآنُ إلى موقف قارون بقوله: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ ..﴾ [القصص: ٧٦].

ومعنى «بغى عليهم..»: اعتدى عليهم وظلمهم، وتعاملَ معهم ببغيٍ وظلم واعتداءٍ وطغيان، وخرجَ عليهم وانفصلَ عنهم، وانحازَ إلى فرعون وهامان، واشتركَ معهما في اضطهاد قومه بني إسرائيل!!

رفض الإسرائيليات حول قصة قارون:

أَنعمَ اللّهُ على قارون بالمالِ الكثير، وجعَلَه فتنةً له وللآخرين، وقد أخبرَ اللّهُ عن كثرةِ كنوزه بقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ ..﴾ [القصص: ٧٦].

وقد خاضَ رواةُ الإسرائيليات كثيراً في الحديث عن مفاتيحِ خزائنِ كنوز قارون، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ هذه المفاتيحَ كانت تُحملُ على سبعين بغلاً، ولا يزيدُ حجمُ الواحد منها عن إصبع!

وكفانا الإمامُ ابنُ كثير الردَّ على مَنْ زعموا أنّ قارون كان يعرفُ اسمَ الله الأعظم، وأنه كان يتقنُ «الكيمياء» التي تُحَوِّلُ المعادنَ إلى ذهب، فقال: «وأمّا مَنْ زعمَ أنّ المرادَ من ذلك أنه كان يعرفُ صنعةَ الكيمياء، أو أنه كان يحفظُ الاسمَ الأعظم فاستعملَه في جمع الأموال، فليس بصحيح. لأنَّ الكيمياءَ تخييلٌ وصنعة، ولا تُحيلُ الحقائقَ ولا تغيِّرُها، ولا تُشابهُ صنعةَ الخالق. والاسمُ الأعظمُ لا يصعدُ الدعاءُ به من كافر...»[1].

ونبقى مع ظاهرِ التعبيرِ القرآني، ونقررُ أن اللّهَ آتاه كنوزاً كثيرة.

مفاتح ومفاتيح كنوز قارون:

ولم تَرِد الكنوزُ في القرآن إلا مرتين، في قصةِ موسى عليه السلام، والمرتان في سياق الذم.

المرة الأولى: في الحديثِ عن كنوز قارون، التي خسفَ اللّهُ بها الأرض بعد ذلك، وزالت الكنوزُ بزوالِ قارون مالكها.

والمرة الثانية: في التعقيب على هلاكِ وغرق فرعون وجنوده. قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩].

والتعبيرُ عن أَموالِ قارون بالكنوز يوحي بأنَّه حصَّلَها بأدنى جهدٍ مبذول، وأنه كان يعدُّها ويحفظُها ويجعلُها بعضها فوق بعض، ولا يُخرجُ منها شيئاً للمحتاجين.

---

(١) قصص الأنبياء: ٣٧٣.

كما يوحي هذا التعبير بأنه كان يكنزُها ويكثرُها وينمّيها، ويحرصُ على أنْ يزيدَها، وما كان يكتفي أو يقنعُ أو يشبعُ منها!

وأخبرَنا اللّهُ أن مفاتحَ هذه الكنوز لتنوءُ بالعصبةِ أولي القوة من الرجال: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

ما المرادُ بالمفاتح هنا؟

ذهبَ بعضُهم إلى أَنها المفاتيحُ التي تُفتحُ بها خزائنُ كنوزه، وهذه المفاتيح تعجزُ عصبةُ الرجال الأقوياءِ عن حملها!

ونحنُ لا نرى ذلك، لأنه لا ترادفَ بين المفاتح والمفاتيح، ولو أُريد مفاتيحُ خزائن الأموال لقال الله: مفاتيحه.

المفاتح جمعُ «مَفْتَح». أما المفاتيح فإنها جمع «مِفتاح».

قال أَبو البقاء في الكليات: «المفتاح: آلَةُ الفتح. والمَفْتَحُ: الخزانةُ والكنزُ والمخزن.

والمفاتحُ جمع مَفْتَح وهو المكان. وليست جمعَ مِفتاح، فلو كان كذلك ينبغي أنْ تُقلبَ ألفُه ياءً فيقال: مفاتيح..»[1].

فالمفاتحُ إذن هي الخزائنُ التي توضعُ فيها كنوزُ قارون.

هذه الخزائن كانت «تنوءُ» بالعصبة أُولي القوة. أي: عندما يحملُها عصبةُ الرجال الأقوياء فإنها تُثقلهم وتُتعبهم، ولا يكادون يَحملونها ولا ينهضون بها.

المفاتح تنوء بالعصبة أولي القوة:

يقال: ناءَ الرجلُ بحمله. إذا نهضَ وقامَ به مثقلاً.

و: ناءَ الرجل: إذا أَثقله الحمل، فسقط، ولم ينهض به.

---

(١) الكليات: ٨٦٧.

و: ناءَ الحملُ بالرجل: إذا أثقلَ الحملُ الرجلَ وأَماله[1].

والعصبة هي: الجماعةُ من الناس المتعصبةُ المتعاضدةُ المجتمعة[2].

وكونُ خزائن قارون تَنوءُ وتثقلُ بالمجموعةِ الكبيرة من الرجال الأقوياء دليلٌ على كثرتها.

وهذا دليلٌ آخر عن أنَّ المرادَ بالمفاتح في الآية هو الخزائن، وليس المفاتيح التي تُفتحُ بها الخزائن، فالمفاتيحُ لا تَنوءُ بالعصبة أُولي القوة، بل لا تنوءُ بالرجلِ الواحد، إذ يستطيعُ الرجلُ الواحد حملَ مئاتِ المفاتيح بسهولة ويسر!

قوم قارون المؤمنون ينصحونه:

لقد كانَ قارونُ فتنةً طاغية، بسببِ ما آتاه اللّهُ من الكنوز والأموال، وبسببِ استخدامِه لها في الصدِّ عن سبيلِ الله.

وقد أخبرَنا اللّهُ أنَّ بني إسرائيل قد انقسموا إلى قسمين بشأنِ الفتنة القارونية:

١ ـ قومٌ مؤمنون صالحون، وصَفَهم اللّهُ بأنهم ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، كانوا يريدون الدارَ الآخرة. فهؤلاء لم يُفتنوا بِقَارون وكنوزه، وإنما وَعظوا قارون ونصحوه، ونَصحوا الذين فُتنوا به.

٢ ـ وقوم مفتونون، ضِعافُ الإيمان، وقِصارُ النظر، كانوا يريدونَ الحياةَ الدنيا وزينتَها، فهؤلاء أُعجبوا بكنوز قارون، وتمنّوا أنْ يكونوا مثلَه، فلما خسفَ اللّهُ به، حمدوا الله على أنْ لم يكونوا مثله!

لقد قامَ المؤمنون بنصحِ قارون، وأَرشدوه إلى الطريقةِ الإيمانيةِ في حفظِ الأموال وشكرها. قالَ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

(١) انظر: المعجم الوسيط ٢: ٩٦٠.

(٢) المفردات للراغب: ٥٦٨.

يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٧٧].

ولْننظرْ نظرةً سريعة في هذه النصائح والتوجيهات:

النهي عن الفرح الموصل للبطر:

١ ـ نَهَوْهُ عن الفرح، وأَخبروه أن اللّهَ لا يحبُّ الفرحين. فما هو الفرحُ الذي نَهوهُ عنه؟

عندما ننظرُ في آيات القرآن فسنرى أَنها تقسمُ الفرحَ إلى قسمين: فرح مباح، وفرح محرم.

أَما الفرحُ المباحُ فهو انشراحُ صدرِ المؤمن وسعادتُه وسرورُه بالطاعة والعبادة والاتصال بالله، وتلذذُه بنعم الله، وشكرُ الله عليها واستخدامُها في طاعة الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

تأمرُ الآيةُ المؤمنين بالفرحِ بفضلِ الله ورحمتِه وإنعامِه عليهم، وتخبرُهم أن فضلَ الله ورحمتَه خيرٌ مما يجمعونَ من متاع الدنيا الزائل.

وأما الفرحُ المحرمُ فهو فرحُ الكفار بما بين أَيديهم، وغرورُهم به، واستخدامُه في ما يغضبُ وجه الله، من الفسقِ والفجور والفساد، ثم قيامُهم بالتكبرِ والبطر والاستعلاء والطغيان.

وفَرَحُ الكفارِ القائمُ على البطر والتكبر سببٌ في تعذيبهم في جهنم. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [غافر: ٧٥ ـ ٧٦].

هؤلاء الكفارُ الفرحون المتكبرون نالوا بفرحهم غضبَ الله، لأن اللّهَ لا يحبُّ الفرحين البطرين المتكبرين.

فلما نهى المؤمنون قارون عن الفرح نَهَوه عن الفرحِ القائمِ على الغرورِ والفساد، والذي ينتجُ عنه التكبر والبطر.

التوازن بين الدنيا والآخرة في تصور المسلم:

٢ ـ ودَعوه إِلى أنْ يبتغي فيما آتاهُ اللّهُ الدارَ الآخرة: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ . . .﴾.

وفي هذا توجيهٌ له إلى التواضع، والاعترافِ بأنَّ ما معه إنما هو فضلٌ ومنحةٌ من الله، حيث أَرشدوه إلى أنْ يُوَجِّهَ كلَّ ما آتاه الله إلى الآخرة، وأن يبتغيَ ويطلبَ به الدارَ الآخرة.

«وما» في: «في ما آتاك الله» اسم موصول، وهو يدلُّ على العموم والشمول. وهو يوحي بأنَّ على المؤمن أنْ يوجِّهَ كلَّ ما آتاهُ اللّهُ من النعم والمنح للدارِ الآخرة، كلُّه وليس قسماً أو بعضاً منه.

وهو يفعلُ ذلك لأنه يوقنُ أنَّ لذةَ الدنيا زائلة، فإنْ وَجَّهَ قسماً من النعمِ للدنيا خسر، أما نعيمُ الآخرةِ فإنه دائمٌ موصول، ولذلك يوجِّهُ كلَّ نعمِ الله للدار الآخرة، طلباً لدوامِها واستمرارِها.

٣ ـ دَعوهُ إِلى أنْ لا ينسى نصيبَه من الدنيا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.

وهذا التوجيهُ يوضحُ كيفيةَ تطبيقِ القاعدة السابقة: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

ولا بدَّ للمؤمنِ أنْ ينسقَ بين القاعدتين بتوازن، بحيث لا يطغى في واحدة على الأخرى.

الماديون والشهوانيون ينسونَ الدارَ الآخرة، ويُقبلون على الحياةِ الدنيا، ويُوظفون كلَّ ما آتاهم الله من نعم للدنيا، وهذا ما فعلَه قارون، ومَنْ سارَ على دربه مِن «القوارين»!

وقد ردَّ على غلوِّ هؤلاء الماديين الدنيويين مغالون في الجانبِ الآخر، وهم الرهبانُ ومَنْ سارَ على طريقهم، حيث نسوا نصيبَهم مِن الدنيا، وحَرَّموا على أنفسهم المباحات، مثلَ الزواج والتملك، بحجةِ أَنهم يطلبون الدارَ الآخرة. وقد خالفوا بذلك نداءَ الفطرة، ووقعوا في محاذيرَ كثيرة.

إنَّ الإسلامَ يدعو المؤمنَ إلى أنْ ينسقَ بين الدنيا والآخرة، ويوظفَ ما في الدنيا للآخرة، ويفعلَ ذلك وهو يستمتعُ بطيبات الدنيا ومباحاتها.

وورَدَ بهذا المعنى قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢].

وهذه الآية تنكرُ على الذين يُحرمون على أنفسهم الاستمتاعَ بطيبات الحياة الدنيا، بزعمِ أنهم يبتغون بها الدارَ الآخرة، وتُبينُ أنَّ هذه الطيبات للمؤمنين، يستمتعون بها في الحياة الدنيا، ويشاركهم الكفارُ الاستمتاعَ بها في الدنيا، لكنها خالصةٌ لهم وحدهم في الآخرة.

الدنيا والآخرةُ في تصورِ المؤمن ليستا ضديْن أو نقيضين، بل هما مرحلتان متكاملتان متوازنتان. فالمؤمنُ يعيشُ دنياه وهو ينظرُ لآخرته، ويبتغي في كلِّ ما آتاهُ الله من نعم الدارَ الآخرة، ولكنه يستمتعُ بها في دنياه الاستمتاعَ الطيب الحلال، فلا يَحرمُ نفسَه منها في الدنيا، رغم أنه يوظفُها للدار الآخرة.

مقابلة إحسان الله بإحسان:

٤ ـ طلبوا منه مقابلةَ الإحسانِ بالإحسان: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾:

لقد أحسنَ اللّهُ إلى عباده، بما منحهم مِن نعم وعطايا ومِنَن، وطالَبَهم أنْ يُحسنوا في هذه النعم، وأَخبرهم أنهم إنْ شكروه فيها زادهم منها: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

وإنَّ مَنْ قابلَ إحسان الله إليه بإحسان فهو خَيِّرٌ مُحسنٌ كريم، وهذا هو الأصل. قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾ [الرحمن: ٦٠ ـ ٦١].

اللّهُ هو المحسنُ في البداية، بما أَنعمَ على المؤمن من نِعَم، وطلبَ منه أن يقابلَ إحسانَ اللّهِ له بإحسان، وذلك باستخدام هذه النعم في طاعته، ونفع عباده، فإنْ فعلَ ذلك فإنَّ اللّهَ يُحسنُ إليه في الآخرة، بأنْ يُدخلَه الجنة، ولا جزاءَ للإحسانِ إلا الإحسان، وكلُّ مَنْ نالَ إحسانَ اللّهِ إليه، عليه أنْ يُحسنَ في استخدامِ هذا الإحسان الإلهي.

ولهذا طلبَ المؤمنون من قارون أنْ يُقابلَ إحسانَ الله إليه بإحسان، وذلك باستخدامِ تلك الكنوز في نفع الآخرين: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

ترك الفساد في الأرض لأن الله لا يحب المفسدين:

٥ ـ نَهْوَهُ عن الفساد والإفساد: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وهذه هي الحالةُ المقابلة للإحسان، وهي التي تَصدرُ عن الكافرين والظالمين والمفسدين، فعندما ينعمُ اللّهُ على أحدهم النعمَ الكثيرة ـ كما فعل مع قارون ـ فإنه يستخدمُها في الفساد والإفساد، ويَصرفُ الأَموالَ على شهواتِه وملذاته، ويدمرُ الأَخلاقَ والأَعراض والفضائل، وينشرُ الفواحشَ والمنكرات والمفاسدِ.

وبذلك يكون المالُ بين يديه وسيلة إفساد، وسبباً في هلاكه وخسارته، وحجةً عليه عند ربه.

وهناك تقابلٌ لطيفٌ بين توجيه المؤمنين لقارون، عندما قالوا له:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ وبين نهيهم له عن الفسادِ في قولهم: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

«ابتغِ» فعلُ أمر. ماضيه «ابتغى»: بمعنى: طَلَب.

و«تَبْغِ» فعلٌ مضارع. ماضيه «بغىٰ»: بمعنى: تجاوزَ وتعدى.

تقول: ابتغى الرجلُ الخيرَ ابتغاءً. إذا طلبه وأَراده.

وتقول: بغى الرجلُ الشرَّ بغياً. إذا تعدى إليه.

٦ ـ وأَخبروه في نهايةِ نصحهم له عن حقيقةٍ قاطعة، وهي أنَّ اللّهَ لا يحبُّ المفسدين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

لا يحبُّ اللّهُ المفسدين، لأنهم فاسدون في أَنفسهم أولاً، ولأنهم مفسدون في الأرض، يَستخدمون نعمَ اللّهِ في الظلم والبغي والشر، وبذلك ينشرونَ المفاسدَ والرذائل والخبائث.

إنهم في فسادِهم وإِفسادِهم خسروا محبةَ الله، وماذا يملكُ الإِنسانُ إذا خسرَ محبةَ الله؟ وهل هناك شيء يصلحُ أنْ يكونَ عوضاً وبديلاً عن محبة الله؟

لقد أخبرَ المؤمنون قارون في بدايةِ النصيحةِ أنَّ اللّهَ لا يحبُّ الفرحين: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ وأخبروه في آخرها أن اللّهَ لا يحبُّ المفسدين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وفي أثناءِ نصحهم له طالَبوه بالإحسان والإصلاح، لأن اللّهَ يحبُّ المحسنين المصلحين.

إِنهما طريقان: طريقُ محبةِ الله، بأنْ يتصفَ سالكوها بالصفاتِ التي يحبها الله، ويعملوا الأَعمالَ التي يحبُّها الله.

وطريقُ غضب الله، بأنْ يتصفَ أصحابُها بالصفاتِ التي لا يحبُّها الله، ويَعملوا الأعمال التي تغضب الله.

إنها ستُ قواعد جوهرية، تتضمنُ كلُّ واحدة حقيقةً إيمانيةً قاطعة، قدمها المؤمنون نصيحةً لقارون:

﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قارون يرفض النصائح ونظرته إلى ماله:

ماذا كان موقفُ قارونَ من نصيحةِ المؤمنين؟ ومن الحقائقِ الإيمانيةِ التي قدَّموها له؟

لقد أصمَّ أُذنيه عنها، وأَغلقَ قلبه أَمامها، ولذلك رفضَها، وردَّ عليهم ردّاً كلُّه تكبُّرٌ واستعلاء. قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨].

﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾. فهذا المال ليس مالَ الله، وهذه الكنوزُ ليست من الله، هذا المالُ مالي، وهذه الكنوزُ أنا الذي جمعْتُها ونميتُها واستثمرتُها، فهذا المالُ ثمرةُ علمي وتخطيطي، وموهبتي وذكائي، ونشاطي وحركتي، ولولا ذلك لما ملكتُ هذه الكنوز. فكيف تقولون هذا مالُ الله، وهو نعمةٌ من الله عليَّ؟ وكيف تطلبونَ منّي أنْ أتقيّدَ في إنفاقِه بتوجيهاتِ غيري؟ فبما أنَّ المالَ مالي فلماذا أَخضعُ فيه لغيري؟.

هذا الفهمُ القارونيُّ للمالِ والكسبِ هو فهمُ مَنْ ينسى اللّهَ ويَكفره ويَجحده، وهذا المنطقُ القارونيُّ هو منطقُ كلِّ كافرٍ جاحد.

فالكافرُ الجاحدُ لا يعترفُ أنَّ ما معه مِن مالٍ فهو إنعامٌ وإحسان مِن الله، وإنما هو مالُه، جمعَه بذكائه، وحصَّلَه على علمٍ عنده.

هذا الكافرُ لا يَرى أنَّ هذا المالَ ابتلاء من الله له، وأنه إنْ لم يُحسنْ لله في استثمارِه وإنفاقه، فإنه سيخسرُ هذا المال، بل يخسرُ سعادتَه وحياتَه في الدنيا والآخرة.

هذا الكافرُ المتكبرُ المقتدي بقارونَ في منطقِه وفهمه لا يسمحُ لأحدٍ بالتدخلِ في ماله، ويرفضُ وضعَ القيودِ والضوابط الأخلاقية على جمعِ المال وتحصيله، أو على استثمارِه وتنميته، أو على إنفاقِه واستهلاكه.

المنطق القاروني الاقتصادي:

المنطقُ القاروني: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ هو منطقُ كلِّ متكبرٍ بَطِرٍ، مغرورٍ بمالِه وكنوزه، هو نفسُه منطقُ الجاهليةِ الرأسمالية المعاصرة، التي تقومُ على شعارٍ جاهلي هو: «دَعْهُ يَعْمَلْ، دَعْهُ يَمُرّ».

أي: دع المالَ يعمل، ودع المالَ يمرُّ ويكسب، ودع المالَ يسير في طريقه، ولا تعترضْه، ولا تقيِّدْه بالأخلاقيات والقيم..!!

ولا تخرجُ الجاهليةُ الرأسماليةُ المعاصرة عن كلام قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾!

ولما اعتدَّ قارونُ بعلمه وجهده في قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ بيَّنَ اللّهُ جهلَه وغفلتَه، وعدمَ اتعاظه بما حصلَ للذين كانوا أقوى منه من قبله: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

لقد أَهلكَ اللّهُ كفاراً أغنياءَ أَقوياء قبل قارون، كانوا أشدَّ منه قوة، وأكثرَ منه أَموالاً، ولم تدفعْ عنهم قوتُهم وأَحوالُهم عذابَ الله، ولكن قارونَ في عنفوانه وطغيانه غفلَ عن معرفةِ هؤلاء، والاعتبارِ بما حصلَ لهم.

وهكذا «القارونيون» السائرون على طريقِ قارون في كلِّ زمانٍ ومكان، يعميهم بطرُهم وتكبرُهم عن الاعتبارِ بما جرى لأَمثالهم الذين كانوا قبلَهم، فيأتيهم عذابُ الله وهم غافلون!

قارون يخرج على قومه في زينته:

وبعدما رفضَ قارونُ نصيحةَ المؤمنين من قومه، خطا خطوةً أُخرى أَشدَّ طغياناً وإفساداً. قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ...﴾.

أَرادَ قارونُ أنْ يتيهَ ويختالَ على قومه، وأن ينشرَ فيهم فتنتَه وفسادَه، فتزيَّنَ بزينته، وانتفشَ بماله، ثم خرجَ على قومه، مختالاً مغروراً، ليفتنَهم ويفسدَهم.

ونبقى مع النصِّ القرآنيِّ المجمل: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ ولا نحاولُ تفصيلَه بالذهاب إلى الإسرائيليات، لتسجيلِ بعضِ ألوانِ وأَنواع الزينة التي خرجَ بها على قومه، وبيانِ كيفيةِ خروجه على قومه فيها.

إنَّ إيرادَ تلك الروايات الإسرائيلية يحرمُ خيالَ القارئ من متعةِ تخيُّلِ وتصوُّرِ قارون وهو خارجٌ على قومه في زينته، ورسْم صورةٍ منتفشةٍ متعاظمة لها، فلْندَع الخيالَ يتخيلْ ما شاءَ من ألوانِ ومظاهرِ تلك الزينة.

خرجَ عليهم في زينته ليفتنَهم ويُفسدَهم ويَطغى عليهم، ليريهم أَنه هو الأَغنى والأَقوى، ومن ثَمَّ فهو الأَفضلُ والأكرم، فهو الذي يَعيشُ حياتَه، بما جمعَ من كنوز، أَما هم فهم محرومون من لذة العيش!!

مريدو الحياة الدنيا يفتنون به:

وشاهدَ قومُ قارون الزينةَ الطاغيةَ التي تزيَّنَ بها. وانقسموا في نظرتِهم له إلى قسمين:

قسمٌ فُتنوا به وأُعجبوا بزينته، وتمنّوا أنْ يكونوا مثلَه. قال الله عنهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

وقد وصفَ اللّهُ هؤلاء المفتونين المخدوعين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾. فهم ناسون للآخرة، غيرُ طالبين لها، ولا راغبين فيها، ولا منتظرين لنعيمِها، وكلُّ هَمِّهم وفكرِهم هو الدنيا، وما فيها من زينةٍ ومال ومتاع وانتفاع.

وبما أَنهم يريدون الحياةَ الدنيا وزينتَها فقد قاسوا أنفسهم بقارون، فشعروا بالفرقِ الواسع بينهم وبينه، ومن ثَمَّ شَعروا بالحسرةِ والفقرِ والذل والحاجة، إِنهم لا يملكونَ شيئاً من الدنيا وزينتها، وقارونُ يملكُ منها كلَّ شيء. إذنْ قارونُ ـ في منظارهم وميزانهم ـ أَفضلُ وأكرمُ منهم، وهو أغنى وأسعدُ منهم، ولهذا تمنّوا أنْ يكونوا مثلَه، وأنْ يُؤْتَوْا مثلَ ما أُوتي، وصدرتْ جملةٌ على ألسنتِهم تترجمُ عما في قلوبهم، وقالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾.

تمنّوا أنْ يُؤْتَوْا من المالِ والكنوزِ مثلَ ما أُوتي قارون، ليتزيَّنوا به كما يتزين، وينتفعوا به كما ينتفع.

وأَتْبَعوا تمنّيهم بتسجيلِ تقويمِهم له، حيث قالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

قارونُ في نظرهم ذو حظٍّ عظيم، لأنَّ الحظَّ العظيمَ عندهم هو الزينةُ والمالُ والمتاع، والترف والإسراف، وصاحبُ الحظِّ العظيمِ هو الذي أُوتي ذلك، فقارونُ صاحب حظٍّ عظيم، أما هم فإنهم محرومون من ذلك الحظِّ العظيم.

إنّ نظرتَهم إلى قارون خاطئة، وإنّ تقويمَهم له غيرُ صحيح، فليس هو ذا حظٍّ عظيم، ولو أُوتوا مثلَه لما كانوا ذوي حظ عظيم.

سرُّ انخداعِهم بزينةِ قارون وفتنته، واغترارِهم بما معه هو أَنهم ﴿يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

فلو لم يكونوا يريدونَ الحياةَ الدنيا لما خُدعوا وفتنوا، وكأنَّ القرآنَ يَدعونا إِلى معرفةِ أَساسِ خطئهم لئلا نقعَ فيه، فأساسُ الخطايا

هو ابتغاءُ الحياةِ الدنيا وطلبُها وإرادتُها والرغبةُ فيها، ونسيانُ الآخرة وتركُها وعدمُ الرغبة فيها.

من هو ذو الحظ العظيم؟:

إنَّ مَنْ أرادَ الآخرةَ يعرفُ قيمةَ الدنيا بالنسبة لها، ولهذا يطلبُ الآخرةَ ونعيمَها. قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٠ ـ ٢١].

لم يكن قارونُ ذا حظٍّ عظيم، لأنه لم يكن مؤمناً، ولهذا ليس له في الآخرةِ إلاّ النار، ولن تدفعَ عنه أموالُه وكنوزُه النار، فهل هو ذو حظٍّ عظيم وهو ذاهبٌ إلى النار؟

والقارونيون المغترّون بأموالهم الذاهبون إلى النار ليسوا ذوي حظٍّ عظيم، لأَنهم ليس لهم حظٌّ في الجنة، فكيف ينخدعُ بهم المؤمنون بالآخرة؟ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران: ١٧٦].

صاحبُ الحظِّ العظيم في الدنيا هو مَنْ آتاهُ اللّهُ الإيمانَ والصلاح، ومَنَّ عليه بالسماحةِ والرفقِ وحسنِ الخلق، وجعلَهُ يتذوقُ طعمَ الرضى والطمأنينةِ والسعادة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

العالمون الصابرون لم يفتنوا به:

القسمُ الثاني: وهم الذين لم يُفتنوا بالفتنةِ القارونية، وهم الذين قالَ اللّهُ عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠].

وإذا كان القرآنُ قد ذكرَ سِرَّ افتتانِ الفريقِ الأول بزينة قارون، وهو أَنهم يريدون الحياةِ الدنيا، فقد ذكرَ هنا سِرَّ نجاةِ الفريقِ الثاني من الفتنة، وهو أَنهم أوتوا العلم.

إنَّ هؤلاء المبصرون مؤمنون عالمون، ولقد نظروا في وضع قارونَ وزينتِه بمنظارِ العلم، وَوَزنوهُ بميزانِ العلم، فإذا به ليس شيئاً، رغمَ كثرةِ أمواله، إنه في النهاية هالكٌ خاسر، ومن ثم فهو بائسٌ تعيس، معذَّبٌ شقيّ!

فكيف ينخدعونَ به وهذه نهايتُه؟ وكيف يتمنّون أنْ يُعْطَوْا مثلَ ما أُعطي، مع هذا المصيرِ البائس الذي انتهى إليه!

العلمُ يعطي صاحبَه البصيرةَ النافذةَ التي تُريه الأُمورَ على حقيقتها، وليس على صورتِها الظاهرية، ولذلك لا ينخدعُ صاحبُ العلم بما يراه، وإنما يتعمقُ دلالتَه، ويخترقُ ظاهرَه إلى باطنه، فيعرفَه حقَّ المعرفة.

قال الذين أوتوا العلم المبصرون للمخدوعين: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

لقد دَعوا المخدوعين إلى معرفةِ حقائق الأمور، والنظرِ إلى الدائمِ الباقي، وأَخبروهم أنَّ ثوابَ الله لعباده خيرٌ من كلِّ ما على هذه الدنيا، لأَنه باقٍ دائمٌ مستمرٌ لا ينتهي ولا يتوقفُ ولا ينقطع.

ثواب الله خير للمؤمن الصالح:

ثوابُ الله خيرٌ من مالِ قارون وكنوزِه وزينته، خيرٌ من كلِّ ما يملكه المالكونَ في الدنيا، ولذلك هو الذي يستحقُّ أنْ يطلبَهُ الطالبون، وتستشرفُه نفوسُهم، وتَهفو إليه قلوبُهم.

وفي الحقيقة لا يَرجو ثوابَ الله كلُّ أحد، فغيرُ المؤمن لا يَعرفُ ثوابَ الله ولا يطلبُه، أما المؤمنُ فإنه يعرفُه ويطلبُه ويَرجوه. ولذلك ثوابُ الله خيرٌ لمن آمنَ وعملَ صالحاً، لأنه لا ينالُ ثوابَ الله إلا مَنْ آمنَ وعملَ صالحاً، فالإيمانُ والعملُ الصالح هما طريقُ نيلِ ثوابِ الله.

ومما يؤكدُ هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وهناك أُناسٌ لا يطلبونَ الذي هو خير، ولذلك يطلبونَ ثوابَ الدنيا وزينتَها، وإنَّ الله يُعطيهم ما يطلبون من هذا الثواب السريع الزائل، أما ثوابُ الآخرة الدائمُ الباقي فإنَّ الله لا يُعطيه إلاّ للمؤمنين. قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

ثوابُ الله الدائمُ الباقي خيرٌ لمن آمنَ وعملَ صالحاً، خيرٌ من كلِّ الدنيا وما فيها، لكنَّ هذه الحقيقةَ الإيمانيةَ القاطعةَ لا يدركُها ولا يَثبتُ عليها إلاّ الصابرون. ولهذا قال العلماءُ للمخدوعين بفتنة قارون: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾.

إنّ المؤمنين المبصرين صابرون، على الابتلاءِ والامتحان، وعلى الفتنةِ والمحنة، وعلى الزينةِ والزخرف.

ولهذا صبرَ المؤمنون على فتنةِ وزينةِ قارون، فلم يفقدوا ثوابتَهم تجاهَها، بينما انخدعَ بها الآخرون، لأنهم ليسوا صابرين!!

وهكذا انقسمَ بنو إسرائيلَ إلى فريقيْن: المؤمنون العالمون لم يُفتنوا بقارون وكنوزِه، لأنهم كانوا يريدون الدارَ الآخرة. والمخدوعون المفتونون فُتنوا به، وتمنّوا أنْ يُعطَوْا مثلَ ما أُوتي قارون، لأنهم كانوا يريدون الحياةَ الدنيا وزينتَها.

انتهى إمهال الله لقارون وتحقق الامتحان به:

وكان قارون فتنةً لقومه، وابتلاءً وامتحاناً لهم، ابتلاهم اللّهُ وامتحنهم به، فمنهم مَنْ نجح ومنهم مَنْ رسب.

وآنَ لقارونَ أن ينتهي، بعدما تحققَ الامتحانُ به، وبعدما تحققَ الامتحانُ له. امتحنَه اللّهُ بالمالِ والكنوز فرسبَ في الامتحان، وطغى وبغى وتجبّر وأفسد، وامتحنَ اللّهُ به قومَه فخُدِعَ به المخدوعون، واغترَّ به المغترون، والآنَ لا بدَّ لقارونَ أنْ يذهبَ خاسراً، وأنْ تذهبَ معه كنوزُه، ليكون ذهابُه عبرة!

وقام قارونُ بالحركةِ الأَخيرة، التي عجلتْ بالقضاءِ عليه، حيث خرجَ على قومه في زينتِه، فازدادَ المخدوعون انخداعاً به، واعتبروه ذا حظٍّ عظيم، وتمنّوا أنْ يُعطوا مثلَ ما أُعطي: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨٠].

انتهى إمهالُ اللّهِ لقارون. لقد أَمهله لعلَّه يتذكرُ فلم يتذكر، ونصحه المؤمنون فلم ينتصح، ووعظوه فلم يتعظ.

والآنَ جاءَ وقتُ إهلاكه والقضاءِ عليه، فخسفَ به وبمالِه وبدارِه الأرض. قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١].

خسف الله به وبداره وكنوزه الأرض:

متى خسفَ اللّهُ به وبداره الأرض؟

بعدما خرجَ على قومِه في زينته. ونلاحظُ أنَّ القرآنَ ربطَ بين الجملتين بحرفِ الفاء:

الأولى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾.

الثانية: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

والفاءُ تدلُّ على الترتيبِ والتعقيب. أي أنَّ اللّهَ خسفَ به وبمالِه

بعدما خرجَ على قومه في زينته. وكان خروجُه على قومه في زينته هو السببَ المباشرَ في خسْفِ اللّهِ به.

لقد أخذَ اللّهُ قارونَ وهو في أوجِ انتفاشِه وغرورِه وتكبره وفرحه وبطره، وقصَمَهُ قصماً وهو في سكرته بماله وزينته.

خسفَ اللّهُ به وبدارِه الأرض، انشقت الأرضُ وابتلعَتْه، وابتلعَتْ أموالَه وكنوزَه، وابتلعتْ خزائنَه ومفاتحه، وابتلعت دارَه وملكه.

ولم تنفعْه أَموالُه وكنوزُه، لأنها لم تدفعْ عنه عذابَ الله، ولم ينصرهُ المتجمعون حولَه، المنتفعون بأمواله، ولم يدفعوا عنه عذابَ الله.

وفرعونُ الذي يدعي الأُلوهية ويزعمُ القوةَ المطلقة، والذي تحالفَ معه قارون، لم ينصره، وعجزَ عن دفعِ عذاب الله عنه.

وهكذا واجه قارونُ عذابَ الله وحيداً، بدون ناصرٍ ولا معين: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

ذَهبتْ قوتُه عنه فصار أَمامَ عذاب الله ضعيفاً، وذهبَ حلفاؤه عنه فتلقّى عذابَ اللّهِ وحيداً، وذهبتْ عنه كنوزُه فاستقبلَ عذابَ الله فقيراً!!

وصدق الله القائل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وصدقَ اللّهُ القائل: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وصدقَ اللّهُ القائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [هود: ١٠٢ ـ ١٠٣].

ونلاحظُ أنَّ القرآنَ أجملَ الحديثَ عن الخسفِ بقارون وداره: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، فلم يُفَصِّلْ هذا المشهدَ العنيف المؤثر، ولم يذكرْ كيفيةَ ذلك.

وقفة مع حديث صحيح في الخسف بأحد السابقين:

ونعلمُ أنَّ الإسرائيليات قد أوردتْ تفاصيلَ كثيرة لخسْفِ اللّٰهِ به وبداره، ولكنها لم تَثبتْ ولم تَصح، ولهذا نبقى مع إِجمالِ القرآن للحادث، ولا ندخلُ في تفاصيله.

وهناك حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، يتحدثُ عن رجلٍ من السابقين خسفَ اللّٰهُ به الأرض.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يَمشي، قد أَعجبتْه جُمَّتَه وبُرْداه، إِذْ خُسِفَ به في الأرض، فهو يتجلجلُ في الأرض حتى تقوم الساعة»[1].

وروى البخاريُّ عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما، أَن رسولَ الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يجرُّ إِزارَه، إِذْ خُسفَ به، فهو يتجلجلُ في الأرضِ إِلى يومِ القيامة»[2].

ذكرَ رسولُ الله ﷺ أنَّ أحدَ السابقين كان بطراً متكبراً مختالاً، وخرجَ يمشي أمامَ الآخرين بِتيهٍ واختيال، وسَرَّحَ شعْرَه ـ والجُمَّةُ هي شعر الرأس ـ وأُعجبَ بشعره وبُرْدَيْه ـ وهما ثوباه ـ وجَرَّ إِزارَه خيلاء وعجباً وتكبراً، فعجَّلَ اللّٰهُ عقوبته، وخسفَ به الأرض، وما زالَ يتجلجلُ فيها، ويضطربُ وينزلُ فيها إلى يوم القيامة. أَي أَنه ينزلُ كلَّ يوم في الأرض مسافةً قصيرة، ويستمرُّ في تَوالي نزوله في باطن الأَرض، ولا يصلُ قعْرَها إِلا يومَ القيامة.

والحديثُ لم يصرحْ بأنَّ هذا الرجلَ الذي خُسِفَ به هو قارون، لكن ذهبَ بعضُ شرّاح الحديث إِلى تحديدِ أَنه قارون.

قالَ الإمامُ ابنُ حجر في شرح الحديث: «وذكرَ السهيليُّ في

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٧٨٩. ومسلم برقم: ٢٠٨٨. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٩١.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٥٧٩٠.

«مبهمات القرآن» في سورةِ الصافات عن الطبري أن اسمَ الرجلِ المذكور «الهيزن»، وأنه من أعرابِ فارس. قلتُ: وهذا أخرجه الطبريُّ في التاريخ، من طريقِ ابن جريج عن شعيب الجياني.

وجزمَ الكلاباذي في «معاني الأخبار» بأنه قارون. وكذا ذكَرَ الجوهري في «الصحاح».

وكأنَّ المستند في ذلك ما أَخرجه الحارثُ بنُ أَبي أسامة، من حديثِ أَبي هريرة وابن عباس، بسندٍ ضعيفٍ جداً، قالا: خَطَبنا رسولُ الله ﷺ، فذكَرَ الحديثَ الطويل، وفيه قوله: «ومَنْ لبسَ ثوباً فاختالَ فيه، خُسِفَ به من شفيرِ جهنم، فيتجلجل فيها، لأنَّ قارونَ لبسَ حلة فاختالَ فيها، فخسفَ به الأرض، فهو يتجلجلُ فيها إِلى يوم القيامة».

وروى الطبريُّ في التاريخ عن قتادة قال: «وذُكِرَ لنا أَنه يخسفُ بقارون كلّ يوم قامة، وأَنه يتجلجل فيها، لا يبلغُ قعْرَها إِلى يوم القيامة..»[1].

لقدْ ضعَّفَ ابنُ حجر الرواية التي تحددُ اسمَ المخسوفِ به بأنه قارون. واعتبرَ السندَ الذي أَورده ابنُ أَبي أسامة عن أَبي هريرة وابنِ عباس ضعيفاً جداً.

وبما أنَّ السندَ ضعيفٌ جداً فلا نعتمدُ الروايةَ المروية به، ولهذا لا نجدُ حديثاً مرفوعاً صحيحاً يصرحُ باسمِ قارون. ومن ثَمَّ ما قالَه قتادةُ والكلاباذيُّ والجوهريُّ وغيرُهما من بعده، لا يَعتمدُ على حديثٍ مرفوع صحيح.

فنتوقفُ في تعيينِ الرجل المخسوف به في الحديثِ الواردِ في

---

(١) فتح الباري ١٠: ٢٦٠.

الصحيحين، وخلاصةُ ما يفهمُ من الحديث أنَّ اللّهَ قد خسفَ برجلٍ متكبر، خرجَ يجرُّ إِزاره خيلاء، وأنه ما زالَ يتجلجلُ في الأرض حتى قيام الساعة.

أما تحديدُ اسم هذا الرجل، وأنه قارون، فلا نصَّ في الحديثِ ـ ولا في غيره من الأَحاديث المرفوعة الصحيحة ـ يدلُّ عليه. ولذلك نتوقفُ في تحديدِ اسم الرجل، فقد يكون قارون، وقد يكونُ رجلاً آخر، والله تعالى أعلم!.

أَما قارون، فنجزمُ أنَّ اللّهَ خسفَ به وبداره الأرض، لأنَّ هذا وردَ بصريحِ القرآن: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ . .﴾.

مشهد متخيل للخسف بقارون وداره:

وتَخَيُّلُ منظر الخسفِ بقارونَ ودارِه وكنوزه يَزيدُ في العبرةِ والعظة، فها هو قارونُ يمشي أمامَ قومه، وأمام القبط في زينته، مختالاً متكبّراً منتفشاً مزهُواً بَطِراً، وها هم ينظرونَ إِليه معجبين مبهورين متأثّرين، إلاّ المؤمنون الصابرون من بني إسرائيل. وها هي الجماهيرُ المخدوعةُ المغترَّةُ به تتحسر، عندما تقارنُ نفسَها به، وها هم الرجال يقولون: يا ليتَ لنا مثلَ ما أُوتي قارونُ إنه لذو حظٌ عظيم!!

وفجأة، وبينما هو يسيرُ على الأرض أمامَ المشاهدين، تنشقُّ الأرض، ويَراها الناس، وتبتلعُ قارونَ داخلَها، وتنشقُّ الأرض انشقاقاً آخرَ في مكانٍ آخر، حيث دارُ قارون الفخمة، وتبتلعُها!

ويرى المشاهدون دارَ قارون وكنوزَه تغوصُ في أَعْمَاق الأرض، ويرى المشاهدون قارونَ وهو يختفي أَمامهم بالتدريج، ثم يرونَه وهو يغوصُ في أَعماقها، وهم متأثّرون مندهشون متعجبون.

وهكذا خسفَ اللّهُ بقارونَ وبيتِه وكنوزِه الأرض، وهكذا ذهبت الكنوزُ التي جمعَها كأنها لم تُجمع، وهكذا انتهت الفتنةُ القارونية، ألا بُعْداً لقارون، الذاهبِ إِلى النار!!

ولما رأى الفريقانِ هذه النهايةَ السوداءَ لقارون، حمدَ المؤمنون منهم ربَّ العالمين، الذي أَراحَهم منه، وأزالَ فتنته. وازدادوا إيماناً ويقيناً بما عندهم من حقائقَ وأُسسٍ وقواعدَ وثوابت.

الموقف الجديد لمن فتنوا به:

أما الفريقُ الثاني المخدوعون به، الذين تمنَّوْا أنْ يكونوا مثلَه، فقد استيقظتْ قلوبُهم، وحمدوا اللّهَ لأَنهم لم يكونوا مثله، فلو كانوا مثلَه لهلكوا كما هلك.

وقد سجَّلَ القرآنُ موقفَهم الجديد بتهكم وسخرية. قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: ٨٢].

وقفَ هؤلاء موقفيْن متعارضيْن متناقضيْن:

إِنهم بالأمسِ خُدِعوا بقارون، وفُتنوا بزينته، واعتبروه ذا حظٍّ عظيم، وتمنّوْا مكانَه، وقالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

أما اليوم ـ وبعدما خُسفَ بقارون وكنوزِه ـ فقد عرفوا أَنهم هم ذَوُو حظٍّ عظيم، لأنهم لم يملكوا ما ملكَ قارون، وعرفوا أَنَّ قارون ليس ذا حظٍّ عظيم، وقالوا: الحمدُ لله أننا لم نكنْ مثلَ قارون، ولم نملكْ ما ملكَ قارون، فلو كنّا مثلَه، لخسفَ اللّهُ بنا كما خسفَ به. لقد مَنَّ الله علينا بالفقر، لأَنَّنا نجوْنا به من الخسف!!.

قالَ اللّهُ عن موقفِهم الجديد: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أقوال في معنى «ويكأن» وتوجيهها والراجح منها:

وَرَدَتْ في الآية كلمةُ «وَيْكأن»، ولم تَرِدْ في غيرِ هذا الموضع في القرآن.

وقد أوردَ الإمامُ ابنُ كثير أقوالَ بعضِ السابقين في معناها:

١ ـ فقالَ بعضهم: معنى «ويكأن»: وَيْلَكَ اعلم أَنّ. أي: ويلكَ اعلمْ أنَّ اللّهَ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. ويلكَ اعلمْ أنه لا يفلحُ الكافرون.

٢ ـ وقال آخرون: معناها: أَلم تر أن الله يبسط الرزق...

٣ ـ وقال آخرون: «ويكأن» مكوَّنةٌ من كلمتيْن:

«وَيْ»: للتعجب. و«كَأَنَّ»: بمعنى: أظنّ.

ورجحَ الطبريُّ القولَ الثاني، وهو منسوبٌ إلى قتادة، حيث اعتبرَها كلمةً واحدة للتقرير، والمعنى: أَلم ترَ أنَّ اللّهَ يبسطُ الرزقَ لمن يشاء ويقدر. ألم تر أنه لا يفلح الكافرون[1].

وعندما نمعنُ النظرَ في الكلمة «ويكأن» فسنرى أَنها مكوَّنَةٌ من كلمتين، كما يقولُ علماء النحو.

وقد أوردَ السّمينُ الحلبيُّ في «الدُّرِّ المَصون» عدةَ أقوالٍ في إعراب الكلمتين ومعناهما.

والراجحُ من تلك الأقوال هو:

«وَيْ»: اسمُ فعلٍ مضارع، بمعنى: أَعْجَبُ، أو: نَعْجَبُ.

«كأنَّ»: حرفُ تشبيه. والتشبيهُ هنا ليس مقصوداً ولا مراداً، وإنما هي للتقريرِ واليقين.

واستَشهدوا على مجيء «كَأَنَّ» للتقريرِ وليس للتشبيه، بقولِ عمرَ بن أبي ربيعة:

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣: ٣٨٧.

كَـأَنَّـنـي حـيـنَ أُمـسـي لا تُـكَـلِّـمُـنـي   مُـتَـيَّـمٌ يَـشْـتَـهـي مـا لـيـسَ مـوجـودا

أي: إنني أَشتهي ما ليس موجوداً[1].

والراجحُ هو القولُ الأخير، فلما رأى القومُ المخدوعون نهايةَ قارون تعجَّبوا، وأَيقنوا بصحةِ ما قالَه المؤمنون لهم.

قالوا: «وَيْ»: أي: إِننا نتعجبُ مما حصلَ لقارون.

ثم قالوا: كَأَنَّ ﴿ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ويقدر: أي: إِنَّ اللّهَ يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقدر.

ثم قالوا: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: إِننا نتعجبُ مما حصل لقارون من خسارة، لأَنه لا يفلحُ الكافرون.

واعتَبروا أَنَّ اللّهَ قد مَنَّ عليهم لأنه لم يُعطهم المالَ الكثير، فلو أَعطاهم المالَ الكثير لخسفَ بهم كما خسفَ بقارون.

بين معرفة العالمين المسبقة ومعرفة المخدوعين المتأخرة:

فَرقٌ كبيرٌ بين موقف المؤمنين الصابرين العالمين وموقفِ هؤلاء من فتنةِ قارون.

فبينما عرفَ المؤمنون الصابرون العالمون الحقائقَ اليقينيةَ من قبل، عَرَفوها في عنفوانِ الفتنةِ القارونية الطاغية، لم يَعرفها المخدوعون إلاّ متأخرين، بعدما زالَ قارون وزالَتْ كنوزه!

الآنَ بعدما شاهدوا ما حلَّ بقارون تأثَّروا! الآنَ صدَّقوا المؤمنين الناصحين في نصحهم لهم. الآنَ عرفوا أن اللّهَ يبسطُ الرزقَ لمن يشاء ويقدر. الآنَ عرفوا أَنَّ قارون لم يكن ذا حظٍّ عظيم. الآن عرفوا أن ماله هو السبب في هلاكه وأنه كان نقمة عليه. الآنَ عرفوا أَنهم هم أصحابُ الحظِّ العظيم. الآنَ عرفوا أن اللّهَ أَرادَ بهم الخير إذْ لم يبسط

(١) انظر الدر المصون للسمين الحلبي ٨:٦٩٧ ـ ٦٩٩.

عليهم الرزق. الآنَ عرفوا أنَّ قلةَ المالِ مِنَّةٌ مِنَ الله ونعمة. الآنَ عرفوا أنه لا يفلحُ الكافرون!!...

الآنَ اعترفوا بصراحةٍ قائلين: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

عَرفوا الحقائقَ واعترفوا بها، لكن متأخرين!!

وشتّان شتّان بين المعرفتين:

معرفةِ المؤمنين الصابرين العالمين، التي حَقَّقوها من قبل، والتي عصمَتْهم - بفضلِ الله - من الافتتانِ بالفتنة في عنفوانها، فأحسنوا وَزْنَها والنظرَ إليها والتعاملَ معها، وثبتوا على إيمانهم ويقينهم وقناعتهم.

ومعرفةِ المخدوعين المغرورين المفتونين التي جاءت متأخرة، بعدما زالت الفتنة، ففي عنفوانِها افْتَتنوا بها، وطلبوها وتمنوها، ولما زالَتْ كرِهوها ورفضوها وأنكروها!!

وهذا من أَسبابِ تفضيل المؤمنين العالمين على الآخرين، الذين يُصَدِّقونهم متأخرين!!.

تعقيب القرآن على هلاك قارون:

وبعدَ انتهاءِ الفتنةِ القارونية الطاغية، وتسجيلِ موقف الفريقين منها: مؤمني بني إسرائيل ومخدوعيهم، يأتي تعقيبُ القرآنِ عليها، ليقدِّمَ درساً إيمانياً دائماً.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: ٨٣ - ٨٤].

إنَّ هذا التعقيبَ القرآنيَّ يوجِّهُ أَنظارَ وقلوبَ المؤمنين إلى الدارِ

الآخرة، ذاتِ النعيم الدائم، ليسعوا إليها، ويبتغوها في كلِّ ما آتاهم اللّهُ من الدنيا، وليتجافوا عن الدنيا، ولا يجعلوها أكبرَ هَمِّهم ومبلغَ علمهم.

ويذكرُ لهم القرآنُ أهَمَّ صفاتِ الذين يريدون الدار الآخرة: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ..﴾.

مريدو الدارِ الآخرة مستقيمون متواضعون محسنون في الدنيا، وهم غيرُ مستعلين ولا متكبِّرين فيها، وهم مصلحون صالحون في الدنيا، وليسوا فاسدين ولا مفسدين فيها.

أَما مريدو الدنيا المستكبرون المفسدون، فهم محرومون من نعيمِ الآخرة، ذاهبون إِلى النار، مثلُ قارون المفسدِ المستكبرِ بسبب كنوزه، وفرعون المفسدِ المستكبر بسببِ سلطانه.

وهذه دعوةٌ للمؤمنين ليكونوا صالحين مصلحين متواضعين، ولا يكونوا مستعلين مستكبرين مفسدين.

ثم يقدمُ القرآنُ قاعدةً ثابتة، تتضمنُ سنةً ربانيةً مطردة، وهي أنَّ العاقبةَ لا تكون إلا للمتقين: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أَصحابُ الدنيا من المستكبرين المفسدين كقارون قد يعطيهم اللّهُ بعضَ المتاع والرزق والنفع، ويُمَكِّنُ لهم في الأرض، لكن هذا كلَّه إِلى حين، حيث يسلبهم ذلك كلّه، ويوقعُ بهم عذابَه، كما فعلَ بقارون، فكانت عاقبةُ قارون سيئةً خاسرة.

أما المؤمنون الصابرون العالمون، فإن اللّهَ قد يبتليهم بأنْ يُضَيقَ عليهم في الرزق والمال والمتاع، لكنهم هم الفائزون الرابحون المفلحون في النهاية، فالعاقبةُ الحسنةُ لا تكون إلا لهم.

وإنَّ اللّهَ عادلٌ في محاسبته للكفار، حيث يجازيهم بسببِ سيئاتهم: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وهو سبحانَه رحيمٌ في حسنِ جزائه للمحسنين المتقين: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا . .﴾.

كان هلاك قارون في مصر قبل الخروج:

وفي ختام حديثِنا عن الخسفِ بقارون وكنوزه نذكُرُ أَننا أَوردْنا قصتهُ في هذا المَوضعِ من قصةِ موسى عليه السلام، وقبلَ استعراضِ مشهدِ خروج موسى ببني إسرائيل وغرق فرعون.

وفعلْنا ذلك خلافاً لما فعلَهُ مَنْ كتبوا في القصص القرآني، حيثُ كانوا يتحدثون عن قصةِ قارون أَثناءَ حديثهم عن إِقامةِ بني إِسرائيل في سيناء. لأنهم ذَهبوا إِلى أَنَّ قارون آمنَ بموسى عليه السلام، وخرجَ معه ضمنَ بني إسرائيل، وأَنَّ أَحداثَ إِفسادِه كانت في سيناء، وأَنَّ موسى عليه السلام دعا اللّهَ عليه، فخسف الله به في سيناء.

واعتمدوا في ذلك على الرواياتِ الإسرائيلية، التي تفصِّلُ كذبَه على موسى، وقذْفَه له بارتكابِه الفاحشة، وتحقيقَ موسى مع المرأة التي اتهمَتْه، وظهورَ مكْرِ وكيدِ قارون، وأَنَّ هذا دعا موسى إِلى أَنْ يدعوَ اللّهَ عليه، فخسفَ اللّهُ به.

ونحنُ لا نرى ذلك، لأَنَّ منهجَنا عدمَ الأخذِ من الإسرائيليات، وما لم يثبتْ من الرواياتِ بالأحاديثِ المرفوعة الصحيحة.

والراجحُ عندنا أَنَّ قصةَ قارون كانت في مصر، وقبلَ غرقِ فرعون، وأَنَّ اللّهَ خسفَ به وبداره الأرض لما تعاظمتْ فتنتُه، وقبلَ خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، وقبل غرق فرعون.

ومما يدلُّ على هذا أَنَّ القرآنَ نصَّ على إِرسالِ موسى رسولاً إِلى الثلاثي الظالم: فرعون وهامان وقارون. وأَنَّ الثلاثةَ الطغاةَ اتفقوا على اتهامِ موسى بأنه ساحرٌ كذاب. وهذا معناه أَنَّ قارونَ كان متحالفاً مع فرعون وهامان ضدَّ موسى، مكذباً له معهما.

ولما خسفَ اللّهُ به قال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، فنصت الآيةُ على أنَّ اللّهَ لما خسفَ بقارون خسفَ بداره الأرض، وهذا معناه أنه كانتْ له دارٌ قبلَ أنْ يُخسفَ به، وهذه الدارُ كانت ضخمةً فخمة، تتفقُ مع كنوزِه وزينته. ولما خسفَ اللّهُ به خسفَ بداره أيضاً.

فهل بنى قارون داراً ضخمةً في صحراء سيناء؟ ومن أيِّ الموادِّ بنى قارون دارَه في سيناء؟ وهل في سيناء موادُّ بناء؟ وهل بنى بنو إسرائيل في سيناء بيوتاً ودوراً لهم؟

إنَّ ذكْرَ دارِ قارون، والنصَّ على أنَّ اللّهَ خسفَ به وبدارِه في وقتٍ واحد دليلٌ على أن الخسفَ به وبدارِه وكنوزه كان في مصر، قبل خروجِ بني إسرائيل منها.

وقد ذكرَ ابن كثير في «قصص الأنبياء» احتمالَ الخسف بقارون في مصر، وفي سيناء. قال: «وقصةُ قارون هذه قد تكونُ قبلَ خروجهم من مصر، لقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾. فإنَّ الدارَ ظاهرةٌ في البنيان. وقد تكونُ بعدَ ذلك في التيه، وتكون الدارُ عبارةً عن المحلةِ التي تُضربُ فيها الخيام...»[1].

وإذا كان ابنُ كثير قد أوردَ الاحتمالين، ولم يرجحْ أَحداً منهما، إلاّ أَننا نرجحُ الاحتمالَ الأول، ونذهبُ إِلى أنَّ قارون لم يؤمنْ بموسى عليه السلام، وأنَّ الخسفَ به وبداره كان في مصر، فهلكَ قبلَ هلاك فرعون.

نرجحُ هذا لِما سبق أنْ بَيّنّا، ونقررُ أَنه اجتهادٌ وترجيح، وليس جزماً ويقيناً. والله تعالى أعلم.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٣٧٥.

[٣]

ترائي الجمعين على شاطئ البحر

قامَ موسى عليه السلام بواجبه في الدعوة، حيث بلَّغَ دعوتَه إلى فرعون وملئه وقومه، وأقامَ عليهم الحجة، وأراهم الآياتِ التي آتاهم الله إياها، ولكنهم لم يتخلّوا عن كفرهم وعنادهم.

وآمنَ به قومُه بنو إسرائيل، كما آمن به بعضُ المصريين الأقباط، كامرأةِ فرعون ومؤمنِ آل فرعون.

انتهاء إقامة بني إسرائيل في مصر:

وقدَّرَ اللّهُ أنْ يُنْهيَ المواجهةَ بين موسى وبين فرعون، وأنْ يوقفَ بطشَ وتعذيبَ فرعون وملئه لبني إسرائيل. كما قدَّرَ اللّهُ أنْ تنتهيَ فترةُ إقامةِ بني إسرائيل في مصر، لينتقلوا إلى مرحلةٍ جديدةٍ في تاريخهم الطويل!

وآنَ الأوانُ ليخرجوا من مصر، بقيادةِ موسى عليه السلام، ليتحققَ عملياً قولُه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

لا نعرفُ مقدارَ إقامةِ بني إسرائيل في مصر، فهم قد قَدِموا مصرَ في عهدِ يوسف عليه السلام كما عَرفْنا، ودُفنَ يعقوبُ عليه السلام في مصر، كما دُفن كلُّ أبنائه في مصر.

وبين يعقوب وموسى عليهما السلام عدةُ أجيال، لا نحددُها.

فالفترةُ ما بين دخول بني إسرائيل إلى مصر بقيادةِ أَبيهم يعقوب عليه السلام، وما بين خروجهم من مصر بقيادةِ موسى عليه السلام، فترة طويلة امتدتْ عدةَ أَجيال، لا تُحددها مصادرنا الإسلاميةُ اليقينية، المتمثلةُ بالآياتِ والأحاديث الصحيحة.

أما رواياتُ التوراةِ والعهدِ القديم فتحددُ هذه الفترةَ ما بين الدخول والخروج بأَنها حوالي أربعةُ قرون.

ويحاولُ المؤرخون وعلماءُ الآثار تحديدَ هذه الفترةِ بالسنوات، فيذهبون إِلى أنَّ يوسف عليه السلام دخلَ مصر في القرن السادس عشر قبل الميلاد تقريباً، وذلك في عهد الأسرة السادسة عشرة، ويذهبون إِلى أنَّ موسى عليه السلام خرجَ من مصر في القرن الثاني عشر قبلَ الميلاد تقريباً، وذلك في عهد الأسرةِ التاسعة عشرة ولا نجزمُ بما قالوه، والله تعالى أعلم[١].

كلُّ ما نقولُه إِنَّ فترةَ إِقامةِ بني إسرائيل في مصر كانت طويلة، لعلَّها امتدتْ عدةَ قرون، ومضى عليهم فيها عدةُ أجيال.

أَوحى اللّهُ إِلى موسى عليه السلام أنْ يستعدَّ للخروجِ بقومه بني إسرائيل من مصر، وأنْ لا يُشعرَ بذلك المصريين، حتى لا يقومَ فرعونُ وملؤه بمنعهم.

أخذ الحلي والزينة من المصريين وتوجيه ذلك:

وطلب موسى من قومه الاستعدادَ للخروج، فقد حانَ وقتُ الفرج وانتهاءِ مرحلة التعذيب والاضطهاد.

وقد طلبَ موسى من النساءِ الإسرائيليات أنْ يأخذنَ حلياً وزينةً وأساورَ من النساء المصريات.

وأشارَ القرآنُ إشارةً غيرَ صريحة إلى هذه المسألة، ووردتْ هذه الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾ [طه: ٨٧].

وكان ذلك بعدما عبدوا العجلَ في غيبةِ موسى عليه السلام، حيث ذهبَ إلى مناجاةِ الله عند جبل الطور، فجاءهم السامري، وأخذَ منهم ما

(١) انظر «قصص الأنبياء» لعبد الوهاب النجار: ٢٠١ ـ ٢٠٣.

معهم من حليٍّ وزينة، وصنعَ لهم عجلاً جسداً، وزعم أنه ربُّهم، ودعاهم إلى عبادته. فلما جاءَ موسى عليه السلام وغضبَ من فعلتهم، وسألَهم عن سبب ذلك، ذكروا له قصةَ «زينةِ القوم».

والشاهدُ في الآية قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا﴾.

وهذه جملةٌ قرآنية مجملة، وظاهرُها أنَّ الإسرائيليين تحملوا أوزاراً بسببِ زينةٍ أَخذوها من القوم، وأنهم يشعرونَ بحرجٍ من تلك الأوزارِ والآثام التي حملوها، فلما رأوا فرصةً مناسبةً للتخلّصِ منها قذفوها وتخلصوا منها.

فما هي الزينة؟ ومن هم القوم؟ ولماذا اعتبرها الإسرائيليون أوزاراً تحملوها، وقذفوها ليتخلَّصوا منها؟

هذه أسئلةٌ لم تُجبْ عليها الآياتُ والأحاديثُ الصحيحة، وإن كان عليها جوابٌ مفصلٌ في روايات التوراة.

إنَّ ظاهرَ هذه الجملةِ القرآنية أنَّ الإسرائيليين حَمَلوا أوزاراً وآثاماً، بسببِ الزينة التي أخذوها من القوم، فالقومُ هم المصريون لأَنهم خرجوا من عندهم قبلَ فترةٍ قريبة من عبادتهم العجل، والزينةُ هي الحلي والجواهر التي يتزينُ بها الناس، ولعلَّها هي الذهب والأساور والخواتم وغيرها.

ولعل هذه الجملةَ القرآنيةَ تشيرُ إلى أن الإسرائيليين أَخذوا زينةً وحلياً من المصريين قبلَ خروجهم، فشعروا بالتحرجِ بعد ذلك، فأخذها السامريُّ منهم، وصنعَ لهم عجلاً.

وإذا كان هذا هو معنى الجملة القرآنية المجملة، يكون الإسرائيليون قد أَخذوا زينةَ المصريين بإذنٍ من موسى عليه السلام. والله أعلم.

وإذا كان ذلك كذلك، يكون إذنُ موسى لهم بذلك صواباً،

ويكون فعلُ الإسرائيليين مشروعاً، لأنه أَخْذٌ لبعضِ حقوقهم، ولا يكون سرقةً أو غصباً، كما قد يفهمُ بعضُ الناس.

لقد كانَ المصريونَ يضطهدون الإسرائيليين، ويُسخرونهم لخدمتِهم بدون مقابل، ويأكلونَ حقوقَهم وأموالهم، فللإسرائيليين حقوقٌ عند المصريين، كانوا عاجزين عن أَخذها منهم.

والآنَ حانتْ وسيلةٌ يأخذون بها بعضَ حقوقهم، وهي أَخْذُ بعضِ حليِّهم وزينتهم، وهم في الحقيقةِ أَخذوا بعضَ أموالهم التي عند المصريين. ولهذا لا ضيْرَ لهم في ذلك، ولا يلامون عليه!

تجهزَ الإسرائيليون للخروجِ مع موسى عليه السلام، وانتظروا إِشارتَه لهم بذلك.

موسى يسري بأتباعه ليلاً:

وأَخيراً جاءَ الإذنُ من الله لموسى بالخروج بقومه، حيث أوحى إليه أن يخرج بهم ليلاً، بدون علم المصريين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [طه: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣].

إِن اللّهَ هو الذي يحفظُ ويرعى موسى وأَتباعَه المؤمنين، ويقودُهم من مكانٍ إلى مكان، ويأخذُ بأيديهم من موقعٍ إلى موقع. فلما حانَ وقتُ خروجهم من مصر، أَوحى إلى رسولِه موسى عليه السلام ليخرجَ بهم.

طلبَ منه أنْ يسريَ بعباده المؤمنين ليلاً.

و«أَسْرِ»: فعلُ أمر. ماضيه: أَسرى. فهو رباعي.

تقول: أَسْرى. يَسْري. أَسْرِ.

وفرْقٌ بين: سَرى وأَسرى.

فالفعلان يستعملان في المشيِ بالليل. أما: سارَ فهو يستعملُ في المشي بالنهار.

يقال: سارَ الرجل: إذا مشى في النهار.

ويقال: سَرى الرجل: إِذا مشى في الليل.

ويقال: أَسرى الرجلُ بالآخر: إذا اصطحبه وسارَ به في الليل.

قال الراغب: «السُّرى: سيرُ الليل. يقال: سَرى وأَسرى..»[1].

سار وسرى وأسرى: وقفة لغوية:

ولأَبي البقاء الكفويِّ كلامٌ لطيف عن السُّرَى والإِسراء والسير. قال:

«السُّرى»: سيرُ عامةِ الليل.

والهمزة في «أَسرى» ليستْ للتعدية، ولهذا يتعدّى الفعلُ بالباء، فيقال: «أسرى به».

وسَرى وأَسرى بمعنى: السيرِ معظم الليل.

وقيل: سَرى: في السيرِ أولِ الليل. و: أَسرى: في السيرِ آخر الليل.

و: سارَ: السيرُ بالنهار.

و: التأويب: السيرُ طيلةَ النهار.

و: الإِسْآد: السيرُ طيلةَ الليل والنهار.

ولم يتعدَّ «سار» إلى المفعول به مباشرة، وإِنما يتعدى إِليه بحرفِ الجر «في». يقال: سارَ في الأرض.

وقد يتعدّى «سَرى» بالباء. فيقال: سَرى به. ومعناه أنه صحبَه معه في السير ليلاً.

---

(١) المفردات: ٤٠٨.

وقد يتعدى «أَسرى» بالباء، فيقال: أَسرى به. ويدلُّ على المصاحبة. أي أَنه صحبَه معه في السير ليلاً[1].

الإسراء في القرآن:

و«أَسرى» في القرآن لم يَرِدْ إلا متعدّياً لما بعده بالباء.

فاللّهُ هو الذي أَسرى بمحمد عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

وأَمَر اللّهُ لوطاً عليه السلام أنْ «يَسري» بأهله ليلاً قبلَ وقوع العذاب بقومه الشاذين. قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [الحجر: ٦٥].

وأَمَرَ اللّهُ موسى عليه السلام أنْ «يَسري» بعباده ليلاً. قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان: ٢٣].

و«الإِسراء» في القرآن مقرونٌ في السير بالليل، من خلالِ الآيات التي أوردناها.

وقولُه تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ينصُّ على سببِ تكريمِ الله لبني إسرائيل وإنقاذهم، إنه عبوديتُهم لله: «أسر بعبادي». فهم مؤمنون بالله، عابدون له، ولذلك أَنجاهم اللّهُ من أعدائهم.

والإِسراءُ بهم ليلاً لئلا يفطنَ لهم المصريون، لأنَّ المصريين كانوا يراقبونهم ويَرصدونَ حركاتهم، فإذا علموا بخروجهم تَبعوهم ولحقوا بهم: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

وقد اختارَ اللّهُ لبني إسرائيل الخروجَ من مصر ليلاً، وهذا لفضْلِ السُّرى في الليل، الذي جعلَه اللّهُ وسيلةً لإنقاذ أوليائه.

---

(١) الكليات لأبي البقاء: ٥٠٥ بتصرف واختصار.

فلوطٌ عليه السلام أَسرى بأهله ليلاً، وموسى عليه السلام أَسرى بقومه ليلاً، ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام أَسرى بالصّدّيقِ رضي الله عنه ليلاً، ليلةَ الهجرة من مكة إلى المدينة.

ووردَ في المَثَلِ العربي الصحيح قولهم: عندَ الصباح يَحمدُ القومُ السُّرىٰ.

أي: عندما تشرقُ الشمسُ في الصباح، ويتجاوزُ القومُ الخطر، يَعرفونَ فضلَ سُراهم بالليل، واحتمالِهم مشقةَ السير فيه.

فرعون يعلن التعبئة العامة للحاق بهم:

خرجَ موسى عليه السلام ببني إسرائيل ليلاً، وافتقدَ الملأُ من قوم فرعون بني إسرائيل، وعَلموا بخروجهم مع موسى عليه السلام، وأَخبروا فرعونَ بذلك، فاستشاط غضباً على موسى وعلى بني إسرائيل، وأرادَ أنْ يُعيدَهم، لا محبةً بهم، ولكن ليعاقبَهم، وليُبقيهم خدماً عبيداً للمصريين.

إنَّ خروجَ بني إسرائيل من مصر خسارةٌ للمصريين، حيثُ كانوا يستخدمونَهم في أَعمالهم ومشاريعهم، سخرةً واستعباداً، وبخروجهم سيحتاجون إلى مَنْ يقومون بأَعمالهم التي كانوا يعملونَها، ولهذا أَرادوا إِعادتَهم.

كما أَنَّ خروجَ بني إسرائيل خسارةٌ لفرعون نفسِه، لأنه يعني هزيمتَه في معركته مع موسى عليه السلام، وهزيمةَ آلِه وملئه في مواجهة المؤمنين. وكيفَ يسلّمُ فرعونُ وملؤه بالهزيمة؟

اتفقَ فرعونُ مع ملئِه على اللحاق ببني إسرائيل وإعادتهم، وأَمَرَ فرعونُ بحشرِ جنوده من مختلف المناطق ليلحقوا بهم. قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى

ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٥٦].

أمرَ فرعونُ بالتعبئة العامة، وأرسلَ في المدائن حاشرين.

لقد أرسلَ فرعونُ في المدائن حاشرين مرتين:

المرةُ الأولى: عندما أَمر بحشرِ السحرةِ من مختلف المدائن، وإحضارهم إلى العاصمة، ليواجهوا موسى عليه السلام. ووردَ هذا الحشرُ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء: ٣٦ ـ ٣٧].

فكانَ الحشرُ في المرة الأولى حشرَ سَحَرة فقط.

المرة الثانية: عندما أمرَ بحشرِ الجنود من مختلفِ المدائن، وتجميعِهم في العاصمة، ليلحقوا ببني إسرائيل الخارجين، ويُلقوا القبضَ عليهم.

معنى قوله عنهم: هؤلاء شرذمة قليلون:

ولما أمرَ فرعونُ بالتعبئة العامة علَّلَ أمرَه بأنَّ السببَ هو موسى ومَنْ معه مِنْ بني إسرائيل. وأخبرَ فرعونُ جنودَه في المدائن بأن بني إسرائيل «شرذمة قليلون».

ومعنى: «شرذمة»: طائفة قليلة.

قال الراغب: «الشرذمة: الجماعةُ المنقطعة. وهي مأخوذةٌ من قولهم: ثوبٌ شراذم. أي: متقطع»[1].

في كلام فرعونَ لجنوده عن بني إسرائيل: «إن هؤلاء لشرذمة قليلون» تقليلٌ وتحقيرٌ وتهوينٌ لبني إسرائيل، وهذا التهوينُ وردَ في اللفظين: «شرذمة» و«قليلون».

---

(١) المفردات: ٤٥٠.

ومن خلالِ معنى «شرذمة» كما أوردناهُ عن الإمامِ الراغب الأصفهاني، نعرفُ أنَّ «شرذمة» في الآية لا يُرادُ بها قلةُ بني إسرائيل، لأنَّ القلةَ لها لفظٌ خاص هو «قليلون».

إنما أرادَ بكلمةِ «شرذمة» أن بني إسرائيل جماعةٌ متقطعةٌ متشرذمةٌ متفرقة، أي أَنهم شراذم متقطعة، لا أصلَ لها ولا وطن، ولا جامعَ يجمعُها، وأنَّ أفرادَها متفرقون فيما بينهم، وأنهم تجمعوا على موسى.

وهؤلاء الشراذمُ ليسوا كثيرين، ولا يشكِّلون أغلبية، إِنهم قليلون، والناسُ ليسوا معهم ولا يؤيدونهم، ولو كانوا على حقٍّ وصواب لما كانوا شرذمةً قليلين.

كيف يغتاظ المصريون ويحاذرون من شرذمة قليلين؟:

وقد وقعَ فرعونُ في تناقضٍ ظاهر، وهو لا يدري، فبينما وصفَ بني إسرائيل بأنهم شرذمةٌ قليلون، وصَفَهم بأنهم غائظونَ له ولملئه ولقومه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

والمعنى أنهم أغاظوهم جميعاً، ومَلَئوا قلوبَهم غيظاً عليهم، بسبب مخالفتهم لهم في دينهم، وخروجِهم على نظامهم وحكمهم، وتحرُّرِهم من سيطرتهم واستعبادهم.

وهذا اعترافٌ من فرعون بأنَّ بني إسرائيل خطيرون مزعجون له ولنظامه ودولته، يشكِّلون عليهم خطراً مباشراً.

فإذا كانوا شرذمةً قليلين، لا وزنَ لهم ولا قيمة، فكيف يكونون غائظين لدولة كبيرة؟ وكيف يكونون خطرين على دولة كبيرة؟

وزادَ فرعونُ في هجومه على بني إسرائيل، وفي تحذيرِ قومه منهم، فقال في «مرسومِ التعبئة العامة» عنهم: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾.

والمعنى: نحنُ جميعاً حذرون منهم، حاذرون لهم، منتبهون لمشكلتهم، مدركون لخطرهم، حريصون على التخلصِ منهم.

و«حاذرون» جمع، مفردُه «حاذر» وهو اسمُ فاعل للفعلِ الرباعي «حاذَرَ». وهو يدلُّ على المبالغة في الحذر.

وقولُ فرعون ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ دليلٌ آخر على تناقضِه في الحديث عن بني إسرائيل، فكيف يكونون شرذمةً قليلين، وجميعُ الناس في الدولة مشغولين بهم، حاذرين منهم؟

واتهامُ فرعون لبني إسرائيل بأنهم شرذمةٌ قليلون، وتهوينُ شأنهم وتحقيرهم، هو نفسُ منطق كلِّ طاغيةٍ متجبر، حيث يتهمُ الذين يخالفونه بأنهم شرذمةٌ قليلون، وأنهم «أقلية» لا وزْنَ لها ولا قيمة، وأنَّ «الأغلبية» معه، وأنه على الأَقليةِ أن تنحازَ إلى رأي الأغلبية، وأنْ تتخلىٰ عن ما هي عليه!!

ومن لطائفِ التعبير القرآني أنَّ كلمةَ «المدائن» وكلمة «حاشرين» وردتْ في القرآن ثلاثَ مرات، كلُّها في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، مرة في سورة الأعراف، ومرتين في سورة الشعراء.

أما الكلماتُ الأربعةُ التالية: «شرذمة» «قليلون» «غائظون» «حاذرون». فلم تردْ كلُّ واحدة منها إلا مرةً واحدة في القرآن، في هذا الموضعِ من قصة موسى عليه السلام، وفي اتهام فرعون لبني إسرائيل.

خرجَ فرعونُ بجنودِه الذين حشرَهم من مختلف المدائن، ولحقَ بموسى عليه السلام وأَتْباعه المؤمنين.

ولا تخبرُنا مصادرُنا الإسلاميةُ اليقينية عن عددِ المؤمنين الذين خرجَ بهم موسى عليه السلام من مصر، ولا عن عدد الجنود الذين تمكَّنَ فرعونُ من حشدِهم وتعبئتهم والخروج بهم. بينما تَذكُرُ الإسرائيلياتُ أرقاماً بعشراتِ الألوف من المؤمنين، ومئاتِ الألوف من جنود فرعون، ولا يَعنينا الوقوفُ عند هذه الإسرائيليات.

خروج جنود فرعون من النعيم إلى الهلاك:

وكان خروجُ فرعونَ بجنوده الخروجَ الأخير، لأنَّ اللّهَ سينتقم

منهم ويغرقُهم بعد ذلك. ولذلك علَّقتْ آياتُ القرآن على خروجِهم. قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩].

لقد أَعطى اللّهُ فرعونَ وجنودَه الكثيرَ من الآيات فلم يعتبروا بها، وحَذَّرهم من حربِ الحقِّ وأهلِه فلم يرتدعوا، وأَملى لهم وأمهلَهم فلم يستفيدوا من ذلك الإملاءِ والإمهال، وأَصروا على ما هم فيه من كفرٍ وضلالٍ وعدوان.

وحانَ وقْتُ الخلاصِ منهم والقضاءِ عليهم، وهم الآن يعيشون الساعاتِ الأخيرةَ من حياتهم، فها هم قد خَرجوا للقضاءِ على موسى وأتباعه المؤمنين، واللّهُ هو الذي أَخرجَهم، لأَنهم هم الذين اختاروا طريقَهم الأسودَ الذي يقودُ إِلى الهلاك، واللّهُ يوقعُ بالإنسانِ نتيجةَ ما اختاره، من خيرٍ أو شر.

لقد كانوا آمِنين في مصر، يتنعَّمون في الجناتِ والبساتين، والعيونِ والثمراتِ، والكنوزِ والأموال، والمقامِ والسلطان، والخيرِ والرفاه، وكانوا يتلذَّذون ويستمتعون بهذا النعيمِ الكبير. ولكنهم لم يَحفظوا ذلك، ولم يُحافظوا عليه، ولم يَشكروا الله به، واختاروا طريقَ الكفرِ والباطل والعدوان، فنتج عنه حرمانُهم من كلِّ ذلك النعيم.

أَخرجَهم اللّهُ من الجناتِ والعيون، والكنوزِ والمقامِ الكريم، وتركوا البساتينَ والأنهارَ والأموالَ والأرزاق والمنازل والقصور، وخرجوا من النعيمِ إلى الجحيم!!. وهم الذين جَنوا على أنفسهم!

لحاق المصريين بالإسرائيليين عند شروق الشمس:

سارَ موسى عليه السلام بأَتْباعِه ليلاً، متوجِّهاً نحو البحر، للخروج مِن مصرَ إِلى الأرض المقدسة، ولحقَ بهم فرعونُ وجنودُه الكثيرة.

ولما أَشرقتْ شمسُ الصباح اقتربَ فرعونُ وجنودُه من المؤمنين قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء: ٦٠].

أي: وَصَلوا إِليهم عند شروق الشمس، بينما كانوا متوجِّهين نحو الشرق، لأنَّ البحرَ الأحمر واقعٌ شرقَ مصر. فكلمةُ «مشرقين» تتضمنُ معنيين: جهةَ الشرق، وشروقَ الشمس.

ولما أَشرقت الشمسُ كان بنو إسرائيلَ على شاطئ البحر، فوقفوا على الشاطئ، لأنهم لا يملكونَ سفناً أو قواربَ تنقلُهم للجانب الثاني في سيناء!!

ونظرَ بنو إِسرائيل خلفهم، فرأَوا منظراً في غايةِ الهول والخوف! رأوا فرعونَ وجنودَه الكثيرين مقبلين عليهم، ليأخذوهم ويهلكوهم، وماذا يفعلُ بنو إِسرائيل القلائل، العزَّلُ من السلاح، بهذا الجيشِ الكثيفِ المدججِ بالسلاح؟

واستيقظَ الخوفُ في قلوبهم، وسيطرَ الفزعُ عليهم، فها هم أَعداؤُهم الألداءُ يقتربون منهم ليقضوا عليهم، فأَطلقوا صيحةً ملؤُها الهلعُ والخوف، وقالوا: لقد أَدركونا، والآن سيأخذوننا ويقضون علينا. ولكنَّ موسى عليه السلام كان في غايةِ الطمأنينةِ والهدوء، لأنه موقنٌ أنَّ اللّهَ معه، سينقذُه من أعدائه، ويَهديه إِلى التصرفِ المناسب.

وقد سجلتْ آياتٌ من القرآن ما قالوه لموسى عليه السلام وما رَدَّ به عليهم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢].

معنى «تراءى الجمعان»:

معنى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾: لما رأى كلُّ فريقٍ منهما الفريقَ الآخر. حيثُ رأى قومُ موسى جندَ فرعون، فخافوا وفزعوا، ورأى جندُ فرعونَ قومَ موسى محصورين بينهم وبين البحر، ففرحوا واستبشروا، لأَنهم أيقنوا بالقبضِ عليهم والخلاصِ منهم.

و«تراءى»: فعلٌ ماض، مشتقٌّ من «رأى»، لكنه يدلُّ على الرؤيةِ المشتركةِ بين الطرفيْن الرائيَيْن.

إنها أَفعالٌ ثلاثة:

الأول: الماضي الثلاثي: رأى. وهو النظرُ والإبصارُ بالعين. تقول: رأى الرجلُ أخاه. أي: أبصرَه.

الثاني: الماضي الثلاثي: أَرى. وهو أنْ يجعلَ غيره يرى الشيء. تقول: أرى الرجلُ أَخاه الحقَّ. أي: جعلَه يرى الحقَّ ويعرفُه.

الثالث: الماضي الخماسي: تَراءى. وهو يدلُّ على الرؤيةِ المشتركة، والأَلفُ فيه ألفُ المفاعلة والمشاركة، ولا يُستعملُ الفعلُ إلا إذا كان طرفان، يرى كلٌّ منهما الآخر. تقول: تراءى الرجلان. أَي: رأى كلٌّ منهما الآخر.

ولم يَرِدْ «تراءى» إلاّ في موضعيْن في القرآن، والموضعان في سياقِ المواجهةِ بين المؤمنين والكافرين.

المرة الأولى: في تَراءي قوم موسى لقوم فرعون: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

المرة الثانية: في معركةِ بدر، حيث تَراءى الفريقان، فريقُ المؤمنين وفريقُ الكافرين. قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

أي أنَّ الشيطانَ زينَ لقريش أعمالَهم، ووَعَدَهم النصر، واستعدَّ أنْ يمدَّهم بالمدد، فلما تراءت الفئتان، واصطفَّ جيشُ المسلمين لقتالِ جيش قريش هربَ الشيطان ونكصَ على عقبيه.

بين يقين موسى وخوف أصحابه:

وقولُ أصحابِ موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾: معناه أنَّ جنودَ فرعون قد أَدركونا وظفروا بنا.

و﴿مدركون﴾: اسمُ مفعول من الفعلِ الماضي: أَدرك.

وقولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يسجلُ خوفَهم الفطريَّ من الخطرِ الداهم، الذي ينتظرُهم على يد فرعون وجنودِه، ولا يلامون عليه، ففي الحساب البشريِّ الماديِّ ليس أَمامَهم فرصةُ نجاة، فكيفَ ينجون من جندِ فرعون، والبحرُ على بُعْدِ أمتارٍ منهم، وليس معهم سفنٌ ليعبروه، وجندُ فرعون خلفهم مباشرة، وليس هناك فرصةٌ للإِفلات منهم، ولو قاتلوهم فلن ينتصروا عليهم، لأَنَّ جندَ فرعونَ أكثرُ منهم عدداً وعدة!

كلُّ الحساباتِ البشرية المادية تقررُ أنهم مُدْرَكون، وأَنه قد انتهى أَمرُهم وقُضيَ عليهم، وليس أَمامهم فرصةُ نجاة.

لكن للإيمانِ والتوكل على الله حسابٌ آخر، يعرفُه نبيُّهم موسى عليه السلام. ولهذا طمأَنهم وأَزالَ خوفهم، وهدَّأَ من روعهم، وقال لهم: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

و﴿كَلَّآ﴾: كلمةُ ردع، يردَعُهم فيها، ويطلبُ منهم أنْ لا يفكروا هذا التفكير، ويُريدُ منهم أنْ يُزيلوا الخوفَ من نفوسهم، وأنْ يحلّوا محلَّه الهدوءَ واليقين.

ثم قدمَ لهم حقيقةً قاطعة، عَلَّلَ بها سببَ طمأنينتِه ويقينِه. إنَّ اللّهَ معه، وإِنه سيهديه إِلى التصرفِ المناسب، وسيخلِّصُه من أعدائه، فلن يُدركوه مع أَتْباعه، ولنْ يَقبضوا عليهم، ولن يُهلكوهم.

وكأَنّه يقولُ لأَتْباعه الخائفين: إِنَّ اللّهَ هو الذي أَمرني أنْ أَخرجَ بكم، وأنْ أَتوجَّهَ بكم نحوَ البحر، ووعدني أنْ يحفظَني ويحفظكم، وهو لا يخلفُ الميعاد.

فإذا كانَ اللّهُ قدْ أَخرجَ فرعونَ وجنودَه، وجعلَهم يلحقون بنا، فإِنَّ له حكمةً في هذا، لأنه حكيمٌ عليم، وأَنا أُوقنُ أَنه سيهديني ويُخلصُنا منهم، ولا أَدري كيف يكون ذلك، فأنا ملتزمٌ بتنفيذِ ما يأمرني به سبحانه.

«إن معي ربي»:

والمعيةُ في قوله: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ معيةُ حفظٍ ورعايةٍ وتوفيقٍ وعناية، فربّي معي بعلْمِه وبصره، وبحفظِه وعنايتِه ورعايته. بدليلِ قولهِ بعدها: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، فلأنَّه يحفظُني ويرعاني، فسوفَ يهديني ويُنقذني.

وليستْ هذه أَولَ مرة يوقِنُ فيها موسى بأنَّ اللّهَ معه، فقد سبقَ أنْ عاشَ مظاهرَ معيةِ الله بتأييدِه ورعايته، في مواطنَ سابقةٍ من مواجهتِه لفرعون.

عاشَ مظاهرَ وآثارَ معيةِ الله لما دخلَ على فرعون، وبلَّغه الدعوة، وأَراهُ العصا واليد، فحفظَهُ اللّهُ ورعاه، وعصَمَه من بطش فرعون.

وعاشَ مظاهرَ وآثارَ معيةِ الله لما دخلَ في مباراةِ مع السحرة، حيثُ نصره اللّهُ عليهم، وأظهرَ الحقَّ وأزهقَ الباطل.

بل عاشَ مظاهرَ حفْظِ الله ورعايتِه ومعيته قبلَ هذا، حيثُ تولاّه اللّهُ وهو رضيع، ومَكَّنَ له في قصر فرعون، وتولاّه وهو شابٌّ متوجِّهٌ إِلى أرض مدين، حيث هيَّأَ له العملَ عند رجلِ مدين الصالح.

إنّ حياةَ موسى عليه السلام كلُّها ترجمةٌ عمليةٌ لمعيةِ الله وحفظِه وعنايته ورعايته، لقد كانَ اللّهُ معه في كلِّ خطواته وساعاتِه، أدامَ عليه عنايتَه وتوفيقَه وتأييده.

والآن وهو واقفٌ بقومِهِ على شاطئ البحر، وجيشُ فرعون خلفهم، يزدادُ موسى يقيناً بأنَّ اللّهَ معه، وسينقذُه من هذا المأزق.

لم يَخَفْ موسى ولم يَفْزَعْ لما شاهدَ فرعونَ وجيشَه، ولم يسيطرْ عليه القلقُ والاضطراب، ولم يفقدْ هدوءَه وطمأنينتَه. فواجهَ المشكلةَ بقوةِ الإيمان بالله، وحسنِ الظنِّ بالله، وعظمةِ التوكل على الله، وفاعليةِ اليقينِ بمعية الله.

وهذا ما يجبُ أنْ يوقنَ به ويعيشَه ويستحضرَه كلُّ داعية يواجهُ قوى الباطلِ والشر والطغيان، حتى لا يضعفَ أوْ يستكين، ولا يرهبَهم أَو يتخلى عن الحق خوفاً منهم.

إنها العقيدةُ الحيةُ الفاعلة المؤثرة، مَنْ كانَ معَ الله فإنَّ اللّهَ معه، ومَنْ نصرَ دِينَ الله فإن اللّهَ سينصره، ومَنْ تحدّى أعداءَ الله فإنَّ الله سيحميه. وهذا ما أَيقنَ به موسى عليه السلام!!

[٤]

آيات الله في الإنجاء والإهلاك

وقفَ بنو إسرائيل على شاطئ البحر، لا يملكون وسيلةً مادية للنجاةِ من فرعون وجيشه، ولحقَ بهم الجيشُ الكثيف، ولما صاروا قريبين منهم صاحَ الإسرائيليون قائلين لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾. فردَّ عليهم موسى بلسانِ الهادئ الموقنِ الواثق: كلّا، إنّ معي ربي سيهدين.

وهنا أظهرَ اللّهُ آياتٍ عجيبةً له، نتجَ عنها نجاةُ المؤمنين وهلاكُ الكافرين، آياتٌ ربانيةٌ تدلُّ على أن اللّهَ مع أوليائه، يحفظُهم ويرعاهم، وأَنه ضد أَعدائه، يأخذُهم أَخْذَ عزيزٍ مقتدر.

أمرَ اللّهُ نبيَّه موسى عليه السلام أنْ يضربَ بعصاهُ البحر، لينفلقَ البحر، وتتكوَّن طريقٌ يابسةٌ ممهدة، يسلكُها بنو إسرائيل، ويعبرونَها إلى الأرضِ المقدسة.

وقبلَ عرضِ الآيةِ الربانية الباهرة، نقررُ أنَّ مصادرَنا الإسلاميةَ لا تحددُ المكانَ الذي وقفَ عليه بنو إسرائيل، ولا نقطةَ «العبور» التي عبروا البحرَ منها.

العبور من مكان في خليج السويس:

ويبدو أنَّ العبورَ كان من «خليج السويس»، عَبَروا ضفتَه الغربية إِلى ضفتِه الشرقية في سيناء.

وقد حاولَ بعضُ علماء الآثار المصريين تحديدَ الموضع بأنّه بينَ رأسِ خليجِ السويس وبينَ البحيراتِ المُرَّة، ويُقررون أنَّ خليجَ السويس كانَ متصلاً اتصالاً مباشراً بالبحيراتِ المُرَّة في ذلك الزمان.

نقلَ عبدُ الوهاب النجار في «قصص الأنبياء» عن كتاب «فرعون موسى: قصة الولادة والرسالة والخروج» لأحمد يوسف أحمد، المصوِّر بدارِ الآثار المصرية: «أما موضعُ العبور فلم يُعلمْ بالضبط. والتوراةُ توردُ أسماءَ أمكنةٍ مَرَّ بها بنو إسرائيل حتى أَتوا إلى مكان العبور، وهذه الأمكنةُ ليست مسمياتُها معروفةً اليوم.

والبحارةُ في البحرِ الأحمر يسمّون مكاناً خاصاً في خليج السويس «بركة فرعون»، ويقولون: إن العبورَ كان بها، وهي بعيدةٌ عن السويس كثيراً، تمرُّ بها السفنُ البخارية بعدَ نصفِ الليل إذا قامت من السويس في المساء، وإنّي لأَستبعدُ ذلك.

وأَعتقدُ أنَّ خليجَ السويس كان يمتدُّ في تلك الأزمان إلى البحيرةِ المُرَّة أو ما يقربُ منها. وفي هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورُهم.

وبعبارةٍ أُخرى: عبروا شماليَّ المكانِ المعروف الآن «عيون موسى»، في البَرِّ الآسيوي، وهي لا تبعدُ عن السويس كثيراً.

وبين يدي أطلسٌ تاريخي للأستاذ محمد رفعت، وقد رسمَ فيه طريقَ عبورِ بني إسرائيل بين السويس وبين البحيرة المرة، ورسمَ خطيْن يدلاّن على أنَّ خليج السويسَ كان متصلاً بالبحيرة المرة..»[1].

نسجلُ هذا الكلامَ لعلماءِ الآثارِ المصريين، ونوردُهُ من بابِ الاستئناس، وليس من بابِ الجزمِ واليقين، فلا نملكُ الأدلةَ على تحديدِ نقطة العبور، ولا يضرُّنا الجهلُ بها، واللّهُ أعلم.

---

(١) قصص الأنبياء للنجار: ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

معجزة انفلاق البحر:

أمرَ اللّهُ موسى عليه السلام أنْ يضربَ البحرَ بعصاه، عصاهُ المعروفةُ التي جعلَها اللّهُ آيةً من قبل، جعلَها حيةً تسعى. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].

أَجرى اللّهُ آيتَه معجزتَه على يدِ موسى عليه السلام، وأَمَرَهُ أنْ يأخذَ بالأسباب، وأنْ يقومَ بحركةٍ بسيطةٍ منه، وهي أنْ يضربَ البحرَ بعصاه!

ونفَّذَ موسى أمْرَ الله، وضربَ بعصاهُ البحر، وكان الوقتُ صباحاً عند شروق الشمس، لأنَّ اللّهَ قال: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾. ونظرَ بنو إِسرائيل إِلى البحر أَمامهم، فإذا به يتأثرُ بضربةِ العصا، ويأمُرُهُ اللّهُ أنْ ينفلقَ فلقتين، واحدةً عن اليمينِ والأخرى عن الشمال، فينفذُ البحرُ أمْرَ الله، وينفلق. وينظرُ بنو إسرائيل إِلى ماءِ البحر فإذا به صامدٌ صلبٌ جامد، غيرُ مائعٍ ولا منساب ولا متداخل ولا مستطرق. يقفُ الماءُ عن اليمين كالجبلِ العالي، ويقف عن الشمالِ كالجبل العالي أيضاً. وينظرونَ إِلى الماء، ما الذي يحجزُهُ ويوقفُه؟ لماذا لا يستطرق ويتداخل؟ لا يوجد سَدٌّ ولا جدار!! إنه واقف هكذا، دونَ أنْ يحجزَه حاجز!! إنّ اللّهَ هو الذي يمسكُه بقدرته، ويحجزُه بأمره، ويمنعُه أنْ ينساب ويستطرق، لقد أمرَهُ اللّهُ بذلك، فنفذَ البحرُ أمْرَ الله، لأنه مستسلمٌ له، جنديٌّ من جنوده، وما يعلم جنودَ ربِّك إلا هو.

إنَّ اللّهَ رتَّبَ سنناً كونية، تَحكمُ الكونَ وما فيه بأمرِ الله وإرادته، ولا يخرجُ عنها أيُّ شيء من مخلوقات هذا الكون، فالنارُ تحرق، والماءُ يُغرق، والسكينُ تَذبح، وإنَّ اللّهَ يوقِفُ أَحياناً بعضَ سننه الكونية، لتحقيقِ أمرِه وإرادته.

الفلق والفرق والموج كالطود العظيم:

جعلَ اللّهُ مياهَ البحارِ والأنهار متداخلةً منسابةً مستطرقة، لا

يحجزُها إلاّ سَدٌّ أو حاجز، وأَوقفَ اللّهُ هذا في ذلك اليوم المشرق، وأَمَرَ البحرَ أَنْ يتجاوبَ لضربة موسى، فوقفَ ماؤه على جانبي الطريق بدون سَدٍّ أَو حاجز.

وتعبيرُ القرآن عن انشقاقِ البحر بالفلق «فانفلق» مقصود، لأنَّ الفلقَ هو فصلُ شيئين عن بعضِهما.

قالَ الإمامُ الراغب: «الفلق: شقُّ الشيء، وإِبَانةُ بعضِه عن بعض..»[1].

فالمرادُ بيانُ انفصالِ جزءَي البحرِ عن بعضهما انفصالاً حقيقياً مادياً مشاهداً، وابتعادِ أَحدهما عن الآخر، وكأنَّ الجزءَيْن فلقتان حقيقيتان، كما تَفلقُ الحبةُ إِلى فلقتين، وتقسمُها إلى قسمين منفصلين!

وشبَّهَ القرآنُ كلَّ فلقةٍ من فلقتي البحر بالجبل: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قال الإمامُ الراغب عن الفِرْق: «الفِرقُ يقاربُ الفلق. لكنَّ الفَلْقَ يُقال اعتباراً بالانشقاق، والفِرْقَ يُقال اعتباراً بالانفصال. قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾. والفِرْق: القطعةُ المنفصلة، والفِرقة: الجماعةُ المتفردة من الناس..»[2].

فالفِرْقُ: القطعةُ المنفصلةُ عن غيرها. وجعلَ اللّهُ البحرَ فِرْقين، كلُّ فرق منفصلٌ عن الآخر.

وشبَّهَ القرآنُ كلَّ فرقٍ بالطودِ العظيم ولم يَرد الطودُ في غيرِ هذا الموضع في القرآن.

والطَّوْدُ مشتقٌّ من: «طاد». ومعنى طاد: استقرَّ وثبت.

---

(١) المفردات: ٦٤٥.

(٢) المرجع السابق: ٦٣٢.

و«الطَّوْدُ» هو: الجبلُ العظيم، الذاهبُ صُعُداً في الجو. ويُشَبَّهُ به غيرُه، من كلِّ مرتفعٍ أو عظيم أو راسخ[1].

وتشبيهُ كلّ فرقٍ بالطودِ العظيم لوحظَ فيه استقرارُ ماء البحر وثباتُه وانفصالُه، وعدمُ تداخله وانسيابه، كما لوحظَ فيه ارتفاعُ ذلك الفِرقِ ارتفاعاً عالياً، يقدَّرُ بمئات الأقدام!

أمسكَ اللّهُ ماءَ البحر بقدرتِه وإرادته، وفَلَقَ البحرَ بأمره، وفَرَقَهُ فِرْقين عظيمين بمشيئته، وجعلَ بين الفِرقين طريقاً آمناً يَبَساً بحكمته، وذلكَ ليسلكَهُ أتباعُ موسى المؤمنون.

معجزة الطريق اليبس في قعر البحر:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧].

لقد شقَّ اللّهُ طريقاً في قعرِ البحر، وجعلَه في لحظاتٍ آمناً ممهَّداً، يَبَساً جافاً، صالحاً للسير.

ولم تَرِد «يَبَساً» في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

وفَرَّقَ الإمامُ الراغبُ بين اليَبْس واليَبَس فقال: «اليَبْس: يابسُ النبات، وهو ما كان فيه رطوبةٌ فذهبت.

واليَبَس: المكانُ يكون فيه ماءٌ فيذهب. قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾[2].

وورِدَ في المعجم الوسيط: «اليَبَس: اليابس. يقال: أرضٌ يَبَس: صلبةٌ شديدة، ومكان يَبَس: كان فيه ماءٌ فذهب»[3].

---

(١) المعجم الوسيط ٢: ٥٦٩.

(٢) المفردات: ٨٨٩.

(٣) المعجم الوسيط ٢: ١٠٦٢.

وتجفيفُ قاعِ البحر من الماءِ والطين، وتحويلُه إلى أرضٍ «يَبَس» جافة، آيةٌ أُخرى من آيات الله، لأنَّ اللّهَ هو الذي أمرَ تربةَ قاعِ البحر أنْ تشربَ الماء، وأمَرَ الطينَ أنْ يجفَّ في لحظة، فتحولَ قاعُ البحر إلى طريقٍ يَبَس!

وطمأنَ اللّهُ موسى على الطريقِ الجديد، فقال له: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾.

الدَّرَك ـ بالفتح ـ الغرق في الدَّرْك ـ بالسكون ـ:

والدَّرَكُ من الفعلِ الثلاثي «دَرَكَ»، وليس من الرباعي «أَدْرَك». فمعنى: أَدْرَكَ: لحقَ وبلغ. تقول: أَدركَ الرجلُ الآخر. إذا لَحقه وبلَغَه ونالَه وأحاطَ به وقبضَ عليه، وهذا ما خشيه بنو إسرائيل لما شاهدوا جنودَ فرعون، حيث قالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾.

مُدْرَكون: اسمُ مفعول من الرباعي «أدرك».

فطمأَنَهم موسى بأنهم لن يُدْركوا، ولن يحيطَ بهم فرعونُ وجنودُه، ولن يأخذوهم ويقبضوا عليهم.

أما «الدَّرَكُ» هنا: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ فهو اسمُ مصدر. ويُطلقُ على أسفلِ كلِّ شيء ذي عمق، كالبئر ونحوها.

ووردَ في القرآن كلمتان: الدَّرْك بالإسكان، والدَّرَك بالفتح.

أَما الأُولى فوردَتْ في سياقِ الإخبار عن ما أَعَدَّ اللّهُ من عذابٍ للمنافقين في النار. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

ومعنى الآية أنَّ المنافقين في قعْرِ جهنم الأسفل.

فالدَّرْكُ ـ بإسكان الراء ـ هو القعر.

أما الدَّرَك ـ بفتح الراء ـ فهو الوصولُ إلى الدَّرْك. تقول: دَرَكَ الرجلُ دَرَكاً: إذا وصل إلى الدَّرْك. ويُستعملُ هنا في الغرق[1].

فمعنى قول الله لموسى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ لا تخافُ غرقاً، فاسلكْ هذا الطريقَ اليبس، الممتدَّ في دَرْكِ البحر وقاعِه، وسطَ أمواجِ البحرِ الواقفةِ على جانبيك، ولا تخافُ انطباقَ الأمواج عليك، ولا تَخافُ دَرَكَك تحتَ الماء، وغَرَقَك في قاعه، فسوفَ يحميكَ اللّهُ ويحفظُك، ويجعلك تجتازُ بقومك الطريق، ولن يطبقَ عليك فِرْقي البحر.

والخلاصةُ أنَّ الدَّرْكَ بإسكان الراء هو القعر، والدَّرَكَ بفتح الراء هو الغرقُ والوصولُ إلى القعر.

الله ينجي موسى وأتباعه:

أَمَرَ اللّهُ موسى أنْ يَعْبُرَ بأَتْباعِه المؤمنين الطريقَ الجديدَ في قاع البحر، فدخَلَه، ودخلَ بنو إسرائيل خلفه، وعَبروا الطريقَ الآمنَ اليَبَس. وأمسكَ اللّهُ لهم ماءَ البحر عن يمينِهم وشمالهم كالطودِ العظيم. وتأمُّلُ وتخيُّلُ هذا المشهدِ المصوَّرِ المعجزِ يزيدُ إيماناً بالله، وبقوَّتِه وإرادتِه وحكمته. فالقومُ يسيرونَ في طريقٍ يَبَسٍ آمن، في قاعِ البحر العَميق، والماءُ واقفٌ عن يمينهم وشمالهم، واقفٌ كالجبل العالي، لا يمسكُه سدٌّ ولا جدار ولا حاجز!! إنَّ هذا من فعلِ الله سبحانه.

سارَ موسى بالمؤمنين في الطريقِ اليَبَس، آمنين مطمئنين شاكرين لله، وكان فرعونُ وجنودُه ينظرونَ إليهم، في هذا المشهد العجيب المثير. وعجبَ القومُ ودُهشوا، واعتبروا الأَمْرَ سحراً من موسى عليه السلام، فهل بلغَ من سحْرِه أنْ يشقَّ طريقاً يَبَساً في قاعِ البحر؟ وهلْ بلغَ من سحره أنْ يوقفَ أمواجَ البحر كالجبال؟ وما دَرى المغفلون أنَّ الأمْرَ أمرُ الله، وأنها آيةٌ عظيمةٌ من آيات الله!

(١) المعجم الوسيط ١: ٢٨١.

ويقرب فرعون وجنوده من الشاطئ:

وأَرادَ اللّهُ أنْ يدخلَ فرعونُ وجنودُه البحرَ ليغرقَهم. قال تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٤].

والمرادُ بالآخرين هنا فرعونُ وجنودُه، الذين وقفوا بعيدين قليلاً عن شاطئ البحر، يَرقبون المنظر.

ومعنى «أزلفنا»: قَرَّبْنا وقَدَّمنا[1].

و«ثَمَّ» بفتح الثاء: اسمُ إشارة بمعنى: هناك.

وقد فرَّقَ التعبيرُ القرآنيُّ بين «ثُمَّ» بضم الثاء، و«ثَمَّ» بفتح الثاء.

«ثُمَّ» بضم الثاء: حرفُ عطف، يدلُّ على الترتيب مع التراخي.

أما «ثَمَّ» بفتح الثاء: فهو اسمُ إشارة بمعنى: هناك.

فمعنى قوله: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾: قَرَّبْنا وأَدْنَينا فرعونَ وجنودَه من البحر، وأَوْقَفْناهم هناك، قريباً من البحر، تمهيداً للخطوةِ التالية.

عَبَرَ موسى وأَصحابُه جميعاً البحر، ومَشوا في الطريقِ اليَبَس، ووصلوا جميعاً إلى البرِّ الشرقي في سيناء: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الشعراء: ٦٥].

أَنجى اللّهُ موسى ومَن معه، مِن فرعون وجنوده، أَنجاهم من القتلِ والتعذيب على أَيديهم. كما أَنجاهم من الغرقِ في مياه البحر، وأَنجاهم من انقلابِ الماءِ عليهم وهم يسيرونَ في الطريقِ اليَبَس، وأَنجاهم مِن أن يكونوا طعاماً للسمك.

ولَمّا وَجدوا أَنفسهم على الشاطئ الآخر ناجين حمدوا الله وشكروه على هذه النعمةِ الغامرة.

---

(١) انظر المعجم الوسيط ١:٣٩٧.

ويأمر موسى أن يترك البحر رهواً:

ونظرَ موسى عليه السلام خلْفَه، فرأى الطريقَ اليبس ما زالَ مفتوحاً، ورأى الماءَ على الجانبين ما زال واقفاً، ورأى فرعونَ وجنودَه واقفين على الشاطئ الغربي، ينظرونَ إلى الطريق، ويهمّون بالدخولِ فيه للحاقِ ببني إسرائيل.

وخشيَ موسى عليه السلام أنْ يدخلَ فرعونُ وجنودُه البحر، وأنْ يَلحقوا بهم، وأرادَ إغلاقَ الطريق أمامَهم، وذلك بأنْ يضربَ البحرَ بعصاه، ليعودَ كما كان!!

ولكنَّ اللّهَ نهاهُ عن ذلك، وأمره أنْ يتركَ البحرَ كما هو، وأنْ يتركَ الطريقَ مفتوحاً، فللّهِ حكمةٌ من ذلك، إنَّ اللّهَ يريدُ أنْ يدخلَ فرعونُ وجنودُه البحر، ويُغريهم بسلوكِ الطريق، ليغرقَهم ويهلكَهم!

قال تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

ولم تَرِدْ كلمةُ «رَهواً» في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

قال الإمامُ الراغب: «رَهواً: ساكناً. وقيل: سَعَةٌ من الطريق، وهو الصحيح. ويُطلَقُ الرِّهاءُ على الصحراءِ المستوية. ويُقالُ لكلِّ حفرةٍ مستوية يجتمعُ فيها الماءُ رَهْو..»[١].

وورِدَ في المعجم الوسيط عن «الرَّهْو»، أنه يستعملُ في السكون، يقال: رَها البحر رَهْواً. إذا سكن.

والرَّهْو: الساكن. يقال: مَطَرٌ رَهْو، وبَحْر رَهْو.

والرَّهو: هو المكانُ المنخفضُ يجتمعُ فيه الماء[٢].

وقالَ الإمامُ ابنُ كثير في تفسيرِ الآية: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾: وذلك أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوزَ هو وبنو

---

(١) المفردات: ٣٦٨.

(٢) انظر المعجم الوسيط ١: ٣٧٩.

إسرائيل البحرَ أَرادَ موسى أنْ يضربَه بعصاه، حتى يعودَ كما كان، ليصيرَ حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصلُ إليهم، فأَمره اللّهُ أنْ يتركَه على حالِه ساكناً، وبشَّره بأنهم جندٌ مغرقون، وأنه لا يخافُ دَرَكاً ولا يخشى.

قال ابنُ عباس: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾: اترك البحرَ على هيئته.

وقال مجاهد: ﴿رَهْوًا﴾: طريقاً يَبَساً كهيئته، لا تأمره يرجع كما كان، اتركه حتى يدخلَ آخرهم.

وهذا هو قولُ عكرمة والربيع بن أنس والضحاك وقتادة وابن زيد وكعب الأحبار وسماك بن حرب[1].

والخلاصةُ أنّ موسى عليه السلام أرادَ إغلاقَ البحر بضربه بعصاه فنهاه الله عن ذلك، وأَمره أنْ يتركَ البحرَ كما هو، وأن يُبقي الطريقَ مفتوحةً وسطه، وأنْ يُبقي الماءَ ساكناً ثابتاً كالجبل. وذلك ليتشجعَ فرعونُ وجنودُه، ويَدخلوا ذلك الطريق، حيث سيغرقُهم الله.

وهذا يدلُّ على أنَّ الله هو الذي يُقَدِّرُ الأحداثَ ويُرتبها، ويختارُ لبني إسرائيل المؤمنين الأصلحَ لهم، وأنَّ الخيرةَ فيما يختارُه لهم، وأنَّ ما يختارُه لهم خيرٌ مما يختارونه هم لأنفسهم.

فموسى عليه السلام خشيَ أنْ يلحقَ بهم فرعونُ وجنودُه، فأَرادَ إغلاقَ البحر، ولكنَّ اللّهَ أَرادَ أنْ يهلكَ فرعونَ وجنودَه، فأبقى البحرَ مفتوحاً، ليغريهم بالدخول.

وإنَّ اللّهَ عليمٌ حكيم خبير في كلِّ ما يقدرُه ويريدُه سبحانه وتعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ١٤٣.

الله يطبق على فرعون وجنوده البحر:

ومكرَ اللّهُ بفرعون وجنوده، وتمَّ ما أراده لهم، فلما شاهدوا الطريق يبساً سالكاً مأموناً، ولما شاهدوا بني إسرائيل قد عبروه آمنين، أيقنوا أنهم سيعبرونه أيضاً.

ولهذا أصدرَ فرعونُ أمره لجنوده بالدخول للّحاقِ ببني إسرائيل، فنفَّذوا أمْرَه ودخلوا الطريق، ودخلَ فرعونُ معهم..

ولما كانوا وسطَ الطريق، يسيرونَ في قاع البحر، والماءُ عن يمينِهم وشمالهم واقفاً كالطودِ العظيم، أَمَرَ اللّهُ الماءَ أنْ ينطبقَ عليهم، وأنْ يتحدَ جزءاه على جانبي الطريق، فنفَّذَ الماءُ أمْرَ الله.. وما هي إلا لحظةٌ حتى كان فرعونُ وجنودُه جميعاً تحت الماء غرقى، كانوا على عمقِ عشراتِ الأقدام تحت الماء، فهلكوا جميعاً.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن مشهدَ غرقهم العجيبِ المثير، بينما كانَ بنو إسرائيل يَنظرون مُعجبين مَبهورين، شاكرين لله.

قال تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات: ٣٨ ـ ٤٠].

تخبرُ هذه الآياتُ أنَّ فرعونَ كَذَّبَ موسى، واتَّهمه بالسحر والجنون، واعتزَّ بركنِه وأصحابِه وجنودِه وأعوانه، واعتمدَ على سلطانه، فحقَّتْ عليه وعلى جنودِه كلمةُ الله، حيثُ أوقعَ بهم عذابَه، وألقاهم في البحر، وأغرقَهم في مياهه، وكان كلٌّ منهم مُليماً مَلوماً كافراً جاحداً معانداً، يستحقُّ هذه العقوبةَ التي أوقعها اللّهُ عليه.

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص: ٣٩ ـ ٤٠].

تسجلُ الآياتُ على فرعونَ وجنودِه استكبارَهم في الأرض، وكفرَهم بالله، وإنكارَهم البعث، وتُرتبُ على هذه الجرائم عقوبتَهم الشديدة، وهي إلقاؤهم في اليم.

وتَدعو كلَّ مؤمنٍ ذي بصيرة إلى أَنْ يعتبرَ ويَتعظ، ويَنظرَ كيف كان عاقبةُ الظالمين، ليتخلّى عن الظلم، وليرى مصارعَ الظالمين على اختلافِ الزمان والمكان.

وقال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٨ ـ ٧٩].

أَتبعَ فرعونُ بني إِسرائيلَ بجنوده بغياً وعدواناً، فأَغرقه اللّهُ مع جنوده في البحر، وغشيهم من اليمِّ ما غشيهم.

و«ما» في جملةِ ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ للتهويلِ والتضخيم. وتُشيرُ إِلى مشهدِ مياه البحر وأَمواجِه العالية وهي تغشى فرعونَ وجنودَه، وتلفُّهم داخلَها.

وتشيرُ الآياتُ إِلى عاقبةِ قيادةِ فرعون لجنوده، وأَنه أَضلَّهم وأَهلكهم، ودمَّرهم وما هداهم!!

أغرقهم الله بعد ما آسفوه وأغضبوه:

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٥ ـ ٥٦].

يُخبرُ اللّهُ في هذه الآياتِ أَنه أَغرقَ فرعونَ وجنودَه بعدَ أَنْ آسَفوه سبحانه.

قال ابنُ عباس: ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أَسْخطونا.

وقالَ ابنُ عباس في روايةٍ أُخرى له ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وغيرهم: ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أغضبونا[1].

وللإمامِ الراغب كلامٌ طيبٌ في معنى الأَسَف بشكلٍ عام، وفي معناهُ بشكلٍ خاص في هذه الآية. قال: «الأَسَف: الحزنُ والغضبُ معاً. وقد يُطلَقُ على كلِّ واحدٍ منهما على انفراد.

وحقيقةُ الأَسَف: ثورانُ دَمِ القلبِ شهوةَ الانتقام. فمتى كانَ ذلك على مَنْ دونَه، انتشرَ فصارَ غضَباً. ومتى كان على مَنْ فوقَه، انقبضَ فصارَ حزناً.

ولذلك سئلَ ابنُ عباس عن الحُزن والغضب، فقال: مَخرجُهما واحد واللفظُ مختلف. فمن نازعَ مَنْ يقوى عليه، أظهرَه غيظاً وغَضَباً، ومَنْ نازعَ مَنْ لا يقوى عليه، أظهره حزناً وجزعاً.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: أغضبونا.

قالَ أبو عبدِ الله علي الرضا بن موسى الكاظم: إنَّ اللّهَ لا يأسَفُ كأسفنا، ولكنْ له أَولياء، يأْسَفون ويرضون، فجعَلَ رضاهم رِضاه، وغضَبَهم غضبه..»[2].

لقد أَغضبَ فرعونُ وجنودُه ربَّ العالمين بكفرهم وضلالهم، كما أَغضبوا موسى عليه السلام والمؤمنين، وهم أَولياءُ اللّهِ وأحبابه، واستحقوا بذلك العقاب، حيثُ أوقعَ بهم اللّهُ عذابَه وانتقامَه، وأَغرقهم في البحر، وجعلَهم عبرةً لمن يعتبر.

ومعنى ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾: جعلناهم عبرةً متقدمةً لمن يأتون بعدهم من المتأخِّرين، حيث يعرفُ الآخَرون اللاحقون ما أَوقعَ اللّهُ بهؤلاء السلف السيئين من العقاب، فيعتبرون ويتعظون.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ١٣٢.

(٢) المفردات: ٧٥.

آيات في غرق فرعون وجنوده:

وأَشارت الآياتُ التي تحدثَتْ عن غرقِ فرعون وجنوده إلى ذهابهم من الوجودِ غيرَ مأسوفٍ عليهم، وإلى نعمةِ الله على بني إسرائيل في ذلك، ليشكروا اللّهَ على هذه النعمة.

قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾ [الأعراف: ١٣٦ ـ ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)﴾ [الإسراء: ١٠٣ ـ ١٠٤].

وبينما مَرَّت الآياتُ العديدةُ في السورِ المختلفة مروراً سريعاً على مشهدِ غرقِ جنود فرعون، فقد توقفَتْ قليلاً في حديثها عن غرقِ وموتِ فرعون نفسه.

فعرضَتْ لنا ثلاث آيات من سورة يونس مشهدَ غرقِ فرعون، وصورتْ لنا اللحظاتِ الأخيرة من حياته، وسجلتْ لنا من آياتِ الله العجيبة في ذلك.

قال تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

تخبرُ هذه الآياتُ أنَّ اللّهَ هو الذي جاوزَ ببني إسرائيل البحر: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾.

يُقال: جازَ فلان الطريق: إذا قطعَه وسارَ فيه.

ويقال: جاوزَ فلانٌ بآخر الطريق: إذا قادَه حتى يقطعَ الطريق(١).

والجَوازُ ـ قطْعُ البحر ـ في الآية مُسندٌ إلى الله، وهو إسنادٌ له دلالتُه، فالله هو الذي شقَّ لبني إسرائيل البحر بقدرتِه وقوته، واللّهُ هو الذي جعلَ لهم الطريقَ اليَبَس فيه، ودَعاهم للسيرِ فيه، ولهذا هو سبحانه الذي قادَهم حتى قطعوه، وجاوزَ بهم حتى اجتازوه.

وقد أَتبعَ فرعونُ وجنودُه بني إسرائيل ولحقوا بهم، وكانَ إتْباعهم لهم بغياً وظلماً وعدواناً، أي أَنهم كانوا باغين معتدين ظالمين في لحاقِهم بهم، يريدونَ إهلاكَهم وقتْلَهم، ولذلك أَغرقهم الله!

أَطبقَ اللّهُ على فرعونَ وجنودِه البحر، فهلكَ جنودُه وماتوا غرقاً، وذهبوا إلى عذابِ الله.

فرعون يعلن إيمانه لما أدركه الغرق:

أما فرعونُ فإنه كانَ تحتَ الماء، وقبلَ أنْ يموتَ أَعلنَ إيمانه،

---

(١) انظر المعجم الوسيط ١:١٤٦.

وهو إيمانُ «المضطر» الذي لا يُقبلُ مِنْ صاحبه. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

ومعنى «أدركه الغرق»: لحقَه الغرقُ ونالَه وبلَغَه وأحاطَ به.

أي: غمره موجُ البحر، وأَحاطَ به الغَرَق، وأَيقنَ فرعونُ أنه لا نجاةَ له من هذا الغرق، وأَنه لا محالةَ ميت.

في هذه اللحظةِ السريعةِ القصيرة عرفَ فرعونُ أَنه زال عنه كلُّ مظاهرِ القوة والجاه والسلطان، والادعاءِ والانتفاشِ والغطرسة، وها هو الآن يواجِهُ مصيرَه ونهايتَه، وحيداً عاجزاً ضعيفاً!!

ولعلَّه مَرَّ به شريطٌ سريع لما كان يتنعمُ ويتقلَّبُ فيه من قبل، ولعلَّه تذكَّرَ ما كان يقولُه لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾. و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾.

فأينَ ادعاؤُه الأُلوهيةَ والربوبية؟ وأَينَ عبادةُ قومِه له؟ وأينَ قولُه لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؟

أينَ ملكُه لمصر الآن؟ وما نفْعُ ملكهِ السابق لمصر في هذه اللحظة التي يصارعُ فيها الموت؟ لقد كانت الأنهارُ تَجري مِن تحته، وهو مزهُوٌّ منتفش، والآن ها هي المياهُ تجري من فوقه ومن جانبيه ومن تحته!!.

لعلَّ هذه المعاني والمناظر مَرَّتْ بخاطِر وخيالِ فرعون للحظات، وهو يصارعُ الموت، فزالت الغشاوةُ عن عينيه، تلك الغشاوةُ التي نتجتْ عن «فرعنتِه» وحُكمِه وسلطانِه، فلما زالَ ذلك عنه عرفَ نفسه على ضعْفِها وعجزِها، واستيقظتْ فطرتُه لحظة، لكن كان زوالُ الغشاوة متأخراً، وكان استيقاظُ فطرتِه متأخراً.

الآنَ عرفَ أنه لا إله إلا الله، وأيقنَ أنه ليس إلهاً، ولهذا أعلنَ إيمانه بالله، وإسلامَه له: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

لقد شاهدَ الآيةَ الربانية التي قدَّمَها اللّهُ لبني إسرائيل، تكريماً لهم، وعرفَ قوةَ الله البالغة، الدالةَ على تفردِه سبحانه بالألوهية والربوبية، وعرفَ فضلَ بني إسرائيل في إيمانهم بالله، الذي أوصلَهم إلى النجاة والفوز.

ولذلكَ أعلنَ إيمانَه بالله، طمعاً في أنْ يَكتبَ له النجاةَ من الغرق كما أَنجى أولياءَه المؤمنين!

وقولُه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ إعلانٌ آخر عن تخلّيه عن فرعنتِه وتكبُّرِه واستعلائِه، وعودتِه إلى التواضع، وقَبولِه أنْ يكونَ واحداً من المسلمين، المستسلمين لله، الخاضعين له! لكن متى جاءَ تخلّيه عن استكبارِه وقَبولُه التواضع؟ جاءَ في وقتِ الاحتضارِ حيث لا يُقبلُ منه ذلك!!

سخرية الملَك بقوله له: آلآن !:

لما أَعلنَ فرعونُ من تحت الماءِ إيمانَه وإسلامَه، ردَّ عليه المَلَك قائلاً: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾.

وهذه الجملةُ سخريةٌ بفرعون، وتأنيبٌ له، وإخبارُه أنَّ إسلامَه وإيمانَه جاءَ متأخراً، فأينَ كان قبلَ ذلك؟ ولماذا لَمْ يؤمنْ من قبل، في وقتِ الاختيارِ والقناعة والتفكير.

كلمةُ «آلآن» من همزةِ الاستفهام و«الآن»، أَصْلُها: «أألآن»، وهذا الاستفهامُ إنكاري، ينكرُ عليه المَلَكُ تأخُرَه في الإسلام والإيمان.

والمدُّ في الكلمة يُسميه علماءُ الترتيل «مَدّاً لازماً كَلِمِيّاً مُخَفّفاً»، بمعنى أَنه يجبُ أنْ يُمَدَّ ستَ حركات وجوباً. وهذا المَدُّ المطوَّلُ يوحي بمزيدٍ من الإنكارِ والسخرية والتأنيب.

وقد كَذَّبَ المَلَكُ فرعونَ في إعلانِ إسلامِه وإيمانه، وسَجَّلَ عليه إفسادَه وعصيانَه، وبغيَه وكفره. أي: لقد أمضيتَ عمرك في العصيانِ الفساد والإفسادِ والظلم والبغي، ورأيتَ كثيراً من الآياتِ والأدلةِ على الحق والإيمان فلم تقبلْها، ودعاكَ الداعون، ونصحكَ الناصحون، فلم تستجبْ ولم تنتصح، وغَرَّكَ ملكُك وسلطانُك، وخدَعَك مَنْ ألّهوك وعَبَدوك وتابعوك على كل شيء.

والآن، وبعد عشراتِ السنين التي قضيتَها على هذه الحالة، وعندما حانَ أجلُك، وصِرْتَ تصارعُ الموت، ولم يَبْقَ من عمرك إلاّ لحظة، الآن جئتَ تعلنُ إسلامَك وإيمانَك! فأين كنتَ من قبل؟!

جثة فرعون على الشاطئ آية ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾:

وقُبيلَ خروج روحه قالَ له: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

ومعناها: أنك ستموتُ الآن، تموتُ كافراً عاصياً مفسداً، وبعدما تموتُ لن تستقرَّ في قعر البحر، ولن تكون طعاماً للأسماك، وإنما سننجيك ببدنك، ونأمُرُ أمواجَ البحر أنْ تلقيكَ على شاطئ البحر، جثةً هامدة، لتكونَ لمن خلْفَك آية، حيثُ سيراك قومُك ميتاً غرقاً على هذه الصورةِ القبيحة الشنيعة، فتكون آيةً وعبرةً وعظةً لهم.

وهكذا انتهتْ حياةُ فرعونَ المستبدِّ الطاغيةَ المتألّه، غريقاً في البحر، وخرجَتْ روحُه من جسده وهو تحتَ الماء، وقبضَ اللّهُ أرواحَ آلِه وجنودِه الغرقى مِن حوله، ولم ينفعْه علوُّه في الأرض، ولم ينصُرْه قومُه وملؤُه، ولم يَدفعْ عنه أحدٌ عذابَ الله.

وكان موتُه غريقاً دلالةً على ضعفِه وعجزه، وكذِبه في ادعائِه الألوهيةَ والربوبية.

وبعدَ خروجِ روحِه من بدنه، وتحويلِه إلى جثةٍ هامدة، أَنجاهُ اللّهُ

ببدنه، وألقاهُ على شاطئ البحر، وجعلَه للناس آية، يشاهدونَها ويتذكّرونها.

وكانَ إنجاءُ بدنِ فرعون بعد موته آيةً من آيات الله، فاللّهُ أمرَ ماءَ البحر أنْ لا يسحبَ فرعونَ إلى قعرِ البحر، فنفذَ الماءُ الأمر. واللّهُ أَمَرَ الأسماكَ أنْ لا تأكلَ جثته، فنفذت الأسماكُ الأمر. واللّهُ أَمَرَ الموجَ أنْ يُلقي الجثةَ على الشاطئ، فنفذَ الموجُ الأمر.

وكانَ الماءُ والسمكُ والموجُ جنوداً من جنود الله، وما يعلمُ جنودَ ربك إلا هو.

ولْنتصورْ منظرَ جثةِ فرعون ملقاةً على الشاطئ، يمرُّ بها قومُه معجبين مندهشين.

لقد كان قبلَ ساعاتٍ في ذروةِ فرعنتِه واستعلائه وتألُّهه، وكان القومُ مؤلِّهين عابدين له، يعتبرونه ربَّهم وإلههم.

والآن ها هو ميتٌ غريق، وها هم ينظرونَ إليه.

ونعلمُ أنَّ الإنسانَ عندما يموتُ غرقاً تتغيرُ ملامحُ جسمِه ومعالمُ وجهه، حيثُ ينتفخُ بطْنُه ووجْهُه، ويزرقُّ جلدُه، ويكون منظره عجباً.

يمرُّ القومُ بفرعون وهو على هذه الصورةِ البشعةِ القبيحة، فيقول قائلهم: هل هذا إله؟ وهو بهذه الصورة؟ هل هكذا تكونُ نهايةُ الإله؟ إنها لا تليقُ بالإنسان؟!

ولذلك جعلَ اللّهُ نجاةَ بدنه آيةً لمن خلْفَه من قومِه وأَتْباعِه الذين عاصروه.

جعلَ اللّهُ جثتَه آيةً لقومه، وهذه الآيةُ لهم في عدةِ جوانب:

الأول: آيةٌ على أنه ليس رباً ولا إلهاً، كما ادّعى وزعم، فلو كان إلهاً لما مات، وعلى هذه الصورةِ البشعة.

الثاني: آيةٌ على أنه لا إِله إلا الله، فاللّهُ وحده هو الإلهُ الواحد، وكلُّ مَن ادّعى الألوهية فهو كاذبٌ مفتر.

الثالث: آيةٌ على قوةِ الله وقدرته، وأخْذِه وبطْشِه وانتقامِه سبحانه، حيث أوقعَ عذابَه بفرعون. وهو آيةٌ على عجزِ فرعون وضعفِه وذلِّه وهوانِه.

الرابع: آيةٌ على صدقِ نبوةِ موسى عليه السلام، وعلى فضْلِ بني إسرائيل المؤمنين، حيث أَنجاهم الله، وأَيَّدهم بالآيات، وأَهلكَ أعداءَهم، وقضى على فرعون.

تحنيط جثة فرعون ودفنها:

ماذا حصلَ لفرعون بعد غرقِه وإِلقاءِ جثته على الشاطئ؟

أَخَذَ قومُه جثَّتَه، وحَنّطوها، ووضعوها في مدافنِ الأسرةِ الفرعونية، بجانبِ جثثِ الملوك الفراعنة الذين ماتوا قبلَه.

وكان المصريون في العهدِ الفرعوني يُتقنون فَنَّ التحنيط.

والتحنيطُ «عندَ قدماء المصريين هو: حفظُ هيكلِ جسمِ الميت، بتخليصِه من الموادِّ الرخوةِ من جلدٍ وغشاء، وتطهيرِ جوفِه بمواد خاصة»[1].

وهو مهارةٌ متقدمة تسجَّلُ للمصريين زمن الفراعنة، في ذلك الزمنِ السحيق، حيث كان يجهلُ التحنيطَ الأقوامُ الذي عاصروهم والذين جاءوا بعْدَهم.

وقد حفظوا جثثَ ملوكِهم وفراعنتِهم المحنَّطةِ في الأهرامات المعروفة، وفي المقابر الملكية، وبقيتْ تلك الجثثُ موجودةً حتى عثرَ عليها علماءُ الآثار، في نهايةِ القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

---

(١) المعجم الوسيط ١: ٢٠٢.

وكان من تلكَ الجثثِ التي عَثروا عليها جثةَ هذا الفرعون، الذي قالَ اللّهُ له قبلَ أنْ يموت غرقاً: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

وكان من أَبعادِ هذه الجملةِ القرآنيةِ المعجزة أنَّ اللّهَ لم يُنْجِ جثتَه لمعاصريه فقط، ولم تكن جثتُه آيةً لمعاصريه فقط، وإنما أَنجى اللّهُ جثتَه من الفَناء، وبقيت محفوظةً في مدافنِ الملوك عشَرات القرون، حتى رآها الناسُ في عصرنا، وصارَ حفظُ جثتِه هذه المدةَ الطويلة آيةً للناس في عصرنا.

مع موريس بوكاي في اكتشاف جثة فرعون:

ونقدمُ هذه القصةَ المعاصرةَ لاكتشافِ جثةِ فرعون، كما يَرويها الدكتورُ المهتدي موريس بوكاي، في كتابه: «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة». ونوردُها من باب «الاستئناس»، وليس من بابِ الجزمِ والقطع.

ينقلُ موريس بوكاي عن المؤرخين وعلماءِ الآثار أنَّ موسى عليه السلام عاصر فرعونَيْن:

الأول: أَطلقوا عليه لقبْ «فرعون الاضطهاد»، وهو الذي قامَ باضطهادِ بني إسرائيل، وهو الذي وُلِدَ موسى عليه السلام في عهده. وهذا الفرعونُ هو «رمسيس الثاني»، وهو أَشهرُ فراعنةِ الأسرةِ الفرعونية التاسعة عشرة، وبنى مدينتَيْن فرعونيتَيْن مصريتَيْن كبيرتَيْن، هما: «فيثوم» الواقعةُ في منطقة «تل المسخوطة» في محافظة الشرقية. و«رمسيس» الواقعة في حدود بلدة «قنطير» الآن. وبنى رمسيسُ المدينةَ الثانية التي سماها باسمه، وجعلَها عاصمةً له. واستخدمَ بني إِسرائيل في بناء المدينتين، سخرةً وذلاً واستعباداً[1].

---

(١) انظر «قصص الأنبياء» لعبد الوهاب النجار: ٢٠٢.

وذهبَ المؤرخون إلى أَنَّ «رمسيس الثاني» حكمَ لمدةِ سبعٍ وستين سنة، من ١٣٠١ إلى ١٢٣٥ قبلَ الميلاد. ولما ماتَ رمسيسُ موتاً طبيعياً أثناءَ إقامةِ موسى عليه السلام في مدين، حنَّطَ الفراعنةُ جثَّتَه، ودَفنوها في المقابرِ الملكية.

الثاني: أَطلقوا عليه لقبَ «فرعون الخروج»، وهو الذي خرجَ موسى عليه السلام ببني إسرائيل في عهده، وهو الذي لحقَ بهم بجنودِه، فأغرَقَه الله وألقى جثتَه على الشاطئ.

وهذا الفرعونُ هو «منبتاح» ابن رمسيس الثاني، وقد دامَ حكمُه عشرَ سنوات. من ١٢٣٥ إلى ١٢٢٥ قبل الميلاد: «ولا يَعرفُ علماءُ الآثارِ المصرية شيئاً محدَّداً عن نهايةِ حكم منبتاح، وكلُّ ما يُعرفُ هو أنَّ مصرَ قد مَرَّتْ بعده بأزمةٍ داخليةٍ شديدةِ الخطورة، دامتْ ما يقربُ من ربع قرن»[1].

وبعدَ أنْ أوردَ المهتدي موريس بوكاي آياتِ سورةِ يونس التي أَوردناها، والتي تتحدثُ عن نجاةِ جثة فرعون، قال: «إنَّ النصَّ القرآنيَّ يقولُ ببساطةٍ وبشكلٍ واضح تماماً: إنَّ جسدَ فرعون قد أُنقذ.

وفي العصرِ الذي وصلَ فيه القرآنُ للناس عن طريقِ محمد ﷺ، كانتْ جثثُ كلِّ الفراعنة ـ الذين شكَّ الناسُ في العصرِ الحديث صواباً أو خطأً أنَّ لهم علاقةً بالخروج ـ كانت مدفونةً بمقابرِ وادي الملوك بطيبة، على الضفةِ الأُخرى للنيل، أَمام مدينةِ الأقصرِ الحالية.

في عصرِ محمد ﷺ كان كلُّ شيء مجهولاً عن هذا الأمر، ولم تُكتشفْ هذه الجثثُ إلا في نهايةِ القرنِ التاسع عشر. وكما يقولُ القرآن فقد أُنقذَ بدنُ هذا الفرعون.

---

(١) انظر: دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، لموريس بوكاي: ٢٦١ ـ ٢٦٤.

اكتشاف جثة فرعون سنة ١٨٩٨م:

في سنة ١٨٩٨م بوادي الملوكِ بطيبة اكتشفَ «لوريت» مومياءَ منبتاح بن رمسيس الثاني. وكلُّ شيء يسمحُ بالاعتقادِ بأنه فرعونُ الخروج. ومِن هناك نُقلت المومياءُ إلى القاهرة، ورفعَ «إليوت سميث» عنها أربطتَها في ٨ يوليو ١٩٠٧م.

... ومنذُ ذلك التاريخ والمومياءُ معروضةٌ للزوار بمتحفِ القاهرة، مكشوفةَ الرأس والرقبة، أما بقيةُ الجسم فهو مغطى بقطعةٍ من القماش.

... وفي يونيو ١٩٧٥م سَمحتْ لي السلطاتُ المصرية العليا بدراسةِ أَجزاءِ جسم فرعون، التي كانتْ مغطاةً حتى ذلك الوقت، كما سمحتْ لي بأخْذِ بعضِ الصور.

وعندما أقمت المقارنةُ بين حالةِ المومياء الحالية، وما كانتْ عليه منذُ أكثرَ من ستين عاماً اتضحَ جليّاً أنَّ حالةَ المومياء قد تدهورت، وأنَّ هناكَ أجزاءً منها قد اختفت. فقد عانت الأنسجةُ المحنطةُ الكثيرَ على أَيدي البشر بالنسبةِ لبعض الأجزاء، وبسببِ آفةِ الزمن بالنسبة لأَجزاء أخرى..

... وفي أَثناءِ فحص المومياء في يونيو ١٩٧٥م بدأَتْ ـ بمبادرتي ـ دراساتٌ خاصة. فقد قامَ الطبيبان المليجي ورمسيس بدراسةٍ طبيةٍ بالأشعةِ السينية، على حين قامَ الدكتور مصطفى المنيلاوي ـ بفضلِ ثغرةٍ في جدار القفص الصدري ـ بدراسةِ جوفِ القفص الصدري والبطن، وقد حققَ بذلك أولَ دراسةٍ بالمنظارِ الداخلي على مومياء. وقد سمحَ هذا برؤيةِ وتصويرِ بعضِ التفاصيل الهامة جداً داخلَ الجسم نفسه.

... إنَّ ربطَ كلِّ هذه الآفات بالتدهورات التي تحدثنا عن أسبابها، تجعلُ عسيراً الاحتفاظَ جيداً في المستقبل بهذا الجسمِ

المحنَّط، ما لم تُتخذْ إجراءاتُ الإنقاذِ اللازمةِ في مستقبلٍ قريبٍ جداً، وسيكون من شأن هذه الإجراءات أنها ستجنبنا فقدانَ الشاهدِ الماديِّ الوحيد الباقي حتى يومنا هذا... الشاهدِ على موتِ فرعون الخروج، وعلى النجاة التي أرادَها اللّهُ لجسده..

.. إنها شهادةٌ ماديةٌ في جَسَدٍ محنَّط على مَنْ عرفَ موسى وعارضَ طلباته، وطاردَه في خروجه، وماتَ في أثناءِ هذه المطاردة.. وأنقذَ اللّهُ جثتَه من الهلاك التام، ليصبحَ آيةً للناس، كما هو مكتوبٌ في القرآن...»[1].

هذا ما سجَّلَه الدكتورُ موريس بوكاي عن مشاهدته لجثة «مومياء» فرعون، نوردُه من باب الاستئناس، ونقول: لعلَّ هذه الجثة التي اكتشفتْ هي جثةُ فرعون، الذي قالَ اللّهُ له قبل خروج روحه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

توسيع مفهوم إنجاء بدن فرعون:

وبهذا نعممُ مفهومَ الإنجاءِ ببدنه، ومفهومَ الآية، ومفهومَ الذين خلفه.

﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: فلم نتركهُ يغوص في قعر البحر، ولم نتركه طعاماً للأسماك، وإنما أَلقيناهُ على الشاطئ.

و﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: حيثُ أَلهمنا قومَك تحنيطَه وإزالةَ ما يسرعُ إليه الفناءُ منه، ودفْنَه في مقابرَ خاصة محفوظة.

و﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: حيثُ أبقيناه محفوظاً آلافَ السنين، لم تصلْه عواملُ الفناء والذوبان والتلاشي، ولم تمتدّ إليه يدُ اللصوص.

و﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: حيثُ أَلهمنا علماءَ الآثار اكتشافَ بدنك

---

(١) المرجع السابق: ٢٦٩ ـ ٢٧١ باختصار.

المحنَّط في نهاية القرن التاسع عشر، ووضَعَه في متحفِ الآثار ليراه الناس.

وبهذا المفهومِ الواسعِ للإنجاءِ يكون قوله: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ عاماً أيضاً:

﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾: قومُك معاصروك الذين كانوا يؤلِّهونك، عندما يشاهدونَ بدنَك.

و﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾: بنو إسرائيل معاصروك، الذين شاهدوا مصْرَعَك، فزادوا شكراً لله.

و﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾: الناسُ القادمون بعدَ آلاف السنين من مصرعك الذين سيشاهدون جثتَك المحنطة المحفوظة.

وهذا يقودُنا إلى ملاحظةِ المجالِ العريض الواسع للآية الناتجة عن ذلك: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾:

إنَّ جثتَه آيةٌ لعابديه من قومه على أَنه ليس إلهاً.

وهي آيةٌ لبني إسرائيل على قدرةِ وقوةِ اللهِ ربِّ العالمين، ونصْرِه للمؤمنين، وانتقامِه من الكافرين.

وهي آيةٌ للناسِ عندما تكتشفُ في القرنِ العشرين بعدَ آلافِ السنين من موته.

جوانب كون ذلك آية:

ونعتقدُ أنَّ اكتشافَ جثةِ فرعون عام ١٨٩٨م، وبقاءَها معروضةً في متحف القاهرة، يشاهدُها الزائرون المتفرجون، آيةٌ بينةٌ واضحةٌ على ما يلي:

١ ـ آيةٌ على قوةِ الله وقدرتِه وعظمتِه، الذي أَهلكَ فرعون، ثم أَبقى جثتَه محفوظةً هذه المدة الطويلة.

٢ ـ آيةٌ على معيةِ اللّهِ للمؤمنين ونصرِه وإنقاذِه لهم، وقضائِه على أعدائهم الكافرين.

٣ ـ آيةٌ على انتقامِ الله من الطغاة المستبدين وإهلاكهم، ليتعظَ ويعتبرَ بها الناس، وبالذات الطغاة والمستبدون، فيتخلَّوا عن ما هم فيه من طغيانٍ واستبداد، لئلا يلاقوا نفسَ المصير. ولكن هؤلاء لا يعتبرون: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ﴾.

٤ ـ آيةٌ على صدقِ نبوةِ محمد ﷺ، فاللهُ هو الذي أَخبره بتفاصيلِ غرقِ فرعون، وإنجاءِ جثته، ولو لم يكن رسولاً لما علمَ بذلك، لأنه أميٌّ لم يتعلَّم من أحد، ولم يتلقَّ هذه المعلومات من أحد. لا سيما أنَّ كتبَ المؤرخين وأهلَ الكتاب لا تتحدثُ عن هذه الجزئية المفصلة لغرقِ فرعون.

٥ ـ آيةٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وليس كلامَ أيِّ بشر، وعلى صحةِ وصدقِ الأَخبارِ التاريخية التي أَوردَها وذكرها.

فقد ذكرَ القرآنُ أنَّ اللّهَ قد أَنجى جثةَ فرعون، وأَبقاها آيةً لمن خلْفَه، واكتُشفتْ هذه الجثةُ بعد ثلاثةَ عشرَ قرناً من نزول القرآن، وجاءَ هذا الاكتشافُ شاهداً على صدقِ وصحةِ ما أَخبرتْ عنه الآيات.

إنَّ العلمَ والتاريخَ ليقدمان شهاداتٍ مستمرةً على صدقِ وصحةِ ما وردَ في القرآن من أخبار تاريخية أو معلومات علمية، وهذه الشهاداتُ آيات جديدة على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وكلُّ ما فيه حقٌّ وصدقٌ وصواب، وأنَّ محمداً رسولُ الله ﷺ، أَوحى اللّهُ له بهذا القرآن.

أهلكَ اللّهُ فرعونَ وجنودَه، وجعلَ ذلك آيةً لمن بعدهم، وهكذا انتهتْ هذه الفتنةُ الفرعونيةُ الطاغية.

تعقيب القرآن على هلاك فرعون وجنوده:

وقد عقبتْ آياتُ القرآنِ على هلاكِ فرعونَ وجنوده، ونجاةِ موسى عليه السلام وأَتْباعِه، وسجلتْ بعضَ العبرِ والدروسِ من ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: ٦٥ ـ ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٣٩ ـ ٤٢].

إنَّ فرعونَ وجنودَه أئمةٌ يَؤُمّونَ الناس، وقادةٌ يقودونهم، ودعاةٌ يدعونَهم. لكن إلى أين؟

إنهم دعاةٌ إلى النار، يَدْعونَ الناسَ إليها، ويقودونهم في الطريقِ إليها، ويَؤُمّونهم نحوها، وهم ملعونون مقبوحون في هذه الإمامةِ والقيادةِ والزعامة.

وفرعونُهم هو إمامُ الأئمة، وقائدُ القادة، يَسيرُ أَمامَ الجميع، أَمامَ قومِه وجنودِه وملئه، يقودُهم ويَقْدُمُهم إلى جهنم، وهم أَتْباعٌ له، يسيرونَ خلفه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٦ ـ ٩٩].

تُخبرُ هذه الآياتُ أنَّ قومَ فرعونَ رَفضوا الاستجابةَ لموسى عليه السلام، رغم ما قدَّمَ لهم من الآياتِ والبراهين. وانحازوا إلى فرعون، وتابَعوه واتبعوا أمره، وكَفروا وطغوا وبغوا.

وتقررُ الآيات أنَّ فرعونَ ليس راشداً، وأنَّ أَمره ليس رشيداً، والدليلُ على ذلك أنَّ قيادةَ وإمامة فرعون لقومه كانت شؤماً عليهم، فهو في الدنيا كان يَقْدُمُهم فأَوردهم البحر، فماتوا فيه غرقاً، وهو في الآخرة يَقْدُمُهم ويتقدمُهم، فيوردُهم نارَ جهنم، يَدخلُ قبلَهم فيها، ويَدخلون هم خلفه، وبئست النارُ ورداً لأهلها، ومدخلاً يدخلونها.

وقد لعنَ اللّهُ فرعونَ وقومَه في الدنيا، ولعنَهم في الآخرة، وجعلَ لعنتَه لهم رِفداً يَرفدهم به بعدَ دخولهم النار، وبئست اللعنةُ رِفْداً يَرفدهم به، وعطاءً يعطيهم إياه.

نتيجة متابعة فرعون:

هذه هي نتيجةُ متابعةِ فرعون وطاعتِه والاستجابةِ لدعوته.

لقد قالَ لهم فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ووقفَ أمامه الرجلُ المؤمنُ من آله، ودعا الناسَ إلى عدم متابعة فرعون، ومتابعتِه هو لأَنه يَهديهم سبيلَ الرشاد: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [غافر: ٣٨].

واعتبرَ دعوةَ فرعون دعوةً إلى النار. فقالَ لهم: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر: ٤١].

فأَصَرّوا على متابعةِ فرعون وطاعته، وهذه هي النهاية: الهلاكُ والموتُ واللعنةُ لفرعون ولقومه في الدنيا، واللعنةُ والعذابُ لفرعون ولقومه في نار جهنم.

وقد عَرضَتْ لنا آياتُ سورةِ غافر، بعضَ ما سيكونُ بين فرعونَ الإمامِ الرائدِ وملئِه من جهة، وبين أَتْباعهم المستضعفين من جهةٍ أخرى، من لومٍ وعتابٍ وندمٍ واتهام، في نار جهنم.

بين فرعون وقومه في جهنم:

قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٥٠].

هذه هي عاقبةُ فرعون وقيادتِه وإمامتِه في الدنيا وفي الآخرة، عاقبةُ سوءٍ له ولقومه الذين تابعوه.

وهي نفسُها عاقبةُ كلِّ طاغيةٍ مستبدٍّ ظالم في أيِّ زمانٍ ومكان، عاقبةُ سوءٍ له في الدنيا والآخرة، وعاقبةُ سوءٍ لقومه وأَتْباعه الذين يُتابعونَه في الدنيا والآخرة.

جعلَ اللّهُ ذلك آيةً وعبرة، ولكنَّ كثيراً من الناس عن آيات الله غافلون: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ﴾.





المرحلة الرابعة
موسى عليه السلام
مع بني إسرائيل في سيناء

[١]
طلب غريب لبني إسرائيل وتذكيرهم بنعم الله

أَنجى اللّهُ بني إسرائيل من فرعون، ومن الغرقِ في البحر، وأَوصلَهم إِلى البرِّ الشرقيِّ من البحر الأحمر، وأَهلك فرعونَ وجنودَه أَجمعين.

نجاة بني إسرائيل يوم عاشوراء:

وكان هذا اليومُ العظيم يومَ عاشوراء، وهو اليومُ العاشرُ من محرم، بالتوقيتِ الهجريِّ القمريّ.

ودليلُ ذلك ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ وغيرهما عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما، قال:

لما قدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة، رأى اليهودَ يصومون عاشوراء.

فقالَ لهم: ما هذا اليومُ الذي تصومونه؟

قالوا: هذا يومٌ صالح، هذا يومُ نجّى اللّهُ بني إسرائيل من عدوهم، فصامَه موسى.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «أَنا أَحقُّ بموسى منكم»!

فصامَه رسولُ الله ﷺ، وأَمَرَ المسلمين بصيامه[١].

يدلُّ هذا الحديثُ الصحيحُ على أنَّ نجاةَ بني إِسرائيل كانت في يوم عاشوراء، وأنَّ موسى عليه السلام صامَ ذلك اليومَ شكراً لله، وأنَّ بني إسرائيل الصالحين كانوا يصومونه شكراً لله أيضاً، وأنَّ أَحفادَهم اليهودَ في القرون اللاحقة استمروا في صيام يوم عاشوراء.

فلما وصلَ رسولُ الله ﷺ المدينة، وجدَ اليهودَ فيها يصومون يومَ عاشوراء لهذا المعنى، ولما عرفَ سببَ صيامهم قررَ أنَّ المسلمين أَوْلى بموسى عليه السلام من اليهود. ولذلك صامَه عليه الصلاة والسلام وأمرَ المسلمين بصيامه، وصارَ صيامُ يومِ عاشوراء سُنَّةً دائمةً للمسلمين حتى قيام الساعة.

إن رسولَ الله ﷺ يقررُ حقيقةً إِيمانية قاطعة، وذلك في قوله: «أنا أحق بموسى منكم».

إنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، وإنَّ موسى هو رسولُ الله عليه الصلاة والسلام، فهما نبيان رسولان كريمان، ولهذا هو أحقُّ بموسى من اليهود، الذين يَدَّعون أنهم على دينه، وأنهم متبعون له، وهم كاذبون في دعواهم.

وأمةُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام أَوْلى بموسى عليه السلام من أُمة اليهود، لأنَّ المسلمين يؤمنون بجميعِ الأَنبياء والرسل، ولا ينكرونَ نبوةَ أحدٍ منهم، أما اليهودُ فإنهم مزاجيونَ في الإيمان بالرسل، حيث يفرقون بينهم، فيؤمنون ببعضهم، ويكفرون بالآخرين.

ثم إنَّ أمرَ رسولِ الله ﷺ المسلمين بصيام عاشوراء، ليس متابعةً منه لليهود الذين كانوا يصومونه في المدينة، فالرسولُ عليه الصلاة

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٠٠٤. ومسلم برقم: ١١٣٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٩٤.

والسلام كان حريصاً على مخالفة اليهود، ويأمرُ المسلمين في كلِّ مناسبة بمخالفتهم.

إنَّ صيامَه ليوم عاشوراء، وأمْرَه المسلمين بصيامه، شكراً منه لله، الذي نجّى فيه موسى وأَتباعَه المؤمنين، ومتابعةً منه لموسى عليه السلام، فهو صيامٌ ببُعْدٍ إسلامي، وليس تقليداً لليهود.

موقف بني إسرائيل من عابدي الأصنام:

سارَ موسى عليه السلام بمن معه من بني إسرائيل، وتنقلوا في «سيناء»، تمهيداً لتوجُّههم إلى الأرض المقدسة..

وبينما كانوا يتنقلون مع موسى عليه السلام، أَتوا على قوم من المشركين بالله، ووجدوهم عاكفين على أَصنامٍ لهم، يجعلونَها آلهة، ويعبدونها من دون الله..

فتأَثّروا بهم، وأُعجبوا بأصنامهم، وطلبوا من نبيِّهم موسى عليه السلام طلباً غريباً.

قال الله عز وجل: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤١].

ولا تبينُ هذه الآياتُ مكانَ وقوعِ هذه الحادثة الغريبة، ولا تحددُ اسمَ القوم الذين يعبدون الأصنام، ولا تعيِّنُ نوعَ أصنامهم، فهذا كلُّه لا داعي له في البيان القرآني.

إنَّ المهمَّ هو تسجيلُ موقف بني إسرائيل المؤمنين بموسى عليه السلام، الموحِّدين لله، من هؤلاء المشركين بالله العابدين للأصنام،

وذلك ليتعرَّفَ المسلمون على هذه الطبيعةِ المنحرفةِ المعوجَّةِ لبني إسرائيل.

ولا ننسى أَنهم عاشوا مع موسى عليه السلام في مصرَ عدةَ سنواتٍ، يربّيهم على الإِيمان والتوحيد، وعبادةِ الله وحده.. ولا ننسى أَنهم شاهَدوا قبلَ قليل آيةً عظيمة من آيات الله الباهرة، تدلُّ على قوتهِ ووحدانيته سبحانه. فقد شقَّ اللّهُ لهم البحر، وأَنجاهم بعنايته، وأهلكَ فرعونَ وجنودَه بقوته.. وما زالَ القومُ متأثرين بهذه المعجزةِ الربانية العجيبة.

وها هم الآن يُشاهدون قوماً كافرين مشركين بالله، يعكفون على أصنام، ويعتبرونَها آلهة، ويعبدونَها بطقوسٍ وثنيةٍ شركية.

الأصلُ أنْ ينفعلَ بنو إِسرائيل من هذا المنظرِ الشركيِّ الوثني، والأصلُ أنْ يَغاروا على الإِيمانِ والوحدانية، والأَصْلُ أنْ يُحدثَ هذا المنظرُ في نفوسهم رفضاً لهذا الشرك، ورغبةً في إنكار المنكر.

الأصلُ أنْ يَندفعوا نحو القوم، وأنْ يَطلبوا من موسى عليه السلام أنْ يأذنَ لهم بتحطيمِ تلك الأصنام، ومحاربةِ المشركين الذين يعبدونها. أَو أنْ يُعلنوا رفضَهمْ لذلك الشرك، وأنْ يُنكروه بألسنتهم وكلامِهم على الأقل.

طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً آلهة:

أَمّا أنْ يُعجبوا بتلكَ الأصنام، ويتأثَّروا بالذين يَعبدونها، ويَطلبوا طلباً غَريباً وقحاً من موسى عليه السلام، بأنْ يجعلَ لهم أصناماً آلهة مثل تلك الأصنامِ الآلهة، ليعبدوها كما يعبدُها هؤلاء القوم، فهذا لا يصدرُ إلاّ عن قومٍ تعمَّقَ الانحرافُ في نفوسهم، وتمكَّنَ التقليدُ والتبعيةُ من كيانهم.

«إِنها العدوى تصيبُ الأرواحَ كما تصيبُ الأجسام! ولكنها لا تصيبُها حتى يكونَ لديها الاستعدادُ والتهيؤُ والقابلية..

وطبيعةُ بني إسرائيل ـ كما عرضَها القرآنُ الكريم عرضاً صادقاً أميناً في شتى المناسبات ـ طبيعةٌ مخلخلةُ العزيمة، ضعيفةُ الروح، ما تكادُ تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط، وما تكادُ تمضي في الطريقِ المستقيم حتى ترتكسَ وتنتكس.. ذلك إلى غلظٍ في الكبر، وتصلُّبٍ عن الحق، وقساوةٍ في الحسِّ والشعور..

وها هم أُولاء على طبيعتهم تلك، ها هم أولاءِ ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أَصنام لهم حتى ينسوا تعليمَ أكثرَ من عشرين عاماً، منذُ أنْ جاءهم موسى عَليه السلام بالتوحيد، بل حتى ينسوا معجزةَ اللحظة، التي أنقذتْهم من فرعونَ وملئِه، وأهلكتْهم أَجمعين... ينسون هذا كلَّه ليطلبوا إلى نبيهم: رسولِ ربِّ العالمين، أنْ يتخذَ لهم بنفسِه.. آلهة! ولو أَنهم هم اتخذوا لهم آلهةً لكان الأمرُ أقلَّ غرابةً من أنْ يطلبوا إلى رسولِ رب العالمين أنْ يتخذَ لهم آلهة!! ولكنما هي إسرائيل...»[1].

الذين طلبوا مِن موسى عليه السلام أنْ يجعلَ لهم أصناماً آلهة هم فريقٌ من بني إسرائيل، وليسوا جميعَهم، فهناك فريقٌ كانوا صادقين في الإيمانِ به، ملتزمين طاعتَه، كتلميذِه يوشع بن نون.

إنَّ الذين طلبوا صنماً إلهاً هم ضعافُ الإيمان من قومه، الذين سيطرَ الذلُّ والاستعبادُ على نفوسهم، منذ أَيام فرعون، فتأثَّروا بعابدي الأصنام، وطلبوا ذلك الطلبَ العجيب، ولو كان إيمانُهم قوياً لما طلبوا ذلك.

قصة «ذات أنواط» مع رسول الله ﷺ:

وقد حصلَ هذا الأمرُ مع رسولِ الله محمد ﷺ.

فقد روى الترمذيُّ والنسائيُّ وأحمد عن أبي واقد الليثي رضي الله

---

(١) في ظلال القرآن ٣:١٣٦٦ باختصار.

عنه قال: خرجْنا مع رسولِ الله ﷺ قِبَلَ حُنين، فمررْنا بسِدْرَة، فقلنا: يا رسول الله: اجعل لنا هذه ذاتَ أنواط، كما للكفارِ ذاتُ أنواط. وكان الكفارُ يَنوطون سلاحَهم بسدرةٍ ويعكفون حولها.

فقالَ النبيُّ ﷺ: «الله أكبر. هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، إنكم تركبون سننَ الذين من قبلكم..»[1].

وقعتْ هذه الحادثةُ بعدما فتحَ رسولُ الله ﷺ مكة، وبعدما آمنَ أهلُها، وقد توجَّه رسولُ الله ﷺ إلى الطائفِ لحرب ثقيف، وسارَ معه المؤمنون الصادقون من المهاجرين والأنصار، كما سارَ معه أعداد من «الطُلَقاء» الذين أَسلموا بعدَ فتح مكة قبلَ فترةٍ وجيزة، ولم يتعمق الإيمانُ قلوبَهم، وكانوا قريبي عهد بالكفر.

فمروا بشجرةٍ كبيرة في الطريق، تسمى «ذاتَ أَنواط»، وكان المشركون يقدسون هذه الشجرة، وعندما يمرّون بها يعلّقون سيوفَهم بها ـ ولهذا سموها ذاتَ أنواط، لأنَّ النَّوْطَ هو التعليق ـ وكانوا يعكفون حولَها.

وأُعجبَ مسلمةُ الفتحِ بالشجرة، فطلبوا من رسول الله ﷺ أنْ يجعلَ لهم شجرةً ذاتَ أنواطَ، ينوطون ويعلّقون سيوفَهم بها ويعكفون حولَها، لأنَّ الكفارَ لهم ذاتُ أنواط!!

وتعجبَ رسولُ الله ﷺ من طلب هؤلاء الطلقاء الغريب، وتذكَّرَ طلبَ ذلك الفريق الإسرائيلي من موسى عليه السلام، ولهذا أنكرَ عليهم طلبَهم قائلاً: سبحان الله. هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾!

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٢١٨٠. والنسائي في الكبرى برقم: ١١١٨٥. وأحمد في المسند ٥:٢١٨. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٩٥.

فالذين طَلبوا من رسول الله ﷺ ذاتَ أَنواط هم الذين أَسلموا قبل فترة وجيزة، والذين لم يتعمق الإيمانُ في قلوبهم، وبعد ذلك قويَ إيمانُهم.

بنو إسرائيل قوم يجهلون:

لما سمعَ موسى عليه السلام طلبَ قومِه الغريب، تعجَّبَ منهم ومن جهلهم، وقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

وَصفهم بالجهلِ الشامل العام، لأنه لم يُقيِّدْ فعلُ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ بقيد، ولهذا يشملُ جميعَ مظاهرِ الجهل وجوانبه.

إنهم يجهلون حقيقةَ الألوهية، ولهذا طلبوا أصناماً آلهة، ويجهلون حقيقةَ الإيمان، ولهذا طلبوا ما يتعارضُ مع الإيمان، ويجهلونَ أَنَّ عابدي الأصنام هالكون خاسرون، ولهذا تأَثَّروا بهم، ويجهلون أَنهم على حق، ولهذا اقتدوا بالذين على باطل. وجَهْلُهم بهذه الحقائق أَوقعهم في الخفة والطيش والسفاهة، فرغبوا في عبادةِ الأصنام، وأَوقعهم في الوقاحة، فطلبوا من نبيهم أنْ يصنعَ لهم أصناماً بنفسه، وأن يَدعوهم إِلى عبادتها!!

وبعدما بيَّنَ لهم موسى عليه السلام جهلَهم، أَزالَ لهم جهلَهم بما آتاهُ الله من علم، فأخبرهم أنَّ عابدي الأصنام هالكون، وقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿مُتَبَّرٌ﴾: اسمُ مفعول. من التَّبار. والتَّبارُ هو الدمارُ والهلاك، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨] أي: لا تزد الظالمين إلا دماراً وهلاكاً.

إنَّ موسى عليه السلام يدعو قومَه إِلى عدمِ الإِعجابِ والاقتداء والتأثرِ بعابدي الأصنام، لأنهم هالكون بسبب كفرهِم، وحياتُهم خاسرة، وأَعمالُهم باطلة، ومَن كانوا هكذا فكيف يُقتدىٰ بهم؟

وذمَّهم موسى عليه السلام لأَنهم يريدونَ معبوداً غيرَ الله: ﴿قَالَ

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

أي: أأطلبُ لكم معبوداً غيرَ الله؟ وهل يصلحُ غيرُ الله أن يكونَ إلهاً معبوداً؟ إنه لا إلهَ إلا الله، وهذا معناه أنه لا معبودٌ إلا الله. فكيف تطلبونَ مني أنْ أجعلَ لكم الأصنامَ آلهة لتعبدوها.

ثم إنَّ اللّهَ فضلكم على العالمين، وبَعثني فيكم رسولاً، وهداكم إلى الإيمانِ به، فكيفَ تبحثون عن إلهِ صنم؟

موسى يذكرهم بتفضيل الله لهم وأسبابه:

إنَّ موسى عليه السلام يُذكرهم بنعم اللّهِ عليهم، ومن أهمّ هذه النعمِ تفضيلُه لهم على العالمين: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والمرادُ بالعالمين الأقوامُ الذين حولَهم في عهد موسى عليه السلام، كالفراعنةِ والكنعانيين والأعراب. وتفضيلُهم على أولئك العالمين، لأَنهم مؤمنون بالله، متبعون لموسى عليه السلام ـ رغمَ ما عندهم من مخالفاتٍ وتجاوزات ـ أمّا الأقوامُ الآخَرون فقد كانوا كافرين مشركين بالله.

فهو تفضيلٌ إيمانيٌ وليس نَسَبياً، كما أنه تفضيلٌ مشروطٌ وليس مفتوحاً مطلقاً، وتفضيلٌ موقوتٌ وليس دائماً مطرداً. إنّ اللّهَ فضّلهم على عالمي زمانِهم لإيمانهم. فإذا ما انحرفوا عن الإيمانِ والاستقامة فإنَّ اللّهَ يرفعُ عنهم نعمةَ التفضيل، ويوقعُ بهم لعنته وغضبه. وهذا ما حصلَ فيما بعد.

ودلَّ على هذا التفضيلِ المشروط قولُه تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١١ ـ ١٢].

وذكَّرَهم موسى عليه السلام بنعمةِ إنجائهم من فرعون وعذابه واستبدادِه، فقال لهم: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: ١٤١].

وهذا التذكيرُ منه بنعمةِ الله عليهم في إنجائهم من آلِ فرعون ضمنَ إنكارِه عليهم طلبَهم أَصناماً آلهة، فكيفَ يريدون عبادةَ غيرِ الله، واللّهُ هو الذي أَنجاهم من آل فرعون؟

وقد كان موسى عليه السلام يُكثرُ من تذكيرِهم بنعمةِ إنجائهم، ويَدعوهم إلى تذكُّرِ حياتهم السابقة، أذلاءَ مستعبدين عند فرعون، والمقارنة بين تلك الحالة وحالتهم الجديدة، منعَّمين بالحريةِ والإيمان، وذلك ليشكروا اللّهَ على هذه النعمةِ الغامرة.

موسى يخرجهم من الظلمات إلى النور:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٥ ـ ٨].

أمرَ اللّهُ موسى عليه السلام أنْ يُخرجَ بني إسرائيل من الظلمات إلى النور: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

وفي آياتِ سورة إبراهيم توافقٌ كاملٌ بين مهمة موسى ومهمة محمد عليهما الصلاة والسلام.

ففي الآيةِ الأولى من السورة يقولُ الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

وفي الآيةِ الخامسة من السورة يأمرُ اللّهُ نبيَّه موسى عليه الصلاة والسلام بإخراجِ قومِه من الظلمات إلى النور: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

إنهما نبيّان كريمان، ورسولان عظيمان، عليهما الصلاة والسلام، ولا غرابةَ أنْ تكونَ مهمتُهما واحدة، وهي إخراجُ الناس من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والهدى.

والفرقُ بين النبييْن الكريميْن عليهما الصلاة والسلام هو في حدودِ بعثةِ كلٍّ منهما.

إنَّ موسى عليه السلام مأمورٌ بإخراجِ قومِه بني إسرائيل من الظلماتِ إلى النور: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾.

أما محمد ﷺ فإنه مأمورٌ بإخراجِ الناس: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

والسّرُّ في العدولِ عن كلمة «قومك» إلى كلمة «الناس» في خطابِ محمَّدٍ ﷺ هو عمومُ بعثته، لأن اللّهَ بعثَه إلى الناسِ كافة، بينما موسى كان مبعوثاً إلى قومِه خاصة!!.

موسى يذكرهم بأيام الله بنوعيها:

وبعدَ أنْ أمرَ اللّهُ موسى عليه السلام بإخراج قومِه من الظلماتِ إلى النور، أمرَه أنْ يُذكرهم بأيامِ الله: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

و«أيام الله» أفعالُه العظيمةُ التي فعلَها بهم وبأعدائهم وبالمؤمنين والكافرين من الأمم الخالية من قبلهم.

و«اليومُ» قد يُستعملُ في النعمة العظيمة، وقد يُستعملُ في العذاب الشديد. فيقال: هذا يومُ نعمة، ويقال: هذا يومُ نقمة.

إنَّ أيامَ اللّهِ نوعان:

الأول: أيامُ إنعامِه على عباده المؤمنين، المتمثلة في إكرامه لهم ونعمائِه عليهم، حيث كان ينعمُ عليهم بالإيمانِ والهدى، وبالرزقِ والعطاء، وبالنصرِ والتمكين، وبالنجاةِ والفوز.

ومن هؤلاء المؤمنين مَن كانوا سابقين على بني إسرائيل، الذين أَنعم الله عليهم بأيام نعمائِه وعطائه، كأَتْباعِ نوحٍ وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم، عليهم الصلاة والسلام.

ومِن هؤلاء المؤمنين بنو إسرائيل أنفسُهم حيث عاشوا منعَّمين بأيام الله، يتقلَّبون في منحه وعطاياه.

ومن أَيام الله العظيمة عليهم أَنه أَنجاهم من آل فرعون، وخلَّصهم من الذلِّ والتعذيبِ والاستعباد، ومَنَّ عليهم بالحرية والهدى، وشقَّ لهم البحر، وأَنجاهم من الغرق فيه.

الثاني: أَيامُ انتقامِه من أعدائه، وإهلاكِه لهم، سواء كانوا من الأمم الخالية، كقوم نوح وهود وصالح، وقوم لوط وشعيب، الذين كَذَّبوا رسلَ الله، وحاربوا أولياءه، فأوقعَ اللّهُ بهم عذابَه وانتقامه، فأهلكهم ودمرهم، أم كانوا مِن الأعداءِ المباشرين لبني إسرائيل المؤمنين، وهم فرعون وملؤه، حيث أَغرقهم وقضى عليهم.

وينطبقُ على انتقام الله من هؤلاء قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

وتذكُّرُ بني إسرائيل لأيام اللّهِ بنوعيْها ـ أيامِ الإنعام وأيامِ الانتقام ـ يَزيدُهم إيماناً بالله، وذكْراً وشكْراً له.

لا يتذكر أيام الله إلا الصبار الشكور:

واعتبرت الآيةُ تذكُّرَ أيام الله آياتٍ لكلّ صبارٍ شكور: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

الصّبّارُ مبالغةٌ من الصبر، والشكورُ مبالغةٌ من الشكر.

إنَّ أيامَ الضرِّ التي يبتلي اللّهُ بها عبادَه بالضرِّ والحرمانِ والتضييق تحتاجُ إلى المؤمنِ الصّبّار، الذي يصبرُ على هذه الأيام، ويرضى بقدرِ اللّهِ فيها، ويعلمُ أنَّ فيها الخيرَ له، وأن الله حكيمٌ فيما ابتلاه به فيها، وأنها فترةٌ قصيرةٌ سرعان ما تنتهي. ولهذا يعيشُ أيامَ الضرّ بالصبر، فيستفيدُ منها، ويُقبلُ على اللّهِ فيها.

وأيامُ الإنعامِ والإعطاءِ التي يبتلي اللّهُ بها عبادَه بالنعماءِ والسراءِ والعطاءِ تحتاجُ إلى المؤمن الشكور، الذي يحسنُ النظرَ إليها والعيشَ فيها، واستعمالَ نعم الله وعطاياه في مرضاته سبحانه. إنه لا يطغى بتلك النعم ولا يبطر، وإنما يشكرُ اللّهَ عليها باعتبارِه هو المنعم، ويشكرُه عليها باستخدامِها في الخيرِ والنفع.

وإنَّ الإنسانَ في هذه الحياةِ بين يوميْن: إما يومُ ابتلاءٍ بالضراء، فلا بدَّ أنْ يعيشَه بالصبر، وإما يومُ ابتلاءٍ بالسراء، فلا بدَّ أنْ يعيشَه بالشكر.

ولهذا كان تذكُّرُ أيامِ الله في عطائه وحرمانه آياتٌ لكلِّ صبار شكور.

وقد نفَّذَ موسى عليه السلام أمرَ الله، فذكَّرَ بني إسرائيل ببعضِ أيام الله عليهم، فقال لهم: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

حقائق إيمانية حول الشكر والكفر:

وأثناءَ تذكيرِ موسى لقومه بأيام الله، وطلبه منهم أنْ يتعاملوا معها بالصبر والشكر، قدَّمَ لهم حقائقَ قاطعةً بشأن الشكر والكفر، والعطاءِ والمنع، فقال لهم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾: أَعلمكم ربُكم إعلاماً بَيِّناً، وأخبركم إخباراً قاطعاً، عن طريقِ ما أَوحىٰ إِليَّ من الوحي، فصرتُم على علمٍ بذلك.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: يخبركُم اللّهُ المعطي الكريم أنكم إنْ شكرتموه على عطاياه ونعمه، فسوف يزيدُكم منها ومن غيرها، مما يعطيكم ويمنحكم.

وشكرُ هذه النعم بالاعترافِ بأَنها من الله، وشكرِه والثناءِ عليه بسببها، واستخدامِها في طاعتِه ونفعِ عباده.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾: ويخبركُم اللّهُ أَنكم إنْ رفضتُم شكره، وقابلتموها بالكفر والجحود، فسوفَ يعذبكم، ويَحرمكم من هذه النعم، ويسلبكم إياها، كما فعلَ بآل فرعون، عندما استخدموا نعمَ اللّهِ في الطغيانِ والفساد، فسلبهم الله إياها.

وهذه حقائقُ إيمانيةٌ قاطعة مطردة، فكلُّ مَنْ قابلَ نعمَ اللّهِ بشكرِه عليها، فإن الله سنزيدُه منها، وكلُّ مَنْ قابلَ هذه النعم بالكفر فإن اللّهَ سيسلبه إياها.

انطبقَ هذا على بني إسرائيل زمنَ موسى عليه السلام، وعلى الذين كانوا قبلَهم، والذين جاءوا بعدهم، وينطبقُ على الناس في زماننا، وينطبقُ على الأجيالِ القادمة حتى قيام الساعة: «بالشكر تدوم النعم».

والله سبحانه لا يحتاجُ إلى شكرِ الشاكرين، ولا يضرُّه جحودُ الجاحدين، ولا كفرُ الكافرين، فهو غنيٌّ حميد، ولو كفرَ الناسُ جميعاً ما نقصَ ذلك مِن ملكه، فسبحان الذي لا تنفعه طاعةٌ ولا تضرُّه معصية!!.

لطيفة قرآنية في تذبيح أبناء بني إسرائيل:

وقد امتنَّ اللهُ على بني إسرائيل في إنجائهم من آلِ فرعون، فقال لهم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٤٩ ـ ٥٠].

وهناكَ لطيفةٌ قرآنيةٌ في تذكير بني إسرائيل بإنجاءِ اللهِ لهم من ظلمِ واضطهادِ آل فرعون، حيث تفاوتَ التعبيرُ القرآنيُّ في الإخبارِ عن ذلك.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ..﴾.

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ..﴾.

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ..﴾.

فما حكمةُ التفاوتِ في الإخبار عن نفسِ الحادثةِ في السور الثلاث؟

في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

وفي سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

وفي سورة إبراهيم: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

إن تقتيل الأبناء أشد عنفاً من تذبيحهم.

أَخبرتْ آياتُ سورةِ البقرة عن تذبيحِ أبنائهم، لأنَّ الآياتِ السابقة من السورة لا تتحدثُ عن تعذيبِ آل فرعون لبني إسرائيل، وإنما كان الكلامُ فيها على إنعامِ الله على بني إسرائيل، وتوجيههم إلى الأُمورِ النافعة، ولهذا عبرت الآيةُ التي نتحدثُ عنها عن تذبيحِ أبنائهم وليس تقتيلهم، فقالت: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

أما في سورةِ الأعراف فإنَّ السياقَ يناسبه الحديثُ عن تقتيلِ أَبنائهم وليس تذبيحهم، لأنَّ التقتيلَ أشدُّ وأكثرُ عنفاً من التذبيح.

إنَّ السياقَ في سورةِ الأعراف يتحدثُ عن قصةِ موسى وبني إسرائيل مع فرعون، وعن تعذيبِ آل فرعون لبني إسرائيل، وتفصلُ الآياتُ السابقةُ في المواجهة بين موسى عليه السلام وبين فرعون، وفي إيذاءِ وتعذيبِ آل فرعون لبني إسرائيل، وفي صبرِ بني إسرائيل المؤمنين على ذلك.

ووردَ في الآياتِ السابقة تهييجُ الملأ فرعونَ على بني إسرائيل، وردُّ فرعونَ على التهييج بأنه سيقتل أبناءَهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

ولذلكَ ناسبَ أنْ يَرِدَ التعبيرُ بتقتيل الأبناء وليس تذبيحهم في هذا السياق: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾. ليتوافقَ مع المواجهة والتحدي، والتصعيدِ في التعذيب، وليتناسقَ مع قول فرعون السابق: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾.

أما سورةُ إبراهيم فإنها استخدمت التذبيحَ وليس التقتيل، لكنها لا تكررُ الكلمةَ الواردةَ في سورة البقرة، وإنما تضيفُ عليها إضافةً مقصودة، حيث استخدمت «واوَ» العطف، وعطفَتْها على ما قبلها: ﴿إِذْ

أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ..﴾.

عَطفت الآيةُ جملةَ ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ على جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، بينما لم تعطفْها عليها في سورة البقرة، حيث جعَلَتْهَا هناك «بدلاً» مما قبلها ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ..﴾.

فما حكمةُ العطف في سورة إبراهيم؟

إنَّ السياقَ في سورة إبراهيم سياقُ تذكيرٍ بنعم الله، وتعدادٍ لهذه النعم، حيثُ أمرَ اللّهُ موسى عليه السلام قبلَها أنْ يُذكِّرهم بأيام الله، فنفَذَ موسى أمر الله وذكَّرهم بنعمِه الغامرة عليهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ ..﴾.

إنها ثلاثُ نعمٍ معطوفٌ بعضُها على بعض بواو العطف، وكأنَّ كلَّ واحدةٍ منها نعمةٌ مستقلة.

النعمة الأولى: إنجاؤُهم من سومِ آلِ فرعون لهم سوءَ العذاب.

النعمة الثانية: إنجاءُ أبنائهم من تذبيح آلِ فرعون لهم.

النعمة الثالثة: إنجاءُ نسائهم من استحياء آل فرعون لهن!

ولأجلِ هذا التعديدِ للنعم عُطفت النعمةُ الثانية على النعمةِ الأولى بالواو، لتكونَ مستقلةً عنها، ولم تأت «بدلاً» منها كما في سورة البقرة. وسبحانَ اللّهِ منزِّلِ هذا القرآن المعجز.

لقد امتنَّ اللّهُ على بني إِسرائيل بما أَنعمَ عليهم، وطالبهم باستخدامِها في ذكره وشكره، وعدم استخدامها في عصيانه ومخالفته.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٥٠].

وقال عز وجل: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٠ ـ ٨٢].

[٢]

موسى يتلقى التوراة على جبل الطور

بعدما أَقامَ بنو إسرائيل في سيناء مع موسى عليه السلام، أَرادَ اللّهُ إنزالَ كتابِه على نبيه عليه السلام، فواعدَه جبلَ الطور ليكلمه وينزلَ عليه كتابَه.

موسى عند جبل الطور مرة ثانية:

وكان موسى قد ذهبَ إلى جبلِ الطورِ من قبل، وكلَّمه اللّهُ سبحانه وتعالى، وكلَّفه الذهابَ إلى فرعون، وكان ذلك أثناءَ عودتِه من مدينَ إلى مصر، عندما آنَسَ من جانبِ الطور ناراً، فلما ذهبَ إلى النارِ كلمه الله، وأعطاهُ العصا واليدَ آيتيْن بينتيْن إلى فرعونَ وقومه، وقد تحدثْنا عن ذلك من قبل.

والآن، ها هو يذهبُ إلى جبلِ الطور مرةً ثانية، ليأخذَ كتابَ الله، ويتلقى أحكامَه، ليبلغَها إلى بني إسرائيل.

وكان أَخوه هارون معه ـ عليهما السلام ـ وبما أنَّ موسى سيغيبُ عن قومِه مدة، فلا بدَّ أنْ يجعلَ خليفةً له فيهم، وهارونُ وزيرٌ له، لذلك كلفه موسى أنْ يخلفَه في قومه إلى حين عودته.

وقد ذكرتْ آياتُ القرآن بعضَ ما جرى على جبلِ الطور. قال الله عز وجل: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ

رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَاۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢ ـ ١٤٧].

طلبَ اللّهُ من موسى عليه السلام أنْ يأتيَ إلى جبلِ الطور، وأخبرَ القرآنُ عن ذلك بقوله: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾.

والألفُ في «واعدنا» ألفُ مفاعلة.

وفرْقٌ بين «وَعَدَ» الثلاثي، و«واعد» الرباعي.

«وَعَدَ» يدلُّ على أنَّ الوعدَ من طرفٍ واحد، أي: أنْ يَعِدَ شخصٌ آخر وعداً، وأنْ يحددَ موعداً له.

أمّا «واعَدَ» فيدلُّ على أنَّ الوعْدَ متبادلٌ من الطرفين، بحيث يَعِدُ كلٌّ منهما الآخر.

وفي «واعَدْنا» قراءتان صحيحتان:

الأولى: قراءةُ أَبي عمرو بن العلاء: «وَعَدْنا» بدون ألف، وحجتُه في ذلك أن اللّهَ هو المنفردُ بالوعدِ والوعيد.

الثانية: قراءةُ الستةِ الباقين ـ ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم ـ «واعَدْنا» بالألف.

وحجتُهم أنَّ المواعدةَ كانت من الله ومن موسى عليه السلام. فاللّهُ واعَدَ موسى لقاءه على جبل الطور، ليكلمَهُ ويكرمَهُ ويناجيه. وموسى واعَدَ اللّهَ المجيءَ إلى جبل الطور، وتنفيذَ ما أَمره به من ذلك[1].

هارون خليفة موسى في بني إسرائيل:

واعَدَ اللّهُ موسى المجيءَ إلى جبل الطور لمّا كان في قومه، وأخبره أَنه سيغيبُ عنهم ثلاثين ليلة، وطلبَ منه أنْ يجعلَ هارونَ خليفةً له فيهم.

وأخبرَ موسى قومَه أنه سيغيبُ عنهم ثلاثينَ ليلة، وسيُحضرُ لهم التوراة، وأنَّ أخاه هارون هو خليفتُه فيهم.

وأَوصى موسى أَخاه هارون عليهما السلام بما يفعلُه مع قومه أثناء غيابه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾: وهذا نصٌّ على أنَّ هارونَ خليفةٌ لموسى في بني إسرائيل أثناءَ غيابه. وهذا دليلٌ على أهميةِ الإمارةِ والخلافةِ والقيادة، واهتمامِ كلِّ دينٍ بها، فقد كان موسى عليه السلام قائداً لبني إسرائيل، يسوسُهم بأحكامِ الله، ولما اضطرَّ إلى أنْ يغيبَ عنهم لم يتركْهم بدون أميرٍ قائد، وإنما عَيَّنَ هارون قائداً لهم، وخليفةً له فيهم.

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة: ٩٦.

وإذا كان بنو إسرائيل يحتاجون إلى أَميرٍ إمام، وهم قبيلةٌ متنقلةٌ في صحراءَ سيناء، فالذين يُكَوِّنونَ مجتمعاً ودولةً لهم أكثرُ حاجةً إلى ذلك. وصدقَ الشاعرُ القائل:

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فوضى لا سَراةَ لَهُمْ ولا سَراةَ إذا جُهّالُهُمْ سادوا

وهارونُ نبيٌّ كريم عليه السلام، ولن يسوسَ قومَه إلا بالحقِّ والإصلاح، وسيقفُ أمامَ أهلِ الفساد والإفساد. ومع ذلك أَوصاهُ أَخوه أنْ يُصلح، وأنْ يَخْلُفَه في قومِه بالخير، وأنْ يسوسَهم بالحق، وأنْ لا يتبعَ سبيلَ المفسدين، وأنْ لا يسكتَ على أصحابِ الباطل.

وكأنَّ موسى عليه السلام كان يتوقعُ أنْ يقعَ قومُه في مخالفةٍ كبيرةٍ أثناءَ غيابه، ولهذا أكدَ على هارون بما أُوصاه به!!

وتولّى هارونُ قيادةَ بني إسرائيل وتدبيرَ شؤونهم، وذهبَ موسى عليه السلام إلى جبل الطور، لتنفِيذ ما يأمره به الله.

موسى ينتظر عند جبل الطور أربعين ليلة:

وسارت الأيامُ الثلاثون التي واعَدَها اللّهُ موسى عليه السلام عندَ جبلِ الطور تمضي، وقُبيلَ انقضائها مَدَّدَها اللّهُ عشراً، فصارتْ أربعين يوماً: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ..﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ونلاحظُ أنَّ آيةَ سورةِ الأعراف قد ذكرت الأيامَ الأصليةَ الثلاثين والأيامَ العشرةَ المضافةَ إليها. أما آيةُ سورة البقرة فقد ذكرتْ مجموعَ الأيام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ..﴾ [البقرة: ٥١].

إنَّ سورةَ الأعرافِ فَصَّلَتْ هذه المشاهدَ من قصةِ موسى عليه السلام، ولذلك فصَّلت الأيامَ التي غابَ فيها عن قومه، بينما أَجملتْ سورةُ البقرة الحديثَ عن هذه المشاهد، ولذلك أَجملت الكلامَ عن هذه الأيام، ولا ننسى أنَّ آياتِ سورةِ البقرة نزلتْ بعدَ آياتِ سورة الأعراف المكية.

ولا تُخبرنا مصادرُنا الإسلاميةُ اليقينيةُ عن سببِ تحديدِ هذه الأيام، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات لنأخذَ منها تلك الروايات.

موسى يسمع كلام الله ويطلب رؤيته سبحانه:

وبعدما انتهت الأيامُ الأربعون كلَّمَ اللّهُ سبحانه وتعالى نبيَّه موسى عليه السلام تكليماً، كلَّمه بدون واسطةِ المَلَكِ جبريل عليه السلام: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

ولا نخوضُ في كيفيةِ كلام اللّهِ لموسى عليه السلام، ولا في كيفيةِ سماعِ موسى لكلام الله، لأنَّنا لا «نُكَيِّفُ» صفاتِ الله سبحانه، ولا نعرفُ «كيفيةَ» اتصافِه بها سبحانه. فنحن نُثبتُ «الكلام» صفةً من صفاتِ الله سبحانه، ونؤمنُ أنَّ اللّهَ متكلم، وأنه لا نهايةَ لكلامه، وأنه يكلمُ مَنْ شاءَ مِنْ خلقه، كلاماً يليق بعظمتِه وجلالِه سبحانه وتعالى.

كلَّمَ اللّهُ موسى عند جبل الطور بدون واسطة، فموسى كليمُ الله. كما كلّمَ محمداً ﷺ ليلةَ المعراج في السمواتِ العلى بدون واسطة، فمحمدٌ كليمُ الله أيضاً ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

وسمعَ موسى عليه السلام كلامَ الله عند جبل الطور ووعاه، وأدركَ ما خصَّهُ اللّهُ به من الكرامةِ والفضل، وتاقَتْ نفسُه إلى مزيدٍ من فضلِ اللّهِ وكرمه، واستشرفَتْ نفسُه إلى أنْ يرى اللّهَ سبحانه بعينيه، ليجمعَ الفضلَ من طرفيه، طرفِ السمعِ وطرف البصر، فبما أنه سعدَ بسماعِ كلام اللّهِ بأذنيه، فلْيَسْعَدْ برؤيةِ الله بعينيه! ولهذا طلبَ من الله وهو على جبلِ الطور أنْ ينظرَ إليه ويَراه بعينيه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

إنَّ الآيةَ تَبني طلبَه رؤيةَ اللّهِ على تكليمِ اللّهِ له وسماعِه هو لكلامه.

وما كان موسى عليه السلام يعلمُ أنَّ اللّهَ لا يُمكنُ أنْ يُرى في الدنيا، وأنَّ أيَّ إنسانٍ مهما ارتقى في مقامِ القربِ من الله، ومهما نالَ من تكريمِ الله، فإنه لا يمكنُ أنْ يَرى اللّهَ في الدنيا بعينيه..

وعدمُ علمِ موسى عليه السلام بذلك لا يَضيرُه ولا يَطعنُ في علمه، ولا يَقدحُ في نبوته، فليس المطلوبُ من النبيِّ أنْ يكونَ عالماً بكلِّ شيء قبلَ أنْ يُعلمهُ اللّهُ إياه. إنَّ اللّهَ هو الذي يُعَلِّمُ أَنبياءه، وهم يتلقون العلمَ من الله ويعونَه ويستوعبونه، وقد يَجهلون أشياء فيُعلِّمُهم اللّهُ إياها، ومن ذلك طلبُ موسى عليه السلام أنْ يَرى الله.

ولذلك علَّمَهُ اللّهُ أنه لا يُمكنُ أنْ يَراه في الدنيا: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي..﴾.

وذكَرَ اللّهُ له دليلاً مادياً على أنه لا يُمكنُ أَنْ يَراه، فقال له: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي..﴾.

الله لا يرى في الدنيا:

قالَ الإمامُ محمد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي..﴾:

«إنك لنْ تراني الآن، ولا فيما يُستقبلُ من الزمان. ثم استدركَ تباركَ وتعالى على ذلك بما يدلُّ على تعليلِ النفي، ويُخففُ عن موسى شدةَ وطأةِ الرَّدّ، بإعلامِه على ما لم يكنْ يعلمُ منْ سنته، وهو أَنه لا يقوى شيءٌ في هذا الكونِ على رؤيته..

قالَ له: ولكن انظر إلى الجبل، فإنني سأتجلّى له، فإنْ ثبتَ لدى التجلّي وبقيَ مستقراً مكانَه فسوف تراني. وذلك لمشاركتك له في مادةِ هذا العالمِ الفاني.

وإذا كان الجبلُ في قوتِه ورسوخِه لا يثبتُ ولا يستقرُّ لهذا التجلّي لعدمِ استعدادِ مادَّتِه لقوةِ تجلّي خالقِه وخالق كل شيء، فاعلمْ أنك لن

تراني أيضاً، وأنتَ مشاركٌ له في كونك مخلوقاً من هذه المادة، وخاضعاً للسننِ الربانية في قوتِها وضعفِ استعدادها، وقبولِها للفناء. . .»[1].

ويدلُّ قولُ اللّهِ لموسى عليه السلام ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ على أنَّ اللّهَ لا يُمكنُ أنْ يُرى في الدنيا، فهذا النفيُ بحرفِ «لن» مصروفٌ إلى الدنيا، فلا موسى رأى ربَّه في الدنيا، ولا محمدٌ ﷺ رأى ربَّه في الدنيا، على الراجحِ عند علماءِ السلف من الصحابة والتابعين وتابعِيهم.

أما في الآخرة، فإن الرؤيةَ فيها غيرُ منفيةٍ عند أهلِ السنة، فنؤمنُ أنَّ المؤمنين يرونَ اللّهَ سبحانه وتعالى في الجنة، رؤيا تليقُ بعظمتِه وجلالِه، وذلك لورودِ آياتٍ قرآنية وأحاديثَ نبوية صحيحة، تُثبتُ تلك الرؤية، ونحنُ ملزمونَ بالقولِ بما قرَّرتْه الآياتُ والأحاديثُ الصحيحة.

النصوص على أن المؤمنين يرون الله في الجنة:

وليس هذا موطنَ الحديثِ المفصَّلِ عن أَقوالِ الفرقِ عن رؤيةِ اللّهِ في الدنيا، ورؤيتِه في الآخرة، ولا عن الأدلةِ المفصلةِ من الآياتِ والأحاديث التي تُثبتُ الرؤيةَ في الجنة[2].

ونكتفي بإيرادِ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] الذي نعتبره مِن أصرحِ الآياتِ في إثباتِ الرؤية.

وبقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقد فسَّرَ رسولُ الله ﷺ الزيادةَ هنا بأنها النظرُ إلى الله في الجنة.

فقد روى الإمامُ مسلمٌ عن صهيب الرومي رضي الله عنه عن

---

(١) تفسير المنار ٩:١٢٣.

(٢) انظر تفسير المنار لرشيد رضا ٩:١٢٣ ـ ١٩٢. وانظر كتاب الرؤية للدارقطني بتحقيق إبراهيم العلي وأحمد الرفاعي.

رسول الله ﷺ قال: «إذا دخلَ أهلُ الجنة الجنة، وأهلُ النار النار، نودوا: أنْ يا أهلَ الجنة، إنَّ لكم عندَ الله موعداً لم تروه. قالوا: وما هو؟ ألم يُثَقِّلْ موازينَنا، ويُبَيِّضْ وُجوهَنا، ويُدخلْنا الجنة، ويُنجينا من النار؟

فيُكشفُ الحجاب، فينظرونَ إليه تبارك وتعالى، فوالله ما أَعطاهم اللّهُ عز وجل شيئاً هو أحبُّ إليهم من النظرِ إليه».

ثم تلا قولَه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1].

أما الأحاديثُ الصحيحةُ الكثيرةُ المثبتةُ للرؤيةِ يوم القيامة، فنكتفي بما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ أُناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يا رسولَ الله: هلْ نرى ربَّنا عز وجل يومَ القيامة؟

فقالَ عليه الصلاة والسلام: «نعم».

«هل تُضارُّونَ في رؤيةِ الشمسِ بالظهيرةِ ليس فيها سحاب؟ وهل تُضارُّونَ في رؤيةِ القمر ليلةَ البدر صحواً ليس فيها سحاب؟».

قالوا: لا يا رسول الله.

قال: «ما تُضارُّونَ في رؤيةِ الله عز وجل يومَ القيامة إلا كما تُضارُّونَ في رؤيةِ أحدهما...»[2].

والخلاصةُ أنَّ المؤمنين يرونَ ربَّهم في الجنةِ يومَ القيامة، أما البشرُ فإنهم لا يرونَ اللّهَ بعيونهم في الدنيا، ولهذا ردَّ اللّهُ على طلبِ الرؤيةِ من موسى عليه السلام بأنَّه لن يَراه في الدنيا، وعلَّلَ ذلك بأنه لا يُطيقُ ولا يتحملُ رؤيتَه، وقدَّمَ له على ذلك دليلاً عملياً، وهو جبلُ الطورِ الراسخِ الكبير، فإنه لن يتحملَ تجلّي اللّهِ سبحانه له.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨١) وانظر كتاب الرؤية للدارقطني حديث رقم: ١٥٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٨١. ومسلم برقم: ١٨٣. وانظر الرؤية للدارقطني رقم: ١.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي . . .﴾.

تجلي الله للجبل وعدم معرفة كيفيته:

ونظرَ موسى إلى جبلِ الطورِ الراسخِ الكبير، وما هي إلا لحظة، حتى تجلّى اللّهُ سبحانه للجبل، فإذا بالجبلِ الراسخ يُدَكُّ دكاً، وإذا بموسى عليه السلام يخرُّ صَعِقاً مغشياً عليه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا . .﴾.

﴿تَجَلَّىٰ﴾ فعلٌ ماضٍ خُماسي. الثلاثيُّ منه «جَلا».

والمادةُ بمعنى الكشفِ والظهور. قال الإمامُ الراغبُ في المفردات: «أصْلُ الجَلْوِ: الكشفُ الظاهر.

.. والتجلّي قد يكونُ بالذات، كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ٢].

وقد يكونُ بالأمْرِ والفعلِ، كقوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا . .﴾[1].

والتعبيرُ بالتجلّي يدلُّ على التدريجِ في الانكشافِ والظهور. قالَ الإمامُ رشيد رضا: «يُقال: جَلا الشيءُ، وانْجلى وتجلّى بنفسه أو بغيره، إذا انكشفَ وظهرَ ووضح، بعد خفاءٍ في نفسه، أو خفاءٍ على مجتليه وطالبه.

ويكونُ ذلك التجلّي والظهورُ بالذاتِ وبغيرِ الذات، من صفةٍ أو فعل، يَزولُ به اللبسُ والخفاء.

وفي صيغةِ التجلّي ما ليس في صيغةِ الجلاءِ والانجلاء من معنى التدريجِ والكثرةِ النوعيةِ أو الشخصية. قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١

(١) المفردات: ٢٠٠.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾. فالليلُ يَغشى النهارَ ويستره، ثم يتجلّى النهارُ ويَظهرُ بالتدريج»[1].

هذا عن معنى التجلّي بصورةٍ عامة، الذي هو في المخلوقات، أمّا تجلّي الربِّ الخالقِ سبحانه وتعالى للجبل، فهو فعْلٌ من أفعالِ الله، فَعَلَه سبحانه بما يتفقُ مع جلاله وعظمته. فلا نعرفُ كيفَ تجلّى سبحانه للجبل، فلا نقولُ فيه إلا أنه سبحانه تجلّى للجبل، كما أَخبرَ سبحانه عن فعله.

ونُرددُ مع سيد قطب قولَه: «فكيف كان هذا التجلّي؟ نحن لا نملكُ أنْ نصفَه، ولا نملكُ أنْ ندركَه، ولا نَملكُ أنْ نستشرفَه إلاّ بتلك اللطيفةِ التي تصلُنا بالله، حين تشفُّ أرواحُنا وتصفو، وتتجهُ بكلّيتها إلى مصدرِها. فأَمّا الألفاظُ المجردة فلا تملكُ أنْ تَنقلَ شيئاً. لذلكَ لا نحاولُ بالألفاظ أنْ نصوِّرَ هذا التجلي. ونحنُ أَمْيَلُ إلى اطراحِ كلِّ الرواياتِ التي وَردتْ في تفسيره، وليسَ منها روايةٌ عن المعصومِ ﷺ...»[2].

دك الجبل وصعق موسى:

تجلّى اللّهُ سبحانَه لجبلِ الطور تجلّياً يليقُ بجلالِه وعظمته، ولا نعرفُ نحنُ كيفيتَه، ولم يتحملِ الجبلُ الراسخُ تجلّي اللّهِ سبحانه، فَدُكَّ وانْساحَ وهُدم.

والدَّكُّ هو الهدمُ «يقال: دَكَّ البناءَ: إذا هَدَمه حتى سوّاه بالأرض»[3].

ولم يتحملْ موسى منظرَ دَكِّ جبل الطور، فأصابَتْه غشيةٌ شديدة، وخَرَّ مصعوقاً من هول ما رأى وعُنفِ ما سمع.

---

(١) تفسير المنار ٩:١٢٤.

(٢) الظلال ٣:١٣٦٩.

(٣) المعجم الوسيط ١:٢٩١.

فإذا كان موسى لم يتحمَّلْ تجلّي اللّهِ لجبلِ الطور وخَرَّ مصعوقاً مغشياً عليه، فكيف لو تجلّى اللّهُ له هو، استجابةً لطلبه رؤيتَه؟

قال رشيد رضا: «لما تجلّى ربُّه للجبل أَقَلَّ التجلي وأَدْناه انهدَّ وهبطَ من شدتِهِ وعظمتِه، وصارَ كالأرضِ المدكوكة أو الناقةِ الدكاء. وسقطَ موسى على وجْهه مغشياً عليه، كمن أخذَتْه الصاعقة. والتجلّي إنما كانَ للجبل، فكيف لو كان له؟»[1].

وكان صعقُ موسى من بابِ الغشية، حيث خَرَّ مغشيّاً عليه، وسقطَ مغمى عليه، فاقداً للحسِّ والحركة، وبقي فترةً في غشيتِه وصعقتِه وإغمائِه، لا نعرفُ مقدارَها ولا مدتَها.

موسى أول المؤمنين بأن الله لا يرى في الدنيا:

وبعدَ ذلك أفاقَ منها. وأولُ ما نطقَ به بعدَ الإفاقةِ مناجاتُه لله قائلاً: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

نَزَّهَ اللّهَ ومجَّدَه بقوله له: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، وتسبيحُ الله إبعادُ كلِّ ما لا يليقُ به عنه، ووصْفُه بكلِّ جلالٍ وعظمة. وكأنه يقولُ: يا رب سبحانَك فأنت لا تُرى في الدنيا. وكأنَّ إمكانيةَ رؤيتِه سبحانه في الدنيا نقْصٌ لا يليقُ به، ولذلك سارعَ بتسبيحِه وتنزيهه وإبعادِ النقصِ عنه.

بعدَ ذلك أَعلنَ توبتَه إلى ربه: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ والتوبةُ هي الرجوعُ والأَوبةُ إلى الله.

وليستْ توبةُ موسى عليه السلام إلى ربِّه بسببِ ذنبٍ اقترفَه، فهو نبيّ كريم، والأنبياءُ معصومون، وإنما هي قربٌ منه إلى الله، وذكْرٌ له، وتجديدٌ وتوثيقٌ لصلته به سبحانه.

وصرَّحَ موسى عليه السلام بأَنه ﴿أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) تفسير المنار ٩: ١٢٥.

والراجحُ أَنه ليس المرادُ أولَ المؤمنين في التاريخ، فقد سبقَ موسى عليه السلام مؤمنون كثيرون، منذُ آدم عليه السلام وهم الأَنبياءُ وأَتْباعهم.

لكنَّ المرادَ أَنه أولُ المؤمنين باللّهِ من بني إسرائيل، أي: أولُ مؤمني قومِه، لأَنه رسولُ الله إِليهم، والرسولُ هو أولُ مؤمني قومه، وهو أَعظمُهم إيماناً بالله.

ولابنِ عباس رضي الله عنهما قولٌ آخر لطيفٌ في المراد بالأولية هنا.

قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَنه لا يراكَ أَحد.

وقال أبو العالية: قد كان قبلَ موسى عليه السلام مؤمنون، ولكن يقول: أنا أولُ مَنْ آمَنَ بك أنه لا يَراكَ أحدٌ مِن خلقك إِلى يومِ القيامة.

وعلقَ الإمامُ ابنُ كثير على ذلك بقوله: وهذا قولٌ حَسَنٌ له اتجاه»[1].

وقولُ ابنِ عباس وأبي العالية يتفقُ مع الحادثة، فموسى عليه السلام لم يكنْ يعلمُ أنَّ اللّهَ لا يُمكنُ أَن يُرى في الدنيا، ولهذا طلبَ أنْ يَراه، فقدَّمَ اللّهُ له الدليلَ العمليَّ على أنه لا يُرى في الدنيا، ولما رأى الدليلَ العمليَّ تحققَ عنده الإيمانُ الجازمُ باستحالةِ رؤيةِ الله في الدنيا، لأَنه جمعَ في هذا الإيمانِ بين التصديقِ النظريِّ وبين التجربةِ العمليةِ الميدانية.

وأَعلى درجاتِ الإيمان أنْ يَجمعَ المؤمنُ بين التصديقِ النظريِّ والممارسة العملية، كما حصلَ مع إبراهيمَ عليه السلام، عندما أَجرى اللّهُ على يديه تجربةً عمليةً على البعث، وهي الطيورُ الأَربعةُ التي بعثَها اللّهُ على يديه بعدَ ذبحِها. وهي المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢: ٢٣٥.

﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

خلاصة الحادثة من تفسير المنار:

وقد سجَّلَ الإمامُ محمد رشيد رضا خلاصةَ معنى الآية التي نحنُ بصددها، فقال: «خلاصةُ معنى الآيةِ أنَّ موسى عليه السلام لما نالَ فضيلةَ تكليمِ اللّهِ له بدون واسطة، فسمعَ ما لم يكنْ يسمعُ قبلَ ذلك، وهو من الغيب، الذي لا شِبْهَ له ولا نظيرَ في هذا العالم، طلبَ من الربِّ تبارك وتعالى أنْ يمنَحَهُ شرفَ رؤيتِه، وهو يعلمُ أنه تعالى ليسَ كمثلِه شيء، في ذاتِه ولا في صفاته، التي منها كلامُه عز وجل، فكما أنه سمعَ كلاماً ليس كمثله كلام، استشرفَ لرؤيةِ ذاتٍ ليس كمثلِها شيءٌ من الذوات، كما فُهِمَ من ترتيبِ السؤال على التكليم، فلم يكنْ عقلُ موسى - وهو في الذروةِ العليا من العقول البشرية بدليلي العقل والنقل - مانِعاً له من هذا الطلب، ولم يكن دينُه وعلمُه بالله تعالى وهما في الذروةِ العليا أيضاً مانعين له منه.

ولكنَّ اللّهَ تعالى قالَ له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ولكيْ يخففَ عليه ألَمَ الرّدِّ وهو كليمُه الذي قالَ له في أولِ العهدِ بالوحي إليه ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ أَراهُ بعينيه ومجموعِ إدراكه مِنْ تجلّيه للجبلِ بما لا يعلمهُ سواه، أَنَّ المانعَ من جهتِه هو، لا من جانبِ الجودِ الرباني، فنزَّهَ الله وسبَّحَه وتابَ إليه من هذا الطلب، فبشَّرَه اللّهُ تعالى بأنه اصطفاهُ على الناس برسالاته وبكلامه، دونَ رؤيته، وأَمَرَهُ بأنْ يأخذَ ما أَعطاه، ويكونَ من الشاكرين له..»[1].

---

(١) تفسير المنار ٩: ١٢٦ - ١٢٧.

الله اصطفى موسى برسالاته وكلامه وما ترتب عليه:

ولما قالَ موسى بعد إفاقته: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الله له: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

أَخبره بأَنه اصطفاهُ على الناسِ بأَنْ جعلَه نبياً رسولاً، والاصطفاءُ هو الاختيارُ الخاصّ. فاللّهُ اختارَه من بينِ سائرِ الناس، وأَنزلَ عليه وحْيَه، وكلُّ الأنبياءِ مصطَفَوْن، اصطفاهم اللّهُ من بينِ الناس وفضَّلَهم عليهم. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

وعَدّىٰ الاصطفاءَ في الآية بحرف «على» فقال: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، ليدلَّ على معنى تفضيلِه على الناس، فكأَنه قال له: إني اصطفيتُك من بين الناس، وفَضَّلْتُك على سائرِ الناس.

وعَبَّرَ عن الرسالاتِ بالجمع: «برسالاتي» مع أَنه بعثَهُ برسالةٍ واحدة، وأَنزلَ عليه التوراة، وذلك إِشارةً إِلى تعددِ موضوعات رسالته، حيث تضمنَتْ رسالتُه العقائدَ والعبادات والتشريعات والأحكام والتوجيهات، فجمعها لهذا الاعتبار[1].

وخصَّ اللّهُ موسى عليه السلام بكلامه، حيث كلَّمَه تكليماً بدون واسطة. ولم يُكلمْ من رسله بدون واسطة إلاّ موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام.

ورتبَ اللّهُ على اصطفاءِ موسى برسالاته وكلامه أَمرين: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

---

(١) انظر تفسير المنار ٩: ١٢٧.

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾: خُذْ ما أُنزلَ عليك من «التوراة»، والتزمْ بما فيها من أحكامٍ وتشريعات.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: اشكُرْني شكراً عاماً شاملاً، مقابلَ اصطفائي لك، ومقابلَ إنزالِ التوراةِ عليك.

إنه اصطفاءٌ وتفضيل، ينتجُ عنه رسالةٌ وتكليف، ويترتبُ عليه شكرُ المنعِمِ المتفضِّلِ سبحانه وتعالى.

كتبت التوراة على الألواح في السماء:

وفي ذلك المكانِ المباركِ عندَ جبلِ الطور أنزلَ اللّهُ التوراةَ على موسى عليه السلام.

وأَشارتْ آياتُ سورةِ الأعراف إلى إنزالِ أَلواح التوراة عليه، وإلى بعضِ ما كلَّفه اللّهُ به. قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٥ ـ ١٤٧].

الأَلواحُ المذكورةُ هنا هي أَلواحُ التوراة، التي أَنزلَها اللّهُ عليه، والأَلواحُ جمع «لوح» هو ما يُكتبُ عليه، من خشب ونحوه.

وأَسندَ اللّهُ كتابةَ ما في الألواح إليه سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾. وهذا يدلُّ على أَنَّ اللّهَ أنزلَ على موسى عليه السلام الأَلواحَ من السماء، وكانت التوراةُ مكتوبةً على الألواح في السماء، ويكونُ هذا معجزةً من الله سبحانه.

نقولُ هذا لأَنه لم يَرِدْ في مصادرِنا الإسلاميةِ أَنَّ موسى عليه

السلام كان قارئاً كاتباً، كما لم يَرِدْ فيها أنَّ موسى أَخَذَ معه ألواحاً خشبيةً إلى جبل الطور، وأنه كان يكتبُ على تلك الألواح ما يوحىٰ إليه من كلامِ الله، ولم يَرِدْ فيها أنه كانَ معه آخرون يكتبون له!!

وبما أنه لم يَرِدْ في مصادرِنا الإسلامية كلامٌ عن هذه الأمور، فعلَينا أنْ نأخذَ هذه الجملةَ القرآنية على ظاهرها: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أَنزلَ اللّهُ على موسى وهو على جبل الطور ألواحاً من السماء، وكان مكتوباً على تلك الألواح كلامُ الله، كُتِبَ ذلك في السماء من قبلِ الملائكة، بأمْرٍ من الله سبحانه.

ولعلَّ التوراةَ المكتوبةَ على تلك الألواح كانت بدايةَ الوحي، ولم تكن التوراةَ كلَّها، ولعلَّ تفاصيلَ الأحكامِ التشريعية جاءَ بعد ذلك، في المراحلِ اللاحقةِ من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل.

الألواح مبهمة لا نخوض فيها:

و«الأَلواحُ» المذكورةُ هنا مبهمة، ولا تُفصلُ مصادرُنا الإسلاميةُ عنها شيئاً، فلا نَعرفُ عددَها ولا حجْمَها ولا مادتَها ولا وصْفَها، ولا نذهبُ إلى الإسرائيلياتِ لنأخذَ منها تلك التفصيلات.

قال سيد قطب: «وتختلفُ الرواياتُ والمفسرون في شأنِ هذه الألواح، ويصفُها بعضُهم أَوصافاً مفصَّلَة ـ نحسبُ أَنها منقولةٌ عن الإسرائيليات التي تسربتْ إلى التفسير ـ ولا نجدُ في هذا كلِّه شيئاً عن رسولِ الله ﷺ، فنكتفي بالوقوفِ عند النصِّ القرآنيِّ الصادقِ لا نتعداه. وما تزيدُ تلك الأوصافُ شيئاً أو تُنقصُ من حقيقةِ هذه الألواح. أَما ما هي وكيفَ كُتبتْ فلا يَعنينا هذا في شيء، بما أَنه لم يَرِدْ عنها من النصوصِ الصحيحة شيء. والمهمُّ هو ما في هذه الألواح...»[1].

---

(١) الظلال ٣: ١٣٧٠.

التوراة مفصلة وأخذ أحسنها بقوة:

وقد أَخبرنا اللّهُ عن بعضِ ما كتبه في الألواحِ من التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ...﴾.

وهذه إِشارةٌ إِلى بعضِ موضوعات التوراة، فاللّهُ كتبَ فيها كلَّ نوعٍ من أَنواعِ الهداية لبني إسرائيل، وجَعَلَها موعظةً لهم، تعظُهم وترققُ قلوبَهم وتؤثِّرَ فيهم بالترغيب والترهيب.

كما جعلَ اللّهُ التوراة تفصيلاً ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، فصَّلَ فيها العقائدَ والأحكامَ والأخبارَ والآداب، وعرفَ بنو إسرائيل منها ما يريده اللّهُ منهم.

وأمرَ اللّهُ موسى عليه السلام أنْ يأخذَ ما في الألواحِ بقوة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ..﴾: والمرادُ بالقوةِ هنا قوةُ العزيمة والإرادة، وقوةُ الفهم والعلم، وقوةُ الالتزام والتنفيذ.

إنَّ التوراةَ كلامُ الله، وإنَّ ما فيها فهو شرعُ الله، ولا بد للمؤمنين بها أنْ يَنظروا لها بجديةٍ وحزم، وأنْ يتعاملوا معها بقوةٍ وهمةٍ وفهمٍ والتزام. وهذه صفاتٌ ضروريةٌ لكلِّ مَنْ يؤمنُ بالرسالات وما فيها من تشريعات.

وطلبَ اللّهُ من موسى عليه السلام أنْ يأمرَ قومَه بأخْذِ أحسنِ ما في تلك الألواح: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ..﴾.

و«أحسن» في الجملة أفعلُ تفضيل، وظاهرُه أنَّ ما في التوراة نوعان، منه ما هو حَسَن، ومنه ما هو أحسن.

وذهبَ بعضُ العلماء إلى أنَّ أفعلَ التفضيل «أحسن» هنا ليسَ على بابه، فالتفضيلُ ليس مراداً، والمرادُ به وصفُ كلِّ ما في التوراة بأنه ذو حُسْنٍ تامٍّ كامل.

وذلك لأنَّ التوراةَ كلامُ الله، وما فيها أحكامُ الله وتشريعاتُه، وهذه كلُّها موصوفةٌ بالحسنِ التام، وليس فيها حَسَنٌ وأحسن.

والمعنى عند هؤلاء العلماء: أْمُرْ قومَك بالاستمساكِ بكلِّ ما في التوراة فإنها كاملةُ الحسن.

وذهبَ آخَرون من العلماءِ إلى أنَّ أفعلَ التفضيل «أحسن» على ظاهرِه، فما في التوراة منه ما هو حَسَن، ومنه ما هو أحسن.

قالوا: العقائدُ أحسنُ من الأحكام، والأحكامُ أحسنُ من المواعظ، والمواعظُ أحسنُ من الأخبار[1].

والقولُ الأولُ أرجح، لأنه الأكثرُ اتفاقاً مع طبيعة كلام الله وأَحكامِه، ومع موقفِ المؤمن منها. وهو أنْ يأخذَها كلَّها لأنها موصوفةٌ بالحسن التام.

تهديد بني إسرائيل بالعقاب إن فسقوا:

وقالَ اللّهُ لبني إسرائيل مخاطباً لهم عن طريقِ الوحيِ إلى موسى عليه السلام: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

والفاسقون هم الخارجونَ على شرعِ الله ودينِه، الذين كفروا بالله، وكَذَّبوا رسلَه، وعَبدوا غيره، وحاربوا الحق، واتبعوا الباطل، فحقتْ عليهم كلمةُ الله، وأَوقعَ بهم بأسَه وعذابَه وانتقامه، فقضى عليهم ودمرهم تدميراً.

والراجحُ أنَّ المرادَ بالفاسقين هنا الكافرون الظالمون من السابقين، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمود، وقوم لوط ومدين، وآخرُ نموذجٍ لهؤلاء هم فرعون وملَؤه، الذين أَغرقهم اللّهُ أمامَ أعينِ بني إسرائيل.

ويكونُ معنى الجملة ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾: سأبينُ لكم عاقبةَ الفاسقين، وأُريكم ما أُوقعُ بهم من عقابٍ بسبب فسقهم.

---

(١) انظر تفسير المنار ٩: ١٩٢ ـ ١٩٣.

ويكونُ المرادُ بهذه الجملة تهديدُ بني إسرائيل، فكأنَّه يقولُ لهم: إنْ أَخذتُم ما في التوراة بقوة، والتزمْتم كلَّ ما فيها وهو كاملُ الحسن، أفلحتم، وإنْ خالفتُم وعصيتم، كنتم من الفاسقين، وعند ذلك يقعُ بكم ما وقعَ بالفاسقين من قبلكم من عقابٍ وعذاب.

فالجملةُ تهديدٌ لبني إسرائيل، لئلا يفسقوا ويخالفوا أَحكامَ الله.

ست صفات للمصروفين عن آيات الله:

وذَكَرَ اللّٰهُ لنا بعضَ ما قرره في التوراةِ لبني إسرائيل، فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦ ـ ١٤٧].

وقد بَينتْ هذه الآياتُ بعضَ صفاتِ الذين يُصرفون عن آياتِ الله، وصفاتُهم المذكورةُ هنا هي:

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: إِنهم متكبرون في الأرض، يتكبَّرون على الآخرين، ويتكبَّرون على الحق فيرفضون أنْ يَتَّبعوه، ويعتبرونَ أَنفسهم أَعلى منه وأرفع!

٢ ـ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾: تكبُّرهم قادَهم إلى الكفرِ عناداً، فمهما يروا آياتِ فيما حولَهم يكفروا بها، ويرفضوا قبولَها والإيمانَ بها.

إِنهم يكفرون بآياتِ الله عناداً واستكباراً، وليس عن جهلٍ بها، فليست لهم حجةٌ في ذلك الكفر.

٣ ـ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾: لأَنهم متكبرون وكافرون بالحق، فهم يرفضونَ اتباعَ سبيلِ الرشد، وسلوكَ طريقِ الهدى، رغم وضوحِه أَمامهم، ورغمَ رؤيتِهم وتبيُّنِهم له.

٤ ـ ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾: صفاتُهم السابقةُ السيئةُ قادَتْهم إلى سوء الاختيار، فبينما رفضوا سلوكَ سبيلِ الرشد، فقد وقعوا في جريمةٍ أعظمَ وأشنع، وهي اتخاذُ سبيلِ الغيِّ والضلال سبيلاً.

وكلُّ مَنْ رفضَ اتباعَ سبيل الرشد، فإنه سيتبعُ سبيلَ الغي، لا محالة، لأنهما سبيلان اثنان لا ثالثَ لهما، إمّا سبيلُ الرشدِ والهدى والنور، وإمّا سبيلُ الغيِّ والضلال والظلام.

وإذا كان المؤمنون المتواضعون يتخذونَ سبيلَ الرشدِ سبيلاً، فإنَّ الكافرين المتكبرين يتخذون سبيلَ الغيِّ سبيلاً.

٥ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾: كان هؤلاء المصروفون عن آياتِ اللّهِ مكذبين بآياتِ الله، كما كانوا غافلين عنها.

وتكذيبُهم بآياتِ الله وغفلَتُهم عنها سِرُّ ما أَوقعَ اللّهُ بهم من عقوبةٍ شديدة، وهي صرْفُهم عن آياتِ الله. ولذلك عَبَّرَ عن ذلك باسمِ الإشارة وباء السببية. أي: فعَلْنا بهم ذلك الصرفَ عن آياتِنا بسببِ أنهم كذبوا بها وغفلوا عنها.

٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾: وهذه نتيجةٌ لصفاتِهم السابقةِ السيئة، فقد أحبطَ اللّهُ لهم أعمالهم، وأَبطلَها وألغاها، فلم تَعُدْ نافعةً لهم، بسببِ كلِّ ما اتصفوا به من قبائح ورذائل.

بعدَ ذلك ذكرَ أنه سبحانه عادلٌ بهم في ما أَوقعَ بهم من عقاب، لأَنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بذلك، وسنةُ اللّهِ أنه يُجازي كلَّ إنسانٍ بعمله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فما وقعَ بهم من إحباطٍ لأعمالهم، وصرفِهم عن آياتِ الله، وتعذيبٍ وعقاب، إنما هو بسببِ صفاتِهم السيئةِ التي اتصفوا بها، وأعمالِهم القبيحةِ التي عملوها.

وإِخبارُ الله لبني إسرائيل عن صفاتِ المصروفين عن آياتِه في أَولِ

ما أنزلَ على نبيه موسى عليه السلام من التوراة، من بابِ تحذيرِه لهم، لئلا يَتَّصفوا بتلك الصفات، حتى لا يَنالوا تلك العقوبات!.

كانتْ بدايةُ إنزالِ التوراة على موسى عليه السلام عندَ جبلِ الطور، في ذلك اليومِ المبارك، ويبدو أنَّ اللّهَ أَوحى إلى موسى أحكاماً أُخرى بعد ذلك.

التوراة كتاب وفرقان وضياء وذكر قبل التحريف:

وقد وردتْ بعضُ أوصافِ التوراة في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: ٥٣].

التوراةُ كتابٌ لأنها كتابُ اللّهِ وكلامُه، أَمَرَ بكتابتِه على الألواح: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ..﴾. ويجبُ الإيمانُ بأنها كتابٌ من كتبِ اللّهِ التي أنزلَها على رسله. ومَنْ أنكرَ كونَ التوراةِ كتاباً من كتبِ الله فقد كفرَ بالله، لأنَّ الإيمانَ بالكتبِ ركنٌ من أركان الإيمان.

والتوراةُ فرقان، فَرَّقَ اللّهُ به بين الحقِّ والباطل، فكلُّ ما فيها حق، وكلُّ ما ناقضَها باطل، كما أَنها فُرقانٌ فَرَّقَ اللّهُ بها بين الحلال والحرام.

والتوراةُ الموصوفةُ بأنها كتابٌ وفرقان، هي التوراةُ التي أنزلَها اللّهُ على موسى عليه السلام، وذلك قبلَ أنْ تمتدَّ إِليها أَيدي الأحبارِ بالتحريفِ والتغييرِ والتبديلِ.

أما بعدَ تحريفها وتبديلها فلم تَعُدْ كتاباً لله، ولا فرقاناً بين الحقِّ والباطل، وإنما صارت كتاباً ممزوجاً بالأَباطيلِ والأكاذيب!

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

جعلَ اللّهُ التوراةَ نوراً تنيرُ حياة بني إسرائيل، وهدى يهتدونَ بها، فاهتدوا بها في حياةِ موسى عليه السلام وأنارتْ حياتَهم. وهذا قبلَ تحريفهم لها، أما بعدَما حَرَّفوها فقد طمسوا نورَها، وبددوا هداها، فنسخَها الله.

وقـال تـعـالـى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].

التوراةُ فرقانٌ بالمعنى الذي قررناه، وهي ضياءٌ يضيءُ لبني إسرائيل حياتَهم، وقد سبقَ وصْفُها بالنور، فهي ضياءٌ ونور، وهي ذكرٌ للمتقين المؤمنين بها، تدلُّهم على كيفيةِ ذكرْهِم لله وعبادته، وحُسنِ التقرب إليه.

وهذا قبلَ تحريفِ الأَحبارِ لها، أما بعدَ تحريفها فلم تَعُدْ فرقاناً ولا ضياءً ولا ذكراً للمتقين!!

والتوراة بصائر وهدى ورحمة قبل التحريف:

وقـال تـعـالـى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣].

جعلَ اللّهُ التوراةَ بصائرَ للناس، يُبصرونَ بها الحق، ويتعرفون عليه ويُميزونَه عن الباطل، كما جعلَها هدى يَهتدون بها إلى طريقِ الحق، ويَصِلون بها إلى مرضاةِ الله، ورحمةً لهم يرحمُهم بها، ويفيضُ عليهم رحمتَه عندما يلتزمون بها.

أما بعدَ تحريفِ الأَحبارِ لها فلم تَعُدْ رحمةً ولا هدى ولا بصائر.

هذه بعضُ صفاتِ التوراة الواردةِ في آيات القرآن: كتابٌ وفرقان، نورٌ وهدى، ضياءٌ وذكر، بصائر ورحمة.

وهذه هي صفاتُ كلِّ كتابٍ من كتبِ الله، أنزله على أحدٍ من رسله، فهي صفاتٌ تنطبقُ على الإنجيل، كما تنطبقُ على القرآن.

وهذه الصفاتُ تحققتْ في التوراةِ التي أنزلَها اللّهُ على موسى عليه السلام، وبقيتْ موجودةً فيها حتى عدا عليها أَحبارُ اليهود، وأَمعنوا فيها تحريفاً وتزويراً وتغييراً وتبديلاً، وأضافوا لها أكاذيبَهم ومزاعمَهم وكلامَهم.

وبذلك زالتْ عنها هذه الصفاتُ الإيجابية، فنسخَها اللّهُ وأَبطلها، وأنزلَ القرآنَ الكريم، وأَبقاهُ محفوظاً حتى قيام الساعة!!.

[٣]

عبادة بني إسرائيل العجل

بينما كان موسى عليه السلام يسعدُ بمناجاةِ اللّهِ وتكليمه وتلقّي كتابه على جبل الطور، وقعتْ مشكلةٌ عظيمةٌ في قومه، حيث زيَّنَ لهم السامريُّ عبادةَ العجل، وقد أخبرَ اللّهُ موسى عن هذه المشكلة وهو على الطور.

قصة عبادتهم العجل في سورتي طه والأعراف:

وفصَّلَتْ آياتُ سورة طه قليلاً في حديثها عن هذه المشكلة.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي (٨٦) قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا (٨٩) وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ

مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٨٣ ـ ٩٨].

وأشارتْ إلى هذه المشكلةِ آياتٌ من سورةِ الأعراف. قال الله عز وجل: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨ ـ ١٥٤].

ولا توجَدُ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ تضيفُ جديداً على هذه الآيات، وتفصّلُ شيئاً في عبادةِ بني إسرائيل للعجل، ولهذا سننظرُ في آياتِ القرآن، ونقدمُ بعضَ دلالاتها وإشاراتها عن هذه الحادثةِ العجيبة، ولن نذهبَ إلى الإسرائيلياتِ لأخْذِ ما فيها من روايات.

الله يعاتب موسى لعجلته وجواب موسى:

أَخبرَ اللّهُ موسى وهو على جبل الطور بما حدثَ في قومه من عبادة العجل، وسأله اللّهُ قائلاً: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾؟.

ومعنى السؤال: أيُّ شيء حملك على العجلةِ والسرعة؟ ولماذا تعجلْتَ القدوم؟ ولماذا عجلْتَ عنهم وسبقْتَهم؟

يقال: عَجِلَ إليه: أسرعَ في القدومِ إليه.

وعاجَلَه: تعجَّلَ معه. وعَجَلَه: سَبَقَه. وتعجَّلَه: حثَّه على الإسراع. واستعجله: استحثَّه[1].

وهذا الاستفهامُ فيه معنى العتاب، يعاتبُ اللّهُ موسى لتعجلِه وسبقِه لقومه، ولا يَعني هذا أن موسى عليه السلام مخطئٌ في تعجلِه، لأنه جاءَ جبلَ الطور بأمرِ الله، وتنفيذاً للمواعدةِ التي واعده اللّهُ إياها، وقد تركَ أَخاه هارون خليفةً فيهم.

قال الراغب عن العجلة: «العَجَلَة: طلبُ الشيء وتحرّيه قبلَ أوانه. وهو من مقتضى الشهوة. فلذلك صارتْ مذمومةً في عامةِ القرآن، حتى قيل: «العَجَلَة من الشيطان»[2].

أجابَ موسى على السؤال قائلاً: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ . . .﴾.

---

(١) انظر المعجم الوسيط ٢: ٥٨٦.

(٢) المفردات: ٥٤٨.

الأَثَر: هو ما يتركُه الماشي على الأرضِ من علاماتِ قدمٍ أو خُفٌ أو غيرِه. فهو بمعنى العلامة.

يقال: جاءَ فلان على أَثَرِه. أي: جاءَ يتبعُه.

معنى: هم أُولاء على أَثَري: إنَّ قومي سائرون على أَثَري، متابعون لمواقعِ قدمي.

ومرادُه أنَّ قومي قادمون ينزلون قريباً من جبل الطور.

ويدلُّ السؤالُ والجواب: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ على أَنَّ بني إسرائيل كانوا مع هارون عليه السلام قريبين من موسى عليه السلام.

كما يدلُّ على أنَّ موسى عليه السلام قد سبقَ قومَه القدومَ إلى جبلِ الطور حسبَ الموعدِ الذي واعدَهُ اللّهُ إياه، وطلبَ منهم أنْ يلحقوا به بإمرةِ هارون، وأنْ يكونوا قريبين منه، وأنْ ينزلوا خلالَ مدةِ الثلاثين يوماً قريباً من جبل الطور.

لذلكَ لما سألَهُ اللّهُ عن سببِ سبْقِه لقومه وعجلتِه عنهم أجابه بأَنهم على أَثَره، قريبون منه.

ثم أجابَ عن سببِ عجلته بقوله: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾.

أي: تعجلتُ في القدومِ إليك، حسبَ الموعدِ الذي واعَدْتَني إياه، وكلّي شوقٌ لحلولِ الموعد، وذلك لتزدادَ عني رضا.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن هذه العجلة: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾. فذكَرَ أنَّ عجلَتَه ـ وإنْ كانتْ مذمومة ـ فالذي دعا إليها محمود، وهو طلبُ رضا اللّهِ تعالى..»[1].

وعلقَ سيد قطب على ذلك بقوله: «لقد غلبَ الشوقُ على موسى

---

(١) المفردات: ٥٤٨.

إلى مناجاةِ الله، والوقوفِ بين يديه، وقد ذاقَ حلاوتَها من قبل، فهو إليها مشتاقٌ عجول.. ووقفَ في حضرة مولاه، وهو لا يعلمُ ما وراءه، ولا ما أَحدثَ القومُ بعده، حين تركَهم في أسفلِ الجبل، وهنا ينبئُه اللّهُ بما كان خلفه...»[1].

الله يفتن بني إسرائيل بالسامري:

أخبرَ اللّهُ موسى بما حدثَ في قومه في غيبته: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾.

لقد امتحنَ اللّهُ بني إسرائيل بالسامري، وابتلاهم وفتَنَهم به، وجعلَه فتنةً لهم، ليَعلمَ مَنْ يثبتُ منهم على الإيمان والتوحيد، ومَنْ يتخلّى عن ذلك ويَسيرُ مع السامري في ضلالِه وكفره.

وأُسندت الفتنةُ إلى الله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾، على اعتبارِ أَنه القادرُ المريدُ سبحانه، وأنَّ كلَّ ما يقعُ فهو بمشيئته وإرادته سبحانه، لقد أَرادَ امتحانَ بني إسرائيل بالسامري، فتحققَ ما أَراده سبحانه، وقامَ السامريُّ بما قامَ به.

- وبينما أُسندت الفتنةُ إلى اللّهِ في الجملة السابقة، فقد أُسندَ الإضلالُ إلى السامري: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

وهذا الإسنادُ حقيقي، لأنَّ السامريَّ هو السببُ المباشرُ في إضلالهم، المتسببُ في فتنتهم.

ولم يُذكر السامريُّ في غيرِ سورةِ طه. وهو اسمُ علم أعجمي جامدٌ غيرُ مشتق. فلا نبحثُ عن مادةِ اشتقاقه في اللغة العربية، ولا عن معنى اسمه فيها.

وموقفُنا منه كموقفِنا من باقي الأَسماءِ الأعجميةِ المذكورةِ في القرآن، مثل هامان وقارون وفرعون.

---

(١) في ظلال القرآن ٤:٢٣٤٦.

و«السامريُّ» مبهمٌ من مبهماتِ القرآن، لم يَرِدْ أيُّ بيانٍ حولَه في مصادرِنا الإسلامية اليقينية، فلا توجَدُ أحاديثُ صحيحةٌ تتحدث عنه، بينما تخوضُ فيه الإِسرائيليات كثيراً.

السامري والسامريون والسامرة:

ذُكرَ السامريُّ في هذا الموضع من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، ولم يُذكرْ له دورٌ إلا في صناعةِ العجل من الحلي، وبعدما جاءَ موسى عليه السلام عاقبه بأَنْ قالَ له: ﴿فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾.

لم يذكرْ لنا القرآنُ كيف كانتْ بدايةُ السامري، ولا ما جَرى له بعد عقابِ موسى له، ولا كيفَ كانتْ نهايتُه. فلا نعرفُ شيئاً عن ذلك.

لكن وجودَ السامريِّ مع بني إسرائيل في سيناء، يدلُّ على أَنه واحدٌ منهم، فهو إسرائيلي، خرجَ مع موسى من مصر. نقولُ ذلك لأَنَّ ظاهرَ القرآن أنَّ موسى عليه السلام خرجَ ببني إسرائيل من مصر إلى سيناء، وأَنه لم يصحبهم أحدٌ من غيرهم في الخروج، فوجودُ السامريِّ معهم في سيناء دليلٌ على أنه واحدٌ منهم.

وفي المراحلِ اللاحقةِ من تاريخ بني إسرائيل انقسموا إِلى عدةِ فرق، كان منها فرقة «السامِريّين».

والسامريّونَ طائفةٌ يهوديةٌ خاصة، لهم أفكارٌ ونظراتٌ خاصة، تختلفُ عن باقي طوائفِ اليهود وفرقهم، وتكفِّرُ باقي الطوائف.

ويبدو أَنهم يتفقونَ مع السامريِّ في الاسم فقط، فهو سامريّ وهم سامريّون، ولعله لا توجَدُ صلةٌ نَسَبِيَّةٌ بينهم وبينه، فلم يَذكر التاريخُ شيئاً عن السامريِّ بعد عقَابه، ولا عن أولاده ونسله وذريتِه.

كما أَنه لا صلةَ بين «السامريّ» وبين مدينةِ «سامرة» التي بناها بعضُ ملوكِ اليهود بالقربِ من مدينة «نابلس» في فلسطين، لأَنَّ بناءَ

السامرة كان في فترةٍ متأخرةٍ من تاريخ اليهود، بعدَ هلاكِ السامري بعدة قرون.

عودة موسى إلى قومه غضبان أسفاً:

بعدما أخبرَ اللّهُ موسى بإضلالِ السامريِّ لقومه، حزنَ موسى وتألم، وحملَ ألواحَه معه، وغادرَ جبلَ الطور وعادَ إلى قومه. قال تعالى: ف﴿رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾.

وصفت الآيةُ موسى عند عودتِه لقومه بوصفين: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾.

«غضبان» وصْفٌ يدلُّ على شدةِ غضبه على قومه لضلالهم وفسادِ أَحوالهم وعبادتهم للعجل.

و«أَسِفاً» وصفٌ يدلُّ على شدةِ حزنِه على قومه أيضاً بسبب ما فعلوه.

قال محمد الطاهر بن عاشور في الغضبِ والأَسَفِ المذكورَيْن هنا:

«الغضب: انفعالُ النفسِ وهيجانٌ ينشأَ عن إدراك ما يسوءُها ويسخطها دون خوف، والوصفُ منه غضبان.

والأَسِف: انفعالٌ للنفس، ينشأُ من إِدراكِ ما يحزنُها وما تكرهه، مع انكسارِ الخاطر. والوصْفُ منه أَسَف.

وقد اجتمعَ الانفعالان في نفسِ موسى، لأَنه يسوءهُ وقوعُ ذلك في أمته. فانفعالُه المتعلقُ بحالهم غَضَب. وهو أَيضاً يحزنُه وقوعُ ذلك وهو في مناجاةِ الله تعالى، التي كان يأملُ أنْ تكونَ سببَ رضى اللّهِ عن قومه، فإذا بهم أَتوا بما لا يُرضي الله، ولذلك انكسرَ خاطره...»[1].

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٧: ٢٨١ ـ ٢٨٢.

إذنْ غضبَ موسى من جريمةِ قومه وعصيانِهم، وأَسِفَ وحزنَ من أجلهم، وتألمَ من أفعالهم القبيحة.

وليستْ هذه أولَ مرة يغضبُ فيها منهم ويأسفُ حزناً عليهم، فقد مَرَّ بذلك الغضبِ والأسف لما كانوا في مصر معذَّبين، وقالوا له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ومَرَّ بذلك الغضبِ والأسف لما مَرّوا على قوم يعبدون أصناماً فقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ ...﴾ فقَال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ...﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٣٩].

إنَّ موسى عليه السلام يواجهُ هذه الطبيعةَ العجيبةَ لقومه، وكلما حاولَ أنْ يرتقيَ بهم في عالمِ الإيمانِ والفضائل، ارتكسوا وهبطوا إلى عالمِ المخالفاتِ والرذائل. وهذه طبيعةٌ تدعو إلى غضبِه عليهم وحزنِه من أَجلهم.

موسى يلقي الألواح وليس الخبر كالمعاينة:

وصلَ موسى عليه السلام إلى قومه، وهو يحملُ الألواح، فوجَدَهم عاكفين على العجلِ الذهبيّ عابدين له، فزادَ انفعالُه وغضبُه وحزنُه وأسفُه، وألقى الألواح من يديه، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

قالَ ابنُ عاشور: «وإلقاءُ الألواح رميُها من يده إلى الأرض، وذلك يُؤْذِنُ بأنه لما نزلَ من المناجاة كانت الألواحُ في يده..

ثم إنَّ إلقاءَه إياها إنما كان إظهاراً للغضب، أَو أَثراً من آثارِ فورانِ الغضب لما شاهدهم على تلك الحالة..»[1].

---

(١) المرجع السابق ٩:١١٣.

فلم يكن إلقاؤه للألواح إهانةً ولا تحقيراً لها، وإنما كان إلقاءً لا إرادياً، ناتجاً عن شدةِ غضبه وانفعالِه.

غضبَ موسى وحزنَ وأسِفَ لما علمَ بعبادةِ قومه العجل وهو على الجبل، لكنَّ غضَبَه وأسفَه زادَ وتفاعلَ لما رآهم يعبدونَ العجل، وأدّى ذلك إلى إلقائه الألواح.

روى أحمدُ وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «ليسَ الخبرُ كالمعاينة. إنَّ اللّهَ تعالى أخبر موسى بما صنعَ قومُه في العجل، فلم يُلْقِ الألواح، فلما عاينَ ما صنعوا، ألقى الألواحَ فانكسرت»[1].

يشيرُ الحديثُ إلى الفرقِ بين تأثُرِ مَنْ أُخبرَ عن شيء، وتأثر مَنْ عايشَ ذلك الشيء ورآه: «ليسَ الخبرُ كالمعاينة»، فتأثُرُ وانفعالُ المشاهِدِ للشيء أضعافُ تأثُرِ مَنْ أُخبرَ به، وهذه حالةٌ نفسيةٌ معروفة.

وذكرَ الحديثُ حالةَ موسى عليه السلام أوضحَ مثالٍ على هذا، حيث اختلفَ انفعالُه عندما شاهدَ قومَه يعبدون العجل عن انفعالِه عندما أُخبرَ عن ذلك.

لقد أدّاه انفعالُه عندما شاهدَهُم إلى إلقاءِ الألواح، ونتجَ عن إلقائها انكسارُها، كما أَخبرَ رسولُ الله ﷺ.

موسى يعنف ويوبخ قومه:

وأَقبلَ موسى عليه السلام على قومه لائماً معنِّفاً موبِّخاً: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ ...﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ

(١) أخرجه أحمد في المسند ١: ٢١٥، ٢٧١. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٠٧.

يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾ [طه: ٨٦].

لامَهم على مخالفتِهم في غيابه، وذمَّهم على سوءِ خلافتِهم له: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾.

والاستفهامُ في «أَعجلتم» إنكاري، ومعنى «عجلتم»: تعجلْتُم وسارعْتُم. ومعنى ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾: غضبَه وعقابَه.

ومعنى قوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟: لماذا سارعتم بفعلِ ما يسببُ غضبَ ربِّكم عليكم؟ وهو عبادتُكم العجل. أما علمتم أنَّ اللّهَ يَغضبُ من ذلك ويعاقِبُ مَنْ فعلَه؟ فكيف فعلتموه؟ أَتريدون أنْ تتعجلوا عقابَ الله؟.

والاستفهامُ في: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾؟ إنكاري. فلما عبدوا العجلَ استحقوا غضبَ الله، وكأَنَّهم بذلك يُنكرون وعدَ الله الحسنِ الذي وعَدَهم إيّاه. فَنَزَّلَهم موسى عليه السلام بهذا الاستفهام الإنكاريِّ منزلةَ مَنْ زعمَ أنَّ الله لم يَعْدِهُم وعداً حسناً، لأَنَّ عبادتَهم العجل تتناقضُ مع الوعدِ الحسن.

والمرادُ بالوعدِ الحسن هنا وعدُ الله لموسى ثلاثين ليلةً لإنزال التوراة عليه بعدها، فوَعْدُه لموسى وعْدٌ حسنٌ منه سبحانه لهم، لأنَّ في التوراة إِحسانٌ لحياتهم وإصلاحٌ لحالهم.

وكانَ الأجدرُ بهم أنْ ينتظروا وعْدَ اللهِ بالحسنى والعبادة، وأنْ يَرقبوا عودةَ موسى إليهم ومعه التوراة، فكيف راقبوا وانتظروا عودة موسى بالتوراة وهم عابدون لغير الله؟

والاستفهامُ في: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾؟ إنكاري أيضاً.

والمرادُ بالعهد هنا المدة التي غابَها عنهم. فقد أَخبرهم أنه سيعودُ لهم بعد ثلاثين يوماً، وأَبقى فيهم أَخاهُ هارونَ النبي، ومَدَّدَ اللّهُ المدةَ عشرةَ أيام، وفي هذه الأَيامِ عبدوا العجل.

إنه ينكرُ عليهم ما فعلوه في هذه المدة، أَلأَنَّهُ غابَ عنهم عشرةَ أيام أُخرى ظنوا به الظنون؟ وخالَفوا دينَه وعبدوا العجل؟ أكانت الأربعون يوماً عهداً طويلاً وفترةً مديدة، طالَ عليهم العهدُ فيها، ودفعَتْهم إلى عبادةِ العجل؟ ومعهم خليفتُه النبيُّ هارون!!.

إنَّ الأربعين يوماً مدةٌ قصيرة، لا تدعوكم إلى مخالفةِ شرعِ الله وعبادةِ غيره، ولا شبهةَ ولا عذرَ لكم فيما فعلتموه فيها..

و«أَمْ» في قوله: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ حرفُ إضرابٍ بمعنى «بل».

والمعنى: كلّا إنه ما طالَ عليكم العهدُ في غيابي، بل أَنتم أردتم أنْ يحلَّ عليكم غضبُ ربكم، فأخلفتُم موعدي وعبدتم العجل!.

تعليل بني إسرائيل لعبادتهم العجل:

ردَّ بنو إسرائيل على تعنيفِ ولومِ موسى قائلين: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾.

في قوله «بملكنا» ثلاث قراءات:

الأولى: قراءةُ نافع وعاصم: «بِمَلْكِنا» بفتح الميم. و«المَلْكُ» بفتح الميم مصدر. تقول: مَلَك، يملِك، مَلْكاً. كما تقول: ضرَب، يضرِب، ضَرْباً. وهو بمعنى الإرادة. أي: ما أَخلفنا موعدك بإرادتنا.

الثانية: قراءةُ ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر: «بِمِلْكِنا»، بكسر الميم. وهي لغةٌ ثانيةٌ في المصدر، بمعنى اللغة الأولى.

الثالثة: قراءةُ حمزة والكسائي: «بِمُلْكِنا» بضمِّ الميم. وهي لغةٌ أُخرى في المصدر.

فالمصدرُ مُثَلَّث. تقول: مَلَك، يَمْلِك، مُلْكاً، ومَلْكاً، ومِلْكاً[1].

---

(١) انظر «حجة القراءات» لابن زنجلة: ٤٦١. والمعجم الوسيط ٢: ٨٨٦.

ومعنى كلامهم: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾: أننا لم نتعمد إخلافَ موعدك، ولا عبادةَ العجل، وما فعلْنا ذلك بإرادتِنا واختيارِنا ورغبتنا، فكنّا نريدُ أنْ نبقى محافظين على العهدِ والوعد.

ولكن حصلَ أمْرٌ ليسَ في حسابنا، أدّى ذلك إلى إضلالِنا وإخلافِنا الموعد.

وبيَّنوا الذي حملَهم على إخلافِ الموعد وعبادتِهم العجل بقولهم: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

وفي قوله: ﴿حُمِّلۡنَآ﴾ قراءتان:

الأُولى: قراءةُ أبي عمرو وحمزة والكسائي وشعبة عن عاصم: «حَمَلْنا» بتخفيفِ الفعل وفتحِ الحاء على أنَّ «نا» فاعل. أي: حَمَلْنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها.

الثانية: قراءةُ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم: «حُمِّلْنا» بضمِّ الحاءِ وتشديدِ الميم. و«نا»: نائب فاعل.

والمعنى: حَمَّلَنا السامريُّ أوزاراً من زينةِ القوم، وأَشْعَرَنا أننا مذنبون بتملُّكِها، وأَمَرَنا بطرحها، فقذفناها لنتخلصَ منها[1].

و«حُمِّلَ» في القرآن تردُ دائماً بمعنى التكليفِ والأمرِ بالحمل والأداء، ومشقةِ الحمل وثقلِه. كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وكما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ [النور: ٥٤].

والقراءتان متكاملتان، فالقومُ أخبروا موسى عليه السلام أنهم

(١) انظر حجة القراءات: ٤٦٢.

شعروا بأَنهم يحملون أوزاراً وأثقالاً من زينة القوم، وأَنها آثامٌ عليهم طالما هي بين أَيديهم، فأرادوا قذْفَها والتخلصَ منها، فجاءَ السامريُّ وأَشعرهم بأَنهم يحملونَ الأوزارَ والآثام، وقوّى شعورهم بالتخلصِ منها، وطلبَ منهم إلقاءها وقذفَها، وبينَ لهم أنَّ هذا هو الطريقُ الوحيدُ للتخلص منها.

تحرج بني إسرائيل من الاحتفاظ بزينة المصريين:

وتدلُّ جملةُ: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ على ما فعلوه في مصر بإذنٍ من موسى عليه السلام.

فقد قاموا باستعارةِ حليٍّ وزينةٍ من المصريين ليلةَ الخروج، وحَمَلوا تلكَ الزينةَ والحليَ معهم أثناءَ خروجهم.

وسبقَ أنْ أشرْنا إِلى أَنهم لا يلامون على ذلك، فقد كانوا يعملونَ عند المصريين عشراتِ السنين سُخْرَةً بدون مقابل، وكثيراً ما أكلَ المصريون حقوقَهم وأموالَهم، فلهم حقوقٌ وأموال كثيرة في ذمةِ المصريين.

وأَخذُهم حليَّ وزينةَ المصريين ليلةَ خروجهم هو في الحقيقةِ أَخْذٌ لبعضِ حقوقهم المالية التي عند المصريين، ولم يكن ذلك سرقة.

والتعبيرُ بكلمة «حُمِّلنا أَوزاراً» يوحي بأَنهم صاروا يتحرَّجونَ من الزينة التي أَخذوها من المصريين. لأنَّ «حُمِّلَ» توحي بثقلِ الحمل ومشقته. و«الأوزار» هي الأثقالُ المعنوية وليست الحسية، التي تنتجُ عنها الآثام.

لقد اعتبروا ما معهم من حليٍّ وزينةِ المصريين أوزاراً وأثقالاً يحملونها، وآثاماً يَقعون فيها، ولا بدَّ من التخلصِ منها لتزولَ عنهم تلك الآثام.

ورسَّخَ السامريُّ هذا المعنى في شعورهم، وقوّى هذا التحرُّجَ والتأثُّمَ في نفوسهم، ليحققَ مرادَه فيهم، وكأنه كان يقول لهم: هذه

الحليُّ والزينةُ التي معكم أوزارٌ وأثقالٌ تحملونها، وتُسببُ لكم الإثمَ والعذاب، فأنتم سرقتموها من المصريين، ولا بدَّ أنْ تتخلَّصوا من هذه «المسروقات» حتى يزولَ عنكم التحرجُ والتأنيبُ والشعورُ بالإثمِ والذنب.

ثم دعاهم إلى قذفِها وطرحِها وإلقائِها، ففعلوا. ولما قذفوها أخذَها السامريُّ وصنعَ منها العجل: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾.

وكلامُهم هذا تبريرٌ منهم لجريمتِهم، واعتذارٌ باردٌ عنها، كما قالَ الإمامُ ابن كثير في تفسيره: «ثم شرعوا يعتذرونَ بالعذرِ البارد، يُخبرونَه عن تورُّعِهم عما كان بأيديهم من حليِّ القبط، الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر...

.. وحاصلُ ما اعتذرَ به هؤلاء الجهلةُ أَنهم تورَّعوا عن زينةِ القبط فألْقَوها عنهم وعبدوا العجل، فتورَّعوا عن الحقير، وفعلوا الأَمْرَ الكبير. كما جاءَ في الحديثِ الصحيحِ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أَنه سأَله رجلٌ من أهلِ العراق عن دَمِ البعوضِ إِذا أَصابَ الثوب، هل يصلّي فيه أم لا؟

فقال ابنُ عمر رضي الله عنهما: انظروا إِلى أهلِ العراق، قتلوا ابنَ بنتِ رسول الله ﷺ - يعني الحسينَ بن علي رضي الله عنهما - وهم يسألونَ عن دمِ البعوضة!»[1].

السامري يذكر لموسى قصته في صناعة العجل:

وقد بيّنَ السامريُّ لموسى عليه السلام كيفيةَ صناعتِه العجل. فموسى عليه السلام سأله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾﴾؟.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٥٨.

والخَطْبُ هو الأمْرُ والشأن. قال الإمام الراغب: «والخَطْب: الأمرُ العظيمُ الذي يكثرُ فيه التخاطب»[1].

والمعنى: ما شأنُك يا سامري؟ وما حَمَلَك على فعْلِ ما فعلْتَه؟ ولماذا صنعْتَ لهم العجل وأَضللتهم؟ وكيف فعلْتَ ذلك؟

أجابَ السامريُّ بقوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾.

وهذا كلامٌ مجملٌ مبهم، لم يبيَّنْ في مصادرِنا الإسلامية، المتمثلةِ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ النبويةِ الصحيحة، ولذلك اختلفَ المفسِّرون اختلافاً كثيراً في تفسيره، وذهبَ بعضُهم إلى الإسرائيليات يبيِّنون منها ما فيه من إجمال.

وسنذكرُ الراجحَ في معنى الآيةِ دونَ الدخولِ في الأقوال الخلافية:

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾: أَبصرتُ ما لم يُبصروه، ونظرتُ ما لم ينظروه، وشاهدتُ ما لم يُشاهدوه، ورأيتُ ما لم يروه.

وفرْقٌ بين الفعلَيْن: «بَصُر» و«أَبْصر».

«أَبْصر» بمعنى «رأى» بعينيه. تقول: أبصرَ فلان الشيء. إذا رآه بعينيه.

و«بَصُر» بمعنى عَلِمَ وفطن. تقول: بَصُرَ فلانٌ بالشيء. إذا علمَ به، وصارَ به بصيراً عالماً.

والبصيرُ بالشيء هو العالمُ به.

قال ابنُ عاشور: «معنى ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾: أَبصرتُ ما لم يُبصروه، ونظرتُ ما لم يَنظروه.

---

(١) المفردات: ٢٨٦.

و«بَصُرَ» و«أَبْصَرَ» كلاهما من أفعالِ النظرِ بالعين. إلا أنَّ «بَصُرَ بالشيء» صارَ بصيراً به، أو بصيراً بسببه. فهو شديدُ الإبصار. فهو أقوى من «أبصرت»، لأنه صيغَ من «فَعُلَ» ـ بضمِّ العين ـ الذي تُشْتَقُّ منه الصفاتُ المشبهة الدالةُ على كونِ الوصف سجية.

.. وحكى في لسانِ العرب عن اللحياني: إِنه لبصيرٌ بالأشياء. أي: عالمٌ بها، وبَصُرْتُ بالشيء: علمتُه. وجعلَ منه قوله تعالى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾.

فالمعنى: علمتُ ما لم يعلموه، وفطنتُ لما لم يفطنوا له...»[1].

«ما» في قوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ اسمُ موصولٍ بمعنى «الذي»، وفاعل «يبصروا» يعودُ على بني إسرائيل.

والمعنى: رأيت بعينيّ الذي لم يَروه، وهذه الرؤيةُ أَوحتْ لي بشيء لم يلتفتوا له، ففطنتُ لما لم يفطنوا له، وعلمتُ ما لم يعلموه.

والصيغةُ تَجمعُ بين الإبصارِ العيني والإدراكِ العلمي.

السامري يأخذ قبضة من أثر قدم جبريل:

فما الذي أَبصره وبَصُرَ به مما لم يبصروه هم ولم يلتفتوا له؟

تُوضحُ ذلك الجملةُ التالية: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ...﴾.

القبض: أَخْذُ الشيء بقبضةِ اليد.

والقبضةُ من الشيء: ما قبضْتَ عليه مِن مِلْءِ كَفِّك. يقال: أَعطاه قبضةً من تمر. أي: ملءَ كفٍّ منه[2].

---

(١) التحرير والتنوير ١٦: ٢٩٦.

(٢) المعجم الوسيط ٢: ٧١١.

والقبضةُ هنا مصدر، لكنها بمعنى الشيء المقبوض. أي: قبضتُ شيئاً مقبوضاً من أثرِ الرسول.

والأثر: هو ما يتركُه الماشي من صورةِ قدمِه على الأرض أو الرمل.

والرسول: الراجحُ أنَّ المرادَ به هنا «جبريل» عليه السلام.

والمعنى: أخذْتُ ملْءَ كفّي من أثرِ الرسول جبريل. أي: من الترابِ الذي مشى عليه.

وجبريلُ عليه السلام رسولٌ من الله إلى أنبيائِه ورسلِه من البشر، يرسلُه اللّهُ إليهم بالوحي، ويبلِّغُهم شرعَ اللّهِ وكلامَه.

وأُطلقَ عليه وصف «رسول» في أكثرَ من آيةٍ من القرآن. منها قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِى حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ..﴾ [الشورى: ٥١].

وبما أنَّ القرآنَ أطلقَ على جبريل عليه السلام وصفَ «رسول»، فالراجحُ أنَّ المرادَ بالرسول في قول السامري: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ هو جبريل.

ومعنى قوله: «فنبذْتُها»: ألقيتُها وطرحتُها. أي: ألقيتُ تلك القبضة من التراب.

ومعنى «سَوَّلَت»: زيَّنَتْ ورغَّبتْ.

قال الإمام الراغب: «والتسويل: تزيينُ النفس لما تحرصُ عليه، وتصويرُ القبيحِ منه في صورة الحسن. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا

عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد: ٢٥][1].

فمعنى قول السامري: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾: نفسي هي التي زينتْ لي صنعَ العجلِ، ودعوةَ القومِ إلى عبادته، وهي التي رغَّبَتْني في ذلك وحثَّتني عليه، وأنا استجبتُ لها وفعلْتُ ما دعَتْني إليه.

الشيطان يستغل مهارة السامري في صناعة التماثيل:

وهذا اعترافٌ منه بأنه هو الذي صنعَ العجل، وبضلالِه وإضلالِه لغيره، وإِخبارٌ منه عن كيفية صناعة العجل.

وخلاصةُ صناعته للعجل: أَنه كانَ يمشي أثناءَ ذهابِ موسى عليه السلام إِلى جبل الطور، فرأَى الرسولَ جبريلَ عليه السلام، ولم يرهُ أحدٌ غيرُه من بني إسرائيل، فأُلقيَ في روعِه وهاجسِه وخاطره أَنْ يأخذَ قبضةً من التراب من أَثرِ قدمِ جبريل، فأخذَها لأنه سيكون لها شأن فيما بعد.

ويبدو أنَّ السامريَّ كان ماهراً في صناعةِ التماثيل، لَمّا كان في مصر، وهذا هو سرُّ تفوُّقِه على بني إسرائيل في هذه الصناعة. فوظَّفَ مهارتَه السابقةَ في صنعِ تمثالٍ لهم.

وقد استخدمَ الشيطانُ السامريَّ في إِضلال بني إسرائيل، واستفادَ من مهارتِه في صنعِ التماثيل لتحقيقِ هدفه الشيطاني.

أوحى الشيطانُ للسامريِّ أنْ يجمعَ الحليَّ والزينةَ من بني إسرائيل، وأنْ يصهرَها بالنار، ثم يطرحَ عليها تلك القبضةَ الترابية التي أَخذها من أثرِ قدمِ جبريل، ثم يصبَّ من ذلك عجلاً، ويدعوَ بني إسرائيل لعبادته، على اعتباره إلهاً لهم.

وصارَ السامريُّ جندياً من جنودِ الشيطان، فنفَّذَ ما أَوحى إِليه به.

---

(١) المفردات: ٤٣٧.

وكان السامريُّ ماكراً شيطاناً، فتحايَلَ على بني إسرائيل ليصهرَ ما معهم من الزينة، واستغلَّ تحرُّجَهم منها لتحقيقِ هدفه، وركَّزَ على هذا الجانب.

قالَ لهم: أنتم مؤمنون، ومعكم زينةٌ وحليٌّ سرقتموها من المصريين، وهذا لا يتفقُ مع إيمانكم، فكيفَ تحتفظون بهذه الزينة المسروقة؟ إنها أوزارٌ وأثقالٌ وآثام في أعناقكم، وهي سببٌ لغضب الرب عليكم، ولا بدَّ أنْ تتخلَّصوا من هذه الزينة، التي تبقى تذكِّرُكم بذلك الذنب.

وصدَّقَ بنو إسرائيل السامريَّ، واعتقدوا أَنه ناصحٌ لهم، حريصٌ على تخليصِهم مما معهم، فجمعوا الزينةَ المأخوذةَ من المصريين، ثم طَرَحوها وقذفوها وتخلَّصوا منها، وبذلك ارتاحَتْ ضمائرُهم، وشعروا بأنهم قد تخلصوا من الحرام، وتخفَّفوا من الوزرِ والإثم.

واعترفوا لموسى عليه السلام بذلك لَمّا لامَهم وعنَّفَهم: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾.

السامري يخلط القبضة مع الزينة المصهورة:

أمّا السامريُّ فقد أخذَ الحليَّ والزينةَ التي قذفوها وتخلَّصوا منها، ثم صَهَرَها وأَذابها، وأَلقى عليها قبضةَ التراب التي أَخذها من تحتِ قدمِ جبريل عليه السلام، فتفاعَلَت القبضةُ الترابيةُ مع الحليِّ المصهورة، وصنعَ منها العجل.

وهذا معنى كلامِه لموسى عليه السلام: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾.

وهذا هو فهمُ بعضِ التابعين للآية.

قال مجاهد: ألقى السامريُّ ما كان في يدهِ على حليةِ بني إسرائيل، فانسبكَ عجلاً جسداً له خوار.

وقال عكرمة: رأى السامريُّ الرسول، فأُلقيَ في روعِه أنك إنْ أخذْتَ من أثرِ هذا الفرس قبضةً فألقيْتَها في شيء فقلْتَ له كُنْ، فكان. فقبضَ قبضةً من أثرِ الرسول، فيبستْ أصابِعُه على القبضة. فلما ذهبَ موسى للميقات وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حليَّ آلِ فرعون، فقالَ لهم السامري: إنما أصابكم من أجلِ هذا الحلي، فاجْمَعوه. فَجَمَعوه، وأوقدوا عليه فَذاب، فرآهُ السامري، فأُلقيَ في روعه أنكَ لو قذفْتَ هذه القبضة في هذه فقلتَ كُنْ فكان، فقذفَ القبضة وقال: كُنْ عِجْلاً، فكانَ عجلاً جسداً له خوار[1].

ويصنع منها عجلاً جسداً له خوار:

ووُصفَ هذا العجلُ بأنه جَسَدٌ له خوار:

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٨ ـ ٨٩].

والعجلُ هو ولدُ البقرة قبلَ أنْ يكبرَ ويَصيرَ ثوراً.

ولم يكن العجلُ الذي صنعهُ السامريُّ عجلاً حياً حقيقياً، له روحٌ وحياة، ومُكَوَّنٌ من لحم ودم، لأنه لو كانَ كذلك لكان السامريُّ خالقاً حقيقة، وهذا مستحيل، لأن اللّهَ وحده هو الخالقُ المحيي المميت.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣:١٥٩.

السامريُّ صانعُ تماثيل، ماهرٌ في تشكيلها وتصويرِها وإخراجها، لكنها تبقى تماثيل جامدةٌ لا حياةَ ولا روحَ فيها.

ولهذا وُصفَ العجلُ الذي صنعه بأنه جَسَدٌ له خوار.

الفرق بين الجسم والجسد في القرآن:

قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور: «والجَسَد: الجسمُ الذي لا روحَ فيه. فهو خاصٌ بجسمِ الحيوان إذا كانَ بلا روح. والمرادُ أنه كجسمِ العجل في الصورة والمِقدار إلاّ أنه ليس بحي.

وما وقعَ في القصص: أَنه كان لحماً ودماً ويأكلُ ويشرب، فهو من وضعِ القصاصين. وكيفَ والقرآنُ يقول: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾، ويقول: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، فلو كان لحماً ودماً لكانَ ذِكْرُه أَدخلَ في التعجيب منه»[1].

لقد فرّقَ القرآنُ بين الجسدِ والجسم، فالجَسَدُ ـ كما قال ابنُ عاشور ـ هو الجسمُ بلا روح أو التمثالُ الجامد.

والمراتُ الأربعةُ التي وردتْ فيها كلمةُ «الجسد» في القرآن تؤكّدُ ذلك، فمنها مرتان في وصْفِ عجل السامري بأنه جَسَدٌ له خوار.

والمرةُ الثالثة: في وصْفِ الجسدِ الذي أُلقيَ على كرسيِّ سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص: ٣٤]. وسنتحدثُ عن ذلك عند عرضِنا لقصةِ سليمانَ إن شاء الله.

والمرةُ الرابعة: في الحديثِ عن الأنبياء السابقين، حيث وصَفَهم بأنهم رجالٌ أحياء، وليسوا أَجساداً جامدة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

(١) تفسير التحرير والتنوير ٩: ١١٠.

﴿...وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء: ٧ ـ ٨].

أما «الجسمُ» في القرآن فهو الجسمُ الحي، الذي فيه روحٌ وحياة، وورد في القرآن مرتيْن بهذ المعنى.

وردَ في الحديثِ عن المَلِكِ «طالوت» الذي جعلَهُ اللّهُ ملكاً على بني إسرائيل: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وورد في الحديثِ عن أجسامِ المنافقين. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ..﴾ [المنافقون: ٤].

والخُوارُ هو صوتُ العجلِ الحقيقيِّ الحي. ولم يَرِدْ في القرآنِ إلا في موضعين ـ في سورتي الأعراف وطه ـ وصفاً للعجل الذهبي الذي صنعه السامري.

وبما أنَّ عجلَ السامريِّ كان جسداً بدونِ حياة، فكيفَ كانَ له خوار؟

لم يكن خوارُه خواراً حقيقياً، لأنه لم يكنْ حياً، وإنما كانَ من مهارةِ السامريِّ في صنعه، حيث صنَعَه بطريقةٍ خاصة، بحيثُ إذا دخلَهُ الريحُ خرجَ منه صوتٌ يشبهُ خوارَ العجل الحي.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: كان عجلاً أجوفَ ليس فيه روح، وله خُوار. ولا واللّهِ ما كان له صوتٌ قط، إنما كانت الريحُ تَدخلُ في دبره، وتَخرجُ مِن فيه، وكان الصوتُ من ذلك..[1].

بين عجل السامري وعجل المصريين «أبيس»:

أُعجبَ السامريُّ بالعجلِ الذهبيِّ الجسدِ الذي صنعه، وزادَ إعجابَه

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٤٧ ـ ١٤٨.

عندما كان يسمعُ خُوارَهُ عند دخولِ الهواءِ فيه وخروجه منه، وافتخرَ بمهارتِه وموهبته الصناعية.

ودعا السامريُّ بني إِسرائيلَ إِلى النظرِ إلى العجل وسماع خُوارِه، فأُعجبوا به وبخواره.

وكانوا يَعرفونَ «العجلَ الصنم» الذي كان يعبدُه المصريون: «فالقومُ عاشوا في مصر، وأَلِفوا أنْ يَروا عبادةَ المصريين للعجل «أَبيس» وكانَ للمصريين عنايةٌ فائقةٌ بعبادةِ هذا العجل. وكانت العجولُ المؤلَّهةُ إذا ماتت حَنَّطوها ـ كما يُحَنَّطُ الآدمي ـ بما يحفظُ جسمها من التلف، ودفنوها في مقبرةٍ خاصة في جهة سَقارة..»[1].

ويبدو أنَّ بني إسرائيل تأَثَّروا بعبادةِ المصريين للعجل: «أَبيس»، وبقي هذا التأثرُ والإعجابُ كامناً في نفوسهم، فلما جاءتْ أولُ فرصةٍ لإظهارِ هذا التأثرِ الكامن، برزَ على حياتهم، وعَبَدوا العجل الذي صنعه لهم السامري.

ومن المعلومِ بداهةً أنه لم يعبدْ كلُّ بني إسرائيل عجلَ السامريِّ، حيث انقسموا إلى قسمين:

قسمٌ أُعجبوا بالعجلِ وعَبَدوه.

وقسمٌ بقوا مع هارون عليه السلام، وثَبتوا على الإيمانِ بالله وتوحيده.

السامري يدعو المفتونين لعبادة العجل:

ونقفُ لحظةً مع الفريقِ الذين عبدوا العجل، فلما دَعاهم السامريُّ إِلى عبادتِه استجابوا له وقال بعضُهم لبعض: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾.

(١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار: ٢١٨.

أي: هذا العجلُ هو إِلهُكم وإِلهُ موسى نبيِّكم. ولكنَّ موسى نسيَ أنَّ إِلهه هنا مَعَنا، فذهبَ يبحثُ عنه عندَ جبلِ الطور!

قال السديُّ في معنى قوله: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾: قالَ الضالّون الذينَ افْتُتِنوا بالعجل وعبدوه: هذا إِلهكم وإِلهُ موسى، فنسيَه موسى هنا، وذهبَ يبحثُ عنه ويتطلبه هناك.

فاعلُ «نَسِيَ» على هذا القول يعودُ على «موسى»، والمفعولُ به مقدَّر. أي: نسيَ موسى إِلهَه هنا، وذهبَ يبحثُ عنه هناك.

ولابنِ عباسٍ قولٌ آخر في المفعول به، قال: قالوا: هذا إِلهكم وإِلهُ موسى، فنسيَ موسى أنْ يَذْكُرَ أنَّ هذا إِلهكم..

وذهبَ آخرون إِلى أنَّ فاعل «نسي» يعودُ على السامري، أيْ أنَّ السامريَّ دعاهم إِلى عبادةِ العجل، وقالَ لهم: هذا إِلهُكم وإِله موسى، وبذلك نسيَ السامريُّ الهدى والإِيمانَ الذي أخذَه من موسى، وتركَه وأَضاعَه، واختارَ الكفر بالله[1].

والراجحُ هو القولُ الأول، حسبَ ما جريْنا عليه في فهمِ سياقِ الحادثة، ومتابعةً منّا لجمهور المفسرين.

وعقبَ القرآنُ على جهالتِهم وضلالِهم في عبادة العجل: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

والاستفهامُ للإِنكارِ عليهم والتعجيبِ من حالهم، فكيف جعلوا العجلَ إِلهاً مع أَنهم يرونَه ويشاهدونه؟ إِنه تمثالٌ جامد، لو كلَّموه ما كلَّمهم، ولو طلبوا منه الهدايةَ ما هداهم، فكيف يكونُ إِلهاً؟

وإِذا كان هذا هو حالُ العجل التمثال، فإِنَّ مَن اتخذَه إِلهاً يكون ظالماً، ولهذا كانوا ظالمين كافرين: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣:١٥٨.

التعجيب من عبادتهم العجل الصنم:

وأعادَ فعلَ «اتخذوه» في الآيةِ مع أنه مذكورٌ في أوّلِها: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

وإعادةُ فعْلِ «اتخذوه» مبالغةً في التعجيبِ من حالهم، والتقبيحِ لفعلهم، وليبْني عليه ما بعدَه: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

وعقبَ في سورةِ طه على جريمتهم بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩].

وهو استفهامٌ للإنكارِ عليهم والتعجيبِ من جهالتهم وضلالهم، فهم يشاهدونَه ويرونَه لا يكلمهم، وإذا كلَّموه لا يردُّ عليهم، وإذا سألوه لا يجيبُهم.

ومعنى ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾: لا يَرُدُّ إليهم قولاً، ولا يقدِّمُ لهم جواباً، فهم يَدْعونَه ويُثْنونَ عليه ويمجِّدونه، وهو ساكت، لا يشكرُهم ولا يَعِدُهم خيراً.

وبما أنه تمثالٌ جامدٌ فإنه لا يقدِّمُ لهم دفعَ ضُرٍّ ولا جلبَ نفع.

فما هذا الإلهُ المعبود، الذي لا يكلِّمُ عابديه، ولا يهديهم السبيل، وإذا أثنوا عليه لا يردُّ عليهم ولا يشكرهم، وإذا احتاجوا إليه لجلْبِ نفعٍ عجزَ عن تقديمِه لهم، وإذا طلبوا منه دفعَ ضرٍّ عجزَ عن دفعه؟ أهكذا يفعلُ الإله مع عابديه؟

أين هذا العجلُ التمثالُ الذي عبدَه هؤلاء السفهاءُ من اللّهِ ربِّ العالمين؟ الذي أنعمَ عليهم وهداهم، والذي أنقذهم وأنجاهم؟

اتهام الأحبار هارون بصناعة العجل:

ماذا كانَ موقفُ النبيِّ هارون عليه السلام من عبادةِ قومِه العجل؟

التوراةُ المحرفةُ التي كتبها أحبارُ اليهود الكذبةُ اتَّهموا هارونَ عليه

السلام بأنه هو الذي صنعَ لهم العجل، وقدَّمَه لهم إلهاً، ودعاهم إلى عبادتِه. لنسمعَ هذا النصَّ الكاذبَ من سَفرِ الخروج: «ولما رأى الشعبُ أنَّ موسى قد طالَتْ إقامتُه على الجبل، اجتمعوا حولَ هارون، وقالوا له: هيّا، اصنعْ لنا إلهاً، يتقدَّمُنا في مسيرِنا، لأَننا لا ندري ماذا أَصابَ هذا الرجلَ موسى، الذي أَخْرَجَنا من ديارِ مصر.

فأَجابهم هارون: انزعوا أَقراطَ الذهبِ التي في آذانِ نسائكم وبناتكم وبنيكم، وأَعطوني إيّاها. فنزعوها مِن آذانِهم، وجاءوا بها إليه.

فأَخذها منهم وصهرَها، وصاغَ عجلاً.

عندئذ قالوا: هذه آلهتُك يا إسرائيل التي أخرجَتْك من ديارِ مصر.

وعندما شاهدَ هارونُ ذلك، شَيَّدَ مذبحاً أمامَ العجل، وأعلنَ: غداً هو عيدٌ للرب.

فبكَّرَ الشعبُ في اليوم الثاني، وأَصعدوا مُحْرَقات، وقَدَّموا قرابينَ سلام، ثمَّ احتفلوا، فأَكَلوا وشربوا، ومن ثَمَّ قاموا للهو والمجون..»[1]!!!

هذا كفرٌ يهوديٌّ خبيثٌ يتهمُ هارونَ النبيَّ عليه السلام بأنه هو صانعُ العجل، وأنه خانَ الأمانة، ودعا القومَ إلى عبادةِ غير الله!!

وهل يُعقلُ أنْ يفعلَ نبيٌّ كريمٌ كهارونَ عليه السلام هذا الفعلَ القبيح، وأنْ يدعوَ قومَه إلى عبادةِ غيرِ الله بدلَ أنْ يدعوهم إلى عبادةِ الله؟

إنَّ هارونَ عليه السلام بريءٌ من هذا الاتهامِ اليهوديِّ الكافر، وإنَّ الأحبارَ هم الذينَ كتبوا هذا الكلامَ بأيديهم، ثم زعموا أنه كلامُ الله، وهذا دليلٌ واضحٌ على تحريفِ التوراة.

---

(١) الكتاب المقدس، سفر الخروج، إصحاح: ٣٢، فقرات: ١ ـ ٦، صفحة: ١١٥، طبعة مصر عام ١٩٨٨م.

دلالة تبرئة القرآن لهارون على مصدره:

أمّا القرآنُ الكريمُ فقد نصَّ على موقفِ هارون الواضحِ الصريح، حيثُ أنكرَ عليهم كفرَهم، ودَعاهم إلى عبادةِ اللّهِ وحده. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٩٠].

وهذا هو الموقفُ المتفقُ مع نبوةِ وغيرةِ هارونَ عليه السلام.

قال لهم: يا قوم لقد فُتنتم بالعجلِ الذهبي، وفُتنتم بفتنةِ السامري، وإنَّ السامريَّ شيطان، وهذا عجلٌ تمثالٌ وليس إلهاً. وإنَّ ربَّكم هو اللّهُ الواحدُ الخالق، الرحمنُ المنعم، فاعبدوه وحده، ولا تعبدوا هذا العجل.

ياقوم: اتَّبعوني لأنّي نبيٌّ من عندِ الله، ولأنّي خليفةُ موسى رسولكم، ولأني أهديكم إلى الخيرِ والهدى، ولا تتبعوا السامريَّ لأنه ضالٌّ مضل.

يا قوم أَطيعوا أَمري فإنّي لا آمركم إلا بطاعةِ الله، ولا تطيعوا أمْرَ السامري فإنه يأمرُكم بالكفرِ باللّهِ وعبادةِ غيره.

ولكنَّ القومَ لم يستمعوا لهارون ولم يُطيعوه، وردّوا عليه قائلين: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩١].

سنبقى عابِدين للعجل، عاكفين على عبادته، مُلازمين له، حتى يرجعَ موسى إلينا.

إنَّ نصَّ القرآنِ على رفضِ هارون عبادةَ قومِه العجل، ونهيهِ لهم عن ذلك، تصحيحٌ لروايةِ التوراةِ المكذوبة التي أَوردْناها، وهذا دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله وليس تأليفَ محمد ﷺ، وهذا يُثبتُ أنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، أَنزلَ اللّهُ عليه القرآن، وجعله رسولاً للعالمين.

فلو تلقّى محمدٌ عليه الصلاة والسلام القرآنَ عن أهلِ الكتاب ـ كما يقولُ بعض السفهاءِ الجهلاء ـ لَنَقَلَ كلَّ ما في كتبهم وأَسفارِهم في

كتابهم المقدس، ولقالَ بما قالوا به منْ أنَّ هارونَ هو الذي صنعَ العجل لقومه، ودعاهم إلى عبادته، ولَمَا ذَكَرَ أَنَّ هارونَ عليه السلام أنكرَ عليهم ذلك ونهاهم عنه[1].

ولما وصلَ موسى إلى قومه ووجَدهم يعبدونَ العجلَ أنكرَ عليهم ذلك، ولامَهم وعنَّفَهم. وَوَرَد ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ [طه: ٨٦].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ ..﴾ [الأعراف: ١٥٠].

موسى يلوم ويعنف هارون لأنه لم يلحق به:

ومن شدةِ غضبِ موسى على قومِه المخالفين ظَنَّ أنَّ خليفتَه هارونَ قد قَصَّرَ في نهيِهم والإنكارِ عليهم، فقامَ بحركةٍ ماديةٍ عنيفةٍ نحوَ أَخيه، حيثُ سَحَبَهُ من شعرِ رأسِه ولحيته، وراحَ يَجُرُّهُ إليه: ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ وهذا مبالغة منه في لوم أخيه.

وخاطبَ موسى أَخاه عليهما السلام لائماً له قائلاً: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٣].

إنَّ موسى يوقنُ أنَّ أخاهُ هارون لم يعبد العجلَ معَ مَنْ عبدوه، لأنهُ نبيٌّ معصومٌ لا يَصدُر منه هذا الفعل، ويَعلمُ أنه أنكرَ عليهم عبادةَ العجل، لأنَّ هذا مما يتفقُ مع نبوته، لكنه كان يريدُ أنْ يكونَ إنكارُه أَشَدَّ وأَقوى وأَقسى، يريدُ منه أنْ يحطمَ هذا العجل أَمامَهم مثلاً، فإنْ عجزَ عن ذلك، فلا أقلَّ مِن أنْ يغادرَ قومَه ويلحقَ به على جبل الطور، ليخبرَهُ بما فعلَ قومُه.

---

(١) انظر في هذه المسألة تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ٩:٢٠٩ ـ ٢١١.

ولهذا قالَ له: يا هارون: عندما رأيتَهم ضلّوا فلماذا لم تَتَّبِعَنِ ولم تلحقْ بي؟ ولماذا لم تأتِ إِلَيَّ؟ ما الذي منعكَ من المجيء إليَّ؟ إِنه ليسَ هناك ما يمنعك! فهلْ عصيتَ أَمري ورضيتَ أنْ تبقى مع القومِ عندما عبدوا العجل؟

والاستفهامان في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ ... أَلَّا تَتَّبِعَنِۦٓ﴾؟ وقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾؟ للإنكار. يُنكرُ موسى على هارونَ عدمَ اتباعِه له ولحاقِه به، كما ينكرُ عليه موقفَه الذي يُفهمُ منه عصيانُه لأَمْرِه.

علماً أنَّ هارون كانَ متابعاً لموسى عليهما السلام، منفِّذاً لأوامرِه، مُطيعاً له، لأنه نبيٌّ معه ووزيرٌ له. ولكنَّ موسى كان تحتَ تأثيرِ الغضبِ والأسفِ والحزنِ والأَسىٰ مِنْ ما فعلَه قومُه.

هارون يستعطف موسى: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾:

ولاحظَ هارونُ انفعالَ وغضبَ أَخيه ـ عليهما السلام ـ فأرادَ أنْ يستعطفَه ويرقِّقَ قلْبَه ويخففَ غضبَه، فقال له: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقالَ له: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤].

وفي قوله: «ابنَ أُمَّ» قراءتان صحيحتان:

الأولى: قراءةُ ابنِ عامر وحمزة والكسائي وشعبة عن عاصم: «ابنَ أُمِّ» بكسرِ الميم، أصلُها «أُمّي» بياءِ المتكلم، ولما حُذفت الياءُ بقيت الميمُ مكسورة.

الثانيةُ: قراءةُ نافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي وحفص عن عاصم: «ابْنَ أُمَّ» بفتحِ الميم.

أصلُها: «أُمّي» فَحُذفتْ ياءُ المتكلم للتخفيف، وعُوِّضَ عنها أَلفٌ، فصارَتْ «أُمّا». ثم حُذفت الألفُ للتخفيف فصارت «أُمَّ».

وحرفُ النداء «يا» مذكورٌ في آيةِ سورة طه، من بابِ التأكيدِ على الاستعطاف، والمبالغةِ في الاسترحام، لأنَّ الكلماتِ في الآية تدلُّ على ذلك، بينما الحرفُ محذوفٌ من آية سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي ..﴾ لأنَّها أقلُّ استعطافاً واسترحاماً.

ولا يدلُّ قولُ هارونَ لموسى عليهما السلام: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ على أنه أَخوه لأُمّه، لأنه لم يُنْقَلْ ذلك بخبرٍ صحيح. والظاهرُ أنه أخٌ شقيقٌ له من أَبيه وأُمه.

ولكنه قالَ له: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ ولم يقل: يا أَخي، مبالغةً منه في استرحامِه واستعطافِه، وترقيقِ قلبه وإِذهابِ غضبه، حيثُ ذكَّره بأَنهما ابنانِ لأُمٍّ واحدة، اشتركا في رحمٍ واحدة.

قالَ الإمامُ ابن كثير: قال ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾: تَرَقَّقَ له بذكْرِ الأم، مع أَنه شقيقُه لأبويه. لأنَّ ذكْرَ الأُمِّ ههنا أَرقُّ وأَبلغُ في الحنوِ والعطف..»[1].

واستعطفَ هارونُ أَخاهُ موسى بقوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾.

أي: لا تَشُدَّني من شعْرِ لحيتي، ولا من شعْرِ رأسي، فإنَّ هذا يؤلمُني ويوجعُني.

ثم بَيَّنَ له أنه لم يسكتْ على عبادتهم العجل، وإنما أَنكرَ عليهم ونَهاهم وذكَّرهم وأَرشدهم، لكنهم لم يَستجيبوا له، واستضعفوه في هياجِهم في عبادة العجل، وكادُوا يقتلونَه ويزهقونَ روحَه: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾.

قالَ ابنُ عاشور: «والسينُ والتاءُ في «استضعفوني» للحسبان، أي:

---

(1) تفسير ابن كثير ٣:١٥٩.

حَسِبوني ضعيفاً لا ناصِرَ لي، لأنهم تمالَئوا عَلى عبادةِ العجل، ولم يُخالفْهم هارونُ إلاّ في شرذمةٍ قليلة.

وقوله: ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ يدلُّ على أنه عارضَهم معارضةً شديدة، ثم سكتَ وسَلَّمَ خشيةَ القتل..»[1].

هارون يبرر بقاءه فيهم بعد نهيهم:

أمّا عن لومِ موسى له لعدمِ مفارقته لهم وعدمِ لحاقه به في قوله: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾؟ فقد بَرَّرَ هارونُ بقاءَه بينهم رغمَ عصيانِهم بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ..﴾.

وكأنَّ هارونَ عليه السلام يقول: كانَ بإمكاني أنْ آتيكَ لوحدي لأُخبرك، فتحصلُ الفوضى فيهم بعدي، وأَخشى عندها أنْ تلومَني وتقول: لقد فَرَّقْتَ بينَ بني إسرائيل وأَوقعْتَ فيهم الفوضى، بذهابِك عنهم.

وكانَ بإمكاني أنْ آخذَ معي الفريقَ الثابتَ على الإيمان، الذين لم يَعبدوا العجل، وهم قلائلُ بالقياسِ إلى الفريق الآخر، وأنْ أنفصلَ بهم عن الأغلبيةِ عابِدي العجل، ولكنّي خشيتُ أنْ تقعَ الفرقةُ الشديدةُ بين الفريقين، وقد يقعُ الاقتتالُ بينهما، وعندها ستقولُ أنتَ لي لائماً معاتباً: فَرَّقْتَ بين بني إسرائيل، ولم ترقب قولي، ولم تحافظ على وصيتي وعهدي، عندما قلتُ لك: اخلُفْني في قومي وأَصلح، ولا تتبعْ سبيلَ المفسدين.

فجملةُ: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ معطوفةٌ على ما قبلَها، وهي تابعةٌ لما كانَ هارون يخشاهُ ويتخوَّفُه من موسى. أي: إنْ غادرتُ القومَ خشيتُ

---

(١) التحرير والتنوير ٩: ١١٧.

أنْ تقولَ لي: لماذا يا هارونُ فرقْتَ بينَ بني إسرائيل؟ ولماذا يا هارونُ لم ترقُبْ قولي ولم تُنفِّذْ عهدي لك؟

واجتهدَ هارونُ عليه السلام بالبقاءِ مع قومِه عابدي العجل، واعتبرَ بقاءَه معهم بعدَ إنكارِه عليهم تطبيقاً لقولِ موسى له قبلَ أنْ يغادر: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قالَ سيد قطب معلِّقاً على كلام هارون لموسى عليهما السلام: «وهكذا نجدُ هارونَ أهدأَ أعصاباً، وأملكَ لانفعالِه من موسى، فهو يلمسُ في مشاعرِه نقطةً حساسة. ويجيءُ له من ناحيةِ الرحم، وهي أشدُّ حساسية، ويَعرضُ له وجهةَ نظرِه في صورةِ الطاعةِ لأمْرِه حسبَ تقديره. وأَنه خشيَ إنْ هو عالجَ الأمْرَ بالعنفِ أنْ يتفرَّقَ بنو إسرائيل شيعاً، بعضُها مع العجل، وبعضُها مع نصيحة هارون، وقد أَمره أنْ يحافظَ على بني إسرائيل، ولا يُحدثَ فيهم أَمراً، فهي كذلك طاعةُ الأمرِ من ناحيةٍ أخرى..»[1].

كان اجتهاد هارون خلاف الأولى:

لقد اجتهدَ هارونُ عليه السلام في سياسةِ قومه عندَ تعارُضِ مصلحتين، مصلحةِ حفظِ العقيدة، ومصلحةِ حفظ الجماعةِ والأنفسِ والأموال والأخوة، فرجَّحَ حفظَ الجماعةِ على حفظ العقيدة اجتهاداً منه، على اعتبارِ أنَّ موسى عليه السلام عندما يعودُ سيصححُ عقيدتَهم.

وكان اجتهادُه عليه السلام مرجوحاً، لأنَّ حفظَ العقيدةِ هو الأصل، ومصلحةُ حفظ العقيدةِ مقدَّمةٌ على ما سواها من المصالح[2].

وكانَ عليه أنْ لا يكتفي بالإنكارِ عليهم والنصحِ لهم، بل أنْ يُتْبِعَ ذلك بإزالةِ المنكرِ بيده، وأنْ يفعَلَ كما فعلَ موسى عليه السلام عندما

---

(١) في ظلال القرآن ٤:٢٣٤٨.

(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير ١٦:٢٩٣.

عادَ إليهم، كانَ عليه أنْ يحرقَ العجلَ الصنم، ويَدعو عابديه إلى التوبة.

ولم يكن هارونُ عليه السلام مخطئاً في ترجيحِه واجتهادِه، فموقفُه صواب، لكنَّهُ تركَ ما هو أولى، والله تعالى أعلم.

ولما عرفَ موسى حقيقةَ موقفِ هارون، وأنه لم يسكتْ عليهم، تركَ لومَه وتعنيفَه وسَحْبَه من شعرِه، ودعا اللّهَ له. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١].

دعا اللّهَ أنْ يغفرَ له تأدُّباً مع الله، فيما ظهرَ عليه من الغضبِ والانفعال. ثم دعا اللّهَ أنْ يغفرَ لأخيه هارون فيما يكونُ وقعَ فيه من تساهُل.

وطلبَ من اللهِ أنْ يُدخلَهما في رحمته، وأَثنى على اللهِ بأَنَّه أرحمُ الراحمين.

موسى يعاقب السامري بالطرد والعزل:

وبعدَما عرف موسى حقيقةَ موقفِ هارون ودَعا له، توجَّهَ إلى السامريِّ وسأَلَه عن القصة: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾.

فأجابَه السامريُّ قائلًا: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾.

وقد عَرَفْنا معنى هذه الآية من قبل، أثناءَ حديثِنا عن كيفيةِ صناعةِ السامري للعجل، فلا نعيدُه هنا.

وبعدما عرفَ موسى عليه السلام حقيقةَ ما حدث، أصدرَ أَمْرَهُ على السامريِّ وعجله. قال تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه: ٩٧].

كانت عقوبةُ السامريِّ أنْ يُخْلَعَ من بني إسرائيل، وأنْ يُعْزَلَ عنهم، واللّهُ هو الذي أمرَ موسى أنْ يعاقبَه هذه العقوبة، لأنه يعلمُ أنه لا خيرَ فيه، ولا صلاحَ يُرجىٰ منه، لأنه قد استحوذَ عليه الشيطان.

قالَ موسى عليه السلام للسّامري: ﴿فَٱذْهَبْ﴾. أي: اخرجْ من بينِ هذه الأمة، فما عدْتَ واحداً منها، واذهبْ بعيداً عنها.

ومعنى قوله له: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾: أنْ لا تمسَّ أحداً، ولا يمسَّكَ أحد.

«لا» هي لا النافيةُ للجنس. و«مساسَ»: اسمُ لا مبنيٌّ على الفتح، في محلٍّ نصب.

والمساسُ هو المماسَّةُ والمسُّ واللمس، وهو مصدر، فعله «ماسَّ».

ولم يَرِدْ في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

قال ابنُ كثير في معنى عقوبة السامري: «كما أنكَ أخذْتَ ومسسْتَ ما لم يكنْ لك أخذُه ومسُّه من أثرِ الرسول، فعقوبتُك في الدنيا أنْ تقولَ لا مساس. أي: لا تماسّ الناس ولا يمسّونك..»[1].

وقالَ سيد قطب في عقوبته: «اذهبْ مطروداً، لا يمسَّكَ أحدٌ بسوءٍ ولا بخير، ولا تمسَّ أحداً ـ وكانتْ هذه إحدى العقوبات في ديانةِ موسى عليه السلام، عقوبةَ العزل، وإعلانَ دَنَسِ المدنَّسَ، فلا يقربُه أَحد، ولا يقربُ أحداً»[2].

وقال محمدُ الطاهر بن عاشور: «جعلَ موسى حظَّ السامريِّ في حياته أنْ يقولَ: لا مساس.

أي: سلَبَهُ اللّهُ الأنسَ الذي في طبعِ الإنسان، فعوَّضَه به هوساً

(١) تفسير ابن كثير ٤:١٥٩.

(٢) في ظلال القرآن ٤:٢٣٤٩.

ووسواساً وتوحُشاً. وأَصبحَ متباعداً عن مخالطةِ الناس، عائشاً وحدَه، لا يتركُ أَحداً يقتربُ منه، فإذا لقيهُ إِنسانٌ قال له: لا مساس. أي: لا تمسّني ولا أمسّك. أو: لا تقتربْ مني. فإن المسَّ يطلقُ على الاقتراب، وهذا أنسبُ بصيغةِ المفاعلة: «لا مساس». أي: لا مقاربةَ بيننا. فكانَ يقولُ ذلك، وهذه حالةٌ فظيعة، أصبحَ بها سخرية»[1].

وهكذا انتهى السامري، هذا الرجلُ الشيطاني، الذي استغلَّهُ الشيطانُ في إِحداثِ أعظمِ فتنةٍ في بني إسرائيل، أَخرجَ معظمَهُم فيها من الإيمانِ إلى الكفر، ومن عبادةِ الله إلى عبادةِ صنم عجل. ولم تنفعْهُ خبرتُه ولا مهارتُه ولا موهبتُه في صناعة التماثيل، ولَم تدفَعْ عنه العقوبةَ في الدنيا، ولا العذابَ في الآخرة.

ومضى السامريُّ في الصحراء، مطروداً منبوذاً معزولاً، يَصيحُ في كلِّ مَنْ يقابلُه قائلاً له: لا مِساسَ ولا لمسَ ولا اقتراب، وسيطرَ عليه الهوسُ والتوحشُ والانعزال.

وغادرَ هذه الحياةَ الدنيا ملعوناً مطروداً، وحقَّ عليه عذابُ الله في الآخـرة: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ . . .﴾.

موسى يحرق العجل وينسفه في اليم نسفاً:

أما عجلُ السامريِّ المصنوعُ من حليِّ بني إسرائيل وزينةِ المصريين فإنَّ موسى عليه السلام أمرَ بإحراقِه وتذريتِه في البحر: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

قال للسامريِّ عن العجل: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ﴾ سخريةً وتهكُّماً به، فقد سبقَ أنْ قالَ السامريُّ لبني إسرائيل:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٦:٢٩٨.

﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾. والآنَ يقولُ له موسى عليه السلام: انظرْ إلى إلهك.

و«ظَلْتَ» أصلُها «ظَلَلْتَ» بلامَيْن، وهي من أَخواتِ «كان»، ترفعُ الاسمَ وتنصبُ الخبر. وحُذفتْ منها اللامُ الأولى تخفيفاً.

و«عاكفاً» خبرُ «ظل» منصوب، ومعناه العكوفُ والملازمة. أي: إلهك الذي ما دُمْتَ ملازماً على عبادته.

ومعنى «لنحرّقَنّه»: تحريقُه تحريقاً شديداً. ومعنى حرقِه هنا صَهْرُه وتذويبُه وبَرْدُه بالمبرد.

يقال: حَرَقَ الحديدَ حرقاً: إذا بَرَدَهُ بالمبرد[1].

قالَ الإمامُ الراغب: حَرْقُ الشيء: إيقاعُ حرارةٍ في الشيءِ من غيرِ لهيب، كخرقِ الثوبِ بالدَّقّ. وحَرَقَ الرجلُ الشيءَ: إذا بَرَدَهُ بالمبرد»[2].

ومعنى «لننسفَنّه»: لنذرِّيَنّه في البحر تذرية.

يقال: نسفَ الشيءَ: إذا فَرَّقَهُ وذَرّاه[3].

ووردَ الفعلان «لنحرقنه ثم لننسفنه» بصيغةِ المبالغة، عن طريقِ لامِ القسم ونونِ التوكيد الثقيلة. للتأكيدِ على إزالتِه.

وأَمَرَ موسى عليه السلام ببرْدِ العجلِ بالمبارد، وهذا هو تحريقُه، ثم أَمَرَ بتذريتِه في البحر.

قالَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «عمدَ موسى إلى العجل، فوضَعَ عليه المبارد، فبَرَدَهُ بها، وهو على شفا نَهر، فما شربَ أحدٌ من

(١) المعجم الوسيط ١:١٦٨.

(٢) المفردات: ٢٢٩.

(٣) المعجم الوسيط ٢:٩١٨.

ذلك الماءِ ممن كانَ يعبدُ ذلك العجل، إلاّ اصفرَّ وجْهُه مثلَ الذهب..»[1].

وبذلك أَنهى موسى عليه السلام العجلَ الذهبيَّ وأَزالَه، وأَعادَ بني إسرائيل إلى عبادةِ اللّهِ وحده، وقالَ لهم: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

قال لهم: إلهُكم هو اللّهُ ربُّ العالمين، الذي لا تصحُّ الألوهيةُ إلا له، ولا تكونُ العبادةُ إلاّ له، فلا إله إلاّ هو. وهو الذي وسعَ كلَّ شيء علماً، وأَحاطَ بكلِّ شيء علماً، وأَحصى كلَّ شيء عدداً.

فلا تعبدوا غيرَه، ولا تؤلِّهوا غيرَه، ولا تُشركوا به أَحداً.

الغضب والذلة على من عبدوا العجل:

وقد عقبَ القرآنُ على عبادةِ بني إسرائيل العجل بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢ ـ ١٥٣].

تبينُ الآيتان غضبَ اللّهِ على الذين اتخذوا العجل إلهاً، وإِيقاعَه الذلةَ بهم في الحياةِ الدنيا، لأَنَّهم مفترون كاذبون، حيثُ زعموا أَنَّ العجلَ إلهٌ معبود، وهذا كذبٌ وافتراءٌ على الله، واللّهُ يجزي المفترين الكاذبين عقاباً وذلة.

ويفتحُ اللّهُ لهؤلاء الكافرين المذنبين بابَ التوبةِ والعودةِ إلى الإيمانِ بالله وتوحيدِه، فإنْ تابوا عن كفرِهم وعبادتِهم العجل، وآمنوا باللّهِ وعبدوه وحدَه، فإنَّ اللّهَ يقبلُ توبتَهم، ويغفرُ لهم ذنبَهم، لأنه غفورٌ رحيم..

(١) أخرجه الحاكم ٢:٣٧٩ ـ ٣٨٠ وصححه. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٩٦.

وبعدما قضىٰ موسى عليه السلام على مشكلةِ العجلِ بصهْرِه وبَرْدِه وتذريتهِ في البحر، وطَرَدَ السامري، عادَ إلى ألواحِه التي ألقاها وكسرها، فبلَّغها إلى قومه، وطالَبهم بالالتزام بها. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤].

أي: لمّا زالَ عن موسى غضبُه على قومه بعد أنْ قضى على العجلِ وصانعِه أخذَ الألواح، وبلَّغَ ما فيها لقومه.

وما في الألواحِ هدى ورحمةٌ للمؤمنين الصالحين الذين هم راهبونَ لربهم، يخافونَه ويخشونَه، ويتقرَّبون إليهِ بالعبادة.

جمال تصويري في ﴿سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾:

ونقفُ وقفةً فنيةً أمامَ إسنادِ السكوتِ إلى الغضب: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ..﴾.

قالَ الزمخشريُّ عن جمالِ هذا الإسناد: «هذا مَثَلٌ كأَنَّ الغضبَ كان يُغريهِ على ما فَعَل، ويقولُ له: قُلْ لقومِك كذا، وأَلْقِ الألواح، وجُرَّ برأسِ أَخيك إليك. فتَرَكَ النطقَ بذلك، وقَطَعَ الإغراء. ولم يَستحسنْ هذه الكلمة، ولم يَستفصحْها كلُّ ذي طبعٍ سليم وذوقٍ صحيح إلاّ لذلك. ولأنه من قبيلِ شُعَبِ البلاغة..»[١].

وقالَ سيد قطب عن ذلك وما فيه من جمالِ التصويرِ والتشخيص والتخييل: «والتعبيرُ القرآنيُّ يشخصُ الغضب، فكأنما هو حيّ، وكأنما هو مسلَّطٌ على موسى، يدفعُه ويحركُه.. حتى إذا «سكتَ» عنه، وتركَه لشأنه! عادَ موسى إلى نفسه، فأخذَ الألواحَ التي كان قد أَلقاها بسببِ دفْعِ الغضبِ له وسيطرتِه عليه...»[٢].

---

(١) تفسير الكشاف ٢: ١٦٣.

(٢) في ظلال القرآن ٣: ١٣٧٦.

ظلم عابدي العجل وكفرهم:

ولما أرادَ عابدو العجلِ التوبةَ إلى الله، والتكفيرَ عن ذنبهم الكبير الذي ارتكبوه، شَدَّدَ اللّهُ عليهم الكفارة، وقررَ أنها لا تتمُّ إلاّ بأنْ يقتلَ بعضُهم بعضاً.

وردَ هذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥١ ـ ٥٤].

أخبرهم موسى عليه السلام أنهم ظلموا أنفسَهم باتخاذِهم العجلَ إلهاً: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ . . .﴾.

وقد أكدتْ آياتُ القرآن على وصْفِ عابدي العجل بالظلم: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

و﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤].

و﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وهارون يقول لموسى عليهما السلام: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [البقرة: ٩٢].

إنها خمسُ آياتٍ تصفُهم بالظلم، والظلمُ هنا بمعنى الكفر، لأنَّ اتخاذَ العجل إلهاً كفرٌ بالله عز وجل.

وظُلْمُهم هذا ينعكسُ على أنفسهم، ويرتدُّ إليها، ولهذا قالَ لهم موسى: إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل.

ندمهم وطلبهم للتوبة:

ولما عرفوا شناعةَ جريمتِهم وعِظَمَ ظلمِهم، أرادوا العودةَ إلى اللّهِ. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف: ١٤٩].

ومعنى ﴿سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾: لما نَدِموا على ما فعلوا، وتبيَّنَ لهم خطؤُهم وسوءُ فعلِهم بعبادتِهم العجل.

و﴿سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ جملةٌ تفرَّدَ بها القرآن، فلم تَرِدْ في استعمالِ العربِ قبلَ نزولِ القرآن.

قال الزّجّاجُ عن هذه الجملة: «وهو نَظْمٌ لم يُسْمَعْ قبلَ القرآن».

وعلقَ ابنُ عاشور على ذلك: «قلتُ: وهو القولُ الفصل، فإنّي لم أَرَهُ في شيءٍ من كلامهم قبل القرآن..»[1].

ولم تَرِدْ هذه الجملةُ في غيرِ هذا الموضع من القرآن، إخباراً عن ندمِ بني إسرائيل بعدَ عبادتهم العجل..

وقد شعرَ بنو إسرائيل بالندمِ بعدما عادَ موسى عليه السلام وحَرَقَ العجلَ وعاقبَ السامري.

عندَ ذلك رغبوا في التوبة قائلين: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وطَلبوا من موسى عليه السلام أنْ يَدُلَّهم على طريقةِ التوبة والتكفير عن الذنب الذي ارتكبوه.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٩:١١٢.

طريق التوبة: قتل الصالحين للمذنبين:

فبلَّغهم موسى عليه السلام أمْرَ الله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

لقد جعَلَ اللّهُ لهم الطريقَ الوحيدَ للتوبة هو أنْ يَقتلوا أنفسهم، أيْ أنْ يقتلَ بعضُهم بعضاً.

ولقد سبقَ أنْ عَرَفْنا أنَّ بني إسرائيل قد انقسموا إلى قسمين في موقفِهم من عبادةِ العجل: الأغلبيةُ استجابوا للسامري وعبدوا العجل، والأقليةُ بقوا مؤمنين مطيعينَ لهارون عليه السلام.

والآنَ يُريد الذين عبدوا العجلَ أنْ يُكفِّروا عن ذنبهم، وأنْ يتوبوا إلى الله.

كلَّفَهم موسى أنْ يقتلَ بعضُهم بعضاً: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾. وقامَ الفريق الثابتون على الإيمان بالاستعدادِ لقتْلِ الفريقِ الآخر، واستسلمَ عابِدو العجل للقتلِ على أيدي إخوانهم... وهكذا حدثتْ «مقتلةٌ» في بني إسرائيل أمامَ موسى عليه السلام، بأمْرٍ من اللّهِ سبحانه، وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ فيها، وبعدَ ذلك عفا اللّهُ عنهم، وقَبِلَ توبتَهم، وأَمَرَ بإنهاءِ المقتلة!!.

والحديثُ عن هذهِ المقتلة «مُبْهَمٌ» في القرآن، لم يَرِدْ عنه بيانٌ ولا تفصيل، فليسَ أَمامَنا إلاّ قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ..﴾.

ولم يَرِدْ شيٌ عنها في حديثِ رسول الله ﷺ. أمَّا الإسرائيلياتُ فإنها تتحدثُ عنها كثيراً، ولكننا لا نذهبُ إليها.

ولهذا نفهمُ النصَّ القرآني على إبهامِه وإجمالِه، ولا نُضيفُ عليه شيئاً.

قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما: أَمَرَ موسى قومَه عن أمْرِ ربِّه عز وجل أنْ يَقتلوا أنفسهم، وأُخْبِرَ الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقامَ الذين لم يعكفوا على العجل، فأَخَذوا الخناجرَ بأيديهم. . . فجعلَ يقتلُ بعضُهم بعضاً. . . كلُّ مَنْ قُتِلَ منهم كانتْ له توبة، وكلُّ مَنْ بقيَ كانَتْ له توبة. .

وقالَ قتادة: أُمِرَ القومُ بشديدٍ من الأمر، فقاموا يتناحَرون بالشّفار، يقتلُ بعضُهم بعضاً، حتى بلغَ اللّهُ فيهم نقمتَه، فسَقطت الشّفارُ من أيديهم، فأمسكَ عنهم القتل، فجعَل لحيِّهم توبة، وللمقتولِ شهادة. .[1].

ولا يَعنينا تحديدُ رقمِ القتلى الناتج عن هذه المذبحة، ولسْنا معَ مَنْ حدَّدَه من السابقين بأنه سبعونَ ألفاً، ولعلَّهم أَخذوه من الإسرائيليات، علماً بأنهُ رقمٌ كبير، بالنسبةِ إلى عددِ بني إسرائيل في ذلك الوقت.

اقتلوا أنفسكم: اقتلوا إخوانكم:

والمرادُ بكلمةِ «أنفسكم» في قوله: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ إخوانُكم.

لقد تكررتْ كلمةُ «أنفسكم» مرتين في الآية.

الأولى: في قولِ موسى لبنِي إسرائيل: ﴿إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ . .﴾ وهو خطابٌ للفريقِ الذين عَبدوا العجل، والمرادُ بكلمة «أنفسكم»: أشخاصُكم وذواتُكم. أي: كنتم ظالمين لأشخاصِكم لَمّا عبدتُم العجل.

الثانية: في قوله: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾. وهو خطابٌ للفريقِ الذين لم يَعبدوا العجل. والمرادُ بكلمةِ «أنفسكم»: إخوانُكم. أي: قوموا بقتْلِ إخوانكم الذين عَبدوا العجل، الراغبينَ الآنَ في التوبة.

---

(١) تفسير ابن كثير ١:٨٨ ـ ٨٩ باختصار.

ووردتْ كلمةُ «أنفسكم» بمعنى إخوانكم، في آياتٍ عديدة:

منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٥].

فكلمةُ «أنفسكم» مذكورةٌ مرتين في الآيتين، بمعنى: إخوانكم.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ . .﴾ [الحجرات: ١١].

أي: لا تلمزوا إخوانكم، ولا تَعيبوهم ولا تَطعنوا فيهم.

وعقوبةُ الله لهم بقتْلِ بعضِهم بعضاً، وجعْلُها الطريقَ الوحيدَ للتوبة، نموذجٌ من التشريعاتِ والعقوباتِ المشدَّدة التي شَدَّدَها الله على بني إسرائيل.

وبهذا انتهتْ قصةُ عبادةِ بني إسرائيل العجل، وأُسدلَ الستارُ على وقائعِها، لكنها بقيتْ «نقطةً» سوداء، من النقاطِ السوداءِ الكثيرة، التي ملأَتْ تاريخَهم، القائمَ على المخالفاتِ والانحرافاتِ والتجاوزات!!

[٤]

رفع الطور فوقهم وأخذهم بالصاعقة

أَنعمَ اللّهُ على بني إسرائيل نعماً عديدة، وطالبهم أَن يقابلوها بالشكر، ليديمَها عليهم ويزيدَهم منها.

اليهود يقابلون نعم الله بالكفران:

وقد أَخبرَنا اللّهُ في القرآن عن ما قالَه لهم موسى عليه السلام بهذا

الخصوص. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٦ ـ ٨].

لئن شكرتُم لأزيدَنَّكم، ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد.

لننظرْ هل قابلَ بنو إسرائيلَ نعمَ الله عليهم بالشكر، أم قابلوها بالجحودِ والكفران؟

عرفْنا مما سبق كيف قابلوا نعمةَ إنجائهم من آل فرعون ومن البحر بطلبِ إلهٍ صنم يعبدونَه، وكيف حقَّقوا هذا عملياً، عندما غادرهم موسى عليه السلام، بعبادتهم العجل.

وعرفْنا كيف قابلوا نعمةَ إنزالِ تشريعاتِ وأحكامِ التوراة على موسى لهم بالكفر بالله، حيث عبدوا عجلَ السامريِّ الذهبي.

ولما وقعوا في جريمة عبادةِ العجل أمَرَ الله بعقابهم بأنْ يَقتلَ بعضُهم بعضاً، ثم أنعمَ عليهم بقبولِ توبتهم بعد المقتلة، ورفْع القتل عنهم. وكعادتِهم في الجحود والعصيان، لم يقابلوا هذه النعمة بالشكر لله، وإحسانِ الخضوع له، وصدْقِ تنفيذ أحكامه وطاعةِ نبيه عليه السلام.

فلْننظرْ ونتابعْ ما ذكره القرآن من لقطاتِ ومشاهدَ تاليةٍ من حياتهم في سيناء، ولْنتعرفْ منها طريقتَهم في التعامل مع نعم الله.

موسى يختار سبعين رجلاً من قومه:

قالَ الله عز وجل: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٧].

تتحدثُ الآيةُ الأولى من هذه المجموعة عن ما جرى لبني إسرائيل، بعدما أمرَ اللّهُ برفعِ القتل عنهم وقبولِ توبتهم من عبادة العجل.

فقد طلبَ اللّهُ من موسى عليه السلام أنْ يَنتخبَ ويَصطفي سبعين رجلًا من خيارِ صالحي قومه، وأنْ يأتيَ بهم إلى جبل الطور، لينوبوا عن باقي قومهم في صدقِ التوبة إلى الله، والندمِ على عبادة العجل، والمعاهدةِ على أنْ لا يعودوا للمخالفة والعصيان.

وسارَ موسى عليه السلام بالسبعين رجلًا إلى جبلِ الطور، وهناك طَلَبَ منهم القيامَ بما حضروا لأجله، والتوبةَ والندمَ وإعطاءَ العهد لله، لكنهم أبوا ورفضوا!!!

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَاۖ ...﴾:

الاختيارُ صيغةُ تكلُّفٍ ومبالغة من الخير. تقول: خار، واختار: بمعنى انتقى وانتخب واصطفى.

وهو مثل الانتقاءِ من النقْيِ. والاصطفاءِ من الصفو. والانتخابِ

من النخب. تقول: اختارَ وانتقى واصطفى وانتخب. وهي متقاربةٌ في المعنى.

والاختيار هو: تمييزُ المرغوب من بينِ المختلط بغيره، وهو على وزن «الافتعال»، مشتقٌّ من الخير[1].

وأصْلُ «اختار موسى قومه»: اختار موسى من قومه سبعين رجلاً. والتقدير: اختارَ موسى سبعينَ رجلاً من قومه لميقاتنا.

و«اختار» ينصب مفعولين. ويجوزُ أن ينصبَ المفعولَ الثاني مباشرة، ويجوزُ أنْ يتعدّى إلى المفعولِ الثاني بحرف الجر «من».

تقول: اختارَ الرجلُ صديقَه من الناس. وإنْ شئتَ حذفْتَ حرفَ الجر، فتقول: اختارَ الرجلُ صديقَه الناسَ.

واستدلّوا على جوازِ نصبِ الفعلِ للمفعول الثاني مباشرة بشواهدَ شعرية، منها قولُ الراعي:

اخْتَرْتُكَ النـاسَ إذْ رَثَّـتْ خَلائِقُـهُـمْ وَاعْتَـلَّ مَنْ كانَ يُرْجىٰ عِنْدَه السُّؤْلُ

والشاهدُ فيه قوله: اخترتكَ الناسَ. وأصلها: اخترتك من الناس[2].

وذكرَ الإمامُ محمد رشيد رضا حكمةَ حذفِ حرف الجر في الآية بقوله: «الاختيارُ يكون من فاعلٍ مُختار، وشيء مختارٍ منه، فيتعدّى للثاني بحرف «مِنْ». وكأنَّ نكتةَ حَذْفِ «مِن» الإشارةِ إلى كونِ أولئك السبعين خيارَ قومِه كلِّهم، لا طائفةٍ منهم»[3].

والمعنى: أنَّ موسى عليه السلام نظرَ في قومه جميعاً، وبحثَ عن

(١) تفسير ابن عاشور ٩: ١٢١.

(٢) انظر تفسير الدر المصون للسمين ٥: ٤٧٣.

(٣) تفسير المنار ٩: ٢١٥.

أفضلِهم وأصلحِهم، فانتخبَ واصطفى وانتقى واختارَ أفضلَ وأصلحَ سبعين رجلاً منهم.

سارَ بهم إلى جبلِ الطور: «لميقاتنا». ملتزماً الوقتَ الذي وَقَّته وحَدَّده الله له.

مهمة السبعين رجلاً عند جبل الطور:

وهذه عودةٌ منه إلى جبلِ الطور، حيث ذهبَ بمفرده هناك لتلَقّي ألواحِ التوراة.

قالَ اللّهُ عن المرة الأولى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ..﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقالَ عن هذه المرة: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ..﴾.

ونلاحظُ تكرارَ كلمةِ «لميقاتنا» في المرتين.

وكانت مهمةُ هؤلاء السبعين الاعتذارَ عما فعلَه قومُهم من عبادة العجل، ومعاهدةِ الله على الاستقامة.

قال عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما: كان هؤلاء السبعون علماءَ بني إسرائيل.. ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل، في عبادةِ مَنْ عبد منهم العجل...

وقالَ محمد بن إسحاق: اختارَ موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً، الخَيِّرَ فالخَيِّر. وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتُم، وسَلوه التوبةَ على مَنْ تركتم وراءكم مِن قومكم، صوموا، وتطهَّروا وطهِّروا ثيابكم.. فخرجَ بهم إلى طور سيناء، لميقاتِ وقَّته له ربُّه. وكان لا يأتيه إلا بإذْنٍ منه وعلم..[1].

ماذا فعلَ هؤلاء السبعون عند وصولهم جبلَ الطور؟

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٣٤٢.

طلبَ منهم موسى عليه السلام التوبةَ والاعتذارَ وإعطاء العهد، وتنفيذَ ما قدموا لأجله، لكنهم رفضوا ذلك! وأثاروا إشكالاتٍ واعتراضات!! ولم يَذكر القرآنُ شيئاً منها، بينما فَصَّلت الإسرائيلياتُ في الحديث عنها، ولهذا نتوقف في تبيينها وتحديدها.

نكوصهم عن إعطاء العهد وأخذ الرجفة لهم:

فالذي يَعنينا أنَّ السبعينَ نكصوا وتخلَّفوا، ورفضوا القيامَ بما طُلبَ منهم، ولا ننسى أنَّ هؤلاء السبعين كانوا أفضلَ وأصلحَ وأعلمَ قومِهم، وأنَّ موسى اختارهم واصطفاهم من سائرِ القوم! فإذا كانَ أصلحُ بني إسرائيل على هذه المخالفة والتمرد والعصيان، ورفضِ طاعةِ موسى عليه السلام، فكيفَ بباقي بني إسرائيل، وهم دونهم في الصلاح والتقوى؟

إنَّ هذا الموقفَ القبيحَ من السبعين يكشفُ عن الطبيعةِ الخاصة لبني إسرائيل التي تقومُ على التمردِ والمخالفة والعصيان!!

إنه لا ينفعُ مع هؤلاء إلاّ القوةُ والتهديد، وإنَّ اللّهَ يعلمُ طبيعةَ ونفسيةَ هؤلاء. ولذلك أجرى أمامَهم آيةً عظيمةً من آياته.

رفعَ اللّهُ فوقَهم جبلَ الطور، ونظروا إليه خائفين مندهشين مرعوبين! وظنوا أنه سيقعُ بهم ويطحنُهم ويدمِّرُهم!! وقالَ لهم موسى عليه السلام: إمّا أنْ تُبايعوا وإما أنْ يُسقطَ اللّهُ الجبلَ عليكم!!

عند ذلك بايَعوا وعاهَدوا!!!

وأَحدثَ رفعُ الجبل رجفةً وزلزلة، نتجَ عنها صاعقةٌ وصوتٌ شديد قاصف، ولم يتمالك السبعون أنفسهم من هول ما يشاهدون وشدةِ ما يَسمعون، فسقطوا مغشياً عليهم!!

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَ ..﴾.

والرجفةُ هي الزلزلة. تقول: رجفت الأَرض رجْفاً. إذا تحركتْ واضطربت وتزلزلت.

دعاء موسى وتضرعه من أجلهم:

ولما تزلزلت الأرضُ ورجفتْ، نظرَ موسى عليه السلام خلفه فرأى السبعين رجلاً صرعى، فظنَّهم أمواتاً، وخشي اتهامَ قومِه له بقتلهم، ورقَّ قلبُه لهم فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾.

ومعنى كلامه: يا ربِّ إِنني أَتمنّى لو كانتْ سبقتْ مشيئتُك أنْ تُهلكهم من قبلِ خروجهم معي إلى هذا المكان، فأهلكْتَهم وأهلكْتَني معهم، حتى لا أقعَ في حرجٍ شديدٍ مع بني إسرائيل، فيقولوا: قد ذهبْتَ بخيارنا لإهلاكهم. فإذا لم تفعلْ ذلك من قبل، فأسألكَ برحمتِك أنْ لا تفعلَ ذلك الآن، وأنْ لا تُهلكهم الآن[1].

وكلامُ موسى دعاءٌ وتضرعٌ إلى الله أنْ لا يُهلك الرجالَ السبعين، وأنْ يمنَّ عليهم بالإفاقةِ والصحو.

ثم قال موسى لربه: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟ ليس الاستفهامُ هنا للإنكار، لأنَّ موسى نبيٌّ كريم عليه السلام، لا ينكرُ على اللّهِ فعلاً من أفعالِه، وإنما هو استفهامٌ للتفجعِ والخشيةِ.

والمعنى: أَخشى يا ربَّنا أنْ تُهلكنا بما فعلَ السفهاءُ منا، وأَرجو أَنْ لا تهلكَنا بسببهم، وأنْ لا تؤاخِذَنا بسببهم.

والسفهاءُ المذكورون هنا هم الذين عبدوا العجل، لأنه لا يَعْبُدُ غيرَ الله، ولا يُؤَلِّهُ غيرَ الله إلا سفيهٌ.

وهذا دليلٌ على أنَّ علماءَ بني إسرائيل بقوا ثابتين مع هارون عليه السلام، وأنَّ الذين عبدوا العجلَ هم الغالبيةُ السفيهةُ من بني إسرائيل.

---

(١) تفسير المنار لرشيد رضا ٩:٢١٥.

ثم قالَ موسى عليه السلام لربه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ..﴾.

والكلامُ هنا عن عبادةِ قومه للعجل. يقولُ موسى لله: إنَّ عبادةَ بني إسرائيل للعجل فتنةٌ منك، فَتَنْتَهم وامتحنْتَهم واختبرْتَهم بها، وفقَ حكمتِك في ذلك، فأنتَ حكيمٌ خبير، ومنهم مَنْ سَلِمَ من الفتنة، ونجحَ في الاختبار، فاهتدى فيها إلى طريق الرشاد، ومنهم مَن افتتنَ بها، ورسبَ في الاختبار، فغويَ وضلَّ بها، وأنتَ الهادي تهدي مَنْ تشاء، وأنتَ تُضِلُّ مَنْ تشاء.

واستمرَّ موسى في دعائه يُثني على الله ويمجِّدُه، فقال له: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ...﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٦].

يقررُ موسى أنَّ اللّهَ هو الوليُّ له ولقومه، ويطلبُ منه أنْ يغفرَ له ولقومه وأنْ يرحمهم، ويُثني عليه بأنَّه خيرُ الغافرين الذين يغفرون، وأَرحمُ الراحمين الذين يرحمون.

الفرق بين الهود العربية واليهود الأعجمية:

ويطلبُ موسى من ربِّه أنْ يُؤتيه مع قومِه المؤمنين في الدنيا حسنة، وأنْ يُؤتيهم أيضاً في الآخرة، ليجمعوا بين خَيري الدنيا والآخرة.

ثم أعلنَ موسى أَنه مع قومه المؤمنين هادوا إلى الله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ...﴾.

هُدْنا: فعلٌ ماض. مشتقٌ من «الهَوْدِ» بمعنى: العودةِ والرجوع إلى الحق.

نقول: هادَ، يَهودُ، هَوْداً، فهو هائِدٌ. والقوم هُودٌ. أي: رجعَ، يرجعُ، رجوعاً، فهو راجع، والقومُ راجعون.

فمعنى قولِ موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾: إنّا تُبْنا ورجَعْنا إليك، وندمنا على ما سبقَ أنْ فعلْناه.

ونحبُّ أن نفرقَ هنا بين معنى «الهَوْدِ» وهو العودةُ والرجوعُ إلى الله، وبين كلمة «اليهود» التي تُطلقُ على هذا الجنس البشري المعروف. فكلمة «يهود» اسمُ علمٍ أعجمي، وسُمّوا بذلك نسبةً إلى «يهوذا» ـ بالذال ـ وهو اسمُ ابنِ يعقوب عليه السلام، كما يزعمُ بنو إسرائيل.

واليهودُ الذين بَعْدَ موسى عليه السلام لم يَهودوا ولم يَرجعوا إلى الله، وإنما هم أَبعدُ الناس عن الله.

وذكَرَتْ آياتُ القرآن أنَّ اللّهَ أخبرَ موسى عليه السلام بأنه سيبعثُ محمداً نبياً عليه الصلاة والسلام، وذكَرَ بعضَ صفاته، وبعضَ مميزاتِ رسالته وأَحكامِ شريعته، وطالَبه أنْ يُبشرَ قومَه ببعثةِ محمد القادمة عليه الصلاة والسلام.

ولهذا قالَ اللّهُ جواباً على دعاء موسى السابق عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧].

وليس هذا موضعَ الحديثِ عن البشاراتِ بالنبي ﷺ ورسالته وشريعته، فهذا له مكانُه الخاص، وسنتابعُ حديثَنا عن الأحداثِ المثيرةِ المعجزة التي حدثَتْ عند جبل الطور في ذلك اليوم.

الله يرفع جبل الطور فوقهم:

استجابَ اللّهُ دعوةَ موسى عليه السلام فأزالَ عن السبعين رجلاً أثرَ الرجفةِ والزلزلة، وأفاقوا من غشيتهم.

ولما فتحوا عيونَهم شاهدوا آيةً ربانيةً عظيمة، ومشهداً مخيفاً مُرعباً! شاهَدوا جبلَ الطور مرفوعاً فوقَهم، وهو على وشكِ السقوطِ عليهم.

لقد أمرَ اللّهُ الأرضَ فرجفتْ واضطربتْ وزلزلتْ، ثم أَمَرَ بجبلِ الطور فَحُرِّكَ ورُفعَ من مكانه! نعم، رفعَ اللّهُ الجبلَ العظيمَ الراسخَ الضاربَ في أعماق الأرض، رفعَهُ من مكانِه وعلَّقَه في الفضاء، وصارَ كأنه سحابةٌ تظللُ السبعين رجلاً تظليلَ خوفٍ ورعب، وليس تظليلَ إنعامٍ وتكريم.

وليس هذا الفعلُ غريباً على اللّهِ سبحانه، فاللّهُ فَعّالٌ لما يريد، وأَمْرُهُ بين الكاف والنون، لأنه إذا أرادَ شيئاً فإنما يقولُ له كن، فيكونُ كما أَرادَ سبحانه.

إنَّ الله هو الذي أَلقى جبلَ الطورِ في الأرض، وجعلَه راسخاً مستقراً في مكانه، واللّهُ هو الذي أَرادَ أنْ يجعلَ منه آية، فرفعَهُ فوقَ القوم، وأَمسكَه في الفضاء، ولمّا حققَ إرادتَه من ذلك أَعادَه ثابتاً مستقراً مكانه، وسيبقى في مكانِه إلى أنْ يشاءَ الله!!

وبما أنَّ الفعلَ فعلُ اللّهِ فما الغرابةُ في ذلك؟

لقد وردَ رفْعُ الجبلِ فوقَ الرجال السبعين في أكثر من آيةٍ في القرآن. من هذه الآيات قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: ٦٣ ـ ٦٤].

يخاطبُ اللّهُ في هذه الآياتِ اليهودَ، ويُخبرهم بما فعلَ مع أسلافِهم السابقين، حيث رفعَ فوقَهم جبلَ الطور، وطالَبهم بإعطاءِ العهد والميثاق، فأعطوه.

أمرهم الله بأمرين:

وأَمرهم اللّهُ بأمريْن:

الأول: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾: تمسَّكوا بكتابنا الذي آتيناكم - وهو التوراة - والتزموا بما فيه من تشريعاتٍ وتوجيهات وأحكام، واعْملوا بما فيه بقوةٍ وجدية ونشاط، ولا تضعفوا في ذلك.

الثاني: ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾: تعلَّموا ما في كتابنا، واذْكروه واعلموه، لتعرفوا المطلوبَ منكم فتنفِّذوه وتُؤَدّوه.

وتنفيذُ الأمريْن يُحققُ التقوى، وهي الحالةُ الإيمانيةُ التي لا بدَّ أنْ يعيشَها دائماً كلُّ مؤمنٍ بالله، منفذٍ لأحكامه، عالمٍ بكتابه.

قالَ سيد قطب في تعليقه على هذيْن الأمرين: «المهمُّ هنا هو استحضارُ المشهد، والتناسقُ النفسيُّ والتعبيريُّ بين قوةِ رفعِ الصخرة فوق رؤوسهم وقوةِ أخْذِ العهد، وأَمْرهم أنْ يأخذوا بما فيه بقوة، وأنْ يعزموا فيه عزيمة. فأمْرُ العقيدة لا رخاوةَ فيه ولا تميع، ولا يقبلُ أنصافَ الحلول ولا الهزلَ ولا الرخاوة.. إنه عهدُ الله مع المؤمنين.. وهو جدٌّ وحق، فلا سبيلَ فيه لغيرِ الجدّ والحق.. وله تكاليفُ شاقة، نعم! ولكن هذه هي طبيعتُه. إنه أمرٌ عظيم. أعظمُ من كل ما في الوجود، فلا بدَّ أنْ تُقبلَ عليه النفسُ إقبالَ الجادِّ القاصدِ العارفِ بتكاليفه، المتجمعِ الهمِّ والعزيمة، المصممِ على هذه التكاليف، ولا بدَّ أنْ يُدركَ صاحبُ هذا الأمر أنه إنما يودعُ حياةَ الدعةِ والرخاء والرخاوة...

ولا بُدَّ مع أخذِ العهد بقوةٍ وجدٍّ واستجماعِ نفس وتصميم.. لا بدَّ مع هذا من تذكُّرِ ما فيه، واستشعارِ حقيقتِه، والتكيفِ بهذه

الحقيقة، كي لا يكونَ الأمْرُ كلُّه مجردَ حماسةٍ وحميةٍ وقوة. فعهْدُ الله منهجُ حياة، منهجٌ يستقرُّ في القلب تصوراً وشعوراً، ويستقرُّ في الحياة وضعاً ونظاماً، ويستقرُّ في السلوك أدباً وخلقاً، وينتهي إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية الضمير..»[1].

لكن ماذا فعلَ بنو إسرائيلَ بالعهد الذي أَعطوه؟ تعامَلوا معه وفقَ طبيعتِهم الخاصة، القائمةِ على المخالفةِ والتمرد والنكث، فنقضوه وخالَفوه، وتولَّوا عن شرع الله، وسجل عليهم القرآن هذه الجريمة: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

معنى نتق الطور فوقهم وتشبيهه بالظلة:

ومن الآياتِ التي تكلمتْ عن رفعِ الطور فوقهم قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١].

نَتَقَ اللّهُ الجبلَ فوقهم. ونَتَقَ بمعنى «رفع» المذكورةُ في الآية السابقة.

تقول: نتقَ الرجلُ الشيء: رَفَعه من مكانه، ليرميَ به. أو: هَزَّهُ ونفضه[2].

قال الإمام الراغب: «نتقَ الشيء: جذبَه ونزعَه حتى يسترخي، كنتْقِ عُرى الحِمل. قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾. ومنه استعير امرأة ناتِق: إذا كثرَ ولَدُها»[3].

لما نتقَ اللّهُ جبلَ الطور ورفَعه فوقَ رؤوسهم، صارَ كأنه ظلةٌ تظللُهم بظلِّها.

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٧٦.

(٢) المعجم الوسيط ٢: ٩٠٠.

(٣) المفردات: ٧٩٠.

والظلةُ هي ما يظلل الإنسانَ ويَغْشاه ويحجبُ عنه الشمس، من شجرةٍ أَو بيتٍ أَو جبل أَو غيره.

قال الراغب: «الظلة: سحابةٌ تظلل. وأكثرُ ما تستعملُ فيما يُسْتَوْخَمُ ويُكره»[1].

ولم تَرد الظلةُ في القرآن إلاّ مرتين: مرة في العذاب، ومرة في التهديد بالعذاب.

قالَ اللّهُ عن تعذيبِ قوم مدينَ لما كذبوا شعيباً عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وهنا هددَ اللّهُ السبعين رجلاً بالعذاب، حيث جعلَ الطورَ فوقَهم كأنه سحابةٌ تريدُ أنْ تَسقطَ عليهم: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ..﴾.

ومع أنَّ اللّهَ لما نتقَ واقتلعَ الجبل، وجعلَه فوقَهم، صار ظلةً تظللُهم، ومع ذلك قالت الآية: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾، ولم تَقل: صارَ ظلةً.

والحكمةُ من قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾، أَنه لم يجعلْه ظلةً تظللهم إِنعاماً عليهم، ولا حَجْباً لحرِّ الشمس عنهم، فليستْ وظيفتُه إظلالاً حقيقياً، وإنما كان إظلالاً تهديدياً وتخويفياً، ولهذا كان ظلةَ تهديد، وليس ظلةَ تكريم!![2].

ولهذا أَتبعَ التشبيهَ بذكرِ أثرِ المشهد على نفوس القوم: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾، فامتلأَ القومُ خوفاً وهلعاً ورعباً، لأنَّ الجبلَ المعلَّقَ فوقَهم في الفضاء، إنْ بقي هكذا سيقعُ بهم ويسقطُ عليهم.

---

(١) المرجع السابق: ٥٣٦.

(٢) تفسير المنار لرشيد رضا ٩:٣٨٦.

عند ذلك أَمرهم اللّهُ أنْ يأخذوا شرعَه لهم بقوة، وأنْ يذكُروا ويتعلَّموا ما فيه، وأنْ يُعطوا العهدَ والميثاق، وإلاّ أوقعَ اللّهُ عليهم الجبلَ وسحقَهم تحته. فأعطوا العهدَ والميثاق في هذا الجوِّ التهديدي. وهذا هو الذي ينفعُ مع اليهود.

ومن الآياتِ التي تحدثَتْ عن رفْعِ الطور فوقَهم قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٣].

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥٤].

وهكذا أَعطى السبعونَ رجلاً إسرائيلياً عهدَهم وميثاقَهم، عندَ جبل الطور، وأَعلنوا ندمَهم وتوبتَهم، نيابةً عن قومهم الذين عبدوا العجل، لكن أَعطوا عهدَهم وميثاقَهم بعد التخويفِ والتهديد، لأنَّ هذا هو المتفقُ مع طبيعتهم المتخاذلة الرخوة.

وعادَ السبعونَ رجلاً مع موسى عليه السلام إلى قومهم الذين كانوا ينتظرونهم، وعاشوا معهم، وانتقلوا إلى مشهدٍ جديد من المشاهدِ العجيبة المتتابعة للقوم.

بنو إسرائيل يطلبون رؤية الله جهرة:

انتقلَ بنو إسرائيلَ من المخالفاتِ السابقة إلى مخالفةٍ جديدة، فقد كانتْ حياتُهم مع موسى عليه السلام تقومُ على المخالفاتِ المتتابعة، فما كانوا يَخرجونَ من مخالفةٍ إلا ليَقعوا في مخالفةٍ أُخرى، وهذه هي طبيعتُهم في التعامل مع شرع الله.

حَسَدوا موسى عليه السلام على تكريم اللّهِ له، ونفسوا عليه تكليمَ اللّهِ له، وقالوا له: لماذا أنتَ تكلمُ اللّهَ ويكلمُك ونحنُ لا نكلمُه ولا نَسمعه ولا نَراه؟ لا بدَّ أنْ نرى اللّهَ جهرةً بعيوننا. وقد ذكَرَ القرآنُ طلبَهم العجيب وما ترتبَ عليه من عقابٍ من اللّهِ لهم. قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٥٦].

والراجحُ أنَّ الذينَ قالوا له: لن نؤمنَ لك حتى نرى اللّهَ جهرة، غيرُ السبعين رجلاً الذين رفعَ اللّهُ الطورَ فوقَهم، والراجحُ أنَّ الصاعقةَ التي صعقتْ هؤلاء هي غيرُ الرجفة التي رجفتْ بالقومِ عند جبل الطور، وأنها كانت بعد الرجفة.

قالَ رشيد رضا: «قالَ الأستاذُ الإمام: سؤالُ بني إسرائيل رؤيةَ الله تعالى واقعةٌ مستقلةٌ لا تتصلُ بمسألةِ عبادةِ العجل، وهي معروفةٌ عند بني إسرائيل، ومنصوصةٌ في كتابهم...»[1].

قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

عَلَّقوا إيمانَهم لموسى واستسلامَهم له وإحسانَ طاعتِه برؤيتهم لله جهرةً عياناً.

ومعنى «جهرة»: ظُهوراً واضحاً وعَياناً بارزاً. وهي مصدرٌ فعْلُه «جَهَرَ». تقول: جَهَرَ الشيءُ جَهْراً وجَهْرَةً وجِهاراً: إذا ظهرَ عَياناً.

قال الإمام الراغب: «جَهَرَ: يُقالُ لظهورِ الشيء بإفراطِ حاسةِ البصر أو حاسةِ السمع.

ومن ظهورِه بحاسةِ البصر قولُك: رأيتُه جَهْرة وجِهاراً. قال تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ...﴾»[2].

دلالة طلبهم على عدم تقديرهم لله:

ويدلُّ طلبُهم العجيبُ الغريبُ على جلافتِهم وغلظِ قلوبهم، وعلى

---

(١) تفسير المنار ١:٣٢١. وانظر المنار ٩:٢١٨.

(٢) المفردات: ٢٠٨.

وقاحتِهم وسوءِ أدبهم مع موسى نبيهم عليه الصلاة والسلام، كما يدلُّ جهلهم بحقيقةِ الأُلوهية، وسوءِ نظرتِهم إلى الله، وعدم تقديرهم له حقَّ قدرِه، حيث أَرادوا تجسيمَ اللّه وتحديدَه، ووصْفَه بصفاتِ المخلوقين.

إِنهم يريدونَ من اللّهِ أنْ يتحركَ كالمخلوقين، وأنْ ينزلَ كالمخلوقين، وأنْ يتجسمَ ويتحدَّدَ كالمخلوقين، وأنْ يقفَ أَمامَهم كالمخلوقين، وأنْ تراهُ عيونُهم كما ترى إنساناً واقفاً أمامَها، وأنْ تحصرَهُ وتحيطَ به، كما تحصرُ أيَّ إنسانٍ آخر تنظرُ إِليه!!

إنَّ نظرتَهم إلى الله عجيبة، فهم ما قدروا اللّهَ حقَّ قدره، فلما مَرّوا على قومٍ يعبدونَ أصناماً طلبوا أصناماً آلهة، ولما صنعَ لهم السامريُّ عجلاً وقال لهم: هذا إِلهُكم صدَّقوه وعَبدوه، والآن يريدونَ أنْ يروا اللّهَ جهرةً عياناً بعيونهم، كما يرون أيَّ شخصٍ واقفٍ أمامهم.

ولم يكونوا كافرين عندما طلبوا هذا الطلب، فهم مؤمنون بالله، ومؤمنون لموسى، لكنهم قالوه عجرفةً وعناداً.

قال الإمامُ محمد الطاهر بن عاشور: «ليس في الآية ما يدلُّ على أَنهم كفروا حين قالوا قولَهم هذا، ولكنها دالةٌ على عجرفتهم، وقلةِ اكتراثهم بما أُوتوا من النعم، وما شاهَدوا من المعجزات، حتى راموا أنْ يَروا اللّهَ جهرة، وإِنْ لم يروْهُ دخلَهم الشكُّ في صدْقِ موسى. وهذا كقولِ القائل: إنْ كان كذا فأنا كافر.

وليسَ في القرآن ولا في غيره ما يدلُّ على أَنهم قالوا ذلك عن كفر.

وإِنما عُدِّيَ «نؤمنَ» باللام: «لن نؤمنَ لك» لتضمينِه معنى الإِقرارِ بالله. أي: لنْ نُقِرَّ لكَ بالصدق..»[1].

---

(١) التحرير والتنوير ١:٥٠٦.

أي: لن نستسلمَ ولن ننقادَ لك حقاً إلاّ بعدَ أنْ نرى اللّهَ جهرةً بعيوننا، ونُجسّمه ونحدِّدَه بأبصارنا!!

أخذهم بالصاعقة وهم ينظرون:

وقد عاقبهم اللّهُ فوراً على طلبهم العجيب: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . . ﴾.

والصاعقة: نارٌ كهربائية تسقطُ من السماء أَو من السحاب، تَصعقُ مَن تصيبُه فتحرقُه وتهلكه.

تقول: صَعَقَ، يَصْعَقُ، صَعْقاً، فهو صَعِق، وذلك إذا أصابَتْه الصاعقة[1].

قال الراغب: «الصاعقةُ والصاقعة يتقاربان، وهما الهدَّةُ الكبيرةُ في الأجسام، إلاَّ أنَّ الصقعَ يقال في الأجسامِ الأرضية، والصعقَ في الأجسام العلوية.

قال بعضُ أهل اللغة: الصاعقةُ على ثلاثةِ أوجه:

١ ـ الموتُ، كقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

٢ ـ العذاب، كقوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . . . ﴾ [فصلت: ١٣].

٣ ـ النار، كقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ . . ﴾ [الرعد: ١٣].

وما ذَكَره فهو أشياءُ حَاصلةٌ من الصاعقة، فإنَّ الصاعقةَ هي الصوتُ الشديدُ من الجو، ثم يكونُ منها نارٌ فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيءٌ واحد، وهذه الأشياءُ تأثيراتٌ منها . . .»[2].

---

(١) المعجم الوسيط ١:٥١٥.

(٢) المفردات: ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

وجملة ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ جملةٌ حالية. أي: صعقَتْكُم الصاعقة وأخذتكم، وأنتم تنظرونَ إليها.

وهذا دليلُ أنَّ الصاعقةَ لم تكن مجردَ صوتٍ شديد سمعوه فصعقوا، بل كانت شيئاً مادياً منظوراً مشاهَداً، ولعلَّها كانت ناراً رأَوها نازلةً عليهم من السماءِ أو السحاب.

ومفعولُ «تنظرون» مقدَّر. والتقدير: وأنتم تنظرونَ الجبلَ أو السحابَ أو النارَ أخذتكم الصاعقةُ فصعقَتْكم.

ولما صُعقَ القومُ ماتوا. وبعد ذلك بعثَهم اللّهُ من موتِهم، وأعادَ الحياةَ لهم، ونصَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقبلَ الحديثِ عن حقيقةِ ومعنى موتِهم وبَعْثِهم نشيرُ إلى أنَّ القرآنَ ذكَّرَ اليهودَ الأَحفادَ في المدينة بما فعلَه أجدادُهم زمنَ موسى عليه السلام، وذلك في سياق تعنتِ الأَحفادِ وعنادِهم وتكذيبهم لرسول الله محمد ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: ١٥٣ ـ ١٥٤].

قررَ في هاتينِ الآيتين أنَّ بني إسرائيل سأَلوا موسى عليه السلام سؤالاً كبيراً، في غايةِ القبح والسوء، حيث طلَبوا أنْ يروا اللّهَ جهرةً عَياناً بعيونهم، فعاقَبهم اللّهُ بأَنْ أماتَهم بالصاعقة.

سنة الله في عدم بعث الميت إلا يوم القيامة:

وظاهرُ القرآنِ أنَّ اللّهَ بَعَثَهم بعدما أَماتَهم: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ

مَّوۡتِكُمۡ﴾، فكيفَ بعثَهم اللّهُ مِن بعدِ موتهم؟ وهل ماتوا فعلاً موتاً حقيقياً؟ ومَنْ مات حقاً فهل يُبعثُ قبلَ قيامِ الساعة؟.

قد يظنُّ بعضُ الناس أَنهم ماتوا موتاً حقيقياً، وأَنَّ أرواحَهم خرجَتْ من أَجسادِهم حقاً، واستمرّوا جثثاً هامدةً فترةً من الزمن، ثم أَعادَ اللّهُ أَرواحَهم إِلى أجسامهم.

ويقولون: كان بعثُهم بعد موتِهم معجزةً من أمر الله، واللّهُ على كل شيء قدير.

ونحنُ لا نشكُّ في قدرةِ الله المطلقة، ونؤمنُ أنه فعَّالٌ لما يُريد.

لكن سنةَ الله أنَّ مَنْ ماتَ موتاً حقيقيّاً فإن روحَه لا تردُّ إِلى جسمه إلاّ يومَ القيامة. ولم يَثبتْ أنَّ إنساناً ماتَ موتاً حقيقياً ثم أَعادَ اللّهُ له الحياةَ في الدنيا. وكلُّ الأمثلةِ المذكورةِ في القرآن كان الموتُ فيها موتاً خاصاً ظاهرياً، وليس موتاً حقيقياً، وهو انتهاءُ الأجلِ وخروجُ الروحِ من الجسم، مثلُ أصحاب الكهف، والذي مَرَّ على قرية، والذين قالَ الله لهم موتوا ثم أحياهم، والقتيل الذي ضرب بجزء من البقرة.

والدليلُ على أنَّ هذه هي سنةُ اللّهِ المطردةُ ما رواه مسلمٌ وغيره عن مسروق قال: إنّا سَأَلْنا عبدَ الله عن هذهِ الآية: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: ١٦٩]. فقال: إنّا قد سأَلْنا عن ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خضرٍ لها قناديلُ معلقةٌ بالعرش، تسرحُ مِن الجنة حيثُ شاءت، ثم تَأْوي إلى تلك القناديل، فاطلعَ عليهم ربُّهم اطلاعة. فقال: هل تشتهونَ شيئاً؟ فقالوا: أيّ شيءٍ نشتهي، ونحنُ نسرحُ من الجنة حيثُ شئنا؟ ففعلَ ذلك بهم ثلاثَ مرات.

فلما رأَوا أَنهم لَنْ يُتركوا من أنْ يَسألوا قالوا: يا ربّ نُريدُ أنْ تَرُدَّ أرواحَنا في أجسادِنا، حتى نُقتلَ في سبيلك مرةً أخرى!!

فلما أن رأى ليس لهم حاجةً تُركوا..»[1].

فلو شاءَ اللّهُ إعادةَ روحِ ميتٍ إلى جسده في الدنيا للَبّى رغبةَ الشهداء، وأَعادَ أرواحَهم إلى أجسامهم، ولكنْ سنةَ اللّهِ أنْ لا يكونَ ذلك في الدنيا ولهذا تركَهم يَسرحون في الجنة بانتظارِ قيامِ الساعة.

والدليلُ على أنَّ هذه هي السنةُ أَيضاً ما رواه الترمذي وغيرُه عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال له: «أفلا أُبَشِّرُكَ بما لقيَ اللّهُ به أباك؟».

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «ما كلَّمَ اللّهُ أحداً قطّ إلاّ مِن وراء حجاب، وأَحيا أباك فكلَّمَه كِفاحاً.

فقال: يا عبدي: تمنَّ عليَّ أُعطِك.

قال: يا ربّ تُحييني، فأُقْتَلَ فيك ثانية.

قالَ الرب عز وجل: إنه قد سبقَ القولُ مني: أنهم إليها لا يرجعون»[2].

والشاهدُ في الحديث صريحُ قوله: إنه قد سبق القولُ مني أَنهم إليها لا يُرجعون.

أي: هذه سنةُ الله أنَّ الذين ماتوا وغادروا الدنيا لا يُرجعون إليها مرة ثانية.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٨٨٧.

(٢) أخرجه الترمذي برقم: ٣٠١٠.

كان موتهم موتاً خاصاً وليس موتاً حقيقياً:

إذن لم يكن موتُ القومِ من بني إسرائيل موتاً حقيقياً، ولو كان كذلك لما أعادَ اللّهُ أَرواحَهم إلى أجسادهم، وإنما كان موتُهم موتاً خاصّاً ظاهرياً.

أَي: أَنهم تأثَّروا بالصاعقةِ التي صعقَتْهم، وسقطوا مغشياً عليهم، ولكنَّ آجالَهم لم تنته، ولم تُغادرْ أَرواحُهم أَجسامَهم نهائياً، وبعدَ مضيِّ فترةٍ عليهم، أَزالَ اللّهُ عنهم آثارَ الصاعقة، وأَفاقَهم من بعدِ الغشية، وأَيقظَهم من صعقتهم، فاستيقظوا وتحرَّكوا، وبما أَنَّ ما أَصابهم كان يشبهُ الموت، عَبرتِ الآيةُ عن يقظتِهم بالبعث بعد الموت: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

والمفسِّرُ الذي وجدْتُ له كلاماً طيباً في تعليلِ بعثِهم بعدَ موتِهم الخاص، هو الإمامُ محمد الطاهر بن عاشور. حيثُ قالَ في «التحرير والتنوير» عن ذلك: «فإنْ قلت: إنَّ الموتَ يقتضي انحلالَ التركيبِ المزاجي، فكيف يكونُ البعثُ بعده في غيرِ يومِ إِعادةِ الخلق؟

قلت: الموتُ هو وقوفُ حركةِ القلب، وتعطيلُ وظائفِ الدورةِ الدموية. فإنْ حصلَ عن فسادٍ فيها لم تَعقبْهُ حياةٌ إلاّ في يوم إِعادةِ الخلق، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦].

وإذا حصلَ عن حادثٍ قاهرٍ مانع، منعَ وظائفَ القلب من عملها، كان للجسدِ حكمُ الموت في تلك الحالة، لكنه يَقبلُ الرجوعَ إنْ عادتْ إِليه أسبابُ الحياة بزوالِ الموانعِ العارضة.

وقد صارَ الأطباءُ اليومَ يعتبرونَ بعضَ الأحوالِ التي تعطلُ عملَ القلب اعتبارَ الموت، ويُعالجون القلبَ بأعمالٍ جراحيةٍ تُعيدُ إِليه حركته.

والموتُ بالصاعقة إذا كان عن اختناق، أَو قوةِ ضغطِ الصوت

على القلب، قد تعقبُه الحياةُ بوصولِ هواءٍ صافٍ جديد، وقد يطولُ زمنُ هذا الموتِ في العادةِ ساعاتٍ قليلة...»[1].

والخلاصةُ أنَّ موتَهم بالصاعقة لم يكن موتاً حقيقياً، ولم تنتهِ فيهِ أَعمارُهم، وإنما كانَ موتاً خاصاً، توقفت الحياةُ الظاهريةُ في أجسامِهم فترةً زمنيةً محددة، ثم أَعادَ اللّهُ تلك الحياةِ إليهم، ليُكملوا أَعمارَهم التي حدَّدَها اللّهُ لهم. والله أعلم.

[٥]

الغمام والطعام وتفجير العيون

أَشرْنا فيما مضى إلى بعضِ ما أنعمَ اللّهُ على بني إسرائيل في سيناء، ومقابلتِهم هذه النعمَ بالجحودِ والكفران. وكان حديثُنا عن نعمةِ إِنزالِ التوراة، ونعمةِ العفوِ عن عبادتهم العجل، ونعمةِ إِفاقتهم من غشية الرجفة، ونعمةِ بعثِهم بعد صعقِهم بالصاعقة، وموقفِهم الجاحدِ من هذه النعم، فما كانوا يخرجون من مخالفةٍ إلاّ ليقعوا في مخالفةٍ جديدة..

ونتابعُ حديثَنا عن نعمِ الله عليهم في سيناء، ونقدِّمُ نعماً جديدة أخبرنا الله عنها في القرآن.

الله يظللهم بالغمام في الصحراء:

من هذه النعم: نعمةُ تظليلِهم بالغمام.

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ..﴾ [البقرة: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿..وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ..﴾ [الأعراف: ١٦٠].

لقد كانوا يتنقلون مع موسى عليه السلام في سيناء، وهي صحراءُ

---

(١) التحرير والتنوير ١:٥٠٨.

حارةٌ محرقة، ليس فيها أشجارٌ كثيفةٌ كبيرة، تَقيهم حرَّ الشمس، فتأذَّوا من حرِّ الصحراء وأشعةِ الشمس الحارقة، وأرادَ اللّهُ الإنعامَ عليهم بنعمةٍ جديدة، فظلَّلَ عليهم الغمام، وكان هذا الغمامُ آيةً من آيات الله.

والغمامُ هو السحاب، ساقهُ الله إليهم، فظلَّلَهم به، وجعله فوقَهم، ليقيهم حرَّ الشمس.

قال الإمامُ الراغب: «الغَمُّ: سترُ الشيء. والغَمامُ لكونه ساتراً لأشعةِ الشمس..»[1].

وسُميَ السحابُ غَماماً لأنّه يُغطي السماءَ فوقَ الإنسان، ولا يُبقي فيها فرجة. ومُفردُ الغَمام: غمامة، وهي السحابة.

ومعنى «ظَلَّلْنا»: غطَّينا.

تقول: ظَلَّ الإنسانُ يفعل كذا: دامَ على فعله.

وظَلَّ الشيءُ: دامَ واستمر ظلُّه.

وأَظَلَّ الشيءُ: صارَ ذا ظلّ، وامتدَّ ظِلُّه.

وأَظَلَّ الشيءُ فلاناً: إذا غشيه.

وظَلَّلَ فلاناً: ظَلَّلَه بالظل، ليحجبَ عنه أشعةَ الشمس[2].

كان سحاباً كثيفاً وقاهم من شمس الصحراء:

وذهبَ بعضُ المفسرين إلى أنَّ الغمامَ الذي ظلَّلهم الله به كان أبيضَ رقيقاً.

وهذا ليس دقيقاً، ولا يتفقُ مع الإنعامِ عليهم به، لأنه إذا كان رقيقاً فإنه لا يُحققُ الحكمةَ من سوقه عليهم.

والراجحُ أنه كان كثيفاً يحجبُ عنهم أشعةَ الشمس.

---

(١) المفردات: ٦١٣.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٢: ٥٧٦.

ولا يُسمّى السحابُ غَماماً إلا إذا «غَمَّ» السماءَ وغطاها وسَترها، ولم يُبقِ فرجةً تُرى من خلالها.

قال محمد رشيد رضا نقلاً عن شيخِه محمد عبده: «إنَّ التظليلَ استمرَّ إلى دخولهم أرضَ الميعاد. ولولا أنْ ساقَ اللّهُ إليهم الغمامَ يُظلِّلُهم في التيه لسفَعَتْهم الشمسُ ولفحتْ وجوهَهم، ولا معنى لوصْفِ الغمامِ بالرقيقِ، كما قالَ المفسِّرُ الجلالُ وغيره. بل السياقُ يقتضي كثافتَه، إذ لا يحصلُ الظلُّ الظليلُ الذي يُفيده حرفُ التظليل، إلاّ بسحابٍ كثيف، يمنعُ حرَّ الشمس ووهجَها، وكذلك لا تتمُّ النعمةُ التي بها المنة إلاّ بالكثيف..»[1].

ولْنتصورْ عظمةَ وفضْلَ هذه النعمةِ عليهم. ولْنتخيلْ منظرَ القوم وهم يتحركونَ في شعابِ صحراء سيناء، وفوقَهم الغمامُ يُظللُهم بظلِّه الظليل، يُسيّرُهُ اللّهُ فوق رؤوسهم أينما تحركوا وحيثما أقاموا.

وكان لهذا الغمامِ أثرُه الكبيرُ في تلطيفِ وترطيبِ الجوِّ الصحراوي الجافِّ الكريه، وتحويلِه إلى جوٍّ ربيعيٍّ لطيفٍ منعش، فضلاً وكرماً من الله سبحانه وتعالى.

وبذلك جعلَ اللّهُ الصحراءَ عليهم نعمة، ويسَّرَ لهم الإقامةَ فيها، وطالَبَهم بذكْرِ هذه النعمة، وشكْرِه عليها.

وسخّر لهم المنّ والسلوى:

وبعدما هيأَ اللّهُ لهم سبيلَ الحياة في الصحراء وسهَّلَها عليهم، تكفَّلَ لهم بالطعام، ويسَّرَ لهم تناولَه بدون كدٍّ ولا سعيٍ ولا مشقة: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾.

والمنُّ والسلوى صنفان متكاملان من أصنافِ الطعام الذي أنعمَ اللّهُ عليهم به.

---

(١) تفسير المنار ١: ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

قالَ ابن عباس: كان المنُّ ينزلُ عليهم على الأَشجار، فيغْدون إِليه فيأكلون منه ما شاءوا.

وقال مجاهد: المنّ: صَمْغٌ حلو.

وقالَ الربيعُ بن أنس: المنّ: شرابٌ كان ينزلُ عليهم مثل العسل، فيمزجونَه بالماء ثم يشربونه.

وعلَّقَ الإمامُ ابنُ كثير على هذه الأقوال وغيرِها في تعريف المن، وجمعَ بينها بقولٍ جامعٍ لطيف. قال: «والغرضُ أنَّ أقوالَ المفسرين متقاربةٌ في شرحِ المن. فمنهم مَنْ فسَّره بالطعام، ومنهم مَنْ فسَّره بالشراب. والظاهر - واللّهُ أعلم - أنه كلُّ ما امتنَّ اللّهُ به عليهم من طعامٍ وشراب وغير ذلك، مما ليسَ لهم فيه عملٌ ولا كدّ.

فالمشهورُ أنَّ المنَّ إنْ أُكِلَ وحده كان طعاماً، وإِنْ مُزِجَ مع الماء صار شراباً طيباً، وإنْ رُكِّبَ مع غيره صارَ نوعاً آخر.

ولكنْ ليس هو المرادُ من الآية وحده. والدليلُ على ذلك ما رواه البخاريُّ عن سعيدِ بن زيد رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «الكَمْأَةُ من المَنّ، وماؤها شفاءٌ للعين»[1]. والكَمْأَةُ هي الفطرُ المعروف.

أما السّلوى فقد قال فيه ابن عباس: السلوى طائرٌ يشبهُ السّمانىٰ، كانوا يأكلون منه[2].

«وهو اسمُ جنسٍ للمفردِ والجمع، وهو طائرٌ بريٌّ لذيذُ اللحم، سهلُ الصيد، كانت تسوقُه لهم ريحُ الجنوب كلَّ مساء، فيمسكونَه

---

(١) (٢) انظر تفسير ابن كثير ١: ٩١. والحديث المذكور أخرجه البخاري برقم: ٥٧٠٨. ومسلم برقم: ٢٠٤٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٩٧.

قبضاً، ويسمّى هذا الطائرُ أيضاً السُّمانىٰ ـ على وزن حُبارىٰ ـ»[1].

وقالَ الإمامُ الراغب في تفسير المنّ والسلوى: «قيل: المنّ: شيءٌ كالطّلّ ـ وهو الندّى ـ فيه حلاوة، يسقطُ على الشجر. والسلوى: طائر.

وقيل: المنُّ والسّلوى: كلاهما إِشارةٌ إلى ما أنعمَ اللّهُ به عليهم. وهما بالذات شيءٌ واحد. لكن سمّاه مَنّاً بحيثُ أَنه امتنَّ به عليهم، وسمّاه سلوى من حيثُ إِنه كان لهم به التسلي..»[2].

والراجحُ أنَّ المنّ والسلوى صنفان من أَصنافِ الطعام، ساقَهما الله لبني إسرائيل في الصحراء.

والراجحُ أنّ المنّ: صمغٌ نباتيٌّ حلو، يكونُ على الأَشجار الصحراوية، والسّلوى طائر يشبهُ السُّمانىٰ.

وبين الصنفيْن «تكامُلٌ» غذائيٌّ ملحوظٌ مقصود، فالمنُّ يمثلُ جانبَ النشوياتِ والسكريات الضروريةِ لجسم الإنسان. والسَّلوىٰ يمثلُ جانبَ البروتيناتِ الضروريةِ للإنسانِ أَيضاً.

وقد عبَّرَ القرآنُ عن الإنعامِ عليهم بهذيْن الصنفيْن بلفظِ الإنزال: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾.

ولا يُرادُ بالإنزال هنا الإنزالُ الحسي، فهذان الصنفان لم يَنزلا من السماء كالمطر. وإنما المرادُ بالإنزالِ هنا التسخيرُ والتذليل، والإنعامُ عليهم بذلك التسخير.

كأَنه قال: أَوجدْنا لكم المنَّ على الأشجار، وسُقْنا لكم طيورَ السلوى، وسخرْنا لكم كلَّ ذلك تسخيراً، إِنعاماً عليكم. فصرتُم تأكلون ذلك بدون كدٍّ ولا جهدٍ ولا مشقة.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١: ٥١٠.

(٢) المفردات للراغب: ٧٧٨.

وفي قوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ جملةٌ مقدرة، والتقدير: وقلْنا لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم.

ووَصفت الآيةُ المنَّ والسلوى بأَنهما من الطيبات، ولا أَطيبَ منهما، لأَنهما إنعامٌ خاصٌ من الله.

وهما رزقٌ واضحٌ من الله، ولهذا أُسند الفعلُ: ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ إلى الله، وهو إسنادٌ حقيقي، لأنه ليس لهم يدٌ ولا جهدٌ ولا خيارٌ بذلك الرزق، وإنما كان يأتيهم عطاءً مجرداً من الله.

ولكنهم عصوا وبغوا وظلموا أنفسهم:

ماذا فعلَ بنو إسرائيل بهذه النعمِ الربانية الظاهرة الغامرة؟ هل شكروا اللّهَ عليها؟

سارعت الآيةُ بذكْرِ سوءِ فعلهم وقبيحِ جحودهم، فقالت: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وهذه الجملةُ داخلةٌ على جملةٍ مقدرة أيضاً. والتقدير: فقابَلوا إِنعامَنا بالجحود، وإِحسانَنا بالإساءة، وما ظلمونا بذلك، لكنهم كانوا أَنفسهم يظلمون.

وهذا يعرِّفُنا على الطبيعةِ الخاصة لبني إسرائيل، القائمةِ على الكفران والجحود، والمخالفة والعصيان.

فاللّهُ أنعمَ عليهم في الصحراء بالغمام يظلِّلُهم ويَقيهم حرَّ الشمس، وبالمنِّ والسلوى غذاءً متكاملاً لهم، وطالبهم بشكرِه على هذه النعم، واستخدامِها في طاعته، ولكنهم عصوْا أمْرَه، وقابَلوا إِحسانَه بالإساءة، وذلكَ وفقَ طبيعتِهم الجحودة، وبذلك جَنَوْا على أنفسهم، وأَساءوا لها وظلموها، لأنَّ هذا الموقفَ منهم نذيرُ دمارٍ وهلاك، وسلبٍ وإزالةٍ لتلك النعم: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

حاجة أسباطهم إلى الماء في الصحراء:

وبعدما تكلمت الآيةُ عما أَنعمَ اللّهُ به عليهم من الغمامِ والطعام، أَخبرتْ آياتٌ أُخرى عن نعمةِ الماء الذي فجَّرَ اللّهُ لهم عيونَه في الصحراء.

قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٦٠].

قسَّمَ اللّهُ بني إِسرائيل إِلى اثنتيْ عشر سَبطاً: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾.

ومعنى «قطّعناهم»: قَسَّمناهم وفرَّقْناهم.

وكان تقسيمُهم إِلى اثنتيْ عشرةَ سَبطاً، وذلك على عدد أَجدادهم أَولادِ يعقوب عليه السلام، فقد أَنجبَ يعقوبُ عليه السلام اثنيْ عشر ولداً، منهم النبيُّ يوسفُ عليه السلام. وكان هؤلاء الأَبناءُ هم أَجدادَ وأُصولَ بني إِسرائيل. ونسْلُ كلِّ ولدٍ كانوا سَبطاً أَو قبيلة أَو أمة.

ولم تَرِد «الأسباط» في القرآنِ إِلاّ في الحديث عن قبائل بني إِسرائيل.

والأَسْباط جمعُ «سَبط». تقول: سَبِط. سَبْطاً.

قال الإِمام الراغب عن السَّبْط: «أصلُ السَّبْط: انبساطٌ في سهولة.

يقال: شَعْرٌ سَبْطٌ.. وامرأةٌ سَبْطَةُ الخِلْقَة. ورجلٌ سَبْطُ الكفَّيْن: ممتدُّهما، ويُعَبَّرُ به عن الجود.

والسِّبْطُ: وَلَدُ الوَلَدِ، كأنه امتدادُ الفروع. والأَسباط: القبائل، كلُّ قبيلةٍ من نسلِ رجل. قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[1].

إنَّ مادة «السِّبط» تقومُ على الانتشارِ والامتداد، وانطبقَ هذا على قبائلِ بني إِسرائيل الاثنتي عشرة، حيثُ امتدَّ كلُّ واحدٍ من أَبناءِ يعقوب الاثني عشر عن طريقِ نسْلِه وذريتِه.

تحفظ على بيان سفر العدد لأسباطهم:

وإذا كانَ الأصلُ أنْ يكونَ الأَسباطُ الاثنا عشر هم أَحفادَ وذريةَ أبناءِ يعقوب الاثني عشر، فإنَّ رواياتِ العهدِ القديم تحذفُ سَبط «لاوي» أحدَ أبناءِ يعقوب، لأنَّ سلالةَ لاوي ونسلَه اختصوا بخدمةِ الدين وإقامةِ الشريعة، وتجعلُ مكانَ سَبط لاوي سلالةَ ابنَيْ يوسف عليه السلام.

وردَ هذا في الإصحاحِ الأولِ الإحصائيِّ من سفْرِ العدد، وهو السفرُ الرابعُ من أَسفارِ العهد القديم.

وردَ في الإصحاحِ الأول من سفرِ العدد أنَّ الربَّ أمرَ موسى وهارون عليهما السلام بإحصاءِ أَبناءِ وذرية الأسباط.

وأَسماءُ الأسباط هي: سبط رأوبين. وسبط شمعون. وسبط يهوذا. وسبط يساكر. وسبط زبولون. وسبط بنيامين. وسبط دان. وسبط أشير. وسبط جاد. وسبط نفتالي. وسبط أفرايم بن يوسف. وسبط منسى بن يوسف.

وأما سَبطُ لاوي فقد نهى الربُّ موسى عن إحصائه ضمن الأسباط، لتفرّده بالزعامةِ الدينية في بني إسرائيل[2].

---

(١) المفردات: ٣٩٤.

(٢) انظر الكتاب المقدس: كتاب الحياة، ترجمة تفسيرية، سفر العدد، الإصحاح الأول: ١ ـ ٥٤.

ونحنُ نوردُ هذا الكلام من العهدِ القديم ذكراً فقط، وليسَ اعتماداً منّا له، فمنهجُنا عدمُ اعتمادِ ما في العهد القديم، وإنما التوقفُ فيه.

وإذا كانَ أولادُ يعقوب اثنيْ عشر رجلاً، وإذا كانَ أسباطُ بني إسرائيل اثنيْ عشرَ سبطاً، فالأصْلُ أنْ يكون كلُّ سبط هم ذريةَ واحدٍ من أولئك الأبناء، فلماذا لا يكون سَبطُ لاوي من بين الاثني عشر؟ ولماذا لأَولادِ يوسف سبطان؟

ثم إننا نتحفظُ على أَسماءِ أبناء يعقوب الاثني عشر، وهم أصولُ وأجدادُ الأسباط، فلا نَجزمُ إلاّ باسمِ يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام.

تقسيمهم اثني عشر سبطاً لتنظيم حياتهم:

وتقسيمُ بني إِسرائيل إِلى اثنتي عشرة أَسباطاً أُمماً ليسَ عقاباً لهم، وإنما هو منةٌ ونعمةٌ من الله عليهم، لتنظيمِ حياتِهم الاجتماعية.

يقول محمد الطاهر بن عاشور حول هذا: «والتقطيعُ هو التفريق، والمرادُ به التقسيم. وليس المرادُ بهذا الخبرِ الذم، ولا بالتقطيعَ العقاب، لأنَّ ذلكَ التقطيع منَّةٌ من الله، وهو من محاسنِ سياسةِ الشريعةَ الموسوية، ومن مقدماتِ نظامِ الجماعة، وهو نظيرُ ما فعلَ عمرُ بن الخطاب من تدوينِ الديوان.

وهم كانوا منتسبين إِلى أَسباطِ إسحاق، ولكنهم لم يكونوا مقسَّمين عشائر لما كانوا في مصر، وكان التقسيمُ بعد اجتيازهم البحر، وقبلَ انفجارِ العيون...»[1].

تمَّ تنظيمُ شؤون بني إسرائيل في سيناء، وقسَّمهم موسى عليه السلام إِلى أسباط وقبائلَ وعشائر، حسبَ انتسابهم إِلى أَجدادهم أَولادِ يعقوب عليه السلام، ذريةُ كلِّ واحدٍ سَبطٌ وقبيلة، وصاروا يتحركون ويتنقلون على أَساسِ هذا التقسيمِ والتنظيم.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٩:١٤٢ ـ ١٤٣.

الحديث عن الاستسقاء والماء في الأعراف والبقرة:

وقد أخبرَنا اللّهُ في القرآن أنَّ بني إسرائيل استسقوا موسى لما أَصابهم العطشُ وهم يتحركونَ أَسباطاً في صحراء سيناء، وطَلبوا منه أنْ يستسقيَ اللّهَ لهم، وأنْ يتضرعَ إليه ليسقيَهم، فاستسقى موسى ربَّ العالمين، لينقذَ بني إسرائيل من العطش. فأَمَرَه اللّهُ عز وجل أنْ يضربَ الحجرَ بعصاه، ففعلَ منفِّذاً أَمره. فأَجرى اللّهُ على يديه معجزةً باهرة، حيثُ تشققَ الحجرُ من الضربة، فَنَزَّتْ منه اثنتا عشرة عيناً، ثم فارتْ تلك العيونُ فانفجرت انفجاراً، وسالَ من الحجرِ الكبير اثنتا عشرة عيناً، على عددِ أَسباط بني إسرائيل، لكلِّ سبطٍ عينٌ خاصةٌ بهم.

وقد تحدثتْ عن هذه المعجزة الربانية آيتان: آيةٌ من سورة الأعراف المكية، وآيةٌ من سورة البقرة المدنية. وعرضَتْ كلُّ آيةٍ مرحلةً من مراحلِ خروجِ العيونِ من الحجر، وسننظرُ في الآيتيْن مراعين هذه المرحلية:

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ ..﴾ [الأعراف: ١٦٠].

الاستسقاءُ طلبُ السقيا. والهمزةُ والسين والتاء في قوله: ﴿ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ للطلب.

فلما احتاجَ بنو إسرائيل إلى الماء، وشَعروا بالعطش، وهم يتجولون في الصحراء، فزعوا إلى موسى عليه السلام، وأَقْبلوا إليه طالبين منه الماءَ والسقيا، وهذا معنى استسقائِهم له، وكأَنهم قالوا له: إننا نوشِكُ أنْ نموتَ عطشاً، ونريدُ الماء، فأَحضِرْ أنتَ لنا الماء، إننا نستسقيكَ ونطلبُ هذا منك، وأنت بإمكانك أنْ تستسقيَ ربَّك.

عندَ ذلك استسقى موسى عليه السلام ربَّه لقومه، وطلبَ منه أنْ يُغيثَهم بالماء. وهذا ما أَخبرتْ عنه آيةُ سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ

مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ..﴾ [البقرة: ٦٠].

استسقوا موسى فاستسقى موسى ربه:

والجمعُ بين الآيتين في الاستسقاء: أنَّ بني إسرائيل استسقوا موسى: ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾، فاستجابَ موسى لاستسقائهم، واستسقى اللّهَ لهم: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾.

لقد استسقى القومُ نبيَّهم موسى عليه السلام، ولم يستسقوا اللّهَ مباشرة، فتوجَّهَ موسى بالدعاءِ إلى الله، واستسقاه لقومه، وهذا يدلُّ على اهتمامِه بقومه بني إسرائيل، وتلبيتِه لحاجاتهم، وحلِّه لمشكلاتهم، رغم مخالفاتِهم وتجاوزاتِهم. إنه نبيُّهم ومنقذُهم، وهو قائدُهم وراعيهم، استرعاهُ اللّهُ قومَه، ولا بدَّ أنْ يقومَ بواجبه نحوهم.

ولذلك ما أن استسقاهُ قومُه حتى سارعَ باستسقاءِ اللّهِ لهم، والطلبِ منه سقياهم وإغاثتَهم.

وقد استجابَ اللّهُ استسقاءَ موسى عليه السلام، فطلبَ منه أنْ يضربَ بعصاه الحجر: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾.

والعصا معروفةٌ لموسى، وقد جَرَتْ بها معجزاتٌ سابقةٌ بأمر الله، فهي التي ألَقاها فصارت حيةً تسعى، وهي التي ألَقاها أمامَ فرعون فصارت ثعباناً مبيناً، وهي نفسُها التي ألَقاها أمامَ السحرة في المباراة، فصارتْ أفعى وابتلعتْ كلَّ ما أَمامها، وهي نفسُها التي كان يحملها معه على شاطئ البحر ليلةَ خروجهم، فأَمره اللّهُ أنْ يضربَ البحرَ بها، فشقَّ اللّهُ لقومِه طريقاً يبساً في البحر، والآن ها هي العصا بين يديه، واللّهُ يأمره أنْ يضربَ الحجرَ بها لتتفجرَ منه العيون.

أما الحجرُ الذي أَمره اللّهُ أنْ يضربَه بعصاه فقد كانَ في سيناء، وهو معروفٌ له ولقومه، فأَل التعريف فيه: «الحجر» للعهدِ الذهني.

ولا بدَّ أنْ يكونَ هذا الحجرُ كبيراً، ليحتملَ انفجارَ اثنتي عشرة عيناً منه، ليشربَ منها كلُّ أسباط بني إسرائيل.

وقد نفذَ موسى أمْرَ الله، على مرأى من بني إسرائيل، فوقفَ أَمامَ ذلك الحجر الكبير - الصخرة - وبنو إسرائيل ينظرون إليه، وتناوَلَ عصاه العجيبة، وضربَ بها ذلك الحجر.

ونظرَ موسى وقومُه إلى الحجر بعدَ الضربة، فإذا به يتشققُ شقوقاً، تَنِزُّ منها عيونُ الماء، ثم انفجرتْ منه تلك العيون الاثنتا عشرة.

لقد تضمنَ هذا المشهدُ ثلاثَ نعم ربانية غامرة، أنعمَ اللّهُ بها على بني إسرائيل. هي: «نعمةُ الريِّ منَ العطش، وهي نعمةٌ كبرى، أَشدُّ من نعمةِ إعطاءِ الطعام، ولذلك شاعَ التمثيلُ بريِّ الظمآنِ في حصول المطلوب.

وكونُ السقيِ في مظنةِ عدمِ تحصيله، وتلكَ معجزةٌ لموسى، وكرامةٌ لأمته.

وكونُ العيون اثنتي عشرة، ليستقلَّ كلُّ سَبط بمشرب، فلا يتدافعوا...»[1].

انبجاس العيون في الأعراف ثم انفجارها في البقرة:

والذي يلفتُ النظرَ تفاوتُ التعبيرِ عن انفجارِ العيون من الحجرِ في كلٍّ من سورةِ الأعراف وسورة البقرة.

ففي الأعراف وردَ قولُه: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾.

وفي البقرة ورد قوله: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾.

فما هو الانبجاس؟ وما الفرقُ بينه وبين الانفجار؟ ولماذا عبَّرَ في الأعرافِ بالانبجاس وفي البقرةِ بالانفجار؟

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١: ٥١٧.

لم تَرِدْ كلمةُ «انبجسَ» في غيرِ هذا الموضعِ من القرآن.

قالَ الإِمامُ الراغبُ في المفردات: «يقال: بَجَسَ الماءُ وانبجس: انفجر.

لكنَّ الانبجاسَ أكثرُ ما يُقالُ فيما يخرجُ من شيءٍ ضيق. والانفجارُ يُستعملُ فيه، وفيما يخرجُ من شيءٍ واسع.

ولذلك قالَ اللّهُ عز وجل: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ في الأعراف، وقالَ في البقرة: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ فاستعمل حيث ضاق المخرج اللفظان»[1].

الانبجاسُ بدايةُ الانفجار، ويبدو أنَّ خروجَ العيونِ من الحجر كانَ على مرحلتين.

الأولى: مرحلةُ الانبجاس: فلما ضربَ موسى عليه السلام الحجرَ بعصاه، تشققَ الحجرُ اثني عشر شقاً، وبدأَ الماءُ «يَنِزُّ» ويَخرجُ بصعوبةٍ من بين تلك الشقوق. وهذا هو الانبجاس. وقد أَخبرتْ سورةُ الأعراف المكية عن هذه المرحلة: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾.

ولا ننسى أنَّ آيةَ الأعرافِ تُخبرُ أنَّ موسى استسقى ربَّه بعدَ أن استسقاه قومُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ . . .﴾.

كما لا ننسى أنَّ سورةَ الأعراف مكية، أي أنَّ نزولَها كان قبلَ نزولِ آيةِ سورة البقرة المدنية، ولهذا تحدثَتْ عن المرحلةِ الأولى.

الثانية: مرحلةُ الانفجار: وقد حدثَتْ نتيجةَ انحباسِ الماء داخلَ الحجر ـ الصخرة ـ وعدمِ قدرةِ الشقوقِ فيه على تصريفه، فتفاعلَ الماءُ

---

(١) المفردات: ١٠٨.

في الداخل، وأدى إلى انفجارِ الشقوقِ وتوسيعها، فانفجرت العيونُ منها انفجاراً.

ولا ننسى أنَّ آيةَ سورةِ البقرة تخبرُ عن استسقاءِ موسى لربه، فنتجَ عن استسقائِه تفجيرُ العيون تفجيراً: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ..﴾.

ولا ننسى أنَّ سورةَ البقرة مدنية، ولهذا تحدثَتْ عن انفجارِ العيون، وهو المرحلةُ الثانيةُ التاليةُ لمرحلة انبجاسها.

فأولُ ما نزلَ الآيةُ التي تتحدثُ عن انبجاسِ العيون في سورة الأعراف، ثم نزلت الآيةُ التي تتحدثُ عن مرحلةِ انفجار العيون في سورة البقرة. وسبحان الله منزلِ هذا القرآنَ المعجز.

ويطيبُ لي أنْ أسجلَ كلامَ الإمامِ أبي جعفر ابن الزبير الغرناطي في كتابه الفريد: «ملاك التأويل» عن التوفيقِ بين الانبجاس والانفجار:

«إنَّ الفعليْن وإن اجتمعا في المعنى، فليسا على حَد سواء. بل الانبجاسُ ابتداءُ الانفجار. والانفجارُ بعده غايةٌ له.

قال الغزنوي: الانجباسُ أولُ الانفجار.

وقال ابن عطية: انبجست: انفجرت. لكنه أخفُّ من الانفجار.

وإذا تقررَ هذا فأقول: إنَّ الواقعَ في الأعراف طلبُ بني إسرائيل من موسى عليه السلام السقيا. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾. والواردَ في البقرة طلبُ موسى عليه السلام من ربه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ..﴾.

فطلَبُهم ابتداء، فأشبهَ الابتداء. وطلبُ موسى عليه السلام غايةٌ لطلبهم، لأنه واقعٌ بعده ومرتبٌ عليه.

فأشبهَ الابتداءُ الابتداء، والغايةُ الغاية، فقيلَ جواباً لطلبهم «فانبجست»، وقيلَ إجابةً لطلبه «فانفجرت» وتناسب ذلك..»[1].

مطالبتهم بشكر الله على هذه النعم:

أَنعمَ اللّهُ على بني إِسرائيل بالماءِ الغزير، وفجَّرَ لهم العيونَ الاثنتي عشرة من الحجر، على عَددِ أَسباطهم، لكلِّ سَبط عينٌ خاصةٌ بهم: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ..﴾.

وتقسيمُ العيون إِلى اثنتي عشرةَ عيناً نعمةٌ خاصةٌ من الله عليهم، تُضافُ إِلى نعمةِ تفجيرِ الماءِ من الحجر. فلو أَخرجَ اللّهُ لهم عيناً واحدة من الحجر لكانَ مُنعماً متفضلاً عليهم، فكيفَ وقد أَخرجَ لهم اثنتي عشرةَ عيناً على عددِ أَسباطهم!! ليشربَ كلُّ سَبطٍ من عين خاصة بهم!! وذلكَ لمنعِ الازدحامِ على العين الواحدة!

وهكذا تقلَّبَ بنو إِسرائيل في صحراء سيناء بنعم اللّهِ الغامرة: نعمةِ الغمام يظلِّلُهم، ونعمةِ المنِّ والسلوى يأكلون منهما، والآن نعمةُ عيون الماء الاثنتي عشرة.

وطالَبهم اللّهُ مقابلةَ هذه النعم بشكْرِ المنعم المتفضل سبحانه، واستخدامِها في طاعته، قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

وهذه الجملةُ من الآية داخلةٌ على محذوف، والتقدير: أَنعمنا عليهم بذلك وقلْنا لهم: كلوا واشربوا من رزق الله...

ومن لطائفِ التعبير القرآني أَنه لما أَخبرَ عن الإِنعام عليهم بالمنِّ والسلوى طعاماً لهم قال معقباً على ذلك: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ..﴾ لأَنَّ المنَّ والسلوى طعامٌ مأكول، ولهذا ناسبَ أَنْ يأمرَ بالأكل وحدَه، ولا يناسبُ الكلامُ عن الشرب في تلك الآية.

---

(١) ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي ١: ٦٧ ـ ٦٨.

ولما أخبرَ عن الإنعامِ عليهم بالعيون، قال معقباً على ذلك: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾. لأنَّ الطعامَ سبقَ الحديثُ عنه، والماءُ أخبرت الآيةُ عن عيونه، ولهذا جمعَ في الأمْرِ بين الأكل والشرب.

أي: كُلوا من ذلك الطعام المكوَّنِ من المنِّ والسلوى، واشربوا من هذا الماءِ المتفجرِ من العيون. فذلك الطعامُ من رزقِ الله، وهذا الماءُ من رزقِ الله.

ونهيهم عن عثوهم في الأرض مفسدين:

ولما أَرشدَهم اللّهُ إلى الأكلِ والشرب مما رزقهم، نهاهم عن استخدامِ تلك النعم في الإِفساد: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

ومعنى «عَثَا»: أفسدَ فساداً كبيراً. تقول: عَثا، يَعْثو، عَثْواً: بمعنى: أَفسدَ، يُفسد، إِفساداً.

ولم تردْ مادةُ «عَثا» إلا في صيغةِ الفعلِ المضارع المسبوقِ بحرف «لا» الناهية، واقترنَ دائماً بالإفساد. وقد وردتْ هذه المادةُ خمسَ مرات في القرآن، والمراتُ كلها وردتْ بهذه الجملة: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠. وسورة الأعراف: ٧٤. وسورة هود: ٨٥. وسورة الشعراء: ١٨٣. وسورة العنكبوت: ٣٦].

وفرْقٌ بين فعلِ «عَتَا» بالتاء، وفعْلِ «عَثَا» بالثاء.

فعلُ «عَتَا» بمعنى: عصا وتمرَّدَ وتخلى عن الطاعة. وقد وردَ عدةَ مرات في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١].

قال الراغبُ عن العَتْوِ: «العَتْوُ: النُّبُوُّ عن الطاعة، يقال: عَتا يَعتو، عُتُوّاً وعِتِيّاً».

وقال عن العَثْو: «العَثْوُ: الفساد، الذي يُدْرَكُ حكماً. يقال: عَثا، يَعْثو، عثواً. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1]».

وكأنهما خطوتان متدرجتان:

الأولى: العَتْوُ: وهو التكبرُ والانتفاشُ الذي يقودُ إلى المعصيةِ والمخالفة والخروج على الطاعة.

والثانية: هي: العَثْوُ: وهو المبالغةُ في العتو، والاستمرارُ فيه، وهو السيرُ في المعصية، ونشرُها بين الناس، وتعميمُ الفساد بينهم وإفسادهم.

ونهى اللّهُ بني إِسرائيل عن عَثْوِهم في الأرض مفسدين بعدما أَنعمَ عليهم بنعم الطعام والشراب، لأنَّ الشبعَ والرفاهَ عند غيرِ الصالح يقودان إلى نشر الفَساد في الأرض.

ومع أنَّ بني إِسرائيل قد تقلَّبوا في نعم الله، طعاماً وشراباً، شَبَعاً وريّاً وظلاًّ، إلاَّ أَنهم لم يراعوا توجيهَ الله لَهم في نهيهم عن عثوِهم مفسدين في الأرض، بل بَطروا وفَجروا في المراحلِ التالية من تاريخهم، حيث عتَوْا وتمرَّدوا، ثم عثوا في الأرض مفسدين.

ونتابعُ السيرَ مع بيانِ القرآن لموقفِ بني إسرائيل من نعم الله عليهم، لنرى: هل رَضوا بها؟ وهل شكروا اللّهَ عليها؟ أمْ مَلُّوها وكَرهوها وطلبوا تغييرَها؟.

كراهيتهم المن والسلوى وطلب تغييرهما:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا

---

(1) المفردات: ٥٤٦.

سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ [البقرة: ٦١].

لم يَقبلْ بنو إسرائيل الاستمرارَ بأكلِ المنِّ والسلوى، وطالَبوا موسى عليه السلام بتغييرِ ذلك الطعام، والإتيانِ بأصنافِ الطعامِ المختلفة التي أَلِفوها وتعوَّدوا عليها في مصر!

وقد علقَ سيد قطب على طلبهم تغييرَ الطعام بقوله: «لقد كانوا بينَ الصحراءِ بجدْبِها وصخورِها، والسماءِ بشواظِها ورجومِها. فأمّا الحجرُ فقد أنبعَ اللّهُ لهم منه الماء، وأما السماءُ فأنزلَ لهم منها المنّ والسلوى: عسلاً وطيراً..

ولكنَّ البنيةَ النفسيةَ المفككة، والجبلَّةَ الهابطةَ المتداعية، أَبتْ على القومِ أنْ يَرتفعوا إلى مستوى الغايةِ التي مِن أَجلها أُخرجوا من مصر، ومِن أَجلها ضربوا في الصحراء..

لقد أَخرجهم اللّهُ ـ على يديْ نبيِّهم موسى عليه السلام ـ من الذلّ والهوان، ليورثَهم الأرضَ المقدسة، وليرفَعهم من المهانةِ والضَّعَة.. وللحريةِ ثمن، وللعزةِ تكاليف، وللأمانةِ الكُبرى التي ناطَهم اللّهُ بها فدية. ولكنهم لا يُريدون أنْ يُؤَدوا الثمن، ولا يُريدون أنْ يَنهضوا بالتكاليف، ولا يُريدون أنْ يدفعوا الفدية.. حتى بأنْ يتركوا مألوفَ حياتهم الرتيبة الهينة، حتى بأنْ يغيروا مألوفَ طعامِهم وشرابهم، وأنْ يُكَيِّفوا أَنفسَهم بظروفِ حياتهم الجديدة، في طريقِهم إلى العزةِ والكرامةِ والحرية. إنهم يُريدون الأطعمةَ المنوعةَ التي أَلِفوها في مصر.. يريدون العدسَ والبصلَ والثومَ والقثاء.. وما إليها...»[1].

كان بنو إسرائيل دائمي التمردِ على موسى عليه السلام ومخالفتِه

(١) في ظلال القرآن ١: ٧٤.

وإيذائه، وإعلانِ عصيانه، وقد مَرَّ بنا سابقاً قولُهم له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

والآن نحنُ أَمامَ قولهم له: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾.

ونلاحظُ التعبيرَ بحرفِ «لَنْ»، الذي يدلُّ على النفيِ المؤبَّد، واستغراقِه لجميع الأوقات.

وقولهم له: لن نصبرَ على طعامٍ واحد، يدلُّ على كراهيتهم للمنِّ والسلوى، وضجرِهم منه، وإعلانٌ صريحٌ لرفضهم له.

وَعَبَّروا عن المنِّ والسَّلوى بالطعامِ الواحد، مع أَنهما صنفانِ من أصنافِ الطعام، لأَنهم رأوهما طعاماً واحداً، يقدَّمُ لهم كلَّ يوم بصورة مكررة.

«ووصفوا الطعامَ بالواحدِ مع أنه نوعان ـ المن والسلوى ـ لأَنهما طعامُ كلِّ يوم. والعربُ تقول لمن يأكلُ كلَّ يومٍ عدةَ أَلوانٍ لا تتغير: إنه يأكلُ من طعامٍ واحد»[1].

وهذا الطعامُ الذي ملّوه وكَرهوه وطالَبوا بتغييره هو ما أكرمهم اللّهُ به، فكان نعمةً وفضلاً من الله، وهو يحققُ الحاجتين الضروريتَيْن للجسم الإنساني: السكرياتُ المتمثلةُ بالمنّ، والبروتيناتُ المتمثلةُ بلحم السلوى.

وهل هناك مؤمنٌ ذو ذوقٍ سليم يرفضُ الحلوى واللحم، ولا سيما إِذا كان عطاءً مباشراً من الله؟ ولكنها الطبيعةُ الخاصةُ عند بني إسرائيل، القائمةُ على المخالفةِ والتمرد، والنزقِ والاعتراض، والاستعبادِ للإِلْفِ والعادة.

أرادوا البقول والخضروات:

ما هو البديلُ الذي يطلبونه؟ إنه الذي سجلَه قولُهم: ﴿فَٱدْعُ لَنَا

(١) تفسير المنار ١: ٣٣٠.

رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

يريدون أَصنافاً من المزروعات، التي تُزرعُ في الأراضي غير الصحراوية، يريدونها في الأَراضي الصحراوية في سيناء، والصحراءُ لا تُنبت بَقْلاً ولا قثاءً، لكنهم يريدونَها من الله، وهم يعلمون أَنَّ اللَّهَ يفعلُ ما يريد، فهو الذي أَعطاهم المنَّ والسَّلوى، وهو الذي أَنبعَ لهم عيونَ الماء من الصخر، وهو القادرُ على إِنباتِ الخضروات في الصحراء.

ومن سوءِ خطابهم لموسى قولُهم له: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾. حيثُ أَضافوا الربَّ إِليه «ربك»، ولم يقولوا: «رَبَّنا»، وهذا فيه من الوقاحةِ وسوءِ الأدب ما فيه، وقد سجَّلَ القرآنُ قولَهم لموسى «ربك» أكثرَ من مرة، في أكثرَ من موضع اعترضوا فيه على موسى عليه السلام.

وفعلُ «يُخرِجْ لنا» مجزوم، لأنه جوابُ الطلب في «فادع» وكأَنهم يأمرون أَمراً بإِخراجِ خضرواتِ الأرض.

و«مِنْ» في قولهم: «مِنْ ما تنبت الأرض» للتبعيض، فهم يريدونَ بعضَ الخضروات التي تُنبتها الأرض.

ومن الأَصنافِ التي طلبوها: البقل، والقثاء، والفوم، والعدس، والبصل.

والبَقْلُ: «نَباتٌ عشبي، يَغْتذي به الإِنسانُ أو بجزءٍ منه»[1].

والمرادُ به الخضرواتُ التي يأكلُها الناس، كالبقدونس والنعناع والجرجير والكراث والكرفس وغير ذلك، وهي تؤكلُ نِيئة، وتفتحُ الشهية، وتُعينُ على الهضم.

---

(١) المعجم الوسيط ١: ٦٦.

والقِثّاء: «نوعٌ من البطيخ، نباتي، قريبٌ من الخيار، لكنه أطولُ. واحدتُه قِثّاءَة»[1].

والقثاء هو الفقوس، وهو معروفٌ في بلاد الشام.

والفوم: اختلفَ فيه المفسرون. فقال بعضُهم هو الحنطة، وقال آخرون هو الثوم.

والراجحُ أنه الثوم. بدليلِ ذكْرِه مع العدس والبصل، فالثومُ قرينٌ للبصل، يُذكران معاً.

وإبدالُ الثاءِ فاءً شائعٌ في لغة العرب، فيقولون: جَدَث وجَدَف، وثَلغ وفَلغ، وثوم وفوم[2].

لقد كانَ ذوقُ القومِ هابطاً متدنياً، حيث رَفضوا المنَّ والسلوى، واللحمَ والحلوى، وطَلبوا الثومَ والبصلَ والعدس والبقل.

لومهم لاستبدالهم الأدنى بالخير:

ولذلك أَنكرَ عليهم موسى هذا التّدني والهبوطَ في طلب الطعام، فقالَ لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾؟.

والمعنى: «أَتطلبونَ هذه الأنواعَ الخسيسة بدلَ ما هو خير منها، وهو المنُّ والسَّلوى؟ والمنُّ فيه الحلاوةُ التي تألَفُها أغلبُ الطباع البشرية، والسَّلوى من أطيبِ لحومِ الطير، وفي مجموعها غذاءٌ تقومُ به البنية، وليس فيما طلبوه ما يساويهما لذة وتغذية...»[3].

والاستنكارُ في قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ للإنكار، ينكر عليهم موسى عليه السلام تدنّي ذوقِهم.

---

(١) المرجع السابق ٢: ٧١٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١: ٥٢٢. والمعجم الوسيط ٢: ٧٠٧.

(٣) تفسير المنار ١: ٣٣١.

والهمزةُ والسينُ والتاء في «تستبدلون» للتأكيدِ وليسَ للطلب، فهو يؤكدُ على استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير.

والاستبدال: جعلُ شيءٍ مكانَ شيء، أو تعويضُ شيء بشيء آخر.

والأَدنى هو الأقرب، ويُطلقُ على الأخسِّ والأَدْون.

وتَدخلُ الباءُ دائماً على الشيء المبدلِ منه المتروك، ويكونُ المأخوذُ المبدلُ منصوباً: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾؟.

فالذي أَخذوه واختاروه في عمليةِ التبديل هو ﴿ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ وهو في محلِّ نصبِ مفعولٍ به، وهو ما تُنبت الأرض، من البقل والقثاء..

والذي تَركوه وبَذلوه وتخلَّوا عنه هو الذي ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾، وهو الذي دخلَتْ عليه «الباء»، وهو المنُّ والسلوى.

فالقومُ استبدلوا البقلَ والقثاءَ والفومَ والعدس والبصل بالمنِّ والسّلوى، وهذا يدلُّ على سوءِ اختيارهم، ولذلك أَنكر عليهم موسى عليه السلام ذلكَ الاستبدال.

ومن الأمثلةِ على دخول الباءِ على المتروك ونصْبِ المأخوذِ في عمليةِ الاستبدالِ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النساء: ٢] أي: لا تأخذوا الخبيثَ وتتركوا الطيب.

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ..﴾ [البقرة: ١٠٨].

أي: مَن يختارُ الكفرَ ويتركُ الإيمان فقد ضل.

«اهبطوا مصراً تجدوا ما سألتم»:

وبعدما ذمَّهم موسى عليه السلام على سوء اختيارهم، وأنكرَ عليهم استبدالَ الخبيث بالطيب، قالَ لهم: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ..﴾.

وهذا من بابِ الإنكارِ عليهم ولومِهم وتوبيخِهم، على ما طلبوه من أَصنافِ الطعام المختلفة.

وكأَنه يقولُ لهم: إنَّ ما تطلبونَه من الطعامِ المنوَّعِ لا يوجَدُ هنا، فسيناءُ لا تُنبتُ هذه الأصناف، وتربتُها الصحراويَة لا تَصلحُ لذلك، إنَّ ما تريدونَه موجودٌ في الأَراضي الزراعية الخصبة، ومتوفرٌ في الأمصارِ والقرى التي يقطنها الناس.

والمرادُ بالمصر في ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾: أيُّ قطرٍ من الأَقطار، وأيُّ مصرٍ من الأمصار. وليس المرادُ بها «مصر» المعروفة، التي كانوا يقيمونَ فيها، والتي كان يحكمها فرعون.

الفرق بين «مصر» و«مصراً» في القرآن:

لقد فرَّقَ القرآنُ بين «مصرَ» البلدِ المعروف الذي يحكمه الفراعنة، وبين «مصْراً» المنونة.

«مصرُ» المعروفة، وردَتْ في القرآنِ أربعَ مرات، في هذه الآيات:

١ ـ قالَ اللّهُ عن بيعِ يوسفَ عليه السلام وهو غلامٌ في مصر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ . . .﴾ [يوسف: ٢١].

٢ ـ وقال اللّهُ عن اجتماعِ شملِ أسرةِ يعقوب عليه السلام كلِّها عند يوسفَ في مصر: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف: ٩٩].

٣ ـ وقالَ تعالى عن تكبُّرِ فرعون واغترارِه بحكم مصر: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١].

٤ ـ وقالَ تعالى عن تربيةِ بني إسرائيل على الإيمانِ أثناءَ فترة الاضطهادِ في مصر: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . .﴾ [يونس: ٨٧].

و«مضرُ» في هذه المواضع الأربعة ممنوعةٌ من الصرف، للعَلَمية والتأنيث، لأنها اسمٌ لتلك البقعة الجغرافية، وهي مؤنثةٌ تأنيثاً مجازياً.

أما «مِصْراً» بالتنوين فإنها لم تَرِدْ إلاّ في هذا الموضع من قصةِ موسى عليه السلام: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ..﴾.

والمرادُ بها: أيُّ مِصْرٍ من الأمصار، وقطْرٍ من الأقطار، وبقعةٍ من البقاع.

وهي مصروفة، لأنَّها لا يُرادُ بها بلدٌ معين، حيثُ تنطبقُ على أيِّ مصرٍ وبلد.

وهي مشتقة من «المصر»، وهو الحدُّ الحاجزُ بين شيئين.

وردَ في المعجم الوسيط: «المصرُ: الحاجزُ بين الشيئين أو بين الأرضين. والجمعُ: مُصور. يقال: اشترى الدارَ بمصورِها.

وهي الكورةُ الكبيرة، تُقامُ فيها الدورُ والأسواقُ والمدارس، وغيرها من المرافق العامة»[1].

ملازمة الذلة والمسكنة والغضب لبني إسرائيل:

قال محمد رشيد رضا في قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾:

«اهبطوا» أيَّ مصرٍ من الأَمصار، فإنكم إنْ هبطتُموه ونزلتموه وجدْتُم فيه ما سألتم. أما هذه الأرضُ التي قضى اللّهُ أنْ تُقيموا فيها إلى أجلٍ محدود فليسَ من شأنها أنْ تُنبتَ هذه البقول.

وإنَّ اللّهَ عز وجل لم يَقْضِ عليكم بالتيهِ في هذه البرية إلاّ لجبنِكم وضعْفِ عزائِمكم عن مغالبةِ مَنْ دونكم من أهل الأمصار..»[2].

(١) المعجم الوسيط ٢: ٨٧٣.

(٢) تفسير المنار ١: ٣٣١.

وبعدَ أنْ سجلت الآيةُ لومَ موسى عليه السلام لبني إسرائيل على جحودِهم نعمَ الله عليهم في الطعام والشراب، عجّلتْ بذكرِ ما أصابهم في المراحلِ التاليةِ من تاريخهم من ذلةٍ ومسكنة، بسببِ ما ارتكبوه من جرائم. قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وهكذا عَرَّفَنا القرآنُ على مظاهرِ إنعامِ اللّهِ على بني إسرائيل في صحراء سيناء، حيثُ ظلّلَهم بالغمام ليَقيهم حَرَّ الشمس، وسخَّرَ لهم المنَّ والسلوى طعاماً يأكلونه، وفجَّرَ لهم اثنتي عشرة عيناً من الحجر.

وعَرَّفَنا القرآنُ على موقفهم من هذه النعم، وهو موقفُ الجاحدِ المتمرد، حيث جَحدوها ولم يشكروا اللّهَ عليها، وطالَبوا بتغييرها وتبديلِها، واستبدلوا في طلباتِهم الذي هو أَدنى بالذي هو خير، فاستحقوا اللومَ والتوبيخَ من موسى عليه السلام.

[٦]

قصة بقرة بني إسرائيل كاشفة عن طبيعتهم

مما حدثَ لبني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام وهم في سيناء حادثةُ ذبحِ البقرة، وهي حادثةٌ كبيرة وقصةٌ عجيبة، تحوي دلالاتٍ عديدة.

أخذها من الكتاب والسنة فقط:

وقد أَشارتْ إلى هذه الحادثة آياتٌ من سورةِ البقرة. وسورةُ البقرة مدنية، وسُميتْ سورةَ البقرة لورودِ آياتٍ فيها تتحدثُ عن قصةِ البقرة، ولم تتحدثْ عن هذه القصةِ إلاّ آياتُ سورةِ البقرة.

ولم تَرِدْ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسولِ الله ﷺ تُضيفُ جديداً إلى عرضِ القرآن لأحداثِ القصة. بينما وردَتْ تفصيلاتٌ لها في الإسرائيليات، وقد أخذَ المفسرونَ والإخباريون تلك الرواياتِ الإسرائيلية، وفسَّروا بها آياتِ القرآن وأوردوها في تفاسيرهم.

ونحنُ على منهاجنا في التعاملِ مع «القصص القرآني» لا نأخذُ شيئاً من تلك الإسرائيليات، وبما أنه لا توجَدُ أَحاديثُ صحيحةٌ حول القصة، فسنبقى مع آياتِ القرآن، نحلِّلُ من خلالها أحداثَ القصة.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧٤].

خلاصة القصة:

ما نفهمُهُ من هذه الآياتِ الكريمة أنه قد وقعتْ حادثةُ قتْلٍ في بني إسرائيل، ولم يُعرف القاتل، فجاءَ أهلُ القتيل إلى موسى عليه السلام لمعرفة القاتل.

فبلَّغهم موسى عليه السلام أمْرَ الله، وقالَ لهم: إن اللّهَ يأمركم أن تذبحوا بقرة، أيةَ بقرةٍ من بين البقر.

فاستغربوا من كلامه، إذْ ما هي الصلةُ بين حادثةِ القتل وبين ذبح البقرة؟ وظنّوا أنّ موسى عليه السلام يسخرُ منهم ويهزأُ بهم، وقالوا له: أَتتخذُنا هزواً؟.

واعتبرَ موسى الهزءَ والسخريةَ بالآخرين جهلاً، ونَزَّهَ نفسَه عن ذلك، وقال: أَعوذُ بالله أنْ أكونَ من الجاهلين.

بعدَ ذلك صارَ بنو إسرائيل يتلكؤون في تنفيذِ الأَمر ويماطلون ويفاوضون، ويَطرحون على موسى أسئلةً حول البقرة، تدلُّ على مماطلتِهم وتلكؤهم.

سأَلوه عن صفاتِ البقرة. فأَخبرهم أَنها بقرةٌ وسطٌ في العمر، فلا هي عجوزٌ مسنَّةٌ هَرِمة، ولا هي بكرٌ صغيرة.

وسأَلوه عن لونها. فأخبرهم أنها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونُها.

وسأَلوه عن وظيفتِها وعملِها عند أَهلها. فأخبرهم أَنها ليستْ ذَلولاً تُستخدمُ في الحراثةِ والسقي، وإنما هي معززةٌ عند أهلها، وهي سالمةٌ من العيوبِ والنقائص، ليس فيها علامةٌ ولا أثرٌ لعيب.

وبذلك ضَيَّقوا على أنفسهم. فبَحثوا عن بقرةٍ بتلك المواصفات، وأخيراً وجدوها، وذبحوها، ونفَّذوا الأمرَ بعد المماطلةِ والمفاوضة.

ولما ذبحوها أَمرهم موسى عليه السلام أنْ يَقطعوا «بعضاً» منها، وجزءاً من أجزائها، وأنْ يَضربوا به الرجلَ القتيلَ المسجّى جثةً هامدة.

وأَجرى اللّهُ بحكمته معجزتَه الباهرة، فلما ضُرِبَ القتيلُ ببعضِ البقرة، أحياهُ الله، فنطقَ وتكلم، ثم ماتَ الموتَ الحقيقي.

ولم يتأثَّرْ بنو إسرائيل أَمامَ هذا الحدثِ المعجز المثير، الكفيلِ

بتليينِ وترقيقِ القلوب، وإنما زادتْ قلوبُهم قسوةً وصلادة، فكانت أَقسى من الحجارة الصماء!!.

هذا هو موجزُ القصة كما أَوردَتْها آياتُ القرآن، وقدْ أَوردَها القرآنُ للاعتبارِ والاتعاظ.

دلالتها على طبيعة بني إسرائيل:

قالَ الإمامُ محمد رشيد رضا عن الحكمةِ من قَصِّها علينا في القرآن: «هذه القصةُ مما أَرادَ اللّهُ تعالى أنْ يقصَّهُ علينا من أَخبارِ بني إسرائيل، في قسوتِهم وفسوقِهم، للاعتبارِ بها، ومِن وجوه الاعتبار أنَّ التنطعَ في الدين والإِحفاءَ في السؤال، مما يقتضي التشديدَ في الأحكام، فمَنْ شَدَّدَ شَدَّدَ اللّهُ عليه..»[1].

وقالَ الإمامُ محمد الطاهر بن عاشور عن ذلك: «تعرضتْ هذه الآيةُ لقصةٍ من قَصصِ بني إسرائيل، ظهرَ فيها من قلةِ التوقيرِ لنبيهم، ومن الإِعناتِ في المسألة والإلحاحِ فيها، إمّا للتّفلُّت من الامتثال، وإمّا لبُعْدِ أَفهامِهم عن مقصدِ الشارع، ورَوْمِهم التوقيفَ على ما لا قَصْدَ إليه...»[2].

أما سيد قطب فقد قالَ عن ذلك: «وفي نهايةِ هذا الدرس تجيءُ قصةُ «البقرة».. تجيءُ مفصَّلة، وفي صورةِ حكاية، لا مجردَ إشارة، ذلك أَنها لم تَرِدْ من قبلُ في السورِ المكية، كما أنها لم تَرِدْ في موضعٍ آخر. وهي ترسمُ سمةَ اللجاجةِ والتعنتِ والتلكؤ في الاستجابةِ وتمحُّلِ المعاذير، التي تتسمُ بها إسرائيل.

وفي هذه القصةِ القصيرة ـ كما يَعرضُها السياقُ القرآني ـ مجالٌ للنظرِ في جوانبَ شتى: جانبِ دلالتها على طبيعةِ بني إسرائيل وجبلَّتِهم الموروثة، وجانبِ دلالتها على قدرةِ الخالق، وحقيقةِ البعث، وطبيعةِ

---

(١) تفسير المنار ١:٣٤٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١:٥٤٦.

الموتِ والحياة، ثم جانبِ الأَداءِ الفني في عرضِ القصة بدءاً ونهايةً واتساقاً مع السياق...»[1].

وبعدَ هذا العرضِ الموجزِ للقصة، ولبعضِ عبرِها ودلالالتها، ننظرُ نظرةً إجماليةً في الآياتِ التي عرضَتْها.

الله الذي أمرهم بذبح بقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾:

لما أَخبرَ بنو إِسرائيلَ موسى عليه السلام عن حادثةِ القتل، طلبَ منهم أنْ يَذبحوا بقرة، وأَخبرهم أن اللّهَ هو الذي يأمرهم بذلك، وما دورُ موسى إلاّ في تبليغِهم وإِخبارِهم أمرَ الله.

وكأنَّ موسى عليه السلام يعلمُ تباطؤَ وتلكؤَ قومه، ولهذا أَخبرهم أنَّ هذا هو أمْرُ الله لهم، وذلك ليوجدَ عندهم الاستعدادَ الإيمانيَّ لتنفيذ أمر الله، وأيُّ مؤمنٍ صادق يُبلَّغُ بأمرٍ واجبٍ عليه من الله، فإنه يسارعُ إِلى تنفيذِ الأمر أداءً للواجب إلاّ عند بني إِسرائيل.

وكلمةُ «بقرة»: في الجملة نكرة، وهذا التنكيرُ مقصود، ويُشيرُ إِلى أنَّ الأمرَ واضحٌ مفهوم، ويُنفَّذُ الأمْرُ بذبحِ أيةِ بقرة، فلو تناولوا بقرةً من بين البقر وذَبحوها لقاموا بالواجب!

موسى يبرأ من اتهامه بالهزء:

﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؟.

تَعجبوا من هذا الأمرِ الصادرِ لهم من الله، إِذْ لم يجدوا وجْهَ اتصالٍ بينه وبين حادثةِ القتل، فماذا ينفعُ ذبحُ البقرة في التعرفِ على القاتل؟

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٧٧.

وذهبَ بهم سوءُ ظنِّهم وتوقيرِهم لموسى عليه السلام إلى الظنِّ بأنه يهزأُ ويسخرُ ويستهزئُ بهم، عندما يطلبُ منهم ذبْحَ البقرة، فخاطبوه بوقاحةٍ وجلافةٍ وسوءِ أدب، وقالوا له: أتتخذُنا هزواً؟

أي: أَتسخرُ منّا وتستهزئُ بنا عندما تطلبُ منا هذا الطلب؟

و«هُزُواً» مصدر. تقول: هَزَأَ، يَهْزَأُ، هَزْءاً وهُزُواً. بمعنى السخريةِ والاستخفافِ بالآخرين والاحتقار لهم.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ..﴾:

نفى موسى عليه السلام عن نفسه تهمةَ السخريةِ والاستهزاء بهم، واستعاذَ بالله أنْ يفعلَ ذلك، واعتبرَ هذا جهلاً وخفةً وسفهاً، وتبرأَ أَنْ يكونَ من الجاهلين.

ودلَّ هذا على أنَّ الاستهزاءَ والاستخفافَ بالآخرين جهلٌ وسَفَه، والمسلمُ الجادُّ المتواضعُ لا يفعله، ويعوذُ بالله طالباً منه العصمةَ منه، إنه جادٌّ ملتزم، قد يمزحُ لكنه لا يقولُ إلاّ حقاً، وقد يضحكُ ولكن بأدبٍ ووقار. أمّا أنْ يُحولَ حياتَه إلى سُخريةٍ وهزء، ولعبٍ ولهو، فهذا ما يتعارضُ مع رسالتِه وهدفِه في الحياة، وهو يربأُ بنفسه أنْ يفعلَ ذلك وأنْ يكونَ من الجاهلين.

وعندما سَمعوا جوابَ موسى عليه السلام ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ علموا أنَّ الأَمْرَ جدّ، وأَنه من الله، وأَنهم ملزمونَ بذبْحِ البقرة، وأنَّ لها صلةُ بحادثةِ القتل. لكن طبيعتَهم القائمةَ على التحايلِ والتباطؤ والتلكؤ تأبى عليهم المسارعةَ بتنفيذِ أمْرِ الله، ولهذا دَخلوا في «مفاوضات» وحوارٍ مع موسى عليه السلام، زعموا فيها أَنهم لا يعرفونَ المطلوبَ منهم بدقةٍ ووضوح، فما هي البقرةُ التي أُمروا بذبْحِها؟ ما هي صفتُها؟ وما لونُها؟ وما هي وظيفتُها عند أهلها؟!!

موسى يجيبهم عن عمر البقرة:

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾؟:

وقولُهم له: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وقاحةٌ أُخرى من وقاحاتهم العديدة، في كلامِم مع موسى عليه السلام، وسوءِ أدبهم في خطابهم له. إنهم أضافوا الربَّ له هو: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ..﴾! وكأنَّ اللّهَ ربُّه هو وحده، وليس رباً لهم أيضاً! فرقٌ بين قولهم: ادعُ لنا ربَّك، وبين قولهم: ادعُ لنا ربنا..

وقد مَرَّ بنا هذا التعبيرُ من قبل، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ..﴾ [البقرة: ٦١].

وهنا ذكَروها ثلاثَ مرات: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، و﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾، و﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ...﴾.

أَوهموا موسى عليه السلام بأَنهم وَقعوا في الإِبهامِ والحيرة من جهةِ عمر البقرة، فهم لم يَعرفوا هل هي صغيرةٌ أو كبيرةٌ في العمر، ولو عرفوا ذلك لذبحوها.

وطلبوا منه أنْ يسألَ اللّهَ ربَّه ويدعوه، ليبينَ لهم ما هي من جهة العمر.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾.

وبما أنَّ موسى عليه السلام يعلمُ تلكؤَ وتباطؤَ القوم، مهَّدَ للجوابِ بإِخبارهم أنَّ هذا القول والجوابَ من الله. والهاء في «إِنه» ضميرٌ يعودُ على الله. أي: قالَ موسى لهم: إن اللّهَ يقول: إنها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بكر.

حدَّدَ اللّهُ لهم عمرَ البقرة بأنها وسَطٌ بين الصغرِ والكبر، فلا هي فارضٌ هرمة، ولا هي بكرٌ صغيرة، ولكنها عوانٌ وسطٌ بين العمريْن.

و«فارض» اسمُ فاعل. فعله الماضي: فَرُضَ، بمعنى: كَبُرَ وأَسَنَّ. يقال: فَرُضَ، يَفْرُضُ، فهو فارض. بمعنى: كَبُر وشاخ[1].

و«بكر»: من باب: بَكَرَ، يَبْكُرُ، من التبكير، وهو أولُ مولودٍ للوالدين. والمرادُ به هنا أن هذه البقرةَ ليست بكراً صغيرة.

و«عَوان»: من باب: عان، يَعون، عَوْناً، والعَوانُ هي المتوسطةُ في العمر، بين الصغرِ والكبر.

والبقرةُ العونُ أنفسُ وأَفضلُ من البقرةِ الفارضِ المسنة، ومن البقرةِ البكرِ الصغيرة، ولحمها أَجودُ وأطيب.

ونفيُ الصفتيْن الفارضِ والبكرِ بحرف لا، ودخولُ «لا» على كلٍّ منهما لتأكيد النفي ولإثباتِ الصفةِ الثالثة لها وهي أنها عوانٌ متوسطةُ العمر: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

بعدَ ما بَيَّنَ لهم موسى عليه السلام عمرَ البقرةِ المطلوبة، طلبَ منهم أن يُسارعوا بالتنفيذ، والقيام بالواجب، فاللّهُ يأمرُهم ويكلفُهم، وما عليهم إلاّ الفعلُ والأداء ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

وهذا إِنكارٌ منه لتباطئِهم، ولومٌ وذمٌّ لهم، واعتراضٌ على أسئلتهم التي لا داعي لها ولا فائدةَ منها.

موسى يجيبهم عن لون البقرة:

ولا يَعرفُ بنو إسرائيل منطقَ المسارعةِ بالتنفيذ، ولذلك أَوهموا موسى عليه السلام أنهم وقعوا في إِبهامٍ جديد. صحيحٌ أَنهم عرفوا أنَّ

---

(١) المعجم الوسيط ٢:٦٨٢.

البقرةَ المطلوبةَ عَوانٌ وسطٌ بين الكبر والصغر، لكنهم لم يعرفوا ما لونُها؟!

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَآ﴾؟.

نفسُ الوقاحةِ السابقة في قولهم: ادعُ لنا ربَّك.

ونفسُ التباطؤ واللجاجةِ في سؤالهم عن اللون. وما دخْلُ اللونِ في البقرة المطلوبة؟ وما تأثيرُ لونِها على ذبحها؟ إنه لا فرقَ بين كونِ البقرة صفراءَ أَو سوداءَ أَو بيضاء! لكنها العقليةُ الإِسرائيليةُ المتفلتة!

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾.

أَخبرهم أنَّ هذا البيانَ من الله. والمعنى: إِن اللّهَ يقولُ لكم: إنَّ البقرةَ المطلوبةَ صفراءُ فاقعٌ لونها.

واحتيج إِلى تأكيدِ الصُّفرةِ بالفُقوع، وهو شدةُ الصفرة، لأنَّ صفرةَ البقر تقربُ من الحمرة غالباً، فأكَّده بالفقوع.

تقول: أصفرُ فاقع. و: أحمرُ قانٍ. و: أسودُ حالك. و: أبيضُ يَقَق. و: أخضرُ مُدْهامّ[1].

لا بدَّ أنْ يكونَ لونُ البقرة المطلوبة أصفرَ فاقعاً، وأنْ يكونَ صفارُها ناصعاً، غيرَ مخلوطٍ بأيِّ لون آخر. فليس فيها شعرةٌ غيرُ صفراءَ فاقعة.

ثم هي تسرُّ الناظرين لصفارِ لونها، لأنَّ الأصفرَ الفاقعَ جميلٌ ونادر، وبالذاتِ بين البقر.

لقد ضيَّقَ اللّهُ على بني إسرائيل عندما سألوا أسئلةَ متكلِّفة

(١) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور ١:٥٥٣.

متَمَحّلَة، وهم الآن لا بدَّ أنْ يَبحثوا عن بقرةٍ صفراءَ فاقعةِ اللون، تسر الناظرين فأين سيجدونَها؟

سؤالهم عن عمل البقرة وتشابه البقر عليهم:

ومع ذلك قادتْهم اللجاجةُ إلى سؤالٍ آخر عن منزلتِها عندَ أَصحابها، وأَوهموه أنهم وقعوا في إِبهامٍ من هذه الناحية: إنَّ التمحُّلَ والتكلفَ يقودُهم من إِبهام إلى إبهام، ومن حيرةٍ إلى حيرة.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وكأَنهم قالوا لموسى عليه السلام: أَخبرْتَنا أنَّ هذه البقرةَ عوانٌ متوسطةُ السن من حيث العمر، وأَنها صفراءُ فاقعةُ اللون، ولكن هذا البيان زادَ البقرةَ إِبهاماً وغموضاً، فلم نعرفْ ما هي البقرةُ المطلوبة.

إنَّ البقرَ تَشابَهَ واختلطَ علينا، فلم نَعُدْ نعرفُ البقرةَ المطلوبة من بين البقراتِ الصُّفْرِ العَوان. فادعُ لنا ربَّك يبينْ ما هي عند أهلها، وما منزلتُها عندهم. هل هي بقرةٌ ذلولٌ عاملة، أم هي بقرةٌ معزَّزةٌ مكرَّمة؟

إِنهم السببُ في تشابهِ البقر عليهم، فلولا أسئلتُهم المتكلفةُ لما وقَعوا في هذا الإشكال، وكان بإمكانِهم أنْ يذبحوا أيةَ بقرةٍ، وينتهي الأمر.

وإنَّ الاشتباهَ والالتباسَ والحيرة ضريبةٌ يدفعُها كلُّ مَنْ يتركُ التشريعَ الربانيَّ الميسر، ويذهبُ إلى التعقيدِ والتشديد والبحثِ عما لا فائدةَ منه.

ويحملُ قولُهم لموسى: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ معنى الاعتذار له، وكأَنهم شعروا بتأخرِهم وتلكؤهم ولجاجتهِم، وأَحَسّوا بتكلُّفهِم وتنطُّعِهم، فبرَّروا ذلك بأَنَّ البقرَ تشابهَ واختلطَ عليهم.

ووعدوا أنْ يمتثلوا الأمر ويقوموا بالواجب، بعدَ أنْ يَعرفوا منزلةَ البقرة عند أهلها.

هي معززة مكرمة عند أهلها:

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ..﴾.

اخبرهم أنَّ اللّهَ يبينُ أنَّ هذه البقرة ليستْ مذلَّلةً في حراثةِ الأرض، وليستْ مذللةً في سقيِ الحرث.

و«ذَلول» بمعنى الذليلةِ المهانةِ الضعيفة. من باب: ذَلَّ، يَذِلُّ، ذُلاً. إِذا ضعفَ وأُهين.

تقول: ذَلَّتِ البقرةُ فهي ذلول: بمعنى انقادَتْ واستسلمتْ لصاحبها[١].

ومعنى «تُثيرِ الأرض»: تَحرثُها بالمحراث، وتَقلبُ تربتَها ظَهراً لبطنٍ عندَ الحراثة.

يقال: أَثارَ الأرض. إِذا حرثَها للزراعة.

والحَرث»: هو الزرع. يقال: حَرَث، يَحْرُث، حَرْثاً: بمعنى: أَثارَ الأرض، وأَلقى فيها البذر، وخرجَ منها الزرع.

قال الإِمام الراغب: «الحَرْثُ: إِلقاءُ البذرِ في الأرض، وتهيؤُها للزرع، ويُسمى المحروث حرثاً»[٢].

ومعنى: «ولا تسقي الحرث»: أنَّ هذه البقرةَ ليست ذَلولاً مستخدمةً في سَقيِ الزرع، وجلبِ الماء له، ليقومَ صاحبُه بعد ذلك بصبِّ الماء عليه وسقيه له.

---

(١) المعجم الوسيط ١: ٣١٤.

(٢) المفردات: ٢٢٦.

والمعنى أَنها بقرةٌ عزيزةٌ نفيسةٌ عند أَصحابها، فلا يُذلونها، ولا يَستخدمونها في حراثةِ الأرض، ولا في سقايةِ الزرع.

و«ذلول»: مرفوعةٌ على أنها صفةٌ لما قبلها «بقرة».

و«تثير الأرض»: في محلِّ نصب حال. و«لا تسقي الحرث» في محلِّ نصبِ صفة أُخرى لها، وهي حالٌ آخر.

والتقدير: إِنها بقرةٌ عزيزة، غيرُ ذليلة مثيرةً للأرض، وغيرُ ذليلة ساقيةً للزرع.

ثم زادَها بياناً بقوله: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ ..﴾:

و«مُسَلَّمَة»: اسمُ مفعول، فعل الماضي: «سَلَّمَ» بالتشديد. تقول: سُلِّم. يُسَلَّم، فهو مُسَلَّم. بمعنى أَنه سَلِمَ من كلِّ نقص.

أي أنَّ هذه البقرة العزيزة سليمةٌ من جميعِ العيوب والنقائص التي قد تُصيبُ غيرَها من البقر. وهذا ما زادَها فضلاً في عيون أصحابها.

و«لاشية فيها»: مكونةٌ من: «لا» النافيةِ للجنس.

و«شِيَةَ»: اسمُ لا مبني على الفتح في محلِّ نصب. وهو من بابِ «وَشئ». تقول: وَشئ. يَشي، وَشْياً.

والشِّيَةُ هي: العلامةُ النشازُ الشاذةُ المخالفةُ لباقي لون البقرة[1].

فهذه البقرةُ صفراءُ فاقعٌ لونها، وليس فيها «شِيَةٌ» أُخرى، ولا لونٌ آخر غيرُ الأصفر.

قال الراغب: «وَشَيْتَ الشيءَ وشياً: جعلتَ فيه أَثَراً يُخالفُ معظمَ لونه. واستُعملَ الوشيُ في الكلام تشبيهاً له بالمنسوج...»[2].

---

(١) انظر المعجم الوسيط ٢: ١٠٣٥ ـ ١٠٣٦.

(٢) المفردات: ٨٧٢.

وهكذا اكتملت الحلقاتُ ضيقاً عليهم، وندرَ وجودُ بقرة بهذه الصفات، من حيثُ العمر واللون والعمل. فأين سيجدونها؟ ومتى سيجدونَها؟ وكم سيدفعون ثمنها عندما يجدونَها؟.

لكنهم هم الذين جَنَوْا وضيَّقوا على أنفسهم بهذه الأسئلةِ المتكلفة التي طرحوها، وكان بإمكانِهم أنْ يَذبحوا أيةَ بقرةٍ من أول مرة.

ونتعرَّفُ من هذه العبارةِ على أَخلاقِهم المرذولة، ووقاحتِهم البذيئة، وسوءِ أدبهم في كلامهم.

قالوا لموسى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾!!

ومَن هو موسى الذي يُخاطبونَه هكذا؟

إِنه نبيُّهم الذي يَزعمونَ الإيمانَ به، والذي أَنقذَهم من الذلِّ عند الفراعنة، والذي يبذلُ جهدَه في تربيتِهم والارتقاءِ بمستواهم.

الآنَ جئتَ بالحق! الآن فقط!! وكأنَّه قبلَ الآن لم يجئ بالحق ولم يتكلمْ بالحق، وإنما جاءَ بالباطل وتكلمَ بالباطل، وكأنَّ الحوارَ السابقَ بينَه وبينهم كانَ بالباطل!!

إِنها طبيعتُهم التي لا تفارقُهم، وإِنه أُسلوبهم في الخطابِ الذي يقومُ على الوقاحة وسوء الأدب.

ذبحوا البقرة وما كادوا يذبحونها:

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

بعدَ هذه اللجاجة، وهذا التباطؤ والتلكؤ، بحثَ بنو إِسرائيل عن البقرةِ المطلوبة، بالمواصفاتِ التي حدَّدَها لهم موسى عليه السلام، والتي أَخبرَتْنا عنها الآيات.

وأخيراً نَفَّذوا الأمر، وذَبحوا تلكَ البقرة.

إنهم ذبحوها، وكأَنَّهم ما ذَبحوها: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

ما معنى قوله: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾؟.

هم ذبحوها، لكن كادوا ما يذبحونها، وقارَبوا أنْ لا يَذبحوها، فكأَنَّهم لم يذبحوها!!

إنهم لو ذبحوها منذُ أَنْ أَمرهم موسى عليه السلام بذلك أَولَ مرة، لسارعوا في تنفيذِ الأمر، وبهذا يحققون الأجرَ والثوابَ عليه.

أما الآن، فإنَّ ذبْحهم لها قد جاءَ متأخراً، وبذلك فقدوا عنصرَ المسارعةِ في التنفيذ، وصفةَ الجنديةِ لله، والرغبةِ في الالتزامِ بأوامره، بهمةٍ وصدقٍ وجدية.

فجملة: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾: تدلُّ على حصولِ الفعل بعدَ عسرٍ ومشقة. كما تدلُّ على بطئهم في التنفيذ، ومراوغتِهم فيه، بحيث لم يُنفذوه إلاّ مُضطرين مُكرهين.

إنَّ الذي ينفذُ الأمرَ مكرهاً كأنه لم ينفذه، لأنَّ اللّهَ يريدُ من المكلفِ أنْ ينفذَ الأمرَ بتفاعلٍ وهمةٍ وحيوية، وبرغبةٍ ومحبةٍ ورضى، وأنْ يشاركَ كيانُه كلُّه لذةَ المسارعةِ في التنفيذ، والجديةِ في الالتزامِ والجندية.

أمّا إذا نفذَ المكلَّفُ الأمرَ متأخراً، وبعدَ محاولاتٍ عديدةٍ من التكاسلِ والتحايلِ والتفلت والتهرب، فإنه يكون قد نفَّذَ مكرهاً مرغماً، ويكونُ في هذه الحالة كأنه لم ينفذ.

إنَّ التي نفذتْ هي أَعضاؤه وحواسُّه، ولم تنفِّذْ نفسُه ولا روحُه،، ولم يتفاعَلْ كيانُه، ولم يستفدْ من التنفيذ قلبُه، وبذلك لم يحققْ حكمةَ التكليفِ التربوية. ولهذا يكون تنفيذُه كعدمِ تنفيذه، وفعْلُه كعدمِ فعلِه، فكأنه نَفَّذَ وما نَفَّذ!!.

وهذا المعنى يشيرُ له قولُه تعالى الذي يحددُ الحكمةَ من ذبح الأضــاحــي: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٦ ـ ٣٧].

وبما أنَّ اليهودَ لم يسارعوا في ذبح البقرة، فلم يحققوا حكمةَ الأمرِ والتكليفِ بذبحها، ولم تَزدهم جنديةً والتزاماً وعبوديةً وصدقاً، ولهذا كان ذبْحُهم لها مجردَ ذبحٍ ماديٍّ آلي، بدون فائدةٍ ولا ثمرةٍ في نفوسهم وقلوبهم وأرواحهم.

ولهذا قال: ذبحوها وما كادوا يفعلون. أي: ذَبحوها وكادوا ما يذبحونها، وأوشكوا أنْ لا يَذبحوها، وقارَبوا مِن أنْ لا يذبحوها.

«كاد»: إثباتها نفي ونفيها إثبات:

وفعل «كاد» عجيب في دلالته، فإنه إذا كان مُثْبَتاً دلَّ على عدمِ وقوع الفعل، وإذا كانَ منفيّاً دلَّ على وقوعِ الفعل!!!.

قال الإمام الراغب: «ووُضِعَ «كادَ» لمقاربة الفعل. يقال: كادَ يفعل: إذا لم يكنْ قد فَعَل. وإذا كانَ معهُ حرفُ نفيٍ يكونُ لما قد وقع، ويكونُ قريباً مِنْ أنْ لا يكون»[1].

أي أنَّ «كاد»: إثباتَها نفي، ونفيَها إثبات.

فإذا قال: كادَ فلانٌ يفعل. معناه أنه أَوشكَ أنْ يفعل، ولكنه لم يفعل.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]. فهو لم يركنْ إليهم.

(١) المفردات: ٧٢٩.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠] فالبرقُ لم يخطف أَبصارَهم.

وإذا قال: ما كادَ فلانٌ يفعل، معناه: أَنه فعل.

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]. فهم يَفقهونَ الحديثَ لكن لم يلتزموا به.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] فهو قد رأى يَدَه وسطَ الظلمات.

قال محمد الطاهر بن عاشور: «وذهبَ قومٌ إلى أَنَّ إثباتَ «كاد» يستلزمُ نفيَ الخبر.. وأنَّ نفْيَها يَصيرُ إِثباتاً، على خلاف القياس.

وقد اشتهرَ هذا بين أَهل الأَعراب، حتى أَلْغزَ فيه أَبو العلاء المعري بقوله:

أَنَحوِيَّ هَذا العَصْرِ ما هِيَ لَفْظَةٌ أَتَتْ في لِسانَيْ جُرْهُمٍ وَثَمودِ
إِذا اسْتُعمِلَتْ في صورَةِ الجَحْدِ أَثْبَتَتْ وَإِنْ أُثْبِتَتْ قامَتْ مَقامَ جُحودِ

وقد احتجّوا لذلك بقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

وهذا من غرائب الاستعمال، الجاري على خلافِ الوضعِ اللغوي..»[1].

ذبح البقرة لكشف القاتل:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

تُبينُ هذه الآيةُ سببَ أَمرِهم بذبحِ البقرة، وهو قتلُ النفس بينهم، التي لم يُعرفْ قاتلُها.

وقد أَخَّرت الآياتُ الإِخبارَ عن السبب، ولعلَّ السببَ في ذلك هو

---

(١) التحرير والتنوير ١:٥٥٨.

أنْ نقفَ على صورةٍ من رذائلِهم وسوءِ أخلاقهم، وقُبحِ مواقفِهم من أوامرِ ربهم وتوجيهاتِ أنبيائهم.

قررت الآيةُ أنهم قَتلوا نَفْساً فادّارَءوا فيها، وتَدافعوا في التهمة، فكلٌّ يَدرأُ التهمةَ ويَدفعُها عن نفسه، ويتهمُ غيرَه.

وأَرادَ اللّهُ إخراجَ ما كانوا يكتمون من القتل، وإظهارَ القاتلِ الحقيقي، عن طريقِ اعترافِ القتيل على قاتله، وذلك بإحيائِه بعدَ قتْلِه ونطقِه وتصريحِه باسمِ قاتله.

و«ادّارَأْتُم» فعلٌ ماض، أَصله: تَدارَأْتُم. فأُدغمت التاءُ في الدال وجيءَ بالهمزةِ للتسهيل، فصار: ادّارَأْتُم.

وهو من باب «دَرَأ». بمعنى: دَفَع. تقول: دَرَأَ، يَدْرَأُ، دَرْءاً، بمعنى: دفعَ الشيءَ.

تقول: دَرَأَ: دفع. ودارَأَ: دافَعَ. وتدارأ: تدافَع[1].

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

بهذه الطريقةِ الربانية المعجزةِ سيُخرجُ الله ما كانوا يكتمونه، وسيجعلُهم يتعرفون على القاتل. وسيقدّمُ لهم سبحانَه وتعالى آيةً من آياتِه الباهرة.

ضربوا القتيل ببعض من البقرة:

فلما ذبحوا البقرة، أَمرهم اللّهُ أنْ يَأْخذوا «بَعْضاً» منها، وجزءاً من جسمها، ويَفْصِلوه عنها، ثم يَضربوا به القتيلَ الميتَ أَمامهم، المسجّى على الأرض جثةً هامدة، ولْينظروا بعد ذلك الآيَةَ الربانية؟!

قَطعوا بَعضاً ميتاً، من البقرةِ المذبوحة الميتة، وضَربوا به بدنَ

---

(١) انظر المعجم الوسيط ١: ٢٧٦.

القتيلِ الميت!! قطعةَ لحمٍ ميت، يُضربُ بها جسمُ إِنسانٍ ميت!!

وما هي إلاّ لحظة، حتى فوجئوا بالرجلِ القتيلِ تَدبُّ فيه الحياة، وتَسري فيه الروح، فتحرَّكَ، وفتحَ عينيه، وفتحَ فمَه، أمامَ مفاجأة القوم ودهشتهم، ثم تكلمَ وقال: قتلني فلان!! ثم ماتَ الموتةَ الحقيقية!!

وبهذا عَرفوا القاتل، حيث أَخذوه وأَقاموا عليه الحد.

وبهذا عَرفوا الحكمةَ من أَمرِ الله لهم بذبحِ البقرة، كما عَرَفْنا نحنُ الحكمةَ من ذلك.

إنَّ اللَّهَ أَرادَ كشفَ هويةِ القاتل بهذه الطريقة، عن طريقِ إِحياءِ القاتل واعترافِه هو بلسانه وصوته.

وقد اختلفَ المفسّرونَ في تحديدِ البعضِ الذي ضَربوا به القتيل، هل هو لسانُها أو ذيلُها أو فخذُها. وهذا اختلافٌ لا داعيَ ولا ضرورةَ له، ولا فائدةَ ولا ثمرةَ منه.

ونحنُ مع الإمام الطبري في قوله: «والصوابُ عندنا من القول في تأويل قوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ﴾ أنْ يُقال: أَمرهم اللّهُ جل ثناؤه أنْ يَضربوا القتيلَ ببعضِ البقرة، ليَحيا المضروب. ولا دلالةَ في الآية، ولا في خبرٍ تقومُ به حجة، على أيِّ أبعاضِها التي أُمِرَ القومُ أنْ يَضربوا القتيلَ به.. وجائزٌ أنْ يكونَ الذي أُمِروا أنْ يَضربوه به هو الفخذ، وجائزٌ أن يكونَ ذلك هو الذَّنَب، أو غضروفَ الكتف، أو غيرَ ذلك من أَبعاضِها، ولا يضرُّ الجهلُ بأيِّ ذلكَ ضربوا القتيل، ولا ينفعُ العلمُ به، مع الإِقرارِ بأنَّ القومَ قد ضربوا القتيل ببعضِ البقرة بعد ذَبحها، فأحياهُ الله...»(١).

ويدلُّنا قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ على أنَّ ذبحَ البقرة لا يُرادُ لذاتِه، وإِنما جعلَهُ اللّهُ وسيلةً لهدف إيماني عظيم، وهو تقديمُ دليلِ

---

(١) تفسير الطبري، بعناية محمود شاكر ٢:٢٣١.

عمليٍّ على بعثِ الناس يومَ القيامة، وإحياءِ الموتى وإخراجهم من قبورهم.

والمعنى: كما أَحيا اللّهُ القتيلَ بعد ضربه بجزءٍ من البقرةِ المذبوحة فتكلمَ واعترفَ على قاتله، كذلك يحيي اللّهُ الأَمواتَ يومَ القيامة، ويُخرجُهم من قبورهم، ويَسوقُهم إِلى الحساب والجزاء.

لماذا إحياء القتيل بعد ضربه ببعضها:

وعندما نتدبرُ الحادثة فسوف نرى أنَّ من أَهدافِ الأمرِ بذبحِ البقرة وضربِ القتيل ببعضها ما يلي:

١ ـ الكشفُ عن القاتلِ الحقيقي، عن طريقِ اعترافِ القتيل نفسه، وتعريفُ بني إِسرائيل عليه.

٢ ـ إقامةُ الدليلِ العمليِّ على قدرةِ الله على إحياءِ الموتى.

٣ ـ تقديمُ آيةٍ من آيات الله ومعجزةٍ من معجزاته، ليزدادوا إيماناً بالله، وإقبالاً عليه.

٤ ـ تعريفُنا على طبيعةِ بني إسرائيل، ونظرتِهم لأوامرِ الله، وحرصِهم على التحايل عليها، والتفلتِ منها، فإنْ عجزوا عن ذلك فَرَّغوها من روحِها بالتلكؤ والتباطؤ والمماطلة.

٥ ـ تحذيرُنا من التخلقِ بأَخلاقِهم المرذولة، والاقتداءِ بهم في طبيعتهم القبيحة.

لم يَمت القتيلُ موتاً حقيقياً قبلَ ضربه ببعضِ البقرة، فلو ماتَ موتاً حقيقياً، وخَرجتْ روحُه من جسدِه حقاً، وانتهى عمرُه نهايةً حقيقية، لما أَحياهُ الله، لأنَّ سنةَ اللّهِ المطردة أنه لا يُحيي مَنْ ماتَ حقاً إلاّ عند قيامِ الساعة.

إنما كان موتُه موتاً خاصاً ظاهرياً، شابَهَ الموتَ الحقيقيَّ من حيثُ الظاهر، لكنَّه خالَفَه في الحقيقة، فما زالَ في عمرِه بقيةٌ حسبَ ما

قدَّرَ الله، ولهذا أَعادَ اللّهُ روحَه إلى جسمه بعدَ ضربه ببعضِ البقرة، وأَحياهُ لفترة، يستكملُ فيها تلكَ البقية، ثم مات موتاً حقيقياً بعد ذلك.

ومَرَّ مَعَنا من قبلُ مثالٌ لهذا الموتِ والإِحياءِ الخاصِّ في السبعين إسرائيلياً الذين أَخذتْهم الرجفةُ عند جبل الطور، وفي القوم الذين قالوا لموسى: لن نؤمنَ لك حتى نرى اللّهَ جهرة، فأَماتَهم اللّهُ بالصاعقةِ ثم أَحياهم.

قلوبهم بعد المعجزة أشد قسوة من الحجارة:

ماذا حصلَ لبني إِسرائيل بعدما شاهَدوا إِحياءَ القتيل وسمعوا كلامَه؟ ماذا كان أَثَرُ ذلك على قلوبهم؟

الجوابُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ..﴾!!

أَخبرَنا اللّهُ في هذه الآية أَنَّ قلوبَ بني إِسرائيل قستْ بعد تلك الحادثةِ المثيرةِ العجيبة، فصارَتْ قاسيةً جامدةً صلدة، تشبهُ الحجارةَ في قسوتها، بل هي أشدُّ منها قسوة.

حقاً إنَّ اليهودَ يهود، وإِنهم يملكون قلوباً يهوديةً عجيبة، وإِنَّ الإنسانَ ليتعجبُ منهم ومن قلوبهم.

لو كانت المعجزةُ الباهرةُ جرتْ أَمامَ غيرهم، لأَثَّرت في قلوبهم تأثيراً إيجابياً، حيث ترقُّ قلوبُهم وتلين، وتشفُّ وتَحيا وتُنير!

أما قلوبُ اليهود فقد تأَثَّرَتْ بالمعجزةِ الباهرة تأثراً سلبياً، حيث صارتْ قاسيةً جامدة صلدة صماء.

وإذا كانت هذه المعجزة لم تؤدِّ إلى تليينِ قلوبهم وترقيقها، فما الذي يلينُها ويرقُها إذن؟ وماذا يُرجىٰ من هذه القلوب التي هي أشدُّ قسوةً من الحجارة القاسية؟

وهناكَ فرقٌ بينَ مَنْ يساوي القلوبَ الجامدةَ بالحجارة في قسوتها، وبينَ مَنْ يجعلُ هذه القلوبَ أَقسى من الحجارة!

ولقد جعلت الآيةُ قلوبَهم أَقسى من الحجارة: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . .﴾.

و«أو» في قوله: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ للتخييرِ في الإِخبارِ عن قسوةِ قلوبهم، وما بعدَها معطوفٌ على ما قبلَها.

والمعنى: قلوبُكم مثلُ الحجارة في قسوتها، أَو هي أَقوى منها في القسوة.

ومعنى التخيير بحرفِ «أَو» في الإِخبارِ هنا. تقريرُ حقيقةِ أَنَّ المخبِرَ عن قلوبهم بالقسوة غيرُ متحامِلٍ عليهم، فقد تَثَبَّتَ وتحرّى من قسوةِ قلوبهم، فلا يُثْبِتُ لهم إلاّ ما تبيَّنَ له من قسوةِ قلوبهم..

لقد تقصّى في بحثِه واستقرائه فثبتَ له أَنَّ قلوبَهم كالحجارة في قسوتها، ثم زادَ في تقصّيه واستقرائِه، فثبتَ أَنَّ قلوبَهم أشدُّ قسوةً من الحجارة.

وكأَنَّ المعنى: ثم قستْ قلوبُ بني إسرائيل بعد ذبحِ البقرة وإحياءِ القتيل بها، فإنْ شئتُم فَسَوُّا قلوبَهم بالحجارةِ في القسوة، وإنْ شئتم فاجعلوها أَشَدَّ منها قسوة. وهي في الحقيقةِ أشدُّ قسوةً من الحجارة[1].

ثلاثة نماذج لحجارة ألين من قلوبهم:

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

يُقدِّمُ اللّهُ في الآية الدليلَ على أَنَّ الحجارةَ الجامدةَ الصماءَ أَلينُ

(١) اقتبسنا هذه الفكرة من تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١: ٥٦٤. وأعدنا صياغتها للتسهيل.

من قلوب بني إسرائيل، حتى لا يتشكك أحدٌ في أنَّ قلوبَهم أشدُّ قسوةً من الحجارة.

وأوردَ ثلاثةَ نماذج واقعيةً من حياةِ بني إسرائيل أنفسِهم، شاهَدوها بعيونهم، وشاهدَها موسى عليه السلام معهم، تدلُّ هذه النماذجُ على أنَّ الحجارةَ ألينُ من قلوبهم. وهذه النماذجُ هي:

١ ـ ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾: لقد شاهَدوا هذا بعيونِهم لما كانوا في مصر، شاهَدوا نهرَ النيل يجري وسْطَ مصر، ويعلمونَ أنه ينبعُ من الجبالِ العالية وسط أفريقيا، فالحجارةُ في جبالِ كينيا وأثيوبيا، تفجَّرَ منها نهرُ النيل وروافده.

٢ ـ ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ﴾: وشاهَدوا هذا في سيناء، عندما استسقوا موسى عليه السلام، فاستسقى اللّهَ لهم، فأمَرَه اللّهُ أنْ يضربَ بعصاه الحجر، فانفجرتْ منه اثنتا عشرةَ عيناً، على عددِ أسباطهم، فهذا الحجرُ تشققَ بأمرِ الله، وخرجَ منه الماء.

٣ ـ ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾: وشاهَدوا هذا أيضاً بعيونهم، عندما رجفَ جبلُ الطور بأمرِ الله، ورفعَه اللّهُ فوقَ رؤوسِهم. وقد أخبرهم موسى عن دكِّ جبلِ الطور وهبوطِه من خشيةِ الله، لما تجلّى اللّهُ له.

وقد تحدَّثْنا عن ذلك بالتفصيل من قبل.

ولهذا كانت الحجارةُ ألينَ من قلوب بني إسرائيل، وكانت قلوبُهم أشدَّ قسوةً من الحجارة.

طبيعة بني إسرائيل من خلال قصة البقرة:

وبهذا تكشفَتْ لنا طبيعةُ بني إسرائيل العجيبة من خلالِ قصة ذبح البقرة، وما صاحبَ ذلك من أحداثٍ ومفاجآت. ويمكنُ أنْ نستخرجَ منها ما يلي:

١ ـ محاولةُ بني إسرائيل إخفاءَ الحقائق، حيث تَدارءوا وتَدافعوا في تهمةِ القتل، وحاوَل كلٌ واحد اتهامَ غيرِه بها.

٢ ـ سوءُ أَدبهم مع موسى عليه السلام، وعدمُ توقيرِهم له، حيثُ سألوه عن البقرةِ أسئلةً لا داعي لها، وحيث قالوا له: أتتخذُنا هزواً. وقالوا له: الآنَ جئتَ بالحق.

٣ ـ عدمُ احترامِهم لأوامرِ الله وأحكامِه وتعاليمه، ومحاولةُ التهربِ منها والتحايلِ عليها.

٤ ـ تباطؤُهم وتلكؤُهم في تنفيذِ أوامرِ الله، حيث لم يَذبحوا البقرةَ إلاّ متأخرين، وهم مضطرون كارهون.

٥ ـ لجاجتُهم وكثرةُ أسئلتهم فيما لا داعيَ له ولا فائدةَ منه.

٦ ـ انشغالُهم فيما لا ينفع، وبحثُهم عما لا يُجدي..

٧ ـ اهتمامُهم بالكليات والفرعيات، والتفاتُهم إلى الهامشياتِ والثانويات، وتركُهم الضرورياتِ والأساسيات!

٨ ـ بهذه الطبيعةِ الرخوة، والنفسيةِ المائعة، استحقّوا أنْ يشددَ اللّهُ عليهم، من خلالِ صفاتِ البقرةِ المطلوب ذبْحُها.

٩ ـ وهم بذلك أَيضاً استحقوا أنْ يُعاقبهم الله عقوبةً شديدة، وهي قسوةُ قلوبهم، وهي أشدُّ من غيرها.

١٠ ـ الحجارةُ الجامدةُ صارتْ أكثرَ ليونةً ورقةً من قلوبهم، وبذلك فقدوا الحيويةَ والرقةَ من تلك القلوب.

طبيعة اليهود التفاوضية العجيبة:

ثم إنَّ قصةَ بني إسرائيل مع البقرة تعرِّفُنا على طبيعةِ اليهود الخاصة بالنسبة للمفاوضات!!

فقد سجّلت الآياتُ مفاوضاتِهم مع نبيِّهم وقائدِهم موسى عليه السلام، تلك المفاوضاتُ التي تقومُ على النَّفَسِ الطويل، وعلى التطويلِ

المقصود، والتلكؤ والتباطؤ، وإثارةِ مسائل وموضوعاتٍ تافهة ولا داعي لها.

إنهم لا يملّون ولا يسأَمون ولا يضجرون من المفاوضات، وهم يُتقنون التملصَ والتهربَ والتحايلَ فيها، وهم يتمتعونَ أثناءَها بنَفَسٍ طويل وأَعصابٍ باردة، وهم على استعدادٍ لأن يُضيعوا فيها الكثيرَ من الجهودِ والأوقات، وأنْ يَعودوا من حيثُ بدأوا مراتٍ ومرات!!

وإذا كانَ هذا ما فعلوه مع نبيِّهم موسى عليه السلام، فكيفَ سيفعلونَ في مفاوضاتِهم مع خصومهم؟؟.

إنَّ مفاوضاتِ اليهودِ المعاصرين مع العرب، وما جَرى فيها من تطويلٍ يهوديٍّ مقصود، دليلٌ على الطبيعةِ اليهودية العجيبة في التفاوض.

جرى هذا في مفاوضاتِهم مع مصر في «كامب ديفيد»، وجرى هذا في مفاوضاتِهم مع مصر بعدَ ذلك من أجلِ ملعب «طابا»، وجرى هذا في مفاوضاتِهم مع «السلطة» الفلسطينية في «أوسلو: ١» و«أوسلو: ٢»، وجرى هذا في مفاوضاتِهم مع الأردنيين والفلسطينيين في «واشنطن» وفي «وادي عربة» وفي «عمان»، وفي «العقبة» وفي غيرِ ذلك من الأماكن!

وكلّما قرأْنا عن مفاوضاتِهم مع الأطرافِ العربية المعاصرة، وما جَرى فيها من تطويلٍ وتمطيطٍ وتضييعٍ وتفاهات، نتذكَّرُ آياتِ سورة البقرة، التي بينتْ طريقتَهم في التفاوضِ مع موسى نبيِّهم عليه السلام. ونقول: اليهودُ هم اليهود، لا يتخلّونَ عن طبيعتِهم اليهودية.

وليس اللومُ لهم، فهذه طبيعتهم، ولكن اللومَ يوجَّهُ للعربِ المفاوِضين لهم، الذين لا يَعرفونَ هذه الطبيعةَ فيهم، والذين يَبنون عليها آمالاً عِراضاً، ومشروعاتٍ كباراً، وما هي إلاّ أحلامٌ وأَوهام، فلم

يأخُذوا من اليهودِ شيئاً يُذكر، ولنْ يأخذوا منهم شيئاً ذا قيمة في المستقبل!! وما المفاوضاتُ مع اليهودِ إلا مضيعةٌ للوقت والجهد، ودورانٌ في حلقاتٍ فارغة، ودخولٌ في النفق المظلم الذي لا نهايةَ له، ولا مخرجَ منه!!!.

[٧]

تيه بني إسرائيل في سيناء لنكوصهم عن الجهاد

لعلَّ هذه الحادثةَ من آخرِ ما جرى بين موسى عليه السلام وبين بني إِسرائيل في سيناء.

الخطوة التالية دخولهم الأرض المقدسة:

ذلك الجيلُ من بني إِسرائيل الذين عاشوا أَذلاءَ مضطهدين في مصر، والذين بُعِثَ فيهم موسى عليه السلام، والذين خرجوا مع موسى من مصر بعد أَحداثٍ كثيرة وقعتْ مع فرعون وآله وجنوده، والذين عاشوا مع موسى عليه السلام فترةً في سيناء، وشاهَدوا فيها من آياتِ الله ومعجزاته ما شاهدوا، وتذوَّقوا من نعمِ اللّهِ عليهم ما تذوَّقوا، والذين قابَلوا نعمَ الله بالجحود والكفران والإفساد، وارتكبوا ما ارتكبوا من مخالفات، وعصوا موسى عليه السلام وخرجوا عليه.. وقد وقفْنا على نماذجَ من كلِّ ذلك في المباحث السابقة.

وبعدما أَقاموا فترةً من الزمن في صحراء سيناء، وموسى يبذل جهدَه في تربيتِهِمْ وتهذيبهم وتقويمهم، آنَ الأوانُ لينتقلوا إِلى الخطوة التالية، وهي الجهادُ لتحريرِ الأرض المقدسة من الكافرين، وتمكينهم فيها لإيمانهم بالله.

وبعدَ إِعدادٍ وتهيئةٍ طَلبَ موسى عليه السلام منهم الجهادَ لدخول الأرض المقدسة، ولكنهم جَبُنوا وخافوا ونكصوا عن الجهاد، وتمردوا على موسى عليه السلام، فتبرأَ موسى منهم، ودعا اللّهَ عليهم..

فعاقبهم اللّهُ بالتيهِ في سيناء أربعين سنة، وحرمهم من شرفِ الجهادِ والنصر والتمكين. . .

وأوردتْ هذه الحلقةَ الأخيرةَ من حياتهم في سيناء آياتٌ من سورة المائدة.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٦].

ولم تَرِدْ أَحاديثُ صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ، تُضيفُ جديداً على هذهِ الحادثة، بينما أُوردَت الإسرائيلياتُ ورواياتُ العهدِ القديم تفصيلاتٍ كثيرة لها، منها ما هو من الأساطير والخرافات، ومنها ما هو مختلَقٌ مكذوب.

ونحن سنبقى مع هذه الآياتِ نتدبَّرُها، ونفهمُ عنها بعضَ حقائِقها ودروسِها ودلالاتها.

خلاصة قصة التيه في سيناء:

وخلاصةُ هذه الحادثة: أنَّ موسى عليه السلام قررَ أنْ يَدخلَ ببني إِسرائيلَ الأرضَ المقدسة «فلسطين»، بعد إِقامتهم فترةً من الزمن في

سيناء، فكلَّفهم بهذه المهمة الجهادية، وطلبَ منهم دخولَ الأرضِ المقدسة التي كتبها اللّهُ لهم، ونهاهم عن النكوصِ أو التراجع، وذكَّرهم بنعمِ اللّهِ عليهم في الهداية والتمكين.

لكنهم رفضوا أَمره عليه السلام، وأَخبروه أنَّ أهلَ الأرض المقدسة قومٌ جبارون أَقوياء شجعان، وأَنهم لا يَقدرون على قتالهم، ولذلكَ لَنْ يَدخلوا الأرض المقدسة إلاّ بعد أن يَخرجَ منها أَهلُها خروجاً اختيارياً، ويُسلِّموها لبني إسرائيل، ويَدعوهم إلى الدخولِ فيها!!.

وكان رجلان مؤمنان من بين بني إِسرائيل الخائفين الجبناء الناكصين، أَنعمَ اللّهُ عليهما بالإيمانِ والشجاعة وعدمِ الخوف والجبن، فرغَّبا قومَهما في الجهاد، وأَخبرَاهم أنَّ الأمرَ سهلٌ هين، وأنهم ما عليهم إلاّ الاستعدادُ والحشد، والتوكلُ على الله، وطلبُ النصر منه، ثم الزحفُ على الأرض المقدسة، ودخولُ أَبوابها على أَصحابها، فإنْ فعلوا ذلك فإنَّ اللّهَ سينصرُهم ويهزمُ أعداءَهم.

وشعرَ بنو إِسرائيل بأنهم أُحرجوا أَمامَ منطقِ وحجةِ الرجليْن المؤمنيْن، وأَرادوا إِيقافَ الحوارِ في هذا الموضوع، فأَعْلَنوها صراحةً أَمامَ موسى عليه السلام، ليقطعَ الأملَ فيهم، وليتوقفَ هو ومَنْ معه عن ترغيبهم وإِحراجهم: يا موسى: إنا لنْ ندخلَ الأرضَ المقدسةَ أبداً، ما دامَ أصحابُها فيها.

ثم توقَّحوا على موسى عليه السلام وقاحةً كبيرة، فقالوا له: بما أَنك تقولُ إنَّ اللّهَ كتبَها لنا، فاذهبْ أنتَ وربُّك إلى الأرضِ المقدسة، وقاتِلا أهلَها واهزماهم، وحَرِّراها لنا منهم، ونحن ها هنا قاعدون، ننتظرُ منك أنت وربُّك تحريرَها، وعند ذلك ندخلُها.

وشعر موسى عليه السلام بأنَّ هذا الجيلَ الجبانَ مِن قومه لا خيرَ فيه، ولم تنفعْ معه كلُّ أساليبِ التربية والإِعدادِ، فتبرأَ منهم، ودعا اللّهَ أنْ يفرقَ بينَه وبينهم، وأَخبرَ أنه لا يملكُ إلا نفسَه وأَخاه وبعضَ

الصالحين القلائل من قومه، أمّا الأغلبيةُ من قومه فهم فاسقون جبناءُ عصاةٌ أذلاء، لا يصلحون لشيء.

فأَخبرَه اللّهُ أَنه كتبَ على هذا الجيل الجبان من بني إِسرائيلَ التيهَ في أَرضِ صحراء سيناء أربعين سنة، وحرمَهم من شرفِ الجهادِ والقتال، وتحريرِ الأرض المقدسة، والتمكينِ فيها، والتمتعِ بخيراتها، وذلك بسبب جبنِهم وذلِّهم ونكوصهم وعصيانهم..

وهكذا عاش ذلك الجيلُ الجبانُ الذليلُ من بني إِسرائيلَ في صحراء سيناء أَربعين سنة، يتنقلون بين شعابها ووديانها وتلالها، ويسيرون فوق رمالها وكثبانها..

وبعدَ انقضاءِ سنواتِ التيه الأربعين، وبعد وفاةِ وانقراضِ أولئك الجبناء، وبعد نشوءِ جيلٍ جديدٍ من أبنائهم، ربّاهم موسى عليه السلام في سيناء، توجَّه بهم نحو الأرض المقدسة، وخرجَ بهم من صحراءِ سيناء..

ونقفُ وقفاتٍ موجزةً مع معاني الآيات التي عرضتْ لنا قصةَ هذا التيه.

تلخيص لمسلسل المخالفات الإسرائيلية:

مهَّدَ موسى عليه السلام لتكليفِ بني إسرائيل بالجهاد بتذكيرِهم بنعمِ الله التي أَنعمَ بها عليهم، وهذا التذكيرُ ليشكروا اللّهَ على تلك النعم، ويحافظوا عليها بتنفيذِ أحكامِ الله، فإِنْ عصوا وتمردوا فقد يُزيلُ اللّهُ عنهم تلك النعم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ويحملُ هذا التذكيرُ إِشفاقَ موسى عليه السلام من قومه، وخوفَه أنْ لا يُنفذوا أمرَ الله بالجهاد، وتوقُّعَه أنْ يتمردوا عليه ويخالفوه ويعصوه، إنه يتوقعُ ذلك منهم، لأنَّ لهم حوادثَ سابقة معه، تمردوا

وعصوا وخالفوا فيها. ولهذا توقعَ ذلك منهم الآن، فذكَّرَهم بهذه النعم الغامرة من الله.

قال سيد قطب عن هذا الموضوع ملخِّصاً مسلسلَ المخالفاتِ الإسرائيلية لموسى عليه السلام.

«وإننا لنلمحُ في كلماتِ موسى ـ عليه السلام ـ إشفاقَه من تَرددِ القوم ونكوصِهم على الأعقاب.. فلقد جَرَّبهم من قبل في «مواطنَ كثيرة»، في خطِّ سيرِ الرحلة الطويل..

جَرَّبَهم وقد أَخرجَهم من أَرضِ مصر، وحررَهم من الذلِّ والهوان، باسمِ الله وبسلطان الله الذي فرَقَ لهم البحر، وأغرقَ لهم فرعونَ وجنده، فإذا هم يمرون على قوم يعكفون على أصنامٍ لهم، فيقولون: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

وما يكادُ يغيبُ عنهم في ميقاتِه مع ربه حتى يتخذَ السامريُّ من الحليِّ التي سرقوها معهم من نساءِ المصريين عجلاً ذهباً له خوار، ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون: إنه إلهُ موسى الذي ذهبَ لميقاته!

وجَرَّبَهم وقد فجَّرَ لهم من الصخر ينابيعَ في جوف الصحراء، وأنزلَ عليهم المنَّ والسلوى طعاماً سائغاً، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمةِ مصر ـ أرضِ الذلِّ بالنسبة لهم ـ فيطلبونَ بقلَها وقثاءَها وفومَها وعدسَها وبصلَها. ولا يَصبرون عما أَلِفوا من طعامٍ وحياةٍ في سبيل العزة والخلاص، والهدفِ الأسمى الذي يسوقُهم موسى إليه وهم يتسكعون..

وجَرَّبَهم في قصةِ البقرة التي أُمروا بذبحها، فتلكؤوا وتسكعوا في الطاعة والتنفيذ.. ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

وجَرَّبَهم وقد عادَ من ميقاتِ ربِّه ومعه الألواح، وفيها ميثاقُ اللّهِ عليهم وعهدُه، فأَبوا أنْ يُعطوا الميثاقَ وأنْ يُمضوا العهدَ مع ربهم ـ بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايا ـ ولم يُعطوا الميثاقَ حتى

وجدوا الجبلَ منتوقاً فوق رؤوسهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ . . .﴾.

لقد جَرَّبَهم في مواطنَ كثيرةٍ طوالَ الطريق الطويل. . ثم ها هو على أَبوابِ الأرض المقدسة، أرضِ الميعاد التي من أَجلها خرجوا. الأرضِ التي وعدهم اللّهُ أنْ يكونوا فيها ملوكاً، وأنْ يبعثَ من بينهم الأنبياء فيها، ليظلّوا في رعايةِ الله وقدرته. .

لقد جَرَّبَهم، فحقَّ له أنْ يُشفق، وهو يدعوهم دعوتَه الأخيرة، فيحشدَ فيها ألمعَ الذكريات، وأكبرَ البُشريات، وأضخمَ المشجعات، وأشدَّ التحذيرات. . »[1].

موسى يذكرهم بثلاث نعم عليهم:

ذكَّرَ موسى عليه السلام قومَه بثلاثِ نعم أَنعمَ اللّهُ بها عليهم: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

النعمةُ الأولى: ﴿إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾: أي بعثَ اللّهُ فيكم أَنبياءَ ورسلاً، يَهدونكم إلى الحق، ويُبلغونكم شرعَ الله، ويقودونكم إلى الله.

ووجودُ الأنبياءِ في أمةٍ نعمةٌ ورحمةٌ وفضلٌ من الله، لأنها تسعدُ بقيادتهم لها، وشتانَ بين أمةٍ فيها نبيٌّ يقودُها إلى الله، وأمةٍ أُخرى ليس فيها نبي، تتخبطُ على غير هدى.

النعمة الثانية: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾: أي: أَنقذكم اللّهُ من الذلّ والاضطهادِ والاستعباد الفرعوني، وأهلكَ أعداءَكم من جنودِ فرعون وآله، ومنحكم الحريةَ والاستقلالَ بعد عهدِ الرقّ والعبودية، فصرتُم تملكونَ أَمركم وقرارَكم وإرادتكم، وهذا تمهيدٌ لتمكينِكم في الأرض، وإنشائِكم الملك فيها، وسوف تُنظمون أُمورَكم، ويكونُ فيكم الملوكُ الذين يحكمونكم ويقودونكم.

---

(١) في ظلال القرآن ٢: ٨٦٩.

قال الإمام الراغب: «والمِلْكُ ضربان:

مِلْكٌ هو التملكُ والتولّي. ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا . .﴾ [النمل: ٣٤].

ومِلْكٌ هو القوةُ على ذلك، تولّىٰ أو لم يتولَّ. ومن هذا النوعِ قولُه تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾.

فجعلَ النبوةَ مخصوصةً والمِلك عاماً. فإنَّ معنى المِلكَ ههنا هو القوةُ التي بها يترشحُ للسياسة. لا أَنه جعلَهم كلَّهم متولّين للأمر، فذلك مُنافٍ للحكمة. كما قيل: لا خيرَ في كثرةِ الرؤساء. .»[1].

إذن معنى ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾: جعلكُم مُهَيَّئين للملك، وأعدَّكم ليكون فيكم ملوكٌ منكم، في المراحلِ التالية من تاريخكم. وهذا ما حصل عندما دَخلوا الأرضَ المقدسة، وأَقاموا فيها مملكتهم، حيث كان فيهم ملوكٌ كداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام.

وليس معناها أنَّ كلَّ إنسانٍ منهم صار مَلِكاً بنفسه! فهذا مستحيل.

النعمةُ الثالثة: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

أَعطى اللّهُ بني إِسرائيل في عهدِ موسى عليه السلام ما لم يُعطِ أحداً من عالمي زمانهم، حيث أَعطاهم الهدايةَ على يدِ موسى عليه السلام، ومَنَّ عليهم بالإيمان، وأَنزلَ عليه التشريعات والأحكام، كما أَنجاهم من اضطهادِ فرعون وجنوده، ونصرَهم على أعدائهم.

فكلمةُ «العالمين» خاصةٌ بعالَمي زمانهم في عهد موسى عليه السلام، وليست عامةً مطلقةً شاملةً لجميعِ العالمين حتى قيام الساعة،

---

(١) المفردات: ٧٧٤ ـ ٧٧٥.

كما يزعمُ اليهود، ويَدَّعونَ أن اللّهَ فضَّلهم لجنسهم الإسرائيلي على جميع الناس، وهذا مستمرٌّ حتى قيام الساعة.

قال الإمامُ ابن كثير في التفسير: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: يعني عالَمي زمانكم. فإنهم كانوا أشرفَ الناسِ في زمانهم، من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية: ١٦].

وقال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا له: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

والمقصودُ أَنهم كانوا أفضلَ زمانهم. وإلاّ فهذه الأمةُ أشرفُ منهم وأفضلُ عند الله، وأكرمُ شريعة، وأَقومُ منهاجاً، وأَكرمُ نبياً، وأَعظمُ ملكاً، وأغزرُ أرزاقاً، وأكثرُ أموالاً وأولاداً، وأوسعُ مملكة، وأدومُ عزاً. قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣][1].

وهذه النعمُ الثلاثُ مترابطةٌ متكاملة، مبنيٌّ بعضُها على بعض، فجعْلُ الأنبياءِ فيهم وإنزالُ الشريعةِ عليهم، هدايةٌ لهم وتمكينٌ واستقرار، وهذا يقودُ إلى إنشاءِ المجتمع وإيجادِ الأمة، وينتجُ عن ذلك الدولة والنظام، حيثُ الملوكُ الذين يحكمونهم ويسوسونهم، وهذا فضلٌ عظيمٌ من الله، لا يماثله فضلٌ في هذه الدنيا.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢:٣٦.

أمرهم بدخول الأرض المقدسة وحدودها:

وموسى عليه السلام ذكَّرهم بهذهِ النعم الثلاث من جملةِ نعم اللّهِ عليهم تمهيداً لتكليفِهم بالجهاد ودخولِ الأرضِ المقدسة، وليوقظَ الإحساسَ بفضلِ الله عليهم في نفوسهم، ومقابلة ذلك بتنفيذِ أوامره.

ولذلك أَتبعَ ذلك بأمره الصريح لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أَمرهم بدخولِ الأرض المقدسة دخولاً جهادياً قتالياً، لأنه كانت فيها أَقوامٌ أُخرى، من الكنعانيين والفلسطينيين، وغيرهم من الكافرين، ولا بد أنْ يقاتلوهم ليحلّوا محلَّهم.

وضمنَ لهم النصرَ على أعدائهم الكافرين، حيث أَخبرهم أنَّ الله كتبها لهم، وما عليهم إلاّ الأخذُ بالأسباب، والقيامُ بالجهاد، والنصرُ بعد ذلك حاصلٌ بإذن الله.

ونهاهم عن النكوصِ عن الجهاد، والارتدادِ على الأعقاب، والجبنِ عن القتال، فإنْ فعلوا ذلك كانوا من الخاسرين، وحرمَهم اللّهُ من شرفِ دخولِ الأرض المقدسة: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾. وهذا ما حصلَ منهم ولهم بعد ذلك.

والأرضُ المقدسةُ هي الأرضُ المباركةُ المطهرة، التي قدسَها اللّهُ وطهرها، وباركَ فيها، وجعلَ فيها البركات والخيرات، وبعثَ فيها الرسلَ والأنبياء.

هذه الأرضُ التي أَتى اللّهُ بإبراهيم عليه السلام إليها. قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وهي الأرضُ الواقعةُ بين النهريْن الإسلاميين: النيلِ والفرات، وهي بلادُ الشام بمفهومها الواسع، والتي تشملُ الآن أَربعةَ أقطار سياسية: سوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن.

قالَ معاذ بن جبل رضي الله عنه: الأرضُ المقدسة هي ما بين العريش والفرات.

وقال قتادة: هي بلادُ الشام[1].

معنى وسبب كتابة الأرض المقدسة لهم:

وما قلناه عن قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، نقوله عن قول: ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ..﴾.

فقد كتبَ اللّهُ الأرضَ المقدسة المباركةَ الواقعةَ بين النيل والفرات ـ بلاد الشام ـ لذلك الجيلِ من بني إسرائيل، الجيلِ المؤمنِ بموسى عليه السلام، وذلك تكريمٌ لهم لإيمانِهم بالله، فقد كانوا مؤمنين ـ على ما في إيمانهم من خلخلةٍ وضعف ـ وسطَ أقوامٍ من الكافرين، كالفراعنة والكنعانيين وغيرهم.

وبسببِ هذه الخصوصيةِ الإيمانية فيهم كتبَ اللّهُ لهم الأرضَ المقدسة، فإنْ فقدوا هذه الخصوصيةَ الإيمانية، وكفروا وبغوا، فَقدوا حقَّهم في الأرض المقدسة، وهذا ما حصلَ فيما بعد.

الكتابةُ كتابةٌ إيمانية، بشرطِ تحققِ الإيمان والصلاح.

وهذا ما وردَ صريحاً في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٦].

ولما كفرَ بنو إسرائيل فيما بعد، وطَغوا وبغوا وقَتلوا الرسل، انتزعَ اللّهُ الأرضَ المقدسة منهم، وأحلَّ عليهم لعنتَه ونقمته، كما وردَ

---

(١) انظر تفسير المنار ٦: ٣٢٥.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾ [الأعراف: ١٦٧ ـ ١٦٨].

وهذا تكذيبٌ لمزاعمِ اليهود وادعاءاتِهم من أنَّ اللّهَ كتبَ لهم الأرضَ المقدسة كتابةً أبديَةً، مستمرةً حتى قيام الساعة، كتبها لهم باعتبارِ جنسِهم الإسرائيلي، وملّكَهم إياها إلى يومِ القيامة، فهم أصحابُها الشرعيون، ولا بدَّ أنْ يَحرموا الآخرين منها!!

هذه مزاعمُ يهودية وأكاذيبُ صهيونية، تنقضُها تلك الآياتُ القرآنية.

إنَّ اللّهَ كتبَ لهم الأرضَ المقدسة كتابةً إيمانية، لفترةٍ زمنية محددة، وما حصلَ بعد ذلك أَنهم كفروا ففقدوا حقَّهم في الأرضِ المقدسة، وأخرجَ اللّهُ أمةَ محمد ﷺ، أمةَ الخلافةِ والرسالةِ والشهادة حتى قيامِ الساعة، فصارتْ هي الوارثةَ للأرض المقدسة، تحقيقاً لقولِ الله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

بنو إسرائيل يجبنون عن دخولها لأن أصحابها جبارون:

ماذا كان موقفُ بني إِسرائيلَ من دعوةِ موسى عليه السلام، ومن تذكيرِهم بنعمِ الله، وتكليفِهم بالجهاد، وضمان النصر؟

كان موقفُهم ناتجاً عن طبيعتِهم الخاصة، القائمةِ على الجبن والتمردِ والعصيان. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

موسى عليه السلام يقولُ لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. وهم يردّون عليه قائلين: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾!!.

هذا هو منطقُهم العجيب، وهذه هي نظرتُهم للأوامرِ والتكاليف، وهذه هي طاعتُهم لرسولهم عليه السلام!!.

وَوَصفوا سكانَ الأرض المقدسة بأنهم قومٌ جبارون، أي قومٌ أقوياء ذوو جبروت، ولهذا لا قدرةَ لهم على قتالهم.

وقد أوردتْ أَسفارُ العهدِ القديم وأَساطيرُ الإسرائيليات رواياتٍ خرافيةً أُسطوريةً عن أحجامِ أولئك الجبارين العمالقة، وعن ضخامةِ أَجسامهم، وكِبَر أَشكالهم.

وتأثرَ بتلك الأساطير بعضُ المؤرخين والمفسرين، وأَوردوها في كتبهم وتفاسيرهم!!

إنَّ جملةَ: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا يلزمُ منها التجبُّرُ والجبروتُ عن طريقِ ضخامة الجسم وعظمة الصورة والشكل. فقد تجدُ جباراً متحكماً طاغياً باغياً، وهو مع ذلك ضئيلُ الجسم، صغيرُ الحجم، نحيفُ البدن، قصيرُ القامة. وقد تجدُ شخصاً ضخماً طويلاً عريضاً سميناً، وهو مع ذلك ضعيفٌ عاجز.

والذي نراه أَنَّ أجسامَ الناس في ذلك الزمن كانت متقاربة من حيثُ الشكل والحجم، سواء كانوا فراعنةً أم إسرائيليين أم كنعانيين في الأرض المقدسة، لا يكادُ يختلفُ الشخصُ عن الآخر إلا في بضعةِ سنتمترات طولاً، وبضعةِ كيلوغرامات وزناً!!

ثم إِنهم قومٌ جبارون وفقَ نظرةِ بني إسرائيل إِليهم وتقويمِهم لقوتهم، فهل بنو إِسرائيل صادقون في ذلك التقويم؟ وصائبون في تلك النظرة؟

أَلا يمكنُ أنْ يكونوا مبالِغين في التقويم؟ مضخِّمين لصورةِ الخصم؟ ليبدوا مَعذورين في عدمِ قتالهم؟. ألا يمكنُ أنْ يكونَ الدافعُ لقولهم هو جبنُهم وخوفُهم ورعبُهم؟ ألا يمكنُ أنْ يكونَ الخوفُ والجبنُ هو الذي ضخَّمَ صورةَ أعدائهم وكبَّرها، بحيث بدَتْ ـ نفسياً ـ أكبرَ مما هي عليه في الواقع؟!.

إنَّ خيالَ الجبانِ الضعيفِ يكبِّرُ له الأشياء، حتى يزدادَ منها خوفاً ورعباً، وصدقَ المتنبيّ في تصويرِ جبنِ الخائفِ الهارب:

وَضاقَتِ الأَرْضُ حَتّى كانَ هارِبُهُمْ   إِذا رأىٰ غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلاَ

دخولهم بعد خروج أصحابها منها:

بما أنَّ سكانَ الأرض المقدسة قومٌ جبارون، فإنَّ بني إسرائيل الجبناءَ لَنْ يَدخلوها إلاّ بعدَ خروج أولئك الجبارين منها: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

جُبْنُ بني إسرائيل هو الذي ضخَّمَ لهم صورةَ أعدائهم. وجبنُهم هو الذي حالَ بينهم وبين قتالهم. وجبنُهم هو الذي منعَهم من دخولِ الأرض المقدسة. وجبنُهم هو الذي جعلَهم يتصورون أنَّ الجبارين يمكنُ أنْ يَخرجوا من الأرض المقدسة بدون قتال، فجلسوا ينتظرون خروجَهم من تلقاء أنفسهم، ليدخلَ بنو إسرائيل بعد ذلك.

﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا ..﴾: بهذا النفيِ التأبيديِّ الذي يوحي به حرفُ «لن» الدالّ على التأبيد. لن ندخلَها دخولاً ذاتياً، ولن نقاتلَ القومَ الجبارين!

لن نَدخلَها حتى يَخرجوا منها، وسنبقى منتظرين خُروجَهم، فإذا خَرجوا منها دخَلْناها!!

وقد كرروا فعْلَ «يخرجوا» مرتين: ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾. والفعلُ مبنيٌّ للمعلوم. وهذا له دلالة، إنَّ بني إسرائيل يريدونَ أنْ يَخرجَ القومُ الجبارون سكانَ الأرضِ المقدسة خُروجاً ذاتياً إرادياً اختيارياً، بدونِ أنْ يُكرهَهم أحدٌ على الخروج، أَو يقومَ بإخراجهم!

هذه نظرةُ اليهودِ الجبناء للنصرِ والتمكين. إنَّ اللّهَ وعدهم الأرضَ المقدسة وكتبها لهم، ولكنهم يُريدونها بدونِ قتال، وينتظرون خروجَ أَصحابها منها، ليحلّوا محلَّهم فيها!!

وهذه نظرةُ كلِّ كسولٍ جبانٍ ذليل! على اختلافِ الزمان والمكان! وما هكذا تُحارَبُ الأقوام، ولا هكذا تُحرَّرُ البلدان! فما عهِدْنا قوماً منتصرين يتخلَّون عن انتصارهم طائعين، ويتركونَ أَرضهم مختارين، ويخرجون منها منسحبين، ليسلِّموها لكسالى جبناء ذليلين!!.

والملاحَظُ أنَّ نظرةَ ذلك الجيل الجبان من بني إِسرائيل لدخول الأرض المقدسة في ذلك الزمان، هي نفسُها نظرةُ الجبناء الكسالى المهزومين من العربِ والمسلمين المعاصرين، لتحرير فلسطين التي احتلَّها اليهودُ وأَقاموا عليها دولتَهم.

ولسانُ حالِ هؤلاء العرب والمسلمين الضعفاءِ والجبناءِ في موقفهم من تحرير فلسطين يقول: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾!!.

وبينما جبُنَ بنو إِسرائيل عن دخولِ الأرضِ المقدسة عن طريقِ الجهاد، وأَعلنوا عصيانَهم لموسى عليه السلام، فقد كان هناك أَقليةٌ قليلةٌ فيهم، عندها شجاعةٌ وجرأةٌ ورغبةٌ في القتال.

رجلان شجاعان وسط المجموع الجبان:

ووقفَ رجلان من هذه الأقليةِ ينصحان القومَ بالتخلّي عن الجبن، ويحثّانِهم على القتال، ويُبيِّنان لهم طريقَ الانتصار. قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣)﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾: وصفَهم القرآنُ بالرجولة، وهو وصْفٌ ذو دلالة في هذا المقام، إِنهما رجلان يتمتعانِ بالشجاعة والجرأة، وقد بَرَزا من بين المجموعِ الخائفِ الجبان، ولهذا وُصفا بالرجولة، التي تَعني صفاتٍ جسميةً ونفسيةً ومعنوية.

وفرْقٌ بين الرجولةِ والذكورة، فالذكورةُ صفةٌ «بيولوجيةٌ» جسمية، عكسُ الأنوثة، وهي تقومُ على مظاهرَ ماديةٍ محسوسة عند الإنسانِ الذَّكَر.

أما الرجولةُ فإنها تعني الذكورةَ الجسميةَ السابقة، وتعني صفاتٍ نفسيةً معنوية، كالقوةِ والشجاعة، والعزةِ والجرأة. فكلُّ رجلٍ ذَكَر، وليس كلُّ ذَكَر رجلًا!!

وفي مواطنِ الجهادِ والصدق يوصَفُ المؤمنون بالرجولة، كما في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ...﴾ [الأحزاب: ٢٣].

إنهما رجلان، وكأنَّ الجبناءَ الضعفاءَ الذكورَ ليسوا رجالاً!!.

ثم إنَّ القرآنَ أَبهمهما، فلم يذكر اسمَ واحدٍ منهما، كذلك هما مبهمان في السُّنَّة، حيث لم يردْ اسمُ أحدٍ منهما في الأحاديثِ الصحيحة.

وقد ذكرت الإسرائيلياتُ اسمَ كلٍّ منهما، ونقلَ ذلك عنها المفسرون والمؤرخون. ولسْنا معهم في ذلك، فمعرفةُ اسميْهما لا تزيدُنا فائدةً ولا علماً، والعبرةُ والعظةُ تتحققانِ بالوقوف أمامَ الحادثة وتدبُّرِ قولِهما لقومهما.

أَخبرَ اللّهُ عن الرجلين بقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ...﴾.

إنهما رجلانِ شجاعان لا يخافان، من بينِ الناس الآخرين ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ ويَجبنون عن القتال، ويرفضونَ دخول الأرض المقدسة مجاهدين.

وهذان الرجلان ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بعدمِ الخوف والجبن، وبعدمِ المخالفة والتمرد، وعدم النكوص والعصيان، وهي الأمراضُ التي أَصابَتْ قومَهما: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بقوةِ الإيمان، وبالعزةِ والشجاعة، وبطاعةِ موسى واتباعه، وبالرغبةِ في القتال والجهاد، بينما حُرمَ قومُهم من هذه النعمِ الربانية لجبنهم وتمردهم.

إنها نعمٌ غامرةٌ من الله على هذيْن الرجليْن، لصدقِهما مع الله،

واتباعِهما لموسى عليه السلام، وهذه يمنُّ اللّهُ بها على مَن يشاءُ من عباده! فأنْ تكونَ شجاعاً وسطَ قوم جبناء نعمةٌ من الله عليك! وأنْ تكونَ مستيقظاً بين نيام، واعياً بين مُغفَّلين، مُطيعاً بين مخالفين فضْلٌ عظيمٌ من الله عليك.

ولا يَعرفُ هذا الفضلَ إلاَّ مَنْ عاشَه! ولا هذه النعمةَ إلاّ مَنْ ذاقَها!!.

وكم حُرِمَ منها مِن مسلمي هذا الزمان، والحمدُ لله رب العالمين الذي أَنعمَ علينا، وعافانا مما ابتلى به كثيراً من الآخرين!!

دخول الباب والحرب الهجومية والضربة الأولى:

ماذا قالَ الرجلان الشجاعان لقومهما؟

قالا لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

ادخُلوا على القومِ الجبارين سكانِ الأرضِ المقدسة بابَ أرضهم، وقاتِلوهم وجاهِدوهم، وشُنّوا عليهم حَرْباً هجومية، وفاجِئوهم بها، وإذا دخلتم الأرضَ فسوفَ تهزمونَهم وتَغلبونهم، وبذلك تنفِّذون أمر الله، وتسيطرون على الأرضِ المقدسة!.

افْعلوا ذلك، وتوكَّلوا على الله وحده، وخُذوا بالأسباب، ونَفِّذوا أوامرَ الله، ثم اطلُبوا منه النصرَ والفتح بعد ذلك وسوفَ يعطيكم ما تطلبون، بعد أنْ تُنفذوا ما طَلَبَ منكم!

إنَّ قولَهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ يشيرُ إلى نظريةٍ جهاديةٍ هامة، هي نظريةُ «الحربِ الهجومية» التي قررَ الخبراءُ العسكريون أَنها طريقُ النصر، وأنَّ مَنْ أرادَ الانتصارَ على خصمه فعليهِ أنْ يبدأَ هو بالهجوم، ويوجِّهَ لخصمه «الضربةَ الأولى» القوية، التي تشلُّ خصْمَه وتحطمُ قوتَه.

وهذا هو هديُ رسولِنا محمد ﷺ في حربه للأَعداء، فكان هو الذي «يَدخلُ عليهم الباب»، ويبدأُ بالهجوم، ويفاجئُهم بغزوِ بلادهم.

هذا ما فعلَه ﷺ عندما غزا يهودَ بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وعندما فاجأَ يهودَ خيبر، وفاجأَ المشركين يومَ فتحِ مكة.

وهذا ما وعاهُ الصحابةُ رضوان الله عليهم، حيث كانوا في جهادِهم الكافرين يبدءونَ بالضربةِ الأولى، ويَدخلون عليهم الباب، فكانَ الكفارُ يفاجَئون وينهزمون.

وقد أَرسى عليُّ بنُ أَبي طالب رضي الله عنه هذه النظرية القرآنية في جملتِه الرائعة الصادقة: «ما غُزِيَ قومٌ في عُقْرِ دارِهم إلاّ ذُلُّوا...».

وقد خالفَ العربُ والمسلمون المعاصرون هذه النظرية القرآنية، التي صدَّقَها فعلُ رسول الله ﷺ وحركةُ أصحابه المجاهدين، ولم يَبدءوا في حروبِهم المعاصرة مع اليهود بالهجوم، ولم يَدخلوا عليهم الباب، ولم يُفاجئوهم بالضربةِ الأولى. وإنما سمحوا لليهود أَن يبدءوا هم بذلك، ورضوا هم أنْ يتلقَّوا الضربةَ الأُولى القاصمةَ القاضية، وما يتبعُها من ضرباتٍ متلاحقة. ولهذا كانت نتائجُ معاركهم المعاصرةِ مع اليهود ما نعرفُه ويعرفُه الآخرون!

الجبناء لن يدخلوا الأرض المقدسة ويعصون موسى:

ماذا كان موقفُ المجموعِ الإسرائيليِّ الجبانِ من نصائحِ الرجليْن المجاهديْن؟ زادوا في تمردِهم واستمروا في عصيانِهم، وقالوا لموسى عليه السلام جملةً فاجرة!

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أَخبروا موسى عليه السلام أَنهم لن يَدخلوا الأرضَ المقدسةَ أَبداً، ما دامَ سكانُها الجبارون فيها، فعليه أنْ يقطعَ الأملَ فيهم، وأنْ يتوقفَ عن ترغيبِهم وحثِّهم وإحراجِهم، وأنْ لا يُتعبَ نفسَه في ذلك فمهما حاولَ معهم فلن يستجيبوا له.

وفي قولهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ عدةُ مؤكِّداتٍ لعدمِ دخولهم:

«إنَّ»: حرفُ التوكيد.

«لن»: حرفُ النفيِ الدالُّ على التأبيد.

«أبداً»: الظرفُ الدالُّ على التأبيد المؤكد له.

«إنا لن ندخلها»: الجملةُ الاسميةُ الدالة على الثبات: نحنُ غيرُ داخلين فيها.

وقيَّدوا هذا النفيَ المؤبدَ بإقامةِ أصحابِها فيها: ﴿مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾.

وهم بهذا النفيِّ المؤبَّدِ قرروا وانتهوا، لقد دفعهم جبنُهم وخوفُهم إلى رفضِ القتال والجهاد، واختيارِ القعود والنكوص والتخلفِ والتمرد.

ولما شعروا أنهم مُحْرَجُون في الحثِّ على الجهاد والقتالِ توقَّحوا على موسى قائلين: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

هكذا إذن! وهذه هي النهاية!! وهذه نتيجةُ سيرِهم الطويلِ مع موسى عليه السلام! وهذه هي طاعتُهم له: لا تطلبْ منا القتال، فنحن قرَّرْنا وانتهينا، فلنْ ندخلَها أبداً ما داموا فيها، وإذا كنتَ أنت يا موسى مصمِّماً على دخولِنا الأرض المقدسة، فاذهبْ أنت وربُّك، فقاتِلا سكانَها الجبارين، واهزماهم، وحَرِّراها لنا، ووجِّها لنا الدعوةَ بعد ذلك لدخولها!! إنا هاهنا! قاعدون بانتظارِ تحريرِكما لَها، لندخلَها بعدَ ذلك.

قال سيد قطب تعليقاً على قولهم: «... وهكذا يُحْرَجُ الجبناءُ فيتوقَّحون، ويفزعونَ من الخطرِ أَمامهم، فيرفسونَ بأرجلِهم كالحُمُر، ولا يُقْدِمون! والجبنُ والتوقحُ ليسا متناقضيْن ولا متباعديْن، بل إنهما لصنوانِ في كثيرٍ من الأحيان. يُدفعُ الجبانُ إلى الواجبِ فيجبن، فيُحرجُ بأنه ناكلٌ عن الواجب، فيسبُّ هذا الواجبَ، ويتوقَّحُ على دعوتِه التي تكلِّفُه ما لا يريد!!

﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

هكذا في وقاحةِ العاجز، الذي لا تكلِّفه وقاحةُ اللسان إلاّ مدَّ اللسان! أما النهوضُ بالواجب فيكلِّفُه وخْز السنان!

﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾!..

فليسَ بربِّهم إذا كانت ربوبيتُه ستكلِّفُهم القتال!

﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

لا نريد مُلكاً، ولا نريدُ عزاً، ولا نريدُ أرضَ الميعاد... ودونَها لقاءُ الجبارين!

هذه هي نهايةُ المطافِ بموسى عليه السلام. نهايةُ الجهدِ الجهيد والسفرِ الطويل. واحتمالِ الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل...»[١].

وقد اقتدى الضعفاءُ الجبناءُ من المسلمين المعاصرين بهذا الموقفِ الإسرائيليِّ الجبان، فعندما يُرَغِّبهم العلماءُ والدعاةُ والمجاهدون في الجهادِ والقتالِ لتحرير البلاد، يَرفضون ويجبنون، ويَختارون القعودَ والنكوص والذلةَ والهوان، ولسانُ حالهم يرددُ قولَ بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾!!

يقولون: إنْ كنتم صادِقين في أنَّ اليهودَ سيخرجون من فلسطين، وأَنه سيتمُّ تحريرُها، فاذهبوا أَنتم وربُّكم، وقاتِلوا اليهود وحَرِّروا فلسطين، أما نحنُ فإنا هاهنا قاعدون، ننتظرُ تحريرَها لندخلَها!!.

بين موقفهم الجبان وموقف الصحابة العظيم:

وبينما خذلَ بنو إسرائيل موسى عليه السلام وتخلَّوا عنه، ورفضوا دعوتَه لهم للقتال، فإنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ قد وقفوا معه موقفاً

---

(١) في ظلال القرآن ٢: ٨٧٠ ـ ٨٧١.

رائعاً جهادياً ورجولياً، فعندما استشارَهم في قتالِ المشركين قبيلَ غزوةِ بدر، تحمّسوا واندفعَوا لقتالهم، وتذكَّروا خذلانَ بني إِسرائيل لموسى عليه السلام، وأَعلنوا أَنهم لن يكونوا مثلَهم..

روى البخاريُّ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: شَهدتُ من المقدادِ بن الأسود مشهداً، لأَنْ أكونَ صاحبَه أحبُّ إِليَّ مما عدل به. أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين فقالَ له: لا نقولُ كما قالَ قومُ موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ...﴾ ولكنّا نقاتلُ عن يمينِك، وعن شمالِك، وبينَ يديك وخلْفَك. فرأيتُ النبيَّ ﷺ أشرقَ وجْهُه وسُرَّ...»[1].

وقد وضَّحَ كلامَ المقداد ابنُ عباس رضي الله عنهما، حيث بَيَّنَ أَنه قال ذلك لما شاورَ رسولَ الله ﷺ أَصحابه...

روى ابنُ إِسحاق عن ابنِ عباس قوله: «... وأَتاهُ الخبرُ عن قريش بمسيرِهم ليمنَعوا عيرَهم. فاستشارَ الناس، وأخبرهم عن قريش. فقامَ أَبو بكر الصديق، فقالَ وأحسن. ثم قامَ عمر بن الخطاب، فقالَ وأحسن.

ثم قامَ المقدادُ بن عمرو فقال: يا رسولَ الله: امضِ لما أَراكَ الله، فنحنُ معك، واللّهِ لا نقول كما قالتْ بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، ولكن: اذهب أنت وربُّك فقاتِلا، إِنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثكَ بالحقِّ لو سِرت بِنا إلى بَرْكِ الغِماد ـ أبعد مكان في اليمن ـ لجالَدْنا معك مِن دونك حتى تبلُغَه!!...

فقالَ له رسولُ الله ﷺ خيراً، ودعا له به...»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٩٥٢. وانظر صحيح السيرة النبوية برقم: ٢٣٤.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة بسند صحيح. انظر صحيح السيرة النبوية برقم: ٢٣٣.

موسى يطلب الفرق والفصل بينه وبينهم وتوجيه ذلك:

وبعدما فُجِعَ موسى عليه السلام في قومِه الجبناء توجَّه إلى ربه، يشكو إليه قومَه، ويعلن تبرُّؤه منهم ويدعو عليهم، ويسألُ اللّهَ أنْ يفرقَ بينَه وبينَهم. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقۡ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أَعلنها موسى عليه السلام صراحةً أنه لا يملكُ إلا نفسَه وأخاه هارون النبي عليه السلام.

وهذا يدلُّ على أنَّ أخاه هارونَ عليه السلام كان معه حتى هذه المرحلةِ من إقامةِ بني إسرائيل في سيناء، يساعدُه في إدارةِ أُمورِ بني إسرائيل.

متى نفضَ موسى عليه السلام يديْه من قومه؟ بعد سنواتٍ طويلة قضاها معهم، في مصر وفي سيناء، وبعدَ جهودٍ مضنيةٍ بذلَها في تربيتهم وتقويمهم، وبعد خبرةٍ طويلةٍ بهم. وقد واجهوا جهودَه بمخالفةٍ وتمردٍ ووقاحة وعصيان.

فتبرأَ منهم، وأَعلنَ أنه لا يملكُهم، ولا يثقُ بهم، ولا يضمنُهم، ولا يَقدرُ على أنْ يُكلفَهم ويطلبَ منهم الالتزامَ والتنفيذ، ولا يستطيعُ أن يَحملَهم على الطاعةِ والتطبيق، فما عادوا يطيعونه ولا يسمعون له.

﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾: ربِّ إني لا أَملكُ أَمْرَ أَحدٍ أَحملُه على طاعتك إلاّ أمرَ نفسي، وأمْرَ أخي هارون، ولا أَثقُ بغيرِنا أنْ يُطيعَك في اليسرِ والعسر والمنشط والمكره..[1].

وبما أَنهم أعلنوا عصيانَه جهاراً، وتمردوا عليه علانية، فما عاد هناك اتصالٌ ولا صلةٌ بينه وبينهم، لذلك دعا ربَّه أنْ يفرقَ ويفصلَ بينه وبينهم: ﴿فَٱفْرُقۡ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

---

(١) تفسير المنار ٦: ٣٣٥.

والفرقُ هو الفصل.

كانوا مجتمعين متصلين مع بعضِهم البعض، وحاولَ موسى في هذا الاتصالِ والاجتماعِ أنْ يُربيهم ويرتقيَ بهم، لكنهم خذلوه ولم يتجاوبوا معه، فلم يبقَ إلاّ الافتراقُ والانفصالُ بينه وبينهم.

إنه نبيٌّ رسولٌ عليه السلام، وأَخوه نبيٌّ عليه السلام، ومَن معهما مِن الصالحين قلائلُ مطيعون لهم، مخلصون لله. لكنَّ القطاعَ الأكبرَ من بني إسرائيل والأكثريةَ فيهم فاسقون، خارجون على الطاعة، متمردون على الحق، اختاروا طريقَ الباطل والضلال، فما الذي يربطُهم بموسى وأَخيه؟ وما الداعي لأنْ يَستمروا يَعيشون معاً بعد اختلافِ الطريقين؟

لا لقاءَ بينَهم بعد ذلك، فلم يبقَ إلاّ الفرقُ والفصلُ، والبراءةُ والمفاصلة، ولهذا قالَ موسى عليه السلام: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

قال سيد قطب: «وإنه ليعلمُ أنَّ ربَّه يعلمُ أنه لا يملكُ إلا نفسَه وأَخاه.. ولكنَّ موسى في ضعفِ الإنسان المخذول، وفي إيمانِ النبيِّ الكليم، وفي عزمِ المؤمنِ المستقيم، لا يجدُ متوجَّهاً إلاّ لله، يشكو بثَّه ونجواه، ويطلبُ إليه الفرقةَ الفاصلةَ بينه وبين القوم الفاسقين..

فما يربطُه بهم شيءٌ بعد النكولِ عن ميثاق الله الوثيق. ما يربطه بهم نسب، وما يربطُه بهم تاريخ، وما يربطُه بهم جهدٌ سابق، إنما تربطُه بهم هذه الدعوةُ إلى الله، وهذا الميثاقُ مع الله، وقد فَصَلوه.. فانبتَّ ما بينَه وبينهم إلى الأَعماق، وما عادَ يربطُه بهم رباط.. إنه مستقيمٌ على عهدِ الله وهم فاسقون، إنه مستمسكٌ بميثاق الله وهم ناكصون..

هذا هو أَدبُ النبي، وهذه هي خطةُ المؤمن، وهذه هي الآصرةُ التي يَجتمعُ عليها أو يتفرقُ المؤمنون.. لا جنسَ، لا نسبَ، لا قومَ، لا لغةَ، لا تاريخ. لا وشيجةَ من كلِّ وشائج الأرض، إذا انقطعتْ

وشيجةُ العقيدة، وإذا اختلفَ المنهجُ والطريق..»[1].

استجابَ اللّهُ دعاءَ نبيِّه موسى عليه السلام، ففرَّقَ بينه وبين جموعِ بني إسرائيل الفاسقين، وعاقَبهم لتخلفِهم ونكوصِهم، وجبنهم وخوفهم، فحرمَ عليهم دخولَ الأرضِ المقدسة أربعين سنة، يتيهون فيها في الأرض!

عقابهم بالتيه في الصحراء أربعين سنة وحكمته ودلالته:

قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾:

حرمَ اللّهُ أولئكَ الجبناء من شرفِ الجهادِ والتمكين وتحريرِ الأرض المقدسة والتمتعِ بخيراتها، لأنهم نكصوا عن الجهاد. وكتبَ عليهم التيهَ في صحراء سيناء مدةَ أربعين سنة.

﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ﴾: الأرضُ المقدسةُ محرمةٌ عليهم، ممنوعون من دخولها. والتحريمُ هنا هو التحريمُ الفعليُّ العام، الذي يعني الامتناعَ عنها، وليس هو التحريمَ الشرعيَّ التكليفي الخاص.

و﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾: يَسيرونَ في أرض سيناء لمدةِ أربعين سنة، تائهين في شِعابها ووديانها وتلالها وكثبانها، مُحتارين لا يَعرفون أين يسيرون، ولا إلى أينَ ينتهي سيرُهم.

يقال: تاهَ، يَتيه، تِيهاً: إذا ضلَّ وتحيَّر.

والتيه: الصحراءُ التي ليسَ فيها علامةٌ يُهتدىٰ بها، فيتيهُ ويضلُّ ويَحتارُ سالكُها[2].

وكتبَ عليهم التيهَ في مجاهلِ صحراء سيناء لمدةِ أربعين سنة، ليموتَ ذلك الجيلُ الجبانُ من بني إسرائيل، فأربعونَ سنة كافيةٌ لموتِ

---

(١) في ظلال القرآن ٢:٨٧١.

(٢) المعجم الوسيط ١:٩٢.

ذلك الجيل الذي لم تنفعْ معه كلُّ وسائلِ موسى عليه السلام، للارتقاء بهم.

وينشأُ خلال هذه المدة جيلٌ جديدٌ من أبنائهم، يعيشون حياةَ العزةِ والكرامة والحرية، ويَذوقون شظفَ العيش وشدتَه وخشونتَه، وهم يتحركون في الصحراء، فيصلبَ عودُهم وتقوى نفوسُهم، فيسارعوا بالجهادِ والقتال!!

إن اللّهَ يعلمُ أنَّ الجهادَ لا يقومُ به إلاّ رجالٌ أشداءُ أقوياء، ولذلك اختارَ صحراءَ سيناء ببيئتِها القاسية وظروفِها الصعبة وحياتها الشاقة، لتكون «مَخْضَناً» ينشأُ فيه الجيلُ الجديد، ويُعَدُّ فيه إِعداداً جهادياً خاصاً.

ومعنى هذا أَنه لا بدَّ من التخلّي عن مظاهرِ الترفِ والبذخ والإسراف، والخروجِ من حياةِ اللهو والعبث، وتركِ التنعُّم الفاجر والرفاهِ القاتل، وعدمِ العبودية للأهواء والكماليات، حتى يعرفَ الجيلُ المعَدُّ للجهادِ وظيفتَه، وحتى ينشأَ على الرجولةِ والعزة والجهاد.

ولا بدَّ من تركِ الجيل الجبان، لأَنه يُتعبُ المربّين ولا يتجاوبُ معهم، ويجبُ أنْ توجَّهَ الجهودُ والطاقاتُ لجيلٍ جديد، لتثمرَ وتؤتيَ أُكُلَها.

ولماذا يبقى بعضُ الدعاةِ في زماننا يُتعبون أَنفسَهم ويُضيعونَ جهودَهم في مخاطبةِ أُناس جبناء، ومطالبتِهم بالجهادِ والتحرير؟ مع أَنَّ المخاطَبين لا يَفهمون هذه اللغة، ولا يسمعون هذا الصوت، ولا يَستجيبون لهذا النداء!

عليهم أنْ يُوفروا جهودَهم وأَوقاتَهم، وأنْ يُوَجِّهوها لإِعدادِ جيلٍ جديدٍ إعداداً جهادياً، كما فعلَ موسى عليه الصلاة والسلام!!.

لا تأس على القوم الفاسقين:

ولما أخبرَ اللّهُ موسى عليه السلام بحكمهِ على بني إسرائيل بالتيهِ

أربعين سنة واساه وسَرّى عنه، وقالَ له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

ومعنى «لا تأسَ»: لا تحزن. يقال: أَسِيَ، يَأْسَى، أَسىً: بمعنى: حزِنَ، يحزَن، حُزناً.

يَنهى اللّهُ موسى عليه السلام عن الأَسى والحزنِ على قومه، لأنهم فاسقون خارجون على أَحكامِ الله، عاصون له، متمردون على نبيه.

وقد ذُكرتْ كلمةُ «الفاسقين» مرتيْن في هذه القصة:

المرة الأولى: عندما تمرَّدوا على موسى عليه السلام، فتبرأَ منهم، وطلبَ من الله أنْ يفصلَ بينه وبينهم: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. حيث حكمَ عليهم بأَنهم فاسقون، وشهدَ لهم بأنهم فاسقون.

والمرةُ الثانية: عندما استجابَ اللّهُ لدعوتِه، ففصلَ بينه وبينهم، وحكمَ عليهم بالتيه، ونهاهُ عن الأسىٰ عليهم، لأنهم فاسقون.

فالأُولى: بيانٌ لسببِ تمرّدِهم وعصيانِهم ونكوصهم، فهم فعلوا ذلك لأَنهم فاسقون. والثانية: بيانُ سببِ ما أَوقعَ اللّهُ بهم من عقوبة، فما فعلَ ذلك بهم إلاّ لأَنّهم فاسقون.

هم فاسقونِ ولذلك تبرأَ موسى منهم، وهم فاسقون ولذلك كتبَ اللّهُ عليهم التيه، وهم فاسقون ولذلكَ لا يتأَسَّفُ موسى ولا يأسىٰ ولا يحزنُ عليهم.

إنَّ موسى عليه السلام لم يُقَصِّرْ في تربيتِهم، ولكنهم أَبوا أنْ يَستجيبوا له، لأَنهم فاسقون، فلماذا يأسىٰ على القومِ الفاسقين؟ هلْ يستحقّون أنْ يَحزنَ عليهم؟؟.

تعليق ابن كثير ورشيد رضا على قصة التيه:

وقد علقَ الإمامُ ابنُ كثير على هذه القصة بقوله: «وهذه القصةُ تضمنتْ تقريعَ اليهود، وبيانَ فضائِحهم، ومخالفتِهم لله ولرسوله، ونكولِهم عن طاعتهما فيما أَمراهم به من الجهاد، فضعفتْ أنفسُهم عن مصابرةِ الأَعداء ومجالدتِهم ومقاتلتِهم، مع أنَّ بينَ أَظهُرِهم رسولُ الله ﷺ وكليمُه وصفيُّه من خلقِه في ذلك الزمان، وهو يَعِدُهُم بالنصرِ والظفرِ بأعدائهم.. هذا مع ما شاهَدوه من فعلِ اللّهِ بعدوِّهم فرعون من العذاب والنكال والغرقِ له ولجنوده...»[1].

أما محمد رشيد رضا فقد علقَ على هذه القصةِ بقوله: «إنَّ الشعوبَ التي تنشأُ في مهدِ الاستبداد، وتُساسُ بالظلم والاضطهاد، تفسدُ أَخلاقُها، وتذلُّ نفوسُها، ويذهبُ بأسُها، وتُضربُ عليها الذلةُ والمسكنة، وتألفُ الخضوع، وتأنسُ بالمهانة والخنوع، وإذا طالَ عليها أمدُ الظلم تصير هذه الأخلاقُ موروثةً ومكتسبة، حتى تكونَ كالغرائزِ الفطرية، والطبائعِ الخَلْقِية، إذا أَخرجْتَ صاحبَها من بيئتها، ورفعْتَ عن رقبته نيرَها، أَلْفَيْتَهُ ينزعُ بطبعِه إليها، ويتفلتُ منك ليتقحمَ فيها...»[2].

وهكذا انفصلَ موسى عليه السلام وأَخوه هارون عليه السلام بمن أَطاعَهما واتبعَهما من بني إسرائيل، انفصلا وافترقا عن الأغلبيةِ الضالةِ الفاسقة من بني إسرائيل.

وتاهَ بنو إسرائيل الفاسقون في صحراء سيناء، وصاروا يتخبطون بين شِعابِها ووديانها، في حيرةٍ وتيهٍ وضلال وضياع، لا يَعرفون ماذا يفعلون، ولا أينَ يسيرون، وهذا ما جَنَوْه على أنفسِهم، وما ظلمهم اللّهُ ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون..

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ : ٣٩.

(٢) تفسير المنار ٦ : ٣٣٧.

وبدأَ أفرادُ ذلك الجيل يموتون تباعاً، ويَخرجون من هذه الدنيا مجلَّلين بالذلِّ والضعفِ والهوان.

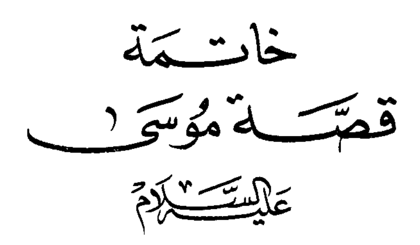
وهكذا تنتهي حياةُ موسى عليه السلام مع هذا الجيلِ من بني إِسرائيل، بعد محاولاتِه المستمرة للارتقاءِ بهم، ولكنهم لم يتجاوبوا معه، تنتهي حياتُه معهم بيأسِه منهم، وتوجُّهِه لتربيةِ أبنائهم على الخشونةِ والشدة والجهاد.

أَما هم فقد غادروا هذه الدنيا تائِهين حيارى ضائعين.

«... ويتركُهم السياقُ القرآنيُّ هنا في التيه، لا يزيدُ على ذلك... وهو موقفٌ تجتمعُ فيه العبرةُ النفسيةُ إِلى الجمالِ الفني، على طريقة القرآن في التعبير...»[1].



(١) في ظلال القرآن ٢: ٨٧١.


خاتمة
قصة موسى
عليه السلام



[١]

موسى مع الخضر عليهما السلام

حدثتْ قصةُ موسى مع الخضر عليهما السلام أَثناءَ إِقامةِ بني إِسرائيل في سيناء، ويبدو أَنها كانت في مَرْحَلَةٍ متأخرةٍ من إِقامتهم، ولعلها كانتْ بعدما فرقَ اللّهُ وفصلَ بينه وبين القومِ الفاسقين الجبناء من بني إسرائيل.

فبعدما فارقَ موسى بمن تجاوبَ معه من قومه الأغلبيةَ الناكصةَ المتمردةَ منهم، وقعتْ أَحداثُ قصتهِ مع الخضر.

آيات القصة في سورة الكهف:

وأَوردتْ بعضَ أحداثِ القصة آياتٌ من سورة الكهف، وأَضافتْ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ إِضافاتٍ إلى الآيات.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٦٠ ـ ٨٢].

وقبلَ الدخولِ في أحداثِ القصة نوردُ خلاصةَ الأحاديثِ الصحيحة التي عرضتُها، وهي التي رواها البخاريُّ ومسلم.

موجز القصة في حديث الصحيحين:

روى البخاريُّ ومسلم عن عبيدِ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبدِ الله بن عباس: أنه تمارى هو والحُرُّ بنُ قيسِ بن حصن الفزاري في صاحبِ موسى عليه السلام. فقال ابنُ عباس: هو الخضر.

فمرَّ بهما أُبَيُّ بْنُ كعبٍ رضي الله عنه، فدَعاه ابنُ عباس فقال: يا أَبا الطُّفَيْل هلمَّ إلينا، فإني قد تماريتُ أنا وصاحبي هذا، في صاحبِ موسى الذي سأل السبيلَ إلى لقِيه، فهلْ سمعتَ رسولَ الله ﷺ يذكرُ شأنَه؟

فقال أُبيُّ بن كعب: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «بينما موسى

في ملأ من بني إِسرائيل، إِذْ جاءَه رجل، فقال له: هل تعلمُ أحداً أعلمَ منك؟

قال موسى: لا!!

فأَوحى اللّهُ إلى موسى: بل عبدُنا الخضر!

فسألَ موسى السبيلَ إلى لقيه، فجعلَ اللّهُ له الحوتَ آية، وقيلَ له: إِذا افتقدتَ الحوتَ فارجع، فإِنكَ ستلقاه..

فسارَ موسى ما شاءَ اللّهُ أنْ يسير، ثم قالَ لفتاه: آتنا غداءنا!

فقال فتى موسى حين سأَله الغداء: أرأيتَ إِذْ أَوينا إِلى الصخرة، فإني نسيتُ الحوت، وما أَنسانيهُ إلاّ الشيطانُ أنْ أذكره.

فقال موسى لفتاه: ذلك ما كنّا نبغي.

فارتدّا على آثارِهما قصصاً. فوجَدا خضراً، فكان من شأنهما ما قصَّهُ اللّهُ في كتابه...»[1].

حديث في الصحيحين مفصل لأحداث القصة:

وإذا عرضَ هذا الحديثُ موجزَ القصة، فهناك حديثٌ آخرُ في الصحيحين فصَّلَ في أَحداثها.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن سعيدِ بن جبير قال: إِنّا لعندَ ابنِ عباس في بيتِه، إِذْ قال: سلوني.

قلت: أيْ أَبا عباس جعلَني اللّهُ فداءك: في الكوفةِ رجلٌ قاصٌّ يُقال له: «نَوْفُ البِكاليّ» يزعمُ أنَّ موسى عليه السلام صاحبَ بني إسرائيل ليس هو موسى صاحبَ الخضرِ عليه السلام!

فقالَ ابنُ عباس: كذبَ عدوُّ الله!

سمعتُ أُبَيَّ بْنَ كعب يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «بينما

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء برقم: ٣٤٠٠. ومسلم في كتاب الفضائل برقم: ٢٣٨٠.

موسى في قومه يُذَكِّرُهم بأيامِ الله ـ وأيامُه نعماؤُه وبلاؤه ـ فسُئل: أيُّ الناسِ أعلم؟

فقال: أنا أعلم!

فعتبَ اللّهُ عليه، إذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه.

فأَوحى اللّهُ إليه: إنَّ عبداً من عبادي بمجمعِ البحرين، هو أَعلمُ منك!

قال موسى: أيْ ربِّ، كيف لي به؟ دلَّني عليه!

فقيل له: احملْ حوتاً مالحاً في مِكْتَل، فحيثُ تفقدُ الحوت فهو ثَمَّ!

فانطلقَ، وانطلقَ معه فتاه، وهو «يوشعُ بن نون»، فحملَ موسى عليه السلام حوتاً في مكتل، وانطلقَ هو وفتاه يمشيان، حتى أَتيا الصخرة. فرقدَ موسى عليه السلام وفتاه...

فاضطربَ الحوتُ في المكتل، حتى خرجَ من المكتل، فسقطَ في البحر. وأَمسكَ اللّهُ عنه جريةَ الماء، حتى كانَ مثلَ الطاق، فكان للحوتِ سرباً، وكان لموسى وفتاه عجباً!

فانطلقا بقيةَ يومِهما وليلتِهما، ونسيَ صاحبُ موسى أنْ يُخبرَه.

فلما أصبحَ موسى عليه السلام قال لفتاه: آتِنا غداءَنا، لقد لَقينا مِن سفرنا هذا نصباً. ولم يَجِدْ موسى مَسّاً من النَّصَب حتى جاوزَ المكانَ الذي أُمِرَ به!!

فتذكَّرَ وقال: أَرأيتَ إذْ أَوينا إلى الصخرة، فإني نسيتُ الحوت، وما أَنسانيهُ إلاّ الشيطانُ أنْ أَذكره، واتخذَ سبيلَه في البحر عجباً!

قال موسى: ذلك ما كنّا نَبغي، فارتدّا على آثارِهما قَصصاً، يَقصانِ آثارَهما، حتى أَتيا الصخرة، مكانَ الحوت!

قالَ: هاهنا وُصِفَ لي، فذهبَ يَلتمس، فإذا هو بالخضر، مُسَجّى ثوباً، مستلقياً على القفا.

فسلَّمَ عليه موسى! فكشفَ الخضرُ الثوبَ عن وجهه، وقال: عليك السلام. أنّى بأرضِك السلام؟

قال: أَنا موسى!

قال: موسى بني إِسرائيل؟

قال: نعم.

قال: إنك على علم من الله، علَّمَكَهُ الله، لا أَعلمه. وأَنا على علمٍ من علمِ الله عَلَّمَنيه، لَا تعلمه!!

قالَ لَه موسى: هل أَتبعك على أنْ تُعلمني مما عُلِّمْتَ رُشداً؟

قال: إنك لن تستطيعَ معي صبراً، وكيفَ تصبرُ على ما لم تُحِطْ به خُبراً؟ شيءٌ أُمرتُ به أَنْ أَفعله، إذا رأيتَه لم تَصبر!!

قال: ستجدني إنْ شاءَ اللّهُ صابراً، ولا أَعصي لك أمراً.

قال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدثَ لكَ منه ذكراً.

قال: نعم.

فانطلقَ الخضرُ وموسى يمشيان على ساحلِ البحر، ليس لهما سفينة، فمرَّتْ بهما سفينة، فكلَّماهم أنْ يَحملوهما. فعرفوا الخضر، فحملوهما بغيرِ نَوْل.

فجاءَ عصفور، فوقعَ على حرفِ السفينة، فنقرَ نقرةً أَو نقرتين في البحر.

فقالَ الخضرُ لموسى عليهما السلام: يا موسى: ما نقصَ علمي وعلمُكَ من علمِ الله إلاّ كنقرةِ هذا العصفور في البحر!

فعمدَ الخضرُ إِلى لوحٍ من أَلواح السفينة فنزعَه!

فقالَ له موسى: قومٌ حملونا بغيرِ نَوْلٍ عمدْتَ إِلى سفينتهم فخرقْتَها، لتغرقَ أهلَها، لقد جئتَ شيئاً إِمْراً!!

قال: أَلمْ أَقلْ إِنك لن تستطيعَ معي صبراً؟

قال: لا تؤاخذْني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسراً.

ثم خَرجا من السفينة، فبينما هما يمشيانِ على الساحل إذا غلامٌ يلعبُ مع الغلمان، فأخذَ الخضرُ برأسه فاقتلعَه بيده، فقتَلَه!

فذُعِرَ موسى ذعرةً منكرة، وقال: أقتلتَ نفساً زكيةً بغيرِ نفس؟ لقد جئتَ شيئاً نكراً.

قال: ألم أقلْ لكَ إنكَ لن تستطيعَ معي صبراً؟ وهذه أشدُّ من الأُولى!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أَنه عَجَّلَ لرأى العجب، ولكنه أخذتْه مِنْ صاحبه ذِمامة!

قال موسى: إنْ سألتُكَ عن شيء بعدَها فلا تصاحبني، قد بلغْتَ مِن لدنّي عذراً.

فانطلقا. حتى إِذا أَتيا أهلَ قرية لِئاماً، فطافا في المجالس، فاستطعما أهلَها، فأَبَوا أنْ يُضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريدُ أنْ ينقضَّ فأقامَه!

قال له موسى: قومٌ أَتيناهم، فلم يُضيفونا ولم يُطعمونا، لو شئتَ لاتخذتَ عليه أجراً!!

قال: هذا فراقُ بيني وبينك. وأخذَ بثوبه وقال: سأنبئكَ بتأويلِ ما لم تستطعْ عليه صبراً.

أما السفينةُ فكانت لمساكينَ يعملونَ في البحر، فأردتُ أنْ أَعيبها، وكان وراءهم ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينة غصباً، فإذا جاءَ الذي يسخرُها وجدها منخرقةً فتجاوزها، فأَصلَحوها بخشبة.

وأما الغلامُ فطُبِعَ يومَ طُبعَ كافراً، وكان أبواه قد عطفا عليه، فلو أَنه أدركَ أَدركهما طغياناً وكفراً، فأردْنا أَن يُبْدِلَهما ربُّهما خيراً منه زكاة وأَقربَ رُحماً.

وأما الجدارُ فكان لغلامَيْن يتيمين في المدينة، وكان تحته كنزٌ لهما وكان أَبوهما صالحاً، فأرادَ ربُّك أنْ يَبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما...»[(١)].

معاني الكلمات الغريبة في الآيات والأحاديث:

ومن معاني الكلماتِ الغريبةِ في آياتِ سورة الكهف التي عرضَت القصةَ ما يلي:

مجمعُ البحرين: مكانُ التقاءِ بحريْن، وهما مُبهمان لم يُبَيَّنا ولم يُذْكَرا في الآيات والأحاديث، فلا نعرفُ موقعَ مجمعِ البحرين.

أَمضي حُقُباً: أَستمرُّ في سيري سنينَ طويلة. والحُقُب جمع، مفردُه «حِقْبَة» وهي المدةُ من الزمان التي لا تحديدَ لها.

سَرَباً: السَّرَبُ هو الطريقُ النافذ. أي أنَّ الحوتَ لما خرجَ من المكتل شقَّ طريقاً سرباً نافذاً على وجْهِ الماء.

لما جاوَزا: لما تجاوزا المكانَ المحددَ الذي سيجدُ موسى الخضرَ فيه.

نَصَباً: تعباً ومشقة.

الصخرة: هي المكانُ الذي أَخبرَ اللّٰهُ موسى أنه سيجدُ الخضرَ عنده، وهي في مجمع البحرين!

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم وكتاب الأنبياء وكتاب التفسير بالأرقام التالية: ٧٨، ١٢٢، ٣٤٠٠، ٣٤٠١، ٤٧٢٥، ٤٧٢٦، ٤٧٢٧. وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل برقم: ٢٣٨٠.

فارتدّا على آثارهما قصصاً: رجعَ موسى وفتاه في الطريق، وتوجَّها نحو الصخرة، وكانا يقصّان آثارَ أقدامِهما.

لم تُحِط به خُبراً: ليس لكَ به علمٌ ولا معرفة.

خرقَ السفينة: خلعَ الخضرُ لوحاً من ألواح السفينة.

جئتَ شيئاً إِمراً: جئتَ شيئاً فظيعاً، وهو خرقُ السفينة.

لا ترهقني من أمري عسراً: لا تُحَمِّلني مشقةً ولا عُسراً.

جئتَ شيئاً نكراً: فعلتَ شيئاً منكراً مرفوضاً، وهو قتلُ الغلام.

وراءَهم ملك: كان أمامَ أصحاب السفينة ملك.

يُرهقَهما طغياناً وكفراً: يُتْعِبَهما بظلمِه وطغيانِه وكفره عندما يكبر.

وأَقربَ رُحماً: أكثرُ رحمةً بوالديه، عن طريق بِرّه بهما وطاعتهما.

يَبلغا أَشُدَّهما: يكبَرا ويميِّزا ويكتملَ عقلُهما.

رحمةً من ربك: بناءُ الجدار لهما رحمةٌ من الله بهما لحفظ كنزهما.

ما فعلتُه عن أمري: لم أفعلْ أنا الأفعالَ الثلاثة باجتهادي، بل بأَمْرٍ من الله لي.

أمّا الحديثان اللذان أوردْناهما فنبيِّنُ معاني بعضِ كلماتهما الغريبة:

تماري: تناقشَ وتجادلَ ابنُ عباس والحُرُّ بنُ قيس في صاحبِ موسى، واختلفا، فاحتكَما إِلى أُبَيِّ بن كعب.

أبو الطفيل: هي كنيةُ أُبَيِّ بْنِ كعب رضي الله عنه.

الحوت: هو السمكة، وكانَ مشوياً مُعَدّاً للأكل فأَحياهُ الله.

أَبو عباس: كنيةُ عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما.

نَوْفُ البِكالي: كانَ في عصر التابعين، وهو من «بَكيل» القبيلةِ اليمنية المعروفة، وقد استوطنَ الكوفة، وصارَ يقصُّ ويحدِّثُ في مساجدها، وكان يتأثَّرُ بالإسرائيليات، ويوردُها في كلامه، وقد أخذَها من زوجِ أُمِّه «كعبِ الأحبار» وهو الحَبْرُ اليهوديُّ اليمنيُّ الذي أسلمَ وأدخلَ الإسرائيليات على المسلمين.

كذبَ عدوُّ الله: هذا إِنكارٌ من ابن عباس على نَوْفِ البكالي كلامَه، الذي خالفَ به ظاهرَ القرآن وصريحِ الحديث. ولا يُرادُ ظاهرُ الكلام، فلم يتهم ابنُ عباس نوفاً البكالي بالكَذبِ المتعمد، ولم يُرِدْ أنه عدوٌّ لله حقاً، وإِنما هدفَ إِلى تخطئتِه في كلامه، والمبالغةِ في الإِنكارِ عليه.

حوتاً مالحاً في مكتل: خُذْ معكَ سمكةً مملَّحة مشويةً في «سلة».

يوشع بن نون: صَرَّحَ الحديثُ بأنه هو فتى موسى الواردُ في القرآن.

كان مثل الطاق: لما سارَ الحوتُ على وجْهِ الماء، بقيَ أثره موجوداً على وجْهِ الماء، بحيثُ لم يجتمع الماءُ كما كان، وإِنما بقيَ أَثره وكأنهُ شارعٌ معبَّدٌ على وجه الأرض، وهذه معجزةٌ من الله.

مسجاً ثوباً: كان الخضرُ عليه السلام مستلقياً على ظهره، مغطّياً نفسَه بثوبه.

أنّى بأرضك السلام؟: كيف يتحققُ السلامُ على أرضك؟ ومتى؟ وكأنَّ الخضرَ يبينُ أنَّ السلامَ لن يتحققَ على الأرض.

حَملوهما بغير نَوْل: حملوهما في السفينة مجاناً، بدون أَنْ يَدفعا أُجرة.

نَقَرَ نقرةً أو نقرتين: أخذَ العصفورُ قطرةً أو قطرتين من ماء البحر بمنقاره.

ذعر موسى: خافَ موسى من قتلِ الخضر للغلام، وغضبَ منه وأنكر عليه.

أخذتْه من صاحبه ذِمامة: الذِّمامةُ الحَياء. أي: استحيا موسى من كثرةِ ما أنكرَ على الخضر.

استطعَما أهلها: طلَبا من أَهلِها الطعام، لكنهم رفضوا وأَبَوْا بسببِ بخلهم ولؤمهم.

وسنعرضُ أحداثَ قصةِ موسى مع الخضر عليهما السلام مستوحاةً من آياتِ سورة الكهفِ وأحاديثِ الصحيحين التي أَوردْناها:

موسى وسط قومه في سيناء يذكرهم بأيام الله وسبب الحادثة:

وقفَ موسى عليه السلام في قومِه بني إِسرائيل يوماً، وذلكَ لما كانوا في سيناء، وكان هذا بعدَ افتراقِ الأقليةِ الصالحةِ عن الأكثريةِ الضالة، كما رجَّحْنا من قبل.

وكان موسى عليه السلام يعملُ على تربيةِ وإِعدادِ هذه الأقليةِ الصالحة، لتنطلق للجهاد وتحرير الأرض المقدسة.

ومن وسائلِه في تربيتِه لهم أَنه كان يُذَكِّرُهم بأيامِ الله، ويحدثُهم بنماذجَ لانتقامِ اللّهِ من الكافرين والظالمين، كما فعلَ بفرعونَ وهامان وقارون، ويحدثُهم بنماذجَ من إنعامِ الله على الصالحين المؤمنين، كما فعلَ مع مؤمني بني إسرائيل. وكانَ موسى في هذا التذكيرِ المتواصلِ بأيام الله ينفذُ أمْرَ اللّهِ له، الذي أخبرَنا عنه في القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ...﴾ [إبراهيم: ٥].

وسمعَ أَصحابُه منه تذكيرَه بأيامِ الله، وأُعجبوا به وبعلمه، فسألَه أَحدُهم سؤالاً: أيُّ الناس أعلم؟

فأجابَ موسى عليه السلام: أَنا.

وكان موسى على صوابٍ في جوابه، فهو النبيُّ الرسول، وهارونُ نبيٌّ وليس رسولاً، والرسولُ أعلمُ من النبي.

وبما أَنه رسول، وليس هناكَ رسولٌ نبيٌّ غيره حسبَ علمه، فهو أَعلمُ الناس!!

إذنْ هو على صوابٍ في جوابه حسبَ ظنِّه واجتهاده.

ولكنَّ اللّهَ عتبَ عليه، لأنه نسيَ أنْ ينسبَ العلمَ إِليه. وكانَ عليه أنْ يقول: اللّهُ أعلم.

ووردَ السؤالُ بصيغةٍ أخرى: هل تعلمُ أحداً أعلمُ منك؟

فقالَ عليه السلام: لا.

لا يَعلمُ أحداً من البشر أعلمَ منه، لأنه نبيٌّ رسول، وليس هناك رسولٌ غيرُه حسب علمه واجتهاده.

ومعَ ذلك عتبَ اللّهُ عليه.

وبيَّنَ اللّهُ له قصورَ علْمِه ونقْصَ معرفته، فأخبرَه أنَّ هناك مَن هو أعلمُ منه، وقال له: عبدُنا الخضرُ هو أعلمُ منك.

حديث في سبب تسمية الخضر بذلك الاسم:

وكانَ الخضرُ مقيماً في مكانٍ آخر، لا يَعلمُ موسى عنه شيئاً، فلمْ يسبقْ له أَنْ شاهدَه أَو قابلَه.

وسببُ تسميتِه «الخضر» أنَّ الفروةَ البيضاء صارَتْ خضراءَ لما جلسَ عليها.

روى البخاريُّ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: إنما سميَ الخضرُ خضراً، لأَنه جلسَ على فروةٍ بيضاء، فإذا هي تهتزُّ تحتَه خضراء..»[1].

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٠٢. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٣٠.

وهذه معجزةٌ من الله سبحان على يدِ الخضر عليه السلام، فكانَ تحتَه فروة بيضاء، ولما جلسَ عليها اهتزَّتْ وتحركَت، وتحوَّلَ لونُها من الأبيض إلى الأخضر، ولذلك سُميَ «الخضر»، لأنهُ السببُ في تغييرِ لونِ الفروة!

والراجحُ أنَّ الخضرَ عليه السلام نبي، مع أنَّ الآياتِ لم تصرِّحْ بنبوته، كما لم تصرحْ بذلك الأحاديثُ الصحيحة. ولكنَّ سياقَ قصتِه في القرآن وحقيقةَ الأفعالِ التي قامَ بها يرجحُ نبوتَه، والله أعلم.

لكنَّ نبوتَه بالاجتهادِ لا بالنص، ولذلك لا يَكْفُرُ منكرُ نبوته، لعدمِ وجودِ نصٍّ صريحٍ بذلك.

كما أنَّ الراجحَ أنَّ الخضرَ قد ماتَ في عهدٍ سحيق، كما يموتُ باقي البشر، وكانت وفاتُه قبلَ رسولِ الله ﷺ بوقْتٍ طويل. والذين قالوا إنه ما زال حياً حتى الآن لا يَملكون دليلاً نقلياً ولا نصاً صريحاً على ذلك، وكلامُهم عاطفيٌّ غيرُ علمي ولا موضوعي، فهو مرجوحٌ مردودٌ والله أعلم[1].

ولا تقدمُ لنا مصادرُنا الإسلاميةُ اليقينيةُ أيةَ معلوماتٍ إضافية عن الخضر عليه السلام، إضافةً على ما وردَ في آياتِ سورةِ الكهف والأحاديثِ الصحيحة التي أوردْناها!!

ونعودُ إلى موسى عليه السلام.

موسى يتوجه نحو مجمع البحرين:

فلما أَخبرَه اللّهُ أنَّ الخضرَ أعلمُ منه، شعرَ بتسرُّعِه في الجواب، وندمَ على كلامِه، ورغبَ في أنْ يذهبَ إلى الخضر ليتعلمَ منه، وذلك من بابِ حرصه على طلبِ العلم.

---

(١) انظر خلاصة موجزة لهذا الموضوع في الأحاديث الصحيحة للشيخ إبراهيم العلي: ١٦٨ ـ ١٧٣.

فطلبَ موسى من الله أنْ يدلَّه على مكانِ وجوده. فأَخبرَه اللّهُ أنَّ الخضرَ بمجمعِ البحرين.

«مجمع البحرين»: هذا ما وردَ في القرآنِ والحديث بإبهام، بدونِ بيانٍ ولا تفصيل.

هناك بَحران اثنان، قريبان جدّاً من بعضِهما في نقطةٍ معينة، تفصلُ بينَهما قطعةٌ من اليابسة، هذه القطعةُ هي مجمعُ البحرين.

أما تحديدُ مجمعِ البحرين على الخارطةِ الجغرافية فلا نقدرُ عليه لعدمِ وجودِ دليلٍ نعتمدُ عليه، كما لا نقدرُ على تحديدِ اسمي البحرين، لنفسِ السبب، ولا يضرُّنا الجهلُ باسم البحرين ولا مجمع بينهما، ولا تزيدُنا معرفةُ ذلك علماً، ولو كانَ في تحديدِ ذلك خيرٌ لحدَّدَهُ اللّهُ سبحانه.

لكنَّ موسى عليه السلام لما سمعَ «مجمع البحرين» عرفَ البحريْن، وعرفَ مجمعَ بينهما.

ولم يعرفْ موسى عليه السلام كيفَ يصلُ إلى مجمع البحرين، ولا كيفَ يلتقي مع الخضرِ هناك، فطلبَ من اللّهِ أنْ يدلَّه على الطريقةِ والوسيلة!

يوشع بن نون فتى موسى والراجح عدم نبوته:

كان مع موسى فتاهُ العبدُ الصالح «يوشعُ بن نون» أحدُ العابدين الصالحين الصادقين من بني إسرائيل. ولم يَرِدْ اسمُ يوشع بن نون في غير هذه الأحاديث.

واختلفَ العلماءُ في نبوَّتِه، فذهبَ فريقٌ من العلماءِ إلى أنه نبي، واعتمدوا على حديثٍ صحيحٍ غيرِ صريحٍ لرسول الله ﷺ.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «غزا نبيٌّ من الأَنبياء. فقالَ لقومه: لا يَتبعْني منكم

رجلٌ ملكَ بضْعَ امرأة، وهو يريدُ أنْ يبنيَ بها، ولَمّا يَبْنِ بها، ولا أَحَدٌ بنى بيوتاً ولم يرفعْ سُقوفَها، ولا أحد اشترى غنماً أو خَلِفات وهو ينظرُ وِلادَها...

فغزا، فدنا من القريةِ صلاةَ العصر، أو قريباً من ذلك، فقالَ للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور! اللهمَّ احبسْها علينا!!

فحُبستْ، حتى فتحَ اللّهُ عليه...

فجمعَ الغنائم، فجاءت النارُ لتأكلَها، فلم تطعَمْها!!

فقال: إنَّ فيكم غَلولاً. فليبايعْني من كلِّ قبيلةٍ رجل!

فلزمتْ يدُ رجلٍ بيده! فقال: فيكم الغَلول! فلْتبايعْني قبيلتُك!!

فلزقَتْ يدُ رجليْن أو ثلاثة بيدهِ، فقال: فيكم الغَلول! فجاءوا برأسٍ مثلِ رأسِ بقرةٍ من الذهب، فوضَعوها، فجاءت النارُ فأكلَتْها...»[1].

فاعتمدوا هذا الحديثَ نصاً في نبوةِ يوشع بن نون.

ولكنَّ الراجحَ أنَّ الحديثَ لا ينصُّ على ذلك، ولا يشيرُ إِليه، فالراجحُ أنَّ يوشعَ بن نون ليس نبياً. والله أعلم.

وكلُّ ما يُقال: هو رجلٌ مؤمن صالح، كان متابعاً لموسى عليه السلام، ومساعداً له في قيادة بني إسرائيل ولَمَّا توفي موسى عليه السلام تولّى يوشعُ بن نون قيادة بني إسرائيل، ودخلَ بهم الأرضَ المقدسة، وافتتحَ بعضَ مدنها وقراها.

والسِّفْرُ السادسُ من أسفارِ العهدِ القديم هو «سِفْرُ يَشوع»، وهو سِفْرٌ دمويٌّ إِرهابي، كتبه اليهود، وزَعموا أنَّ يَشوع ـ وهو يوشَع عندنا ـ ارتكبَ ما فيه من مجازر.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥١٥٧. ومسلم برقم: ١٧٤٧. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٣٦.

ويوشَعُ ـ أَو يشوع ـ بريءٌ من هذا السِّفرِ الدمويِّ الإرهابي، فما كانَ إِلا رجلاً صالحاً، وفاتِحاً مجاهداً، وحاكماً عادلاً، رضي الله عنه!!

كان يوشعُ بنُ نون ملازِماً لموسى عليه السلام، ولهذا اعتبره القرآنُ فتى له.

موسى وفتاه ومعهما الحوت المملح:

طلبَ اللّهُ من موسى عليه السلام أنْ يَختارَ حوتاً من السمك، وأنْ يُملحَه بالملح، وأنْ يَضعه في «مكتل» ـ سَلَّةً من السِّلال ـ وأَنْ يصحبَ معه فتاهُ يوشعَ بن نون، وأنْ ينطلقا معاً نحو مجمعِ البحرين، للالتقاءِ بالخضر. وجعلَ له علامةً تدلُّ على أنه في المكانِ الذي فيه الخضر. فإذا وصلَ مجمعَ البحرين، وجدَ صخرةً هناك، وعندها سيعيدُ اللّهُ الحياةَ إِلى الحوت المملح، وسيخرجُ من المكتل، ويعودُ حوتاً حياً في البحر. فإذا حصلَ ذلك فسيقابلُ الخضرَ في ذلك المكان!!

نَفَّذَ موسى عليه السلام ما طلبه اللّهُ منه، وسارَ مع فتاه يوشعَ متوجِّهين نحوَ مجمع البحرين، وفتاهُ يحملُ معه الحوتَ في المكتل.

وبينما كانا يسيران أَخبرَ موسى فتاه بتصميمهِ على الوصولِ إِلى مجمع البحرين، مهما وجدَ من المشقةِ والصعوبةِ في الطريق: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾...﴾.

أي: لا أَبرحُ سائراً، ولن أَتوقَّفَ عن الرحلة، حتى أَصِلَ مجمعَ البحرين، ولو استمرَّ السيرُ حُقُباً عديدةً وسنواتٍ طويلة!!

ووصَلا مجمعَ البحرين بعدَ رحلةٍ شاقة، وانتهيا إِلى الصخرةِ التي حدَّدَها اللّهُ له، وكانا مُتْعَبين مُرْهَقين من السفر، فجلَسا عند الصخرة ليستريحا.

الحوت في البحر أثناء نومهما:

وطلبَ موسى من يوشعَ أنْ ينتبهَ للحوتِ المملَّحِ في المكتل، وأنْ يُديمَ مراقبتَه والنظرَ إليه، فإذا دبَّتْ فيه الحياة، وتحرَّكَ في المكتل فلْيخبره، لأنه سيجدُ الخضرَ في المكان!

ووضعَ يوشَعُ المكتلَ بجانبه، وأَسندَ ظهْرَه إلى الصخرة... ونامَ موسى عليه السلام، وبعدَ قليلٍ نامَ فتاه يوشَعُ أيضاً..

وبينما كانا نائمين أعادَ اللّهُ الحياةَ إلى الحوتِ الميتِ المملَّح، وهو آيةٌ من آياتِه سبحانه وتعالى. فتحركَ الحوتُ في المكتل، ثم خرجَ منه وسقطَ في البحر..

وقدمَ اللّهُ آيةً أُخرى، حيث أَبقى أثرَ سيرِ الحوتِ على وجه الماء: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

فلما كانَ الحوتُ يسيرُ على وجه الماء، كان الماءُ لا يعودُ خَلْفَه كما كان، وإِنما أَمسكَ اللّهُ الماء، وكأَنه مَسْرَبٌ واضح، وطريقٌ بَيِّنٌ على وجه الماء، كالطريقِ البين على وجْهِ الأرض.

وهذا يذكِّرُنا بآيةِ فلقِ البحر لما ضَرَبه موسى عليه السلام بعصاه، حيث صارَ فيه طريقٌ يَبَسٌ آمِن، وكان الماءُ على جانبي الطريق، كلُّ فِرْقٍ كالجبل، بدون سَدٍّ أو مانع.

فاللّهُ الذي أَمسكَ الماءَ هناك على الجانبين حتى اجتازَ جميعُ بني إسرائيل، واللّهُ هو الذي أمسكَ الماءَ هنا خلفَ الحوت، فكانَ خلْفَه كالطريقِ الواضح لمن أرادَ تتبُّعَ أَثرِ الحوت على وجه الماء!!.

خرجَ الحوتُ من المكتل وهما نائمان، وسقطَ في البحر وهما نائمان، وهذا معناه أنَّ الخضرَ في المكان، قريباً من الصخرة التي ينامان بجانبها!!

واستيقَظا من نومِهما، وأَمَرَ موسى فتاهُ بمتابعةِ السير، وتناولَ يوشعُ المكتل، وقاما يمشيان.

ونسيَ يوشَعُ أنْ يَنظرَ في المكتل، وأنْ يَتفقدَ الحوت، فلو فعلَ وتفقدَ الحوت، فسيجدُ أَنه حيٌّ في البحر، وسيخبرُ موسى بذلك، وسيقابلُ موسى الخضرَ عليهما السلام مباشرة.

لكنَّ يوشَعَ نسيَ تفقُّدَ الحوتَ فطالتْ بهما الرحلة..

عودتهما إلى الصخرة:

سارا بقيةَ ذلك اليوم، وجاءَ الليل، وسارا طيلةَ الليل، ولما جاءَ اليومُ التالي استمرّا في سيرهما، وكانا يسيرانِ على شاطئ البحر، وسارا جزءاً من اليومِ التالي.. وقطعا مسافةً طويلةً في ذلك السير، وأَحَسّا بالتعبِ والنصبِ والجوع..

وجلسا يَستريحان، وطلبَ موسى من يوشَعَ أنْ يقدمَ الطعام: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

ولم يَشْعُرا بالتعبِ والنَّصَب إلاّ بعدَما غادرا مكانَ لقاءِ الخضر، فقد قَطَعَا قبلَ ذلك مسافةً طويلة، وسارا فيها أياماً عديدة، لم يَجدا فيها نَصَباً، أما بعدَ مغادرتِهما المكان فقد شَعَرا بالنَّصَب، وذلك ليعيدَهما اللَّهُ إليه.

وقامَ يوشَعُ بإعدادِ الطعام، ونظرَ في المكتل ليتفقدَ الحوت، ولكنه لم يجدْه فيه! وفوجئَ بذلك، وصارَ يتذكَّرُ أينَ فَقَدَ الحوت! لقد فقدَهُ عندَ الصخرة!!

وأَخبرَ موسى عليه السلام بذلك: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾.

قال له: كانَ الحوتُ معنا في المكتل، وكنت أُراقبه ولما نمنا عند الصخرة خرج الحوت من المكتل، ولكني لما استيقظتُ من النوم تناولْتُ المكتل، ونسيتُ أنْ أنظرَ فيه لأتفقدَ الحوت، على اعتبار أنه

فيه، وفي الحقيقةِ فإنَّ الشيطانَ هو الذي أنساني ذكْرَ الحوتِ وتفقُّدَه! فما رأيُك أنْ نعودَ إلى الصخرة لنبحثَ عنه؟

ولما علمَ موسى أنَّ الحوتَ ليس في المكتل، قال لفتاه: ذلك ما كنا نبغي، فكلُّ هدفِنا ومرادِنا هو أنْ نلتقيَ مع الخضر، ولا بدَّ أنْ يكونَ موجوداً في المكانِ الذي فقدْنا فيه الحوت، فتعالَ لنعودَ إليه!

عادا إلى المكانِ الذي ناما فيه عند الصخرة، وكانا يَقُصّان آثارَهما على شاطئ البحر: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ..﴾.

ونظرَ موسى إلى ماءِ البحر، فوجَدَ على وجهه آثارَ سيرِ الحوت، لم يَغْفُ عليها الماء، وكأنه طريقٌ على وجه الماء، فعجبَ مع فتاهُ من ذلك: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ...﴾.

واستعانا بآثارِ سيرِ الحوت على وجه الماء، وآثارِ سيرِهما على وجهِ الأرض في العودةِ إلى الصخرة..

ولما وَصَلا الصخرةَ قال موسى لفتاه: هذا هو المكانُ الذي وُصِفَ لي، ولا بدَّ أنْ يكونَ الخضرُ هنا.

موسى يلاقي الخضر عند الصخرة:

وقامَ موسى عليه السلام بتفتيشِ المكان باحثاً عن الخضر!!.

ورآهُ نائماً على شاطئ البحر، مستلقياً على قفاه، مغطياً جسمَه ووجْهَه ورأْسَه بثوبه. ففرحَ عليه السلام، فهذا هو الخضرُ الذي أَخبرَهُ اللّهُ أَنه أعلمُ منه، وقد تحمَّلَ مشاقَّ السفرِ وقطعَ الرحلةَ ليتعلمَ منه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

ووصفَ اللّهُ الخضرَ بقوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾، ومقامُ العبوديةِ لله هو أَرفعُ وأكرمُ مقامٍ يَصِلُه المؤمنون، والأنبياءُ هم أئمةُ المؤمنين في هذا المقام.

وقد آتى اللّهُ الخضرَ رحمةً من عنده، رحمةَ النبوة، ورحمةَ العبودية، ورحمةَ العلم الخاصِّ الذي علَّمه إياه، فكانَ أعلمَ من غيره، حتى لو كان نبياً رسولاً كموسى عليه السلام.

وقد عطفت الآيةُ العلمَ على الرحمة: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. فرحمهُ اللّهُ بالعلم، ورحمَ به الآخرين أيضاً، وإذا كان العلمُ مقترناً برحمةِ الله، كان عِلْماً نافعاً بَنّاءً إيجابياً، وإذا خلا العلمُ من الرحمةِ كان علماً مدمِّراً مخرباً، وسبباً في هلاكِ صاحبه وهلاكِ مَنْ حوله. وهذه هي الطبيعةُ السيئةُ للعلمِ الماديِّ المعاصر الذي يتفاخَرُ به الكفارُ في هذا الزمان!

لما رأى موسى الخضرَ نائماً سُرَّ سروراً كبيراً، لأنه حَقَّقَ هدفَه من الرحلة، ووجدَ مَنْ كان يبحثُ عنه.

وأَقبلَ عليه، وسلَّمَ عليه قائلاً: السلام عليكم.

فكشفَ الخضرُ الثوبَ عن وجهه، وردَّ عليه السلامَ قائلاً: وعليكَ السلام.

ثم فاجأ موسى بقوله: وأنّى بأرضِك السلام؟

وهذا استفهامٌ من الخضر، يستبعدُ فيه تحقُّقَ السلامِ على الأرض، فيقولُ لموسى: متى يتحققُ السلامُ على أرضك؟ وكيفَ يتحقق؟

وكأنَّ الخضرَ بهذا الاستبعادِ يُشيرُ إلى طبيعةِ حياةِ البشر على هذه الأرض، تلكَ الحياةُ القائمةُ على التدافعِ والتخاصم، والتناقضِ والتنازع، وينتجُ عن ذلك الخلافُ والاقتتال، فتقعُ الحروبُ، وتنشبُ المعاركُ بين الأمم، وتحلُّ العداوةُ والبغضاء والكراهيةُ بين الأفراد.

إنَّ السلامَ الحقيقيَّ الشاملَ لن يتحققَ في هذه الدنيا، مهما حاولَ الراغبون فيه تحقيقَه، لأنَّ الآخَرين سينقضونه، ولن يتحققَ ذلك السلامُ

للمؤمنين إلاّ في الآخرة، عندَ دخولهم الجنةَ دارَ السلام. كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٢٥﴾ [يونس: ٢٥].

ولهذا تُحيّيهم الملائكةُ بالسلام وتبشرُهم بالخلودِ في النعيم: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٣ ـ ٧٤].

وبعدما تمَّ تبادلُ التحيةِ بين موسى والخضر، قَدَّمَ موسى نفسَه للخضر. قال: أنا موسى!

فاستوضحَ الخضرُ منه: موسى بني إِسرائيل؟

قال موسى: نعم!

موسى والخضر في ما يعلمانه وما لا يعلمانه:

كان الخضرُ يعلمُ ـ بإعلامِ الله له ـ أنَّ بني إِسرائيل في سيناء، ويعلمُ أنَّ موسى نبيٌّ رسولٌ فيهم، ويعلمُ أنه آتٍ إِليه ليتعلَّمَ منه، وما جاءَ الخضرُ إِلى هذا المكان إلاّ لذلك الموعد، فاللّهُ هو الذي أَتى به.

وبعدما تعارفَ النبيّانِ عليهما السلام قالَ الخضرُ لموسى:

أنتَ يا موسى علَّمَكَ اللّهُ علماً لم يُعَلِّمْني إياه، فأنا لا أَعلمه، وأنتَ أعلمُ مني فيه. وأَنا عَلَّمني اللّهُ علماً غيره، لم يُعَلِّمك إياه، فأنتَ لا تعلمه، وأَنا أعلم منك فيه!

فكلٌّ منّا يعلمُ شيئاً لا يعلَمُه الآخر، أنتَ تجهلُ شيئاً أنا أَعلمه، وأنا أجهلُ شيئاً آخرَ أنتَ تعلَمُه!

وهذا معناهُ أنَّ الخضرَ أعلمُ من موسى في بعضِ أنواعِ العلم، وموسى أعلمُ من الخضر في بعضِ أنواعِ العلم. فلم يكن الخضرُ أعلمَ مِن موسى بإطلاق، كما أنَّ موسى لم يكن أعلمَ من الخضر بإطلاق..

وسبحانَ اللّهِ الذي يُعطي عبادَه من العلم بحكمةٍ ومقدار، وهو العليمُ الحكيم!!.

وقذفَ اللّهُ في نفسِ موسى الرغبةَ في تعلُّم ما يجهلُه، والحرصَ على الزيادة في العلم، وما جاءَ إلى الخضر إلاّ ليتعلمَ منه، ولهذا عرضَ عليه أنْ يَتبعَه ويَصحبَه ليتعلَّمَ منه، فقالَ له: أتأذنُ لي أنْ أتبعَك وأَسيرَ معك على أنْ أَتعلَّمَ منك ما لا أَعْلَمُه؟ إني أُريدُ منكَ أنْ تُعلِّمني مما علَّمك الله، تُعلِّمني رُشداً، فأنا أُريدُ من التعلم أنْ أزدادَ علماً وأزدادَ رُشداً.

والرشدُ هو الآثارُ العمليةُ للعلمِ على شخصيةِ صاحبه، بحيث يكون راشداً متَّزناً نافعاً خَيِّراً..

ونأخذُ من عرضِ موسى على الخضرِ الأدبَ في طلب العلم، وفي مخاطبةِ المتعلمِ لشيخه المعلِّم: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ؟﴾.

جواب الخضر لموسى عندما طلب التعلم منه وتعليله:

أجابَ الخضرُ موسى بقوله: إنكَ لن تستطيعَ معي صبراً. فإن اتبعتَني وسرْتَ معي، فسوفَ تراني أَفعلُ أشياء، أنا مأمورٌ بأن أفعلَها، لكنكَ أنتَ لا تَعرفُ حكمتَها، وهي في ظاهرِها أمورٌ غريبة، تَدعو إلى الاستغرابِ والإنكار، فسوفَ تستغربُ صدورَها منّي، وتُنكرُ عَلَيَّ فعْلَها، ولذلك لن تصبرَ على السيرِ معي: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.

وكان جوابُ الخضرِ أكثرَ إثارةً لموسى، وولَّدَ عنده مزيداً من الحرصِ على اتباعِه ومرافقته!

فاجأه بقوله: إنك لن تستطيعَ معي صبراً. بهذا النفيِ المؤكَّد، الدالِّ على أنَّ الخضرَ يعلمُ أنَّ موسى لن يستطيعَ الصبرَ معه، مهما حاول ذلك ومهما جاهدَ نفسه ليصبر.

ولم يتركْهُ في حيرتِهِ واستغرابه، وإنما عللَ له ذلك تعليلاً نفسياً، فسوفَ يراه يفعلُ أشياء، أمره اللّهُ أنْ يفعلَها، وكشف له عن حقيقتِها، فعرفَ حكمتَها. ولكنَّ موسى لم يعرفْ حقيقتَها ولا حكمتها، ولم يُطلعْهُ اللّهُ على بواطنها، وسيتعاملُ معها بظواهرِها الخارجية، وسيكونُ فعلُ الخضرِ مستغرَباً حسبَ تلك الظواهر، ولهذا لن يصبرَ موسى ولن يسكت، وسيعترضُ ويُنكر.

و«خُبْـراً» في قولـه: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾؟ مضمومة. وهي ليست بمعنى «الخَبَر» بفتح الخاء.

الخَبَرُ ـ بالفتح ـ هو العلمُ بالأشياءِ الظاهرةِ المعلومةِ من جهةِ الخَبَر.

والخُبْرُ ـ بالضم ـ هو المعرفةُ ببواطنِ الأُمور!![1].

فموسى عليه السلام لم يُحِطْ خُبراً ببواطنِ الأفعال التي سيفعلُها الخضر، وسيبقى واقفاً عندَ ظواهرِها وأخبارِها الخارجية، أما الخضرُ فقد أَحاطَ «خُبْراً» بتلكَ الأفعالِ والأشياء، حيثُ أطلعه اللّهُ على بواطنِها وحقائقِها وخفاياها.

الاتفاق والمعاهدة بين موسى والخضر قبل البدء بالرحلة العلمية:

إنّ موسى عليه السلام يريدُ أنْ يتعلم، وما جاءَ إلى الخضر إلاّ ليتعلم منه، ولهذا سيجاهدُ نفْسَه، ويضبطُ أعصابَه، ويكبحُ اندفاعَه، وسيصبرُ على ما يَراه، ولهذا قال للخضر: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

وَعَدَ الخضرَ أنْ يصبرَ على السيرِ معه، وعلّقَ الأمْرَ على مشيئةِ الله، كما وعدَه أنْ يطيعَه فلا يَعصي له أمراً.

(١) انظر المفردات للراغب: ٢٧٣.

وفي هذا الكلامِ من موسى إِشارةٌ إِلى الأدبِ في الصحبةِ والرحلة والسفر، فلا بدَّ فيها من الصبر، ولا بدَّ من طاعةِ المسافرين لأميرهم، حتى لا تتحولَ الرحلةُ إِلى نزاعٍ وخصامٍ وعذاب!

وعندما أَعلن موسى عليه السلام استعدادَه للصبر والطاعة، اشترط عليه الخضرُ أنْ يسيرَ معه متعلِّماً، وأنْ لا يسأَلَه عن شيء، وأنْ لا يعترضَ على شيء، وأنْ لا يُنكرَ عليه ما يراه منه، وأنْ ينتظرَ ليعلِّلَ له الخضرُ أَفعالَه، ويبينَ له حكمةَ ذلك: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾.

وفي كلام الخضرِ إِشارةٌ إِلى أَدبٍ من آدابِ طلبِ العلم، فلا بدَّ للمتعلمِ أنْ يُطيعَ المعلمَ ويوقرَه، وأنْ يتأدبَ بين يديه، فلا يعترضُ عليه، ولا يُكثرُ عليه الأمثلة، ولا يُتعبُه ويشقُّ عليه، وينتظرُ أنْ يبينَ هو له بنفسِه المسائل، ويوضحَ له الحقائق.

على طالبِ العلم أنْ يتمتعَ بالأَناةِ وسعةِ الصدر، وهدوءِ الأعصاب والنَّفَسِ الطويل، وأنْ يُديمَ الاستعدادَ للتلقي، والانتباه لما يَجري أَمامَه بهدوءٍ ورويةٍ وتَأَنٍّ وموضوعية!!

اشترطَ الخضرُ على موسى ذلك الشرط، ووافقَ موسى عليه، واستحضرَ نيةَ الصبرِ والطاعةِ وعدمِ الاعتراض أو الإِنكار أو السؤال، واتفقا على الانطلاقِ في الرحلة.

أينَ ذهبَ فتى موسى يوشعَ بن نون؟ هل سارَ معهما في الرحلة؟ ولكنَّ الآياتِ والأحاديثِ سكتتْ عن وجوده؟ أم جلسَ ينتظرُ عودتَهما عند الصخرة؟ أم غادرَ المكانَ وعادَ إِلى بني إسرائيل؟

لا تقدمُ لنا الآياتُ والأحاديثُ جواباً على ذلك، فلا نعرفُ دوْرَه في الرحلة، ولا يضرُّنا الجهلُ به، ونَكِلُ العلمَ بذلكَ إِلى الله!

سارَ موسى والخضرُ عليهما السلام على شاطئِ البحر..

موسى والخضر يركبان السفينة وحادثة العصفور فيها:

ومرَّتْ أَمامَهما سفينة، فاستوقفَها الخضر، ولما نظرَ أَصحابُ السفينة إلى الخضر عرفوه، فوافقوا على صعودِهما في السفينة، لتنقلَهما إلى المحطة التالية من الرحلة، ولم يَقْبلوا أنْ يأخذوا منهما أَجراً، لمعرفتِهما الخضر!!

وهذا يدلُّ على أنَّ السفينةَ كانت «سفينةَ أُجرة»، تعملُ على نقلِ الركاب بالأجرةِ من منطقةٍ إلى منطقة أخرى، وكان رزقُ أَصحابها من هذه الأُجرة.

كما يدلُّ على أنَّ المنطقةَ التي تقابلَ فيها الخضرُ وموسى عند مجمع البحرين كانت مأهولةً بالناس، ففيها مدنٌ وقرى على شاطئ البحر، وفيها قرى على الجانبِ الآخر من البحر، والمسافةُ بين الجانبين كانت قصيرة، أي أنَّ البحرَ كان ضيقاً في هذا المكان.

ومعرفةُ أصحابِ السفينة للخضر يدلُّ على أنَّ الخضرَ كان نبياً يعيشُ في تلك المنطقة، وكان سكانُها يعرفونَه بنبوته، ويحترمونَه ويوقِّرونَه، فها هم أصحابُ السفينة يحملونَهما مجاناً!

وهذا ردٌّ على من كانوا يزعمون أنَّ الخضرَ كان ولياً من أولياءِ الله، وأَنه كان منعزلاً عن الناس، لا يعيشُ معهم، ولا يسكنُ بينهم، وإِنما يعيشُ في المغاور والكهوف، ويتنقلُ وحدَه بين الجبالِ والوديان!!

صعدَ الخضرُ وموسى السفينة، وسارتْ إِلى محطتها التالية، وجلسَ موسى والخضرُ على طرفِ السفينة ينظران ويتفكران ويستمتعان.

وبينما هما كذلك إذ جاءَ عصفور، فوقفَ على حرفِ السفينة، ثم مدَّ منقارَه إِلى الماء، وأخذَ منه قطرةً أو قطرتين!!

واستخدمَ الخضرُ حادثةَ العصفورِ وسيلةً لتعليمِ موسى، وتقريب المسألةِ إِليه، فقال له: كم أخذَ العصفورُ من ماء البحرِ؟

فقالَ له موسى: لم يأخذْ شيئاً يُذكَر! وماذا يأخذُ العصفورُ من ماءِ البحر نقرةٍ أو نقرتين؟ وماذا يُنقصُ ذلك من البحر؟

فقالَ له الخضر: ما نقصَ علمي وعلمُك من علمِ الله إلا كنقرةِ هذا العصفور في البحر!

لقد أَعطاني اللّهُ علماً، وأَعطاكَ اللّهُ علماً، وأَعطى الآخرين علماً، وهذا لم يُنقصْ علمَ الله ولم يؤثِّرْ فيه، فعلْمُ الناس جميعاً بالقياسِ إلى علمِ الله لا يساوي نقرةَ العصفور بالقياسِ إلى ماء البحر!!

واستوعبَ موسى عليه السلام الدرسَ بهذه الوسيلة الإيضاحية.

الخضر يخرق السفينة وموسى يلومه ثم يعتذر:

وبينما كانا راكبيْن في السفينة، وهي تشقُّ طريقَها وسطَ الماء، نظرَ موسى إلى الخضر، فوجده يُقْدِمُ على فعلٍ عجيب!!. لقد أَخذَ بيديه لوحاً من أَلواح السفينة الخشبية، التي تمنعُ دخولَ الماء إليها، أَخذه فانتزعه واقتلعه!!

فاستغربَ موسى فعلةَ الخضر، وسارعَ بالإِنكارِ عليه، وقال له: ماذا فعلت؟ فقد أَكْرَمَنا أصحابُ السفينة، وأَركبونا بدون أجرة، أهكذا تقابلُ أنت إِكرامهم؟ تقلعُ لوحَ السفينة وتخرقها؟! إنَّ هذا يؤدي إِلى غرقِ السفينة وأهلها وركابها.

وفعْلُك هذا «إِمْرٌ» فظيع وعجيب!!

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾.

إنَّ فعلةَ الخضر بقلعِ لوح السفينة عجيبةٌ مرفوضةٌ من حيث ظاهرها، فالقومُ أَكرموهم وحملوهم مجاناً، ويجبُ أنْ يقابَلَ إِكرامُهم بالإحسان، وليس بخرقِ السفينة!

فموسى نظرَ للحادثة من حيثُ الظاهر، ولذلك سارعَ بالاعتراض والإنكار، ولم يَعرفْ حقيقةَ الحادثة، ولم يقفْ على خُبرِها وباطنها!

وهنا ذكَّره الخضرُ بعهدِه السابق، وبما سبقَ أنْ قالَه له من أنه لنْ يصبر على ما سيشاهده منه: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

وتذكَّرَ موسى، واعتذرَ عن تسرعِه بالإنكارِ عليه، واعترفَ بأَنه نسي ما اتفقا عليه لمفاجأتِه بالحادثة، وطلبَ من الخضر أنْ لا يؤاخذَه هذه المرة: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

الخضر يقتل الغلام وموسى يعترض ثم يطلب مهلة أخرى:

وقطعت السفينةُ المسافة، ووصلتْ إلى محطةٍ تالية، ونزلَ موسى والخضر منها، وسارا على ساحلِ البحر، ويبدو أَنهما كانا يسيران في قريةٍ أو قريباً منها، حيث شاهَدا أَثناءَ السير غلماناً يلعبونَ على الساحل.

نظرَ الخضرُ إلى الغلمان اللاعبين، ثم توقفَ عند أَحدهم، ودقَّقَ فيه النظر، ثم أَقبلَ عليه، وأخذَ برأسه، فاقتلعَه بيده.. وقتلَه..

فوجئَ موسى بما رأى، واستغربَ استغراباً كبيراً، وذُعِرَ ذُعراً شديداً: إذ كيفَ يُقدمُ الخضرُ على قتلِ غلامٍ صغير؟

ونسيَ موسى ما كان من عهدِه للخضر، وأَقبلَ عليه معترضاً منكراً، وقال له: كيفَ تقتلُ نفساً زكيةً بريئة؟ إنَّ هذا الغلامَ لم يقتل آخر، ولم يرتكبَ جريمةً يستحقُّ بها القتل؟ فلماذا قتلْتَه؟ لقد فعلتَ فعلاً كبيراً، وجئتَ شيئاً نُكراً، يستحقُّ الإنكارَ والرفض.. ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾.

فذكَّره الخضرُ مرةً ثانية بما سبقَ أنْ قاله له: لقد قلتُ لكَ من قبلُ إنك لنْ تستطيعَ معي صبراً! وهذا هو الدليلُ الثاني على صحةِ ما قلتُ لك، وها أَنتَ تنكرُ عليَّ للمرة الثانية: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾.

وهنا شعرَ موسى بالحرجِ والخجل، فها هو قد اعترض وأنكرَ على الخضر مرتيْن، رغم أنه اتفقَ معه على أنْ لا يعترض ولا ينكر، فطلبَ منه أن يُعطيه الفرصةَ الثالثة الأخيرة. قال له: هذه آخرُ مرة تسمحُ لي أن أسألَك وأعترضَ عليك، فإنْ سألتُك عن شيء بعد ذلك أو أنكرتُ عليك، فلا تصاحبني ولا تَسِرْ معي!!

وكأنَّ موسى يأذنُ له بإنهاءِ الرحلة العلمية إن اعترضَ عليه بعدَ ذلك: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾.

وكأنَّ موسى تعجَّلَ بهذا القول بسببِ حرجه وحيائه، فقد وافقَ على إِنهاء الرحلة إن اعترضَ مرةً ثالثة، وقد حَرَمَ نفسَه وحَرَمَنا معه من عجائب وغرائب. ولهذا قالَ رسولُنا ﷺ: رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجَّلَ لرأى العجب. ولكنه أخذَتْه من صاحبه ذِمامة. أي: حياءً وحرجاً.

الخضر يبني الجدار وموسى يعترض:

وتابعَا سيرهما على ساحل البحر، فأَتيا قرية ودَخَلاها، ولم يعرِفا أحداً فيها، وكانا بحاجةٍ إلى طعام، فاضطرا إلى أَنْ يستطعما أَهلَها، ويَطلبا منهم الطعامَ والقِرى، ولكنهم كانوا بخلاء، فأَبوا أنْ يُضيفوهما ويُطعموهما، وهذا لؤمٌ وخسةٌ وبخلٌ منهم!!

وشتانَ بين موقفِ أَصحاب السفينةِ المساكين الفقراء الذين أَكرموا موسى والخضرَ وحملوهما في السفينة بغير أُجرة، وبين موقفِ أهل القريةِ البخلاء، الذين أَبوا أنْ يقدموا الطعامَ لهما رغم حاجتهما وجوعهما.

استغربا من موقفِ أهلِ القرية، وسارا في طرقاتِها وممراتها، وشاهدا جداراً على وشكِ السقوط. فأقبلَ الخضرُ على الجدار، وقامَ على إِصلاحه وتسويتِه وإعادةِ بنائه، وموسى ينظرُ إِليه مستغرباً.

ولما أصلحَ الخضرُ الجدارَ وأقامه، أقبلَ عليه موسى لائماً منكراً، وقال له: إنَّ أصحابَ القرية لا يستحقون منكَ التكريم والفضل، إنهم لئامٌ بخلاء، أتيناهم ضيوفاً فلم يُضيفونا، وطلبنا منهم الطعامَ فلم يُطعمونا، وها أنتَ تتبرعُ لتصلحَ هذا الجدار لهم. كان الأَوْلى بكَ أنْ تأخذَ أجرتَك منهم مقابل ذلك، لأنه لا ينفعُ معهم المعروف!

وهذا الاعتراضُ والإنكارُ من موسى، لأَنه قارنَ بين موقفهم منهما وخدمةِ الخضر لهم، فوجدَ هذه الخدمةَ في غيرِ محلِّها، وعند أُناس لا يستحقونها: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾.

لقد نسيَ موسى باعتراضِه الثالث أنه أَنهى رحلتَه العلمية مع الخضر، لأنه هو الذي رَضيَ بهذا، وسبقَ أنْ قالَ للخضر: إنْ سألتكَ عن شيء بعدها فلا تصاحبني. وها هو يسأَلُه عن عمله في الجدار، وهو يحكمُ على نفسه بنفسه بعدمِ مصاحبةِ الخضر!

ولذلكَ أَخبره الخضرُ بقطعِ الرحلة، والافتراقِ بينهما: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ . . .﴾.

الخضر يعد موسى بتأويل أفعاله الثلاثة قبل مفارقته:

وقبلَ أنْ يفترقا أَرادَ الخضرُ أنْ يفسِّرَ لموسى حقيقةَ أَفعالِه الثلاثة: خرقِ السفينة، وقتلِ الغلام، وبناءِ الجدار. وذلك ليبينَ له صوابَ فعله، ويُزيلَ عن موسى استغرابَه وإنكاره: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا . . .﴾.

وكأَنه يقولُ له: أنتَ يا موسى أَنكرتَ عليَّ الأفعالَ الثلاثة، وظننتَ أَني مخطئٌ فيها، لأنكَ لا علمَ لك بحقائِقها ولا بواطنها، وإنما علْمُك بظواهرها، ووقوفُك عند ظواهرها دفعَك للإنكار عليّ، مع أَنني على صوابٍ فيما فعلته، لأنَّ اللَّهَ أَعلمني ببواطنها وخُبْرِها وحقائقها،

وعندما تعرفُ ذلك وتعلمُ تأويلَه ستدركُ أنني على صوابٍ فيه، وأنني أَعلمُ منك في هذا الجانب!

الخضر يبين حكمة خرقه السفينة:

كان تأويلُه لخرقِ السفينة أَنها مملوكةٌ لأناسٍ مساكين. كانت مهنتُهم ومصدرُ كسبهم ورزقُهم العملَ في البحر، وحملَ الركابِ في السفينة، ونقلَهم من جانبٍ إلى جانب.

وكانَ ملكُ المدينة رجلاً ظالماً باغياً غاصباً، يستولي على أَموالِ وممتلكاتِ الناس، وكانت السفينةُ متوجهةً إلى المدينة، وكان الملكُ في رجاله، وكلما مرتْ به سفينةٌ صالحة يأخذُها غصباً وعدواناً، ولو مرَّتْ به سفينةُ هؤلاء المساكين لصادرَها وغصبَهم إياها.

ولذلك خرقَ الخضرُ السفينة وخلعَ منها لوحَها، وهذا لا يؤدي إلى غرقها، وستمرُّ السفينةُ على الملك ورجاله، وعندما يشاهدونها مخروقةً مَعيبةً فسيتركونها تمرُّ ولا يصادرونها، وبعدما تتجاوزُهم سيعيدُ أَصحابُها إِصلاحَها، وبذلك تنجو من المصادرة!

وهذا هو التأويلُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾..﴾.

إِنَّ موسى لم يكن يعلمُ بوجودِ عصابةِ الملك أَمامَهم، ولهذا لم يَعرفْ حكمةَ خرقِ السفينة فأنكرَ واعترض، ولهذا كان علمُه قاصراً محدوداً.

أما الخضرُ فقد أَعلمه اللّهُ بذلك، وأَمره بخرقِ السفينة لتنجو بذلك من المصادرة، فنفذَ أَمرَ الله، وكان في هذا الجانب أكثرَ علماً من موسى، بتعليمِ الله له.

وظاهرُ العملِ الذي قامَ به مرفوض، لكنَّه في باطنِه وحقيقتِه

صوابٌ وسليم، يُمدحُ به ولا يُلامُ عليه، ممن عرفَ الحكمةَ ووقفَ على الحقيقة.

ويبين حكمة قتله الغلام:

وكان تأويلُ الخضر لحادثةِ قتل الغلام أنَّ اللّهَ أخبره أنَّ هذا الغلامَ سيختارُ الكفرَ عندما يكبر، لأنَّ اللّهَ علمَ ذلك منه منذُ الأزل، حيثُ ستوجَّهُ له الدعوةُ إلى الإيمان، وتُقامُ عليه الحجة، ويُبينُ له الحقُّ من الباطل، ولكنه سيرفضُ دعوةَ الحق، ويختارُ الكفرَ والضلال.

وأخبرَ اللّهُ الخضرَ أنَّ أَبويه كانا مؤمنيْن صالحيْن مستقيميْن، ومع ذلكَ ابتلاهما اللّهُ بهذا الغلام الذي سيكفر، وسيكونُ أيضاً طاغياً باغياً ظالماً عندما يكبر.

وبذلك سيُتعبُ ويرهقُ أَبويْه المؤمنيْن لكفرِه وطغيانِه وفسقِه واستبدادِه، وسيكون عاقّاً بهما، معتدياً عليهما..

أَطلعَ اللّهُ الخضرَ على هذا المستقبلِ الأسودِ لهذا الغلام الصغير، وأَمره أَن يقتلَه، ليس لأنه مذنبٌ فهو صغير، ولكن لأنه سيكونُ على ذلك الحالِ الأسود عندما يكبر، يقتلَه ليخلصَ أبويْه من كفرِه وطغيانه وإِفسادِه وعقوقه.

ولا يخسرُ أَبواه بقتله، بل سيستريحان منه، وسيُعوِّضُهما اللّهُ عنه، ويُبدلَهما غلاماً آخر، أفضلَ من الأول، خيراً منه في زكاتِه وأَخلاقِه وإِيمانه وطهارته، وأَقربَ منه في بره بوالديْه ورحمتِه بهما وعطفه عليهما.

وهذا هو التأويلُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

إنَّ اللّهَ لم يُطلعْ موسى عليه السلام على مستقبلِ الغلام، ولهذا

نظرَ لحادثةِ قتله نظرةً ظاهرية، فاعتبرَها خطأً يَدعو إِلى الإنكار، فسارعَ بالإنكارِ على الخضر.

أما الخضرُ فقد أَطلعَهُ اللّهُ على مستقبله، وأَوقفه على باطنِ الموضوع وسرِّه وحقيقتِه، وأَمره بقتله. ولذلك كان قتلُه صواباً صحيحاً.

ويبين حكمة بنائه الجدار:

وكان تأويلُ الخضر لحادثةِ بناءِ الجدار أن اللّهَ أَعلمه أنَّ الجدارَ ملْكٌ لغلاميْن يتيميْن في المدينة، صغيريْن قاصريْن لا يُحسنان التصرف، ولا يَقْدران على إدارةِ أمورهما.

وكان أَبوهما رجلاً صالحاً مؤمناً تقياً، ويَعرفُ لؤمَ وبخلَ وخبثَ أهلِ المدينة، ويَخشاهم على ولديْه، وقبلَ أنْ يموتَ تركَ لولديْه كنزاً من المال، ولأنه يخافُ على ذلك الكنزِ السرقةِ والمصادرةَ من أهل المدينة، فقد دَفنه في الأرض، وبنى عليه الجدار، مبالغةً في الإخفاء والحفظ!

ولما مرَّ الخضرُ وموسى عليهما السلام بالجدار، كان على وشكِ السقوط، ولو سقطَ الجدارُ فسيظهرُ الكنزُ الذي تحتَه، وعندما يشاهدُه أهلُ المدينة البخلاء سيصادرونَه وينتهبونه، وبذلك تضيعُ ثروةُ الغلاميْن اليتيميْن المكنوزة.

وبما أنَّ أَباهما كان صالحاً فإنَّ الله حفظَهما وحفظَ كنزَهما، لصلاحِه وتقواه، ولذلك أمرَ الخضرَ أنْ يتطوَّعَ ويتبرعَ بإِصلاحِ وإِقامةِ الجدار، ليبقى الجدارُ قائماً إِلى أَن يكبر الغلامان، ويبلُغا أَشدَّهما، ويُحسنا التصرف في أموالهما، عند ذلك سينقضانِ الجدارَ ويستخرجان الكنز!

وهذا هو التأويلُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا . . .﴾.

لقد نظرَ موسى لحادثةِ بناءِ الجدار نظرةً ظاهريةً قريبة، فأنكر على الخضر فعلَه، لأنَّ الجدارَ ملكٌ لأهلِ المدينة، وهم بخلاءُ لئام، لا يستحقون خيراً ولا معروفاً، ولذلك كان الأَوْلى أخذُ الأجرةِ على بناء الجدار.

أما الخضرُ فقد أَطلعهُ اللّهُ على الباطنِ الخفي، فلم يَبْنِ الجدارَ لمجردِ البناء، بل فعلَ ذلك لمصلحةِ الغلامَيْن صاحبي الكنز، حيث سيحفظُه من السرقة والنهب!

ومن تأويلِ الخضر لموسى عليهما السلام أَفعالَه الثلاثة: خرقَ السفينة وقتلَ الغلام وبناءَ الجدار، علمَ موسى أنه ليس أعلمَ الناس، وأنَّ الخضرَ أعلمُ منه في هذا الجانب، وأنَّ اللّهَ هو الذي أَطلعَ الخضر على بواطنِ وحقائقِ وخفايا هذه الأفعال، وأَمره بفعل ما فعله!!

كانت أفعاله الثلاثة رحمة من الله وبأمره:

وبذلك كانتْ أفعالُ الخضر الثلاثة في حقيقتِها رحمةً من الله بأَصحابها، وليست ضرراً كما يوحي بذلك ظاهرُها.

ولهذا عقَّبَ على تأويلِ الأفعال بقولِهِ لموسى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾. أي: فعلتُ هذه الأفعالَ الثلاثة رحمةً من ربك بأصحابها:

كان خرقي للسفينة رحمةً من ربك بأَصحابها، حيث سيحافظون عليها بذلك، ويُصلحونَها بعد تجاوزِهم عصابةَ الملك الغاصب!

وكان قتلي للغلام رحمةً من ربك بوالديْه، وسيرزقُهما اللّهُ غلاماً آخر، هو خيرٌ منه.

وكان بنائي للجدارِ رحمةً من ربك بصاحبيْه الغلامَيْن، حيث سيأخذان الكنزَ الذي تحته عندما يكبران ويبلغان أشدَّهما.

وبعدما أَوَّلَ الخضرُ لموسى عليهما السلام حقيقةَ أفعالِه الثلاثة، أَخبرَه أنه لم يجتهدْ في فعلِها باجتهاده، وإنما بأَمْرٍ من الله، فاللّهُ هو

الذي أَطلعهُ على بواطنها وحقائقها وخفاياها، وهو الذي أمره بفعلِ ما فعل، ولهذا قال لموسى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ..﴾.

أي: لم أَفعلْها بأمري، وإنما بأَمْرِ اللّهِ سبحانه.

وسياقُ الأفعالِ الثلاثة، وإِطلاعُ الله الخضرَ على حقائقها، وأَمْرُه بفعلِ ما فعل، دليلٌ على نبوةِ الخضر عليه السلام.

فلو لم يكن نبياً لما علمَ غيبَ المستقبل في الأفعال، ولما علمَ بواطنَ وحقائقَ تلك الأفعال، ولما أَمَرَهُ اللّهُ بفعلها!!

وبعدما أَوَّلَ الخضرُ لموسى حقيقةَ أفعالِه قال له: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ..﴾.

سمى بيانَه لحقيقةِ تلك الأفعال تأويلاً. ومعنى التأويل هنا هو: بيانُ الحقيقةِ والعاقبة والمآل الذي تؤولُ له الحادثة، وتفسَّرُ به، وهو هنا تجاوز الظاهرَ القريبَ غيرَ المراد، إلى الباطنِ الدقيقِ الخفي، وحمل الظاهرَ القريبَ على الباطنِ الدقيق!

لطيفة قرآنية في «تستطع» و«تسطع»:

والملاحظُ أن الخضرَ لما وعدَ موسى عليهما السلام تأويلَ أفعالِه قال له: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ..﴾.

ولما أوّل تلك الأفعال حذف التاء الثانية من فعل «تستطع» فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

وإِثباتُها في الفعلِ الأول «لم تستطع» يُثَقِّلُ الفعلَ، وهذا التثقيلُ للفعل يتناسَبُ مع «الثِّقَلِ النفسي» الذي كانَ يعيشُه موسى عليه السلام، حيث شاهدَ ثلاثةَ أفعالٍ عجيبة من الخضر، وكان يُتعبُ نفسَه في محاولةِ فهمِها وتفسيرها، ولهذا كان يشعرُ بهَمٍّ وثِقَلٍ ومعاناة، فجاءَ الفعلُ ثقيلاً بالتاء الثانية: «لم تستطع».

أما حذفُها من الفعل الثاني: «لم تسطع» فقد أدّى إلى «تخفيفِ» الفعل. وهذا التخفيفُ في الفعل يتناسبُ مع التخفيف على نفسيةِ موسى عليه السلام ومشاعرِه وأعصابه.

فلما أَوَّلَ له الخضرُ أفعالَه الثلاثة، عرفَ حكمتَها وحقائقَها، وعلمَ أن الخضرَ على صوابٍ في ما فعله، وأنْ فعْلَه لا يدعو إلى الإنكار والاعتراض واللوم.

وبذلك زالَ «الثِّقَلُ» على نفسيةِ موسى ومشاعرِه وأعصابه، وزالَ عنه عناءُ التفكيرِ والتوجيهِ والتحليلِ والاستنتاجِ، فاستراحَتْ نفسُه وأعصابُه.

وشاركَ الفعلُ الثاني «تسطع» حالةَ موسى الجديدة، فتخفَّفَ من أَحدِ حروفه، ليتوافقَ مع التخفيفِ على مشاعر موسى عليه السلام!!

وهكذا وعى موسى دروسَه من رحلتِه مع الخضر عليهما السلام، وعادَ إلى بني إسرائيل الذين كانوا ينتظرونَه، وقد ازدادَ علماً ومعرفة.

أما الخضر، فقد ذهبَ إلى مكانٍ آخر، لم تُحدِّدْهُ النصوص، فكما أنه ظهرَ في القصة فجأة، كذلك غادرَ القصةَ واختفى فجأة. فلا نعرفُ من أَينَ جاء، ولا نعرفُ إلى أينَ ذهب، ولا ماذا كانت نهايتُه، عليه السلام!!

من دلالات القصة ودروسها عند ابن حجر والنووي:

ونحبُّ أنْ نختمَ كلامَنا على قصةِ موسى مع الخضر عليهما السلام بذكْرِ أهمِّ الدلالاتِ منها، كما سجلَها الإمامُ ابن حجر في «فتح الباري» والإمامُ النووي في «شرح صحيح مسلم»، عندما شرحا أحاديثَ القصةِ في صحيحي البخاري ومسلم:

١ ـ استحبابُ الرحلةِ في طلب العلم، ولو بَعُدَت المسافة.

٢ - استحبابُ الاستكثارِ من العلم، فإنه مهما حَصَّلَ منه فيبقى يجهلُ الكثير من مسائله.

٣ - استحبابُ تعلمِ العالم ممن هو أَعلمُ منه، وسعيهِ إِليه.

٤ - فضيلةُ طلب العلم.

٥ - جوازُ التزودِ بوسائل الزاد وألوانِ الطعام عند السفر.

٦ - الأدبُ مع العالم وحرمةُ المشايخ وتركُ الاعتراض عليهم.

٧ - تأويلُ ما لا يُفهمُ ظاهرُه من الأقوالِ والحركات والأفعال.

٨ - الوفاءُ بالعهود، والاعتذارُ عند مخالفةِ العهد.

٩ - جوازُ إجارةِ السفينة.

١٠ - جوازُ ركوبِ السفينة والدابةِ وسُكنى الدار ولبس الثوب، بغيرِ أجرة، برضى صاحبه.

١١ - الحكمُ بالظاهر، حتى يتبينَ خلافُ الظاهر.

١٢ - استحبابُ أنْ يبدأَ الإنسانُ بنفسه في الدعاء وغيره، من أُمور الآخرة. أما حظوظُ الدنيا وأمورُها فالأَوْلى الإيثارُ وتقديمُ الغيرِ على النفس.

١٣ - جوازُ خدمةِ العالم والفاضل، وقضاءُ حاجاته، بدون عوض.

١٤ - الحثُّ على التواضعِ في العلم وغيره.

١٥ - إذا سئلَ العالم: أَيُّ الناسِ أعلم؟ فليقل: اللّهُ أعلم.

١٦ - وجوبُ التسليمِ لكلِّ ما جاءَ به الشرع، وإنْ لم تظهرْ بعضُ حكمتِه للعقول.

١٧ - جوازُ التجادلِ في العلم إذا كان بغيرِ تعنُّت.

١٨ - وجوبُ الرجوعِ إلى أهلِ العلم عند التنازع.

١٩ ـ العملُ بخبرِ الواحد.

٢٠ ـ الراجحُ أنَّ الخضرَ عليه السلام نبي.

٢١ ـ إن اللّهَ يفعلُ في ملكه ما شاء، ويفعلُ في خلقه بما يشاء.

٢٢ ـ الراجحُ أنَّ الخضرَ مات قبلَ بعثةِ محمد ﷺ.

٢٣ ـ جوازُ قولِ العالمِ للناس: سَلوني. إذا أَمِنَ العُجْب، ودعَتْ لذلك ضرورة.

٢٤ ـ كان الحوتُ مَيْتاً مُمَلَّحاً، فأحياهُ الله، وهذا دليلٌ على البعث.

٢٥ ـ إنّ فتى موسى عليه السلام وخليفتَه في قومه هو «يوشع بن نون» رضي الله عنه.

٢٦ ـ جوازُ إطلاقِ الفتى على التابع.

٢٧ ـ جوازُ استخدامِ الحُرّ في عملٍ من الأعمال.

٢٨ ـ وجوبُ طاعةِ الخادمِ لمخدومه.

٢٩ ـ عذرُ الناسي لأنه لا حيلةَ له في النسيان.

٣٠ ـ قبولُ الهبةِ من غيرِ المسلم.

٣١ ـ جوازُ إخبارِ المسلم عما فيه من تعبٍ أَو مرضٍ أو فقر.

٣٢ ـ المتوجِّهُ إِلى ربّه يعينُه الله على رحلته، فلا يسرعُ إِليه التعبُ والجوع، بخلاف المتوجِّه إلى غيره.

٣٣ ـ جوازُ طلبِ الضيافة، وطلبِ القوتِ والطعام.

٣٤ ـ قيامُ العذرِ بالمرة الأولى، وقيامُ الحجةِ بالمرة الثانية.

٣٥ ـ حسنُ الأدبِ معَ الله، وأنْ لا يُضافَ إليه ما يُستهجَنُ لفظُه[1].

---

(١) انظر هذه الأدلة في: فتح الباري ١:١٦٩ و٨:٤٠٩ ـ ٤٢٢. وشرح النووي على مسلم ١٥:١٣٧ و١٥:١٤٦ ـ ١٤٧.

[٢]

وفاة موسى عليه السلام

أَقامَ موسى عليه السلام في قومه الصالحين في سيناء، يربيهم تربيةً جهادية، ويُعدُّهم لدخولِ الأرض المقدسة، واستمرَّ على هذا مدةَ التيه الذي كتبه اللهُ على قومه الجبناءِ الناكصين عن الجهاد، وهي أَربعون سنة.

وفاة هارون أثناء فترة التيه:

وخلالَ هذه الفترة توفيَ نبيُّ الله هارونُ عليه السلام.

ولم تُخبرْنا مصادرُنا الإسلاميةُ اليقينيةُ بتفصيلات عن وفاةِ هارون عليه السلام.

فلا توجَدُ أَحاديث صحيحةٌ مرفوعةٌ لرسول الله ﷺ تتحدثُ عن وفاةِ هارون.

والآيات القرآنيةُ لا تتحدثُ عن هارون بعد موقفه من عبادةِ قومه للعجل، وإِنكارِه عليهم ذلك.

وعرفْنا من خلال الآيات أَنَّ هارونَ بقي حياً حتى فترةِ تيه بني إسرائيل في سيناء، وهي آخرُ لقطاتِ حياتهم المذكورة في القرآن.

فلما نكصَ معظمُ بني إِسرائيل عن الجهاد، تبرأَ موسى عليه السلام منهم، وطلبَ من ربه أَنْ يفرُقَ ويفصلَ بينه وبينهم. وأَعلنَ أنه لا يملكُ إلاّ نفسه وأخاه هارون. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ [المائدة: ٢٥ ـ ٢٦].

وهذا معناه أَنَّ هارونَ عليه السلام كان حياً عند بدايةِ التيه.

ولم يَرِدْ له ذكرٌ في القرآن ولا في الحديث الصحيح بعدَ ذلك.

فلا نعرفُ متى ماتَ هارون عليه السلام، ولا أينَ مات، ولا كيفَ مات، ولا كيف دُفن!! ونتوقفُ في الحديث عن هذه «المبهمات».

ونعترفُ أنَّ الإسرائيلياتِ قد تحدثَتْ كثيراً عن وفاةِ هارون عليه السلام، حيث فصَّلَتْ ذلك، وذكرت اتهامَ بني إسرائيل لموسى في قتلِ أَخيه هارون، ودفاعَ موسى عن نفسه، وحددت المكانَ الذي دُفن فيه هارون.

لكننا لا نذهبُ إلى تلك الإسرائيليات، ونبقى مع الآياتِ والأَحاديثِ الصحيحة.

كلُّ ما نقولُه أنَّ هارونَ توفيَ في حياةِ موسى عليهما السلام، ولعلَّ ذلك كانَ خلال فترةِ التيه التي استمرتْ أَربعين سنة، وهذا معناه أنَّ وفاةَ هارون كانت في سيناء، وأنه دُفن في مكانٍ ما في سيناء، لأنَّ النبيَّ يُدفنُ حيث مات.

وبعدَ وفاةِ هارون استمرَّ موسى عليه السلام يربّي الجيلَ الجديدَ من بني إسرائيل، ويساعدُه في ذلك فتاهُ الصالحُ يوشعُ بن نون.

وأَخيراً حانَ أجلُ موسى عليه السلام، وقدَّرَ اللّهُ أن يُنهيَ حياتَه التي عاشَها في الابتلاءات والمحن، وواجَهها بالصبر والثبات والاحتمال، وبذلَ جهدَه في تربيةِ بني إسرائيل والارتقاءِ بهممهم وعزائمهم...

جاءه الأجلُ وهو يربي الجيلَ الجديدَ من قومه، ويُعِدُّهم لدخولِ الأرض المقدسة.. جاءه الأجلُ بعدما أقامَ مع قومه أكثرَ من أربعين سنة في صحراء سيناء.. جاءه الأجلُ قبلَ أنْ يكملَ مهمتَه في تربيةِ قومه، وقبلَ أنْ ينتقلَ بهم إلى المرحلة التالية، وقبلَ أن يدخلَ بهم الأرضَ المقدسة.. جاءه الأجلُ قبلَ أنْ يرى الأرضَ المقدسة، ويستمتعَ بالعيشِ فيها..

موسى وملك الموت:

وعندما جاءَه الأجل، خَيَّرَه الله، وبعثَ له ملكَ الموت..

خيَّره اللّهُ تخييراً، لأنَّ من سنةِ اللّهِ مع الأنبياء أنه لا يقبضُ نبياً إلاّ بعدَ أنْ يُخيره بين الدنيا والآخرة، بين الموت والحياة، بينَ أنْ يبقى مع أَصحابه أو ينتقلَ للرفيقِ الأعلى!!

ودليلُ تخييرِ الأنبياء عند الموت ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالَتْ: كنتُ أَسمعُ أنه لن يموتَ نبيٌّ حتى يُخَيَّرَ بين الدنيا والآخرة.. فسمعتُ النبيَّ ﷺ في مرضه الذي ماتَ فيه، وقد أخذَتْه بَحّةٌ يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فظننتُه خُيِّرَ حينئذ..»[1].

فاللّهُ خَيَّرَ محمداً ﷺ عند الموت، كما تروي عائشةُ رضي الله عنها، فاختارَ الآخرة، اختارَ أنْ يكونَ مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولما جاءَ موسى عليه السلام الأجل، وأَرادَ اللّهُ تخييره، بعثَ له ملكَ الموت في صورةٍ بشرية، وجَرَتْ بينه وبين مَلَكِ الموت حادثةٌ مثيرة، أَخبرَنا عنها رسولُ الله ﷺ.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أُرسلَ مَلَكُ الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صَكَّه، ففقأَ عينَه!! فرجعَ إلى ربِّه، فقال: أَرسلْتَني إلى عبدٍ لا يُريدُ أنْ يموت!! فردَّ اللّهُ إليه عينَه!

وقال له: ارجعْ إليه، وقل له: يضع يدَه على مَتْنِ ثَوْر، فله بما غطَّتْ يدُه بكلِّ شعرةٍ سنة!

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٤٣٥. ومسلم برقم: ٢٤٤٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٥٧.

قال: أيْ رب؛ ثُمَّ ماذا؟

قال: ثم الموت!

قال: فالآن!!

فسألَ اللّهَ أنْ يُدنيَهُ من الأرضِ المقدسةِ رميةً بحجر!!

قالَ رسولُ الله ﷺ: فلو كنتُ ثَمَّ، لأَريتكم قبرَه إلى جانبِ الطريق تحتَ الكثيبِ الأحمر...»[1].

موسى لم يعرف ملك الموت المتحول إلى بشر:

وخلاصةُ هذا الحادثةِ المثيرة من مجموعِ رواياتِ الأحاديث الصحيحة عند البخاري ومسلم وغيرهما:

لما أرادَ اللّهُ تخييرَ موسى عليه السلام عند دنوِّ أجلِه، أرسلَ له مَلَكَ الموت، واختارَ أنْ يرسلَه على صورةِ رجلٍ بشر، وهذا وفقَ حكمتِه سبحانه وتعالى.

ومعلومٌ أنَّ الملائكةَ قد يتشكَّلون في صورةِ بشر، كما فعلوا مع إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السلام، وكما فعلَ جبريلُ عليه السلام مع مريمَ رضي الله عنهما، وكما فعلَ جبريل مراراً مع رسول الله ﷺ.

جاءَ ملكُ الموتِ ـ المتحوِّلِ إلى رجلٍ غريب ـ إلى موسى عليه السلام، فلم يَعرفْ موسى أنه ملكُ الموت، وظنَّه رجلاً غريباً، وهذا لا يُضيرُ موسى عليه السلام، فإنه لا يعلمُ الغيب، إلاّ إذا أَعلمه اللّهُ إيّاه، ولم يخبرهُ اللّهُ أنَّ القادمَ هو ملكُ الموت.

وعرفْنا مما سبق أنَّ إبراهيم عليه السلام قدمَ الطعامَ للملائكة لما جاءوه في صورةِ رجالٍ غرباء، ولم يعلمْ أنهم ملائكة، كذلك لم يعرفْهم لوطٌ عليه السلام عندما أَتوه في صورةِ رجال. وهنا لم يعرفْ

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٣٩. ومسلم برقم: ٢٣٧٢. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢١٧.

موسى أنَّ الرجلَ الغريبَ القادمَ إليه هو ملكُ الموت متحوِّلاً إلى بشر!!

توجيه ضرب موسى له على عينه:

ولما جاءَه الرجلُ الغريبُ طلبَ منه طلباً غريباً مثيراً، قالَ له: أَجِبْ رَبَّك، وأَعْطِني روحَك!!

إنه يريدُ أنْ يأخذَ روحَه، ويَدّعي أنه مطلوبٌ منه إجابةُ ربه، وهو لا يعرفُه، فهل يستجيبُ له؟ وهل يُعطيه روحَه؟ بالطبعِ لا. فما عهِدْنا رجلًا يستجيبُ لرجلٍ غريب، يصارحُه بأنه يريدُ أنْ يأخذَ روحَه.

ولو قَدِمَ له ملكُ الموت بصورتهِ الملائكية لاستجابَ له، ولو أَخبرَه أنه ملكُ الموت لاستجابَ له، فموسى عليه السلام ليس ممن يتمردُ على أوامرِ الله!

التصرفُ المنطقيُّ من موسى عليه السلام أنْ يدافعَ عن نفسه أَمامَ الرجلِ الغريب الذي يريدُ القضاءَ عليه، فقد يكونُ هذا الرجلُ فاتكاً باطشاً جاءه بهذه الحجة: أَجِبْ ربَّك، والإنسانُ لا يستسلم للفاتك الباطش!

وَجَّهَ موسى عليه السلام للرجلِ الغريب لطمةً من يدهِ القوية، وأصابت اللطمةُ عينَه ففقأَتْها!

وكان موسى عليه السلام قوياً في جسمِه وقبضتِه، فقد قَتَلَ وهو شابٌّ القبطيَّ بوكزةٍ من يده، والآن ها هو يقلعُ عينَ ملكِ الموت - الرجل الغريب - بصكَّةٍ من يده!

عادَ ملكُ الموتِ إلى الله، شاكياً موسى عليه السلام، وقال لربّه: يا رب: أرسلْتَني إلى عبدٍ لا يريدُ أنْ يموت، إنَّ عبدَك موسى قد فقأَ عيني، ولولا كرامتُه عليك لقضيتُ عليه!

فردَّ اللّهُ عليه عينه.

لما ضربَ موسى ملكَ الموت على عينه وفقأَها، إنما كانت عينُه التي تَحَوَّلَ إِليها عندما تحوَّلَ إلى رجل بشر، وهي عينٌ «تمثيلية» وليست عيناً حقيقية، فعينُه الحقيقيةُ باعتبارِه مَلَكاً من الملائكة لم تتأثر.

ولا غرابةَ فيها، ففي العصرِ الحديثِ تَقَدَّمَ الناسُ في «التمثيل»، وصناعةِ «الحيل السينمائية»، فقد نرى الممثلَ في «الفيلم» وقد قُطِعَ رأسُه، وخرجَ الدم من رقبتِه كالنافورة، مع أَنه في الحقيقة لم يُصَبْ بأذى، وإِنما هذا من الحيلِ السينمائية.. وهذا يقربُ لنا تصوُّرَ الضربةِ التي فقأَتْ عينَ ملَكِ الموت التمثيلية وليست الحقيقية!!

أجل موسى وشعر جلد الثور:

أَعادَ اللّهُ ملكَ الموتِ إِلى موسى مرةً ثانية.. ولما جاءه عرفَ أَنه ملكُ الموت، وأَنَّ اللّهَ هو الذي أرسلَه له، فلما عرفَ موسى ذلك استسلمَ لأمْرِ الله، وتجاوَبَ مع ملك الموت، وقدَّرَه حقَّ تقديره، وعاملَه بما يليقُ به باعتبارِه ملك الموت.

قال ملكُ الموت لموسى: يقولُ لكَ ربُّك: يا موسى: هل تريدُ الحياة؟ إنْ كنتَ تريدُ الحياة فضَعْ يدكَ على ظهرِ جلدِ الثور، فإنَّ لكَ بكلِّ شعرةٍ تحتَ يدك سنةً تعيشُها!!

إنَّ اللّهَ يريدُ أنْ يقدمَ حقيقةً لموسى عليه السلام أَنه غيرُ مخلَّد، وأَنه لا بدَّ أنْ يموت، فمهما عاشَ من مئاتِ السنين أو أُلوفِها فلا بدَّ أنْ يأتيه الأجلُ ويموت!

وقرَّبَ اللّهُ له هذه الحقيقةَ بصورةٍ تمثيلية، وذلك بأنْ يضعَ يدَه على ظهرِ ثور، ثم ينظرُ المساحةَ التي غطتْها يدُه، ولْيحاولْ إِحصاءَ وعدَّ الشعرِ الذي تحتَ يده! فكم شعرةً تحتَ يده؟ سيكون تَحتَ يدِهِ آلافُ الشعرات!!

عند ذلك يحسبُ كم بقيَ له من عمره، ويجعلُ لكلِّ شعرةٍ سنة، أي أَنه سيعيش آلافَ السنوات.

وماذا بعدَ ذلك؟ إِنه الموتُ بعد انقضاءِ آلاف السنوات!![1].

طبعاً موسى لم يفعلْ ذلك عليه السلام، وإنما سألَ ملكَ الموت: ثم ماذا بعدَ ذلك؟

أي: ماذا بعدَ انقضاءِ السنواتِ التي بعددِ الشعرات؟

أَجابه ملكُ الموت: ثم الموت!!

لقد كتبَ اللّهُ الموتَ على كلِّ مخلوق، سواء كان إِنساً أَو جناً أو ملكاً من الملائكة، ولم يجعل الخلدَ لأيِّ مخلوق، وورد هذا المعنى صريحاً في خطابِ الله لمحمدٍ ﷺ، الذي وردَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤ ـ ٣٥].

عند ذلك وعى موسى عليه السلام الدرس، وعرفَ الحقيقة، وبهذا تمَّ تخييرُه، لأنَّ اللّهَ لا يقبضُ روحَ نبيٍّ إلاّ بعدَ تخييره، وعندما يخيِّرُه يختارُ المسارعةَ إلى لقائه، كما سبقَ أنْ قررنا.

فاختارَ موسى لقاءَ الله، وقالَ لملكِ الموت: فالآن!!

أي: اقبض روحي الآن!!

موسى يطلب تقريبه من الأرض المقدسة:

وكانَ له طلبٌ أخيرٌ من اللّهِ قبلَ قبضِ روحه! وهو أنْ يُقربَه ويُدنيَه من الأرضِ المقدسة مقدارَ رميةِ حجر، ثم يأمرَ ملكَ الموتِ بقبضِ روحه.

وهذا يدلُّ على أنَّ وفاةَ موسى كانت قبلَ دخولِه ببني إسرائيل الأرضَ المقدسة.

---

(١) انظر شرح الحديث في شرح النووي على صحيح مسلم ١٥:١٢٦ ـ ١٣٠. وفتح الباري لابن حجر ٣:٢٠٧ و٦:٤٤٠ ـ ٤٤٤.

وإنما طلبَ موسى عليه السلام هذا الطلبَ لأَنه كان كلُّه شوقٌ لرؤيةِ الأرض المقدسة ودخولِها، راغباً في ذلك، ولكنَّ اللّهَ حكيم، فقدَّرَ عدمَ دخولِه إليها في حياته، وإذا لم يُقدِّرْ له دخولَها، فلا أقلَّ من أنْ يموتَ قريباً منها.

طلبَ أن تكونَ المسافةُ بين المكانِ الذي يموتُ فيه والأرضِ المقدسة مقدارَ رميةِ حجر، ورميةُ الحجر لا تتجاوزُ مئات الأمتار!!

وهذا يدلُّ على أنَّ الحادثةَ كانت قريبةً من الأرض المقدسة، وأنَّ بني إسرائيل كانوا على «مشارف» الأرضِ المقدسة.

لكن كانوا في أيِّ جهة؟ هل كانوا جنوبَها في سيناء؟ أم كانوا شرقَها في الأردن؟ ليس عندنا جوابٌ يقينيٌّ على ذلك، وإنْ كان اليهودُ يزعمون أنهم كانوا شرقَ الأرضِ المقدسة في الأردن!!

سألَ موسى ربَّه أنْ يقربَه من الأرض المقدسة لأَنه يعلمُ أن النبيَّ إذا ماتَ فيجبُ دفنُه في المكانِ الذي مات فيه، ولا يجوزُ نقلُه إلى مكانٍ آخر بعدَ وفاته، وموسى عليه السلام يريدُ أنْ يكونَ قريباً من الأرضِ المقدسة، ولهذا طلبَ تقريبَه إليها في حياته، وقبلَ خروجِ روحه.

وطلبُ موسى عليه السلام أنْ يقربَه اللّهُ من الأرضِ المقدسة دليلٌ على فضْلِ الأرضِ المقدسة، وعلى فضْلِ الدفنِ فيها، فهي مهبطُ الوحي وأرضُ الأنبياء.

وقد فهمَ الإمامُ البخاريُّ من الحديثِ هذا المعنى، ولذلك جعلَ عنوانَ الباب الذي أوردَ فيه الحديث: «باب مَنْ أحبَّ الدفنَ في الأرضِ المقدسة، أو نحوها»[1].

---

(١) هو الباب رقم: ٦٨ من كتاب الجنائز رقم: ٢٣. والحديث فيه برقم: ١٣٣٩.

دفنه عند الكثيب الأحمر:

واستجابَ اللّهُ دعوةَ موسى عليه السلام، وقرَّبَه من الأرضِ، حتى كان بمقدارِ رميةِ حجر، لا تتجاوزُ مئات الأمتار..

وفي ذلك المكانِ قَبَضَ ملكُ الموت روحَ موسى عليه السلام، وغادرتْ روحُه الطاهرةُ جسدَه الشريف، وغادرَ هذه الحياةَ الدنيا، وذهبَ إِلى ربِّه راضياً مرضياً عليه الصلاة والسلام!!

وأخبرَ رسولُنا محمَّدٌ ﷺ الصحابةَ الكرام في المدينة أَنه لو كانَ معهم في الأرض المقدسة لأَراهم قبره: «فلو كنتُ ثَمَّ، لأريتُكم قبره».

و«ثَمَّ» ـ بفتح الثاء ـ اسمُ إِشارة بمعنى: هناك.

أي: لو كنتُ هناك في الأرض المقدسة لأريتكم قبرَه.

وحدَّدَ موضعَ قبره بأنه عندَ الكثيبِ الأحمر إِلى جانبِ الطريق: «لأريتُكم قبرَه إلى جانبِ الطريق عند الكثيب الأحمر..».

والكثيب: هو الرملُ المتجمعُ المستطيلُ في الصحراء. والرملُ الذي دُفنَ موسى عليه السلام بجانبه لونُه أحمر.

ولم يُبين رسولُنا ﷺ الطريقَ التي دُفن موسى بجانبها، كما لم يحدِّدْ لنا مكانَ الكثيبِ الأحمر بجانب الطريق.

هل هذه الطريقُ في سيناء؟ وفي سيناء كثبانٌ رمليةٌ عديدة! أم هذه الطريقُ في الأردن شرقِ الأرض المقدسة؟ أم في منطقةِ وادي عربة وكثبانُها الرمليةُ كثيرة؟ أم في منطقة «مدين» ـ معان وما حولها ـ في جنوبِ الأردن وكثبانُها الرمليةُ كثيرة؟ لم يُحَدِّدْ لنا تلكَ الطريق، ولا كثيبَ الرمل الأحمر!!

وقد أَعادَ رسولُ الله ﷺ الحديثَ عن الكثيب الأحمر، عندما أَخبرَ عن ما رآه في رحلةِ الإسراء.

الرسول رآه يصلي في قبره ليلة الإسراء:

فقد روى مسلمٌ وغيره عن أَنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ في حديثِ الإسراء والمعراج قولَه: «مررتُ ليلةَ أُسريَ بي على موسى قائماً يُصلي في قبره، عند الكثيبِ الأحمر..»[1].

أي أنَّ رسولَ الله ﷺ شاهَدَ موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره، وقبرُه عند الكثيبِ الأحمر.

ومعلومٌ أنَّ الإسراءَ كان من المسجدِ الحرام في مكة إِلى المسجدِ الأقصى في بيت المقدس. أي أنَّ طريقَ الإسراء كانت هي الطريقَ ما بين الحجاز وبلاد الشام، فلعلَّ الكثيبَ الأحمرَ المذكورَ في الحديث في منطقةِ معان جنوب الأردن، أو منطقةِ وادي عربة، أو منطقةٍ أُخرى شرقَ نهرِ الأردن!!.

ويدلُّ الحديثُ على أنَّ موسى عليه السلام حيٌّ في قبره، وحياتُه خاصةٌ ليست بمقاييسِ حياتنا الدنيا، لأنه غادرَ هذه الحياة، إِنما حياتُه حياةٌ برزخيةٌ تَليقُ به، ومعلومٌ أنَّ الأنبياءَ أحياءٌ ـ حياة خاصة ـ في قبورهم، وأنَّ الأرض لا تأكلُ أَجسامَهم.

وكان موسى عليه السلام قائماً في قبره يصلّي لله سبحانه، وهي صلاةٌ خاصة، ذِكْرٌ لله وثناءٌ عليه، وليست تكليفاً لأنه لا تكليفَ بعد الموت!!

والخلاصةُ أَنه لا يمكننا تحديدُ المكان الذي دُفن فيه موسى عليه السلام، فكلُّ ما ذكرَه الحديثُ أنَّ قبرَه بجانبِ الطريقِ عند الكثيبِ الأحمر، وهذا «إِبهامٌ» مقصودٌ لقبره.

لكننا نقولَ إِن هذا القبرَ والكثيبَ الأحمر ليس في الأرضِ

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٧٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢١٩.

المقدسة، وإنَما هو على مشارفها، على بعد رميةِ حجرٍ منها، لأنَّ موسى عليه السلام تُوفيَ قبيلَ دخولِ قومِه الأرضَ المقدسة، وهم دخلوها بعدَ دفنه، وكانوا بقيادةِ خليفته يوشعَ بن نون، ولم يأخذوه معهم، ولم يَدفنوه في الأرضِ المقدسة، لأنَّ كلَّ نبي يُدفنُ في المكانِ الذي توفيَ فيه.

موسى لم يدفن في فلسطين:

وهذا يدعونا إلى رفضِ ما يزعمُ الإسرائيليون - ويصدقُهم فيه بعضُ المسلمين - من أنَّ بني إسرائيل لما دخلوا الأرضَ المقدسة بقيادةِ يوشع بن نون، أَخذوا معهم جثمانَ موسى عليه السلام، ثم دفنوه في الأرضِ المقدسة ما بينَ أَريحا وبيت المقدس!

وقد ذهبَ بعضُ المسلمين إلى أَنَّ موسى عليه السلام في منطقةِ بين أَريحا والقدس تسمى منطقة «الخان الأحمر».

إِننا لا نقبلُ كلامَهم لأنَّ موسى عليه السلام ماتَ ودفنَ في مكانٍ قريب من الأرض المقدسة، وليس فيها، وأنَّ النبيَّ يُدفنُ في المكانِ الذي يموتُ فيه..!!

ودليلُ ذلك ما رواه أحمدُ والترمذيُّ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما: أنَّ أصحابَ النبيِّ ﷺ لم يَدروا أينَ يقبرونَ رسولَ الله ﷺ، حتى قالَ أبو بكر رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لن يُقْبَرَ نبيٌّ إلا حيثُ يموت..»[(١)].

ورواه ابنُ ماجه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ما قُبضَ نبيٌّ إلاّ دُفنَ حيثُ يُقبض..»[(٢)].

---

(١) مسند أحمد، حديث رقم: ٢٧. قال عنه الشيخ شعيب الأرناؤوط، حديث قوي بطرقه، وبعدما أورد مجموعة طرق له قال: فهذه الطرق يشد بعضها بعضاً فيتقوى الحديث. مسند أحمد ١:٢٠٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم: ١٦٢٨.

وهذا معناهُ أنَّ موسى عليه السلام دُفنَ في المكانِ الذي قُبضَ فيه، ولم يُدفنْ في الأرضِ المقدسة، ولم يُنقلْ إليها.. والله أعلم..

وهكذا انتهتْ حياةُ موسى عليه السلام التي عاشَها لله ومع الله، والتي واجَه فيها كيدَ فرعونَ وملئه، وإيذاءَ بني إسرائيل أَتْباعِه، وعاشَها نبياً رسولاً كريماً، صابراً محتسباً، ثابتاً صادقاً.

ولا تحددُ مصادرُنا الإسلاميةُ عمرَه يومَ وفاته، فلا نخوضُ فيه، ونُفَوِّضُ العلمَ فيه إلى الله عز وجل..

[٣]

رسولنا يخبرنا عن موسى عليهما الصلاة والسلام

نختمُ كلامَنا عن قصةِ موسى عليه السلام بذكْرِ أحاديثَ صحيحة عن رسولنا ﷺ، أخبَرنا فيها عن بعضِ ما يتصلُ بموسى عليه السلام.

وسنختارُ الأحاديثَ الصحيحة التي لم نوردْها في المباحثِ السابقة منعاً للتكرار.

هيئة موسى وشكله وجسمه:

أَخبَرنا رسولُ الله ﷺ عن هيئةِ موسى وشكلِه عليه السلام.

فقد روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «... وأَما موسى، فرجُلٌ آدَم، جَعْد، على جملٍ أَحمر، مخطومٌ بخِلْبَة، كأَني أنظرُ إليه، إذا انحدر في الوادي يلبّي..»[١].

ومعنى «آدَمٌ»: أسمرُ اللون.

ومعنى «جَعْدٌ»: مكتنزُ الجسم بشكلٍ جميلٍ متناسق.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٥٥. ومسلم برقم: ١٦٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٧٢.

ومعنى «مخطومٌ بخِلْبَة»: الخلبةُ هي الليف، أي كانَ الجملُ الذي يركبهُ موسى أحمرَ اللون، مربوطاً بحبلٍ من ليف، يقودُه به.

وروى الإمامُ مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ حين أُسري به فقال: «موسى آدَمٌ طِوال، كأَنه من رجالِ شَنوءَة..»[1].

ومعنى «طِوال»: طويلُ الجسم.

و«شنوءَة»: قبيلةٌ معروفةٌ من «الأزد» من اليمن.

أي أنَّ موسى عليه السلام كان أسمرَ طويلاً، يكادُ يشبهُ في طولِه وهيئتهِ رجالَ أزدِ شنوءة، القبيلةِ اليمنية المعروفة.

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «عُرِضَ عليَ الأنبياءُ، فإذا موسى ضَرْبٌ من الرجال، كأنه من رجالِ شنوءة....»[2].

وروى مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: سِرْنا مع رسول الله ﷺ بين مكةَ والمدينة، فمرَرْنا بواد، فقال: أَيُّ وادٍ هذا؟

فقالوا: وادي الأزرق.

قال: كأَني أَنظرُ إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثَّنِيَّة، واضعاً أُصبعيهِ في أُذنيه، له جُؤارٌ إلى الله بالتلبية، ماراً بهذا الوادي...»[3].

وروى البخاري ومسلم عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ليلةَ أُسريَ بي رأيتُ موسى، فإذا هو رجلٌ ضَرْبٌ،

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٢.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٦٧. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٧١.

(٣) أخرجه مسلم برقم: ١٦٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٨.

رَجِلُ الشعَر، كأنه من رجالِ شنوءة...»[1].

ومعنى «رَجُلٌ ضَرْب»: رجلٌ متوسطٌ في جسمه، فلا هو سمينُ كثيرُ اللحم، ولا هو نحيفٌ قليلٌ اللحم.

ومعنى «رَجِلُ الشعر»: صاحبُ شعرٍ طويلٍ مرجَّل متناسق.

لقد رأى رسولُنا محمدٌ نبيَّ الله موسى عليهما الصلاة والسلام رؤيا غيبية، وذلك عندما أُسريَ به ليلةَ الإسراء، فقدَّمَ لنا صفتَه وهيئته في هذه الأَحاديثِ الصحيحة.

الرسول يرى موسى مع الأنبياء ليلة الإسراء:

والدليلُ على أَنه رآه مَع مجموعةٍ من الأنبياءِ ليلةَ الإسراء في طريقه إلى بيت المقدس، ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: لقد رأيتُني في الحِجْرِ - حجْرِ إسماعيل عند الكعبة - وقريشٌ تسألُني عن مسراي، فسأَلَتْني عن أشياءَ من بيتِ المقدس لم أُثبِتْها - لم أحفظها -. فكربْتُ كُربةً ما كربْتُ مثلَه قطّ. فرفعَه اللّهُ لي، أَنظرُ إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأْتُهم به...

وقد رأيتُني في جماعةٍ من الأنبياء:

فإذا موسى قائمٌ يصلّي، فإذا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْد، كأَنه من رجالِ شنوءة..

وإِذا عيسى بن مريم عليه السلام قائمٌ يُصلي، أَقربُ الناسِ به شَبَهاً عروةُ بنُ مسعود الثقفي.

وإِذا إبراهيمُ عليه السلام قائمٌ يصلي، أَشبهُ الناس به صاحبُكم. يعني نفسَه ﷺ.

فحانت الصلاةُ، فأَمَمْتُهم...»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٩٤. ومسلم برقم: ١٦٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨١.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٧٢.

أي أَنه صلّى بالأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام ليلةَ الإسراء في المسجد الأقصى.

وخلاصةُ وصْفِ موسى عليه السلام من هذه الأحاديث: أَنه كان أسمرَ اللون، متوسطَ الطول، معتدلَ الجسم، لا بالسمينِ ولا بالنحيف، ولا بالطويلِ ولا بالقصير، يشبهُ في تناسقِ جسمِه رجالَ الأزدِ اليمنيين!!

صبر موسى على إيذاء قومه له ومعجزة الحجر والثوب:

وقد أَخبرَنا رسولُنا ﷺ عن صبْرِ موسى عليه السلام على إِيذاءِ قومه له.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: إنّ موسى عليه السلام كان رجلاً حَيِيّاً سِتّيراً، لا يُرى من جلده شيء، استحياءً منه.

فآذاه مَنْ آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما استترَ هذا التَّسَتُّرَ إلاّ من عيبٍ في جلده، إِمّا بَرَصٌ، وإِمّا أُدْرَة، وإِمّا آفة!

وإِنَّ اللّهَ عز وجل أَرادَ أَنْ يبرئَه مما قالوا. فخلاَ يوماً وحدَه، فوضعَ ثوبَه على الحجر، ثم اغتسل..

فلما فرغَ أَقبلَ إِلى ثيابه ليأخذَها. وإِنَّ الحجرَ عدا بثوبه.. فأخذَ موسى عصاه، وطلبَ الحجر، فجعلَ يقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر!!

حتى انتهى إِلى ملأ من بني إسرائيل، فرأَوْهُ عرياناً، أحسنَ ما خلقَ الله.. وبرَّأَهُ اللّهُ مما يقولون.. وقامَ الحجرُ فأخذَ ثوبَه فلبسه، وطفقَ بالحجر ضَرْباً بعصاه.. وإِنَّ بالحجر لَنُدَباً من أَثرِ ضربه، ثلاثاً، أو أربعاً، أو خمساً.

فذلكَ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾..﴾ [الأحزاب: ٦٩][1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٠٤. ومسلم برقم: ٣٣٩. وانظر الأحاديث الصحيحة: ٢٠١.

يُثني رسولُنا ﷺ في هذا الحديثِ على موسى عليه السلام، ويصفه بأنه كان حَيياً ستّيراً، وأنه كانَ لا يكشفُ شيئاً من جسمه حياءً ورغبةً في الستر.

ولكنَّ قوماً من بني إِسرائيل أَساءوا تفسيرَ هذا الموقف منه، ولم يَحملوه على التفسيرِ الصحيح المتفقِ مع فضْلِ موسى وكمالِه، وإِنما حملوه على الاتهامِ وسوءِ الظن والتحليل، وفقَ طبيعتهم السيئة الاتهامية.

قالوا: إِنّه لم يسترْ جسْمَه عنّا إلاّ لأنَّ في جسمه عيباً أو مرضاً، فقد يكونُ في جسمهِ برصٌ أو آفة، وقد تكونُ هذه الآفةُ في «خصيتيه» وهذا معنى «الأُدْرة».

فالأُدْرَةُ هي: انتفاخُ الخصيتين.

وإِنَّ اللّهَ قد أَرادَ أَنْ يُبرئَ موسى عليه السلام من هذه التهمة، فهو أكملُ الناس جسماً وأجملهم خَلْقاً عليه السلام، ولذلك أَجرى معجزةً من معجزاته..

فقد ذهبَ موسى عليه السلام يوماً ليغتسل، فابتعدَ عن قومه إِلى ماء، ووضعَ ثوبَه على حجرٍ بجانب الماء، ونزلَ ليغتسل.. ولما أَنهى اغتسالَه خرجَ ليلبسَ ثوبه... فأمرَ اللّهُ الحجرَ أنْ يَهربَ بثوبه، حيثُ يجلسُ ملأٌ من بني إسرائيل!! والحجرُ الأصمُّ من جنودِ الله سبحانه، وما يعلمُ جنودَ ربِّك إلا هو، فنفَّذَ أَمْرَ الله!!

نظرَ موسى وهو عريانٌ إِلى الحجر فإذا به يَعدو ويذهبُ بعيداً، وهو حامل الثوب، فلحقَ به وصارَ يُناديه: يا حجر ثوبي!! يا حجر رُدَّ عليَّ ثوبي!! يا حجر! اتركْ ثوبي!!. والحجرُ يعدو أَمامه بالثوب ولا يستجيبُ له!!

واستمرا على هذا المنظر العجيب، إِلى أنْ وصَل الحجرُ إِلى حيثُ يجلسُ بنو إسرائيل، فتوقَّفَ أَمامَهم.

ونظرَ القومُ إلى موسى عليه السلام، وهو عريانٌ لا يسترُ جسْمَه شيء، فإذا به من أَحسنِ الناس جسماً، ليسَ به آفةٌ ولا أُدْرَةٌ ولا مرضٌ ولا بَرص!!.

فتناولَ موسى عليه السلام ثوبَه فلبسَه، وغضبَ من الحجر لفعلته، فضربَ الحجرَ بعصاه، فتركت العصا آثاراً في الحجر مكانَ الضرب، وكان الأثرُ نُدوباً في الحجر، ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً.

وبهذه المعجزةِ الباهرة برأَ اللّهُ موسى عليه السلام من إيذاءِ واتهامِ قومِه له!!

وقد نهانا اللّهُ عن إيذاءِ رسولنا محمد ﷺ، كما آذى بنو إسرائيل موسى عليه السلام، وأشارتْ آيةُ سورةِ الأحزاب (٦٩) إلى ما آذوه به، وإلى قصته مع الحجر والثوب، بشكلٍ مجمل: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ..﴾.

وأَخبرَنا رسولُنا ﷺ أنَّ موسى عليه السلام صبرَ على إيذاءِ قومه، وهو ما يليقُ به باعتبارِه نبياً من أُولي العزم.

روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَسَمَ رسولُ الله ﷺ قِسْماً. فقالَ رجل: إنَّ هذه قسمة ما أُريدَ بها وجْهُ الله.

فأَتيتُ رسولَ الله ﷺ، فأخبرتُه. فغضبَ، حتى رأيتُ الغضبَ في وجهه، فقال: «رحمَ اللّهُ أَخي موسى، قد أُوذيَ بأكثرَ من هذا فصبر»[1].

فلما أَساءَ أحدُ الأجلافِ إلى رسول الله ﷺ وآذاه، تذكَّرَ عليه

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣١٥٠. ومسلم برقم: ١٠٦٢. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٠٠.

الصلاة والسلام نبيَّ الله موسى، وصبْرَه على إيذاءِ قومه، فترحَّمَ عليه وأشادَ بصبره على إيذائهم، وأعلنَ اقتداءَه به في الصبر والتحمل.

موسى يحج إلى بيت الله الحرام:

وأَخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ موسى عليه السلام قد حجَّ بيتَ الله الحرام.

فقد روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسولَ الله ﷺ أَتى على وادي الأزرق، فقال: كأني أَنظرُ إلى موسى منهبطاً، وله جُؤارٌ إِلى ربّه بالتلبية.

ومرَّ على ثنية، فقال: ما هذه؟ قالوا: ثنيةُ كذا وكذا. قال: كأني أنظرُ إِلى موسى يَرمي الجمرةَ على ناقةٍ حمراء، خِطامُها من ليف، وعليه جبة من صوف..»[1].

فموسى عليه السلام أَتى إلى الحج، وركبَ ناقةً حمراء، ولبسَ جبةً من صوف، ومَرَّ بوادي الأزرق الواقعِ بين مكة والمدينة، وكان يرفعُ صوتَه بالتلبية، ويقول: لبيكَ اللهمَّ لبيك.

وأَتى مكة، فطافَ بالكعبة، ثم ذهبَ إِلى منى، ورمى فيها الجمرة!!

المحاجة والجدال بين آدم وموسى:

وأَخبرنا رسولُنا ﷺ عن الحِجاجِ والجدالِ الذي كانَ بين آدمَ وموسى عليهما السلام.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «حاجَّ موسى آدمَ عليهما السلام.

فقالَ له: أنتَ الذي أَخرجْتَ الناس بذنبك من الجنةِ وأَشقيتهم!

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٦٦.

فقال آدم: يا موسى: أنتَ الذي اصطفاكَ اللّهُ برسالاته وبكلامه. أَتلومُني على أمرٍ قد كتبهُ اللّهُ عليّ، أو قدَّرَهُ عليّ، قبلَ أنْ يَخلقني.

قالَ رسولُ الله ﷺ: فحجَّ آدمُ موسى!»[١].

وقد تكلَّمْنا عن هذا الحديثِ أثناءَ كلامِنا عن قصةِ آدم عليه السلام، وذكَرْنا الراجحَ في معناه، كما قالَه الإمام ابن كثير رحمه الله.

وهو أنَّ موسى يلومُ آدمَ عليهما السلام على إخراجِه نفسَهُ وذريتَه من الجنة، فأخبرَه آدمُ أنه لم يخرجْهم من الجنة، وإنما أَخرجَهم الله، لأنه رتَّبَ إخراجَهم على أَكْلِه من الشجرة، وقدَّرَ هذا الإخراجَ قبلَ خلقِ آدم، وقبلَ أكْلِه من الشجرة.

وشهدَ رسولُ الله ﷺ أنَّ آدمَ حجَّ موسى عليهما السلام وأَفحمه، وكانت حجتُه أَقوى من حُجَّةِ موسى.

موسى يسأل عن أدنى وأعلى منازل الجنة:

وأخبرَنا رسولُنا ﷺ عن سؤالِ موسى لربه عن منازلِ المؤمنين الصالحين في الجنة، مَنْ هو أَدناهم منزلة، ومَن هو أَعلاهم منزلة:

فقد روى مسلمٌ عن المغيرةِ بن شعبة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال:

«إنَّ موسى عليه السلام سألَ ربَّه عز وجل: أيُّ أهلِ الجنة أَدنى منزلة؟

فقال: رجُلٌ يَجيءُ بعدما يدخلُ أهلُ الجنة الجنة. فيُقالُ له: ادخل الجنة. فيقول: كيفَ أدخلُ الجنة، وقد نزلَ الناسُ منازلَهم وأَخذوا أَخذاتهم؟

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٠٩. ومسلم برقم: ٢٦٥٢. وانظر الأحاديث الصحيحة: ٣٤.

فيقالُ له: أَترضى أنْ يكونَ لك من الجنة مثلُ ما كانَ لملكٍ من ملوك الدنيا؟

فيقول: نَعم يا رب!

فيقال له: لكَ هذا ومثْلُه معه.

فيقول: أي ربّ: رَضيتُ!

فيقال له: لكَ مع هذا ما اشتهتْ نفسُك ولذَّتْ عينُك!

وسألَ موسى ربَّه: أيُّ أهْلِ الجنة أَرفعُ منزلة؟

قال: سأحدثكَ عنهم: غرسْتُ كرامَتَهم بيدي، وختمتُ عليها، فلا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشر!!».

وفي روايةٍ أُخرى: يُقالُ لأدناهم منزلة: أَترضى أنْ يكونَ لك مثلُ مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟

فيقول: رضيتُ يا رب.

فيقال له: لكَ ذلك، ومثلُه، ومثلُه، ومثلُه، ومثلُه!!!

فيقول في الخامسة: رضيتُ يا رب.

فيقال: هذا لكَ، وعشرةُ أمثاله!!! ولكَ ما اشتهتْ نفسُك، ولذَّتْ عينُك..

فيقول: رضيتُ يا رب.

قال موسى: ربِّ فأَعلاهم منزلة؟

قال: أولئك أَردت. غرسْتُ كرامَتَهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم تَرَ عَيْن، ولم تَسمعْ أُذُن، ولم يخطرْ على قلبِ بشر..»[1].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٨٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢١٣.

حادثة الأنصاري مع اليهودي وعلاج الرسول لها:

وأَخبرنا رسولُنا ﷺ عن فضْلِ موسى ومنزلتِه عند ربّه، وذكرَ فضيلةً له عند البعثِ يومَ القيامة، وجاءَ كلامُه في مناسبةٍ عجيبةٍ مثيرة، ضربَ فيها أَنصاريٌّ أحدَ اليهود لأنه أَشارَ إِلى فضْلِ موسى على العالمين!!

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسولُ الله ﷺ جالس، جاءَه يهودي، فقال: يا أبا القاسم: ضَرَبَ وجهي رجلٌ من أصحابِك.

فقال: مَنْ؟

قال: رجلٌ من الأَنصار!

فَدَعاه، فقال: أَضَرَبْتَه؟

قال: سمعتُه بالسوق يحلف ويقول: والذي اصطفى موسى على البشر!

قلت: يا خبيث. على محمدٍ ﷺ؟

فأخذَتْني غضبة، فضربْتُ وجْهَه!

فقالَ عليه الصلاة والسلام: «لا تخيِّروا بينَ الأنبياء. فإِنَّ الناسَ يُصعقونَ يوم القيامة، فأكونُ أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض، فإذا أَنا بموسى آخِذٌ بقائمةٍ من قوائمِ العرش. فلا أَدري أكانَ فيمن صُعِقَ، أَم حوسبَ بصعقتِه الأُولى؟»[1].

ولهذه الحادثةِ روايةٌ أُخرى عند البخاريِّ ومسلم عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه قال:

استبَّ رجلان، رجلٌ من المسلمين، ورجلٌ من اليهود. فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين. فقالَ اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٤١٢. ومسلم برقم: ٢٣٧٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٢١.

فرفعَ المسلمُ يَدَه، فلطَمَ وجْهَ اليهودي!

فذهبَ اليهوديُّ إلى النبيِّ ﷺ، فأَخبرَه بما كانَ من أَمْرِه وأمْرِ المسلم.

فدعاهُ النبيُّ ﷺ، فسأَلَه عن ذلك، فأَخبره.

فقالَ النبيُّ ﷺ: «لا تُخَيِّروني على موسى، فإنَّ الناسَ يُصعقونَ يومَ القيامة، فأُصعقُ معهم، فأكونُ أولَ مَنْ يفيق، فإذا موسى باطشٌ جنبَ العرش، فلا أَدري أكانَ فيمن صُعِقَ فأفاقَ قبلي، أو كانَ ممن استثنى الله..».

الرسول ينهى عن التفضيل على موسى وتوجيهه:

إنَّ الأنصاريَّ يعلمُ أنَّ اللّهَ اصطفى محمداً ﷺ على العالمين، وأَنه أفضلُ البشر. فسمعَ اليهوديَّ يحلفُ بالله، الذي اصطفى موسى عليه الصلاة والسلام، ويُقررُ أنَّ موسى هو أفضلُ العالمين.

فغضبَ الأنصاريُّ منه، وقالَ له: يا خبيث أَتزعمُ أنَّ موسى أفضلُ العالمين؟ وأَنه بهذا أَفضلُ مِن نبيِّنا محمدٍ ﷺ؟. ولطمَ اليهوديَّ على وجهه، فجاءَ اليهوديُّ يشكوهُ إلى رسول الله ﷺ، فلما استدعاه النبيُّ ﷺ اعترفَ بما فعله، وأَنه فعلَ ذلك باليهوديِّ تأديباً له.

وفهمَ رسولُ الله ﷺ من الحادثة كأنَّ الأنصاريَّ يُنقصُ من قدرِ نبيِّ اللّهِ موسى عليه السلام، فأَعطاه وأعطَى الصحابة والمسلمين درساً، وهو أنْ لا يُخيِّروا بينَ الأنبياء عموماً، وأنْ لا يُخيِّروه على موسى عليه السلام خصوصاً.

وهذا النهيُ عن التخييرِ هو القائمُ على إنقاصِ مقامِ بعضِ الأنبياء، أَو إِنقاصِ مقام موسى على حسابِ محمدٍ عليهما الصلاة والسلام. إنَّ هذا حرام لأنَّ المؤمنَ يؤمنُ بجميعِ الرسل، ولا يُفرقُ بين أَحدٍ منهم، وهذا ما وردَ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ

وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

أما إذا أُمِنَ هذا الجانب، وآمَنَ المؤمنُ بجميعِ الرسل، ولم يُنقصْ قدْرَ أحدٍ منهم، فعليه أنْ يؤمنَ بأنَّ محمداً ﷺ هو أفضلُ الأنبياء والمرسلين، بل أفضلُ خلْقِ الله أجمعين، وأنَّ اللّهَ اصطفاه وفضَّله، وخصَّه بما خصَّه به.

وهذا ما وردَ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

فضيلة لموسى يوم القيامة وإمساكه بقائمة العرش:

وبعدَ أنْ نهى رسولُ الله ﷺ عن تخييرِه على موسى عليه السلام تخييراً يقومُ على إنقاصِ قدْرِ موسى، قَدَّمَ لنا صورةً لفضْلِه عندَ الله يومَ القيامة.

فعندما يُبعثُ الناسُ من قبورهم يومَ القيامة، يكونُ رسولُ الله ﷺ أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض، وعندما يَرفعُ رأْسَه ﷺ ينظرُ فإذا نبيُّ الله موسى عليه السلام قائمٌ ممسكٌ بقائمةٍ من قوائمِ عرشِ الله!

فيتعجبُ رسولُنا ﷺ من ذلك، ولا يَدري هل أفاقَ موسى قبلَه، وأمسكَ بقائمةِ العرش، أم كان ممن استثناهم اللّهُ من الصعق، واكتفى بصعقتِه الأُولى؟

ويشيرُ رسولنا ﷺ في قوله: «أم حوسب بصعقته الأولى» إلى الصعقةِ التي أَصابتْ موسى عليه السلام عندَ جبلِ الطور، لما طلبَ أنْ يرى الله، فلما تجلّى اللّهُ للجبل دكَّه، وصُعقَ موسى عليه السلام.

وهذه الحادثةُ هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣].

موسى ومقام الشفاعة لمحمد يوم القيامة:

وأَخبرَنا رسولُنا ﷺ عن مقامِ الشفاعة الذي اختصَّهُ اللّهُ به، وأنَّ الأنبياءَ يَعرفونَ هذا الفضلَ له، فعندما يأتيهم الناسُ يومَ القيامة ليشفعوا لهم عندَ الله، يَدفعونهم حتى يَصِلوا إِلى محمدٍ ﷺ، فيطلبوا ذلك منه.

روى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما من حديثِ الشفاعة الطويل الذي رواه أَبو هريرة عن رسول الله ﷺ، والذي جاءَ فيه عن موسى عليه السلام قوله: «... فيقولُ لهم إِبراهيمُ عليه السلام: إنَّ ربي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يَغضبْ قبلَه مثلَه، ولا يغضبُ بعده مثلَه... نفسي، نفسي، اذهبوا إِلى غيري، اذهبوا إلى موسى...

فيأْتونَ موسى ﷺ فيقولون: يا موسى! أنتَ رسولُ الله، فضَّلَكَ اللّهُ برسالاته، وبتكليمه، اشفعْ لنا إِلى ربك، أَلا ترى ما نحنُ فيه؟ أَلا ترى ما قد بَلَغَنا؟

فيقولُ لهم موسى ﷺ: إنَّ ربي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنّي قتلْتُ نفساً لم أُومَرْ بقتلِها، نفسي، نفسي.. اذهبوا إلى عيسى....»[(١)].

فموسى عليه السلام يعلمُ أَنه ليس صاحبَ مقامِ الشفاعة يومَ القيامة، وأنَّ اللّهَ خَصَّ بها محمداً ﷺ أفضلَ الخلق..

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٤٠. ومسلم برقم: ١٩٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٦٤.

أمة موسى وأمة محمد يوم القيامة:

وأَخبرَنا رسولُنا ﷺ عن أنَّ أُمتَه يومَ القيامة أكثرُ بكثيرٍ من أمةِ موسى عليه السلام.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرُّهَيْط، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبيَّ وليس معه أحد. إذ رُفِعَ لي سوادٌ عظيم، فظننتُ أنهم أُمَّتي. فقيلَ لي: هذا موسى ﷺ وقومُه.. ولكن انظرْ إلى الأُفُق، فنظرْتُ فإذا سوادٌ عظيم. فقيل لي: انظرْ إلى الأُفقِ الآخر. فإذا سوادٌ عظيم.. فقيلَ لي: هذه أمتُك...»[1].

والسَّوادُ هم المجموعةُ من الناس، فإذا كانتْ أمةُ موسى عليه السلام قد شكَّلَتْ سَواداً عظيماً، ومجموعةً كبيرة من الناس، فإنَّ أمةَ محمد ﷺ ـ أمةَ الخلافةِ والرسالةِ والشهادة حتى قيام الساعة ـ قد ملأت الأفقَ عن اليمين والشمال.

فمحمدٌ ﷺ هو أكثرُ الناس أتباعاً يوم القيامة!.

وأَخبرَنا رسولُنا محمدٌ ﷺ أَنه التقى مع موسى عليه السلام في السماءِ ليلةَ المعراج.

وهذا هو المعنى الذي قرَّرَهُ اللّهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾..﴾ [السجدة: ٢٣].

أي: لا تكنْ يا محمد في ريبةٍ أَو شَكٍّ من لقائكَ لنبيِّ الله موسى عليه السلام، وهذا ما تحققَ ليلةَ الإسراء والمعراج، فقد التقى بموسى وغيرِه من الأنبياء، عندما صلّى بهم إماماً في بيتِ المقدس، ثم التقى بهم عندما عُرِجَ به إلى السموات، حيث كانوا فيها ينتظرونَه..

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٠. ومسلم برقم: ٢٢٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٢٠.

الرسول يقابل موسى في السماء السادسة ليلة المعراج:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مالكِ بن صعصعة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ في رحلةِ الإسراء والمعراج... ـ وسنوردُ منه القطعةَ المتعلقةَ بموسى عليه السلام ـ... «... فأَتَيْنا على السماءِ السادسة. قيل: مَنْ هذا؟ قيل: جبريل. قيل: مَنْ معك؟ قيلَ: محمد ﷺ. قيل: وقد أُرسلَ إليه؟ مرحباً به، نعْمَ المجيء جاء..

فأتيتُ على موسى، فسلمتُ عليه. فقال: مَرْحَباً بك من أخ ونبي..

فلما جاوزْتُ بكى! فقيل: ما أَبكاك؟ قال: يارب: هذا الغلامُ الذي بُعِثَ بَعْدي، يدخلُ الجنةَ من أمته أفضلُ مما يدخلُ من أُمتي...».

... «... ثم فُرضتْ عليَّ خمسون صلاة.

فأَقبلْتُ حتى جئتُ موسى. فقال: ما صنعْتَ؟ قلتُ: فُرِضَتْ عليَّ خمسون صلاة! قال: أَنا أَعلمُ بالناس منك. عالجْتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، وإنَّ أُمتَك لا تطيق، فارجعْ إلى ربك، فسَلْه.

فرجعْتُ فسأَلْتُه، فجعلَها أربعين، ثم مثله، ثم ثلاثين، ثم مثله، فجعل عشرين، ثم مثله، فجعل عشراً.

فأتيتُ موسى، فقال مثله، فجعلَها خمساً. فأتيتُ موسى، فقال: ما صنعْتَ؟ قلتُ: جعلَها خمساً! فقالَ مثله. فقلت: سلَّمْتُ!

فنودي: إني قد أَمضيتُ فريضتي، وخفَّفْتُ عن عبادي، وأَجزي الحسنةَ عشراً...»[1].

إنَّ هارونَ في السماء الخامسة، وإنَّ موسى في السماءِ السادسة، وقد مَرَّ بهما رسولُنا ﷺ في رحلةِ المعراج.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٧. ومسلم برقم: ١٦٤. وانظر الأحاديث الصحيحة: ٣٦٢.

ولما كلَّمَ اللّهُ سبحانه محمداً ﷺ تكليماً، أَوجبَ اللّهُ على المسلمين خمسينَ صلاةً في اليوم والليلة.

فمرَّ على موسى في السماءِ السادسة عليه السلام، وأَخبرَه بما كلفَ أُمَّتَه، فأشفقَ موسى عليه السلام على أُمةِ محمدٍ ﷺ، وخشيَ أنْ تُقَصِّرَ في أَداءِ الخمسين صلاة، وطلبَ منه أنْ يطلبَ من ربِّه التخفيف، فما زالَ اللّهُ يُنقصُها في العدد، حتى أَوصلَها خمسَ صلواتٍ في اليوم والليلة.

ومن كرمِ اللّهِ وفضْلِه على هذه الأمة، أَنه أَنقصَ الصلواتِ من حيثُ العدد، ولكنَّه أَبقاها من حيثُ الأجر والثواب: إِنها خمسُ صلوات، لكنها خمسونَ في الأجر.

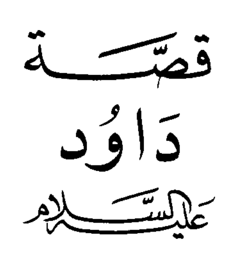
واعترفَ موسى عليه السلام بما لقيَه من بني إِسرائيل، من تفلُّتٍ ومخالفة، فكم بذلَ جهدَه في تربيتهم، وكم حرصَ على أنْ يرتقيَ بهم، وكم عالجَهم، أشدَّ المعالجة، ولكنهم لم يتجاوَبوا معه، ولم يرتفعوا إِلى المستوى الذي يريدُه لهم: «أَنا أعلمُ بالناسِ منك، عالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة..».

هذا بعضُ ما أَخبرَنا به رسولُ الله ﷺ عن نبيِّ الله موسى عليه الصلاة والسلام.

وبهذا ننهي كلامَنا ـ الذي طال ـ عن قصةِ موسى وأَخيه هارون عليهما الصلاة والسلام.

والحمدُ لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.




قصة
داود
عليه السلام



[١]

بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام

عرفْنا من خلالِ حديثِنا عن قصة موسى عليه السلام، أنه كان يُعدُّ جيلاً جديداً من بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة، بعدما جَبنتْ أغلبيةُ بني إسرائيل عن الجهاد، فعاقبهم اللّهُ بالتيهِ في سيناء أربعين سنة.

يوشع بن نون بعد موسى:

وكان يوشعُ بن نون يساعدُ موسى في تربيةِ وإعدادِ بني إسرائيل، لأن هارونَ مات قبل موسى عليهما السلام.

وعرفْنا كيف أنَّ أجلَ موسى عليه السلام قد حانَ قبلَ دخوله بقومه الأرضَ المقدسة، وأن اللّهَ بعثَ له مَلَكَ الموت، وخيَّرَه قبلَ قبض روحه فاختار لقاءه، وطلبَ أنْ يُقَرَّبَ من الأرض المقدسة بمقدار رميةِ حجر، وأنه دُفن قبل الأرض المقدسة، وأن محمداً ﷺ مرَّ على قبره في رحلة المعراج، فرآه في قبره قائماً يصلي، وأخبرَ أن قبرَه بجانب الطريق عند الكثيب الأحمر.

إذن تُوفي موسى عليه السلام قبلَ أن يدخلَ بنو إسرائيل الأرضَ المقدسة، وتوالتْ عليهم الأحداثُ بعد ذلك.

وسنوجزُ فيما يلي القولَ في ما جرى لهم بين موسى وداود عليهما السلام، معتمدين على الآياتِ والأحاديث الصحيحة، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات نأخذُ منها أخبارَهم.

بعد وفاةِ موسى عليه السلام تولّى قيادةَ بني إسرائيل يوشعُ بنُ نون، وكان من صالحيهم.

وقد اختلفَ العلماءُ في نبوة يوشعِ بن نون، فذهب بعضُهم إلى

أنه نبي، وتوقَّفَ آخرون في القول بنبوته، لعدم وجودِ حديثٍ صريحٍ بذلك.

أما عندَ أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم يعتقدون أنه نبي، واسمُه عندهم «يشوع» وله سَفْرٌ خاص، وهو السَّفْرُ السادس من أسفار العهد القديم، الذي يُسمّونه «سفر يشوع».

حجة من قالوا بنبوة يوشع:

والذين قالوا بنبوته اعتمدوا على حديثٍ في الصحيحين:

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غَزا نبيٌّ من الأنبياء، فقال لقومه: لا يَتْبعْني منكم رجلٌ مَلَكَ بُضْعَ امرأة، وهو يريدُ أنْ يبنيَ بها، ولمّا يَبْنِ بها ولا أحدٌ بنى بيوتاً ولم يرفعْ سُقُفَها، ولا أحد اشترى غنماً أو خَلِفاتٍ وهو ينظرُ وِلادَها.

فغزا، فدنا من القرية صلاةَ العصر، أو قريباً من ذلك.

فقال للشمس: أنتِ مأمورة، وأنا مأمور، اللهمّ احبسها علينا! فحُبستْ حتى فتحَ الله عليه!

فجمع الغنائم. فجاءت النارُ لتأكلَها، فلم تَطْعَمْها!

فقال: إنَّ فيكم غُلولاً، فلْيبايعْني من كل قبيلة رجل! فلزقتْ يدُ رجل بيده، فقال: فيكم الغُلول، فلتبايعْني قبيلتك، فلزقتْ يدُ رجلين أو ثلاثةٍ بيده!!

فقال: فيكم الغلول. فجاءوا برأسٍ مثلِ رأس بقرة من الذهب، فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها...»[1].

يخبرُنا رسولُ الله ﷺ في هذا الحديث أن أحدَ الأنبياءَ السابقين

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥١٥٧. ومسلم برقم: ١٧٤٧. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٣٦.

خرجَ بقومه للجهاد في سبيل الله، ومن حكمةِ وفطنة هذا النبي أنه أرادَ أن يكون الجنودُ الخارجون للجهاد متفرغين للجهاد تفرُّغاً كاملاً، حتى في خواطرهم ومشاعرهم، لئلا يُشغلُهم عن الجهاد شاغل.

ولذلك دعا كلَّ مَن كان مشغولاً بشيءٍ من أُمور الدنيا أن لا يخرجَ معهم للجهاد، لأنَّ انشغالَه بذلك الأمر قد يعيقُه عن الاستبسالِ في الجهاد، وقد يدعوه إلى الانهزام والفرار.

الرجلُ الخاطبُ الذي خطبَ امرأة، ومَلَكَ بُضْعَها، ولم يتزوجها، يكون دائمَ التفكير فيها، فلا يخرجْ معه للجهاد.

الذي بنى بيتاً، ولم يُكمل بناءَه، ولم يَسقفْه، يكون دائمَ التفكير فيه، فلا يخرجْ معه للجهاد.

الذي عنده غنمٌ حوامل ينتظرُ ولادتَها، أو عنده نياقٌ حوامل ينتظرُ ولادتها يكون دائمَ التفكير فيها، فلا يخرجْ معه للجهاد.

وبذلك اختارَ النبيُّ جنودَه اختياراً، من المتفرغين للجهاد.

غزا النبيُّ بجنوده قريةَ الكفار، وكان الوقتُ قريباً من صلاة العصر، والوقت ما بين العصر والمغرب قصير، ويخشى النبيُّ أن تغيبَ الشمسُ قبلَ إكمالِ فتح القرية.

ولذلك أرادَ إكمالَ فتح القرية قبلَ مغيب الشمس، فخاطبَ الشمسَ قائلاً: أنتِ مأمورةٌ بالسير والجري، وأنا مأمورٌ بقتال الكفار، وأريدُ أن تتوقفي عن السير والجري، وأن لا تغيبي إلاّ بعدَ فتح القرية.

وتوجَّه النبيُّ إلى الله، وطلبَ منه أنْ يوقفَ سيرَ الشمس، وأنْ يحبسَها عليهم، بحيث لا تغيبُ إلا بعدَ الانتهاءِ من الفتح.

واستجابَ الله دعاءه، وأَجرى على يديه آيتَه، وحبسَ الشمس وأوقفَ سيرها، فلم تغب إلا بعدَ فتح القرية.

وجمعَ المجاهدون الغنائم المأخوذةَ من الكفار، وكانت الغنائم لا

تحِلُّ للمجاهدين، وإنما يَجمعونها ويَحرقونها بالنار، ولم يُحِلَّ اللّهُ الغنائم إلا لأمةِ محمد ﷺ، إكراماً له ولأمته.

ولما أَشعلوا فيها النار، أمرَ اللّهُ النارَ أنْ لا تشتعلَ فيها ولا تحرقَها، وأبطلَ قدرتَها على الإحراق، لأنَّ الغنائم ليست كاملةً مستوفاة، وإنما فيها غُلولٌ وسرقة، والنارُ لا تحرقُ الغنائم إلا إذا كانتْ مجتمعة.

وعرفَ النبيُّ ذلك، فقال لهم: لقد قامَ بعضُكم بسرقةٍ من الغنائم، ولا بدَّ أن نكتشفَ السارقين، وأن نُعيدَ الغنائمَ المسروقة.

وكانت طريقتُه في ذلك عجيبة، وهي معجزةٌ من الله له، حيث طلبَ من كلِّ شيخِ قبيلة أنْ يصافحَه، ولما صافحوه لزقتْ يدُ أحدهم بيده، فعرفَ أن السرقةَ في قبيلته، فطلب من رجال قبيلته أنْ يُصافحوه جميعاً، فلزقت يدُ رجلين أو ثلاثة بيده، فعرف أن السرقةَ عندهم!!

ولما اكتشفَ أن السرقةَ عندهم طلب منهم إحضارَ المسروق. فأَحضروا رأسَ بقرةٍ من ذهب، كانوا قد غلّوه من الغنائم لينتفعوا به. ولما وضعوه على الغنائم أَشعلوا فيها النار، فأحرقَتْها.

هذا هو المعنى الموجز لهذا الحديث.

الراجح عدم نبوة يوشع:

ونلاحظُ أن الحديثَ أبهمَ اسمَ النبي واسم القرية واسم القوم. فذهبَ كثيرٌ من العلماء إلى أن هذا النبيَّ هو يوشعُ بن نون، وأن القومَ هم بنو إسرائيل، وذهب بعضهم إلى أنَّ المرادَ بالقرية بيت المقدس.

وأبقى علماءُ آخرون الإبهامَ في الحديث على ما هو عليه، فلم يُعينوا اسمَ النبي ولا اسمَ القرية، لأنه لم يُعَيَّنْ في الحديث، ولا توجدُ أحاديث صحيحة غيرُ هذا الحديث تُعين ذلك، وتُزيل الإبهام.

ونحنُ مع الفريقِ الثاني، فلا بدَّ أن يعتمدَ الذين قالوا بنبوة يوشع من خلال هذا الحديث على حديثٍ آخر صريحٍ صحيح.

إننا لا نملكُ حديثاً صحيحاً صريحاً مرفوعاً للنبي ﷺ، يصرحُ أنَّ النبيَّ المذكور هنا هو يوشعُ بن نون، أو يصرح أن يوشع نبي، ولو وجدْنا ذلك لقلْنا به.

الراجحُ إذن أن يوشعَ بن نون ليس نبياً، لعدم وجود حديثٍ صريحٍ صحيحٍ مرفوعٍ بذلك، فهو رجلٌ صالح كان متابعاً لموسى عليه السلامَ، ومِن أصلحِ وأفضلِ بني إسرائيل.

ولما توفيَ موسى عليه السلام تولّى يوشعُ بن نون قيادةَ بني إسرائيل، وحكمَ فيهم على أساس التوراة، وطبَّق فيهم شرعَ الله.

تولّى يوشعُ قيادةَ بني إسرائيل قبل دخولهم الأرض المقدسة، وقام بإعدادهم للجهاد، ليدخلوا الأرض المقدسة مجاهدين.

ودخلَ يوشعُ ببني إسرائيل الأرضَ المقدسة، وقاتلوا الكافرين الذين فيها، ونصرهم اللّهُ على أولئك الكافرين، ومَكَّنَ لهم في الأرض المقدسة، وصار يوشع يفتتحُ المدن والقرى فيها.

ولا تُحددُ لنا مصادرُنا الإسلاميةُ المكان الذي دخلَ فيه بنو إسرائيل الأرض المقدسة، ولا أولَ معركةٍ خاضوها، ولا أولَ قريةٍ أو مدينة افتتحوها ودخلوها. بينما حددت الإسرائيلياتُ ذلك، واعتمدَ عليها المؤرخون والإخباريون، وأخذَ كلامَهم بعضُ المفسرين.

لكننا لا نأخذُ ذلك، ولا نخرجُ على الكتاب والسنة، ونبقى مع منهجنا في بحثِ القصص القرآني.

يوشع المجاهد الصالح غير يشوع اليهودي الإرهابي:

دخلَ يوشعُ بن نون ببني إسرائيل الأرض المقدسة، وكانوا مؤمنين صالحين معه، وكان هو رجلاً مؤمناً صالحاً، ومجاهداً شجاعاً.

إن يوشعَ بن نون الرجلَ الصالح مثالٌ للقائدِ الشجاع، والمؤمن المجاهد، والقوي العادل، وكان جهادُه للكفار في الأرض المقدسة جهاداً إيمانياً، قائماً على العدل ونصر الحق.

نقولُ هذا الكلام لنُبطلَ أكاذيبَ اليهود عن يوشع ـ أو يشوع ـ حيث صوَّروا يشوعَ بصورةِ سفاك الدماء، الذي كان يُبيدُ كلَّ ما يجدُه أمامَه من مدن وقرى الأرض المقدسة إبادة، يُبيد كلَّ الرجال والنساء والأطفال، ويُبيد المواشي والحيوانات.

و«سَفْرُ يشوع» هو السفر السادس من أسفار العهد القديم، ويستحقُّ أن يُسمى «سفرَ المذابح والمجازر»، وقد وضعه وكتبه أحبارُ اليهود الكاذبون الإرهابيون، ونسبوا إلى يوشع تلك المجازر والمذابح..

و«سَفْرُ يشوع» من المواد الأساسية في التربية اليهودية، يُربي اليهودُ أبناءَهم عليه، ويُلقنونهم إياه، ويَدعونهم للاقتداءِ بيشوع في التعامل مع خصومهم، وما مذابحُ اليهودِ المعاصرة ضدَّ أهلِ فلسطين والعرب إلاّ نتاجُ التربية اليهودية على سفرِ يشوعِ الإرهابي!!

أما يوشعُ بن نون فإنه بريءٌ من كلِّ ما أَلصقه به أحبارُ اليهود من مذابح ومجازر، فما كان إلا مؤمناً صالحاً، ومجاهداً شجاعاً، وكانت فتوحاتُه في الأرض المقدسة نشراً للحق، ومحاربةً للباطل، وكان يتعاملُ مع الآخرين وفقَ أحكامِ شريعة الله!!

ولم يفتتح يوشعُ كلَّ مدنِ وقرى الأرض المقدسة، وإنما افتتحَ بعضَها، ورتبَ إقامةَ بني إسرائيل فيها.

مخالفات بني إسرائيل بعد يوشع:

وتوفيَ يوشعُ بن نون بعد ذلك، وتولّى قيادةَ بني إسرائيل آخرون، واستقروا في المناطقِ المفتوحة من الأرض المقدسة. ولا يعنينا هنا الحديثُ عنهم في هذه المرحلة.

كلُّ ما نقولُه أنهم لم يكونوا جادين في الالتزام بشرع الله، ولا ثابتين على الحق، وإنما كانت تغلبُ عليهم طبيعتُهم القائمة على التفلت والتمرد والمخالفة والعصيان.

وقد أوردَ القرآنُ مثالاً لتمردِهم ومخالفتهم، بعدما استقروا في الأرض المقدسة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٢].

وخلاصةُ معنى هذه الآيات: يخبرُنا اللّهُ عن بعض مخالفات بني إسرائيل، فلمّا مَنَّ اللّهُ عليهم بالنصر على أعدائهم، أَمرهم بشكرِه على تلك النعمة، وذلكَ بأن يَدخلوا بابَ القرية ساجدين شاكرين له، وأنْ يطلبوا منه وضعَ ذنوبهم وحطَّها ومغفرتَها، فإنْ فعلوا ذلك فإن الله سيستجيبُ لهم، ويغفرُ لهم ذنوبهم ويحطُّ عنهم سيئاتهم.

ولكن طبيعتَهم المتفلتةَ المتمردة تأبى عليهم الالتزام بأوامر الله، فلما نصرهم اللّهُ على أعدائهم، لم يدخلوا بابَ القرية ساجدين، وإنما دخلوا يزحفون على مؤخَّراتِهم وأَستاهِهم، كما يفعلُ الأطفالُ الصغار، وبدلَ أنْ يقولوا حطة قالوا: حبة في شعرة.

وبهذا بدَّلوا قولاً غيرَ الذي قيل لهم، وتمردوا على الأمرِ الرباني، وحَرَّفوه وغيّروه، وبذلك استحقوا العذابَ من الله.

ونرى أن الآياتِ أبهمت اسمَ القرية، فهي قريةٌ في الأرض المقدسة، ولعلَّ ذلك كان بعد فترةٍ من وفاةِ يوشع بن نون، في مرحلةِ

لاحقة من مراحل إقامتهم في الأرض المقدسة، بدليل أنَّ اللَّهَ عاجلَهم بالرِّجز والعذاب عقاباً لهم، ولم يكن ذلك العذابُ في عهدِ يوشع بن نون، والله أعلم.

تبديلهم أوامر الله قولاً وفعلاً والحديث في ذلك:

وقد وضَّحَ الرسولُ ﷺ مخالفتَهم لأمر الله التي أَشارتْ لها الآيات.

روى البخاري ومسلم عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة»[1].

إن المخالفةَ عندهم هدفٌ بحدِّ ذاته، وإلا فما معنى «حبة في شعرة»؟ لا معنى لهذا الكلام، المهمُّ هو أنْ لايدخلوا بابَ القرية ساجدين، وأنْ لا يقولوا حطة!!

قال الإمامُ ابن حجر في شرح هذا الحديث:

«قال الحسن: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾: أي احطُطْ عنّا خطايانا.

وقيل: مسألَتُنا حطة.

فبدلَ الذين ظلموا بالذي قيلَ لهم قولاً غيرَ الذي قيل لهم، وقالوا: حبةٌ في شعرة.

وأكثر الرواة على رواية: «حبةٌ في شعرة».

وفي رواية الكشميهني: «حبةٌ في شعيرة». من الشعير.

والحاصلُ أَنهم خالفوا ما أُمِروا به من القول والفعل: فإنهم أُمِروا بالسجود عند انتهائهم من الفتح، شكراً لله، وأُمروا بأنْ يقولوا حطة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٦٤١. ومسلم برقم: ٣٠١٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢١٢.

فبدَّلوا السجودَ بالزحف، وقالوا: حنطة بدل حطة، أو قالوا حطة، وزادوا فيها حبة في شعيرة..»[1].

الله يعاقبهم بالرجز والطاعون:

لما بدَّلَ بنو إسرائيل أمرَ اللّهُ قولاً وفعلاً أوقعَ اللّهُ بهم العذاب، فأنزلَ عليهم الرجز: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

وكان عقابُ اللّهِ لهم فورياً سريعاً، بدلالةِ الفاء في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾، التي تدلُّ على الترتيبِ مع التعقيب الفوري، أي أنَّ إنزالَ الرجزِ عليهم كان بعد تبديلهم فوراً.

والرجزُ هو العذاب.

قال الإمام الراغب: «أصلُ الرجز: الاضطراب. ومنه قيل: رَجَزَ البعير رَجْزاً. وناقةٌ رجزاء: إذا تقاربَ خطْوُها واضطرب، لضعفِ فيها»[2].

وسُميَ العذابُ رِجزاً، لأنه يقودُ إلى اضطرابِ وزلزلةِ وحركةِ القوم المعذبين.

والرجزُ في الآية مبهم، وقد بيَّنَه رسولُ الله ﷺ بأنه الطاعون.

روى البخاري ومسلم عن أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: الطاعونُ رجس، أرسلَ على طائفةٍ من بني إسرائيل ـ أو: على مَن كان قبلكم ـ فإذا سمعتُم به بأرض فلا تَقْدموا عليه، وإذا وقعَ بأرضٍ وأنتم بها فلا تَخرجوا فراراً منه..»[3].

ولم يُفَصِّل الحديثُ في تعذيبهم بالطاعون، وإنما أبقاه مجملاً،

---

(١) فتح الباري ٨: ٣٠٤ باختصار.
(٢) المفردات: ٣٤١.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٧٣. ومسلم برقم: ٢٢١٨.

فلا نعرفُ تفصيلاته، ولا نخوضُ في ذلك.

وهكذا كانت إقامةُ بني إسرائيل في الأرضِ المقدسة تقومُ على المخالفة والمعصية، وكان اللّهُ يعاقبهم بأنواعِ العقاب والعذاب، بسببِ فسقِهم وظلمهم، ويوقِعُ بهم غضبَه، ويُحِلُّ عليهم لعنتَه!!.

[٢]

قصة طالوت

أَقامَ بنو إِسرائيل في الأرضِ المقدسة «فلسطين» فترةً من الزمن، ولم يُقيموا في فلسطين كلِّها، وإِنما كانت إقامتُهم في جزءٍ منها، وكان أعداؤهم يقيمون في أَجزاءَ أُخرى منها.

وكان بينَهم وبين أَعدائهم حروبٌ ومعاركُ عديدة، مرةً ينتصرون، ومرةً ينتصرُ عليهم أعداؤهم.

هزيمة بني إسرائيل على أيدي أعدائهم:

وابتعدَ بنو إسرائيل عن شرعِ الله، وعصوا أنبياءَه، ووقعوا في المعاصي والمخالفاتِ والمنكرات، فأوقعَ اللّهُ بهم عذابَه ونقمته.

وهذه المرحلةُ من تاريخهم مسكوتٌ عنها في مصادرنا الإسلامية الموثوقة، المتمثلةِ في الآياتِ الصريحة والأحاديث الصحيحة.

وقد أرَّخَ لها أحبارُ اليهود في أسفارِ العهد القديم، وبالذات في «سَفْر القُضاة» المكون من واحدٍ وعشرين إِصحاحاً، وذكروا في هذا السِّفر تفاصيلَ لأوضاعِهم وأحوالهم ومخالفاتهم وعقوباتهم، وحروبهم مع أعدائهم المجاورين لهم. ونقَلَ الإخباريون والمؤرخون عن أسفارِ العهد القديم أخبارَ هذه الفترةِ من تاريخهم.

ولا يعنينا الوقوفُ عند هذه الروايات، ونتوقفُ فيما تورِدُه لنا من أخبار.

وفي آخر هذه الفترةِ من تاريخ بني إسرائيل، وقعتْ حربٌ شديدةٌ بينهم وبين جيرانهم المقيمين في الأرض المقدسة، وكانت النتيجةُ لصالحِ هؤلاء، حيث غَلَبوا بني إسرائيل وهزموهم وأذلّوهم، وأَخذوا منهم «التابوت» المقدَّس الذي كانوا يحتفظون به.

وشعرَ بنو إسرائيل بالخطر، وأَرادوا التغيير، وبحثوا عن مخرج، وطلبوا من نبيِّهم الحل، فأخبرَهم أن الحلَّ في توحيدِهم تحتَ حكمِ مَلِك، وأنَّ الملكَ الذي رضيه اللّهُ لهم هو «طالوت» وتملَّكَ عليهم طالوت، وقادَهم إلى الظفر والنصر، وكان حكمه مقدمةً وتمهيداً لِمُلْكِ داود عليه السلام.

آيات قصة طالوت:

وقد ذُكرتْ قصةُ طالوت في آياتٍ من سورة البقرة.

قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟

مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥٢].

وقد فصَّلَ أحبارُ اليهودِ الكلامَ عن قصة طالوت وجالوت وداود، في سَفْري «صموئيل الأول والثاني» من أسفارِ العهد القديم، ولا يَعنينا ذلك التفصيل، لأنه من الإسرائيليات، التي نتوقفُ فيها ولا نقولُ بها.

وقد أخبرنا اللّهُ في القرآن عن قصةِ طالوت، لنأخذَ منها العِبَر والعظات، ولهذا بدأتْ آياتُ القصة بدعوتِنا إلى النظرِ والتدبر والاعتبار: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ...﴾.

والخطابُ موجَّهٌ في الظاهرِ لرسول الله ﷺ، لكنه ليس خاصاً به، بل يشملُ أمتَه من بعده، فكلُّ مسلم مدعوٌّ إلى تدبُّرِ قصةِ طالوت، والوقوفِ على دروسها ودلالاتها.

ووقعتْ هذه القصةُ بعد موسى عليه الصلاة والسلام، كما تصرحُ الآيات، أي أنَّ أحداثَها كانت في الأرضِ المقدسة.

وسنقدم تحليلاً للقصة، كما ذكرتْها لنا الآياتُ الكريمة:

رغبة بني إسرائيل في حرب الأعداء وطلبهم الملك من نبيهم:

تخبرنا الآياتُ أن بني إسرائيل قد هُزموا أَمام أعدائِهم قومِ جالوت، وتمكَّنَ أعداؤُهم من أخذِ بعضِ ما في أيديهم من الديار،

وسلبوهم التابوتَ المقدَّس الذي كانوا يحتفظونَ به، وهو أقدسُ ما يملكون.

وهذا التابوتُ ورثوه عن موسى وهارون عليهما السلام، وكان فيه بقيةٌ مما تركَ آلُ موسى وآل هارون، وفيه سكينةٌ من ربهم.

وبعدَ الهزيمة شعرَ بنو إسرائيل بمرارةِ الذلِّ والهوان، ونظروا في أحوالهم التي أدتْ إلى هزيمتِهم، وأرادوا تغييرَها.

واتفقَ أفرادُهم مع قادتهم من الملأ، على ضرورةِ تغييرِ واقعهم السيء، وقتالِ أعدائهم، واستردادِ ديارهم وتابوتهم المقدس.

وخطا قادتُهم من الملأ خطوةً عمليةً نحو الإصلاح، فتوجَّهوا إلى نبيهم طالبين منه الحل.

وكان الحلُّ أن يتوحَّدوا تحت قيادةِ ملكٍ منهم، يجمعُهم ويحشدُهم، ويقاتلُ بهم أعداءَهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾.

وقد أَبهمت الآياتُ اسمَ ذلك النبي الذي لجأوا إليه، ولا نذهبُ إلى روايات العهد القديم لتبيين اسمِه.

وذهابُ الملأ القادة إلى نبيهم لحلِّ مشكلتهم يعني رغبتَهم الصادقةَ في الحلِّ، لأنَّ الحلَّ عند النبي فيما يوحي به اللّهُ له.

أَرادوا منه اختيارَ ملكٍ ليحكمهم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وطلبُهم الملكَ دليلٌ أَنهم حتى هذه اللحظة كانوا متفرقين مشتتين، لا يخضعون لقيادةٍ واحدة، وكأَنَّ كلَّ قبيلةٍ استقلتْ في بقعةٍ من الأرض.

وقد علمَ الملأُ أنه لا يمكنُهم مواجهةَ الخطر واستردادَ الديار وهم

متفرقون، فلا بدَّ أن تكون لهم قيادةٌ واحدة، تقودُهم للجهادِ في سبيل الله، ولهذا طلبوا من النبيِّ أنْ يختارَ لهم الملك.

والنبيُّ لا يختارُ الملكَ برغبته، وهم يعلمون ذلك، وإنما اللّهُ هو الذي يختارُ لهم الملك، ويبلِّغُ النبيَّ به، الذي يقومُ بإخبارهم، فاللّهُ هو الذي يبعثُ لهم الملكَ في الحقيقة.

نبيهم يحذرهم من النكوص عن الجهاد:

لما سمعَ النبي كلامَ الملأ وشاهدَ حماسهم واندفاعهم قال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟...﴾.

وكأنَّ نبيَّهم لا يثقُ بحماسهم واندفاعهم، ولهذا يشكُّ في تنفيذهم والتزامهم، فهو يعرفُ طبيعتَهم، وعلى خبرةٍ بأحوالهم ومخالفاتهم.

ولهذا أَرادَ أنْ يُحذرهم من المخالفة في المستقبل عند تكليفِهم بالقتال، وجاءَ تحذيرُه بصيغةِ الاستفهام: «هل». وهو استفهامٌ للتحذير والتقرير. والمعنى: هل تقاتلون فعلاً عندما يُكتبُ عليكم القتال؟ إنني أَخشى أنْ لا تفوا بوعدكم عند فرضِ القتال عليكم، فإنكم أهلُ نكثٍ ونقضِ عهد!!

وجملةُ «ألا تقاتلوا» جوابُ الاستفهام، وهي جوابُ الشرط: «إن كتب عليكم القتال»، وهي خبر فعل «عسى».

قالَ الإمامُ محمد الطاهر بن عاشور: «... وهذا من أَبدعِ الإيجاز. فقد حكى جُمَلاً كثيرة وقعتْ في كلام بينهم. وذلك أَنه قررهم على إِضمارِهم نيةَ عدم القتال، اختباراً وسَبْراً لمقدارِ عزمهم عليه. ولذلك جاءَ في الاستفهام بالنفي، فقال ما يؤدِّي معنى «هل لا تقاتلون». ولم يقل: هل تقاتلون؟ لأنَّ المستفْهَمَ عنه وهو عدمُ قتالهم هو الطرف الراجح عنده..

ولذلك توقَّعَ منهم نبيُّهم عدمَ القتال، وحذَّرهم من ذلك عند فرضِ القتالِ عليهم.

وهدفُ نبيِّهم من كلامه تحريضُهم على القتال عند فرضِه عليهم، لأنَّ ذا الهمةِ يأنفُ من نسبتِه إلى التقصير، فإذا سُجِّلَ ذلك عليه قبلَ وجودِ دواعيه كان على حذرٍ من وقوعِه في المستقبل.

كما يقولُ مَنْ يوصي غيرَه: افعلْ كذا وكذا. وما أظنُّك تفعل[1]!!

فوجيءَ الملأُ بتوقُّعِ نبيِّهم نكوصَهم عن القتال عند تكليفهم به، فأرادوا طمأنتَه إلى أنهم سيقاتلون: ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ؟...﴾.

أي: لماذا لا نقاتلُ في سبيل الله؟ وما الذي يمنعُنا منه؟ إنَّ كلَّ ما حولَنا يدعونا إليه، فقد توفرتْ لنا بواعثُه ودواعيه وأسبابه.

إنَّ أعداءَنا قد هزمونا، وأَخرجونا من ديارنا واحتلوها، وأَبعدونا عن أبنائنا.

ولما قال الملأ: ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ لا يَعنون أَنفسهم، فهم مُقيمون في ديارهم، وهم بين أَبنائهم، وإنما يَعنون إِخوانَهم الذين أَسرهم أعداؤُهم، فلما تَمَّ أَسْرُهم أُخرجوا من ديارهم وأُبعدوا عن أبنائهم.

وهدفُ الملأ من هذا الكلام إزالةُ خشيةِ نبيِّهم من عدمِ قتالهم، وإقناعُه برغبتهم الصادقةِ في القتال، لوجودِ أسبابه وبواعثه.

وقبلَ أنْ تستكملَ الآياتُ عرضَ مشاهد القصة عجَّلَتْ بذكرِ النتيجة، فقالت: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وتعجيلُها بذكرِ تولِّيهم ونكوصِهم للتعجيبِ منهم، ولتسجيلِ قبحِ وشناعةِ موقفهم، فهؤلاء المتحمسون المندفعون للقتال، قبل تكليفهم

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢: ٤٨٥ ـ ٤٨٦ بتصرف واختصار.

به، تولَّوا ونَكصوا عنه بعدما كُتبَ عليهم، وكانوا بذلك التولّي والنكوصِ ظالمين كاذبين ناقضين لعهدهم.

ولم يَفِ بعهدِه لنبيِّهم إلاّ قليلٌ منهم، ثَبتوا على موقفهم، وقاتلوا أَعداءَهم مع ملكهم طالوت.

بعدما طلبَ الملأُ المتحمسون المندفعون من نبيِّهم اختيارَ الملك، خرجوا من عنده، بانتظارِ اختيارِ الملك، وكانوا يطمعونَ أن يكونَ الملكُ واحداً منهم، وبخاصةٍ أَنه أولُ ملكٍ يتملكُ على بني إسرائيل، ويجمعُ كلَّ أسباطِهم وقبائلِهم تحت ملكه.

الله اختار لهم طالوت ملكاً:

وأَوحى اللّهُ إِلى نبيهم بأنه اختارَ لهم طالوتَ ملكاً!.

وطالوتُ هذا رجلٌ من عامتهم، وليس من الملأ، ولا من الأُسَرِ المتنفذة، ولا من أَصحابِ الجاه والزعامة. ومؤهلاتُه للملك هي ما ميَّزَه اللّهُ به من البسطةِ في العلم والجسم.

ولم تخبرْنا مصادرُنا الإسلاميةُ عن بيئةِ طالوت، ولا عن أُسرته، ولا عن بدايةِ أمره، فلا نعرفُ عن ذلك، ولا نذهبُ إِلى الإسرائيليات لنعرفَ منها ذلك.

فكلُّ ما نعرفُه أنه رجلٌ صالح، رجلٌ من عامة بني إسرائيل، اصطفاه اللّهُ عليهم، وفضَّلَه على زعمائهم وملئهم، وآتاهُ بسطةً في العلم والجسم وجعَلَه أولَ ملكٍ فيهم.

عادَ الملأُ إلى نبيهم فأَخبرهم أنَّ اللّهَ اختارَ لهم طالوتَ ملكاً! ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا..﴾.

وكأن نبيَّهم كان يتوقَّعُ اعتراضَهم على طالوت، فأَكَّدَ لهم أنه لم يختره هو لهم، وإِنما اختارَه الله، وهو يبلِّغُهم أمرَ الله ووحْيَه.

ونلاحظُ أنَّ أنبياءَ بني إسرائيل يَعرفون طبيعةَ قومهم المتفلتة،

وسوءَ نظرتهم لأوامر الله، والتعامل معها بمزاجية، ولهذا يؤكِّدون لهم المصدرَ الربانيَّ الإلهيَّ لها، فهي أَوامرُ من الله، وليستْ من عند هؤلاء الأنبياء.

موسى عليه السلام كان يركِّزُ على هذا المعنى، كما في قولِه لهم ـ في قصةِ البقرة ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ [البقرة: ٦٧].

والآن نبيُّهم يقولُ لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾.

ومع يقينِهم أنَّ الأمرَ أمْرُ الله، إلاّ أَنهم كانوا يرفضونَه ويتحايلون عليه!.

اعتراضهم على ملك طالوت ومؤهلات الملك عندهم:

فلما علمَ الملأُ أنَّ اللّهَ اختارَ لهم طالوتَ ملكاً، اعترضوا على ذلك، ولم يرضوا بمن رضيَه اللّهُ لهم، ولم يَقبلوا من اختارَه اللّهُ لهم.

وكأنَّ اعتراضَهم على تملُّكِ طالوت اعتراضٌ على الله سبحانه، ورفضٌ لاختياره سبحانه، إِنهم يريدون غيرَ ما أَراده الله، ويختارون غيرَ ما اختاره الله!!

ولهذا وجَّهوا كلامَهم لنبيهم منكرين عليه: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ؟﴾.

و«أَنّى»: اسمُ استفهام بمعنى «كيف». والاستفهامُ للتعجبِ والإنكار. أي: كيفَ يكونُ له الملكُ علينا؟ وهو ليسَ من بيتِ الملك، وليس من زعمائنا وقادتنا؟

إنَّ طالوتَ رجلٌ من عامةِ الناس، وهو رجلٌ فقير، لم يؤتَ سَعَةً من المال. فكيف يكونُ هو الملكَ علينا؟

نحنُ أحقُّ بالملك منه! فنحنُ ملأٌ وقادةٌ وزعماء، وقد أُوتينا أموالاً كثيرة!!

ونلاحظُ أنَّ ميزانَهم في وزنِ الزعيم ميزانٌ جاهلي، ومؤهلاتُ

الملكِ عندهم مؤهلاتٌ جاهليةٌ مادية، فالملكُ هو مَنْ كان مِنْ بيتِ الملك، ومِنْ أفرادِ الأسرة المالكة، وهو مَنْ مَلَكَ أموالاً كثيرة.

وهذان المؤهلان: بيتُ الملك وسَعَةُ المال أمران خارجيان عن شخصيةِ الإنسان، فأينَ مؤهلاتُه النفسيةُ الداخلية؟ وأينَ مواهبُه الفرديةُ المعنوية؟ أين علمُه وفطنتُه وذكاؤه وصحتُه؟ أين شخصيتُه وكيانه؟

لا قيمةَ لهذا عندهم، المهمُّ أسرتُه وممتلكاتُه ورصيدُه المالي!!

واعتراضُهم على نبيهم لتملُّكِ طالوتَ عليهم هو بدايةُ «مسلسلِ التراجعِ والتفلتِ والنكوص، الذي تتابعَتْ حلقاتُه فيما بعد.

ردَّ نبيُّهم على اعتراضِهم قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

إنَّ نبيَّهم يقدمُ الميزانَ الإيمانيَّ الذي يوزَنُ به القادةُ والملوك، ويبينُ المؤهلاتِ الذاتيةِ الداخلية المعنوية التي يتمتعُ بها مَنْ يكون ملكاً قائداً.

وحتى يُزيلَ النبيُّ اعتراضَهم ونكوصَهم أكَّدَ على أنَّ اللّهَ هو الذي اصطفاه عليهم واختارَه لهم.

سبقَ أنْ قالَ لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ﴾. والآن يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ..﴾.

فالأمْرُ أمْرُ الله، واللّهُ هو الذي اختاره واصطفاه ورضيه، فلماذا يرفضون تملُّكَه؟ ولا يَقبلون بمن اختارَه اللّهُ واصطفاه؟.

مؤهلات طالوت الإيمانية وبسطته في العلم والجسم:

ومؤهلاتُ طالوتَ للملك هي البسطةُ في العلم والجسم التي آتاهُ اللّهُ إياها: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ﴾.

والبَسْطَةُ هي السَّعَةُ والزيادة. تقول: بَسَطَ، يَبْسُطُ، بَسْطاً وبَسْطة.

قال الإمام الراغب: «بَسْطُ الشيءِ»: نَشْرُه وتوسيعُه...

واستعارَ قومٌ البسطَ لكل شيء، لا يُتَصَوَّرُ وفيه تركيبٌ وتأليفٌ ونظم.

وقوله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾: سَعَة.

وقال بعضُهم: بسطَتُه في العلم هو أن انتفعَ هو به، ونفعَ غيرَه، فصارَ له به بَسْطة، أي: جوداً»[1].

والبسطةُ لم تَرِدْ في القرآن إلاّ في موضعيْن، هذا هو الموضعُ الأول، والموضعُ الثاني في قصةِ هود عليه السلام مع قومه عاد، فعندما ذَكَّرَهم هودٌ عليه السلام نعمةَ اللّهِ عليهم، ذَكَرَ البسطةَ في أجسامهم. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

ونلاحظُ أنَّ الله زادَ قومَ عادٍ بسطةً في خَلْقِهم وأجسامِهم فقط، فكانوا ضخامَ الأجسام، ولم يزدهم بسطةً في العلم، لأنهم ليسوا مؤمنين.

أما طالوتُ فقد زاده اللّهُ بسطةً في العلم والجسم، وجمعَ له بين الحُسنيين، لأنه مؤمنٌ صالح، يُعِدُّهُ الله ليكونَ ملكاً.

وتدلُّنا هذه الجملةُ ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ على المؤهلاتِ المطلوبة، والصفاتِ الضرورية، التي لا بدَّ أنْ تتوفَّرَ وتتحققَ في كلِّ مَنْ وليَ أُمورَ الناس، وكان إماماً قائداً حاكماً.

إِنها تقومُ على جانبين.

الجانبِ المعنويِّ النفسي، وهو «البسطةُ في العلم»، بمعنى أَن يتمتعَ بموهبةٍ وفطنةٍ وذكاء وبصيرة، وأنْ تكونَ له عقليةٌ علميةٌ واعية، ليحسنَ فهمَ الأُمور وتحليلَها والتعاملَ معها.

---

(١) المفردات: ١٢٢ ـ ١٢٣.

والجانبِ المادي، وهو «البسطة في الجسم»، بمعنى أنْ يتمتعَ بجسمٍ متينٍ قوي، صحيحٍ سليم، ليتمكّنَ من القيامِ بواجبه، وقتالِ أعدائه، والقاعدة تقول: العقل السليم في الجسم السليم.

ووقفَ الإخباريون أمامَ بسطةِ جسمِ طالوت التي ذكرتْها الآية، ونظروا لها نظرةً أُسطورية، فتخيَّلوه عملاقاً ضخمَ الجسم، طولُه عشراتِ الأمتار، ووزنُه مئاتِ الكيلوغرامات.

وهذه نظرةٌ خرافيةٌ أسطوريةٌ مرفوضة، فجسمُ طالوت كان عادياً، وبسطةُ جسمِهِ تتمثلُ في قوتِهِ ومتانتِه وتماسكِه وانسجامه، كما تتمثلُ في صحته وعافيته، وسلامةِ أعضائه، وقيامِ حواسِّه وأجهزتِه بعملها على أحسن ما يكون!.

إن اللّهَ هو الذي زادَ طالوتَ بسطةً في العلم والجسم، واللّهُ هو الذي اصطفاهُ لأجلِ ذلك، وفضَّلَه على الملأ من قومه، واللّهُ نزعَ الملكَ منهم، وآتاه طالوت.

واللّهُ هو مالكُ الملك، يُؤتي الملكَ مَنْ يشاء، ويَنزعُ الملكَ ممن يشاء، ولهذا قال لهم نبيهم: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

واختيارُ اللّهِ طالوتَ ملكاً، وهو من غيرِ بيتِ الملك، دليلٌ على أنَّ المُلْكَ ليس ميراثاً يورَثُ عن الأجدادِ والآباء، وعلى رفضِ الملكِ الوراثي، فالأصْلُ في الملكِ أو الحاكم أنْ يتمتعَ بصفاتٍ ومؤهلاتٍ معنوية تؤهلُه للملك، وأَنْ يرضىٰ به الناسُ ويختاروه ليكون ملكاً عليهم!!

آية طالوت هي مجيء التابوت:

وبعدما وضَّحَ لهم نبيُّهم مؤهلاتِ طالوت ليكون ملكاً، أَرادَ إزالةَ ما بقيَ في نفوسهم من اعتراضٍ عليه، فقدَّمَ لهم آيةً ومعجزةً تدلُّ على أنَّ اللّهَ رضيه لهم ملكاً.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

وكأنَّ الملأَ طلبوا منه الدليلَ على أن اللّهَ اختاره ملكاً، فذكَرَ لهم هذه المعجزة.

إنَّ الدليلَ على ذلك أن يأتيهم «التابوت».

وهذا التابوتُ معروفٌ لهم، بدليلِ إدخالِ «أَلْ» التعريفِ عليه. وهذا التابوتُ توارثوه منذُ أيام موسى وهارون عليهما السلام، وكان مقدساً عندهم، وكان فيه سكينةٌ لهم، وكانوا يَضعون فيه ما توارثوه منذُ عهدِ موسى وهارون عليهما السلام.

ويبدو أنَّ أعداءَهم لما هزموهم في آخرِ معركةٍ أَخذوا ذلك التابوت وما فيه من رموزٍ مقدسة عندهم، فشقَّ ذلك عليهم، ودفعَهم للرغبةِ في القتال.

وأَرادَ اللّهُ أنْ يُقدِّمَ آيةً لملكِ طالوت، بأنْ يأتيهم ذلك التابوت، الذي هو عند أَعدائِهم، وذلك ليخضعوا لطالوت، ويكونوا جنوداً عنده.

ما هو التابوت؟ وما الذي فيه؟ وكيف عاد إليهم؟:

و«التابوت»: اسمُ علمٍ أعجمي، غيرُ مشتق، فلا نبحثُ له عن معنى اشتقاقي في اللغة العربية. وهو اسمٌ لصندوقٍ خاص توضَعُ فيه الأشياءُ الثمينةُ النفيسة.

وأَخبرتْنا الآيةُ عن بعضِ ما في ذلك التابوت فقالت: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾.

والسكينةُ على وزنِ «فعيلة» من السكون، وهي بمعنى الطمأنينةِ والهدوء.

والراجحُ أن هذه السكينةَ أمرٌ معنوي، وليست شيئاً مادياً محسوساً، كما قالَ رواةُ الإسرائيلياتِ والأساطير.

فوجودُ التابوتِ بينهم يحققُ لهم السكينة والطمأنينة، لما يرمزُ إليه من معنى ديني مقدس، فعندما يشاهدونَه عندهم يطمئنون ويرتاحون، ويتفاءلون بحسنِ العاقبة، فيندفعون للقتالِ ضدَّ الأعداء.

يقال: سكنَ فلانٌ إلى كذا. إذا اطمأنَّ إليه، وسكنتْ نفسُه عنده.

والدليلُ على أنَّ السكينةَ نفسيةٌ معنوية تتمثلُ بوجودِ التابوتِ عندهم، أنها لم تَرِدْ في القرآنِ إلاّ بهذا المعنى النفسي.

وقَد أنزلَ اللّهُ السكينةَ على الصحابةِ رضوان الله عليهم، عندما بايعوا رسولَ الله ﷺ بيعةَ الرضوان، تحتَ الشجرة، في صلحِ الحديبية.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

وبينما كانتْ قريشٌ في الحديبية تتصرفُ انطلاقاً من حميةِ الجاهلية، فيبدو تصرُّفُهَا حاداً متوتراً انفعالياً عصبياً، كان الصحابةُ يتصرفون انطلاقاً من تلك السكينة، فيبدو تصرفُهم هادئاً موضوعياً. قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٦].

فهذه السكينةُ التي أنزلَها اللّهُ على الصحابة معنويةٌ نفسية، وهذا يدلُّ على أنَّ السكينةَ كانت تحصلُ لبني إسرائيل عندما يشاهدون التابوت عندهم، فيهدءون ويطمئنون.

وفي ذلك التابوتِ أشياءُ ماديةٌ ثمينة مقدسة، كان بنو إسرائيل

يحتفظون بها ويحرصون عليها: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾.

والبقيةُ هي: الشيءُ الباقي، الذي يتبقّى من الشيء بعد انقضاءِ وزوالِ معظمه.

وهذه البقيةُ هي ما تبقّى مما تركَهُ آلُ موسى وآل هارون، لكن هذه البقيةَ مبهمةٌ غيرُ مبينة في الآية.

ولم يَرِدْ حديثٌ صحيح في تحديدِها وبيانها، ولذلك نتوقفُ في ذلك، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات من أجلِ بيانِها وتحديدِها.

إنَّ كلمةَ «بقية» في الآية نكرةٌ منوَّنة، وهذا التنوينُ والتنكيرُ للإبهام، وكأنَّه يدعونا إلى عدمِ الخوض في التحديدِ والتبيين.

ونصت الآيةُ على أنَّ الملائكةَ هي التي حملتْ ذلك التابوت، وأتتْ به من عندِ أعدائهم، ووضعَتْه عندهم: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وجملة ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حالية، في محلِّ نصبِ حال، تبينُ حالةَ وكيفيةَ مجيء التابوتِ إليهم: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وما بينَ هاتين الجملتين في الآية جملةٌ معترضة: - ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ -. وهذه الجملةُ المعترضةُ لبيانِ بعضِ ما في التابوت، وبيانِ أثره في بني إسرائيل وأهميته لهم.

وتَحققت الآيةُ المعجزة، وحملت الملائكةُ التابوت، وأتتْ به إلى بني إسرائيل، وبذلك عادَ تابوتُهم لهم.

ولم تُبين الآيةُ كيفيةَ حملِ الملائكة للتابوت، ولا كيفيةَ وصولِ التابوت إلى بني إسرائيل، فهذه تفصيلاتٌ ليست مهمة، ولهذا سكتَ عنها القرآن.

ولسنا معَ الذين ذهبوا إلى الإسرائيليات ورواياتِ العهد القديم، وأَخذوا منها كيفيةَ عودةِ التابوت إلى بني إسرائيل.

ولما شاهدَ بنو إسرائيل التابوتَ عادَتْ لهم السكينةُ والطمأنينة، وعلموا أن اللّهَ هو الذي رضيَ لهم طالوتَ ملكاً، بدليلِ ما قدَّمَ من آيةٍ دالةٍ على ذلك، فرضوا به على مضض!!

وهكذا تملَّكَ طالوتُ المؤمنُ الصالح الفقيرُ على بني إسرائيل، وصارَ بذلك أولَ ملكٍ فيهم، فهو «مؤسسُ» المملكةِ الإسرائيلية.

طالوت يعد قومه للجهاد ويخرج بهم للمعركة:

وعملَ طالوتُ على توحيدِ قبائلِ وأسباط بني إسرائيل، وإنشاءِ مملكته في الديارِ التي تحتَ أيديهم، وحكمَ فيهم بشرعِ الله.

وقامَ طالوتُ بإعدادهم للجهادِ في سبيل الله، والاستعدادِ للمعركة الفاصلةِ بينهم وبين أعدائهم، وبذلَ في ذلك جهداً كثيراً شاقاً، لأنه يتعاملُ مع قوم لا يتجاوبون مع مَنْ يربيهم ويُعِدُّهم ويرتقي بهم نحو الأعلى.

ولما انتهى الملكُ طالوتُ من تعبئةِ وإعداد قومه، توجَّهَ بهم للمعركةِ الفاصلةِ مع أعدائهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

ومعنى «فصلَ طالوت بالجنود»: خرجَ بالجنودِ من بين الناس، وابتعدَ عن أماكنِ إقامتهم، وقطعَ بهم مسافةً بعيدة، متوجِّهاً بهم إلى أرض المعركة.

وأصْلُ «الفصل» هو: القطع. يقال: فصَلَ الرجلُ مكان كذا، إذا قطعَ ذلك المكانَ وتجاوَزَه إلى غيره.

وفِصالُ الصبيِّ فِطامُه، لأنه يُقطعُ عن اللبنِ والرضاع.

والقولُ الفصل هو: الذي يَقطعُ ويفصلُ بين الحق والباطل.

طالوت يمتحنهم بماء النهر:

وكانَ في طريقِ طالوت إلى أرض المعركة نهر، وأرادَ طالوتُ أنْ يُربيَ جنودَه تربيةً جهادية، ويُقوِّي إرادتَهم، فطلبَ منهم أنْ لا يشربوا من النهرِ شرباً كثيراً للارتواء، وأَجازَ للواحدِ منهم أنْ يغترفَ بيده غرفةً واحدة من ماء النهر، ويرفعَها إلى فمه ليشربَها: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾.

وهذا النهرُ مبهمٌ من مبهماتِ القرآن، لم تردْ تسميتُه في آياتِ القرآن، ولا في حديثٍ صحيح، فلا نخوضُ في تبيينه وتحديدِه، وغايةُ ما نقولُ فيه: هو نهرٌ من أنهارِ الأرضِ المقدسة، كان يَجري في ذلك الزمان، وقد يكون هذا النهرُ نهرَ الأردن، وقد يكونُ غيرَه.

وطالوتُ أَخبرهم أن اللّهَ هو الذي يبتليهم بعدمِ الشربِ من النهر، ويمتحنُهم ويختبرُهم بذلك، ليُظهِرَ للمؤمنين المطيعَ، ويَكشفَ العاصي المخالف.

وإسنادُ طالوتَ الابتلاء إلى الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ ليوجِدَ عند الجنود الاستعدادَ للالتزام، على اعتبارِ ذلك الأمرَ من عند الله، بهدفِ ابتلائهم وامتحانهم.

وهذا يدلُّ على أنَّ اللّهَ هو الذي أمرَ طالوتَ بتكليفهم بعدمِ الشرب من النهر، ولا نعرفُ كيف، فلم يَرِدْ نصٌّ صحيحٌ في نبوةِ طالوت، حتى يأتيه الوحي بذلك من عند الله، ولعلَّ هذا يدلُّ على أنَّ النبيَّ الذي أَخبرَ بمُلكه كان خارجاً مع الجنود، وهو الذي بلَّغَ طالوت أمرَ الله!.

كان كلامُ طالوتَ في عدمِ شربهم من النهر واضحاً: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾.

أي: مَنْ شربَ من النهر شرباً، وعَبَّ منه عَبّاً، فهذا ليسَ مني.
أي: ليس من أهل ولايتي ولا طاعتي، ولا من المقرَّبين عندي.

والظاهرُ من كلامِ طالوت أَنه أرادَ أنْ «يُفرِزَ» جيشَه على أساسِ امتحانِهم بالشرب من النهر. فنهاهم عن الشربِ والعَبِّ من الماء إلى حدِّ الارتواء، وأجازَ لكلِّ جنديٍّ أنْ يغترفَ غرفةً واحدةً بيده.

وعلى أساسِ الالتزامِ بهذا الأمر يكونُ فرزُ الجنود.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾: فالذي يشربُ ويعبُّ ويرتوي من الماء يفقدُ حقَّه في الجندية، ولا يكونُ جندياً في جيشي المؤمنِ المجاهد، ولا يكونُ منّي ولا من أهل طاعتي، لأَنه في شُربه من النهر يكونُ قد عصى الله وخالَفَ أمره، ورسبَ في الابتلاء والامتحان، ونحن مُقْدِمون على معركةٍ مع الأعداء، لا ننتصرُ فيها إلا بطاعةِ الله، وإذا كان في جنودِنا مَنْ عصى الله، فقد يكونُ السببَ في الهزيمة، ولذلك مَنْ شربَ من النهر فلينفصلْ عنا وليتركْنا!!

﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾: الذي التزمَ بأمْرِ الله، ولم يشربْ من النهر ولم يَطْعَمه ويَذُقْه، فهذا جنديٌّ ثابتٌ ملتزم، منفذٌ لأمرِ الله، وبهذا يصلحُ لأن يكونَ جندياً من جنودي المجاهدين، وهو ناجحٌ في الابتلاء والامتحان، وعندما يقاتلُ الأعداءَ ينصرُه الله لالتزامِه وانضباطه.

ومن حكمةِ طالوت وموهبتِه القيادية أنه أَجازَ لكلِّ جنديٍّ أنْ يغترفَ بيده غرفةً واحدة فقط: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾.

هذه الغرفةُ بيدِه يبلُّ بها ريقَه، ويأخذُ بها بعضَ حاجتِه إلى الماء، وهي استثناءٌ من النهيِ العامِّ عن الشرب، ليتركَ للجنديِّ مجالاً للحركة،

ولا يُغلقَ عليه الأمرَ من جميعِ الجهات. وقديماً قيل: إِذا أَردتَ أنْ تُطاعَ فاطلبْ ما يستطاعُ!!.

حكمة التعبير عن الشرب بالطعم:

ونلاحظُ أنَّ الآيةَ جمعتْ بينَ الطَّعْم والشُّرب: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ...﴾.

وكان المتوقَّعُ أنْ يُستعملَ الشربُ في جانبِ النفي أيضاً: فمن شربَ منه فليس مني، ومن لم يشربْ منه فإنه مني.

فلماذا استعملَ الطَّعْمَ في جانب النفي ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾؟ مع أنَّ الطَّعْمَ يُستعملُ في الإِطعام والأكل، وليس في الشرب!!

قالَ الإمامُ الراغب: «الطَّعْمُ تَناولُ الغذاء، ويُسمّى ما يُتناولُ منه طَعْمٌ وطَعام..

وقد يُستعملُ «طَعِمْتُ» في الشراب، كقولِه: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ..﴾.

وقالَ بعضُهم: إنما قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾، تنبيهاً على أنه محظورٌ عليه أنْ يتناولَ الماءَ إلاّ غرفةً باليد مع طعام، كما أَنه محظورٌ عليه أنْ يشربه، إلاّ غرفة باليد.

فإِنَّ الماءَ قد يُطْعَمُ إذا كانَ مع شيء يُمْضَع. ولو قال: ومَنْ لم يشربه، لكانَ يقتضي أنْ يجوزَ تناولُ الماءِ الكثير إذا كانَ في طعام!

فلما قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ بَيَّنَ أنه لا يجوزُ تناوُلُه لا شُرباً وحده، ولا مع الطعام، إلاّ إذا كان غرفة باليد...»[1].

وخلاصةُ كلام الراغب أنَّ طالوتَ نهى عن شربِ الماء لوحده في قوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، ونهى عن شربِ الماء ممزوجاً مع

---

(١) المفردات: ٥١٩ بتصرف للتوضيح.

الطعام في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾. واستثنى غرفةً باليدِ في حالةِ الشرب المجرد، أو في حالةِ المزجِ مع الطعام.

وهناك توجيهٌ آخرُ للتعبيرِ عن عدم الشرب بعدمِ الطُّعم: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾. وهو أنَّ الطَّعْمَ قد يردُ بمعنى الذوق، وليس بمعنى الأكلِ والطعام. تقول: طَعِمت الأكل. أي: ذقْتُه. وطَعِمت الماء. أي: ذقْتُه أيضاً.

فهنا أَرادَ طالوتَ أنْ لا يذوقوا الماءَ إلاّ غرفةً يغرفُها أَحدهم بيده.

علماً أن الماءَ قد يكون مطعوماً، وقد يُغني صاحبَه عن الطعام - إلى حين - إذا لم يَجدْ إلا هذا الماء، فيسدُّ الماءُ مسدَّ الطعامِ والشرابِ في هذه الحالة.

شرب الأكثرية وتركهم للجيش:

ولذلك لما شربَ أكثريةُ الجنود من النهر، اعتبروه شراباً واعتبروه طعاماً، وسدَّ مسدَّ الطعامِ والشراب عندهم، وتفاعَلوا معه كأنَّهم أكلوه أكلاً كما شربوه شرباً.

ومن حكمةِ نهيِ طالوتَ للجنودِ عن الشرب من النهر، أنَّ السيرَ إلى الحرب يؤدي إلى عطشِ الجنود، فإذا شربوا الماءَ الكثيرَ قبل خوض المعركة، ضَعُفوا وتكاسلوا وقُضيَ على نشاطهم، وأَثقلَهم الماءُ وأقعدَهم، فكيف يحاربون وهم على هذه الصورة؟

فأرادَ طالوتُ أنْ يُبقيهم على نشاطِهم وحماسهم وقوتهم، ولما أباحَ للواحدِ منهم شربَ غرفةٍ واحدة بيده، أرادَ له أنْ يأخذَ حاجتَه الضروريةَ من الماء، بدون أنْ تقضيَ على نشاطِه وقوته.

كان تكليفُ طالوتَ للجنودِ واضحاً مفهوماً: لا يَجوزُ لأحدٍ أنْ يشربَ من ماءِ النهر شُرباً وعباً، ويجوزُ للجنديِّ أن يأخذَ غَرفةً واحدة بيده، وكلُّ مَنْ خالفَ هذا التكليفَ وشربَ من النهر، فلْيعدْ إِلى الديار، ولْيترك الجيش ولا يَسِرْ إلى المعركة.

ماذا كان موقفُ الجنود من هذا التكليف؟ الجنودِ الذين كانوا متحمسين للجهاد، والذين أَعدهم طالوتُ للجهاد! إِنهم يعلمون أَنهم يَفقدون جنديتَهم في الجيشِ المجاهد عندما يَشربون من النهر، فهل استعلوا على هوى نفوسهم؟ وهل التزموا بالتكليف؟

كلاّ، لقد تصرفوا مع التكليفِ وفقَ طبيعتهم المعوجَّة، القائمةِ على التفلت والمخالفة، ولو أدى ذلك إِلى تركِ الجيش! ولم يلتزمْ بالتكليفِ إلا أُناسٌ قلائل منهم. قال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ..﴾.

طالوت يسير بالأقلية للمعركة:

وعددُ الأكثريةِ المخالفةِ التاركةِ للجيشِ مبهم، وعددُ الأقليةِ الملتزمة المنضبطةِ مبهم أيضاً، لم يَرِدْ تحديدُ عددِ كلٍّ منهما في حديث صحيح، ولذلك لا نبحثُ فيه.

المهمُّ هو تصرُّفُ الجنودِ العجيب، فأكثريتُهم خالَفوا وعصوا، وبذلك تَركوا الجيش، وعادوا إِلى قومهم. والأَقليةُ القليلةُ هي التي التزمتْ وانضبطت.

وبذلكَ فقدَ طالوتُ معظمَ الجنود، ولم يَبقَ معه إِلا القليل.

ماذا فعلَ طالوت؟ هل تخلّى عن المعركة عند فقْدِ معظمِ الجيش؟ إِنه مؤمنٌ متوكلٌ على الله، وهو حكيمٌ ذو بسطةٍ في العلم، وهو ملكٌ قويٌّ وقائد حازم، لا تؤثرُ فيه المفاجآت، ولا تَقضي على همته الحوادث.

ولذلك استمرَّ في السيرِ نحو المعركة معتمداً على الله، وأَخَذَ معه الأقليةَ الصالحة، وجاوزَ بهم النهر.

جبن معظم الأقلية لما شاهدوا جنود جالوت:

ساروا باتجاهِ المعركة، ولما وصلوها شاهَدوا الأعداءَ بقيادةِ

جالوت الكافرِ كثيرين، ونظروا إلى أنفسهم فإذا بهم قلائل، وهنا حدثَتْ مفاجأةٌ أُخرى خطيرةٌ مذهلة. أخبرَ اللّهُ عنها بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ. . .﴾!!

قبلَ خوضِ المعركة الفاصلة تنقسمُ هذه الأقليةُ إلى قسمين، ويحدثُ في الجيشِ القليل «فرزٌ» جديد!

فأين ذهبتْ اندفاعةُ الجماهيرِ الإسرائيلية للجهاد؟ وأين ذهبَ حَماسهم للجهاد؟ هذه هي النتيجة!!

لقد كانَ نبيُّهم حكيماً صاحبَ فراسة، عندما أَخبرهم أنّه يتوقعُ منهم النكوصَ عن الجهاد: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾؟ والآن ها قد حصلَ ما توقَّعه من قبل، فحصلَت تصفيتان للجيشِ المعَدِّ للجهاد، عندَ النهر عادَ معظمُ الجيش الشاربين من الماء، والآن ها هي التصفيةُ الثانية!!.

التصفية الثانية في جيش طالوت وتركهم المعركة:

المؤمنون القلائلُ الذين عبروا النهرَ مع طالوت ينقسمونَ إلى قسمين:

قسمٌ نكصوا عن القتال، ورفضوا خوضَ المعركة، وقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

وقسمٌ ثبتوا على القتال، وصَمَّموا على دخولِ المعركة مهما قَلَّ عددهم، وهم الذين يظنون أَنهم ملاقوا الله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

لم يُحسن الناكصون عن القتال النظرَ إلى حقيقةِ القوى في

المعركة، فرغمَ أَنهم تجاوزوا الامتحانَ الأولَ بنجاح، ولم يشربوا من النهر، إلاّ أَنهم أخفقوا في الامتحان الثاني، وسيطرَ عليهم الجبنُ والفزعُ والهلعُ لما شاهدوا جنودَ طالوت الكثيرين، ونظروا إِلى المعركةِ وأطرافها نظرةً ماديةً عدديةً حسابية. إنَّ عددَهم قليل، وإنَّ عددَ جيش جالوت كثير، وبالمنطقِ الحسابي الماديِّ الكثيرُ أَقوى من القليل، ولهذا النتيجةُ محسومةٌ لصالحِ جالوت، فلماذا يُتعبون أنفسهم بالقتال؟

لذلك قَرروا عدمَ القتال، وأَعلنوها صراحة: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، ولذلك لن نقاتلَهم.

وهذا يدلُّ على أنَّ جيشَ جالوت الكافرَ كان أكثرَ عدداً من جيش طالوت المؤمن.

عدد الثابتين مع طالوت بعدد الصحابة في بدر:

وبعدَ هذه التصفيةِ الثانية، لم يَبْقَ مع طالوت إلا فئةٌ قليلةٌ مؤمنةٌ مجاهدة: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

كم عددُ هذه الفئة القليلة المؤمنة؟

روى البخاريُّ عن البراءِ بن عازب رضي الله عنه قال: كنّا أَصحابَ محمدٍ ﷺ نتحدثُ: أنَّ عدةَ أصحابِ بدر على عدةِ أَصحاب طالوت، الذين جاوَزوا معه النهر، ولم يجاوِزْ معه إلا مؤمن، بضعةَ عشرَ وثلاثَ مئة[1].

إنَّ البراءَ بن عازب رضي الله عنه يخبرُ أنَّ عددَ الصحابة في معركة بدر، كعددِ جيش طالوت. أي أنَّ عددَ جيشِ طالوت الذين حاربوا جالوت معه كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٩٥٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٣٨.

وهذا من كلامِ البراء رضي الله عنه، فهو موقوفٌ عليه، وليس مرفوعاً للرسول ﷺ، لأنَّ البراءَ لم يصرحْ برفعه.

مقياس الثابتين الإيماني في الجهاد:

وقد وصفت الآيةُ الثابتين بأَنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ فما المرادُ بلقاءِ الله؟ ولماذا عَبَّرَ عنه بالظن؟

ليس المرادُ بلقاءِ الله لقاءَه يوم القيامة، فهذا يقينٌ جازمٌ عند كلِّ مؤمن، لا ظنَّ فيه. فكلُّ مؤمنٍ يوقنُ ويجزمُ أنه لا بد من البعثِ يوم القيامة، وأَنه سيبعثُ حياً من قبره، وسيلاقي اللّهَ ليحاسبَه على عمله.

المرادُ بلقاءِ الله هنا الموتُ في المعركة، بأنْ يُقْتَلَ المجاهدون في الميدان، ويَنالوا الشهادةَ في سبيله، ويلقوا وجْهَه شهداء.

وهذا الأمرُ ظنٌّ واحتمال، وليس جزماً قاطعاً أكيداً، فمنْ دخلَ المعركةَ فقد يُقتلُ فيها ويلقى وجهَ الله شهيداً، وقد يخرجُ منها حياً.

وهؤلاء المجاهدون كانوا يَرجون أنْ ينالوا الشهادة، ويَطمعون أنْ يلقوا اللّهَ شهداء، ولهذا يَحرصون على القتالِ لينالوا هذا الشرف، ولكنهم لا يَجزمون بذلك، لأَنهم يعلمون أنَّ الأعمارَ بيد الله.

إِذن معنى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾: قال الذين كانوا يَرجون أنْ يُلاقوا اللّهَ شهداء، ويطمعون في أنْ يموتوا في المعركة لينالوا الشهادة.

ماذا قالَ هؤلاء الطامعون في الشهادة؟ قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

و«كَمْ» هنا هي للتكثير. وتسمّى عند النحويين: «كم» الخبرية. أي: هناك نماذجُ كثيرةٌ في التاريخ، انتصرتْ فيها الفئةُ القليلةُ المؤمنة على الفئةِ الكثيرة الكافرة، انتصرتْ بإذنِ الله، لأنها توكلتْ على الله، وصبرتْ على القتال، فنصرها الله، لأَنه مع الصابرين.

إنَّ مقياسَ هذه الفئة المؤمنة غيرُ مقياسِ الناكصين المادي، إنه الإيمانُ بالله، والتوكلُ على الله، والصبرُ على مواجهة أعداء الله، وطلبُ النصر من الله.

هذه هي حقيقةُ القوة في المعركة، وهذا شرطُ الانتصارِ فيها، أما العددُ الحسابي، فلا قيمةَ له في ذلك، ولذلكَ كثيراً ما تنتصرُ الفئةُ القليلةُ المؤمنة على الكثرةِ الكثيرة الكافرة.

وهذه النظرةُ الإيمانيةُ البصيرة هي سرُّ ثباتِ هؤلاء المجاهدين القلائل، وعلوِّ هممهم، وعظمةِ عزائمهم، فلم تُرهبهم كثرةُ جنودِ جالوت، ولم يُضعفْهم تراجعُ قومِهم الإسرائيليين في التصفيتين السابقتين، ولذلك صمموا على قتالِ الكفار رغمَ قلةِ عددهم، مستعينين بالله.

وهكذا دخلَ طالوتُ المعركةَ الفاصلة ضدَّ جالوت بهذه الأقلية المؤمنة.

توجههم إلى الله بالدعاء وترتيب دعواتهم الثلاثة:

وقبيلَ نشوبِ القتال توجَّهَ المؤمنونَ إلى الله بالدعاء. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

ومعنى ﴿بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ﴾: دخلوا أرضَ المعركةِ البارزةِ الواضحة المستويةِ المكشوفة، استعداداً لملاقاة الجيشِ الكافر وقتالِه.

لقد اعتمدوا على الله، لأَنه هو القوي، فاستمدّوا منه القوة، ووصلوا حَبْلهم به، وهذا من فطنتِهم وبصيرتِهم وقوةِ إيمانهم.

وهناك لفتةٌ في ترْتيبِ جُمَلِ الدعاء الثلاثة: الصبر، وتثبيت الأقدام، والنصر على الكافرين.

إن هذه الجملَ الثلاثةَ مرتبةٌ ترتيباً مرحلياً، وكلُّ واحدة مبنيةٌ على ما قبلها.

أولُ ما يحتاجه المجاهدون هو الصبر، ولهذا قال هؤلاء المجاهدون: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾. الصبرُ بمفهومِه الشامل، ومنه الصبرُ على مواجهةِ الأعداء وقتالهم.

والصبرُ في المعركة مقدَّمٌ على ثباتِ الأقدام فيها، وهو سلاحٌ معنويٌّ نفسي ضروريٌّ للمجاهدين، والسلاحُ الإيمانيُّ المعنوي مقدَّمٌ على السلاح المادي.

ونلاحظُ أن هؤلاء المجاهدين استعلوا على متاعِ الدنيا، وطلبوا ما عندَ الله. فعندما رأوا النهر، واحتاجوا إلى الماء، اكتفى كلٌّ منهم بأنْ يغترفَ غرفةً واحدة بيده، يبلُّ بها ريقه، بينما الصبرُ يريدون منه الكثير، ولذلك يطلبونَ من الله أنْ يُفرغَه عليهم إفراغاً، ويصبَّه عليهم صباً، ليشملَ كيانَهم، ويستغرقَ ويستوعبَ محيطَهم.

وإِفراغُ الصبر عليهم يقودُ إلى ثبات أَقدامِهم في الميدان، واستبسالهم في الجهاد، وعدمِ الهرب من الحرب: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾.

فلن تثبتَ إلاّ أَقدامُ الصابرين، أما الجبناءُ الخائفون الجزعون فلن تثبت أَقدامُهم في الميدان، ولهذا يولّون الأدبار.

وإذا ما صبرَ المجاهدون، وثبتتْ أَقدامُهم في الميدان، فإنهم يكسبونَ المعركة، وينتصرون على الأعداء، ولهذا طلبوا من الله النصرَ في آخرِ الأمر: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

إنَّ النصرَ في المعركة نتيجةٌ لما قبله، ولن يتحققَ إلا إذا تحققَ ما قبلَه، فلن ينتصرَ إلا الصابرون على المواجهة، الثابتونَ في المعركة.

وقد طلبَ المجاهدون من الله أنْ ينعمَ عليهم بالأمورِ الثلاثة: إفراغِ الصبر، وتثبيتِ الأقدام، والانتصارِ على الكافرين. ولهذا أُسندت الأفعالُ الثلاثة إلى الله: ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وطلبُهم هذه الخطواتِ الضرورية الثلاثة من الله، دليلٌ على قوةِ إيمانهم بالله، وقوةِ اعتمادهم وتوكلهم عليه.

وهم في هذا الموقفِ الإيماني الجهادي العظيم مقتدون بإخوانِهم المجاهدين، الذين قالَ الله عنهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

قتل داود لجالوت ينهي المعركة لصالح المؤمنين:

وخاضَ طالوتُ وأتباعُه القلائلُ المعركة، وحاربوا جالوتَ وجنودَه، معتمدين على الله، مستنصرين به.

وأثناءَ المعركة برزَ جنديٌّ مجاهدٌ من بينهم، وتوجَّه نحو قائدِ الكفار جالوت، وهو داود. وقاتلَ داودُ جالوتَ فقتلَه.

وبذلكَ حُسمت المعركةُ لصالحِ القلة المؤمنة، وهُزمت الكثرةُ الكافرةُ بعد مقتلِ قائدِها جالوت، ونصرَ اللّهُ طالوتَ والذين معه.

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ..﴾.

إنَّ الآياتِ حريصةٌ على إسنادِ الأمور إلى الله، فاللّهُ هو الفاعلُ المقدرُ المريدُ سبحانه، هو الذي ينصرُ أولياءَه، وهو الذي يهزمُ أعداءَه.

لقد هَزَمَ طالوتُ وأتباعُه جيشَ جالوت بإذنِ الله، وانتصروا عليهم بأمرِ الله، وما النصرُ إلا من عند الله.

ولم تُفصل الآياتُ في الحديث عن قتلِ داودَ لجالوت، وإنما ذَكرتْ ذلك في جملة موجزة: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾.

ثم ذَكرتْ ما أنعمَ اللّهُ على داودَ بعدَ ذلك: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾.

وهذا أولُ ذكْرٍ لداود، وأولُ ظهورٍ تاريخيٍّ له.

وهذا يدلُّ على أنَّ داودَ كان جندياً في جيشِ طالوت، وكان من القلةِ المؤمنةِ المجاهدة، ولعلَّ هذا كان قبلَ نبوته عليه الصلاة والسلام.

ولم تذكرْ لنا الآياتُ كيفيةَ انضمام داود إلى جيش طالوت، ولم تذكرْ لنا عملَه قبلَ ذلك، كما أنها لَم تُفصِّلْ لنا كيفيةَ قتلِ داودَ لجالوت.

كذلك لم يَرِدْ ذكْرٌ لهذا في الأحاديثِ النبوية الصحيحة، فنعتبرُ هذا من مبهماتِ القرآن، التي لا نذهبُ إلى الإسرائيليات من أجلِ بيانِها وتوضيحها.

لقد فَصلت الإسرائيلياتُ ورواياتُ العهدِ القديم كثيراً في بدايةِ أمر داودَ عليه السلام، وفي مهنتِه وعمله، والتحاقِه بجيش طالوت، وسلاحِه البدائي الذي كان معه، كما فَصلتْ أكثر في كيفيةِ خروجه لجالوت، وهجومِه عليه وقتلِه له. وقد أَغرتْ هذه التفاصيلُ الإسرائيليةُ بعضَ المؤرخين والمفسرين، فأوردوها في تفاسيرِهم ومؤلفاتهم.

ونحن ندعو إلى عدمِ ذكرِ وإيرادِ ذلك، والتوقفِ فيه، والاكتفاءِ بما وردَ في الآياتِ الصريحةِ والأحاديثِ الصحيحة.

وبهذا انتهت المعركةُ الفاصلةُ بين طالوت وأَتباعِه المؤمنين وجالوت وجنودِه الكافرين، انتهتْ بنصرِ الله للمؤمنين، وهزيمتِه للكافرين.

سنة الله في التدافع بين المؤمنين والكافرين:

وقد عقبت الآياتُ على المعركةِ ونتيجتها بذكْرِ سنةٍ من سننِ الله. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

إِنها سنةُ المدافعة بين الناس، التي ينتجُ عنها ذهابُ الضعيف، وبقاءُ القويِّ الصالح.

ومعنى هذه الجملةِ القرآنية المعجزة ـ كما ذكرَ الإمامُ محمد رشيد رضا ـ: «لولا أن اللّهَ تعالى يدفعُ أهلَ الباطل بأهل الحق، وأهلَ الفسادِ في الأرض بأهل الإصلاح، لغلبَ أهلُ الباطلِ والإفساد في الأرض، وبغوا على الصالحين، وأوقعوا بهم، حتى يكونَ لهم السلطانُ وحدَهم، فتفسدَ الأرضُ بفسادهم.

فكان من فضلِ الله على العالمين، وإِحسانِه إلى الناس أجمعين، أنْ أذنَ لأهلِ دينهِ الحق، المصلحين في الأرض بقتالِ المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين.

فأهل الحقِّ حربٌ لأهلِ الباطل في كلِّ زمان، واللّهُ ناصرهم، ما نصروا الحقَ وأرادوا الإصلاحَ في الأرض.

وقد سُمي هذا دفعاً ـ على قراءة الجمهور ـ باعتبارِ أَنه منه سبحانه، إذ كانَ من سننه في الاجتماع البشري. وسُمي دفاعاً ـ في قراءة نافع ـ باعتبارِ أنَّ كلًّا من أهلِ الحق المصلحين وأهلِ الباطل المفسدين يقاومُ الآخر ويقاتلُه...»[1].

قصة طالوت دليل على النبوة والرسالة:

وبعدما ذَكرت الآياتُ قصةَ طالوت اعتبرتْها دليلاً على نبوةِ محمد ﷺ، واعتبرتْ ذكرَها في القرآن دليلاً على أن القرآنَ كلامُ الله. قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

أي: أخبرَ اللّهُ نبيَّه محمداً ﷺ بقصةِ طالوتِ وجالوت، وأوردَها في آياتِ القرآن، وهذا يدلُّ على أن القرآنَ كلامُ الله، وأنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ.

(١) تفسير المنار ٢: ٤٩١.

ووجْهُ دلالتِها على ذلك أنَّ محمداً رجلٌ عربيٌّ أمي، لم يطَّلعْ على أخبارِ السابقين، ولم يتعلمْ عند أهلِ الكتاب، وإنَّ تفاصيلَ قصةِ طالوت لا يعلمها إلا أهلُ الكتاب، وليس عندَ العرب علمٌ بها. فلو لم يكن محمدٌ ﷺ نبياً لما علمَ بها.

فإيرادُها في القرآن دليلٌ على أنَّ اللّهَ هو الذي أَوحى له بها، لأنه رسولٌ أرسلَه اللّهُ سبحانه وتعالى.

وبانتهاءِ المعركةِ الفاصلة، وانتصارِ طالوت وأَتباعِه، وقتلِ داودَ لجالوت، تنتهي قصةُ طالوت، أولِ ملكٍ ملَّكه اللّهُ على بني إسرائيل.

وقد سكتتْ آياتُ القرآن عن قصته بعد ذلك، فلم تذكرْ أحداث القصة التالية، ولم تتحدثْ عن الصلةِ بين داود وطالوت، ولم تبينْ كيفيةَ انتهاءِ طالوت وموته. كما سكتتْ عن ذلك أحاديثُ رسول الله ﷺ.

أما الإسرائيلياتُ ورواياتُ العهدِ القديم فقد فصلتْ أحداثَ قصةِ طالوت بعد المعركة، والصلةَ بين طالوت وداود، وكيف انتهتْ بالعداوةِ الشديدة والحرب الطاحنة بينهما، إلى أنْ تغلَّبَ داودُ على طالوت وقتَلَه.

ولكننا لا نرى العودةَ إلى الإسرائيليات، وذكْرَ شيء منها في تفسيرِ كلام الله، فنكتفي بما أَخبرتْ عنه آياتُ القرآن من قصة طالوت، نقولُ بما قالتْ به، ونسكتُ عن ما سكتتْ عنه!!.

مع سيد قطب في أهم عبر وحقائق القصة:

وقد عرضَ القرآنُ قصةَ طالوتَ للعبرة والعظة، ودعا المؤمنين إلى تدبرها، والوقوفِ على دروسها ودلالاتها.

ومن أفضلِ مَنْ تحدثَ عن عبرِ ودروسِ القصة سيد قطب، وكم يطيبُ لي أنْ أدعَه يتحدثُ عن هذه الدروس في الظلال، وأكتفي بتقديمِ كلامِه للقراء.

«ومن خلال هذه التجربةِ كما يعرضُها السياقُ القرآني الموحي، تبرزُ جملةُ حقائق، تحملُ إيحاءات قويةً للجماعة المسلمة في كلِّ جيل، فضلاً على ما كانتْ تحمله للجماعةِ المسلمة في ذلك الحين.

أثر انتفاضة العقيدة في التغيير الإيجابي:

والعبرةُ الكليةُ التي تبرزُ من القصة كلِّها هي: أنَّ هذه الانتفاضة ـ انتفاضة العقيدة ـ على الرغم من كلِّ ما اعتورها أمامَ التجربةِ الواقعة من نقصٍ وضعف، ومن تخلي القومِ عنها فوجاً بعد فوج في مراحلِ الطريق ـ على الرغم من هذا كله، فإنَّ ثباتَ حفنةٍ قليلة من المؤمنين عليها قد حققَ لبني إسرائيل نتائجَ ضخمة جداً، فقد كان فيها النصرُ والعزُّ والتمكين، بعدَ الهزيمةِ المنكرة، والمهانةِ الفاضحة، والتشريدِ الطويل، والذلِّ تحت أقدام المتسلطين. ولقد جاءتْ لهم بملكِ داود، ثم ملكِ سليمان، وهذه أعلى قمةٍ وصلت إليها دولةُ بني إسرائيل في الأرض، وهي عهدُهم الذهبي الذي يتحدثون عنه، والذي لم يبلغوه من قبلُ في عهدِ النبوة الكبرى.. وكان هذا النصرُ كلُّه ثمرةً مباشرةً لانتفاضة العقيدة من تحتِ الركام، وثباتِ حفنةٍ قليلة عليها أمامَ جحافل جالوت.

وفي خلالِ التجربة تبرزُ بضعُ عظاتٍ أُخرى جزئية، كلُّها ذات قيمةٍ للجماعة المسلمة في كل حين:

عدم اغترار القادة بحماسة الجماهير:

من ذلك: أنَّ الحماسةَ الجماعية قد تخدعُ القادةَ لو أَخذوا بمظهرها. فيجبُ أن يَضعوها على محكِّ التجربةِ قبلَ أنْ يخوضوا بها المعركةَ الحاسمة..

فقد تقدمَ الملأُ من بني إسرائيل ـ من ذوي الرأيِ والمكانة فيهم ـ إلى نبيِّهم في ذلك الزمان يطلبونَ إليه أن يختارَ لهم ملكاً يقودُهم إلى المعركة مع أعداءِ دينهم، الذين سلبوهم ملكَهم وأموالَهم، ومعها مخلفاتُ أنبيائِهم من آلِ موسى وآل هارون. فلما أرادَ نبيُّهم أنْ يستوثقَ من صحةِ عزيمتهم على القتال وقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ

عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾! استنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماستُهم إلى الذروة، وهم يقولون له: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾؟.

ولكن هذه الحماسةَ البالغةَ ما لبثتْ أن انطفأتْ شعلتُها، وتهاوتْ على مراحل الطريق، كما تذكُر القصة...

ومع أنَّ لبني إسرائيل طابعاً خاصاً في النكولِ عن العهد، والنكوصِ عن الوعد، والتفرقِ في منتصف الطريق.. إلا أنَّ هذه الظاهرةَ هي ظاهرةٌ بشريةٌ على كل حال، في الجماعاتِ التي لم تبلغْ تربيتُها الإيمانيةُ مبلغاً عالياً من التدريب.. وهي خليقةٌ بأن تصادفَ قيادةَ الجماعة المسلمة في أي جيل.. فيحسنُ الانتفاعُ فيها بتجربة بني إسرائيل..

اختبار المتحمسين لمعرفة من يثبت في الميدان:

ومن ذلك: أنَّ اختبارَ الحماسةِ الظاهرة والاندفاعِ الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقفَ عند الابتلاء الأول..

فإنَّ كثرةَ بني إسرائيل هؤلاء قد تولُّوا بمجردِ أنْ كُتبَ عليهم القتالُ استجابةً لطلبهم، ولم تبقَ إلا قلةٌ مستمسكةٌ بعهدها مع نبيها، وهم الجنودُ الذين خرجوا مع طالوت بعدَ الحِجاجِ والجدالِ حول جدارته بالملك والقيادة، ووقوعِ علامةِ الله باختياره لهم...

ومع هذا فقدْ سقطتْ كثرةُ هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى، وضعفوا أمامَ الامتحان الأول الذي أَقامه لهم قائدُهم.. حيث شربوا من النهر.

ولم يلتزمْ إلا قليلٌ منهم، وهذا القليلُ لم يثبتْ كذلك إلى النهاية.

فأمامَ الهولِ الحي، أمامَ كثرةِ الأعداء وقوتهم، تهاوت العزائمُ وزلزلت القلوب: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

وأمامَ هذا التخاذلِ ثبتت الفئةُ القليلةُ المختارة، اعتصمتْ بالله ووثقتْ وقالت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وهذه هي التي رجَّحت الكفة، وتلقَّت النصر، واستحقت العزَّ والتمكين.

وفي ثنايا هذه التجربةِ تكمنُ عبرةُ القيادةِ الصالحة الحازمة المؤمنة.. وكلُّها واضحةٌ في قيادةِ طالوت:

تبرزُ منها خبرتُه بالنفوس، وعدمُ اغترارِه بالحماسة الظاهرة، وعدمُ اكتفائه بالتجربةِ الأولى، ومحاولتُه اختبارَ الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبلَ المعركة، وفصلُه للذين ضعفوا وتركُهم وراءه.. ثم ـ وهذا هو المهم ـ عدمُ تخاذله وقد تضاءلَ جنودُه تجربةً بعد تجربة، ولم يثبتْ معه في النهاية إلا تلك الفئةُ المختارة. فخاضَ بها المعركة ثقةً منه بقوةِ الإيمان الخالص، ووعدِ اللّهِ الصادقِ للمؤمنين..

مقياس المؤمن الإيماني ومنظاره لما حوله:

والعبرةُ الأخيرةُ التي تكمن في مصير المعركة.. أنَّ القلبَ الذي يتصلُ بالله تتغيرُ موازينُه وتصوراتُه، لأنه يرى الواقعَ الصغيرَ المحدودَ بعينٍ تمتدُّ وراءه إلى الواقعِ الكبير الممتدِّ الواصل، وإلى أصلِ الأمور كلها وراء الواقعِ الصغيرِ المحدود.

فهذه الفئةُ المؤمنةُ الصغيرة التي ثبتتْ وخاضت المعركة وتلقت النصر، كانت ترى من قلتِها وكثرةِ عدوها ما يراه الآخرون، الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾. ولكنها لم تحكُمْ حكمَهم على الموقف، إنما حكمتْ حكماً آخر، فقالت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ثم اتجهتْ إلى ربها تدعوه: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وهي تحسُّ أنَّ ميزانَ القوى ليس في أَيدي الكافرين، إنما هو

بيدِ الله وحده. فطلبتْ منه النصر، ونالتْه من اليد التي تَملكه وتُعطيه.

وهكذا تتغيرُ التصوراتُ والموازينُ للأمور عند الاتصال بالله حقاً، وعندما يتحققُ في القلب الإيمانُ الصحيح..

وهكذا يثبتُ أن التعاملَ مع وعدِ الله الواقع، الظاهرِ للقلوب، أصدقُ من التعاملِ مع الواقعِ الصغير الظاهر للعيون!!.

ولا نستوعبُ الإيحاءات التي تتضمنُها القصة، فالنصوصُ القرآنية ـ كما علمتْنا التجربة ـ تُفصحُ عن إيحاءاتِها لكلِّ قلب بحسبِ ما هو فيه من الشأن، وبقدرِ حاجتِهِ الظاهرة فيه، ويبقى لها رصيدُها المذخورُ، تتفتحُ به على القلوب، في شتى المواقف، على قدرِ مقسوم...»[1].

[٣]

داود في القرآن

وردَ اسمُ «داود» عليه السلام في القرآن ستَّ عشرةَ مرة.

وذكْرُه في القرآن على صور:

ذكره في القرآن على صور:

فأحياناً يردُ اسمُه فقط، بدون إشارةٍ إلى قصته. كما في سورة الأنعام، حيث ذُكرَ ضمن مجموعةٍ من الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ ...﴾ [الأنعام: ٨٤].

وأحياناً يُذكَرُ مقروناً مع تفضيلِ الله له بإنزالِ الزبورِ عليه.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥].

وأحياناً يُذكَرُ اسمُه في سياقِ بدءِ أمره، بعدما قَتَلَ قائدَ أعدائه جالوت، كما مرَّ معنا في المبحث السابق. قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ..﴾ [البقرة: ٢٥١].

وأحياناً يذكَرُ اسمُه في سياقِ لعنِ الكفار من بني إسرائيل. قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨].

في السورِ السابقة: البقرة والنساء والمائدة والأنعام والإسراء، كان يُذكَرُ داودُ عليه السلام مرةً في كل سورة.

وفي سورةِ الأنبياء ذُكِرَ مرتين:

مرةً في الإشارةِ إلى حكمه وقضائه في الغنم التي أتلفت الزرع، واستدراك ابنه سليمان عليه: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ...﴾ [الأنبياء: ٧٨].

ومرةً في الإشارةِ إلى تسبيح الجبال والطير معه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ...﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وفي سورة النمل ذُكِرَ مرتين:

مرةً في الإشارةِ إلى ما منحه اللّهُ مع ابنه سليمان من العلم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ...﴾ [النمل: ١٥].

ومرةً في الإشارةِ إلى وراثةِ ابنه سليمان له: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ..﴾ [النمل: ١٦].

وفي سورة سبأ ذُكرَ مرتين:

مرةً في الإشارة إلى فضلِ الله عليه في تسبيح الجبال والطير معه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ..﴾ [سبأ: ١٠].

ومرةً في تكليفِ آل داود بشكر الله على نعمه: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وأكثرُ المرات لذكرِ اسم داود كان في سورة ص، حيث ذُكرَ اسمُ داود فيها خمسَ مرات:

مرةً في دعوةِ محمد ﷺ للاقتداءِ بداود، والثناء عليه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ١٧].

وثلاثَ مراتٍ في قصةِ داود مع الملكين الخصمين: في الآيات: ٢٣، ٢٤، ٢٦.

ومرةً في الإشارة إلى سليمان الذي وهبه الله لداود: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٢٦].

هذه مواضعُ ذكرِ داود في سور القرآن.

ما ذكرته كل سورة من قصته:

وما ذكرَتْه السورُ من قصة داود عليه السلام كما يلي:

إشارةٌ سريعة في كل من سور: البقرة، والنساء، والمائدة، والأنعام، والإسراء.

وفي سورة الأنبياء كلامٌ عن تسبيحِ الجبال والطير مع داود عليه السلام، وعن الدروعِ التي كان يصنعها، وعن حكمهِ في الغنم التي أَفسدت الزرع، واستدراكِ ابنه سليمان عليه السلام عليه. وهذا في الآيات: ٧٨ ـ ٨٠.

وفي سورة النمل إشارةٌ إلى ما آتى اللّهُ داودَ وسليمان عليهما

السلام من العلم والفضل، وشكْرُهما الله على هذه النعم، وهذا في آية: ١٥.

وجَعلت السورةُ هذه الإشارةَ تمهيداً لقصةِ سليمان عليه السلام المطولة مع النملة والهدهد وملكة سبأ.

وفي سورةِ سبأ كلامٌ عن ما آتى اللّهُ داودَ عليه السلام من فضل، وتسبيحِ الجبال والطير معه، وإلانةِ الحديد له، والدروعِ الدقيقة المتينة التي كان يعملها. وهذا في الآيتين: ١٠ ـ ١١.

وفي سورة صَ أطولُ مشهدٍ من مشاهدِ قصة داود في القرآن.

فقد بدأت الآياتُ بدعوةِ رسولِنا محمد ﷺ للاقتداءِ بداود عليه السلام في الصبر، ووصفت داودَ بأنه ذو الأيد وأواب. وأن اللّهَ سخَّرَ معه الجبالَ والطير يسبحن في الصباح والمساء، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب. وهذا في الآيات: ١٧ ـ ٢٠.

ثم عرضت الآياتُ قصةَ داود مع الخصميْن المتنازعيْن اللذيْن تسورا عليه المحراب، وحكمَه لهما، وفتنتَه في ذلك، وسجودَه واستغفاره، وأمرَه بالحكم بين الناس بالعدل. وهذا في الآيات: ٢١ ـ ٢٦.

وبعدَ هذا البيان الموجز لذكر داود عليه السلام في القرآن ننتقلُ للوقوفِ مع حديث القرآن عنه، وعرضِ لقطاتٍ من قصته.

[٤]

داود الخليفة ينشئ أول خلافة

بداية داود بقتل جالوت:

كانتْ بدايةُ أمْرِ داودَ عليه السلام، عندما كان جندياً في جيشِ طالوتَ المجاهد، حيث اشتركَ داودُ مع الجنود المجاهدين في قتالِ جيش جالوتَ الكافر. وقامَ هو بعمله الجهاديِّ الكبير عندما أَقدمَ على

قتلِ جالوت قائدِ الكفار. قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ولم تُخبرْنا الآياتُ والأحاديثُ عن حياةِ داود قبلَ قتله جالوت، ولا عن عمره عندما قَتَلَ جالوت، ولا عن تفاصيلِ قتلِ جالوت، ولا عن ما جرى له بعدَ ذلك مع الملكِ طالوت، كما أشرْنا إلى ذلك من قبل.

كلُّ ما أَخبرَنا عنه القرآن أنَّ اللّهَ آتى داودَ الملكَ والحكمة بعدما قـتـلَ جـالـوت: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] فالضميرُ الهاء في «آتاه» و«علَّمه» تعودُ على داود.

أي: بعدما قتلَ داودُ جالوتَ آتاه اللّهُ الملكَ والحكمةَ والعلم، فكان داودُ ملكاً حكيماً عالماً.

ظهوره من ميدان الجهاد ودلالة ذلك:

وهذا يدلُّ على أنَّ داودَ صارَ ملكاً بعد طالوت، بحيث يمكنُ أنْ نقول: داودُ هو الملكُ الثاني لبني إسرائيل.

ويبدو أنَّ نبوةَ داودَ عليه السلام كانتْ في هذا الوقت، بعدما صارَ ملكاً، أي أنَّ النبوةَ والملكَ كانا بعد قتله جالوت.

ومن مناقبِ وفضائلِ داودَ عليه السلام أنَّ ظهورَه كان في ميدانِ القتال وساحةِ الجهاد، وزعامتُه وقيادتُه انطلقتْ من المعركة، فقبلَ قتلِه لقائدِ الكفار لم يكن له ذكْر، ولا بيدِه زعامة.

ولما استبسلَ في الجهاد وقَتَلَ قائدَ الكفار ظهرَ فضلُه، وأحبَّه قومُه، وقدَّموه وملَّكوه عليهم.

أي أنَّ قيادتَه كانت قيادةً جهادية، وزعامتَه بدأتْ من ميدانِ المواجهةِ والقتال، ولهذا نجحَ في حكمِ قومِه، وإنشاءِ المملكة الإسرائيلية القوية.

وفرقٌ بين القادةِ الذين يظهرون من وسطِ الجنود في الميدان، بعدَ مواهبهم الجهادية القيادية، والقادةِ الذين يعيَّنون تعييناً أو يرثون القيادةَ وراثة، وهم لا رصيدَ لهم من التجاربِ العمليةِ الجهاديةِ!!

وقد جمعَ اللّهُ لداودَ عليه السلام بين النبوةِ والملك، كما قال: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

ولعلَّه أولُ مَنْ جمعَ بين القيادتيْن الدينية والدنيوية في بني إسرائيل. ولم تَذكرْ لنا مصادرُنا الإسلاميةُ مَنْ جمعَ بين النبوة والملك عند بني إسرائيل إلاّ داودَ وابنَه سليمان، عليهما السلام.

داود خليفة في الأرض:

وقد جعلَ اللّهُ داودَ خليفةً في الأرض. قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

وهذه الآيةُ في ختامِ عرضِ قصةِ داود عليه السلام مع الخصمين.

وجعْلُ داودَ عليه السلام خليفةً في الأرض دليلٌ على أنَّ حكْمَه كان حكماً ربانياً، ومُلْكَه كان مُلْكاً إسلامياً، وأنه أنشأ نظام الخلافة في بني إسرائيل!

وبذلك كان مَلِكاً خليفة، ونبياً رسولاً عليه الصلاة والسلام.

ومن لطائفِ القرآن أن كلمةَ «خليفة» لم تَرِدْ في القرآن إلا مرتين:

الأُولى: في قصة آدم عليه السلام، في سورة البقرة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

والثانية: في وصفِ داود عليه السلام بأنه خليفة: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وفي هذا دلالةٌ لطيفة.

فآدمُ عليه السلام هو أبو البشر، وهو أولُ خليفةٍ في الأرض، بالمعنى العامِّ للخلافة، وهو الاستخلافُ في الأرض وتعميرُها وإصلاحُها، على منهج الله وشرعه.

وقد جعلَ اللّهُ الإنسانَ ـ باعتباره إنساناً ـ سيدَ الأرض، وذلَّلَ له الأرض، وسخَّرَ له كلَّ ما فيها، وطالبَه أنْ يَعْمرَها ويُصلحها ويكونَ خليفةً فيها، ولهذا كان أولُ شخصٍ من البشر هو أولَ خليفةٍ بالمعنى العام، وهو آدمُ عليه السلام، كما نصتْ آيةُ سورةِ البقرة.

والخليفةُ الثاني في القرآن هو داودُ عليه السلام! فما معنى ذلك؟

إن داودَ خليفةٌ بالمعنى الخاصِّ للخلافة، وليس بالمعنى العام الذي تحققَ في خلافةِ آدم!

إنه خليفةٌ بالمعنى الشرعي، المتمثلِ في إيجادِ نظامِ حكم على شرعِ الله، والحكم بين الناس بشرعِ الله، وهذا ما صرحتْ به الآية: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾.

وهذا المعنى لم يُذْكَرْ في الآية التي أَخبرتْ عن استخلافِ آدم.

وبما أنَّ داودَ خليفةٌ بالمعنى الشرعيِّ الخاص، فقد زوَّدَه اللّهُ بالوسائلِ والأدواتِ التي تساعدُه على القيامِ بالخلافة.

فآتاهُ الملكَ والحكمة: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ...﴾.

وآتاهُ العلم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا . . .﴾.

وآتاه الفضل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا . . .﴾.

وآتاه الحكمةَ وفصل الخطاب: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ . . .﴾.

وآتاه الزبور: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا . . .﴾.

ونلحظُ حرصَ الآيات على التعبيرِ عن الإنعامِ على داود بهذه الأدواتِ والوسائل بالإيتاء، حيث تكررَ فعلُ «آتيناه» خمسَ مراتٍ في الآيات الخمسة.

داود مؤسس الخلافة الإيمانية:

لماذا داودُ أولَ نبيٍّ خليفةً بالمعنى الشرعي؟

لأنه أولُ نبيٍّ رسولٍ يجمعُ بين النبوة والملك.

فالأنبياءُ الذين قبلَه لم يكن أحدٌ منهم ملكاً، ولم يَحكم أحدٌ منهم قومَه بالمعنى الخاصِّ للحكم، ولم يُنشئ أحدٌ منهم دولةً مدنية، ينطبقُ هذا على نوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل، بل ينطبقُ على موسى وهارون، عليهم الصلاة والسلام.

حتى يوسفَ عليه السلام الذي وصلَ إلى مركزِ «عزيز مصر» فإنه لم يكنْ ملكاً لمصر، ولذلك لم يكنْ خليفة.

إن داودَ عليه السلام هو مؤسسُ «المملكةِ الإسرائيلية الإيمانية»، لأنَّ مُلْكَ طالوتَ كان تمهيداً لملكِ داود.

ولهذا المعنى ناسبَ أن يَنصَّ القرآنُ على جعلِ داودَ عليه السلام خليفة في الأرض، ولعلَّه أولُ خليفةٍ في التاريخ بالمعنى الشرعيِّ الخاص، أي: أولُ خليفةٍ بنى دولة، وأنشأ مملكة، وأوجدَ نظامَ خلافةٍ على أَساس شرعِ الله.

إذن كانَ داودُ عليه السلام أولَ نبيٍّ وملك، وأولَ مَنْ كانَ خليفة، وأولَ مَنْ أنشأَ خلافةً إيمانية.

وقد ورثَه ابنُه سليمان عليهما السلام في كلِّ ذلك، فكانَ سليمانُ نبياً رسولاً، وكانَ ملكاً خليفة، وجمعَ بين النبوةِ والملكِ والرسالةِ والخلافة.

زوال الخلافة عن بني إسرائيل بعد داود وسليمان:

والعجيبُ أنَّ «الخلافةَ» لم تَدُمْ طويلاً في بني إسرائيل، فسرعانَ ما تهاوَت الخلافةُ بعد سليمان عليه السلام، وزالَتْ عنهم، وأعقبَها زوالُ النظامِ السياسي والدولي لليهود، وانتهى الأمرُ بتشتيتهِم في الأرض، وهذا بسببِ جرائمهم ومعاصيهم ومخالفاتهم.

إن الخلافةَ الإيمانيةَ لم تستمرّ في بني إسرائيل، في صورةِ دولةٍ ومملكةٍ ونظام، حيث بقيتْ أقلَّ من قرن، وهي فترةُ حكمِ داودَ وسليمان عليهما السلام.

وإذا كانت الخلافةُ قصيرةً جداً في حياةِ بني إسرائيل، فإنها طويلةٌ مستمرةٌ في هذه الأمة، أمةِ محمد ﷺ، أمةِ الخلافةِ والرسالة والشهادة.

وإذا كان اللّهُ قد نزعَ الخلافةَ من بني إسرائيل، فإنه جعلَها مستمرةً في هذه الأمة حتى قيامِ الساعة.

هذه الأمةُ التي قالَ الله لها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال لها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...﴾ [البقرة: ١٤٣].

[٥]

«وآتينا داود زبوراً»

بما أنَّ داودَ عليه السلام نبيٌّ رسولٌ خليفةٌ ملك، فقد أنزلَ اللّهُ عليه أحدَ كتبه، وهو «الزبور».

ونعلمُ أنَّ الإيمانَ بالكتب من أركانِ الإيمان، فيؤمنُ كلُّ فردٍ من هذه الأمةِ أن اللّهَ أنزلَ كتباً على بعضِ رسله.

ويؤمنُ بالكتبِ الأربعةِ المذكورة في القرآن: التوراةِ التي أنزلَها اللّهُ على موسى، والزبورِ الذي أنزله اللّهُ على داود، والإنجيلِ الذي أنزله الله على عيسى، والقرآنِ الذي أنزلَه اللّهُ على محمد، عليهم الصلاة والسلام.

الزبور مذكور ثلاث مرات في القرآن:

وقد ذُكِرَ «الزبور» ثلاثَ مرات في القرآن:

الأولى: عندما ذكرَ اسمُ داود ضمنَ مجموعةٍ من الأنبياءِ والرسل، وخصَّصَه بإنزالِ الزبور عليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٤].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥].

وهذه الآيةُ نصٌّ في أن اللّهَ فضَّلَ بعضَ النبيين على بعض، فهناك أنبياءُ ورسل أفضلُ عندَ الله من أنبياءَ ورسلٍ آخرين.

وهي كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ..﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومعلومٌ أن سيدَنا محمداً ﷺ هو أفضلُ الأنبياءِ والمرسلين عند الله.

ومن الأنبياءِ الذين فضَّلَهم اللّهُ داودُ عليه السلام، ويكمنُ تفضيلُه في أنه أولُ نبيٍّ رسولٍ جمعَ بين النبوةِ والملك، والرسالةِ والخلافة، كما قلْنا قبلَ قليل.

كما يكمنُ تفضيلُه في إنزالِ الزبور عليه، وتخصيصِه بذلك.

ذكر وراثة الأرض في الزبور:

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٦].

يخبرنا اللّهُ في هذه الآية عن بعضِ موضوعاتِ الزبور، وهذا الموضوعُ يتعلقُ في «وراثة الأرض» وحُكمها والاستخلافِ فيها.

مَن الذين يرثونَ الأرض؟ ومَن الذين تنتهي إليهم الأرض؟

إنهم عبادُ الله الصالحون العابدون المتقون!!

إن اللّهَ يمنحُ الأرضَ لقومٍ باعتبارهم مؤمنين صالحين عابدين. فإذا تخلّوا عن الإيمانِ والصلاحِ والعبادة فإن اللّهَ ينزعُ منهم الأرض، ويمنحُها لغيرهم من العابدين الصالحين.

هذه سنةٌ ربانيةٌ تاريخيةٌ مطردة، حول تملُّكِ الأرض ووراثتِها والاستخلافِ فيها.

لكن لماذا ذَكَرَ هذه السنةَ الربانية والحقيقةَ التاريخية في الزَّبور؟ ولماذا إخبارُ بني إسرائيلَ بها؟

قبلَ الإجابةِ على هذا السؤال، نتذكرُ ما قالَه موسى عليه السلام لبني إسرائيل عندما كانوا مضطهدين من قِبَلِ فرعونَ وجنوده، وشكوا له اضطهادَهم، حيث قررَ لهم هذه السنةَ حول وراثةِ الأرض.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

إنَّ موسى عليه السلام يدعو بني إسرائيل إلى الصبر والاستعانة بالله، لتجاوزِ مرحلةِ الاضطهاد، والانتقالِ إلى التمكين في الأرض، والأرضُ كلُّها لله، واللّهُ يورثُها مَنْ يشاءُ من عباده الصالحين، والعاقبةُ الحسنةُ تكون للمتقين.

حكمة ذكرها في الزبور وتفنيد مزاعم اليهود:

فلماذا الكلامُ عن وراثةِ الأرض من قِبَلِ الصالحين العابدين موجَّهٌ لبني إسرائيل؟ ولماذا أُخبروا بهذه الحقيقةِ على لسان مُنقذهم موسى عليه السلام قبلَ دخولِهم الأرضَ المقدسة؟ وأُخبروا بها مرةً ثانية بعد قرونٍ على لسان داود عليه السلام عندما أنشأَ لهم أولَ مملكةٍ وخلافةٍ إيمانية على الأرض المقدسة؟

يبدو أن الحكمةَ في ذلك هي نقضُ مزاعمِ وادعاءات اليهود حول الأرضِ المقدسة!!

إنَّ اليهودَ الكاذبين يزعمونَ أن اللّهَ كتبَ لهم الأرضَ المقدسة، وقطعَ بذلك وعداً و«تعهُّداً» لإبراهيم ثم ليعقوب عليهما السلام، وجعلَ الأرضَ المقدسة لهم حتى قيامِ الساعة، وذلك باعتبارهم من نسلِ إبراهيم ويعقوب عليهما السلام.

أي أَنهم يزعمون أنَّ اللَّهَ أَورثهم الأرضَ على أساسٍ نَسْليٍّ جنسيٍّ عنصري قومي، وليس على أساسٍ ديني إيماني إسلامي. فمهما فعلوا تبقى الأرضُ المقدسةُ لهم، سواء آمنوا أَم كفرواً، استقاموا أم انحرفوا.

وعلى أساسِ هذا التضليلِ والافتراءِ تداعوا للعودةِ إلى الأرض المقدسة في هذا العصر، وأَقاموا كيانَهم اليهودي على أرضِ فلسطين!!

وقد أخبرَنا اللّهُ في القرآن عن بعضِ ما أَخبرهم به أنبياؤهم حولَ وراثةِ الأرض المقدسة.

فموسى يقولُ لهم عليه السلام: إنَّ الأرضَ لله، يورثُها مَنْ يشاءُ مِنْ عباده، والعاقبةُ للمتقين.

أي أنَّ اللّهَ أورثكم الأرضَ المقدسة باعتباركم إسرائيليين مؤمنين ومتقين عابدين، فإذا فقدتُم الإيمانَ والعبادة فَقَدْتُم وراثةَ الأرض!!

وداودُ عليه السلام يدعوهم إلى عدم الاغترارِ بالمملكة والخلافة، ويؤكدُ لهم أن اللّهَ أَوْرَثَهُم الأرضَ المقدسة باعتبارِهم إسرائيليين عابدين مؤمنين، فإذا فَقدوا شرطَ الإيمان والعبادة والصلاح فَقدوا وراثةَ الأرضِ المقدسة!!.

الله حرمهم من الأرض لكفرهم:

وقد انطبقتْ هذه السُّنةُ الربانيةُ على اليهود، فلما كانوا إسرائيليين مؤمنين أَورثَهم اللّهُ الأرضَ المقدسة، وأقاموا فيها حكماً ربانياً، وخلافةً إيمانية، على يدِ داودَ ثم سليمان عليهما الصلاة والسلام.

ولما تخلّوا عن الإيمانِ بعد ذلك، وكفروا وطغوا، وظلموا وبغوا، وقتلوا الأنبياءَ وكذَّبوا بالحق، انتزعَ اللّهُ الأرضَ المقدسة منهم، وفَقدوا وراثتَهم الإيمانيةَ لها، لفقدانهم شرطَ الوراثة، وأخرجَهم اللّهُ من الأرضِ المقدسة، وقَطَّعَهم وشتتَهم في مختلفِ بقاعِ الأرض، وأوقعَ بهم لعنته وغضبه.

وأخبرَنا اللّهُ عن هذا العقاب في القرآن. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧ ـ ١٦٨].

الزبور ومادة «زبر» في العربية:

و«الزَّبورُ» الراجحُ أنها كلمةٌ غيرُ عربية، مثلُ التوراةِ والإنجيل، سمى اللّهُ بها كتابَه الذي أنزلَه على داودَ عليه السلام.

وهو ليس مشتقاً من المادة العربية «زَبْر» الواردة في القرآن.

قال الإمام الراغب عن مادة «زَبْر» في المفردات: «الزُّبْرَةُ: قطعةٌ عظيمةٌ من الحديد. جمعه «زُبَر». قال تعالى: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦].

وقد يقال: الزُّبْرَةُ من الشَّعَر. جمعه: زُبُر. واستعير «زُبُر» للمَجزَّأ المقطَّع. قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون: ٥٣] أي: صاروا فيه أحزاباً.

و: زَبَرْتُ الكتاب: كتبتُه كتابةً غليظة.

وكلُّ كتابٍ غليظِ الكتابة يقال له: زَبور.

وخُصَّ الزَّبورُ بالكتابِ المنزلِ على داود عليه السلام.

وقيل: الزبور: كلُّ كتاب يصعبُ الوقوفُ عليه من الكتب الإلهية، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٦].

وقال بعضُهم: الزَّبور اسمٌ للكتاب المقصورِ على الحِكَم العقلية دونَ الأحكامِ الشرعية. والكتابُ اسمٌ لما يتضمنُ الأحكامَ والحِكَم.

ويدلُّ على ذلك أنَّ زبورَ داود عليه السلام لا يتضمنُ شيئاً من الأحكام..»[1].

حكمة إطلاق كلمة «قرآن» على الزبور:

وقد كانَ داودُ عليه السلام يكثِرُ من قراءةِ الزَّبور وتلاوته، تقرباً إلى الله، باعتبارِه كلامَ الله.

وأخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ اللَّهَ خفَّفَ على داود قراءةَ الزَّبور، فكان يقرؤُه بسرعة.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «خُفِّفَ على داود القرآن، فكان يأمرُ بدوابِّه فتُسرج، فيَقرأُ القرآنَ

---

(١) المفردات: ٣٧٧.

من قبلِ أنْ تُسرجَ دوابّه، ولا يأكلُ إلاّ من عمل يده..»[1].

ومعنى الحديث أنَّ داودَ عليه السلام كان يأمرُ بإعدادِ وتجهيزِ دوابه، ووضْعِ السُّرُجِ عليها. وعندما كان موظفوه ينفذون أَمره، كان يتناولُ الزبور ويقرأُ فيه، فكان يُنهي ويكملُ قراءتَه قبل انتهاءِ موظفيه من سَرْج دوابه، لأن اللّهَ خَفَّفَ عليه القراءة.

واللافتُ للنظرِ أنَّ الرسولَ ﷺ أطلقَ على الزَّبور كلمةَ القرآن! ونحن نعلمُ أن القرآنَ خاصٌ بالكتاب الذي أنزله اللّهُ على رسوله محمد ﷺ، لا يُسمى به غيرُه من كتب الله عز وجل!

وقد حاولَ الإمامُ ابنُ حجر توجيهَ ذلك.

فأخبرَ أنَّ في رواية «الكَشْمَهيني» لأحاديثِ البخاري كلمةَ «القراءة» بدل «القرآن»[2].

أي: في رواية الكشمهيني عن البخاري هكذا: خُفِّفَ على داودَ القراءة، فكان يأمرُ بدوابه فتُسرج، فيقرأُ القراءةَ من قبل أنْ تُسرج دوابه.

وعلى رواية الكشمهيني لا إشكالَ في الحديث، لأنَّ التعبيرَ فيها بالقراءة، يرادُ بها قراءةُ داود للزبور.

أمّا على الروايةِ المشهورة «القرآن»، فقد قالَ ابنُ حجر في شرح الحديث:

«قيل: المرادُ بالقرآنِ في الحديث القراءة، لأنَّ الأصلَ في معنى كلمة القرآن الجمع. وكلُّ شيء جمعْتَه فقد قرأْتَه.

وقيل: المرادُ بالقرآن: الزبور.

وقيل: المرادُ به التوراة.

وقراءةُ كلِّ نبي تطلقُ على كتابه الذي أَوحى اللّهُ به إليه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٧. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٤٣.

(٢) فتح الباري ٦:٤٥٤.

وإنما سُمي الزَّبور في الحديث قرآناً للإشارةِ إلى المعجزةِ به كوقوعِ المعجزة بالقرآن.

والأولُ أَقرب..

وفي الحديث: أنَّ البركةَ قد تقعُ في الزمنِ اليسير، حتى يقعَ فيه العملُ الكثير..»[1].

والراجحُ أنَّ الحديثَ أطلقَ على القراءة قرآناً، والمرادُ به قراءةُ داودَ عليه السلام للزبور.

بدليلِ الروايةِ الأُخرى الصحيحة ـ رواية الكشمهيني ـ التي وَضعتْ كلمةَ «القراءة» مكان كلمة «القرآن».

وإنما سَمّى الحديثُ القراءةَ قرآناً، لأنَّ الكلمتيْن تقومان على معنى الجمعِ والضم، فالإنسانُ عندما يقرأُ أيَّ كلام إنما يضمُّ حروفَه ومفرداته ويجمعُها معاً، ثم ينطقُ بها.

وقد أَطلقتْ آياتُ القرآن على القراءةِ قرآناً. قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩].

والمعنى: إِنَّ علينا جمعَ القرآن وقراءتَه عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قراءتَنا له.

فكلمة «قرآنه» المذكورة مرتيْن هنا بمعنى: قراءته.

ومن هذا الباب أَطلقَ الحديثُ على قراءةِ داود للزبور كلمة «قرآن» والله أعلم.

---

(١) المرجع السابق ٦:٤٥٥.

[٦]

داود عليه السلام أعبد الناس

كان داودُ عليه الصلاة والسلام من أعبدِ الناس، كيفَ لا وهو نبيٌّ ملك، وخليفة رسول، وقد أنعمَ اللّهُ عليه بالنعمِ الغامرة، وهو يعلمُ أن عليه أنْ يقابلَ نِعَمَ الله بالشكر.

ومِن شكْرِه لله أنْ يكونَ أكثرَ الناس عبادةً وذكراً لله.

صيام داود وقيامه وقراءته القرآن:

ومرَّ مَعنا قبلَ قليل حرصُه على قراءةِ الزبور، وتخفيفُ قراءته عليه، حيث أَخبرنا رسولُ الله ﷺ أنه كان يقرأُ الزبورَ قبلَ أنْ يفرغَ موظفوه من تجهيزِ دوابِّه للركوب.

وأخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن صلاةِ داود وصيامه عليه السلام، وأنه كانَ أفضلَ العابدين صياماً وصلاة.

روى البخاري ومسلم عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: «أَحَبُّ الصيامِ إلى الله صيام داود، كان يصومُ يوماً ويفطر يوماً، وأَحَبُّ الصلاةِ إلى الله صلاة داود، كان ينامُ نصفَ الليل، ويقومُ ثُلُثَه، وينامُ سُدُسَه..»(١).

إن النبيَّ ﷺ يُثني على داودَ في عبادته عليه السلام، ويشهدُ له بأن صيامَه كان أحبَّ الصيام إلى الله، وأنه أكثرُ الناس صياماً، حيث يصومُ يوماً ويفطر يوماً، على مدار عمره كله.

كما أنه كانَ أكثرَ الناس صلاةً في الليل، حيث كان يبدأُ ليله بالنوم، فينامُ نصفَ الليل الأول، ثم يقومُ يصلي ثلثَه، ثم يعودُ لينامَ سدسَه، وذلك قبلَ طلوع الفجر.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٢٠. ومسلم برقم: ١١٥٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٥٢.

قالَ الإمام ابن حجر في شرح الحديث: «قال المهلب: كان داودُ يُجِمُّ نفسَه ويريحُها بنومِ أولِ الليل، ثم يقومُ في الوقت الذي يُنادي اللّهُ فيه: هل من سائلٍ فأعطيَه سؤلَه، ثم يستدركُ بالنوم ما يستريحُ به من نَصَبِ القيام في بقيةِ الليل. وهذا هو النومُ عند السحر.

وإنما صارت هذه الطريقةُ أحبَّ إلى الله، من أجلِ الأخذِ بالرفقِ للنفس التي يُخشى منها السآمة...

وإنما كانَ ذلك أرفقَ لأن النومَ بعد القيام يُريحُ البدن، ويُذهبُ ضررَ السهر وذبولَ الجسم، بخلافِ السهرِ إلى الصباح.. وفيه من المصلحةِ استقبالُ صلاةِ الصبح وأذكارُ النهار بنشاطٍ وإقبال، وأَنه أقربُ إلى عدم الرياء، لأنَّ من نامَ السدسَ الأخيرَ أصبحَ ظاهرَ اللون، سليمَ القوى، فهو أقربُ إلى أن يُخفي عملَه الماضي على مَن يراه...»[1].

وهذا كان قيامُ رسولِ الله ﷺ، حيث كان ينامُ أولَ الليل، ويقومُ وسطَه، وينامُ آخرَه وهو وقت السحر.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: «ما أَلْفاهُ السَّحَرُ عندي إلا نائماً. تعني النبيَّ ﷺ»[2].

أي ما كان يدخلُ وقتَ السَّحَرِ إلا والنبيُّ نائمٌ عليه الصلاة والسلام، والسَّحَرُ ما كانَ قبيلَ طلوع الفجر.

مع عبد الله بن عمرو في الاقتداء بداود:

وللحديثِ السابق الذي رواهُ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مناسبة، وضَّحَها عبدُ الله بن عمرو نفسُه في حديثٍ آخر، نقدمُها للقراء ليعرفوا دعوةَ النبي ﷺ ابنَ عمرو للاقتداءِ بداود عليه السلام في صيامه وقيامه.

---

(١) فتح الباري ٣:١٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١١٣٣. ومسلم برقم: ٧٤٢.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:

كنتُ أَصومُ الدهر، وأَقرأُ القرآنَ كلَّ ليلة. فإمّا ذُكِرْتُ للنبي ﷺ، وإمّا أَرْسَلَ إليّ.

فأتيتُه. فقال لي: أَلم أُخْبَرْ أنكَ تصومُ الدهر، وتقرأُ القرآنَ كلَّ ليلة؟

قلت: بلى، يا رسولَ الله، ولم أُردْ بذلك إلا الخير!.

قال: فإنَّ بحسْبِك أنْ تصومَ من كلِّ شهر ثلاثةَ أيام.

قلت: يا نبيَّ الله: إني أُطيقُ أفضلَ من ذلك.

قال: فإنَّ لزوجك عليك حقاً، ولزَوْرِك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً.

قال: فصُم صومَ داودَ نبي الله ﷺ، فإنه كانَ أعبدَ الناس.

قلت: يا نبيَّ الله: وما صومُ داود؟

قال: كان يصومُ يوماً ويفطر يوماً!

ثم قال: واقرأ القرآنَ في كلِّ شهر!

قلت: يا نبيَّ الله: إني أطيقُ أفضلَ من ذلك.

قال: فاقرأه في كلِّ عشرين.

قال: يا نبيَّ الله: إني أُطيقُ أفضلَ من ذلك.

قال: فاقرأه في كلِّ عشر.

قلت: يا نبيَّ الله: إني أُطيقُ أفضلَ من ذلك.

قال: فاقرأه في كلِّ سبْع. ولا تَزِدْ على ذلك. فإنَّ لزوجِك عليك حقاً، ولزَوْرِك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً.

قال: فَشَدَّدْتُ، فَشُدِّدَ عليّ.

وقالَ لي رسولُ الله ﷺ: إنك لا تدري، لعلكَ يطولُ بك عُمُر.

قال: فصرتُ إلى الذي قالَ لي رسولُ الله ﷺ. فلما كبرتُ، ووذِتُ أني كنتُ قبلتُ رخصةَ نبيِّ اللّهِ ﷺ..»[1].

وفي هذا الحوارِ التربوي بيْن رسولِ الله ﷺ وعبدِ الله بن عمرو رضي الله عنهما، يصرحُ رسولُ الله ﷺ بأنَّ داودَ عليه السلام كان أعبدَ الناس.

تكامل شخصية داود في عبادته وشجاعته:

وقد حرصَ رسولُ الله ﷺ أنْ يبينَ «التكاملَ» في شخصيةِ داودَ عليه السلام، فرغمَ أنه كان أفضلَ الناس في عبادته، وأكثرَهم صلاةً وصياماً، إلا أنه كان أشجعَهم أيضاً في الميدان!!.

روى البخاريُّ ومسلم عن عبدِ الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «أَحَبُّ الصلاةِ إلى الله صلاةُ داود، وأَحَبُّ الصيامِ إلى الله صيامُ داود، كان ينامُ نصفَ الليل، ويقومُ ثلثَه، وينامُ سدسَه، وكان يصومُ يوماً، ويفطر يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقى...»[2].

والجديدُ في الموضوع جملة: «ولا يفرُّ إذا لاقى».

أي أَنه كان شجاعاً في الجهاد، ثابتاً في الميدان، فكانَ إذا حاربَ الكفارَ يهاجمُهم ويقاتلُهم، ولا يفرُّ من المعركة!

أي أن داودَ عليه السلام جمعَ بين إحسانِ الصلاة والصيام بحيث

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦١٩. ومسلم برقم: ١١٥٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٥١.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٩. ومسلم برقم: ١١٥٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٥٢.

كان فيهما أعبدَ الناس، وبين الشجاعةِ في الجهاد وعدمِ الفرارِ يوم القتال، بحيث كان في الميدان أشجعَ الناس.

والدليلُ على شجاعتِه قيامُه بقتْلِ ملكِ الكفار جالوت، كما صرَّحَ بذلك القرآن.

وهذا هو التكاملُ الرائعُ في شخصيةِ داود عليه السلام، والرسولُ ﷺ يدعو المسلمين إلى الاقتداء بداودَ في هذا التكامل، بحيث يكونُ الواحدُ منهم متفوقاً في العباداتِ والشعائر، ومتفوقاً كذلك في الجهادِ والقتال.

[٧]

تسبيح الجبال والطير مع داود عليه السلام

مَرَّ معنا شهادةُ الرسول ﷺ بأنه كان أعبدَ الناس، وأشجعَ الناس، وكان قويَّ الصلةِ بالله، حَسَنَ الذكرِ له، جميلَ الدعاءِ له.

دعاء داود وإيثاره محبة الله على كل شيء:

وأخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن دعاءٍ جميلٍ كان داودُ عليه السلام يدعو به ربَّه.

روى الترمذيُّ عن أَبي الدرداء رضي الله عنه قال: «قال رسولُ الله ﷺ: كان من دعاءِ داودَ عليه السلام يقول: اللهمَّ إني أسألك حُبَّك، وحُبَّ مَنْ يحبُّك، والعملَ الذي يُبلِّغني حُبَّك، اللهم اجعلْ حبَّك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي، ومن الماءِ البارد!

وكان رسولُ الله ﷺ إذا ذَكَرَ داودَ يقول عنه: كان أعبدَ الناس..»[١].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٤٩٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٥٠.

ويُظهرُ لنا هذا الدعاءُ الجميلُ حرصَ داودَ عليه السلام على محبةِ الله، التي هي أغلى وأنفسُ شيء في الدنيا. إنه يسألُ اللّهَ أنْ يرزقَه حبَّه، وحبَّ كلِّ شخصٍ يحبُّه، وحبَّ كلِّ عمل يقربُه إلى الله، ويبلغُه حبَّ الله. ويسألُ اللّهَ أن يجعلَ حبَّه أحبَّ إليه من كل شيء في الحياة، بل أحبَّ إليه من أقربِ وأحبِّ الناس إليه، وهم أهلُه، بل أحبَّ إليه من نفسه التي بين جنبيه، وأنْ يكونَ أحبَّ إليه من كل ملذاتِ الدنيا، وكان من أحبها إلى نفسه الماءُ البارد!!

ولذلك كان داودُ عليه السلام يكثرُ من الذكرِ والعبادة، كالصلاةِ والصيام وقراءة الزبور، لينالَ بذلك محبةَ الله.

جمال صوت داود وصوت أبي موسى الأشعري:

وقد وهبَ اللّهُ داودَ عليه السلام صوتاً جميلاً، فكان يتألقُ ويزدادُ جمالاً عندما يتلو الزبور.

وكان من أجملِ الصحابة صوتاً بالقرآن أَبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وكان رسولُ الله ﷺ يحبُّ سماعَ القرآن منه، ويُشَبِّهُ صوتَه الجميل بصوتِ داود عليه السلام.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال له: «لقد أُوتيتَ مزماراً من مزاميرِ آل داود»[١].

ووردت في الحديث كلمةُ «آل داود»، ولا يرادُ آلُ داود أنفسهم، وإنما يرادُ داودُ نفسُه عليه السلام.

قال الإمامُ ابنُ حجر في شرح الحديث: «قال الخطابي: قوله «آل داود» يريدُ داودَ نفسَه. لأنّه لم يُنقَلْ أن أحداً من أولادِ داود ولا من أقاربه كان أُعطيَ من الصوت ما أُعطي...»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٠٤٨. ومسلم برقم: ٧٩٣.

(٢) فتح الباري ٩:٩٣.

وروى مسلمٌ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ عبدَ الله بن قيس ـ أو الأشعري ـ أُعطيَ مزماراً من مزاميرِ آل داود».

وفي روايةٍ أُخرى عنه أَن رسولَ الله ﷺ قال له: «لو رأيتَني وأنا أستمعُ لقراءتك البارحة، لقد أُوتيتَ مزماراً من مزاميرِ آل داود»[1].

وإذا كانت الأحاديثُ السابقةُ تذكرُ «آلَ داود» والمرادُ بها داودُ نفسُه عليه السلام، كما قالَ الخطابيُّ وابنُ حجر، فهناك روايةٌ مرفوعةٌ فيها التصريح بداود، وليس آل داود.

روى النسائيُّ وغيرُه عن أبي هريرة رضي الله عنه أَن رسولَ الله ﷺ قال: «لقد أُعطيَ أبو موسى من مزاميرِ داود»[2].

مزمار داود ومزاميره في العهد القديم:

ولا يُرادُ بالمزمارِ في الحديث آلةَ العزفِ الموسيقية، وإنما يرادُ به الصوتَ الحسنَ الجميلَ عند القراءة، فعندما يَقرأُ كان يُحَسِّنُ ويُجَمِّلُ صوتَه، ويجوِّدُ الكلمات الخارجة من فمه، فكأنه يعزفُ على المزمار الموسيقي.

إذن كان داودُ عليه السلام يقرأُ ويتلو كلامَ الزبور، ويجوِّدُ صوتَه بذلك، فكأنه يعزفُ على المزمار.

ونسارعُ إلى القول: إنَّ المزاميرَ المنسوبةَ إلى داود عليه السلام، والمذكورةُ في العهد القديم، ليستْ هي الزبورَ الذي أنزلَه اللّهُ على داودَ عليه السلام، ولا هي مما كان داودُ يناجي به ربَّه.

السِّفْرُ التاسع عشر من أَسفارِ العهدِ القديم اسمه «المزامير». وقد سجَّلَ أحبارُ اليهود فيه مائةً وخمسين مزماراً، ومعظمُ هذه المزاميرِ منسوبٌ إلى داود، وبعضُها منسوبٌ إلى غيره.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٧٩٣.

(٢) أخرجه النسائي برقم: ١٠٢٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٤٢.

ولكننا نقول: هذه المزاميرُ ليست الزبور، وما كان داودُ يتلوها، وكلماتُها لا تتفقُ مع أدبِ داودَ عليه السلام مع الله، وهي من وضعِ أَحبارِ اليهود فيما بعد، ونحن نعلمُ أن اليهودَ حَرَّفوا التوراةَ وأسفارَ العهد القديم.

الجبال والطير يسبحن مع داود وتوجيه ذلك:

ومن روعةِ جمالِ صوتِ داود عليه السلام أنه لما كان يذكُرُ اللّهَ ويُسبحه، كان يتأثرُ ما حولَه من الجبال والطيور، فكانت تسبّحُ معه!

الجبالُ الصمُّ والطيورُ البكمُ تسمعُ تسبيحَه، وتتأثرُ به، وترددُه من بعده!!

ولا يستغربَنَّ أحدٌ هذا الكلامَ فقد جاءَ في صريحِ آياتِ القرآن.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

سخَّرَ اللّهُ الجبالَ والطير، وأَمَرَها أنْ تسبحَ مع داودَ عندما يسبحُ الله، وأنْ تشاركَه هذه العبادة.

والجبالُ خاضعةٌ لأمرِ الله خضوعاً تسخيرياً، تنفذُ أمْرَه ولا تتمردُ عليه، ولهذا قامت بالتسبيحِ مع داودَ عليه السلام.

والطيرُ عابدةٌ لله تعالى بلغةٍ خاصة، وصوتٍ معين، تنفذُ أمْرَ الله ولا تتمردُ عليه، وقد تلقَّتْ أمرَ الله بالقبول، وكانت تشاركُ داودَ عبادتَه وتسبيحَه.

وللجبالِ لغةٌ خاصةٌ تسبحُ بها اللّهَ رغمَ أَنها جمادات، نحن لا نفقهها، وللطيورِ أصواتٌ خاصة تسبحُ بها الله، نحن نسمعُها ولكن لا نفقهُهَا.

قال اللّهُ عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

فالآية في أنَّ كلَّ مَنْ في السموات السبع والأرض يسبحُ لله، سواء كانَ مخلوقاتٍ عاقلة، أو مخلوقاتٍ غيرَ عاقلة، أو جمادات، فما من شيء في الوجود إلا يسبحُ بحمد الله.

وحتى لا نسارعَ بالإنكار بحجةِ عدم سماعنا لصوتها وهي تسبح، أخبرت الآيةُ أَننا لا نفقهُ تسبيحَ كلِّ هذه المخلوقات: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ...﴾.

نسمعُ صوتَها لكن لا نفقهُ لغتَها، أو لا نسمعُ صوتَ الجمادات ولا نفقهُ لغتَها، لأننا لا نفقهُ إلا لغتَنا نحن البشر.

وعدمُ فقهِنا لأصواتِ هذه المخلوقات وهي تسبحُ لا يعني أَنها لا تسبح، فكم من ظواهرَ ماديةٍ طبيعيةٍ موجودةٍ من حولنا، نحسُّ بها ونجزمُ بوجودها، ولكن لا نقدرُ على تفسيرِها وتحليلها وتعليلها، ومع ذلك لم نقمْ بإنكارِها بحجة عجزِنا عن تعليلها، لأنها بدهيةٌ مسلمة.

فلماذا لا نجعلُ تسبيحَ المخلوقات الحية وغيرَ الحية من حولنا من هذا الباب؟ ولماذا ننكرُ تسبيحَها بحجةِ عدمِ فقهنا له؟

بما أنها وردت في آيةٍ صريحة في القرآن فيجبُ أَنْ نؤمنَ بها ونسلِّمَ بمدلولها، ونقولَ بما قالتْ به. لقد أمرَ اللّهُ الجبالَ والطير أَنْ تسبحَ مع داود عليه السلام، فنفذتْ أمرَ الله وسبحتْ معه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

وإذا كانتْ آيةُ سورةِ الأنبياء قد أخبرتْ أنَّ الجبالَ والطير كانت تسبحُ مع داود، فإنَّ آيةَ سورة سبأ قد أخبرتْ أنها كانت تُؤَوِّبُ معه. قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: ١٠].

أمرَ اللّهُ الجبالَ والطير أنْ تُؤَوِّبَ مع داود عندما يسبح.

و«أَوِّبي» فعلُ أمر. الماضي منه «أَوَّبَ». ومعناه: رَجَّعَ وردَّدَ الصوت، وأعادَه كما سمعه.

قال الإمامُ ابنُ كثير في تفسير هذه الآية من سورة سبأ: «يخبرُ اللّهُ عما أنعمَ به على عبدِه ورسوله داودَ عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضلِ المبين، وجمعَ له بين النبوةِ والملكِ المتمكن، والجنودِ ذوي العَدَدِ والعُدَد، وما أعطاهُ ومنحه من الصوتِ العظيم الذي كان إذا سبَّحَ تسبحُ معه الجبالُ الراسيات، الصمُّ الشامخات، وتقفُ له الطيورُ السارحات، والغادياتُ والرائحات، وتُجاوبه بأنواعِ اللغات.

ومعنى قوله: ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾: سَبِّحي معه.

قالَه ابنُ عباس ومجاهد، وغيرُ واحد.

وفي هذا نظر، فإن التأويبَ في اللغة هو الترجيع. فأُمرت الجبالُ والطيرُ أنْ ترجِّعَ معه بأصواتها.

والصوابُ أن معنى ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾: رجِّعي معه مسبحة...»[1].

وهذا معناه أن الجبالَ والطيرَ كانت تنتظرُ داودَ أنْ يبدأَ بالتسبيح، فإذا سمعتْه يسبحُ أَوَّبَتْ ورجَّعَتْ وردَّدَتْ معه.

الإخبار عن تسبيح الجبال والطير معه في ثلاث سور:

واللطيفُ في إخبارِ القرآن عن تسبيحِ الجبال والطير مع داود عليه السلام، أنَّ هذا الإخبارَ جاءَ في ثلاثِ سور: الأنبياء وسبأ وص.

ففي سورةِ الأنبياء أَخبرَ عن تسبيحِها معه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ..﴾.

وفي سورة سبأ أخبرَ عن تأويبِها معه: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ...﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٥٠٥ باختصار.

أي أنَّ تسبيحَها كان تأويباً وترجيعاً وترديداً، بعدَ تسبيحه هو.

أما في سورةِ ص فقد جاءت زيادةٌ وإضافةٌ مفيدة. قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٧ ـ ١٩].

أخبرَ اللّهُ أنَّ داودَ ذو الأيْد. ومعنى «ذو الأيد»: ذو القوة. ونتكلمُ عن هذا المعنى في المبحثِ القادم إن شاء الله.

وأخبرَ أنه أوّاب: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

قال ابنُ كثير: الأَوّاب: «هو الرّجّاعُ إلى اللّهِ عز وجل في جميعِ أُموره وشؤونه»(١).

وهذا ثناءٌ من الله على داودَ عليه السلام، بأنه أَوّابٌ إلى ربه، حريصٌ على مرضاتِه، يرجعُ في كلِّ أُموره إليه، ويرجعُ في كلِّ أوقاتِه إليه.

قالَ الإمام الراغب عن الأَوْب: «الأَوْب: ضربٌ من الرجوع.

وذلكَ أنَّ الأَوْبَ لا يقالُ إلا في الحيوانِ الذي له إرادة.

... والأَوّاب كالتّوّاب، وهو الراجعُ إلى الله بتركِ المعاصي وفعلِ الطاعات...»(٢).

وفصَّلت الآيةُ في تسبيحِ الجبال والطير مع داود، فبينتْ أنها تسبحُ مرتيْن في اليوم: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ..﴾.

والعشي: وقتُ المساء، عند غروب الشمس.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٣١.

(٢) المفردات: ٩٧ باختصار.

والإشراق: وقتُ الصباح عند شروق الشمس.

لقد سخرَ اللّهُ له الجبال، وجعلَها مسبحةً في الصباح وفي المساء، وحشرَ له الطير، وجعلَها تسبحُ وهي محشورةٌ في الصباح والمساء أيضاً.

وجملة ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ في محلِّ نصبِ حال، وصاحبُ الحال هو الجبال. أي: إنّا سخرنا الجبالَ معه مسبحةً بالعشي والإشراق.

و«محشورةً» حالٌ منصوب، وصاحبُ الحال هو «الطير». و«الطيرَ» مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ مفهوم من السياق. والتقدير: وسخرنا الطيرَ محشورة، مسبحةً بالعشي والإشراق.

وكأنَّ الجبالَ والطيرَ مخلوقاتٌ عاقلة، تختارُ أَصفى وقتين للتسبيح: عند شروق الشمس وعند غروبها.

وتخيُّلُ منظرِها وهي تسبحُ عند الصباح والمساء جميلٌ لطيفٌ مؤثر، تتفاعلُ معه النفوس.

الجبال والطير أوابة لداود الأواب:

داودُ عليه السلام يقفُ ويسبحُ اللّهَ بصوته الجميل، فتجاوبُهُ الجبالُ مسبحة، ويسمعُها وهي تقول: سبحان الله. وتأتيه أَسرابٌ من الطيور، من مختلفِ أجناسها، وتُحشرُ له، وتجاوبُه مسبحة، ويسمعُها وهي تقول: سبحان الله!!

إنه مشهدٌ عِباديٌّ تسبيحيٌّ عظيمٌ مؤثر، وإنَّ تصوُّرَه وتخيُّلَه يملأُ شعورَ المؤمن أُنساً واستمتاعاً وجمالاً.

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أَنه أَخبر عن الجبال والطير بقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

والضميرُ يعودُ على داود عليه السلام، أي: أن اللّهَ سخر له

الجبالَ والطير، وجعلَها أوّابةً له، أي جعلَها رجّاعَةً له، تَؤوبُ إلى داود وترجعُ إليه، وتستسلمُ له، وتسبح معه.

والجميلُ في التعبيرِ القرآني أن كلمةَ «أوّاب» وردت مرتين في الحديثِ عن داود في سورة ص:

المرة الأولى: ثناءٌ من الله على داود: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

المرة الثانية: وصفُ الجبال والطير: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

فداودُ أَوّابٌ لربه، رجّاعٌ إليه، والجبالُ والطير، كلٌّ منها أَوّابٌ لداود، رَجّاعٌ إليه.

وتَجمعُ معها كلمةَ «أَوِّبي» المشتقةَ من نفسِ المادة «الأَوْب»، الواردةَ في سورة سبأ ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾.

فيكونُ المعنى: الجبالُ والطيرُ الأَوّابَةُ لداود تُؤَوِّبُ معه عندما يسبح، وتُرَجِّعُ معه تسبيحَه، وهي أَوّابَةٌ له لأنه هو أَوّابٌ لربه!!.

[٨]

داود يصنع الدروع الحربية

بما أنَّ داودَ عليه السلام نبيٌّ ملك، جمعَ اللّهُ له بين النبوة والملك، فقد زوَّدَه بالوسائلِ التي تُقوي سلطانَه، وتشدُّ ملكَه.

وأخبرنا اللّهُ بأنه شدَّ له ملكه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠].

قال ابن كثير: «﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾: أي: جعلْنا له ملكاً كاملاً، من جميع ما يحتاجُ إليه الملوك.

قال مجاهد: كان داودُ أشدَّ أهلِ الدنيا سلطاناً..»[١].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤:٣١.

هيأ اللّهُ له الملكَ والسلطان، وأنشأ له الخلافة، وأوجدَ له الدولة، فأسسَ أولَ خلافةٍ إيمانية.

معنى وصف داود بأنه «ذو الأيد»:

وبما أن اللّهَ شدَّدَ له ملكه، وقوّى له سلطانَه، فقد وصفَه بأنه ذو الأيْد. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

إنه أوّابٌ إلى الله، دائمُ الأوبةِ والرجوع إليه سبحانه، ولذلك منحه اللّهُ الأيْدَ والقوة.

قال ابن كثير: «والأَيْد: القوةُ في العلم والعمل.

قال ابن عباس: الأيد: القوة.

وقال مجاهد: الأيد: القوةُ في الطاعة.

وقال قتادة: أُعطيَ داودُ عليه السلام قوةً في العبادة، وفقهاً في الإسلام..».

والأَيْدُ بمعنى القوةِ الشديدة، مشتقةٌ من فعل: «أَيَّدَ» بمعنى: قَوَّى. والله يؤيِّدُ مَن يشاء: أي يقوّي مَن يشاء، ويمنحهُ تأييداً وقوة.

ويجبُ أنْ نفرقَ بين الأيدي والأيْد. والكلمتان واردتان في القرآن.

فالأَيْدي جمع يد، وهي اليدُ المعروفةُ في الإنسان.

وهي مشتقةٌ من فعل «يَدىٰ». تقول: يَدىٰ، يَدي. بمعنى أَصابَ يَدَه.

وأَيدي الناس: جوارحُهم المعروفة. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟...﴾ [الروم: ٤١].

أما الأَيْدُ فهو القوة. وهو مشتقٌ من فعل «آدَ». تقول: آدَ، أَيْداً،

بمعنى: قَوِيَ واشتد. فهو أَيِّدٌ، وذو أَيد. وأَيّده: قَوّاه..[1].

ولم ترد «الأَيْد» إلا مرتين في القرآن:

الأولى: في الإخبارِ عن خلقِ الله للسماء بقوته سبحانه. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧].

قال ابنُ كثير في تفسير الآية: السماءَ جعلناها سَقْفاً محفوظاً رفيعاً بقوة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري، وغير واحد[2].

أي أنَّ اللّهَ خلقَ السماء وأوجدَها وبناها بأَيْدِه وقوته سبحانه.

الثانية: في وصفِ داودَ عليه السلام بأنه ذو أَيْد. أي: ذو قوة في العلم والعمل.

ذو الأيد وأولو الأيدي في سورة ص:

واللطيفُ أن الكلمتين مذكورتان في سورة ص: الأَيْد والأَيدي.

أما الأَيْدُ فكما مَرَّ معنا: ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾.

وأَما الأيدي، فهي مذكورةٌ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥﴾ [ص: ٤٥].

وصفت الآيةُ الأنبياءَ الثلاثةَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب بأنهم أُولوا الأيدي والأبصار. ولا يُرادُ بذلك الجوارح من الأيدي والعيون، فكلُّ الناس لهم أَيْدٍ وعيون ـ إلاّ من ابتلاهم الله بفقدانها ـ.

وإنما المرادُ الثناءُ على هؤلاء الأنبياء بالقوة في العلم والعمل، والبصر والفطنة والفهم.

قال ابن كثير: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾: يعني بذلك العملَ

---

(١) المعجم الوسيط: ٣٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤:٢٣٨ ـ ٢٣٩.

الصالح، والعلمَ النافع، والقوةَ في العبادة، والبصيرةَ النافذة.

قالَ ابن عباس: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾: أُولي القوةِ والفقه في الدين.

وقال مجاهد: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾: الأيدي: القوةُ في طاعةِ الله، والأَبصار: البصرُ في الحق.

وقالَ قتادة والسدي: أُعطوا قوةً في العبادة وبَصَراً في الدين.

إذن كان داودُ عليه السلام ذا أَيْد، وصاحبَ قوةٍ في العلم والعمل. وقد استخدَمَ أَيْدَهُ وقُوَّتَه في توطيدِ سلطان دولته، وتقويةِ خلافته، والحكمِ في بني إسرائيل بالحق.

داود لا يأكل إلا من عمل يده ودلالة ذلك:

وبما أنَّ داود كان ذا أَيْد وقوة، فقد حرصَ على أن يكون له عملٌ يعملُه بيده، ليأكلَ منه.

روى البخاريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ داودَ عليه السلام كان لا يأكلُ إلاّ من عملِ يده..»[١].

إنَّ داودَ كان لا يأكلُ إلا من عمل يده، وهذا من مروءتِه وشهامتِه وقوته عليه السلام، بحيثُ يرفضُ أنْ يكونَ عالةً على غيره، يعتمدُ على غيره في كسبه ورزقه وأكله.

وقد دعا رسولُنا ﷺ إلى الاقتداءِ بداودَ عليه السلام في ذلك. فروى البخاريُّ عن المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكلَ أحدٌ طعاماً قط، خيراً مِنْ أن يأكلَ من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داودَ عليه السلام كان يأكلُ من عمل يده..»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٠٧٣. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٤٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٠٧٢.

وقد استجابَ أصحابُ رسول الله ﷺ لهذا التوجيه النبوي، فكانوا يَحرصون على أن يكتسبوا ويعملوا.

روى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ عُمّالَ أنفسهم..»[1].

ومن عظمةِ شخصيةِ داود عليه السلام أنه كان يحرصُ على أنْ يعملَ ويكدَّ ويكسب، ليأكلَ من عملِ يده، مع أنه ملكٌ خليفة، أنشأَ أولَ مملكةٍ إسرائيلية، وأسسَ أولَ خلافةٍ إيمانية، ومع هذا لم يمنعْهُ هذا الفضلُ من العملِ والكسب، ليأكلَ من عملِ يده.

ألان الله لداود الحديد:

ماذا كانت مهنةُ داودَ عليه السلام؟ التي يأكلُ من كسبها؟

لم تكن مهنةً فردية بقصْدِ العملِ والكسب، وجنْيِ المالِ والمتاع، إنما كانت مهنتُه تخدمُ أمتَه، وتُقَوي دولتَه، لقد اختارَ داودُ عليه السلام العملَ الذي يقدِّمُ خيراً لأمته.

وهذا يتفقُ مع قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

لقد ألانَ اللّهُ الحديدَ لداود عليه السلام. قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾..﴾ [سبأ: ١٠].

اللّهُ هو الذي ألانَ الحديدَ بين يديه، فكان يتصرفُ فيه كما يشاء، بدون جهدٍ ولا مشقة.

لقد كان الحديدُ معروفاً قبلَ داودَ عليه السلام، لكن كان استعمالُ الإنسانِ له قليلًا محدوداً.

أمّا داودُ عليه السلام، فقد هداه اللّهُ إلى اكتشافِ مناجمِ الحديد

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٠٧١.

في مملكته، وألانَ الحديدَ له، وجعله طوعَ يديه، فكان يصنعُ منه ما يشاء.

إن قولَه تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ يدلُّ على أنَّ اللّهَ ألهمَ بني إسرائيل في عهدِ داودَ عليه السلام اكتشافَ الحديد، واستخراجَه من مناجمه في الأرض المقدسة، واستخدامَه في الصناعاتِ المختلفة الضرورية للدولة، وكان هذا من مظاهرِ تقدمِ الدولة في عهده عليه الصلاة والسلام.

أما داودُ عليه الصلاة والسلام فقد خصَّهُ اللّهُ بأنْ ألانَ له الحديد، وسهَّلَه بين يديه، ليصنعَ منه مختلفَ الصناعات الضرورية لقومه.

وعلمه صنع الدروع الحربية:

كان داودُ عليه السلام يصنعُ من الحديدِ اللين بين يديه الدروعَ الحربية، واللّهُ هو الذي علَّمه كيفيةَ صنع هذه الدروع.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩ ـ ٨٠].

والمعنى: أن اللّهَ عَلَّمَ داودَ عليه السلام أنْ يصنعَ من الحديدِ الدروعَ التي يلبسها المقاتلون، وذلك لتحميهم من سلاحِ الكفار الأعداء في المعارك.

﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾: صنعَ الدروع، التي تَلبسونها في الحرب.

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾: لتحميكم هذه الدورعُ عندَ القتال.

وكان داودُ عليه السلام هو أولَ مَنْ صنعَ الدروعَ الحربية، التي يلبسها الجنود، ولم تكن الدروعُ الحديديةُ تلبس على هذه الصورة قبله.

حديث القرآن عن كيفية صنعه للدروع:

أما كيفيةُ صنعِه لهذه الدروع، فقد أشارتْ إلى ذلك آيةُ سورةِ سبأ، وهي قول الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١١].

لما ألانَ اللّهُ لداودَ عليه السلام الحديد، عملَ منه الدروعَ السابغات، وقَدَّرَ في السَّرْد، ما معنى ذلك، وكيف كان؟

«أنْ» في قوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ تفسيرية، فجملةُ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ تفسيرٌ لما قبلها. أي: لما ألنّا لداودَ الحديد، قلنا له: اعمل سابغات.

ومعنى «سابغات» واسعات طوالاً.

وهي صفةٌ لموصوفٍ محذوف. والتقدير: اعمل دروعاً سابغات واسعات طوالاً كوامل.

قال الإمام الراغب: «دِرْعٌ سابغ: تامٌّ واسع. قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾. وعنه استعير إسباغُ الوضوء، وإسباغُ النعم، قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]»[١].

والسَّرْدُ في قوله: «قدر في السرد» الثَّقْب.

يقال: سَرَدَ الشيء: ثَقَبَه. وسَرَدَ الجلد: خَرَزَه. وسَرَدَ الدرع: نسجَها، فَشَكَّ طرفي كلِّ حلقتين وسَمَّرهما بالمسامير[٢].

وقال الإمام الراغب: «السَّرْدُ»: خَرْزُ ما يَخْشُنُ ويغلظ، كنسج الدرع، وخرزِ الجلد، واستعير لنظم الحديد، قال تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾[٣].

---

(١) المفردات: ٣٩٥.

(٢) المعجم الوسيط: ٤٢٦.

(٣) المفردات: ٤٠٦.

ومعنى «قدر في السرد»: أَحسنْ تقديرَ المساميرِ في حِلَقِ الدرع، وأَحسنْ ثَقْبَ حلقِ الدرع، بحيث تجيءُ فتحةُ الحلقة على قدرِ المسمار، فلا هي أوسعُ من المسمار فيتخلخلُ ويتحركُ فيها، ولا هي أضيقُ من المسمار فلا يدخلها ويتكسر!!

قَدِّرْ ثقبَ الحلقة أحسنَ تقدير، واجعلْها على قدرِ الحاجة.

قال ابن عباس: «السَّرْدُ» هو ثقبُ الدروع من الحديد.

وقال مجاهد: «وقَدِّرْ في السرد»: لا تُصَغِّر المسمارَ وتكبِّر الحلقة، فيسلسُ المسمار ويتقلقلُ فيها، ولا تُعَظِّم المسمار وتصغِّر الحلقة فيتكسر، ولكن اجعل ذلك بقدر.

والدروعُ المسرودةُ هي الدروعُ الحديدية، التي وُضعت المساميرُ في حلقاتها، فصارَتْ محكمة متينة.

والشاهدُ على ذلك قول الشاعر:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرودَتان قَضاهُما ... داودُ أَوْ صَنَعَ السَّوابِغَ تُبَّعُ

والمعنى: جاءَ الرجلان، وعليهما درعان سابغتان، محكمتا الصنع، مسرودَتان بالمسامير، كأنهما من صنعِ داود عليه السلام، أو من صنعِ تُبَّع ملك اليمن.

فالآية: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ تخبرُنا أنَّ اللّهَ علَّمَ داودَ عليه السلامُ صنعَ الدروع المحكمة من الحديد الذي أَلانَه له، فكان داودُ يحسنُ تقديرَ ثقبِ الحديد، فتكون الحلقةُ مناسبةً للمسمار تماماً، لا أصغرَ منه ولا أكبر منه.

وبهذا كان جنودُه يلبسون الدروعَ الحديديةَ المحكمة التي يصنعها، فكانت تحميهم من الأعداءِ في القتال، وتردُّ عنهم أسلحةَ أولئك الأعداء.

هو أول من صنع الدروع الحربية وشكره لله:

ولم تكن الدروعُ الحديديةُ مسرودةً بالحلق والمسامير قبلَ داود عليه السلام.

قال قتادة: داودُ أولُ مَنْ عملَ الدروعَ من الحلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح..[1].

وأمرَ اللّهُ آلَ داود عليه السلام وقومَه بعمل الصالحات، شكراً لله على هذه النعمةِ التي علَّمها لملكهم داود عليه السلام: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ونِعَمُ اللّهِ يجبُ أن تقابَلَ بشكرِه سبحانه، ومن شكره عليها استخدامُها فيما يرضي الله، والإكثارُ من العمل الصالح.

وهذا ما أَدركه داودُ وابنُه سليمان عليهما الصلاة والسلام، حيث اعترفا لله بالفضل والمنة، وحمداه على ما أَنعم عليهما به.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

آتاهما الله علماً، وخصَّهما به، ومنه النبوة التي مَنَّ بها عليهما، وفضَّلهما بالعلم والنبوة على عباده المؤمنين، وأَدركا ذلك عليهما السلام فحمدا اللّهَ وشكراه: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

عمر بن عبد العزيز واقتداؤه بداود في شكر المنعم سبحانه:

وقد سجَّلَ الإمامُ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية رسالةَ الخليفةِ الراشدِ عمرَ بنِ عبدِ العزيز رضي الله عنه التي كتبها من فهمه لهذه الآية.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣:٥٠٥ ـ ٥٠٦.

قال: «كتبَ عمرُ بن عبد العزيز: إن اللّهَ لم ينعمْ على عبدِه نعمة، فيحمدُه عليها، إلا كان حمدُه لله أفضلَ من تلك النعمة. وإنْ كنتَ لا تعرف ذلك فإنَّ اللّهَ ذكرَه في كتابه المنزل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾. فأيُّ نعمةٍ أفضلُ مما أُوتي داودُ وسليمانُ عليهما السلام. .»[1].

إذن كان داودُ عليه السلام يصنعُ الدروعَ الحديدية، وكان دخلُه ورزقُه من ريعها، وليس من خزينةِ المملكة التي أسَّسَها.

وانتشارُ الدروعِ الحديدية المحكمة المتينة في الدولةِ الإسرائيلية المؤمنة في عهد داود عليه السلام، سببٌ من أسبابِ قوةِ تلك الدولة، وتقدُّمِها وتفوُّقِها، وانتصارِها على أعدائها، الذين كانوا لا يعرفون هذه الصناعةَ الحربية!

[٩]

مع داود في حكمه وقضائه

آتى اللّهُ نبيَّه داودَ عليه السلام من نِعَمِه الكثير، وأخبرَنا عن بعضِ ما آتاهُ في القرآن.

آتاهُ فضلاً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ﴾ [سبأ: ١٠].

وآتاهُ الملكَ والحكمةَ والعلم. قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ . .﴾ [البقرة: ٢٥١].

وآتاه الحكمةَ وفصلَ الخطاب. قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠].

وقد أحسنَ داودُ عليه السلام الاستفادةَ من هذه المنحِ الربانية،

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٣٤٦.

واستخدامَها في تقديمِ الخير لقومه، وإسعادِهم بتطبيق شرع الله فيهم.

شدَّ اللّهُ ملكَ داود وقوّاه وثبَّته، ومنحه كلَّ ما يحتاجُه ملْكُه من وسائلِ القوة والتثبيت، من المالِ والرجال والعتاد والسلاح والدروع والتشريع، كما قالَ الإمامُ ابن كثير: «شَدَدْنا ملكه»: جعَلْنا له ملكاً كاملاً، من جميعِ ما يحتاجُ إليه الملوك..»[1].

ما هي الحكمة التي آتاها الله داود؟:

ومن مظاهر شَدِّ اللّهِ لملكه ما آتاهُ من الحكمةِ وفصلِ الخطاب.

فما هي الحكمةُ التي آتاه اللّهُ إياها؟

أوردَ ابنُ كثير أقوالَ بعضِ السلف في ذلك:

قال مجاهد: الحكمة هي: الفهمُ والعقل. والعدلُ والصواب.

وقال قتادة: الحكمة هي: كتابُ الله، واتباعُ ما فيه.

وقال السدي: الحكمة هي: النبوة.

وهذه الأقوالُ الثلاثةُ متقاربة، وهي من الحكمة.

فالنبوةُ من الحكمة، وكتابُ الله من الحكمة، واتباعُ وتطبيقُ ما فيه من الحكمة، وأُوتي داودُ عليه السلام الزَّبور، ومَنَّ اللّهُ عليه بالشريعة.

ونتجَ عن النبوة والشريعة وكتاب الله فهمُ داودَ عليه السلام وفطنتُه، وحكمُه بالعدل، وقولُه بالحق والصواب.

فهذه بعضُ مظاهرِ الحكمة التي آتاه اللّهُ إياها، فاستفادَ هو منها، وقدَّمَ النفعَ والخيرَ للآخرين.

قال الإمامُ الراغبُ عن الحكمة: «حَكَمَ: أصلُه: مَنَعَ منعاً لإصلاح.. والحكمُ بالشيء: أنْ تقضيَ بأنه كذا، أو ليس بكذا.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤:٣١.

والحكمة: إصابةُ الحقّ بالعلم والعقل.

فالحكمةُ من الله: معرفةُ الأشياء، وإيجادُها على غاية الإحكام.

والحكمةُ من الإنسان: معرفةُ الموجودات وفعلُ الخيرات...»[1].

وبما أن اللّهَ آتى داودَ عليه السلام الحكمة، فقد كان حكيماً في نفسه يتمتعُ بالفطنةِ والفهمِ والذكاء والفقه والعلم، وكان حكيماً مع قومه يقضي بينهم بالحكمة، ويحكمُ فيهم بالحق والصواب، وكان حكمه وقضاؤه يمنع الفساد، ويحققُ الخيرَ والصلاح.

وما هو فصل الخطاب المبني على الحكمة؟:

وأشارت الآيةُ إلى ما نتجَ عن حكمةِ داود مع قومه، وهو فصْلُ الخطاب: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

والفصلُ هو القطع والجزم. تقول: فصَلَ كذا. إذا منَعَه.

والخطاب هو: الكلامُ والجدالُ والخصامُ بين الطرفين المتخاصمين.

فعندما يختلفُ رجلان في مسألة، يتخاطبان ويتناقشان ويتنازعان ويتخاصمان، وكلٌّ يَدّعي أنه على صواب، وأنَّ معه البينات والشهود، ويذهبان إلى القاضي ليحكمَ بينهما.

وينظر القاضي في المسألة، ثم يُصدرُ حكْمَه، وإذا كان حكمُه عادلاً صائباً يُنهي المشكلة، ويقطعُ النزاع، ويحلُّ الخلاف.

عندها يقال: فصلَ القاضي الخطابَ بينهما، بالحكم الذي أصدره.

قال الإمام الراغب: «الفصل: إبانةُ أحدِ الشيئين من الآخر، حتى يكونَ بينهما فرجة.. تقول: فصَلْتُ الشاة: قطعتُ مفاصلها.

---

(١) المفردات: ٢٤٨ ـ ٢٤٩ باختصار.

... وفضلُ الخطاب: ما فيه قطعُ الحكم. وحكْمٌ فيصل...»[1].

أخبرَنا اللّهُ أنه آتى داودَ عليه السلام فصلَ الخطاب، وكان هذا ثمرةً للحكمة التي مَنَّ عليه بها: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

وهذه شهادةٌ من الله لنبيه داودَ عليه السلام بموهبته في الحكم والقضاء، حيث كان يحكُمُ بين الناس بشرع الله، ويَقضي بين المتخاصمين والمتنازعين، بالحكمة التي آتاه الله إياها.

وكانت أحكامُ داود وأقضيتُه عليه السلام صائبةً صحيحة، كيف لا وهو النبيُّ المؤيَّدُ من الله، المعصومُ بعصمة الله له، وكانت أحكامُه وأقضيتُه تؤدي إلى فصلِ الخطاب وقطع الخلاف، وإنهاء النزاع.

قال مجاهد والسدي: فصل الخطاب هو: إصابةُ القضاء، وفهمُ ذلك[2].

وكان يساعدُه في أقضيتِه وأحكامه ابنُه سليمان عليه السلام، الذي آتاه اللّهُ الحكمةَ والعلمَ أيضاً، فأضافَ حكمتَه إلى حكمة أبيه، وعلمَه إِلى علمِه، وإذا دعت الحاجةُ إلى الاستدراك على أَبيه في حكمه كان يفعل، وكان أبوه يتقبلُ ذلك برضى، ويُمضي حكمَ ابنه وقضاءَه.

قضية الحرث والغنم في سورة الأنبياء:

وقد ذكرتْ لنا مصادرُنا الإسلامية نموذجيْن لحكمِ داود وقضائه، واستدراكِ ابنه سليمان عليه.

النموذج الأول وردتْ له إشارةٌ مبهمةٌ موجزة في القرآن، والنموذج الثاني أخبرَنا عنه رسولُ الله ﷺ.

---

(١) المفردات: ٦٣٨ باختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٤: ٣٢.

الإشارةُ إلى النموذج الأول وردتْ في سورة الأنبياء. قال الله عز وجل: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩].

وقبلَ الحديث عن ذلك الحكم نبينُ معنى الآيتين بإيجاز:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ منصوبان بفعْلٍ مقدَّر. تقديره: اذكُرْ داودَ وسليمان.

والخطابُ موجَّهٌ لرسولِ الله ﷺ، ولكلِّ مؤمنٍ من بعده، يَدعوه اللّهُ إلى أنْ يذكُرَ ويتذكَّرَ هذه الحادثة التي حكمَ وقضى فيها داودُ وسليمانُ عليهما السلام.

و﴿إِذْ﴾: ظرفُ زمانٍ للماضي، وهو متعلقٌ بالفعل المقدَّر. أي: اذكُرْ داودَ وسليمان وقتَ حكمِهما في الحرث.

و﴿يَحْكُمَانِ﴾: يقضيان بين الخصمَيْن، عندما رُفعتْ لهما هذه القضية.

و﴿فِى ٱلْحَرْثِ﴾: في زرْعِ أحدهما. أي: في مزرعته التي زرعها. وقد تكون هذه المزرعةُ مزروعةً زرعاً كالقمح أو الشعير، وقد تكون مغروسةً أشجاراً مثمرة كالعنب.

و﴿نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾: دخلتْ غنمٌ لآخرين تلك المزرعةَ فرعَتْها وأفسدَتْها، وكان دخولُها فيها ليلاً.

تشيرُ الآيةُ إلى حادثةٍ وقعتْ في عهدِ داود عليه السلام. فقد كان

لأحدهم حرثاً أو مزرعةً أو بستاناً، وفي ليلةٍ من الليالي دخلتْ غنمٌ لآخرين ذلك الحرثَ ونفشَتْ فيه، فرعَتْه وأكلَتْه وأفسدَتْه.

وفي الصباحِ ذهبَ ذلك الرجلُ إلى حرثِه، فإذا به قد أَصابه التلفُ والفساد. ويبدو أنه عرفَ أصحابَ الغنم التي رعَتْه ليلاً.

فاشتكى إلى داودَ عليه السلام، وطالبَ إنصافَه من صاحب الغنم.

قال الإمامُ الراغب عن معنى الحرث: «الحرثُ إلقاءُ البذر في الأرض، وتهيُّؤها للزرع. ويُسمى المحروثُ حرثاً، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [القلم: ٢٢]»[١].

وقال عن النَّفْش: «النَّفْشُ: نشْرُ الصوف. قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥] أي: كالصوف المنشور.

ونَفْشُ الغنم: انتشارُها. والنَّفَشُ ـ بفتح الفاء ـ الغنمُ المنتشرة. قال تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾.

والإبلُ النوافش: المترددةُ ليلاً في المرعى بلا راع..»[٢].

وقد فرَّقَ العلماءُ بين رعْيِ الماشية بدون راعٍ في الليل، ورعيها في النهار:

فإنْ رعَتْ في الليل بدون راع قيل: نَفَشَتْ.

وإنْ رعَتْ في النهار بدون راع قيل: هَمَلَتْ.

قال قتادة: النَّفَشُ لا يكون إلا بالليل، والهَمَلُ بالنهار.

ووردَ في المعجم الوسيط: «نَفَشت الماشية في الزرع: انتشرت

---

(١) المفردات: ٢٢٦.

(٢) المرجع السابق: ٨١٩.

فيه ورعَته ليلاً، قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾.

وأَنفشَ الراعي الماشية: أَرسلَها ترعى بالليل ونامَ عنها»[1].

ووردَ في المعجم الوسيط عن الهَمْل: «هَمَلَت الإبلُ هَمْلاً: سرحتْ بغير راعٍ. فالبعيرُ هامل، والناقة هاملة.

وأهملَ إبلَه: تركَها بلا راع. ولا يكونُ ذلك في الغنم..»[2].

فهم سليمان الدعوى واستدراكه على حكم داود:

أخبرَ اللّهُ أنَّ المتخاصميْن جاءا إلى داود عليه السلام ليحكمَ بينهما، في مسألةِ رعي غنمِ أحدِهما زرعَ الآخر ليلاً. وكان ابنُه سليمان عليه السلام حاضراً الدعوى.

ويبدو أنَّ داودَ عليه السلام حكمَ في هذه الدعوى، ولما علم ابنُه سليمان بحكمه استدرك عليه، وحكم بحكم آخر.

وقد أَثنى الله على سليمان في حكمه بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

والهاء في «فهمناها» تعودُ على القضية والدعوى المعروضة. أي: فَهَّمْنا سليمانَ القضية، وأرشدناه إلى أنْ يحكمَ فيها الحكمَ الأصوب والأكمل.

كما أَثنى الله على داود وسليمان كليهما عليهما السلام: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

أي أنَّ داودَ عنده حكمٌ وعلمٌ من الله، وسليمانَ عنده حكمٌ وعلمٌ من الله. فحكَمَ داودُ في القضية بما آتاه اللّهُ من حكم وعلم، ثم حكمَ

---

(١) المعجم الوسيط: ٩٤٠.

(٢) المرجع السابق: ٩٩٥.

فيها سليمان بما آتاه اللّهُ من حكم وعلم، فجاء حكمُ داودَ فيها صواباً، لكن كان حكمُ سليمانَ أكثرَ صواباً..

فالآيةُ لم تُخَطِّئ داودَ في حكمه، وإنما أثنتْ عليه لِما عنده من حكم وعلم، وهذا معناه أنَّ حكمه كان صحيحاً وليس خطأً.

ولم تَرِدْ مادةُ «فَهْم» في القرآن إلا في هذا الموضع.

قال الراغب عن الفهم: «الفهم: هيئةٌ للإنسان، بها يتحققُ معاني ما يُحسن. يقال: فهمتُ كذا.

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾: وذلك بأنَّ اللّهَ إمّا جعلَ له من فضْلِ قوةِ الفهم ما أدركَ به ذلك، وإمّا بأنْ ألقى ذلك في روعِه، أو بأنْ أوحى إليه وخصَّه به.

وأفهمتُه: إذا قلتُ له حتى تصوَّرَه...»[1].

فَهَّمَ اللّهُ سليمانَ الدعوى، وأفهمه الحكمَ الأصوبَ والأَوْلى فيها، فاستدركَ على أبيه عليهما السلام.

رواية لابن عباس عن حكم داود وسليمان في القضية:

أمّا ما هو حكمُ داودَ في الدعوى؟ وما هو حكمُ سليمان فيها؟ فإنَّ القرآنَ لم يحدِّده، ولم يحدِّدْهُ لنا رسولُ الله ﷺ في حديثٍ مرفوعٍ متصلٍ صحيح.

ويمكنُ أنْ «نستأنسَ» للحُكمين بكلامٍ موقوفٍ على ابن عباس رضي الله عنهما، أوردَه المفسرون في تفسيرهم لهذه الآية.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: دخلَ رجلان على داود، أحدُهما صاحبُ حرث، والآخر صاحبُ غنم.

(١) المفردات: ٦٤٦.

فقالَ صاحبُ الحرث: إنَّ هذا أرسلَ غنمه في حرثي، فلم يُبْقِ من حرثي شيئاً!

فقال له داود: اذهب فإنَّ الغنمَ كلَّها لك!

فمرَّ صاحبُ الغنم بسليمان، وأخبرَه بالذي قضى به داود.

فدخلَ سليمانُ على داودَ عليهما السلام. فقال: يا نبيَّ الله: إن القضاءَ سِوى الذي قضيتَ!

فقال داود: كيف؟

قال سليمان: إنَّ الحرثَ لا يخفى على صاحبه ما يَخْرُجُ منه في كلِّ عام، فلهُ أنْ يبيعَ من أولادِها وأصوافِها وأشعارها حتى يستوفيَ ثمنَ الحرث!!

فقالَ له داود: أَصبْتَ. القضاءُ ما قضيتَ[1]

وفي روايةٍ أخرى لابن عباس أنه قال: قضى داودُ بالغنمِ لأصحابِ الحرث. فقال لهم سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه.

فقال لهم: لو وُلّيتُ أمرَكم لقضيتُ بغير هذا!

فأُخبرَ داودُ بكلام سليمان، فقال له: كيفَ تقضي بينهم؟

قال سليمان: أَدفعُ الغنمَ إلى صاحب الحرث، فيكونُ له أولادُها وألبانُها ومنافعُها. ويبذرُ أصحابُ الغنم لأهل الحرث مثلَ حرثهم.. فإذا بلغَ الحرثُ الذي كان عليه، أخذَ أصحابُ الحرث حرثَهم، وردّوا الغنمَ إلى أصحابها[2]..

فهذا التفصيلُ في حكمِ داودَ واستدراكِ سليمان عليه موقوفٌ على ابن عباس، ولا ندري من أينَ أَخذه؟! لأنه لم يرفعْهُ إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣: ١٨١.

ونحنُ نوردُ كلامَه من بابِ الاستئناس، مع التحفظ والاحتياط، لأنه يتفقُ مع سياق الآية، لكن لا نجزمُ به لأنه ليس مرفوعاً لرسول الله ﷺ!

بقيَ أن نقولَ في تفسير الآية: لم يُخطئ داودُ في حكمه في القضية عليه السلام، لأنه معصوم من الله، وكان حكمُه وقضاؤه صواباً وصحيحاً.

ولكنَّ حكمَه كان خلافَ الأَوْلى، فَفَهَّمَ اللّهُ سليمان القضية، وأرشده إلى الحكمِ الأَوْلى والأفضلِ والأصوب.

ولهذا أثنى اللّهُ على كلٍّ من داودَ وسليمان بقوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ..﴾.

ووجودُ سليمانَ مع داود في حكمه وقضائه، يعينُه ويؤيدُه، ويستدركُ عليه عند الضرورة، مظهرٌ آخرُ من مظاهرِ توفيقِ الله لداود وتيسيرِ أمره، وتشديد ملكه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾.

فقد جمعَ اللّهُ علمَ وحكمةَ وفَهمَ سليمان إلى علمِ وحكمةِ داود عليهما السلام، وتعاوَنا على الحكمِ بالعدلِ والصواب.

هذا عن النموذجِ الأول الذي أَشارَ له القرآن.

استدراك سليمان على حكم أبيه في قضية المرأتين:

أمّا النموذجُ الثاني فقد أَخبرَنا عنه رسولُ الله ﷺ، وفيه يستدركُ سليمانُ أيضاً على أَبيه عليهما الصلاة والسلام.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسولُ الله ﷺ:

كانت امرأتان معهما ابناهما، فجاء الذئبُ فذهبَ بابنِ إحداهما.

فقالتْ صاحبتُها: إنما ذهبَ بابنك!

وقالت الأخرى: إنما ذهبَ بابنك.

فتحاكَمتا إِلى داودَ عليه السلام. فقضى به للكبرى.

فخرَجتا على سليمان بن داود عليهما السلام، فأخبرتاه بذلك.

فقال: ائتوني بالسكّين أشقُّه بينهما!

فقالت الصغرى: لا تفعلْ يرحمكَ الله! هو ابنُها!!.

فقضى به للصغرى.

قالَ أبو هريرة: واللّهِ ما سمعْتُ بالسكّين إلاّ يومئذ، وما كنا نقول إلا المُدية»[1].

وما قلنا في حكمِ داود عليه السلام لصاحب الزرع بمصادرةِ الغنم، نقول هنا في حكمِه بالولدِ للكبرى، فقد حكمَ به للكبرى لوجودِ قرائنَ عنده، كأنْ تكونَ المرأةُ الكبرى أمضى لساناً وأفصحَ بياناً، فقدَّمَتْ حجتَها بطريقةٍ مقنعة، وكأنَّ الصغرى ضعيفةٌ في تقديم الحجة.

ولا يَضيرُ داودَ عليه السلام إذا حكَمَ بالظاهر، وفقَ ما أَدّاه إليه اجتهاده.

ولقد أشارَ رسولُ الله ﷺ إلى هذا. فقد روى مسلمٌ عن أمِّ سلمةَ رضي الله عنها قالت: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنكم تختصمون إِليّ، ولعلَّ بعضَكم أنْ يكونَ ألحنَ بحجته من بعض، فأقضيَ له على نحوِ مما أسمعُ منه، فَمَنْ قَطعْتُ له من حقِّ أَخيه شيئاً، فلا يأخذه، فإنما أقطعُ له به قطعةً من النار.

وفي روايةٍ ثانية للإمامِ مسلم أنَّ أمَّ سلمة رضي الله عنها قالت:

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٢٧. ومسلم برقم: ١٧٢٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٤٨.

سمعَ رسولُ الله ﷺ جلبةَ خصم ببابِ حجرته، فخرجَ إليهم، فقال: إنما أنَا بشر. وإنه يأتيني الخصْم، فلعلَّ بعضَهم أنْ يكونَ أبلغَ من بعض، فأحسبُ أنه صادق، فأقضيَ له. فمن قضيتُ له بحقِّ مسلم، فإنما هي قطعةٌ من النار، فليحملْها أو يذرْها..»[1].

يشيرُ رسولُ الله ﷺ إلى أَنه بشر، لا يعلمُ الغيب، إلا إذا علَّمه اللّهُ ذلك. فإذا ما تحاكمَ إليه خصمان، فقد يكونُ أحدُهما أبلغَ وأفصحَ حجةً من الآخر، ويكونُ كلامُه مقنعاً للقاضي، فيحسبُ الرسولُ ﷺ أنه صادقٌ في دعواه، فيحكم له وفقَ ما سمعه منه.

وقد يكونُ هذا البليغُ كاذباً، ويكون الحقُّ لصاحبه، فلا يعتمدْ على حكمِ رسول الله ﷺ، فإنَّ حكْمَه له على أساسِ الظاهر، وهذا الحكمُ لا يغيرُ الحقيقة، فالحقُّ أنَّ الحكم لصاحبه، فإنْ أخذَه هو فقد اعتدى عليه وظلمه، وبذلك يكون عرضةً للعذاب في النار.

ولا يَضيرُ الرسولَ ﷺ حكمُه بالظاهر، ولا يُلامُ عليه، ولا يُخطىءُ في ذلك الحكم.

ومن هذا الباب حكمُ داودَ عليه السلام بالولد للكبرى، مع أَنه في الحقيقةِ للصغرى، لا يُعتبر مخطئاً في حكمه، لأنه حكَمَ بما أَدّاه إليه اجتهادُه.

كيف عرف سليمان أنه ابن الصغرى؟:

أما سليمانُ عليه السلام فقد زادَه اللّهُ فطنةً وحكمةً وفهماً وإدراكاً، ولذلك لم يحكُمْ بالظاهر، ولم يُؤْخَذْ ببلاغةِ وفصاحة الكبرى، وإنما أرادَ امتحان المرأتين، فسلكَ وسيلةً مثيرةً عجيبة.

طلبَ سكيناً ـ أو مُديةً كما قال أبو هريرة رضي الله عنه ـ وصرَّحَ على مسمعِ من المرأتين أنه يريدُ أن يشقَّ الطفلَ بينهما، أيْ أنْ يذبحَه

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٧١٣.

ويعطي كلَّ واحدةٍ شَطراً منه. وهو ليس قاصداً تنفيذَ ذلك، إنما قصدَ الامتحان ليكتشفَ الأمَّ عن المدعية.

فوافقت الكبرى على شقِّ الطفل بينهما، لأنه ليس ابنَها، وتريدُ أنْ تشاركَها الصغرى حسرةَ الحرمان من الطفل.

لكنَّ الصغرى رفضتْ ذلك، وتنازلَتْ عنه، وقالت بلهفةِ الأم: لا تفعلْ يا نبيَّ الله، هو ابنُ الكبرى.

فهي تريدُ أنْ يعيشَ ابنُها، ولو لم يكنْ عندها، ولو كان عند الكبرى، المهمُّ أنْ لا يُذبح، وأن يبقى حياً.

عند ذلكَ عرفَ سليمانُ الأمَّ الحقيقية، فحكَمَ به للصغرى، واستدركَ في ذلك على حكم وقضاء أبيه. عليهما السلام.

وينطبقُ على هذا الحديث قولُ الله ثناءً على سليمان: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾. حيث زادَه فهماً وحكمة وعلماً وفقهاً. عليه السلام.

[١٠]

داود والخصمان والمائة نعجة والتوبة

عَرَفْنا أنَّ داودَ عليه السلام تميَّزَ بالحكمِ والقضاء، وآتاهُ اللّهُ الحكمةَ وفصْلَ الخطاب.

وقد أشارَ القرآنُ إلى حكميْن صدرا عنه.

الحكمُ الأول: الذي أشارتْ له آياتُ سورة الأنبياء، بخصوص الغنم التي نفشَتْ في الزرع، والذي استدركَ فيه سليمان عليه، وقد تحدَّثْنا عنه في المبحث السابق.

قصة الخصمين في سورة ص:

الحكم الثاني: تحدثَتْ عنه آياتُ سورة ص. وقد أَشارتْ إلى قصةٍ عجيبةٍ مثيرة مشكلة، والبحثُ فيها خطير.

وسننظرُ فيها، ونحاولُ تحليلَها وفهمها، مستعينين بالله.

قال الله عز وجل: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٦].

في عرضِ القرآنِ لقصةِ داود عليه السلام مع الخصمين مبهماتٌ كثيرة، لم يبيِّنها.. ولم تَرِدْ أحاديثُ صحيحة مرفوعة للرسول ﷺ، تُضيفُ جديداً على عرضِ القرآن للقصة، أو تُبينُ بعضَ مبهماتها.

رفض الإسرائيليات حول القصة:

وقد ذَكرت الإسرائيلياتُ المكذوبةُ ورواياتُ العهدِ القديم الباطلة قصةً زائفةً عن سببِ قدوم الخصميْن لداود عليه السلام، وفيها اتهاماتٌ لداودَ بالنساءِ والنظرِ إليهن والافتتانِ بهن، وتزوُّجِ إحداهن بعدما أُعجبَ بجمالِها وهي تغتسلُ عارية، وعملَ على قَتلِ زوجها في إحدى المعارك، فنزلَ ملكان في صورةِ خصميْن يعاتبانه بشأنها، فعرفَ جريمته، فسجدَ باكياً نادماً، وبقي ساجداً عشرات السنين!!..

وقد أُعجبَ بعضُ المفسرين بهذه التفاصيل الإسرائيلية المكذوبة، فسجَّلوها في تفاسيرهم، وفسَّروا بها آيات القصة، ونسوا أَنهم يتحدثون عن نبيٍّ رسولٍ كريم، عصمهُ اللّهُ وحفظه، فكانَ أَتقى وأفضلَ الناس!

ولا يتحدثون عن رجلٍ شهواني «زير نساء»، يرتكبُ المحرمات ويقتلُ الآخرين ليحققَ مصلحته، ويُشبعَ شهوتَه!! وداودُ عليه السلام منزَّهٌ عن هذه الأكاذيب.

أما المفسِّرون والمؤرخون المنهجيون، فقد رفضوا تلك الإسرائيليات، ثم تهيَّبوا الخوضَ في أحداثِ القصة، واكتفوا بذكْرِ المعنى الإجمالي لآياتها.

من هؤلاء الإمامُ ابنُ كثير. حيث قال في «قصص الأنبياء» ـ الذي هو جزءٌ من تاريخه البداية والنهاية ـ: «وقد ذكرَ كثيرٌ من المفسرين من السلف والخلف هاهنا قَصصاً وأخباراً، أَكثرُها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوبٌ لا محالة. تركْنا إيرادَها في كتابنا قصداً، اكتفاءً واقتصاراً على مجردِ تلاوة القصة من القرآن الكريم. واللّهُ يهدي مَنْ يشاءُ إلى صراط مستقيم..»[1].

وقال ابنُ كثير في التفسير: «قد ذكرَ المفسرون ههنا قصةً أكثرُها مأخوذٌ من الإسرائيليات. ولم يَثبتْ فيها عن المعصوم حديثٌ يجبُ اتباعُه.... فالأَوْلى أنْ يُقتصرَ على مجردِ تلاوةِ هذه القصة، وأنْ يَرُدَّ علْمَها إلى الله عز وجل، فإنَّ القرآنَ حق، وما تضمنَ فهو حق أيضاً..»[2].

وقال سيد قطب في «الظلال» عن القصة: «وخاضَتْ بعضُ التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً، تتنزَّهُ عنه طبيعةُ النبوة. ولا يتفقُ إطلاقاً مع حقيقتها.. حتى الرواياتِ التي حاولتْ تخفيفَ تلك الأساطيرَ سارَتْ معها شوطاً، وهي لا تصلحُ للنظر من الأساس، ولا تتفقُ مع قول الله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾»[3].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٤٣٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤: ٣٢.

(٣) في ظلال القرآن ٥: ٣٠١٨.

الخصمان يتسوران محراب داود:

ونبيِّنُ فيما يلي معنى الآيات التي عرضت القصة:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾: الخطابُ من اللّهِ لرسوله محمد ﷺ، و«هل» هنا ليستْ للاستفهام بل للتحقيق، بمعنى: قدْ أتاك. فاللّهُ أخبره بقصةِ الخصميْن مع داود عليه السلام، وبذلك أتاه خبرُهما.

وهذا الخطابُ ليس خاصاً بالنبي ﷺ، بل يشملُ كلَّ مؤمنٍ من بعده، وهو دعوةٌ له ليتدبرَ القصة، ويقفَ على بعضِ دروسها وعبرها.

﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾: خبرُ الرجليْن المختصميْن، والمرادُ به الملكان اللذان أتيا داودَ عليه السلام في صورةِ رجليْن متخاصميْن مختلفيْن.

وعبَّرت الآيةُ عن الرجليْن الخصميْن بالمفرد: ﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾، لأنَّ الخصمَ مصدر، والمصدرُ لا يُثَنّى ولا يُجمع، ويُخبرُ به عن المفردِ والمثنى والجمع.

﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾: كانت بدايةَ حادثةِ الخصمين مع داود أنهما تسوّرا عليه المحراب.

و﴿إِذْ﴾: ظرفٌ للزمان الماضي، في محلِّ نصبِ مفعولٍ فيه، وهو متعلقٌ بكلمة ﴿نَبَؤُا۟﴾ والتقدير: قد أتاكَ نبأُ الخصم وقْتَ تَسَوُّرِهم المحراب.

ومعنى ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾: تعلّقوا بالسور، وظهروا عليه، ثم نزلوا عنه.

يقال: تسوَّرَ الرجلُ السور: إذا علاه وتسلَّقَه.

و﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: مكان العبادة. وهو أفضلُ جزءٍ من البيت، لتخصيصِه بذكْرِ الله وعبادته والصلاة له.

وللإمام الراغبِ توجيهٌ لطيفٌ لتسمية مكان الصلاة محراباً، لأنه مشتقٌ من «الحرب»، وقد ربَطَ الراغبُ بين الحرب والمحراب فقال:

«ومحرابُ المسجد. قيل: سُمي بذلك لأنه موضعُ محاربةِ الشيطان والهوى.

وقيل: سُمي بذلك لكونِ حقِّ الإنسان فيه أنْ يكون حَرِيباً متخلِّصاً من أَشغالِ الدنيا، ومن توزُّعِ الخواطر..

وقيل: الأصلُ فيه أن محرابَ البيت صدرُ المجلس. ثم اتُّخذت المساجدُ فسُمي صدرُ المسجد به.

وقيل: بل المحرابُ أصلُه في المسجد. وهو اسمٌ خصَّ به صدرُ المجلس، فسُميَّ صدرُ البيت محراباً تشبيهاً بمحراب المسجد.

وكأنَّ هذا أصح..»[1].

ومعنى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾: عندما تسلقَ الخصمان الملكان سورَ المحراب، وظهرا عليه، ونزلا عنه. فدخلا من السور، ولم يدخلا من الباب.

داود يفزع منهما وهما يطمئنانه ويتحاكمان عنده:

وكان داودُ عليه السلام في هذه اللحظة في محرابه، وهو مكانُ عبادته وصلاتِه وذكْرِه المخصص، مشغولاً بمناجاةِ الله وذكره.

وفاعل ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ واوُ الجماعة، وقد تكررتْ واوُ الجماعة في الأفعال التالية: «دخلوا». «قالوا».

وهما اثنان بدليلِ قولِهما بعد ذلك: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾.

وعبَّرَ عن الاثنين بضميرِ الجمع: «تسوروا» و«دخلوا» و«قالوا» لأنَّ أقلَّ الجمع اثنان، ولهذا قال: «تسوّروا» ولم يقل: تسوّرا.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾: «إذ» ظرفُ زمانٍ للماضي في مَحَلِّ نصبِ

---

(١) المفردات: ٢٢٥.

مفعولٍ فيه، وهو متعلقٌ بفعل «تسوّروا». والتقدير: تسوروا المحراب وقتَ دخولِهم على داود.

وكان داودُ عليه السلام في محرابه عابداً لله، مستغرقاً في مناجاته، والأبوابُ مغلَقَة، والحرسُ على الأبواب، ولا يَسمحونَ لأحدٍ بالوصول إلى داودَ في الداخل.

فكان داودُ في عبادته، مطمئناً إلى أَنَّ أَحداً لن يدخلَ عليه.. وفجأةً ينظرُ أَمامه، فيرى رجليْن داخلين عليه، نازلين من سور المحراب!!

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾: لما رأى داودُ الرجلين وقد دخلا عليه بهذه الصورة، خافَ وفزع منهم. وحقٌّ له أنْ يفزعَ ويخاف.

لكنهما طمأناه: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾.

ثم عرضا المسألة والقضيةَ عليه. فقالا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. وفي السياق كلمةٌ مقدرة، والتقدير: نحنُ خصمان.

أي: نحنُ رجلان بيننا خصومةٌ وخلافٌ ونزاع، فبغى أحدُنا على الآخر، وتعدّى عليه بدون حق، وظلَمَه وأرادَ أكْلَ حقه.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾: أَتيناك لنتحاكمَ إليك، فاسمعْ قضيتَنا واحكمْ بيننا بالحق والعدل، وأَعْطِ كلَّ واحدٍ حقَّه.

﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾: لا تَظلمْ ولا تَجُرْ ولا تُسرفْ في حكمك، ولا تَمِلْ مع أحدنا ضدَّ صاحبه.

و﴿تُشْطِطْ﴾ مضارعٌ من الفعلِ الماضي الرباعي «أَشَطَّ»، بمعنى جارَ وظلمَ في حكمه، وابتعدَ عن الحق.

﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾: أَرشدْنا إِلى الطريقِ الصحيح المستقيم، ودُلَّنا على العدلِ والخير لنُنهيَ المشكلةَ بيننا.

داود يسمع القضية من المشتكي ويحكم على الآخر:

وبعدما عرضَ الرجلان الخصمان موجزَ الأمرِ على داودَ عليه السلام، ذكرا له المشكلة.

فقالَ أحدُهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾.

أشارَ المتكلمُ إلى خصمه: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾. واعتبرَه أخاً له، رغمَ خلافه معه.

﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾. ذكرَ عددَ النعاج التي عنده، والنعجةُ معروفة، وهي الغنم البيضاء: الضأن.

فَذَكَرُ الضأن يُسمى خروفاً، وأُنثى الضأن تُسمى نعجة.

أخي يملكُ تسعاً وتسعين نعجة، وأنا لا أملكُ إلا نعجةً واحدة. ولم يكتفِ بنعاجِه الكثيرة، وإنما تطلَّعَتْ نفسُه إلى نعجتي، وطمعَ فيها، وأرادَ أخْذَها وضمَّها إلى نعاجه.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾: قال لي: ضمّ نعجتَك إلى نعاجي، لأكونَ كافلاً لها. و«أَكْفِلْ» فعلُ أمرٍ من الكفالة. والضميرُ الهاء يعودُ على النعجة. أي: أكفلْني نعجتَك، واجعلْها عندي.

﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾: غَلَبَني في الكلام والجدال، وقَهَرَني وظلمني.

قال الإمام الراغب: «وعَزَّه: غلَبه.. ومعنى قوله ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾: غلبني.

وقيل: معناه: صارَ أعزَّ مني في المخاطبة والمخاصمة..»[1].

---

(١) المفردات: ٥٦٤.

وهذا اعترافٌ من المتكلم بأنَّ خصمَه أقوى منه، ولذلكَ يقهرُه ويظلمه، وهو أَقوى منه في الكلام أيضاً، ولذلك يغلبُه في حجته.

سمعَ داودُ عليه السلام كلامَ المشتكي صاحبِ النعجةِ الواحدة، فإذا به مظلومٌ معتدى عليه، وإذا بخصمِه ظالمٌ مُتَعَدٍّ، فكيفَ يريدُ أخذَ نعجته الوحيدة، ولماذا لا يكتفي بالنعاج التي عنده؟

لم يَطلبْ داودُ عليه السلام من المشتكىٰ عليه حجة، ولم يتركْ له فرصةً للكلام، وظنَّ داودُ أنَّ الأمر قد انتهى، وأنه لا يحتاجُ إلى سماعِ كلامِ الظالم المعتدي.

ولذلكَ سارعَ داودُ عليه السلام بإصدارِ حكْمِه قائلاً: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ..﴾.

أي: ظلمكَ خصمُك، عندما طلبَ منك ضمَّ نعجتِك إلى نعاجه، وهو إنسانٌ ظالمٌ لهذا السبب.

و«سُؤال» بمعنى: طَلَب. والمعنى: عندما سأَلَكَ وطلبَ منك أنْ تضمَّ نعجتَك إلى نعاجه كان ظالماً لك.

وتابعَ داودُ عليه السلام قائلاً: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ..﴾:

و«الخلطاء» هم: الشركاء.

وكأنَّ داودَ عليه السلام يقررُ قاعدةً عامة في موضوع الشراكة، ويُواسي المشتكيَ المظلوم، ولذلك قال له: ليس صاحبُك هو أولَ مَنْ بغى وظلم، فكثيرٌ من الخلطاءِ والشركاء، يَبغي بعضُهم على بعض، ويظلمُ بعضُهم بعضاً، ويأكلُ بعضُهم مالَ بعض.

ولا يُستثنى من ذلك إلاّ الشركاءُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات،

فهؤلاء شركاءُ صادقون، تقومُ شراكتهم على العدل والأمانة والإحسان، ويردَعُهم إيمانُهم عن البغي والعدوان.

لكن هؤلاءِ الشركاءِ المؤمنين قلائل، بالقياسِ إلى الأكثرية الظالمة.

والراجحُ أنَّ «ما» في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ اسمُ موصول بمعنى «الذين» والتقدير: وقليلٌ الذين هم.

أي: وقليلٌ الذين هم آمنوا وعملوا الصالحات.

قال ابنُ عباس: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: قليلٌ الذين هم.

ومعنى كلام ابن عباس: وقليلٌ الذين هم كذلك، لا يَبغي بعضهم على بعض..[1].

وكلامُ داودَ عليه السلام عن ظلم الشركاء بعضهم لبعض حقٌّ وصواب، يصدقُه التاريخ والواقع، فمعظَمُ الشركاء يَظلمُ بعضُهم بعضاً، ويأكلُ بعضُهم مالَ بعض، ويبغي بعضُهم على بعض.

ولا يوجَدُ شركاءُ أمناءُ عدولٌ إلاّ إذا كانوا مؤمنين صالحين.

داود يعرف مقصود القصة وسجوده واستغفاره:

وبعدما أَنهى داودُ عليه السلام كلامَه فكَّر، فعرفَ حكمةَ هذه الحادثة، وأَنه هو المقصودُ بها: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ..﴾.

ومعنى ﴿ظَنَّ﴾ هنا: أَيقنَ وأَدركَ وعَلم.

ومعنى ﴿فَتَنَّٰهُ﴾ ابتلَيْناه وامتحنّاه واختبرناه.

أيقنَ داوُد عليه السلام أن اللّهَ فتنَه وامتحنَه بهذيْن الرجليْن الواقفيْن أمامه، وأنهما ليسا رجليْن حقيقييْن، بل مَلَكَانِ متحوِّلان إلى رجلين، وأنه ليس بينهما شراكةٌ حقيقية، وإنما ذَكرا له قصةً رمزيةً

(١) انظر كتابنا: تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٦:٣٩٨.

تمثيلية، كما علمَ أنه تعجَّلَ في حكمه على المشتكىٰ عليه قبلَ أنْ يسمعَ كلامَه.

وبعدما عرفَ داودُ عليه السلام هدفَ الحادثة كلِّها، وأنه هو المقصودُ بها، لجأَ إلى الله مباشرة، واستغفرَ الله، وسجدَ لله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾: طلبَ من ربه أنْ يغفرَ له.

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾: سجدَ لله. فلا يُرادُ هنا الركوعُ المعروفُ في صلاتنا، بدليل كلمة «خَرَّ»، لأنها لا تستعملُ إلا في السجود.

قالَ الإمامُ الراغب: «معنى خَرَّ: سقطَ سُقوطاً يُسمعُ منه خَرير. والخَريرُ يقال لصوتِ الماء والريح، وغيرِ ذلك مما يَسقطُ من علو.

وقوله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥] استعملَ «الخَرّ».

وهذا تنبيهٌ على اجتماعِ أمريْن: السقوطِ، وحصولِ الصوتِ منهم بالتسبيح. وهذا تنبيهٌ أنَّ ذلكَ الخريرَ كان تسبيحاً بحمدِ الله، لا بشيء آخر..»[١].

وبما أنَّ «خَرَّ» لا تستعملُ إلاّ في السجود، فإن معنى «خَرّ راكعاً» خَرّ ساجداً.

﴿وَأَنَابَ﴾: استسلمَ داودُ إلى ربه، ورجعَ إليه.

قالَ الإمامُ الراغب: «النَّوْب: رجوعُ الشيء مرةً بعد أُخرى.

.. والإنابةُ إلى الله: الرجوعُ إليه بالتوبة وإِخلاصُ العمل. قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾»[٢].

---

(١) المفردات: ٢٧٧.

(٢) المرجع السابق: ٨٢٧.

وهذه الحركةُ العمليةُ التي قامَ بها داودُ مباشرة: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ دليلٌ على حرصه على رجوعِه إلى الله، وإحسانِ ذكرِه وشكرِه وعبادته، وهي تطبيقٌ عملي لشهادةِ الله له بأنه أَوّابٌ رَجّاعُ إلى ربه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

ولما سجدَ داودُ واستغفرَ ربه قال الله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

غفرَ اللّٰهُ له، وعفا عنه، وزادَه قربى منه.

و«الزُّلفى» هي القربُ من الله.

قال الإمامُ الراغب: «الزُّلْفَةُ: المنزلةُ والحَظْوة، والزُّلفى: الحظوة. وأَزلفْتُهُ: جعلْتُ له زلفى»[١].

جعلَ اللّٰهُ لدوادَ عليه السلام زُلفى وحظوةً عنده، وأَعلى منزلتَه عنده، كما جعلَ له حسنَ مآبٍ ومرجعٍ ومصيرٍ ومنقلب.

وهذا ثناءٌ من الله على داودَ عليه السلام، وهذا دليلٌ على أَنه لم يكن مذنباً في الحقيقة، واستغفارُه لم يكن عن ذنبٍ وقَعَ به، وإنما هو ذكْرٌ منه لربه. ونعودُ إلى هذه المسألة بعد قليل، إنْ شاء الله.

ويبدو أَنَّ الرجلَيْن الخصمَيْن غادرا المحراب، كما دَخلاه، بعدما عرفَ داودُ عليه السلام، وبعدَما سجدَ واستغفر ربه، وتابَ وأنابَ إليه.

تعقيب القرآن على الحادثة حول الحكم بالعدل والحق:

وكانَ التعقيبُ من الله على الحادثة أنْ ذَكَّرَ داودَ عليه السلام بحقائق أساسية، هي دروسٌ مستفادةٌ من الحادثة.

ذكَّرَهُ اللّٰهُ بأنه جعلَه خليفةً في الأرض: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً

---

(١) المرجع السابق: ٣٨٢.

فِي ٱلْأَرْضِ..﴾. ومَنَّ عليه بالنبوةِ والملك والرسالة والخلافة، وأسسَ داودُ بذلك أولَ خلافةٍ إيمانية.

ثم ذكَّرَه بما ينتجُ عن الخلافة من الحكمِ والسلطان، وحلِّ مشكلاتِ الناس على أساسِ شرع الله، والحكمِ بينهم بالحق: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ..﴾.

فالخليفةُ لا بدَّ أنْ يحكمَ بين الناس، وأنْ يعتنيَ بهم، ويحلَّ مشكلاتهم، ويعالجَ قضاياهم، ويكونَ في معظم وقته معهم، وهذا عبادةٌ منه لربه.

وعندما يحكمُ بين الناس لا بدَّ أنْ يحكمَ بينهم بالحقِّ والعدل، فيكون حكمُه وقضاؤُه صحيحاً صائباً.

ثم حذَّره من اتباعِ الهوى في حكمه وقضائه، لأنه يضلُّه عن سبيل الله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وأخبره بعاقبةِ مُتَّبعي الهوى الضالين عن سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

والتعقيبُ على قصةِ الخصميْن بذكْرِ هذه الحقائق الإيمانية حولَ الخلافةِ والحكمِ بالحق وتركِ الهوى، لا يَعني أن داودَ عليه السلام قد خالفَها في حكمِه وقضائِه، ولا يدلُّ على أنه كان لا يحكمُ بين الناس بالحق، وإنما يحكمُ بينهم بالهوى!! لا يدلُّ على ذلك، لأنَّ داودَ عليه السلام نبيٌّ رسول، عصمَه اللّهُ بعصمته، ووفَّقَه في حكمه وخلافته.

وإنما يعني التعقيبُ بذكْرِها تذكيرَ المؤمنين بها حتى لا يَنسوها، فهي مرتبطةٌ مع السياق، متفقةٌ مع قصةِ الخصمين، فكانَ إنهاءُ عرضِ القصة مناسبةً للتذكيرِ بهذه الحقائق.

هذا هو معنى الآياتِ التي عرضَتْ قصةَ الخصمين.

وإذا كنّا لا نجدُ أحاديثَ صحيحةً تُضيف جديداً إلى هذه الآيات،

فإننا لا نُجيزُ الذهابَ إلى الإسرائيليات وأساطيرِ العهد القديم، نأخذُ منها تفصيلاتِ القصة، ونرددُ معها اتهاماتٍ باطلةً لداود عليه السلام، هو منزَّهٌ عنها قطعاً.

تعليق النسفي على القصة ومجلس ابن عبد العزيز:

وقد علّقَ الإمامُ النسفيُّ على الإسرائيلياتِ في هذه القصة بقوله: «وما يُحكى مِن أنَّ داودَ بَعَثَ مرةً بعدَ مرة أُوريا إلى غزوةِ البلقاء، وأحبَّ أنْ يُقتل، ليتزوجَ امرأتَه، فهذا لا يليقُ من المتَّسمين بالصلاحِ من أَفنانِ المسلمين فضلاً عن بعضِ أَعلام الأنبياء.

وقال عليُّ بنُ أَبي طالب رضي الله عنه: مَنْ حَدَّثكم بحديثِ داودَ عليه السلام عل ما يَرويه القُصّاصُ جلدْتُه مائةً وستين جلدة، وهو حَدُّ الفريةِ على الأنبياء..

ورُوي أنه حُدِّثَ بذلك عمرُ بن عبد العزيز، وعنده رجلٌ من أهل الحق، فكَذَّبَ المحدِّثَ به، وقالَ: إنْ كانت القصةُ على ما في كتاب الله، فما يَنبغي أنْ يُلْتَمَسَ خلافُها، وأَعْظِمْ بأنْ يُقال غيرُ ذلك.. وإنْ كانتْ على ما ذكرت، وكفَّ اللّهُ عنها ستراً على نبيِّه، فما ينبغي إِظهارُها عليه!!

فقال عمرُ بن عبد العزيز: لَسَماعي هذا الكلام أحبُّ إليَّ مما طلعتْ عليه الشمس..»[1].

سيد قطب يوجه الحادثة بما يتفق مع منزلة داود:

أمّا توجيهُ قصةِ الخصمين بما يتفقُ مع نبوةِ ومنزلةِ داودَ عليه السلام، فأحسنُ ما قرأتُ فيه كلامُ سيد قطب رحمه الله.

قال: «وبيانُ هذه الفتنة أنَّ داودَ النبيَّ الملك، كان يخصصُ بعضَ وقتِه للتصرف في شؤون الملك، والقضاءِ بين الناس. ويخصصُ البعضَ

---

(١) تفسير النسفي، بتحقيق الشيخ مروان الشعار ٤:٥٨ ـ ٥٩.

الآخرَ للخلوةِ والعبادة، وترتيلِ أناشيده، تسبيحاً لله في المحراب. وكان إذا دخلَ المحرابَ للعبادة والخلوة لم يَدخُلْ إليه أحدٌ، حتى يَخرجَ هو إلى الناس..

وفي ذاتِ يوم فوجئَ بشخصيْن يتسوَّران المحرابَ المغلقَ عليه. ففزِعَ منهم.. فما يَتَسَوَّرَ المحرابُ هكذا مؤمنٌ ولا أمين!

فبادرا باطمئنانه: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. وجئنا للتقاضي أمامَك: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

وبدأ أحدُهما فعرضَ خصومتَه: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: اجعلْها لي وفي مملكتي وكَفالتي، ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ أي: شَدَّدَ عليَّ في القول، وأغلظ.

والقضيةُ ـ كما عرضَها أحدُ الخصمين ـ تحملُ ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتملُ التأويل.

ومن ثَمَّ اندفعَ داودُ يقضي على إِثرِ سماعه لهذه المظلمةِ الصارخة، ولم يُوجِّهْ إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلبْ إِليه بياناً، ولم يَسمعْ له حجة.. ولكنه مضى يحكم: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي: الأقوياءِ المخالِطين بعضهم لبعض ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ..﴾.

ويبدو أنه عندَ هذه المرحلة اختفى الرجلان: فقد كانا مَلَكيْن جاءا للامتحان! امتحانِ النبيِّ الملك الذي ولاّه اللّهُ أمْرَ الناس، ليقضيَ بينهم بالحقِّ والعدل، وليتبيَّنَ الحقَّ قبلَ إِصدار الحكم.

وقد اختارا أنْ يَعرضا عليه القضيةَ في صورةٍ صارخةٍ مثيرة.. ولكنَّ القاضي عليه ألاّ يُستثار، وعليه ألاّ يَتعجل، وعليه ألاّ يَأخذَ بظاهرِ قولِ واحد، قبلَ أن يمنحَ الآخرَ فرصةً للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغيرُ

وجْهُ المسألة كلِّه أو بعضِه، وينكشفُ أنَّ ذلك الظاهرَ كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً!

عند هذا تنبَّهَ داودُ إلى أنه ابتلاء: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾.

وهنا أدركَته طبيعَتُه.. إنه أوّاب.. ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾[1].

داود لم يخطئ في تخصيص الليل للعبادة:

بقيَ أن نقول: هل أخطأَ داودُ فيما فعل؟

هل أخطأَ في احتجابِهِ عن الناس في الليل، وذهابِهِ إلى المحرابِ ليناجي ربَّه؟

الجوابُ بالنفي. لقد جعلَ النهارَ للحكمِ والقضاءِ بين الناس، وجعلَ الليلَ لعبادةِ الله ومناجاته، ولذلك منعَ دخولَ أحدٍ من الناسِ عليه.

وهذا الفعلُ منه صوابٌ ولا خطأ فيه.

ولكن كانَ الأَوْلى والأفضلَ والأكمل أنْ لا يغلقَ بابَه أمامَ أحد، في أيِّ ساعةٍ من ساعاتِ الليل والنهار، وعليه أنْ يَسمعَ شكوى أيِّ مُشْتَكٍ أو متظلِّم، حتى لو كانَ عابداً في محرابه...

وأرسلَ له اللّهُ المَلَكيْن في صورة رجليْن، وتسوَّرا عليه المحراب، وعرضا عليه قضيةً مثيرة، وذلك لإرشادِه إلى أنه تركَ الأَوْلى والأفضل والأكمل، ودعوتِه إلى عدمِ الاحتجاب عن أحد.

إذن فعلُه صوابٌ وصحيح، ولا خطأَ فيه، ولكن اللّهَ أَرشدَه إلى ما هو أَولى وأفضل، وقد وعىٰ هذا التوجيهَ عليه الصلاة والسلام.

---

(١) في ظلال القرآن ٥: ٣٠١٨.

ولم يخطئ في خوفه من الرجلين المتخاصمين:

والثانية: هل أَخطأَ داودُ عليه السلام في خوفِه وفزعِه من الخصمين الرجليْن عندما تسوّرا المحراب؟

الجوابُ بالنفي. فالجوُّ والطريقةُ والكيفيةُ التي دَخلا بها عليه تدعو إلى الخوفِ والفزع.

لقد أَمَرَ بإغلاقِ أبوابِ القصر، وأَمَرَ الحراسَ بمنعِ الناس من الدخول، وهو في محرابه مستغرقٌ بمناجاة الله.. وفجأَةً يرفعُ رأسَه فيرى رجلين نازلين عليه من سورِ المحراب وقادِميْن إليه.

أليسَ في هذا ما يدعو إِلى الفزع؟ لذلك فزِعَ منهما، فطمأَناه وقالا له: لا تخف!

وخوفُه في هذه الحالة طبيعيٌّ نفسيٌّ فطري، لأنه توقَّعَ الخطرَ وخافَ حصولَ مكروه، ومَنْ كان مكانَه فسيخافُ كما خاف.

فهو على صوابٍ في خوفه، ولم يرتكب خطأً بذلك.

ولكن كان الأَوْلى والأفضلَ والأكملَ له أنْ لا يخاف، حتى لو كانَ الخوفُ فطرياً نفسياً، لأنه في محرابِ العبادة، مستغرقٌ في مناجاةِ الله وذكرِه وتسبيحه، فالأَوْلى أن لا يخافَ وهو في هذه الحالةِ الإيمانيةِ العالية.

إذنْ خوفُه صحيحٌ وصواب، ولا خطأَ فيه، لكنَّ الله أَرشده إلى ما هو أَولى وأفضل، وقد وعىٰ هذا التوجيهَ عليه الصلاة والسلام.

ولم يخطئ في الحكم قبل سماع حجة الخصم:

والثالثة: ساقَ له الرجلان الخصمان ـ وهما مَلَكان في الحقيقة ـ قضيةً رمزيةً تمثيلية، وليستْ حادثةً واقعية ومشكلةً حقيقية، ساقا له القضية الرمزية ليرشداه إِلى أنَّ الأَوْلى والأفضلَ أنْ لا يغلقَ قصره في

الليل، فقد يأتيه متخاصمان في مسألةٍ ملحة، تحتاجُ إِلى حكمٍ سريع، ولا تحتملُ التأجيل!

وسمعَ القضيةَ من المشتكي، وإذا به مظلوم، وإذا بخصمِه قد ظلمَه وبغى عليه، وتأثَّرَ داودُ بما سمع، وظنَّ أن الأمْرَ لا يتطلبُ سماعَ الطرفِ الآخر، وأنه لا داعي لذلك، فقد وضحت الصورة.

هل أَخطأ في ذلك؟

الجوابُ بالنفي. لقد عرفَ من المشتكي الدعوى، وبانَ له الحقُّ فيها، ولذلك أصدرَ حكمه، وهو في حالةِ تأثُّرٍ وانفعال: إنَّ خصْمَك ظالم، وقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه.

إنَّ حكمَه صوابٌ، وقولَه صحيحٌ، فطالما رأى أنه عرفَ المسألةَ فعليه أن يقضيَ ويحكمَ فيها. ولا خطأَ عليه في ذلك.

ولكن كان الأَوْلى والأفضلَ والأكملَ له أن لا يحكمَ حتى يسمعَ حجةَ الطرف الآخر، فحتى لو وقفَ على الحقيقة، وعرفَ القضية، فلا بدَّ أنْ يسمعَ كلامَ الشخص الثاني، وأنْ يعطيه حقَّه في الكلام والدفاع، وإن كانَ كلامُه ودفاعُه لا يغيرُ في الحكم شيئاً، لأنه عرفَ الحقيقة قبلَ أنْ يقولَ الآخرُ ما عنده.

إذن: حكمُه بمجردِ سماعِ الطرفِ الأول صواب، وموقفُه صحيحٌ ولا خطأَ فيه، لأنه لم يحكمْ إلاّ بعدَ إدراكِه لحقيقةِ القضية. ولكنَّ اللّهَ أرشدَه إلى ما هو أَوْلى وأفضل وأكمل. وقد وعىٰ هذا التوجيهَ عليه الصلاة والسلام.

هذا توجيهُ موقفِ داودَ عليه السلام في المسائل الثلاثة، توجيهاً يتفقُ مع نبوَّتِه وعصمته: حول احتجابِه عن الناس في الليل لمناجاة الله، وحولَ خوفِه من الرجليْن الخصمين، وحولَ حكمِه في القضية قبلَ سماعِ الطرف الآخر.

وبهذا عرفْنا أنه لم يُخطئ في هذه المسائل، وأنه كانَ على صواب، لكنَّ اللّهَ أَرشده إلى ما هو أولىٰ وأفضل وأكمل.

سجد واستغفر لأنه فعل خلاف الأولى:

فإذا كان ذلك كذلك ففيمَ كان سجودُه واستغفارُه وإنابتُه وتوبته؟ وما الذي غفرَ اللّهُ له؟

إنَّ داودَ عليه السلام لم يُخطئ في الامتحانِ والابتلاء، ولم يرتكبْ في سيرِ القصة ذنباً في الحقيقة، لأنه معصومٌ من الله سبحانه.

ولكنه لما وعىٰ الدروسَ فيما بعد عرفَ أنه فعلَ في تلك المسائل الثلاثة خلافَ الأَوْلى والأفضل، فرغمَ أَنه فعلَ الصواب، لكنه تركَ الأَوْلى..

وبما أنه نبيٌّ مقربٌ عند الله فلا بدَّ أن يفعلَ الأصحَّ وليس الصحيح، والأجوزَ وليس الجائز، والأصوبَ وليس الصواب.

فلما تركَ الأجوزَ والأصحَّ والأصوبَ شعرَ بالتقصيرِ والتحرج، فسارعَ إلى الاستغفارِ والسجود والتوبة: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

إذنْ استغفرَ وتابَ وأناب لأنه فعلَ خلافَ الأَوْلى، والأفضلُ له أن يفعلَ الأَوْلى دائماً.

وزادَ باستغفارِه وتوبتِه زلفى وقربى عند الله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

بهذا نفهمُ قصةَ داودَ عليه السلام مع الخصمين والمائةِ نعجة والتوبة، وهكذا نوجِّهُها توجيهاً يتفقُ مع عصمته ومنزلته وكرامته وجلالةِ قدره، بعد استبعادِ الإسرائيليات والأكاذيب حولها. والله تعالى أعلم.

حكم سجدة التلاوة في سورة ص:

هذا وإنّنا مدعُوّون للاقتداءِ بداود عليه السلام في سجوده. وإنَّ

في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ سجدةٌ من سجدات القرآن.

روى البخاريُّ عن العوام قال: سألْتُ مجاهداً عن سجدةِ سورةِ «ص». فقالَ: «سألْتُ ابنَ عباس: من أينَ سَجَدْتَ؟ أي: ما دليلُكَ على السجودِ فيها؟

قال ابنُ عباس: أوَ ما تقرأُ قولَ الله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ...﴾ [الأنعام: ٨٤] وقولَ الله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]؟.

فكان داودُ ممن أُمِرَ نبيُّكم ﷺ أنْ يقتديَ به.. فسجدَها داودُ عليه السلام، فسجدَها رسولُ الله ﷺ..»(١).

وهذه السجدةُ سنةٌ وليست واجباً، كباقي سجداتِ التلاوة الأربع عشرة في القرآنِ. فمَنْ سجدَها نالَ الأجر والثواب، ومَنْ لم يسجُدْها فلا شيءَ عليه.

ودليلُ ذلك ما رواه أبو داود عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قرأَ رسولُ الله ﷺ وهو على المنبر سورةَ «ص»، فلما بلغَ السجدةَ نزلَ فسجد، وسجدَ معه الناس، فلما كان يومٌ آخر قرأَها، فلما بلَغَها تَشَزَّنَ الناسُ للسجود.

فقالَ عليه الصلاة والسلام: «إنما هي توبةُ نبي، ولكن رأيتُكم تَشَزَّنْتم.

فنزلَ وسجدَ..»(٢).

ومعنى «تَشَزَّنَ الناسُ للسجود»: تهيأوا واستعدوا للسجود.

فالرسولُ ﷺ يخبرُهم أنَّ سجودَ التلاوة سنة، وأنَّ مَنْ لم يسجد

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٢١. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٤٤.

(٢) أخرجه أبو داود برقم: ١٤١٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٤٦.

فلا شيءَ عليه. وأَنه عليه الصلاة والسلام كان لا يريدُ أنْ يسجد، وأنه لم يسجدْ إلاّ بعدما رآهم «مُتَشَزِّنين» مستعدِّين للسجود.

[١١]

وفاة داود عليه السلام

لم يَخبرْنا القرآنُ عن وفاةِ داود عليه السلام، ولا عن كيفيةِ وفاته، ولا عن عمره عندَ وفاته.

حديث صحيح في كيفية وفاة داود:

ولكنَّ الرسولَ ﷺ أخبَرَنا عن ذلك.

روى أحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «كان داودُ عليه السلام فيه غيرةٌ شديدة، فكان إذا خرجَ أُغلقت الأبواب، فلم يَدخلْ على أهله أحدٌ حتى يرجع.

فخرجَ ذات يوم، وغُلِّقت الدار، فأقبلت امرأتُه تَطَّلِعُ إلى الدار، فإذا رجلٌ قائمٌ وسط الدار!

فقالت لمن في البيت: من أينَ دخلَ هذا الرجل، والدارُ مغلقة؟ واللّهِ لَنُفْضَحَنَّ بداود!

فجاءَ داود، فإذا الرجلُ قائمٌ في وسط الدار.

فقال له داود: مَنْ أنت؟

فقال: أنا الذي لا أَهابُ الملوك، ولا أُمْنَعُ من الحُجّاب!

فقال داود: أنتَ واللّهِ إذن مَلَكُ الموت، مرحباً بأمر الله!

ثم مكث، حتى قُبضتْ روحُه.

فلما غُسِّلَ وكُفِّنَ وفُرِغَ من شأنه طلعتْ عليه الشمس.

فقال سليمانُ للطير: أَظِلّي على داود. فأظلَّته الطير، حتى أظلمتْ عليه الأرض.

فقال سليمانُ للطير: اقبضي جناحاً.

قالَ أبو هريرة: فطفقَ رسولُ الله ﷺ يرينا كيفَ فعلت الطير، وقبضَ رسولُ الله ﷺ.. وغلبت عليه يومئذ المَضْرِجِيَّة..»[1].

والمَضْرِجِيَّة هي: الصقورُ طويلةُ الأجنحة.

يؤكدُ هذا الحديثُ حقيقةَ تخييرِ الأنبياء عندَ قبضِهم، وعندما يخيَّرون يختارونَ لقاءَ الله، فيقبضُ اللّهُ أرواحَهم.

ومَرَّ مَعَنا من قبل تخييرُ موسى عليه السلام عند موته، والآن ها هو داودُ عليه السلام يخيَّرُ عند موته.

ويقدمُ لنا رسولُ الله ﷺ قصةَ تخييره.

ملك الموت في صورة رجل يخيره ثم يقبض روحه:

يخبرُنا رسولُ الله ﷺ أنَّ داودَ عليه السلام كان يغارُ على أهلِ بيته، وغيرتَهُ ناتجةٌ عن قوةِ إيمانه ومروءته، ولهذا كان لا يسمح للغريبِ أنْ يختلطَ بأهله، وكان لا يُدخلُ أَحداً من الغرباء على أَهله.

ولما خرجَ من بيته ذاتَ يوم نظرت امرأتُه فإذا رجلٌ غريبٌ قائم وسط البيت، فخافت، وخشيتْ داودَ عليه السلام لغيرته.

وجاءَ داودُ عليه السلام، فرأى الرجلَ واقفاً وسطَ الدار، فغضب، وأخذتْه الغيرة.

وأقبلَ عليه يسأله: مَنْ أنت؟

وهذا سؤالٌ للإنكارِ عليه، فكيف تجرَّأَ ودخلَ الدار، والأبوابُ مغلقة، والحراسُ عليها؟

وفوجئ داودُ عليه السلام بجواب الرجل: أن الذي لا أَهابُ الملوك، ولا أُمْنَعُ من الحُجّاب.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢:٤١٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٥٦.

إنه الذي لا يخافُ الملوك، ولا يقفُ أمامَ الأبواب المغلقة، ولا يمنَعُه الحراسُ والحجّابُ من دخولها، ولا يحتاجُ إلى إذنٍ لدخولها!!

إنه ليس رجلاً عادياً من البشر، ولكنه مَلَكُ الموت متشكلاً في صورة البشر.

وليست هذه أولَ مرة لم يَعرفْ فيها داودُ المَلَكَ المتحوّلَ إلى رجل، فقد سبقَ أنْ دخلَ عليه مَلَكان في صورةِ رجليْن متخاصمين، ولم يَعرفْ أَنهما مَلَكان إلا فيما بعد. والآن لم يَعرفْ أنَّ الرجلَ الذي أمامه هو ملكُ الموت إلا بعدَما عَرَّفَ على نفسه.

ولا يَضيرُه ذلك، فموسى عليه السلامِ قبلَه لم يَعرفْ مَلَكَ الموت المتحولَ إلى بشر إلا بعدما عَرَّفَ على نفسه.

ومجيءُ مَلَكِ الموت إليه في صورةِ رجلٍ غريب صورةٌ من صورِ تخييرِ داود عليه السلام. ولذلك اختارَ لقاءَ الله، وقال: مرحباً بأَمْرِ الله.

وقبضَ مَلَكُ الموت روحَ داود عليه السلام، وانتقلَ عليه السلام إلى الرفيق الأعلى.

واستلَمَ الأمْرَ من بعده ابنُه سليمان عليه السلام، وقامَ أهلُه بتجهيزِه وتغسيلِه وتكفينه.

والطيور تظلل جثته قبل دفنه:

وأشرقتْ شمسُ الصباح، وكان ذلك اليومُ حاراً، وأرادَ سليمانُ عليه السلام تكريمَ أبيه ميتاً، وأحبَّ أنْ يقيَه حَرَّ الشمس، فأَمَرَ الطيرَ أنْ تظللَ على داود وهو ميت، وأنْ تحجبَ عنه أشعةَ الشمس الحارة، وكان سليمانُ يحكمُ الطير.

فنفذت الطيورُ أمْرَ سليمان عليه السلام، وجاءتْ أسرابُها، وبسطتْ أجنحَتَها فوقَ جثةِ داود عليه السلام، حتى أَظلمت الأرض، لأنَّ أجنحتَها غَطَّت الشمس، فأمَرَ سليمانُ الطيورَ أنْ تقبضَ بعضَ

أجنحتها، ليأتي الضياء، وتصلَ بعضُ أشعةِ الشمس إلى الأرض، ففعلت!

والطيورُ التي نَفَّذَتْ أَمْرَ سليمان عليه السلام، وظَلَّلَتْ جثةَ داودَ عليه السلام هي الصقورُ والنسورُ طويلةُ الأجنحة، وهي الطيورُ المصرحية.

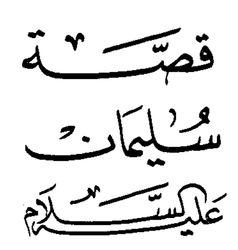
يقال: هذا صَقْرٌ مَصْرِحِيّ، لأنه صقرٌ طويلُ الجناح.

وهكذا انتهتْ حياةُ داودَ عليه السلام النبيِّ الملك، والرسولِ الخليفة، الذي أسسَ أولَ خلافةٍ إيمانية، وأَنشأَ أولَ مملكةٍ إسرائيلية في الأرض المقدسة.

ووليَ الأمْرَ بعدَه ابنُه سليمانُ عليه السلام.






قصة
سليمان
عليه السلام



[١]
ذكر سليمان عليه السلام في القرآن

ذُكِرَ سليمانُ عليه السلام في القرآن سبعَ عشرةَ مرة.

في سورة البقرة مرتان.

وفي سورة النساء مرة.

وفي سورة الأنعام مرة.

وفي سورة الأنبياء ثلاث مرات.

وفي سورة النمل سبع مرات.

وفي سورة سبأ مرة.

وفي سورة ص مرتان.

أَشارتْ سورةُ البقرة إِلى افتراءاتِ اليهود على سليمان عليه السلام بعدَ وفاته، ومزاعِمِهم حولَ السحر والسحرة والشياطين، وذكرتْ قصةَ المَلَكيْن هاروتَ وماروت في بابل.

أما سورةُ النساء فقد ذَكرت اسمَ سليمان عليه السلام ضمن مجموعةٍ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

وكذلك سورةُ الأنعام. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٤].

وفي سورة الأنبياءِ وردتْ إشارةٌ إلى سليمانَ في تفهيم اللّهِ له الحكمَ واستدراكِه على حكم أبيه داود عليهما السلام في الآيتين: ٧٨ ـ ٧٩.

وإشارةٌ إلى بعضِ ما أنعمَ اللّهُ به على سليمان من تسخيرِ الريحِ والشياطين له، وذلك في الآيتين: ٨١ ـ ٨٢.

ووردتْ أطولُ مشاهدِ قصةِ سليمان في سورة النمل، في الآيات: ١٥ ـ ٤٤.

بدأت الآياتُ بالإشارةِ إلى وراثةِ سليمان لداود، وتعليمِ سليمان منطقَ الطير، ثم تحدثتْ عن مرورِ سليمان بجيشِه على وادي النمل، وما خاطبت النملةُ به جنسَها، وتعليق سليمان على ذلك.

ثم تحدثتْ عن قصةِ الهدهد الذي غابَ عن جيش سليمان، ولما عادَ أخبرَ سليمانَ عن اكتشافه لمملكةِ سبأ في اليمن، وكفرِ القوم بالله، وعرشِ ملكتهم العظيم. وتابعت الآياتُ حديثَها عن حملِ الهدهد رسالةَ سليمان إلى قوم سبأ، وموقفِ الملكة من الرسالة، وميلِها إلى عدم الحرب، وتقديمِها هديةً إلى سليمان، وتهديدِ سليمان للوفد حامل الهدية، وتوجُهِ الملكة إلى سليمان، وإحضارِ الذي عنده علم من الكتاب لعرشها قبل وصولها، ومفاجأتِها برؤية عرشها عند سليمان، وانتهاءِ مشاهد ولقطات القصة بإسلامِ ملكةِ سبأ مع سليمان لله رب العالمين.

وتحدثتْ سورةُ سبأ عن سليمان بعد حديثها عن أَبيه داود عليهما السلام، حيث أَشارتْ إلى الريح التي سخرها اللّهُ له، وإلى النُّحاس الذي أَسالَهُ اللّهُ له، وإلى عملِ الجنِّ بين يديه، وإلى بعضِ المصنوعات النحاسية العظيمة التي يصنعُها الجنُّ له، ثم أشارت الآياتُ إلى وفاةِ سليمان عليه السلام، بطريقةٍ عجيبة جعلَها اللّهُ عبرةً للجن. والحديث جاء في ثلاث آيات هي: ١٢ ـ ١٤.

ثم انتقلت السورة بعد ذلك مباشرةً للحديثِ عن قصةِ سبأ، وكيف دمَّرها اللّهُ على أهلها لما كفروا بالله. وهذا في الآيات: ١٥ ـ ٢١.

أما سورةُ ص فقد تحدثتْ عن سليمان بعدَ داود عليهما السلام،

وأشارتْ إلى حادثةِ سليمان مع الخيلِ الصافنات الجياد، ثم إلى فتنتِه بالجسد الذي ألقاه اللّهُ على كرسيه، ثم ذكرتْ بعضَ مظاهرِ الملك الذي وهبه الله له، حيث سخرَ له الجنَّ والشياطين والريح والطير. وهذا في الآيات: ٣٠ ـ ٤٠.

[٢]

ورث سليمان داود

سليمانُ هو ابنُ داود عليهما السلام. وكان مساعداً لأبيه في الملكِ والقضاء. وأثنى اللّهُ عليه بما آتاه من علم وحكمة وفطنة وموهبة.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠].

حقَّقَ عبوديتَه الصادقةَ لله، لذلك وصفَهُ اللّهُ بأنه نعمَ العبد، ومقامُ العبودية مقامٌ عظيم، وُصفَ به أنبياءُ اللّهِ عليهم الصلاة والسلام.

وسليمان «أوّاب»: رجّاعٌ إلى الله، عابدٌ له، متصلٌ به، كثيرُ العبادةِ والذكرِ والأوبةِ والتوبةِ لربه.

وصفَ اللّهُ داودَ عليه السلام بأنه أَوّاب: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

ووصفَ سليمانَ عليه السلام بأنه أَوّاب: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وقرنَ بين العبوديةِ والأوبةِ والرجوعِ إلى الله في الكلامِ عليهما، فداودُ «عبدنا»، وسليمان «نعمَ العبد».

مساعدة سليمان لأبيه في الحكم والقضاء:

وأشارَ القرآنُ إلى مساعدةِ سليمانَ لأبيه في الحكم والقضاء، لَمّا استدركَ عليه في الحكم في قضيةِ الغنم والحرث. وذلك في قوله

تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩].

وقد تحدَّثنا عن هذه القضية بالتفصيلِ أثناء عَرْضِنا لقصة داود عليه السلام.

ويهمُّنا أن نشيرَ هنا إلى ثناءِ اللّهِ على سليمان وداود، لما آتاهما من حكم وعلم: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

وإلى تخصيصِه سليمانَ بمزيدٍ من الثناء، عندما ذَكَرَ أنه فهَّمَه القضيةَ والحكم فيها: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

وتجلّى هذا التفهيمُ الخاصُّ لسليمان في استدراكِه على حكمِ أبيه في قضيةِ تنازعِ المرأتين للطفل، واكتشافِه أنَّ أمَّه هي الصغرى، وقد ذكرنا هذه القضيَةَ أيضاً أثناءَ حديثِنا عن داودَ عليه السلام.

لقد منحَ اللّهُ سليمان عليه السلام مزيداً من الفهمِ والعلمِ والحكمة والفطنة، وهذا من تفضيلِ الله له وإنعامِه عليه.

وبقي سليمانُ مساعداً لأَبيه عليهما السلام طيلةَ حياته ولما توفي داودُ أمرَ سليمانُ الطيرَ أنْ تظلِّلَ عليه لتقيه حرَّ الشمس.

وراثة سليمان لداود في النبوة والملك:

وبعد وفاةِ داودَ ورِثَه ابنُه سليمان، واستلمَ الأمرَ من بعده، كما قال الله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦].

بماذا ورث سليمان داود؟

ورِثَهُ في النبوةِ والرسالة، فهو نبيٌّ رسولٌ مثلُه، عليهما الصلاة والسلام.

وورِثَهُ في الملكِ والخلافة، حيث وليَ أمْرَ بني إسرائيل من بعده.

ولم يرثْهُ في الأموالِ والممتلكاتِ، لأنَّ من سنةِ الله في حقِّ الأنبياء أنهم لا يورَثون عليهم الصلاة والسلام، فلا يأخذُ أولادُهم وورثتُهم شيئاً مما خلَّفوه وراءَهم. فإنْ تركوا أموالاً أو ممتلكات فهي صدقة، ينفقُها ورثتُهم أَو أولو الأمر من بعدِهم في سبيل الله.

دليلُ ذلك ما رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها: «أنَّ أزواجَ النبيِّ ﷺ حين توفيَ رسولُ الله ﷺ أردْنَ أنْ يبعثْنَ عثمانَ إلى أبي بكر يسألْنَه ميراثَهن. فقالتْ لهنَّ عائشة: أليسَ قالَ رسولُ الله ﷺ: لا نورَثُ، ما تركْنا صدقة..»[1].

وروى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها أنَّ فاطمةَ والعباسَ رضي الله عنهما أتَيا أبا بكر، يلتمسان ميراثَهما من رسولِ الله ﷺ، وهما حينئذ يطلبان أَرضهما من فَدَك، وسهْمَهُما من خيبر.

فقال لهما أبو بكر: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: لا نورَثُ، ما تركْنا صدقة..[2].

قالَ الإمامُ ابن كثير عن وراثة سليمان لداود عليهما السلام، وعن هذه السُّنَّةِ في شأن الأنبياء: «قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: ورثَه في النبوةِ والملك.

وليس المرادُ أَنه ورثه في المال، لأنه قد كانَ له بنون غيره، فما كان لِيُخَصَّ بالمال دونهم. ولأنه قد ثبتَ في الصحاح من غيرِ وجه، عن جماعةٍ من الصحابة أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا نورَثُ، ما تركْنا صدقة». وفي لفظ: «نحنُ معاشرَ الأنبياء لا نورَثُ..».

فأخبرَ الصادقُ المصدوق ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنَّ الأنبياءَ لا

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٣٠. ومسلم برقم: ١٧٥٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٢٥ و٦٧٢٦.

تورَثُ أموالُهم عنهم، كما يورَثُ غيرُهم، بل تكون أموالُهم صدقةً من بعدهم على الفقراء والمحاويج، لا يَخُصّون بها أقرباءهم، لأن الدنيا كانت أهونَ عليهم وأحقرَ عندهم من ذلك، كما هي عند الذي أرسلَهم واصطفاهم وفضلهم...»[1].

لقد ورثَ سليمانُ عن داودِ عليهما السلام خلافةً إيمانية، ودولةً قوية، ومملكةً متقدمةً متكاملة. فحافظَ عليها، وقوّاها، ووَسَّعَ رقعتَها، وضمَّ لها بقاعاً أخرى، وطبَّقَ فيها شرعَ الله، وأسعدَ الناسَ وسارَ بهم في طريقِ مرضاة الله.

وبلغت المملكةُ الإسرائيليةُ في عهد داود ثم سليمان عليهما السلام الذروةَ والأوجَ والقمة، وبعد وفاةِ سليمان بدأت المملكةُ تضعفُ وتنزل، وابتعدَ الناسُ عن مرضاة الله، وساروا في طريقِ معصيته، وانتهى الأمرُ بإزالةِ هذه الدولة بسبب كفرِ اليهود بالله.

[٣]

سليمان عليه السلام وموقفه من الصافنات الجياد

أشارتْ آياتُ القرآنِ إلى حادثتين حدَثَتا لسليمان وهو نبيٌّ ملك، عليه الصلاة والسلام، حادثةُ الخيل، وحادثةُ فتنته بالجسد الملقى على كرسيه، وسننظرُ في الحادثتين، ونفسِّرُهما على هدي القرآنِ والحديثِ الصحيح إن شاء الله.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص: ٣٠ ـ ٣٣].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٤٤٠.

تخبرُ الآياتُ أن اللّهَ وهبَ لداودَ سليمان، وتُثني عليه بالعبوديةِ والإنابة، وتصفهُ بأنه نعمَ العبد، وأَنه أوّاب رجّاع إلى ربه.

سليمان والخيل الصافنات الجياد:

ثم تخبرُ الآيات عن قصةِ سليمان مع الخيل، وهي الصافنات الجياد.

وعندما نريدُ أنْ نفهمَ هذه القصة فلا بدَّ أن نبقى مع الآياتِ التي عرضتْها، وأنْ نفسِّرَها ونفهمَ معناها، وأنْ لا نخرجَ عنها، ولا توجَدُ أحاديثُ صحيحة تضيفُ لنا جديداً عن القصة.

هذا وقد أَوردت الإسرائيلياتُ تفصيلاتٍ إسرائيلية عن فتنته بالخيل، وتقصيرِه في العبادات والواجبات لاشتغالِه بالخيلِ وسباقها، وأنه لما ندمَ على ذلك قام بقتلِ تلك الخيل وإتلافها!!

وقد أُعجبَ رواةُ الإسرائيليات من المؤرخين والمفسرين بتلك التفصيلات، وأَوردوها في مؤلفاتهم، وفسَّروا بها كلامَ الله.

ويجبُ أنْ ننزهَ نبيَّ الله سليمان عليه السلام عن هذه الاتهامات الإسرائيلية، ولا يجوزُ أنْ نلصقَ به تلك الأكاذيبَ والمزاعم.

ما معنى كلمات الآيات؟

«إِذْ»: ظرفٌ للزمان الماضي، في محلِّ نصبِ مفعولٍ فيه لفعلٍ محذوف، تقديرُه: اذكر.

والخطابُ موجَّهٌ لرسولِ الله ﷺ، وهو يشملُ كلَّ مسلم من بعده. والتقدير: اذكُرْ وقتَ عرضِ الصافناتِ الجيادِ على سليمان بالعَشي.

و«العَشِيّ»: وقتُ العشي، وهو ما كان قبلَ مغيب الشمس.

و«الصافنات الجياد»: الخيلُ الجيدة. ولم تَرِدْ هذه الكلمةُ «الصافنات الجياد» في غيرِ هذا الموضع في القرآن.

والصافناتُ جمعُ صافِن. والجيادُ جمع: جَواد.

قال الإمامُ الراغبُ في معناها: «الصَّفْنُ: الجمعُ بين الشيئين، ضامّاً بعضهما إلى بعض. يقال: صَفَنَ الفرسُ قوائمه. قال تعالى: ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ..﴾»[1].

وورِدَ في المعجم الوسيط: «صَفَنَ الفرس، يَصْفُن، صُفوناً: قامَ على ثلاثِ قوائم، وطرفِ حافرِ الرابعة. وصَفَنَ الرجل: صَفَّ قدميه»[2].

أما الجيادُ فهي مشتقةٌ من الجود. قال الراغب: «الجودُ بذلُ المقتنيات، مالاً كان أو علماً. يقال: رجلٌ جواد.

ويقال: فرسٌ جواد، يجودُ بمدَّخَرِ عَدْوِه، والجمعُ جياد، قال تعالى: ﴿بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾»[3].

وورِدَ في المعجم الوسيط: «يقال: جادَ الفرس: صارَ جواداً. ويقال: جادَ الفرسُ في عَدْوِه: إذا أَسرع.

... والجوادُ: النجيبُ من الخيل. والجمعُ: جياد. قال تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾»[4].

لماذا وصف الخيل بالصافنات الجياد؟:

لقد وصفت الآيةُ خيلَ سليمان عليه السلام بصفتيْن: الصافنات، والجياد.

والصَّفْنُ حركةٌ لطيفةٌ للفرس عند وقوفها، حيث تَقِفُ على ثلاثِ من قوائمها الأربع، أما الرابعةُ من قوائمها فإنها تَرفعُها وتَثنيها، وتجعلُ طرفَ حافرِها على الأرض. وهي بهذا تجمعُ بين رفعِها وبين الوقوفِ عليها، فلا هي رفعَتْها عن الأرض، ولا هي وقفَتْ عليها.

---

(١) المفردات: ٤٨٧.
(٢) المعجم الوسيط: ٥١٧.
(٣) المفردات: ٢١١.
(٤) المعجم الوسيط: ١٤٥ ـ ١٤٦ باختصار.

وهذه حركةٌ لطيفةٌ جميلة، يدركُ جمالَها من استمتعَ بمنظرِ الفرس وهي صافنة.

والخيلُ الجياد: هي الخيلُ النجيبةُ التي تجودُ في سيرِها وعَدْوِها، فهي تبذلُ جهدَها وطاقتَها في عَدْوِها، وتجودُ بذلك، ولا تَضِنُّ منه بشيء، فيأتي عَدْوُها سريعاً.

ومنظرُ الخيلِ الجياد تجودُ بطاقتها في عدْوِها جميلٌ لطيفٌ مؤثر.

فالوصفان يدلاّن على حركتيْن لطيفتين.

الصافناتُ تصويرٌ للخيلِ عند وقوفها وسكونها، حيث تقفُ على ثلاثِ قوائم وربعِ الرابعةِ من قوائمها.. والجيادُ تصويرٌ للخيل عند عدْوِها وإسراعِها في ركضها، حيث تجودُ بكلِّ طاقتِها وجهدها.

إنها جميلةٌ في صَفْنِها عند وقوفها، وجميلةٌ في جودِها عند عدْوِها.

ولهذا هي خيرٌ جزيلٌ جميل، وكان سليمانُ عليه السلام يدركُ ما فيها من خير، عندما قال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي..﴾.

وأَخبرَنا رسولُنا ﷺ عن هذا الخيرِ الجميلِ الملازمِ لها. فروى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة..»[1].

سليمان يشرف على تمرين وتدريب الخيل:

ولما عُرضت الصافناتُ الجيادُ على سليمان عليه السلام وقتَ العشي، حمدَ اللّهَ على ما أنعمَ به عليه منها، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي..﴾.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٨٥٠. ومسلم برقم: ١٨٧١.

والمعنى: أَحببتُ الخيلَ حباً كثيراً، لما فيها من خير، وحبّي لها عن ذكرِ ربي، وبسببِ ذكر ربي.

فكأَنَّه ذاكرٌ لربه عندما يحبُّ الخيل، فحبُّه لها ذكْرٌ منه لله، إذ يحمدُ اللّهَ ويشكرُه على إنعامِه عليه بها، فكلَّما يراها يشكرُ ربَّه ويذكرُه، كما أنَّ إعدادَه لها وإشرافَه عليها صورةٌ من صور عبادتِه وذكْرِه لربه.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾: الكلامُ عن الخيلِ التي أحبَّها، ومعنى «توارت»: اختفت. والحجاب: هو شيءٌ كان يحجبُها عن سليمان، كأنْ يكونَ جبلاً أو تلاً..

وتدلُّ الجملةُ على أنَّ سليمان عليه السلام كان يراقبُ خيلاً ويشرفُ عليها، ويمرِّنُها على الجريِ والعَدْوِ، لتكون دائماً جاهزةً للجهاد.

ويبدو أَنه أمرَ بركْضِ الخيلِ وعَدْوِها، فلما رآها تجري وتسبحُ في الميدان حمدَ الله على ذلك، واعتبرَ حُبَّه للخيل صورةً من صورِ ذكره وشكره لله، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾.

وبقيَ ينظرُ إلى الخيلِ السابحة في الميدان مُعْجَباً، حتى توارتْ واختفتْ وراءَ الجبل الذي حجبَها.

ولما توارتْ وغابتْ عن ناظريه قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾.

ومعنى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾: أَعيدوها إليّ.

فأَعادوها له، ولما رآها أمامَه صارَ يمسحُ عليها: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

والسّوقُ جمعُ ساق. والمرادُ بها سيقانُ الخيل. والأعناق: جمعُ عنق.

والمعنى أنَّ سليمانَ صارَ يمسحُ على سيقانِ وأعناقِ الخيل، ويمرِّرُ

أَصابعَه عليها برِقَّة. ملاعبةً منه للخيل، وتكريماً لها، وإِظهاراً لاهتمامِه بها، ومحبتِه لها.

ومعلومٌ أنَّ الخيلَ تحبُّ هذه الحركةَ اللطيفةَ من صاحبها، وتأنسُ به عندما يمسحُ على سوقِها وأعناقِها وأَعرافِها وجسمها، فتزدادُ وفاءً له وتعلُّقاً به، كما تزدادُ إِقداماً في الجهاد.

هذه حادثةُ سليمانَ عليه السلام مع الخيلِ الصافناتِ الجياد، وهذا فهمُ الحادثةِ كما عرضَتْها آياتُ القرآن، عندما نستبعدُ الإسرائيلياتِ التي سَجّلت الاتهامَ لسليمان عليه السلام، بانشغالِه بالخيل عن ذكر الله، ثم ندمِه بعد ذلك، وقتلِه لتلك الخيل.

إِننا نعلمُ أنَّ سليمانَ عليه السلام كان رجلَ جهاد، وأَنه خاضَ معاركَ إيمانيةً ضد الكفار، وكانت الخيلُ من أسلحةِ الحرب المعروفة، ولذلك كان سليمانُ محباً للخيل، لهذا الهدفِ الجهاديِّ العظيم، الذي يحققُ له الخير.. وكان يَعتبرُ حبَّه للخيل وإعدادَها للجهاد صورةً من صورِ ذكره لربه.

وكان يُعِدُّ الخيلَ للجهاد دائماً، ويَحرصُ على «لياقتِها» البدنيةِ الجهادية، ويُبقيها في المضمارِ والميدانِ تعدو وتسبح.

وفي أحدِ مراتِ تمارينِها الرياضية الجهادية، نظرَ لها وهي تَعدو في الميدان، فأُعجبَ بها، وحمدَ اللّهَ قائلاً: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾.

وبقيَ ينظرُ لها بإعجابٍ حتى توارتْ بالحجاب، واختفتْ خلفَ جبل. وبذلك انتهى شوطٌ من أشواطِ تمرينِها وتدريبِها.

وبعدما اختفتْ عن ناظريْه قال: رُدّوها عليّ، وأَعيدوها لي.

فأَعادوها، ووقفتْ أمامه، فقامَ يلاعبُها ويدلِّلها ويربتُ عليها، وصارَ يمسحُ بيديه على سيقانِها وأعناقها، وعلى أعرافها وأجسامها، تكريماً لها.

[٤]

فتنة سليمان بالجسد الملقى على كرسيه

أخبرَنا اللّهُ أنه فتَنَ سليمان عليه السلام كما فَتَنَ أَباه داود من قبله.

أما فتنةُ داود فقد كانتْ بالملكيْن الرجليْن المتخاصميْن، وقد فصَّلْنا فيها القولَ فيما مضى ولله الحمد.

الله يفتن ويبتلي أنبياءه:

وأما فتنةُ سليمان فكانتْ بإلقاءِ جَسَدٍ على كرسيه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٤ ـ ٣٥].

المرادُ بالفتنةِ الامتحان والابتلاء، ومعلومٌ أن اللّهَ يبتلي ويمتحنُ مَنْ شاءَ مِن خلقِه بما شاء، ومنهم مَن يعرفُ حكمةَ الابتلاء، ويُحسنُ فهمَه والتعاملَ معه فينجحُ في الامتحان، ومنهم مَنْ يَعمىٰ قلبُه عن ذلك فيخفق فيه.

وأَشَدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ لكونهم أقربَ الناسِ إلى الله، وأَعرفَهم بالله، وكلُّهم يدركُ حكمةَ الابتلاء، ويُحسنُ التعاملَ مع الفتنة، ويواجهها بصبرٍ واحتساب، وبإنابةٍ وعودةٍ إلى الله، فتصقلُه الفتنة وتَزيدُه قرباً من الله.

لما فتنَ اللّهُ داودَ عليه السلام، وعرفَ حقيقةَ قصةِ الملكين، أقبلَ على الله فوراً، فاستغفرَه وسجدَ له وتابَ إليه وأنابَ بين يديه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

ولما فتنَ اللّهُ سليمانَ عليه السلام أقبلَ عليه وأنابَ إليه، ودعاه وتضرعَ بين يديه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى...﴾.

ونلاحظُ حرصَ الآياتِ على وصْفِ النبيَّيْن الكريميْن بالإنابةِ إلى الله. فداودُ عليه السلام: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾. وسليمانُ عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾.

ووصفُهما بالإنابة كوصفِهما بالأَوْبة. فداود عليه السلام: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. وسليمانُ عليه السلام: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

كلاهما أوّاب، وكلاهما منيب، بنصِّ آياتِ القرآن، عليهما الصلاة والسلام.

رفض الإسرائيليات في فتنة سليمان:

كيف كانت فتنةُ سليمان؟ وما هو الجسدُ الذي أَلقاهُ اللّهُ على كرسيه؟.

ننبِّهُ ونحذِّرُ أَوّلاً من الإسرائيلياتِ المكذوبة الباطلة، التي تحدثَتْ طويلاً عن فتنةِ سليمان، وعن الجسدِ الملقى على كرسيه، فهي تتهمُ النبيَّ سليمان عليه السلام تهماً باطلة فاجرة.

وخلاصتُها أنَّ سليمانَ وافقَ امرأتَه الكافرة على الكفر بالله، وصنعَ لها صنماً في قصرِه لتعبدَهُ من دون الله، فعاقبة اللّهُ على ذلك، وكان يحكمُ الجنَّ والشياطين بخاتمِه السحري، فأذنَ اللّهُ للشيطانِ المارد أنْ يَتَزَيّا بزيِّه، فأخذَ الخاتم منه، واستلمَ الحكم من بعده، وكأنه عملَ «انقلاباً عسكرياً» عليه!! وبقيَ على هذا عدةَ أسابيع مفتوناً منزوعاً حكمُه، ثم عادَ له حكمُه بعد ذلك، بعد أن استخرجَ الخاتم من بطنِ سمكة، ثم وضعَ الماردَ في صندوقٍ وألقاه في قعرِ البحر!!

هذه إسرائيلياتٌ مكذوبةٌ باطلة، واردةٌ في أَسفارِ العهد القديم المحرفة، وقد استهوتْ هذه الإسرائيلياتُ بعضَ المفسرين والمؤرخين من المسلمين، فأوردوها في كتبهم، وفسَّروا بها كلامَ الله!

ونحنُ لا نجيزُ تفسيرَ كتابِ الله بهذه الأكاذيبِ والافتراءات، ونقررُ وجوبَ تبرئةِ سليمان عليه السلام منها!

روايات البخاري للحديث عن فتنة سليمان:

وأمامَنا حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، يبينُ فتنةَ سليمان عليه السلام، والجسدَ المُلقىٰ على كرسيه.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قالَ سليمانُ بن داود عليهما السلام: لأطوفَنَّ الليلةَ على سبعينَ امرأة، كلُّهن تأتي بفارس، يجاهدُ في سبيل الله!

فقال له صاحبُه: قل إنْ شاءَ الله! فلم يَقُلْ إن شاء الله!

ولم تحملْ شيئاً إلاّ واحداً، ساقِطاً إِحدى شِقَّيْه.

فقالَ النبيُّ ﷺ: لو قالَها لجاهدوا في سبيل الله»[1].

وفي روايةٍ أُخرى للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال سليمانُ بن داود عليهما السلام: لأطوفَنَّ الليلةَ على مائةِ امرأة، كلّهن يأتي بفارسٍ يجاهدُ في سبيل الله.

فقالَ له صاحبه: إنْ شاء الله. فلم يقل: إنْ شاءَ الله.

فلم يحملْ منهنّ إلا امرأةٌ واحدة، جاءتْ بشقِّ رجل.

والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو قال: إن شاءَ الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون..»[2].

وفي روايةٍ أُخرى للبخاري أنَّ المَلَكَ هو الذي طلبَ منه أنْ يقول: إن شاء الله، فنسيَ أنْ يقولَها: «قالَ سليمانُ بنُ داود عليهما السلام: لأطوفَنَّ الليلةَ بمائةِ امرأة، تلدُ كلُّ امرأةٍ غلاماً يقاتل في سبيل الله.

فقال له الملك: قلْ إن شاء الله. فلم يَقُلْ، ونسي.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٢٤. ومسلم برقم: ١٦٥٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٨١٩.

فأطافَ بهن، ولم تلدْ منهن إلاّ امرأة، نصفَ إنسان.

قالَ النبيُّ ﷺ: لو قال: إن شاء الله، لم يحنث، وكان أَرجى لحاجته»[1].

وفي روايةٍ أُخرى للبخاري أنه قال: «لأطوفَنَّ الليلةَ على تسعين امرأة، كلهنَّ تأتي بفارسٍ يجاهدُ في سبيل الله....»[2].

وفي روايةٍ أخرى للبخاري، أنه قال في الحديث: «... فلم تأتِ امرأةٌ منهن إلاّ بولد، إلا بواحدة، بشقِّ غلام...

ولو قال: إنْ شاءَ الله لم يحنث، وكان دَرَكاً في حاجته...»[3].

وفي روايةٍ سادسة للبخاري: «أن نبيَّ الله سليمان عليه السلام كان له ستونَ امرأة. فقال: لأطوفَنَّ الليلةَ على نسائي، فلَتَحْمِلَنْ كلُّ امرأة، ولَتَلِدَنْ فارساً يقاتلُ في سبيل الله، فطافَ على نسائه، فما ولدتْ منهنَّ إلا امرأة، ولدتْ شِقَّ غلام.

فقال نبيُّ الله ﷺ: لو كان سليمانُ استثنى لحملَتْ كلُّ امرأة منهن فولدتْ فارساً يقاتلُ في سبيل الله...»[4].

لقد أَوردَ الإمامُ البخاري ستَّ روايات متفاوتةً قليلاً لهذا الحديث، وأورده في مجموعةِ كتبٍ من صحيحه:

في كتابِ الجهاد والسير: رقم: ٥٦. باب: من طلب الولد للجهاد: رقم: ٢٣.

وفي كتابِ أحاديث الأنبياء: رقم: ٦٠. باب: قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾: رقم: ٤٠.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٢٤٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٦٣٩.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٢٠.

(٤) أخرجه البخاري برقم: ٧٤٦٩.

وفي كتابِ النكاح: رقم: ٦٧. باب: قول الرجل: لأطوفن الليلة على نسائي: رقم: ١١٩.

وفي كتابِ الأَيمان والنذور: رقم: ٨٣. باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ: رقم: ٣.

وفي كتابِ كفاراتِ الأَيمان: رقم: ٨٤. باب: الاستثناء في الأيمان.

وفي كتاب التوحيد: رقم: ٩٧. باب: قول الله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾: رقم: ٣١.

لقد أَحببْنا أنْ نضعَ أمامَ القراء الكرام رواياتِ البخاري الست لهذه الحادثة، ليدركوا أهميةَ جمْعِ الرواياتِ الصحيحة المختلفةِ للحادثة الواحدة، والنظرِ فيها مجتمعة، وملاحظةِ ما أوردتْه كلُّ واحدةٍ من إضافات على أخواتها، وإزالةِ التعارض بين الروايات، والجمعِ بينها، واستخلاصِ الحادثة من مجموع الروايات، وعدمِ الاكتفاء برواية واحدة!

توجيه طوافه على مائة امرأة في ليلة:

ولْنحاولْ تصوُّرَ الحادثةِ وتسجيلَها من الرواياتِ الست السابقة.

كانَ سليمانُ عليه السلام رجلَ جهاد، يطلبُه ويحرصُ عليه، لينشرَ دينَ الله، ويحاربَ أعداءَ الله، ورأينا كيفَ يشرفُ على إعدادِ وتهيئةِ الخيل الصافنات الجيادِ للجهاد.

وكانَ لسليمانَ عليه السلام مائةَ امرأة، ما بين حُرَّةٍ وأَمَة جارية. ولا يستغربَنْ أحدٌ من الرقم، ولا يقيسُه على شرعنا، الذي يحرمُ على الرجل الزواجَ بأكثرَ من أربعِ نساءٍ حرائر في وقتٍ واحد، فالراجحُ أنَّ شرعَ مَنْ قبلَنا ليس شرعاً لنا، ولا شكَّ أنه كان في شريعةِ سليمان عليه السلام الاحتفاظُ بمائةِ امرأة ما بين حرة وأمة.

ولم يكن احتفاظُ سليمانَ عليه السلام بمائة امرأةٍ بقصدِ الشهوة

واللذة، وإنما بهدفِ النسلِ والإنجاب، لتكونَ له الذريةُ الصالحة.

وبما أنَّ سليمانَ عليه السلام كان رجلَ جهاد، فقد أرادَ أنْ يطوفَ على نسائهِ في ليلة واحدة، لينجبْنَ رجالاً مجاهدين.

قال يوماً: لأطوفَنَّ الليلةَ على ستين امرأة ـ أو سبعين، أو تسعين، أو مائة، كما وردَ في روايات الحديث ـ لتحملَ كلُّ واحدةٍ منهن، وتنجبَ ولداً، ليكونَ بعد ذلك مجاهداً في سبيلِ الله.

إذن يريدُ الأولادَ ليكونوا مجاهدين في سبيل الله، فالذي يُشغلُ بالَه ويسيطرُ على تفكيرِه هو الجهادُ في سبيل الله.

أما كيف يطوفُ على مائةِ امرأةٍ في ليلةٍ واحدة، أَو تسعين أَو سبعين أَو حتى ستين، فقد يشكِّكُ بعضُهم في ذلك. إذْ كيفَ يعاشرُ الرجلُ مائةَ امرأةٍ معاشرةً جنسيةً في ليلة واحدة؟ وللرجل طاقةٌ جنسيةٌ محدودة!

نعلمُ أنه يستحيلُ على الرجل العادي أن يعاشرَ مائةَ امرأة أو تسعين أو ستين معاشرةً جنسيةً في ليلة واحدة، فقد يفعلُ ذلك مع أربعِ نساء أَو حتى مع عشرٍ أو ما زادَ على ذلك قليلاً، أمّا أنْ يفعلَ ذلك مع ستين أو تسعين أو مائة، فذلك غيرُ وارد، ولا يتفقُ مع طاقتِه وقدرتِه.

أمّا سليمانُ عليه السلام، فقد فعلَ ذلك، وجامعَ مائةَ امرأة من نسائِه في ليلةٍ واحدة، وهذا الأمرُ كان «معجزة» من الله، أَجراها اللّهُ على يديه، وهو الذي أَقدره على ذلك، ومكَّنَه منه، ومنحه طاقةً جنسيةً تكفي ليعاشرَ مائة امرأةٍ من نسائه ما بين حرةٍ وأَمَة.

وبما أنَّ الأمْرَ من الله، وكان معجزةً من المعجزات، فلا غرابةَ فيه، ونسلِّمُ به لأنه وردَ في الحديث الصحيح.

وتوجيه نسيانه أن يقول: إن شاء الله:

لما قالَ سليمانُ عليه السلام: لأطوفنَّ اليوم على مائةِ امرأة، كلُّ

واحدة تلدُ غلاماً يجاهدُ في سبيل الله، قالَ له المَلَك: قل إن شاء الله.

وهذا يدلُّ على أنه لما قال كلامَه السابقَ كان معه مَلَك من الملائكة، والأنبياءُ يلتقون مع الملائكة باستمرار.

فالمَلَكُ دعا سليمانَ عليه السلام إلى أنْ يقول: إن شاء الله. ومعنى هذا أنْ يربطَ الأمْرَ ويعلِّقَه بمشيئةِ الله، فإذا شاءَ اللّهُ ذلك الأمرَ وأَرادَه، تَحَقَّقَ ووُجِدَ في عالم الواقع، وما سليمانُ عليه السلام إلاّ سببٌ فقط. وإذا لم يشأ اللّهُ الأمرَ ولم يُرده لم يتحقق، ولو أرادَ سليمان ذلك، وبذلَ جهده فيه، فما شاءَ اللّهُ كان، وما لم يشأ لم يكن!

والمَلَكُ لما طلبَ من سليمان أن يستثنيَ وأنْ يقول: إن شاءَ الله، إنما يذكِّرُه بهذه الحقيقةِ الإيمانيةِ الاعتقادية.

ولكنَّ سليمانَ عليه السلام نسيَ أنْ يقول: إن شاء الله، رغم تذكيرِ المَلَكِ له بذلك.

ونسيانُه أنْ يقولَ إنْ شاءَ الله، لا يطعنُ في نبوته عليه السلام، فلا ضيرَ عليه في ذلك، بل هذا مظهرٌ من مظاهرِ بشريَّتِه، الذي يؤكِّدُ نبوته، فما هو إلاّ بشرٌ رسول، يَعتريه ما يَعتري البشرَ من أَعراض، مما لا يتعارضُ مع النبوة، فقد يحزنُ ويفرح، وقد يمرضُ ويتعب، وقد ينسى ويسهو.

النسيانُ قد يصيبُ الرسلَ في غيرِ الرسالة والتبليغ، وهذا ما حصلَ مع رسولِنا محمدٍ ﷺ، عندما سأله مشركو قريش أسئلةً حولَ أصحابِ الكهف وذي القرنين والروح، فقال لهم: أُجيبكم غداً. ونسيَ أنْ يقول: إن شاء الله. فتوقَّفَ عنه جبريل عليه السلام أسبوعين، تنبيهاً من الله له لأنه نسيَ أنْ يقول: إن شاء الله.

وبعدَ أُسبوعين أنزلَ اللّهُ عليه سورةَ الكهف، وفيها الجوابُ على قصةِ أصحاب الكهف، وقصةِ ذي القرنين، وفيها تسجيلُ عتابِ الله له

لأنه نسيَ أن يستثني ـ أي أنْ يقول: إن شاء الله ـ وتوجيهُه إلى أنْ يعلقَ وعودَه بالاستثناء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ..﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

على هذا الأساسِ نفهمُ نسيانَ سليمان عليه السلام أنْ يقولَ: إن شاء الله. وأنه ليس مخطئاً في ذلك، لأنه لا خطأ في النسيان.

فتنته بالمولود المشوه الميت على كرسيه:

ومع ذلك أرادَ اللّهُ أن يريَهُ آية، وأنْ يعطيَه درساً، فلما طافَ على مائةِ امرأةٍ وعاشرهن كلَّهن في ليلة، كان ينتظرُ أنْ يكونَ له مائةَ ولد بعد شهور، ليعدَّهم للجهاد في سبيل الله.

فلم تحملْ من المائةِ إلاّ امرأةٌ واحدة، ويا ليتَها حملتْ جنيناً متكاملاً، لقد قَدَّرَ اللّهُ أنْ يكونَ جنينُها ناقصاً مشوهاً! فلما وضعَتْه، نزلَ منها ميتاً، وكان نصفَ إنسان، ولم يكن إنساناً كاملاً.

وعلَّقَ رسولُنا ﷺ على ذلك بأنَّ سليمانَ عليه السلام لو قال: إن شاء الله، لحملت النساءُ المائة، ولكانَ له مائةُ ولد، وسيكونون جميعاً فرساناً مجاهدين في سبيل الله.

هذه هي فتنةُ سليمانَ عليه السلام المذكورةُ في الآيات، كما وضَّحَها الحديثَ الصحيحُ عن رسول الله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾: امتحنّا سليمان وابتليناه، بأنْ جعلناه ينسى أنْ يقولَ إن شاء الله، وابتليناه بعدم تحقُّقِ رغبته بأنْ يكونَ له مائةُ ولد مجاهدين في سبيل الله، وابتليناه بابنِه المشوَّهِ الناقصِ في رحم امرأته.

﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾: المرادُ بالجسدِ هو شِقُّ الإنسان، المولودِ المشوَّهِ الناقص، الذي نزلَ من بطنِ امرأته ميتاً.

ويبدو أنه لما وضعَتْه امرأتُه ميتاً، حَمَلوه ووضعوه على كرسيِّ

سليمان عليه السلام، جسداً ميتاً، وجثةً بدون حياة، ليرى ما وضعت امرأتُه.

ونظرَ سليمانُ عليه السلام إلى الجسدِ المشوَّهِ الملقى على كرسيه، وعرفَ أَنه امتحانٌ وابتلاءٌ من الله، فأنابَ إلى الله، ورضيَ بقَدَرِه، واستسلَمَ لقضائه، وذكرَ الله واستغفره، ودعاه وتضرعَ إليه، وبذلك نجح في الامتحان، واستفادَ من الابتلاء!.

[٥]

تسخير الريح والجن لسليمان عليه السلام

بعدما فتنَ اللّهُ سليمانَ عليه السلام بالمولودِ المشوَّهِ الناقصِ الميت، وإنابتِه وتضرُّعِه لربِّه، طلبَ من اللّهِ مُلْكاً واسعاً عريضاً. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٥].

لماذا طلب سليمان الملك الخاص:

طلبَ من ربِّه أنْ يغفرَ لَه، وليس هذا عن ذنب، فإنَّ الأنبياءَ لا يُذنبون، وإنما هو ذكرٌ منه لربِّه، وتقرُّبٌ إليه بالاستغفار.

ثم طلبَ من اللّهِ الوهابِ أنْ يهبَهُ مُلْكاً خاصّاً به، لا يُعطيه لأحدٍ من بعده، فاستجابَ اللّهُ له.

ولا ننسى أنَّ طلبَهُ الملكَ الخاصَّ كان بعدَ أَن ابتلاه اللّهُ بعدمِ حمْلِ نسائه، إلا تلكَ التي ولدَتْ ابناً مشوَّهاً.

وقد لا يحسنُ بعضُهم فهمَ طلبِ سليمانَ عليه السلام وتوجيهَه، وقد يَعتبرُ بعضُهم هذا أَنانيةً من سليمان عليه السلام، وحرْصاً منه على الزعامة، وتهالُكاً على الملك، ومباهاةً وتفاخراً على الآخرين.

إِنَّ نبيَّ الله سليمان عليه السلام منزَّهٌ عن هذه الأمراضِ والآفاتِ التي تُصيبُ الملوكَ والزعماء، وهو راغبٌ في اللّهِ والدارِ الآخرة،

وحياتُهُ في الدنيا وقْفٌ على دينِ الله والتمكينِ له، ويريدُ الملكَ الخاصَّ العريضَ لهذه الغاية.

إنه يريدُ الملكَ الخاصَّ الذي لا ينبغي لأَحدٍ من بعدِه لنشْرِ دينِ الله، والدعوةِ إليه، وإسعادِ الناسِ بالحياة في ظلاله. وهو يريدُ الملكَ الخاصَّ ليكون مظهراً من مظاهرِ الإنعامِ الرباني عليه، وليتخذَه وسيلةً لذكْرِ اللّهِ وشكْرِه وحسْنِ عبادته.

فالملكُ الخاصُّ الذي يريدُه ليس غايةً مقصودة، ولكنه وسيلةٌ لتحقيقِ تلك الغاياتِ الإيمانيةِ العظيمة.

ولذلك استجابَ اللّهُ له، ومنحَهُ ما طلب، وخصَّهُ بملْكٍ لم يهبْهُ لغيره.

سليمان أوسع الحكام ملكاً حتى قيام الساعة:

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٦ ـ ٣٩].

سخَّرَ اللّهُ له الريح، فكانت تَجري بأمره. وسخَّرَ له الجنَّ والشياطين، فكانوا طوعَ أمره، وسخَّرَ له الطيرَ فكانت من جنودِه.

وبذلك وهبهُ اللّهُ مُلكاً خاصّاً به، لم يهَبْهُ لأحدٍ من بعده، فكان حاكماً لمجموعاتٍ من: الإنس والجن، والطير، والريح.

وهل هناك حاكمٌ قبلَ سليمان عليه السلام أو بعدَه حكمَ الإنسَ والجنَّ والطيرَ والريح؟ ولهذا كان سليمانُ أقوى ملكٍ في التاريخ، وأوسعَ الملوك والزعماء مُلْكاً. ليسَ بسببِ سَعَةِ مملكته، ولا بسببِ كثرةِ عددِ الناس الذين حَكَمهم، فهناك ملوكٌ مَلكوا بلاداً أكبرَ من مملكته، وحكموا ملايينَ أكثرَ منه.

إنَّ سليمانَ أوسعُ الملوك ملكاً، لأنه حكمَ طوائفَ ومجموعاتٍ من الإنسِ والجنِّ والطيرِ والريح.

كيفَ سخَّرَ اللّهُ له الريح؟

سخر الله لسليمان الريح رخاء:

اللّهُ هو الذي يسيِّرُ الريحَ بأمره، ويُرسلُها على ما يشاءُ من أَرضه، ومَن يشاءُ مِن عباده، فتحملُ الغيثَ والخصبَ والخير.

واللّهُ سخَّرَ الريحَ لسليمان عليه السلام، فجعلَها طوْعَ أمره، تتحركُ أَينما شاءَ هو، وتسيرُ إِلى أيِّ مكانٍ أَراد، وتُقدِّمُ الخيرَ والغيث للناس.

كان تسخيرُ اللّهِ الريحَ لسليمان معجزةً من معجزاته عليه السلام، وطالَما أنَّ اللّهَ هو الذي سخَّرها له، وحكَّمه فيها، فلا غرابةَ في ذلك.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦﴾: كانت الريحُ تَجري وتسير وتتحركُ بأمرِ سليمانَ عليه السلام، وتَحملُ معها الرخاءَ والغيث، ويَنتجُ عنها سعةُ عيشِ الناس وحسْنُ أَحوالهم.

و«رُخاء» مشتقةٌ من «رَخا». بمعنى: حَسُنَ واتَّسع. تقول: رخا فلانٌ: أي حَسُنَ حالُه. و: رَخا عيشُه: اتَّسع عيشُه. والرَّخاء - بفتح الراء - هو العيشُ الواسعُ الرغيد.

وفرقٌ بين «رُخاء» بالضم، و«رَخاء» بالفتح.

فالرُّخاءُ - بالضمّ - هي الريح اللينةُ الطيبة النافعة.

والرَّخاء - بالفتح - هو سعةُ العيش ويُسرُه وليونتُه ورفاهيتُه.

والثاني نتيجةٌ للأول وثمرةٌ له، فالرَّخاءُ والرغدُ والخصبُ واليسرُ نتيجةٌ للريح الرُّخاء، التي تأتي بالغيث، فينتجُ عنه الزرعُ والثمر والخصب، وبذلك يعيشُ الناس في رَخاء.

هذه الريحُ الرُّخاء كانت تجري بأمْرِ سليمان عليه السلام إلى

الأرضِ المقدسة. قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١].

الأرضُ التي باركَ اللّهُ فيها هي الأرضُ المقدسة، فلسطينُ وما حولَها، التي كان فيها حكمُ سليمانَ عليه السلام.

كانت الريح تقطع مسيرة شهرين في اليوم:

وأَخبرنا اللّهُ أنَّ هذه الريحَ الرُّخاءَ العاصفةَ كان غدوُّها شهراً، وكان رواحُها شهراً. قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

والغدوُّ هو أولُ النهار. تقول: غَدا، يَغْدو، غُدُوّاً: بَكَّرَ وخرجَ في أَول النهارِ.

والرَّواحُ هو السيرُ في آخرِ النهار، قُبيلَ الغروب.

والغُدُوُّ والرّواحُ أمران متقابلان، الأولُ في أولِ النهار، والثاني في آخرِ النهار.

ومعنى قوله عن الريح: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾: أن اللّهَ جعلَ الريحَ سريعةً عاصفةً بما معها من غيثٍ ورَخاء، حيث كانت تقطعُ مسيرةَ شهرٍ في غُدُوِّها وقدومِها ومجيئها وقْتَ الصباح، وتقطعُ مسيرةَ شهرٍ آخر في رَواحها وذهابها وقتَ العَشِيِّ في آخرِ النهار.

أي أنَّ الريحَ كانت تقطعُ مسيرةَ شهريْنِ في اليومِ الواحد.

وهذا مظهرٌ من مظاهرِ الرَّخاءِ والخصب الذي كانت تأتي به هذه الريح، وتتحركُ بأمْرِ سليمانَ عليه السلام.

ونلاحظُ أنَّ ثلاثَ سورٍ أَثارتْ إِلى تسخيرِ الريحِ لسليمانَ عليه السلام: الأنبياء، وسبأ، وص.

ويُجمعُ بين هذه السور: بأنَّ اللّهَ سخَّرَ الريحَ لسليمانَ رخيةً لينة، وهذا ما ذكرَتْه سورةُ ص: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً...﴾.

وهذه الريحُ الرُّخاءُ كانت تهبُّ عاصفةً إلى الأرضِ المباركة، وهذا ما ذكرَتْه سورةُ الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا..﴾.

وهذه الريحُ الرُّخاءُ العاصفةُ القادمةُ إلى الأرض المقدسة، كانت سريعةً في هبوبها، بحيث كانت تقطعُ مسيرةَ شهرينِ في اليوم الواحد. وهذا ما ذكرَتْه سورةُ سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ..﴾.

وهذا معناهُ أنَّ فترةَ حكمِ سليمان عليه السلام لبني إسرائيل كانتْ فترةَ رخاءٍ ورفاهية، تنعَّمَ فيها بنو إسرائيل بعيشهم، وجنوا خصْبَ زروعهم وثمارِهم، وأَكلوا من فوقِهم ومن تحتِ أرجلهم. وانطبقَ عليهم قولُ اللهِ سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم...﴾ [المائدة: ٦٦].

وهذا الخيرُ والرخاءُ والخصْبُ ثمرةٌ للحكمِ الإيمانيِّ الربانيِّ على يدِ سليمان عليه السلام، فلمّا حكَمَهم بشرعِ الله، أفاضَ اللّهُ عليهم من هذه الخيرات.

وبعد وفاةِ سليمانَ عليه السلام تخلّى بنو إسرائيلَ عن شرعِ الله، فسلبهم اللّهُ هذا الرخاء، وأَوقعَ بهم عذابَه وانتقامه.

وعند حديثِنا عن الريحِ التي سخَّرها اللّهُ لسليمان عليه السلام، يجبُ أنْ نستبعدَ الإسرائيلياتِ الخرافيةَ التي كانت تتحدثُ عن «بساطِ الريح» السحريِّ، الذي كان يركبُ عليه سليمان، ويتجوَّلُ في بلاد العالم، وقد استهوَتْ هذه الأساطيرُ بعضَ المفسرين المسلمين، ففسَّروا بها آياتِ القرآن!!

تسخير الجن والشياطين لسليمان:

وسخَّرَ اللّهُ لسليمان عليه السلام الجنَّ والشياطين. ووردَ الحديثُ

عن تسخيرِ الجنِّ في السور الثلاث: الأنبياء، وسبأ، وص.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾﴾ [ص: ٣٧].

تحدثت الآياتُ عن تسخيرِ الجنِّ والشياطينِ لسليمان عليه السلام، والكلمتانِ ليستا مترادفتيْن بمعنى واحد، فهناكَ فرقٌ بين الجنِّ والشياطين.

الجن: هم الخلْقُ الخاصُّ المقابلُ للإنس، خلَقَهم اللّهُ من النار، مقابلَ خلْقِ الإنسِ من الطين، وهم عالَمٌ قائمٌ بذاته.

والجنُّ نوعان: جنٌّ مؤمنون مصلحون مسلمون، وجنٌّ كافرون ظالمون مجرمون.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴿١١﴾﴾ [الجن: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٤ ـ ١٥].

أمّا الشياطينُ فهم الكافرون المتمردون على الله، مهما كان جنسُهم، وهؤلاء الشياطينُ منهم مَنْ كان مِن الجن، ومنهم مَن كان مِن الإنس. فكلُّ كافرٍ شيطانٌ سواءً كان إنسياً أم جنياً.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢].

الجنُّ المؤمنون ليسوا شياطين، وهم كالإنسِ المؤمنين في الإيمانِ والإسلامِ والطاعة. أمّا الجنُّ الكافرون فهم شياطين، كالإنسِ الكافرين.

وقد أخبرَنا اللّهُ أنه سخَّرَ لسليمانَ عليه السلام الجنَّ والشياطين، أيْ أنه سَخَّرَ له الجنُّ بنوعيهم: المؤمنين الصالحين، والكافرين الشياطين.

وعلمْنا من القرآن أنَّ أحدَ الجن المؤمنين تعَهَّدَ بإحضارِ عرشِ ملكة سبأ لسليمان قبلَ أنْ يقومَ من مقامِه: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ...﴾ [النمل: ٣٩].

حزم سليمان في حكم الجن والشياطين:

وكانَ سليمانُ عليه السلام حازِماً في حكمِ الجنِّ والشياطين، وأيَّدهُ اللّهُ بتسخيرِهم وخضوعِهم له، فخضعوا له بإذن الله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وكانَ يستخدمُ الشياطينَ من الجنِّ في «الغَوْصِ» في أَعماقِ البحار، لاستخراج كنوزِها وخيراتِها، وتقديمِها إلى سليمان عليه السلام، لينفعَ أُمته بها: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ...﴾.

كما كان يستخدمُ الشياطين في «البناء»، حيثُ كانوا يُشيدون له القصورَ والبيوت: ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾...﴾.

ولم يكن سليمانُ عليه السلام يتساهلُ مع هؤلاءِ الشياطين البنّائين والغوّاصين، فمَنْ يُقَصِّرون أو يتمردون أو يخالفون منهم كان يقيدُهم بالقيود، ويُصَفِّدُهم بالأَصْفاد: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾..﴾ [ص: ٣٨].

ولم يخبرْنا القرآنُ عن الطريقةِ التي حكمَ سليمانُ بها الجنَّ والشياطين، ولا عن كيفيةِ وتفاصيلِ حكمه لهم، ولا نلتفتُ إلى خرافاتِ الإسرائيلياتِ من أنه كان يحكُمُهم بالسحر، أو باسمِ اللّهِ الأعظم، أَو بخاتمِهِ السحريِّ العجيب.

كلُّ ما نعرفُه أنه حكَمهم بإذْن الله، فاللّهُ هو الذي سخَّرهم له، وأَخضعَهم لحكمه، فالأمرُ أمرُ الله في الحقيقة، نعمةً منهُ على نبيِّه سليمان عليه السلام.

تفجير عين النحاس لسليمان:

ومن مظاهرِ تأييدِ اللّهِ لسليمان عليه السلام وتقويتِه لملكه وسلطانِه، إمدادُه بالمعادن، وبالذاتِ النحاس. ووردَ هذا صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ..﴾ [سبأ: ١٢].

والقِطْرُ ـ بكسر القاف ـ هو النحاسُ المذاب.

ومعنى «أَسَلْنا له عين القطر»: أَجريْنا له عَيْناً من نحاسٍ مُذابٍ.

لقد فجَّرَ اللّهُ لسليمانَ عليه السلام منجماً من مناجم النحاس المذابِ المصهور، وأَخرجَ له عيناً جاريةً من هذا النحاس المَصهور، فكانت تَسيلُ وتَجري على وجهِ الأرض. وتَصَوُّرُ النحاسِ المذابِ يَجري كالسيلِ يدلُّ على عظمةِ هذه النعمة من الله على سليمان عليه السلام.

ولا نملكُ دليلاً على تحديدِ الموقعِ الجغرافيِّ لعينِ النحاسِ المذابِ التي فجَّرها اللّهُ لسليمانَ عليه السلام، فلا نخوضُ في ذلك، ولا يضرُّنا الجهلُ بموقعِ تلك العين.

وقد استفادَ سليمانُ عليه السلام من عينِ النحاس، وكثرةِ النحاس المتدفقِ منها، فاستخدمَ الجنَّ والشياطينَ ذوي الطاقاتِ والقدراتِ الهائلة في إِنتاجِ مختلفِ أَنواعِ الصناعاتِ المعدنية، من نحاسيةٍ وحديدية. ولهذا أَثرُهُ الكبيرُ في تقدُّمِ الدولةِ الإيمانية التي يحكمُها سليمانُ عليه السلام، تقدُّمِها صناعياً وعمرانياً ومادياً.

وأَشارَ القرآنُ إلى بعضِ مصنوعاتِ الجن والشياطين. قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

صناعات نحاسية ضخمة: محاريب وتماثيل وجفان وقدور:

المحاريب جمعُ محراب. وهو مكانُ العبادة. وقد تحدَّثْنا عن اشتقاقِه عندَ كلامِنا عن الخصمين عندما تسوَّروا المحرابَ على داود عليه السلام.

والتماثيلُ جمعُ تمثال. وهو شيءٌ مصنوعٌ من النحاس أَو غيره، يماثِلُ ويشابِهُ ويُحاكي شيئاً في الطبيعة، كالإنسانِ أو الحيوانِ أو النبات أو غير ذلك[١].

والجِفان جَمْعُ جَفْنة. وهي القَصْعَةُ أَو الإناءُ أو الوعاء، الذي يوضَعُ فيه الطعام[٢].

والجواب، أَصْلُها: الجوابي، حُذفتْ منها الياءُ للتسهيل، مثل: الجواري، صارتْ «جَوارِ» في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمن: ٢٤].

والجَوابي جمعُ جابية. والجابيةُ هي الحوضُ الكبيرُ الذي يوضَعُ فيه الماء. مشتقةٌ من «الجَوْب» وهو القطع[٣].

ومعنى قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ أنَّ الجِفانَ النحاسيةَ التي كان الجنُّ يصنعونَها لسليمانَ عليه السلام، لتكون آنيةً للطعام، كانتْ كبيرة، وكأنَّ الجفنةَ الواحدةَ جابيةٌ من الجوابي، وحَوْضاً من الأحواضِ التي يوضَعُ فيها الماء.

والقُدور جمع قِدر. وهو الإِناءُ المعروفُ الذي يُطبخُ فيه.

ووُصفت القدورُ النحاسيةُ بأنها «راسيات». والراسيات هي: الثابتاتُ التي لا تتغير.

---

(١) المعجم الوسيط: ٨٥٤.

(٢) المرجع السابق: ١٢٧.

(٣) المرجع السابق: ١٤٤.

ومَعنى ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾: قدورٍ ضخمة، ثابتةٌ مكانها، لا تُغَيَّرُ عنه، ولا يَكادُ أحدٌ يُطيقَ حَمْلَها لعظَمِها وضخامتِها[1].

وبعدما عَرَفْنا معاني كلماتِ قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ نقفُ على ما قالَه بعضُ السلف في معانيها:

قالَ الإمامُ ابنُ كثير في تفسيره: «أمّا المحاريبُ فهي: البناءُ الحسن، وهو أَشرفُ شيء في المسكن.

قال مجاهد: المحاريب: بُنيانٌ دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجد. وقال قتادة: هي القصورُ والمساجد. وقال ابنُ زيد: هي المساكن.

وأمّا التماثيل: فهي الصُّوَرُ. وهذا قولُ عطية العوفي والضحاك والسدي.

وقال مجاهد: كانتْ هذه التماثيلُ من نحاس.

والجَوابِ: جمعُ جابية. وهي الحوضُ الذي يُجبى فيه الماء.

قال ابنُ عباس: «كالجواب»: كالجوبةِ من الأرض. وهي الحِياض.

وقال مجاهدٌ والحسنُ وقتادة والضحاك وغيرهم: كالجوابِ: كالحِياض.

وقال مجاهد والضحاك: والقُدورُ الراسيات هي الثابتاتُ في أَماكنها، لا تتحوَّلُ عنها لعِظَمِها..»[2].

ويُشيرُ لنا قولُه تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ

---

(١) المعجم الوسيط: ٣٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:٥٠٧ باختصار.

وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ إلى عظمةِ هذه الصناعاتِ المعدنيةِ النحاسيةِ التي كان الجنُّ والشياطينُ يَصنعونَها لسليمانَ عليه السلام، والتي كانَ يستخدمُها بنو إسرائيل في حياتِهم المدنية والاجتماعية.

كما تشيرُ الآيةُ إلى أنَّ المملكةَ الإيمانيةَ زمنَ سليمان عليه السلام بلغتْ مستوى متقدماً من الرقيِّ الماديِّ والعمراني والصناعي، كيف لا، واللّهُ قد أنعمَ على سليمانَ عليه السلامُ بالاستفادةِ من طاقاتِ وقدراتِ ومواهب الجن والشياطين.

لقد التقى الجنُّ والإنسُ على تقديم خبراتِهم وطاقاتِهم لدعمِ المملكةِ الإيمانية، وخدمةِ سليمانَ عليه السلام، وأدّى اجتماعُ هذه الخبراتِ والطاقات إلى التقدمِ والرقيِّ الماديِّ والصناعيِّ لهذه المملكة.

وهذا بفضْلِ اللّهِ أوَّلاً لإنعامِه على سليمانَ بذلك، وتسخيرِ هذه الطاقاتِ له، ثم بفضْلِ سليمانَ عليه السلام، الذي أحسنَ استخدامَ وتوظيفَ هذه الطاقات!!

اعملوا آل داود شكراً:

واللطيفُ في التعبيرِ القرآنيِّ أنه ختمَ الآيةَ التي تحدثَتْ عن الصناعاتِ النحاسيةِ زمنَ سليمان عليه السلام بالدعوةِ إلى شكرِ اللّهِ على هذه النعم. قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

الخطابُ في الآيةِ لآلِ داود، وآلُ داودَ هم أَهلُه المؤمنون وأَتباعُه وجنودُه الصالحون، بقيادةِ ابنِه سليمانَ عليه السلام.

أَمرهم اللّهُ أنْ يَعملوا العملَ الصالح، وأنْ يَشكرُوه على ما أنعمَ به عليهم ووفَّقهم إليه.

و«شكراً» في الآيةِ منصوب، وعاملُه فعْلٌ مقدَّر. والتقدير: اعملوا آلَ داودَ صالحاً، واشكروا اللّهَ شكراً على ذلك.

وقد سخَّرَ اللّهُ لكلٍّ مِن داودَ وسليمانَ عليهما السلام المعادن، وكان لذلك أثرُه في التقدمِ الصناعيِّ والعمرانيِّ للدولةِ المؤمنة التي أَسَّساها.

داودُ عليه السلام أَلانَ اللّهُ له الحديد، وعلَّمَه كيفيةَ صنعِ الدروعِ الحديدية الحربية.

وسليمانُ عليه السلام أسالَ اللّهُ له عينَ النحاس، وسخَّرَ له الجنَّ يصنعون منها الأدواتِ النحاسيةَ الضخمة.

والتقت الصناعاتُ الحديديةُ والصناعاتُ النحاسيةُ على تقديمِ الخيرِ والنفعِ لبني إسرائيل في عهدِ سليمان عليه السلام، وفي الارتقاءِ بمستوى الدولةَ المادي والمعنوي.

لقد أَدى تسخيرُ الجنِّ والشياطينِ لسليمان عليه السلام إلى التقدُّمِ الماديِّ الصناعيِّ والعمراني للدولةِ في عهده، حيث ازدهرت الصناعاتُ الحديديةُ والنحاسية، كما لاحَظْنا من الآيات، وحيث تمَّ تشييدُ القصورِ والبيوت، وعملَ سليمانُ على الإكثارِ من بيوتِ الله لعبادته سبحانه.

سليمان جدد بناء المسجد الأقصى:

استفادَ سليمانُ عليه السلام من تسخيرِ الجنِّ والشياطين له، فعملَ على تجديدِ بناءِ «المسجد الأقصى» في بيت المقدس!

لقد بَنى المسجدَ الأقصى أولَ مرةٍ إبراهيمُ الخليلُ عليه الصلاة والسلام، كما ذكَرْنا ذلك في حديثنا عن قصته فيما مضى.

واستمرَّ المسجدُ الأَقصى قائماً فترةً من الزمن، يرتادُه المؤمنون لعبادةِ الله، ثم عَدَتْ عليه عوادي الزمن، من كوارثَ وحروب، فتهدَّمَ وسقطتْ جدرانُه.

وفي عهدِ سليمان عليه السلام، قامَ بتجديدِ بناءِ المسجد الأقصى، وبناهُ مسجداً لله، ليصلِّيَ فيه المؤمنون، ويَعبدوا اللّهَ سبحانه وتعالى.

والدليلُ على أنَّ سليمانَ عليه السلام جَدَّدَ بناءَ المسجدِ الأقصى في بيتِ المقدس ما أخرجَه النَّسائيُّ وابنُ ماجة وغيرُهما عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قال: «إنَّ سليمانَ بنَ داود عليهما السلام لَمّا بنى بيتَ المقدس، سألَ اللّهُ عز وجل خِلالاً ثلاثة: سألَ اللّهَ عز وجل حكماً يصادفُ حكْمَه، فأُوتيَه. وسألَ اللّهَ عز وجل مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأُوتيه. وسألَ اللّهَ عز وجل حين فرغَ من بناءِ المسجدِ أنْ لا يأتيه أحدٌ لا يَنْهَزُهُ إلاّ الصلاةُ فيه، أنْ يُخرجَه من خَطيئَةِ كيومَ ولدَتْه أُمُّه..»[1].

يخبرُنا رسولُ الله ﷺ في هذا الحديثِ الصحيح أنَّ سليمانَ عليه السلام هو الذي جَدَّدَ بناءَ بيتِ المقدس، وجَدَّدَ بناءَ المسجدِ الأقصى فيه.

وهذا رَدٌّ على مزاعم اليهودِ المفترين، الذين زعموا أنَّ سليمانَ عليه السلام بنى هيكَله، المعروفَ باسم «هيكل سليمان»، وجَعَلَهُ بناءً يهودياً للرب، لينزلَ فيه ويُقيمَ فيه!! تعالى اللّهُ عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

إنَّ سليمانَ عليه السلام كان نبياً رسولاً، وملكاً خليفة، فكانَ حكْمُه حكماً إسلامياً!! صحيحٌ أنه كانَ إسرائيلياً من حيث النسب، لكنَّ حكمَه لا «يُجَيَّرُ» لليهود، وإنما هو للإسلامِ والمسلمين.

والمسجدُ الأَقصى الذي جَدَّدَ بناءَه، لم يجعلْه هيكلاً مقدَّساً، ولا «كَنيساً» يهودياً، وإنما جعلَه مسجداً للصلاةِ والعبادةِ والذكر.

طلبات ثلاثة لسليمان لما بنى الأقصى:

طلبَ سليمان عليه السلام من ربِّه ثلاثةَ أُمور، وبما أَنه نبيٌّ مقربٌ مُجابُ الدعوة، فإنَّ اللّهَ قد استجابَ له وأَعطاهُ ما طلب.

سألَ اللّهَ حكْماً صائباً، وقضاءً صحيحاً، يوافقُ حكْمَ الله وقضاءَه،

---

(١) أخرجه النسائي ٢:٣٤. وابن ماجه: ١٤٠٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٥٨.

فآتاهُ الله ذلك، وكانتْ أحكامُه صائبةً صحيحة، وكان يستدركُ على قضاءِ أَبيه داودَ عليهما السلام، كما عَرَفْنا من قصةِ الحرثِ والغنم، وقصةِ المرأتيْن والطفل.

وسألَ اللّهَ ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، ليكونَ هذا مظهراً لذكْرِ اللّهِ وشكرِه، وليستخدمَهُ في طاعةِ الله ونفعِ عبادِ الله، فآتاهُ الله ذلك، وسخَّرَ له الإنسَ والجنَّ والطير، وعلَّمَه منطقَ الطير، وكان جيشُه يضمُّ أَصنافاً من هؤلاء.

وسألَ اللّهَ أنْ يَغفرَ لكلِّ مؤمنٍ صالح، يأتي إِلى المسجدِ الأقصى للصلاة فيه، مهما كان مكانُ إِقامتِه، بشرْطِ أنْ يكونَ هدفُه وجْهَ الله، وأنْ يأتيَهُ مخلصاً لله، وأنْ لا يَنْهَزَهُ ولا يحركَه إلاّ الصلاة، فآتاهُ اللّهُ ذلك، وأخبرَه أنَّ كلَّ مَنْ كان كذلك، فإنه سيغفرُ له، ويخرجُه من ذنوبه، كيوم ولدَتْه أمُّه!

وبقي هذا الحكمُ قائماً حتى قيامِ الساعة، وينطبقُ على كلِّ مسلم صالح، يأتي المسجدَ الأقصى بهذا الهَدفِ وهذه الصفة، وكم سينطبقُ هذا الحكمُ الربانيُّ على ملايين المسلمين من أمةِ محمدٍ ﷺ، بفضْلِ دعاءِ سليمان عليه السلام لهم. وهذا يؤكِّدُ حقيقةَ وراثةِ الأمةِ المسلمة للأنبياءِ السابقين جميعاً، ومنهم داودُ وسليمانُ، عليهم الصلاة والسلام!

رسول الله يطلق سراح الشيطان مراعاة لسليمان:

وقد عرفَ رسولُنا محمدٌ ﷺ لسليمانَ عليه السلام ما خصَّهُ اللّهُ به من الملك، الذي لم يهَبْهُ لأحدٍ من بعدِه، وهو تسخيرُ الجنِّ والشياطين له.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ عفريتاً من الجنّ تفلَّتَ عليَّ البارحة، ليقطعَ عليَّ صلاتي، فأَمكَنَني اللّهُ منه، فأردْتُ أنْ أربطه إِلى ساريةٍ من سواري المسجد، حتى تنظروا إِليه كُلُّكم، فتذكَّرْتُ دعوةَ أخي سليمان: ﴿قَالَ

﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ فردَدْتُه خاسئاً»[1].

يخبرُ رسولُ الله ﷺ أَنه لما قامَ يصلي في الليل، أتاهُ عفريتٌ من الجن، وصارَ يوسوسُ له، ليَقطعَ عليه صلاتَه ويُفسدَها، ورسولُ الله ﷺ يراه، فسلَّطَهُ اللّهُ على ذلك العفريت وأَمكنه منه، فألقىٰ القبضَ عليه وأَمسكَه بيديه.

وأَرادَ ﷺ أنْ يربطَ ذلك العفريتَ إلى أحدِ سواري المسجد وأَعمدتِه، لينظرَ إليه المسلمون في الصباح، ويتفرَّجوا عليه.

والذي صَرَفَه عن ذلك هو تذكُّرُه لدعوةِ سليمان عليه السلام، حيثُ طلبَ من ربِّه أنْ يهبَه ملكاً خاصاً به، فحكَّمه اللّهُ في الجنِّ والشياطين، ولو قيَّدَ الرسولُ ﷺ ذلكَ العفريتَ إلى الصباح لدلَّ ذلك على أنَّ الله حكَّمه في الجنِّ والشياطين، وهذا معناهُ أنَّ اللّهَ أَعطاه ملكاً كما أَعطى سليمان!

فأَطلقَ سراحَ ذلك العفريت وردَّه خاسئاً، ليَبقى التحكمُ في الجنِّ خاصاً بسليمانَ عليه السلام.

وهناكَ توضيحٌ آخرَ لهذه الحادثة، قدَّمَهُ أَبو الدرداء رضي الله عنه، فقد روى مسلمٌ والنَّسائيُّ عنه قال: «قامَ رسولُ اللّهِ ﷺ يُصلي، فسمعْناهُ يقول: أَعوذُ باللّهِ منك، أَلعنُكَ بلعنةِ الله. أَعوذُ باللّهِ منك، أَلعنُكَ بلعنةِ الله. أَعوذُ باللّهِ منك، أَلعَنُكَ بلعنةِ الله. وبَسَطَ يَده، كأَنَّه يتناولُ شيئاً.

فلما فرغَ من الصلاة، قلْنا: يا رسولَ الله: قد سمعْناك في الصلاةِ تقولُ شيئاً، لم نسمعْكَ تقولُه قبلَ ذلك، ورأَيْناك بسطْتَ يَدَك؟

قال: إنَّ عدوَّ اللّهِ إبليس جاءَ بشهابٍ من نار، ليجعَلَه في

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٦١. ومسلم برقم: ٥٤١. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٦١.

وجهي. فقلت: أَعوذُ بالله منك، ثلاثَ مرات. ثم قلت: أَلعنُكَ بلعنةِ اللّهِ التامة، ثلاثَ مرات، فلم يستأْخِر.

ثم أَردتُ أَخْذَه، واللّهِ لولا دعوةُ أَخي سليمانَ لأصبحَ موثَقاً، يلعبُ به وِلدانُ أهلِ المدينة»[1].

في هذا الحديثِ تحديدُ أَنَّ الشيطانَ الذي أَتى الرسولَ ﷺ هو إبليسُ عليه اللعنة، وأنه كانَ يحملُ شِهاباً من نار، ليضعَه في وجهِ الرسول ﷺ، ويُفسدَ عليه صلاتَه.

فلَعَنه رسولُ الله ﷺ ثلاثَ مرات، واستعاذَ بالله منه ثلاثَ مرات، فأعاذَه اللّهُ منه، ووقاهُ شَرَّه.

ثم مدَّ رسولُ الله ﷺ يَدَه إلى إبليسَ ليقبضَ عليه، وأَرادَ أَنْ يربطَه في أحدِ أَعمدةِ المسجد، ليتفرجَ عليه المسلمون، ويلعبَ به أَولادُهم.

ولكنه تذكَّرَ دعوةَ سليمان عليه السلام، فعدلَ عن ذلك، وأَطلقَ إبليس، فذهبَ الملعونُ خاسئاً.

وتمكينُ اللّهِ للرسولِ ﷺ، وإلقاؤُه القبضَ على إبليسَ نفسِه، يشيرُ إلى فضلِ الرسول ﷺ، وعلوِّ منزلتِه عند الله، فالله سخَّرَ له الجنَّ والشياطين وحكَّمه فيهم. ولو أرادَ ﷺ تسخيرَهم لفعل، والذي دعاهُ إلى العدولِ عن ذلك هو تقديرُه لأَخيه نبيِّ الله سليمانَ عليه السلام، ومراعاتُه لما اختَصَّه اللّهُ به.

[٦]

سليمان وجيشه في وادي النمل

قصةُ سليمانَ عليه السلام مع النملةِ والهدهد وملكةِ سبأ من أطولِ مشاهدِ قصتِه في القرآن، واستغرقَتْ آياتٍ عديدةٍ من سورة النمل، وهي من الآيةِ الخامسةِ عشرة إلى الآيةِ الرابعةِ والأربعين.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٥٤٢. والنسائي برقم: ١٢١٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٦٢.

ولا توجَدُ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسولِ الله ﷺ تُضيفُ جديداً إلى ما أخبرَتْنا عنه الآيات، ولذلكَ نحنُ ملزمونَ أنْ نبقىٰ مع سياقِ الآيات، متدبِّرين لها، لنستخرجَ منها أحداثَ القصة ومشاهدَها ولقطاتِها ومفاجآتِها، ولا نذهبُ إلى الإسرائيلياتِ والأساطيرِ والرواياتِ غيرِ الثابتة، لأخْذِ معلوماتٍ منها، كما فعلَ كثيرٌ من المفسِّرين والمؤرخين. ونعترفُ بوجودِ تفصيلاتٍ كثيرة في تلك الإسرائيلياتِ والروايات.

بدأت الآياتُ بالإشارةِ إلى فضْلِ اللّهِ الذي آتاهُ لكلٍّ من سليمانَ وداودَ عليهما السلام، وكيفَ قابَلا هذا الفضلَ والتفضيلَ بحمدِ الله وشكْرِه، والاعترافِ بأنَّ ما هما فهو من الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

وهذه الإشارةُ تمهيدٌ للحديثِ عن قصةِ سليمان المفصَّلَةِ مع النملة والهدهد وملكة سبأ.

فقد انتقلَ السياقُ مباشرةً إلى الحديثِ عن فترةِ حكم سليمان، حيث ورثَ أباهُ داودَ عليهما السلام في النبوة والملك: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ...﴾ [النمل: ١٦].

علمه الله منطق الطير:

أَعلنَ سليمانُ عليه السلام أنَّ اللّهَ خصَّهُ بتفهيمِه منطقَ الطير، وآتاهُ في حكمهِ من كلِّ شيء، واعترفَ بأنَّ هذا فضْلٌ مبينٌ من اللّهِ المنعم المتفضِّل: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

ويدلُّ قولُه تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ على أنَّ اللّهَ علَّمهُ لغةَ الطيور والحيوانات، حيث كان يسمعُها، ويفهمُ ما تقول، ويكلمُها، وتَفهمُ هي عليه أيضاً.

وقَدَّمت الآياتُ دليلاً على ذلك، عندما سمعَ كلامَ النملة، وعندما جرى حوارٌ بينَه وبين الهدهد.

لقد كانَ سليمانُ عليه السلام عالماً بلغاتِ الحيواناتِ والطيورِ والجنِّ والشياطين، وهذا مما خصَّه اللّهُ به، ومن مظاهرِ الملكِ الذي لم يهبْه لأحدٍ غيره.

والمنطقُ مصدرُ الفعل «نَطَقَ». تقول: نطقَ، ينطقُ، نُطقاً ومَنْطِقاً: إذا تكلم. أَو إِذا أَخرجَ صوتاً من فمه، ففهِمَهُ الآخرون.

قال الإمام الراغب: «النطقُ في التعارف: الأصواتُ المقطَّعةُ التي يُظهِرُها اللسان، وتَعيها الأذان. ولا يكادُ يقالُ إلا للإنسان، ولا يُقالُ لغيرِه إلاّ على سبيلِ التَّبَع.

وقولُهم: الناطقُ والصامت. يُرادُ بالناطقِ ما لَه صوت، وبالصامتِ ما ليسَ له صوت.

وقد يُقال: الناطقُ لما يدلُّ على شيء. وعلى هذا قيلَ لحكيم: ما الناطقُ الصامت؟ فقال: الدلائلُ المخبرةُ والعبرُ الواعظة. وقوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] إشارةٌ إلى أنهم ليسوا من جنسِ الناطقين ذوي العقول. وقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] قيل: أَرادَ الاعتبار، فمعلومٌ أنَّ الأشياءَ كلَّها لا تَنطقُ إلاّ من حيثُ العبرة.

وقولُه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ فإنَّه سمّى أَصوات الطير نُطقاً، اعتباراً بسليمانَ الذي كان يَفهمُه، فمَنْ فهمَ من شيء معنى، فذلك الشيءُ بالإضافةِ إليه ناطق، وإنْ كانَ صامِتاً، وبالإضافةِ إلى مَنْ لا يَفهمُ عنه صامت، وإنْ كان ناطقاً»[1].

---

(١) المفردات: ٨١١ ـ ٨١٢ باختصار.

للمخلوقات الحية لغة خاصة يعلمها لبعض البشر:

لقد أخبرَنا اللّهُ أنَّ المخلوقاتِ كلَّها تُسبحُ الله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

وهذا معناه أنَّ المخلوقاتِ الحيةَ الأُخرى تنطق، ونَسمعُ نحنُ أَصواتَها، لكننا لا نَفهمُ عليها، ولا نَفقَهُ نطقَها.

وعدمُ فهمِنا لأَصواتِها لا يَنفي نطقَها، ولا يُلغي أَنَّ لها «لغةً» خاصةً بها، فهذه الأَصواتُ المجرَّدَةُ التي نسمعُها من الطيورِ والحيوانات ما هي إلاّ لغاتٌ معبرةٌ عن حاجات!.

وإذا كانَ اللّهُ قد حجبَ عنا فهمَ لغةِ الحيوانات والطيور، فإنه قدْ يمنحُ هذا العلمَ لبعضِ عبادِه، كما فعلَ مع سليمان عليه السلام.

لقد كانَ تعليمُ اللّهِ منطقَ الطيرِ لسليمان عليه السلامِ معجزةً خصَّهُ بها، ولم يكن بجهدِ سليمانَ وكسْبِه وتحصيلِه ودراستِه. وبما أنه معجزةٌ من الله، ومِن فعْلِ الله، فلا غرابةَ ولا استحالةَ في ذلك، لأنَّ اللّهَ يفعلُ ما شاء، ولا يعجزُه شيءٌ في السموات والأرض. وما المعجزةُ إلاّ أمْرٌ خارقٌ للعادة، لا تقعُ إلاّ على يد النبي، ويَعجزُ الآخرون عن معارضتها.

إنَّ العادةَ البشرية هي عدمُ علمِ البشرِ بمنطقِ الطيرِ والحيوانات، وعدمُ فهمِهم للغتها، ومنطقُ ولغةُ الحيواناتِ والطيور بالنسبةِ إلى البشرِ ما هي إلاّ أَصواتٌ مجردةٌ سابحة في الهواء، لا يَفقهونَ عنها ولا يفهمونها.

هذه العادةُ البشريةُ خرقَها اللّهُ لسليمان عليه السلام، عندما أَجرى له المعجزة، وعَلّمه منطقَ الطيرِ والحيوان، وكان تعليمُه له تعليماً ربانياً خاصّاً، وعلَّمَه بذلك علماً لدنياً مباشراً.

هكذا نفهمُ تعليمَ اللّهِ لسليمانَ منطقَ الطيرِ والحيوان، عندما تكونُ عقولُنا قرآنية، وأفهامُنا إيمانية.

وَتَخَيُّلُ مشهدِ علم سليمان بمنطقِ غيرِ البشر لطيفٌ ممتع. فإذا تكلمَ الجنيُّ فهمَ سليمانُ قولَه، وإذا تكلمَ سليمانُ فهمَ الجنيُّ قولَه، وإذا تكلمَ الحيوانُ فهمَ سليمانُ قولَه، وإذا تلكمَ سليمانُ فهمَ الحيوانُ قولَه، وإذا تكلمَ الطيرُ فهمَ سليمانُ قولَه، وإذا تكلمَ سليمانُ فهمَ الطيرُ قولَه.. وهكذا سمعَ سليمانُ كلامَ النملةِ وفهمَ كلامَها، وخاطبَ الهدهد وحاوَرَه، وفهمَ كلٌّ منهما كلامَ الآخر، وقامَ الهدهدُ بمهمةٍ عظيمة في الدعوةِ إلى الله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ...﴾.

قالَ الإمامَ ابنُ كثير: «أَخبرَ سليمانُ بنعم اللّهِ عليه، فيما وهَبَه له من الملكِ التام، والتمكينِ العظيم، حتى إنه سخَّر له الإنسَ والجنَّ والطير، وكان يَعرفُ لغةَ الطيرِ والحيوانِ أيضاً. وهذا شيءٌ لم يُعْطَهُ أحدٌ من البشر، فيما عَلِمناه، مما أخبرَ اللّهُ ورسولُه به»[1].

جنود سليمان من الجن والإنس والطير منظمون:

بعدما أَخبرَنا اللّهُ عن تعليمِه سليمانَ منطقَ الطير، عَرَضَتْ لنا الآياتُ مشهداً مصوَّراً لموكبٍ عسكريٍّ مهيب. سارَ مع سليمان عليه السلام: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: ١٧].

سارَ سليمانُ عليه السلام يوماً مع جيشِه العسكريِّ الكثيف، وكان جيشُه مكوَّناً من فرقٍ متناسقة، وأخبرَنا اللّهُ عن ثلاثٍ من هذه الفرق: فرقةِ الإنس، وفرقةِ الجن، وفرقةِ الطير: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ..﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٣٤٦.

ولا يَعني هذا أنَّ سليمانَ عليه السلام حكَمَ كلَّ الإنس، وكلَّ الجن، وكلَّ الطير، إنما حكَمَ طوائفَ من الإنس تمثِّلُ عالَمَ الإنس، وطوائفَ من الجن تمثلُ عالَمَ الجن، وأصنافاً من الطير تمثلُ عالَمَ الطير. وكانتْ هذه الطوائفُ جنوداً في جيشِ سليمانَ عليه السلام.

و«مِن» في قوله: ﴿جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ للتبعيض. حيث أشارتْ إلى الفرقِ الثلاثةِ التي تُكَوِّنُ جيشَه عليه السلام.

ورغمَ اختلافِ أَجناسِ الجيش، وتنوُّعِ أُصولِ الجنود، إلاّ أَنه كانَ جيشاً منظَّماً مرتَّباً متناسقاً، وكان الجنودُ من هذهِ الفرق يَسيرونَ بنظامٍ دقيقٍ محكَم. وأَشارَ إلى هذا التنظيمِ قولُه تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

قالَ الإمامُ ابنُ كثير: «المعنى: وجَمعَ لسليمانَ جنودَه من الجنِّ والإنسِ والطير، فركبَ فيهم في أُبهةٍ كبيرة، في الإنسِ وكانوا هم الذين يلونه، والجنِّ وهم بعدَهم في المنزلة، والطيرِ ومنزلتُها فوق رأسه...

ومعنى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يُكَفُّ أَوَّلُهم على آخِرِهم، لئلا يتقدَّمَ أحدٌ عن منزلته، التي هي مرتَّبةٌ له.

قال مجاهد: جَعَلَ على كلِّ صنفٍ وَزَعَة، يَرُدّون أُولاها على أُخراها، لئلا يتقدَّموا في المسير، كما يفعلُ الملوك اليوم..»[1].

و«يوزَعون» ماضيه رباعي «أَوْزَعَ». والثلاثي هو «وَزَعَ».

قال الإمامُ الراغبُ: «وَزَعْتُهُ عن كذا: كَفَفْتُه عنه. قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، وهـذا إشارةٌ إلى أَنهم مع كثرتِهم وتفاوتِهم لم يكونوا مُهمَلين ومُبعدين، كما يكونُ الجيشُ الكثير.. بل كانوا مَسوسين ومقموعين.

(١) المرجع السابق: ٣٤٧.

وقيل: حُبسَ أَوَّلُهم على آخرِهم»[1].

ووردَ في المعجم الوسيط عن معنى الوَزَع ما يلي: «وَزَعَ الإنسانَ، يَزَعُه، وَزْعاً: كَفَّه ومنعَه وحبسَه.

ووَزَعَ الجيش: رتَّبَ فِرَقَه وسَوّاهم وصَفَّهم للحرب.

وأَوْزَعَ بينهم: فَرَّقَ بينهم وأَصلَحَ. وأَوْزَعَ الشيءَ: قَسَّمَه وفَرَّقَه»[2].

ويدلُّنا قولُه تعالى عن جيش سليمان: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ على حُسْنِ تنظيمِ ذلك الجيش، فهو جيشٌ كبير، أَعدادُ جنودِه كثيرة، وهم من أَجناسٍ شتى، من الجنِّ والإِنس والطير. واجتماعُ هذه الجنودِ المتفاوتةِ مظنَّةٌ للفوضى، إذْ ضبطُهم أَثناءَ سيرِ الجيش صعب.

ولكنَّ جيشَ سليمان عليه السلام لم يكن مكاناً للفوضى، وجنودُه لم يكونوا مُهْمَلين ولا مَنسيين، كان جيشُه مرتّباً منظَّماً منسَّقاً منضبطاً، وكان قادةُ فرقِ جيشه من الجنِّ والإنسِ والطير يوزِعون الجنودَ ويُرَتِّبونهم ويُنَظِّمونهم، ويكفّونهم عن الخروج، ويمنعونَهم عن الفوضى.

وكانوا يفعلونَ ذلك بالجنود، عن طريقِ حبسِ أَوَّلِهم على آخرِهم، فيسيرُ آخرُ جنديٍّ بسيرِ أولِ جندي، ويُراعي الأولُ حركةَ الأَخير، وبذلك تتناسقُ الحركات، وتُنظَّمُ الخطوات، ويَسيرُ جميعُ الجنودِ خطواتٍ مرتَّبة منسقة، وكأنَّهم كلَّهم رجلٌ واحد.

وهذا الوزعُ والتنظيمُ والضبطُ لجيشِ سليمان مظهرٌ آخرَ من مظاهرِ حزمِه وقوةِ إدارته، وطاعةِ القادةِ والجنودِ له.

وما أجملَ تصوُّرَ منظرِ هذا الموكبِ المنظَّم المرتَّب، يسيرُ جنودُه

---

(١) المفردات: ٨٦٨.

(٢) المعجم الوسيط: ١٠٢٨ ـ ١٠٢٩.

بضبطٍ وتنظيم، ويلتفّون حولَ سليمان عليه السلام وقادةِ دولته، وهؤلاء الجنودُ ليسوا بَشَراً فقط، بل منهم إِنس، ومنهم جنّ، ومنهم طير، وعلى كل جنسٍ قادةٌ ضباط، يَضبطون جنودَهم ويَزَعونهم.

مرور جيش سليمان على وادي النمل ونصيحة النملة لقومها:

سارَ الجيشُ على هذا الضبطِ والتنظيم، ومَرّوا على وادي النمل. وأَخبرنا اللّهُ عن ما جرى فيه. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾ [النمل: ١٨ ـ ١٩].

ووادي النملِ مبهمٌ من مبهماتِ القرآن، لم يَرِدْ في تبيينِه حديثٌ صحيح، ولا يضرُّنا الجهلُ بموقعِه الجغرافي.

ولعلَّ هذا الوادي كان مشهوراً بكثرةِ بيوتِ النمل فيه، ولذلك سُمِّيَ «وادي النمل».

ودخلَ جيشُ سليمانَ الكبيرُ من الجنِّ والإِنس والطير وادي النمل، ويبدو أَنهم كانوا يريدون أَنْ يَجتازوه إِلى مكانٍ آخر...

وبينما كانَ الجنودُ المنظَّمون يَسيرون في الوادي، شاهدتْهم نملةٌ من النِّمال، وخشيتْ على أُمتها من النملِ الهلاك، فنصحَتْ أمتَها قائلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

وهذه النملةُ حكيمةٌ في نصحِها لأمتها، وفي اعتذارِها عن سليمان وجنوده.

بدأَتْ كلامَها مع النمل بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾، وهذه صيغةٌ كلُّها تحبُّبٌ للنمل، وتقرُّبٌ إِليه، ليسمعَ قولَها، ويستجيبَ لنصحها.

وطلبتْ من النملِ أنْ يَدخلوا مساكنهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾. وهي بيوتُ النمل التي يُقيمونَ فيها في باطنِ الأرض، وتَحميهم من الأَخطار.

دلالات من نصيحة النملة لقومها:

وعَلَّلت النملةُ الحكيمةُ طلبها، بأنها فعلتْ ذلك لتحميَ النملَ من الهلاكِ تحتَ أَقدامِ جنودِ سليمان عليه السلام: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾.

أي: إذا بقيتُم أيُّها النمالُ تتحركون على وجهِ الأرض فسوفَ يحطمُكم سليمانُ وجنودُه، فادخلوا بيوتَكم أماكنَ سكنكم لئلا تحطَّموا وتدمَّروا.

وحتى لا تُسيءَ أمتُها من النمالِ الظنَّ بسليمانَ النبيِّ عليه السلام وجنودِه المؤمنين، استدركت النملةُ الحكيمةُ قائلة: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

وهذه الجملةُ الاستدراكيةُ منها للاعتذار، تعتذرُ لقومِها عن أَيِّ أذى يصيبُهم من سليمانَ وجنوده، وتُبينُ أنَّ سليمانَ وجنودَه ما كانوا يريدون إِيذاءَ النمال ولا تحطيمَها، فإنْ داسوها بأقدامِهم فلأَنهم لم يشعروا بها.

وهذا يدلُّ على حرصِ النملةِ الحكيمة على الاعتذارِ عن ما قد يصدرُ عن سليمان وجنوده، وحرصِها على تبرئةِ سليمان النبيِّ عليه السلام من أَيِّ تهمةٍ قد توجِّهُها النمالُ له.

كما يدلُّ كلامُ النملةِ على حرصِها على أُمتها من النمل، وإِشفاقِها عليهم، واهتمامِها بهم، وتفكيرِها في تخليصِهم من الخطر، وإِيصالِهم إِلى بَرِّ الأمان.

فإذا كانتْ نملةٌ صغيرةٌ بهذا الاهتمامِ بالنمال، وهي حشرةٌ زاحفةٌ صغيرةٌ لا تكاد تُرى، فلماذا لا يكونُ البشرُ ذوو العقلِ والأَفهام - وبخاصةِ الزعماء والقادة - مهتمّين بالناس، حريصينَ على نصحِهم وإِبعادِ الخطرِ عنهم؟

وعندما كلمت النملةُ أمتَها بهذه النصيحة، استمعَ النملُ لها، واستجابَ لها، وسارعت النمالُ إلى دخولِ مساكنها، والاحتماءِ من الخطرِ في بيوتها.

سليمان تبسم ضاحكاً من قول النملة:

ولم يَسمعْ جنودُ سليمانَ كلامَ النملة لأمتها، لكن سليمانَ عليه السلام سمعَ كلامَها، وفهمَ مرادَها، وتأثَّرَ بنطقِها، لأنَّ اللَّهَ علَّمه منطقَ الطيورِ والحيوانات والحشرات.

ولما سمعَ ذلك: «تبسم ضاحكاً من قولها».

قالَ السمين الحلبي في «عمدة الحفاظ» عن التبسُّمِ والضحك: «البَسْمُ هو ابتداءُ الضحك، والبدءُ فيه. وقيل: هو الضحكُ من غيرِ قهقهة»[١].

ووردَ في المعجمِ الوسيطِ عن التبسم: «بَسَمَ: انفرجَتْ شفتاهُ عن ثناياه، ضاحِكاً بدونِ صوت. وهو أَخَفُّ الضحكِ وأحسنُه...»[٢].

ووردَ فيه عن الضحكِ قولُه: «ضحك: انفرجَتْ شفتاه، وبدتْ أَسنانُه..»[٣].

وقال السمين عن الضحاك: «الضحكُ أصْلُه: انبساطُ الوجه، وتكشُّرُ الأسنان، لسرورِ النفسِ وانشراحِها...»[٤].

ونسبَ القرآنُ إلى سليمان عليه السلام كُلًّا من التبسم والضحك من قول النملة، إعجاباً منه بما قالت: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

لقد كان تأثُّره بكلامِها على مرحلتين:

---

(١) عمدة الحفاظ ١:٢١٨.

(٢) المعجم الوسيط: ٥٧.

(٣) المرجع السابق: ٥٣٤.

(٤) عمدة الحفاظ ٢:٤٢٨.

الأولى: مرحلةُ التبسُّم: حيثُ انفرجتْ شَفتاه متأثِّراً مستحسناً، وكان هذا بدونِ صوت.

الثانية: مرحلةُ الضحك: حيث زادَ فرحُه وسرورُه وانبساطُه وانشراحُه، فانتقلَ من مرحلةِ التبسم إِلى مرحلةِ الضحك.

وكان ضحكُه مع هيبتِه ووقارِه عليه السلام، فلم يصلْ ضحكُه حدَّ القهقهة، ولم يُخرجْه عن وَقاره.

قال السمين: «وكانَ ضحكُ سليمان عليه السلام فَرَحاً بفضلِ الله، لِما ترتَّبَ على إِنعام الله عليه من منافعِ الدنيا والآخرة، لأنها معجزةٌ يؤمنُ بها كلُّ مَنْ عرفَها، ولم يكنْ ضحكُه أَشراً وبَطراً وسَفهاً كضحكِ بعضِ اللاهين..»[1].

وقالَ الإمامُ الزمخشري في «الكشاف» عن معنى الآية: «تبسَّمَ شارعاً في الضحك، وآخذاً فيه. يعني أنه قد تجاوَزَ حدَّ التبسُّم إِلى حدِّ الضحك.

والذي حملَه على الضحكِ من قولِها أَمران:

إِعجابُه بقولها، لأنه دلَّ على ظهورِ رحمتِه وشفقتِه هو وجنودُه، وذلك لما قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، تعني أَنهم لو شَعروا بالنملِ لما حطَّموها.

ثم سرورُه بما آتاهُ اللّهُ من نعمةِ فهمِ منطقِ الطير، حيث سمعَ كلامَها وفهمَ مرادَها[2].

ولما تبسَّمَ ضاحكاً من قولِ النملة معجَباً مستحسِناً له توجَّهَ إِلى اللّهِ بالحمدِ والشكرِ والتضرع والدعاء، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ

---

(١) المرجع السابق ١:٢١٨.

(٢) الكشاف للزمخشري ٣:٣٥٦ ـ ٣٥٧ بتصرف.

نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

معنى قول سليمان «ربي أوزعني» والتناسق مع وزع الجيش:

طلبَ سليمانُ عليه السلام من اللّهِ أنْ «يوزِعَه» ليشكرَه على نعمِه التي أنعمَ بها عليه وعلى والديه.

قالَ الإمامُ الراغب في معنى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ..﴾:

«الوزوع: الولوعُ بالشيء. يقالُ: أَوْزَعَ اللّهُ فلاناً: إذا أَلْهمهُ الشكر. وقيل: هو من أُوزِعَ بالشيء: إذا أُولِعَ به.

وقيل: معنى ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾: أَلْهِمني.

وتحقيقُه: أَوْلِعْني بذلك. واجعلني بحيثُ أَزَعُ نفسي عن الكفران...».

والخلاصةُ أنَّ معنى ﴿أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾: أَلهِمْني شكرَ نعمتِك، واجمعْني على شكرِ نعمتك، وأَوْلِعْني بشكرِ نعمتك، واصرفْني إلى شكرِ نعمتك، واحبسْني على شكرِ نعمتك، وامنعْني عن كلِّ ما يؤخرُني عن شكرِ نعمتك، وكُفَّني عن الاشتغالِ بأيِّ شيء يُلهيني عن شكرِ نعمتِك، ووجِّهْني إلى طريقٍ واحدٍ وهو شكرُ نعمتك!!!.

إنَّ سليمانَ عليه السلام يطلبُ من اللّهِ أنْ يجعلَه محبوساً على طاعته، مجموعاً في كلِّ نواحي كيانه عليها، مولَعاً في كلِّ أوقاته بها، فيكونَ مع الله ذاكراً حامداً شاكراً، في كلِّ لحظاته، وبكلِّ إمكاناته وطاقاته.

وهناك ترابطٌ واتصالٌ بين وَزع وتنظيم جيش سليمان: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾. وبينَ طلبِه أنْ يوزِعَهُ اللّهُ ليشكره: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ..﴾.

فأفرادُ الجيشِ المؤمن المجاهد «يُوزَعون» بتنظيمٍ وضبطٍ وترتيب، موجَّهون لهدفٍ واحد، وهو الجهادُ في سبيل الله.

وجميعُ جوانبِ الكيانِ في شخصيةِ سليمان عليه السلام، موزَعَةٌ منظمةٌ منضبطة، موجَّهةٌ لهدفٍ واحد، وهو شكرُ الله على نعمه.

فالجيشُ موزَعٌ للجهاد، وقائدُ الجيش وإمامُه سليمان عليه السلام موزَعٌ لشكرِ الله!!

وبهذا تناسقَ الجنودُ مع القائد، وتكاملَتْ جهودُ الجميع، واتجهتْ لهدفٍ واحد، وهو حمدُ الله وشكرُه وطاعتُه!!

نظرة في دعاء سليمان عليه السلام:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ..﴾ جملةُ «أنْ أشكر» في محلِّ نصبِ مفعولٍ به ثانٍ لفعل «أوزعني». لأنَّ المفعولَ الأول هو ياءُ المتكلم في «أوزعني». والتقدير: أَلهِمْني شكْرَ نعمتِك.

ومن مظاهرِ حمدِ سليمان وشكرِه لله اعترافُه بنعم اللّهِ عليه وعلى والديه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ..﴾.

والنعمةُ مطلقةٌ غيرُ مقيدة، وهي منصرفةٌ إلى أعظمِ نعمةٍ عليه وعلى أَبيه وأمه، وهي نعمةُ الإيمانِ والطاعةِ والذكر والشكر.

وبعدما طلبَ من اللّهِ أنْ يجمعَه على شكره، طلبَ منه أنْ يجمعَه على عملِ الصالحِ المرضيِّ المقبولِ عند الله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

فجملة: «أن أعمل صالحاً» معطوفةٌ على جملةِ «أن أشكر نعمتك».

وجملة: «ترضاه» في محلِّ نصبِ صفةٍ لكلمة «صالحاً». أي: صالحاً مرضياً.

والتقدير: ربِّ أَوزِعْني شكرَ نعمتك، وأوزِعْني عملَ الصالحِ المرضيِّ عندك.

وعطفَ العملَ الصالحَ على الشكر، من بابِ عطفِ العملِ على القول، فشكْرُه لله يكونُ بلسانه، وعملُه الصالحُ المرضيُّ عند الله، يكونُ بجوارِحِه، وبهذا تجتمعُ الناحيتان القولية والعملية فيه على هدفٍ واحد، وهو التوجُّهُ إلى الله، ويوزَعُ ويولَعُ ويُحبَسُ على تحقيقِهما وإيجادِهما: الشكرِ اللساني والعملِ المادي.

ودعوتُه الثالثة هي: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أي: ادمجْني في عبادِك الصالحين، واثبتْ اسمي مع أسمائِهم، وأَدخلني في جملتهم.

ومرادُه بعبادِ اللّهِ الصالحين الأحياءُ الذين يَعيشون معه، ويتحرَّكون حولَه، والأَمواتُ الذين عاشوا قبلَه، كآبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وداود، عليهم الصلاة والسلام.

إنه يريدُ أنْ يمنَّ اللّهُ عليه بأنْ يعيشَ مع عباده الصالحين الأحياء، ليحافَظَ على صلاحِه وذكرِه وشكرِه لله، وإذا ماتَ أنْ يُثبتَ اسمَه مع عبادِه الأموات، ليُذكَرَ معهم، ويكونَ تاريخُه تاريخَهم.

وفي الآخرةِ يريدُ أنْ يُدخلَه اللّهُ الجنةَ مع عباده الصالحين، ليكون فيهم وبينهم ومعهم، منعَّماً بالنعيم.

وبذلك يجمعُ خيري الدنيا والآخرة، ويكونُ دائماً مع الصالحين.

ويُعطينا هذا الدعاءُ الخاشعُ المنيبُ من سليمان عليه السلام درساً عظيماً، وعبرةً بالغة.

فاللّهُ آتاه ما لم يُؤتِ أَحداً من العالمين، وجمعَ له في جيشه فِرَقاً من الإنسِ والجنِّ والطير، وسخَّرَ له الريح، وعلَّمه منطقَ الطير، وأَسالَ

له عينَ النحاس، وهيّأ له مختلفَ الصناعات الحديدية والنحاسية، ولا يوجَدُ ملكٌ أَو حاكمٌ في الدنيا أُوتي كما أُوتي.

ومع ذلك لم يُغْرِهِ هذا الملكُ والسلطان، ولم يَقُدْه إِلى التكبرِ والبطر، ولا إِلى الفجورِ والاستعلاء، ولا إِلى الظلم والاستبداد، كما يفعلُ بعضُ الحكام الذين يمنحهم اللّهُ بعضَ مظاهرِ الملك والسلطان والتمكين.

لقد ازدادَ سليمانُ عليه السلام تواضُعاً لله، وذكْراً وشكْراً وحمداً لله، ورحمةً بعبادِ الله، وإِقبالاً على الله، وإِيثاراً لما عندَ الله، وطلباً لجنةِ الله. وجعلَ هدفَه هو: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

[٧]

قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ

بعدما سمعَ سليمانُ عليه السلام كلامَ النملة، وتبسَّمَ ضاحكاً من قولِها، ودعا اللّهَ وذكرَه وشكرَه، تابعَ الجيشُ سيرَه في وادي النمل، بفرقهِ الكبيرةِ من الجنّ والإنسِ والطير.

وكان سليمانُ عليه السلام مشرِفاً على هذا الجيش الكثيفِ إِشرافاً مباشراً، يتفقدُ الجنود، ويراقبُ أداءَهم، وهذا من مظاهرِ قوتِه وحزمِه وحسنِ إِدارتِه، وهي من لوازمِ كونه خليفةً ملكاً عليه الصلاة والسلام.

حزم سليمان وعدله في تهديده للهدهد:

قامَ سليمانُ عليه السلام بتفقُّدِ الجنودِ من الجن والإنس والطير، ولما جاء دورُ الطيرِ اكتشفَ غيابَ الهدهد!

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢١].

والهدهدُ طيرٌ من الطيورِ معروف. ويبدو أَنه كان له مهمةٌ وشأنٌ في جيشِ سليمان عليه السلام، لا نحدِّدُها لعدمِ وجودِ نصوصٍ نعتمدُ عليها في ذلك.

ولما لم يَرَ سليمانُ عليه السلام الهدهدَ في صفِّ الطير قال: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾: لماذا لا أَرى الهدهدَ في موقعِه؟

﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾؟ حرفُ «أمْ» هنا بمعنى «بل»، وتسمّى «أم المنقطعة»، وتدلُّ على إِلغاءِ الكلامِ السابق، والانتقالِ إِلى كلامٍ جديد. والتقدير: بل كانَ من الغائبين.

والمعنى: عندما لم يجد الهدهدَ في مكانِه قال: لماذا لا أَرى الهدهد؟ ثم عرفَ أَنه غابَ بدونِ إِذنٍ منه، فألغى سؤالَه، وقررَ أَنه غائب، فقال: إِنه من الغائبين.

لقد غابَ الهدهدُ عن الجيش بدونِ إِذنٍ ولا إِجازةٍ من سليمان عليه السلام. وهذا معناه أنه ما كان جنديٌّ من الجنودِ يغادرُ موقعَه ويَغيبُ إلاّ بعدَ أنْ يحصلَ على إذنٍ من سليمان عليه السلام، سواء كان هذا الجنديُّ من الجنِّ أم من الإنسِ أم من الطير!

وهذا دليلٌ آخرَ على حزمِ سليمان عليه السلام، وقوةِ إِدارتِه في حكمه، بحيث كان يضبطُ الأُمورَ ضبطاً دقيقاً، ولا يسمحُ بفوضى أَو تَسيُّبٍ في جنوده.

وتجلّى حزمُ سليمانَ وشدتُه في قولِه: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ..﴾ إنه لا يتساهلُ حتى مع الهدهد، فكيف سيتساهلُ مع الإنس؟

إِمّا أنْ يعذبَه عذاباً شديداً، مع بقائِه حياً، وإِمّا أنْ يَذبحَه ويقتلَه.

وسليمانُ عليه السلام عادلٌ وليس ظالماً للهدهد، سواءٌ عَذَّبه أمْ

ذبحَه، لأنَّ الحزمَ والضبطَ في الإدارةِ والحكمِ يستدعي الشدةَ في الحكم.

ورغمَ أنَّ تهديدَ سليمانَ عليه السلام كان شديداً، إلاّ أنه لم يغلق البابَ أمامَ عذرٍ مقبولٍ مقنع يقدمُه الهدهدُ عند عودته، فقد يكون لغيابه سببٌ مشروع، ولهذا قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

والمرادُ بالسلطانِ المبين العذرُ البينُ الواضحُ المقبول.

واستدراكُ سليمانَ عليه السلام يدلُّ على أنَّ من لوازمِ الحزمِ والضبطِ العدل، وإعطاءَ الفرصة للمتهم ليبينَ حجتَه، والدفاعَ عن نفسه، وعدمَ معاجلته بالعقوبة، فلا يعاقَبُ المتهمُ إلاّ بعد ثبوتِ إدانته، أمّا إذا قدَّم حجةً وعذراً فلا بدَّ أنْ يُقبلَ منه.

ولا ننسَ ظهورَ الحزمِ والضبطِ والشدةِ في تعبيرِ القرآن عن الحادثة، حيث جاءتْ صياغةُ الأفعالِ الثلاثة هكذا: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ حيث وردتْ لامُ القسم ونونُ التوكيدِ الثقيلة في كلِّ فعلٍ منها.

الهدهد يقدم خبر سبأ بعزة:

وبعد فترةِ غيابٍ عادَ الهدهدُ إلى الجيش، ودخلَ على سليمان عليه السلام مباشرة، ليقدِّمَ له السلطانَ المبين، والعذرَ المقبول عن غيابه: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: ٢٢].

معنى قوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: مكث غائباً زماناً قصيراً، لأنه ذهبَ إلى مكانٍ غير بعيد.

ولما دخلَ على سليمانَ عليه السلام خاطبه بجرأةٍ ووضوح، وقال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

تأمَّلْ شجاعةَ وجرأةَ هذا الهدهدِ العجيب: لقد غابَ عن الجيش

بدونِ إذن، وهو يعلمُ حزمَ وشدةَ سليمان عليه السلام، ولعلَّه سمعَ بتهديدِ سليمان الشديدِ له، ومع هذا دخلَ عليه بعزة، وخاطبه بجرأة، ولم يضعفْ أو يذلّ أو يجبن.

فعلَ ذلك لأنه يعلمُ عدلَ سليمان وحكمتَه، وأنه لا يُظلمُ عنده، كما أنه يعلمُ أنَّ غيابَه كان بمهمةٍ علميةٍ دعوية، تمنحهُ عذراً مقبولاً.

قال الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾: علمتُ أنا ما لم تعلَمْه أنت، ووقفْتُ على ما لم تقفْ أنتَ عليه، وقدَّمْتُ لك معلوماتٍ مهمةً عن سبأ.

وشاءتْ حكمةُ اللّهِ الحكيم سبحانه أنْ يقدِّمَ الهدهدُ خبرَ سبأ لسليمان عليه السلام، مع أن سليمانَ نبيٌّ رسول، يُعَلِّمه اللّهُ ما يشاء، ومع أَنه وهبهُ ملكاً خاصاً، وسخَّر له الإنسَ والجن والطير، ومع ذلك فهناك أشياء لم يعرفْها، وأماكنَ لم يُحِطْ علماً بها.

شاءَ اللّهُ الحكيمُ ذلك، ليخبرَنا أنه مهما تقدَّمَ علمُ الإنسان، فسيبقى جاهلاً بالكثير، وأنه حتى أَنبياءُ الله ورسلُه عليهم الصلاة والسلام لم يعلموا كلَّ شيء، وهذا مظهرٌ من مظاهرِ بشريتهم، القائمةِ على الضعف والعجز.

وشاءَ اللّهُ الحكيمُ أن يأتيَ علمُ سليمان عليه السلام بسبأ على يدِ طير، وليس على يدِ إِنسانٍ عاقلٍ عالمٍ باحث!

وحتى يقدِّمَ الهدهدُ الدليلَ على غيابه وإِحضارِه أخباراً جديدة، قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

أي: عندي نبأٌ يقين، وخبرٌ جازم، وعلمٌ قاطع، يتعلق بسبأ، أرضاً وشعباً وملكةً وعرشاً.

وقد فصَّلَ الهدهدُ نبأَهُ اليقينيُّ المتعلقَ بسبأ بعدَ ذلك. ودلَّ هذا على حرصِ الهدهد على صحةِ أَنبائه، والتوثقِ والتأكدِ من أخباره، فقد

ذهبَ وبحثَ واستكشف، وجمعَ المعلومات الصادقة، وتأكَّدَ منها، ثم قدَّمَها لسليمان عليه السلام.

و«سبأ» اسمُ مكانٍ جنوبَ غربِ الجزيرة العربية، وهو اليمنُ حالياً، سُميَ باسم «سَبَأ بنِ يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان»[1]، وهو الذي تفرَّعَتْ عنه قبيلةُ سبأ، التي كانت تقيم في تلك المنطقة.

لقد وصلَ الهدهدُ إلى سبأ، وجاءَ منها بنبأ يقين!

رحلة الهدهد المعجزة من فلسطين إلى اليمن:

من أَين جاءَ الهدهدُ إلى سبأ؟ جاءَ من مقرِّ سليمانَ عليه السلام، وكان مقرُّ سليمانَ في الأرض المقدسة، وكانت عاصمتُه بيتَ المقدس.

ما معنى هذا؟

سافرَ الهدهدُ من بلادِ الشامِ إلى بلاد اليمن! وانتقلَ من بيت المقدس عاصمةِ سليمان عليه السلام، إلى «مأرب» عاصمةِ سبأ في اليمن!

إنَّ المسافةَ بين فلسطين واليمن تقاربُ الألفَيْ كيلومتر! وهي مسافةٌ بعيدة! وتفصلُ بينهما بقاعٌ كثيرة: نجران وعسير والحجاز ومدين! ومع ذلك سافرَ الهدهدُ وحيداً من فلسطين إلى اليمن!

واللطيفُ في التعبير القرآني أنه قالَ عن غيبةِ الهدهد: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

وهذه العبارةُ القرآنيةُ تشيرُ إلى تقصيرِ فترةِ غيابِ الهدهد عن جيش سليمان زمنياً، وتقصيرِ المسافةِ بين فلسطين واليمن.

كيف قال: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مع أنَّ المسافةَ تقاربُ الألفي كيلومتر؟ وكيف يقللُ زمانَ غيابِه مع أنه في الوضعِ العادي يحتاجُ إلى شهور لقطعها؟

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣:٣٥٩.

إن هذه الجملةَ ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تدلُّ على معجزةٍ ربانية في قطعِ الهدهدِ للمسافة بين فلسطين واليمن. فلم يقطعْها بالطيرانِ العادي والرحلة العادية، لأن هذا يحتاجُ منه إلى شهور.

إن اللّهَ هو الذي جعلَهُ يقطعُها، وهو الذي طوى له المكانَ والطريق، وجعله يجتازها في فترةٍ زمنية قصيرة، ويعودُ في فترةٍ زمنية يسيرة، ولهذا صارت اليمنُ ـ بهذه المعجزةِ الربانية ـ قريبةً من فلسطين، وليستْ بعيدة، بينما هي بعيدةٌ في الحسابِ البشري للمسافر العادي.

ولا ننسىٰ أنَّ اللّهَ سخَّرَ الريحَ لسليمانَ عليه السلام، غدوُّها شهر، ورواحُها شهر، أي أنها كانتْ تقطعُ مسيرةَ شهريْن في يوم واحد، وقد يكونُ لهذه الريحِ العاصفةِ السريعة دورٌ في حملِ الهدهدِ إلى اليمن، ثم إِعادتِه إلى فلسطين!!

وإذا كانَ ذلك كذلك، فلعلَّ غيبةَ الهدهد لم تستمر أكثرَ من يومين، يوم للذهاب، ويوم للإياب، ويكون في هذيْن اليومين قد قطعَ مسافةً طويلةً، يقطعها غيره في أربعة أشهر!!

المهمُّ أنَّ الأمرَ معجزةٌ خارقةٌ من فعلِ اللّهِ سبحانه وتعالى.

تقرير الهدهد عن مملكة سبأ:

وبعدما أَخبرَ الهدهدُ سليمانَ عليه السلام عن سبب غيابه، قدَّمَ له تقريراً عن «سبأ» أرضاً وشعباً وملكةً وعرشاً وديانة.

وقد أخبرَنا اللّهُ عن تقريرِ الهدهدِ بقوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٣ ـ ٢٦].

وتقريرُ الهدهد منظَّمٌ منسَّقٌ متكامل، عرضَ فيه خلاصةَ واقعِ سبأ، ثم عقَّبَ عليه تعقيباً، يرفضُ فيه ما هم عليه من ضلال.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾: كان نظامُ دولةِ سبأ ملكياً، وفي ذلك الوقت كانتْ ملكتُهم امرأة، وشاهدَ الهدهدُ تلك الملكةَ المرأة.

وكلمة «امرأة» في الآية نكرة، وهذا التنكيرُ للإبهام، حيث لم يَذكر القرآنُ اسمَ هذه الملكة، كما لم يَرِدْ اسمُها في حديثٍ صحيحٍ عن رسول الله ﷺ.

وقد ذهبَ المؤرخون والإخباريّون إلى تحديدِ اسم الملكة، وتحديدِ نَسَبها، لكننا نتوقف في اعتمادِ كلِّ ذلك، ونُؤْثِرُ أنْ نُبقيَ ما أَبهمه القرآنُ على ما هو عليه.

وكانت ملكةُ سبأ حكيمةً عاقلة، حصيفةً هادئة، كما سنرى من أحداث القصة.

﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ..﴾: أمعنَ الهدهدُ الباحثُ نظره في أَحوالِ الملكة، وفي مظاهرِ ملكها، فوجدَ عندَها الكثير، ولهذا قال: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

أي: أُوتيتْ من كلِّ شيءٍ من متاع الدنيا، مما يحتاجُ إِليه الملك في ملكه، ويؤدي إِلى تقوية الملك ومتانته.

إِنَّ قولَه: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يدلُّ على أنَّ مملكةَ سبأ كانت قويةً غنيةً مزدهرة في ذلك الوقت، تمتعُ بالكثيرِ من مظاهرِ الخير والرفاه، فها هي ملكتُهم أُوتيتْ من كل شيء، من أنواعِ المتاع الدنيوي.

﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾: من مظاهرِ اهتمامِ الهدهد بالبحث، ودقةِ نظره، ملاحظتُه عرشَ ملكة سبأ، ووقوفُه على عظمتِه وضخامته.

وقد أخبرَ سليمانَ عن العرش بقوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. ويكفي تصوُّرُ مدى عظمةِ العرش من خلالِ التنوينِ في الكلمتين: ﴿عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. ولسنا بحاجةٍ إلى افتراضِ مظاهرَ مادية موضوعةٍ لعظمةِ هذا العرش، والكلامِ عن مقاساته طولاً وعرضاً وارتفاعاً، وعن المادةِ المصنوع منها، وعن الذهبِ والجواهر واللآلئ التي زُينَ بها، لسنا بحاجةٍ إلى هذه التفصيلات المفترضة، فنبقى مع قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

وبعدما لخَّص الهدهدُ واقعَ المملكةِ بحكمة ـ مملكة، تحكمها امرأة، والمملكةُ قويةٌ غنية، وملكتُها لها عرشٌ عظيم ـ انتقلَ للحديثِ عن دينِ سكانها، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

والضميرُ يعودُ على الملكة، أي: وجدتُ ملكةَ سبأ وقومَها يسجدون للشمس من دون الله، فالقومُ كانوا كفاراً مشركين بالله، يتخذون الشمسَ إلهاً، يؤلِّهونها ويعبدونها ويَسجدون لها، ولا يؤلِّهون اللّهَ ولا يسجدون له.

والتفاتُ الطائرِ الهدهدِ إلى معرفةِ دين القوم، دليلٌ آخرُ على حكمتِه ولباقته، وعلى اهتمامِه بالدين الحق وبغضِه للباطل.

تعقيب الهدهد العقيدي على كفر سبأ:

ولم يكن الهدهدُ مجردَ جامعِ معلوماتٍ دقيقة، ومقدِّمِ تقاريرَ صحيحة ـ رغمَ أهميةِ ذلك ـ إلاّ أنه كان صاحبَ فكرٍ ورأي، وموقفٍ وقرار، ودعوةٍ وقضية، مع أنه هدهدٌ طائر!!

ولذلكَ شفعَ تقريرَه بتعليقِه وتعقيبه على الحادثة، وسجَّلَ تفاعُلَه وتأثُّرَه بما رأى، وغيرتَه على الحقِّ الذي تركوه، وإنكارَه للباطل الذي اتبعوه، فقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

إنَّ الشيطانَ هو الذي زيَّنَ لقومِ سبأ الكفارِ أعمالَهم السيئة،

وأَراهم إياها حسنة، فتفاعلوا بها، وصَدَّهم بذلك عن سبيلِ الحق، وساروا في طريقِ الباطل، والنتيجةُ أَنهم لا يهتدون، لأنهم لا يُريدون أنْ يهتدوا، لاختيارِهم الكفرَ والضلال، وسنةُ الله أَنَّ مَن اختارَ الضلال فإنَّ اللّهَ لا يهديه.

وتابعَ الهدهدُ تعقيبَه العقيديَّ على الحادثة فبيَّنَ أَنَّ الأصلَ لقومِ سبأ أنْ يسجدوا لله، لا للشمس: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾.

اللّهُ وحده المعبود، ويَنْبَغي أن يكون له وحده السجود، لأنه الخالقُ الرازقُ العالم العظيم، وغيرُه ليس كذلك، فكيفَ يكونُ إلهاً معبوداً؟

اللّهُ هو ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. والخَبْءُ هو: المخبوءُ في السموات وفي الأرض.

قالَ ابنُ عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: يَعلمُ كلَّ خبيئةٍ في السموات والأرض.

وقال عبد الرحمن بن زيد: خَبْءُ السموات والأرض: ما جعلَ فيهما من أرزاق؛ المطرُ من السماء، والنباتُ من الأرض[1].

وتقديمه الأدلة على وحدانية الله:

ومن التناسقِ في التعبير القرآني أنه في معرضِ الاستدلالِ على وحدانية الله في هذه الآية، ذكرَ من كلامِ الهدهد ما يتفقُ مع اهتمامِه وفهمه وحياتِه.

فالهدهدُ عرفَ اللّهَ من خلالِ معرفتِه علمَ الله بالخبءِ في السموات والأرض، وإخراجِ اللّهِ للمخبوءِ في السموات والأرض. وهذا

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣:٣٤٩.

يتفقُ مع عملِ الهدهدِ وسعيه في الرزق، فالهدهدُ يقومُ بالبحث عن المخبوء في الأرض من الحبوب وغيرها، ويفتشُ بمنقاره عن ذلك المخبوء المدفون، ثم يخرجُه ويأكلُه.

وبعدما أَبرزَ التعبيرُ القرآني اهتمامَ الهدهد بمخبوء الأرض، انتقلَ للحديثِ عن دليلِ الوحدانية في حياةِ البشر: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾. فاللّهُ وحده يعلمُ ما يُخفيه الناس وما يُعلنونه، والمعبودون من دونه لا يعلمون ذلك، فكيفَ يكونون آلهة؟

واجتماعُ الدليلين: إخراجُ اللّهِ الخبء، وعلمُه بما يخفيه الناسُ ويعلنونه، يدلُّ على أنه وحدَه الإلهُ المعبود: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾.

ولما ذكرَ الهدهدُ عرشَ ملكة سبأ العظيم، ناسبَ أنْ يذكُرَ عرشَ اللّهِ العظيم: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

فأينَ عرشُ ملكةِ سبأ الذي تَحويه غرفة صغيرة، من عرشِ الله الذي لا يعلمُ صفاتِه ومقاساتِه إلاّ الله؟ وأينَ عظمةُ عرشها وهو صغيرٌ من عظمةِ عرشِ الله؟.

ملكةُ سبأ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ هو منحةٌ من الله لها، وهو صغيرٌ محدودٌ محصور، وستُسلبُ هي هذا العرش عندما يزولُ ملكُها عنها، وسوفَ يبيدُ هذا العرش وينتهي ويتلاشى!

أمّا عرشُ الله العظيم، فهو عظيمٌ فعلاً، يملكُه اللّهُ مالك الملك، وهو قائم مستمر في الدنيا والآخرة.

ونرى في تعقيبِ الهدهدِ على الحادثة حكمتَه وعلمَه، فعنده علمٌ إيمانيٌّ راسخ، إنه يعلمُ الحقَّ والباطل، وسبيلَ الهدى والضلال، ومَن يعبدُ الله ويسجدُ له، ومَنْ يعبدُ غيرَه ويسجدُ له، والإيمانَ والكفر، وإبليسَ ونجاحَه في صدٍّ وإغواء أَتْباعِه، ويُحسنُ عرضَ الأدلةِ الربانية لإثبات الوحدانية، ونفي الشرك.

حكمة سليمان في التأكد من معلومات الهدهد:

سمعَ سليمانُ عليه السلام من الهدهد أَخباراً عجيبة عن بلادٍ جديدة لم يكنْ له علمٌ بها، وعن نظامِ الحكم فيها، وعن دينِ أهلها.

وتعاملَ سليمانُ عليه السلام مع أخبار الهدهد بحكمتِه المعروفة، فلم يسارعْ إِلى تصديقِه وقَبول أَخبارِه، ولا إِلى تكذيبه ورفضِ أَخباره. قال تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل: ٢٧].

أي: سنختبرُ كلامَك لنرى أَصِدْقٌ هو أَمْ كذب، وسنتأكَّدُ من ذلك.

ويدلُّ هذا الموقفُ من سليمان عليه السلام على الموضوعيةِ والمنهجية، التي يجبُ أنْ ينظرَ بها الإنسانُ إِلى الأَخبار الجديدة التي يَسمعها، فالمسارعةُ بقبولها سذاجة، والمسارعةُ بتكذيبها جهلٌ وعناد. فلا بدَّ للإنسانِ أَنْ يتمهَّل، وأنْ يتثبَّتَ ويتبينَ من تلك الأخبار، وأنْ يفحصَها ويتأكَّدَ منها، وبعد ذلك يأخُذُها إنْ ظهرَ له صدقُها، أو يرفضُها إنْ ظهرَ له كذبها، ولا يُلامُ على موقفه.

تثبَّتَ سليمانُ عليه السلام من كلامِ الهدهد فظهرَ له صدقُه.

وبعدَ ذلك كانت الخطوةُ التالية، وهي الخطوةُ التي تتفقُ مع إيمانِ سليمان عليه السلام ودعوتِه إلى الله.

إنَّ سليمانَ عليه السلام يكتشفُ بلاداً جديدة، بينَه وبينها حوالي ألفيْ كيلومتر، بلادٌ غنيةٌ قوية، لكنَّ أهلَها كفار، يعبدونَ الشمسَ من دون الله.

مهمة الهدهد الدعوية في سبأ:

فما موقفُ النبيِّ الرسولِ الداعيةِ عليه الصلاة والسلام من ذلك؟

موقفُه هو تبليغُهم الدعوة، بحيثُ يدعوهم إلى الإسلام، وينكرُ عليهم الكفر، ولا بدَّ أنْ يكونَ للهدهد دورٌ في ذلك.

كتبَ سليمانُ عليه السلام كتاباً إلى قوم سبأ، ضمنَه دعوتَهم للدخولِ في الإسلام، وطلبَ من الهدهد أنْ يحملَه إليهم. قال تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل: ٢٨].

وتكليفُ سليمانَ عليه السلام للهدهد واضح، والخطواتُ المطلوبةُ منه بيِّنة. فقد أمرَه بأربعةِ أوامر.

الأول: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا﴾: أمره بحملِ كتابه الموجَّهِ إلى سبأ، والتوجُّهِ من فلسطين إلى اليمن.

وحمَلَ الهدهدُ الكتاب، وسارَ إلى اليمن، وقطعَ المسافةَ الطويلة بوقتٍ قصير، وكان هذا بأمرٍ من الله، آيةً من آياته، ومعجزةً من معجزاته.

الثاني: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾: عندما يصلُ إلى عاصمة سبأ، عليه أنْ يتوجَّهَ إلى قصر الملكة، وأنْ يلقيَ الكتابَ إليها.

الفاءُ في «فَأَلْقِهْ» حرفُ عطف، عطفتْ هذا الفعلَ على الفعلِ السابق «اذهب».

و«أَلْقِ» فعلُ أمر، مبنيٌّ على حذفِ حرف العلة، لأنه معتلٌّ بالألف «ألقى».

والفاعلُ: ضمير مستتر تقديره أنت.

والهاء الساكنة: تعودُ على الكتاب، ضميرٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به.

الثالث: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: أَمَرَه بعدَ أنْ يلقيَ الكتاب، أنْ يبتعدَ عنهم قليلاً، بحيث يرى أثرَ الكتابِ على الملكة ومستشاريها.

و«تَوَلَّ» فعلُ أمر مبنيٌّ على حذفِ حرف العلة، ماضيه «تولّى».

الرابع: ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾: أَمره أنْ يُحسنَ مراقبةَ الأمر،

وتسلسلَ الأحداث، وأنْ يعرفَ أثرَ الكتابِ فيهم، وأنْ يقفَ على جوابهم وردِّهم عليه.

وهذه الأوامرُ الأربعةُ للهدهد توحي بالمهمةِ الدعويةِ الموكلة إليه، إنَّ الهدهدَ مأمورٌ بالتصرف في هذه المهمة بمنتهى الموضوعية، وكأنَّه إنسانٌ عاقلٌ واعٍ حكيم، وليس طائراً من الطيور.

وهذا يشيرُ إلى أنَّ الأمرَ معجزةٌ من الله سبحانه، وأَداءُ الهدهدِ لهذه المهمة، وتنفيذُه لهذه الأوامرِ الأربعة معجزةٌ من الله سبحانه.

نظرة في نص كتاب سليمان إلى ملكة سبأ:

حملَ الهدهدُ كتابَ سليمانَ عليه السلام، ووصلَ قصرَ ملكةِ سبأ، وأَلقى الكتابَ إِليها، وصارَ يراقبُ التطورات.

رأت الملكةُ الكتاب، وفتحتْه، وقرأتْه، إِنه موجَّهٌ من سليمان عليه السلام إِليها وإِلى قومِها، يدعوهم فيه إِلى التخلي عن الكفر، والدخولِ في الإِسلام.

ونصُّ الكتاب هو:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وهذا الكتابُ مختصرٌ اختصاراً مفيداً، وهو أَشبهُ ما يكون ببرقيةٍ موجزة، حملَها الهدهدُ إِلى قومِ سبأ.

وقد بدأَ سليمانُ كتابَه بالبسملة، وهذا يدلُّ على أنَّ البسملةَ كانت معروفةً في عهدِ سليمان النبيِّ الرسولِ عليه الصلاة والسلام، وهي معروفةٌ عندهم بلغتهم، وكتبَها سليمانُ عليه السلام بلغته.

ولا غرابةَ في هذا، فإِنَّ «بسم الله الرحمن الرحيم» خلاصةُ الإِيمانُ، والإِيمان عند جميعِ الأَنبياء والمرسلين واحد، لا اختلافَ

بينهم فيه، ولهذا كانت خلاصةُ كلِّ رسالةٍ في البسملة. وليس هذا موضعَ تفصيلِ القول في هذا الموضوع.

ومن أجلِ هذا بدأَ سليمانُ عليه السلام كتابَه بالبسملة.

و«أنْ» في «أن لا تعلو عليّ» هي «أن» التفسيرية، وما بعدَها تفسيرٌ للمطلوب، وبيانٌ لهدفِ سليمانَ من كتابه.

و«لا» حرفُ نهيٍ وجزم.

و«تَعْلوا» مضارعٌ مجزوم بحرف النهي، وعلامةُ جزمه حذفُ النون، لأنه من الأفعالِ الخمسة.

و«تعلوا» بمعنى: تتكَبَّروا. تقول: عَلا، يعلو: بمعنى: ارتفع وهو واردٌ في القرآن بمعنى التكبر، وهو «عُلُوٌّ» نفسي في نفسِ المتكبر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤].

وقال تعالى لبني إسرائيل: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

يَنهىٰ سليمانُ عليه السلام قومَ سبأ عن التكبرِ عليه أو رفضِ دعوته.

ثم يأمرهم بالدخولِ في دينه، وهو الإسلام، وهذه الدعوةُ صريحةٌ في قوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

واللطيفُ في دعوةِ سليمان عليه السلام لهم أَنه يَدعوهم إلى الإسلام.

ولا يستغربَنَّ أحدٌ هذه الدعوة، فقد يُشكلُ الأمرُ ويلتبسُ على بعضهم، لأنَّ سليمانَ عليه السلام إسرائيلي، يحكمُ بني إسرائيل بالتوراة والزبور، وقد عاشَ وماتَ قبلَ الإسلام الذي جاءَ به محمدٌ ﷺ، فكيفَ تصرحُ الآيةُ بأنه يدعوهم إلى الإسلام؟

إنَّ الإسلامَ هو دينُ كلِّ نبيٍّ من الأنبياء، وخلاصةُ دعوةِ كلِّ رسول، فكلُّ نبي جاءَ بالإسلام، الإسلام بمعناه العام.

ثلاثة معان للإسلام في القرآن:

إنَّ الإسلام له ثلاثةُ معانٍ في القرآن:

الأول: الإسلامُ بالمعنى العام، وهو دينُ كلِّ المخلوقاتِ الحية وغيرِ الحية، فكلُّ ما في الوجود «مسلم»، أي: مستسلمٌ خاضعٌ منقادٌ إلى الله.

وعلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

ومعنى ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: كلُّ مخلوقٍ في السموات والأرض أسلمَ واستسلمَ وخضعَ وانقادَ إلى الله.

الثاني: الإسلامُ بالمعنى التاريخي: وهو دينُ كلِّ نبيٍّ ورسول، فكلُّ نبي مسلم، وجاءَ بالإسلام، ودعا الناسَ إلى الإسلام، وأَتباعُه يسمون «مسلمين».

هو عنوانُ كلِّ دينٍ ورسالة لأنَّ هدفَ كلِّ رسول خضوعُ الناس لله، وخلاصةَ كلِّ دين هي استسلامُ الناس لله، وهذا هو روحُ الإسلام.

وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢].

الثالث: الإسلامُ بمعناه الخاص: وهو دينُ الإسلامِ وشريعتُه،

الذي جاءَ به محمدٌ ﷺ، خاتمُ الأنبياء والمرسلين، والذي انتهت إليه رسالاتُ كلِّ الرسل، والذي نسخَ اللّهُ به الأديانَ السابقة، وطالبَ الناسَ جميعاً أن يعتنقوه، وأَخبرَ أنه هو الدينُ الوحيدُ المقبولُ عند الله، وأنَّ مَنْ لم يعتنقْه فهو كافر.

وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

بعدَ هذا التلخيصِ الموجز لمعنى «الإسلام» في السياقِ القرآني، نعرفُ أنَّ سليمانَ عليه السلام جاءَ بالإسلام ـ بمعناه التاريخي العام ـ وأنَّ دينَه هو الإسلام، وأنَّ دعوتَه هي دعوةٌ إلى الإسلام، وأنَّ هدفَه هو استسلامُ الناس وخضوعُهم وانقيادُهم لله.

ولهذا طلبَ في كتابِه الموجزِ إِلى قومِ سبأ منهم الدخولَ في الإسلام، وقالَ لهم: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

واللطيفُ أنَّ سليمانَ عليه السلام جمعَ في كتابه بين النهيِ والأمر، حيثُ نَهاهم عن الاستكبار والاستعلاءِ والعناد: «لا تعلوا عليَّ». ثم أَمرهم بالدخولِ في الإسلام: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

ملكة سبأ تستشير الملأ من قومها:

قرأتْ ملكةُ سبأ كتابَ سليمانَ عليه السلام، وفهمتْ قصدَه منه. وهي تسمعُ باسم سليمان، وتعرفُ مَنْ هو، وتدركُ مظاهرَ قوته، المتمثلةِ في تسخيرِ الجنِّ والإنسِ والطير له، وتقفُ على مظاهرِ تقدُّمِ دولتِه المادي.

وبهذا عرفَتْ أنها مُقْدِمَةٌ هي وقومُها على أَحداثٍ خطيرة لها ما بعدها، حيثُ قصدَها حاكمُ أَقوى دولةٍ في عهدها، فكيفَ تتصرف؟ وبماذا تجيبُ على دعوةِ سليمان؟ وبماذا تردُّ على كتابه؟

إنَّ الأمرَ أكبرُ وأخطرُ من أنْ تقضيَ فيه بنفسها، أو تحسمَه بمفردِها، ولا بدَّ من مشاركةِ وجوهِ القوم فيه، واستشارتِهم في الردِّ والجواب، والاتفاقِ معهم على التصرفِ المناسب.

لذلك دعتْ هؤلاء الملأَ المستشارين، وعرضت الأمرَ عليهم. قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣٢].

وصفت الملكةُ الكتابَ بأنه كريم، لأنه كتابٌ من ملكٍ معروف، موجَّهٌ إلى ملكةٍ معروفة، وهذا من لباقتِها وكياستِها.

ثم فصَّلَتْ قصةَ الكتاب، بأَنه من سليمانَ النبيِّ الرسولِ عليه الصلاة والسلام، وأَنه يدعوها وقومَها للدخولِ في الإسلام، وتلَتْ عليهم نص الكتاب.

وبعدَ ذلك طلبتْ منهم الرأيَ والمشورة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾. أيْ: أَشيروا عليّ، وقدِّموا لي التصرفَ المناسب في هذا الأمرِ المفاجئ، فماذا نتصرف؟ وماذا نفعل؟ وكيف يكونُ ردُّنا على كتابِ سليمان؟

وتابعتْ طلبَ الفتوى والمشورة بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾. أي: لا أَقومُ بتصرف، ولا أُصدرُ حكماً، ولا أَقطعُ أَمراً، ولا أَخطو خطوة، إلاّ بعدَ وضعِكم في الصورة، وإِطلاعِكم على القضية، وسماعِ آرائكم وفتاواكم، والاستفادةِ مما عندكم من تحليلاتٍ وخبرات.

فأَشيروا عليَّ المشورةَ المناسبةَ في هذه الحادثة.

إنَّ هذا الموقفَ من الملكة، وإِخبارَها ملأَ قومِها بتفاصيلِ حادثةِ

الكتاب، وطلبَها الرأيَ والمشورة منهم، وإعلانَ حرصِها على ذلك، يدلُّ على طبيعةِ نظامِ الحكم في سبأ، الذي كانت تمارسُه تلك الملكة.

لقد كان حكماً متكاملاً، يقومُ على مشاركةِ وجوهِ القوم وزعمائِهم للملكة في إدارةِ أمورِ البلاد، وكانت تحيطُ نفسَها بهؤلاء الملأ المتنفذين المستشارين، وتَعرضُ عليهم القضايا، وتَسْتَشِيرُهُم في المشكلات، وتحرصُ على سماعِ آرائهم، والاستفادةِ منها، واعتمادِ المناسبِ منها.

وهو أشبهُ ما يسمّى بنظامِ الحكم «الديمقراطي» في هذا العصر!!

وهذه مزيةٌ تسجَّلُ لنظامِ الحكم في سبأ في ذلك الزمان البعيد، باعتبارِ سبأ مملكةً عربيةً أُقيمتَ في بلَاد اليمن، ونشأَ نظامُ حكمِها على مشاركة الملأ والوجوهِ للملكة في الحكم والقيادة.

مزيةٌ تسجَّلُ لهم رغمَ كفرهم بالله، ولهم سبق زمنيٌّ في هذا النوعِ من الحكم.

ملكة سبأ تعلن ميلها إلى المسالمة:

بعدما استشارت الملأَ ردُّوا الأمْرَ إليها. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل: ٣٣].

لم يُشيروا عليها بشيء، وفوَّضوها باتخاذِ القرارِ المناسب، وافتخروا أَمامَها بقوتهم القتالية، وببأسِهم الشديدِ العسكري.

أيْ طمأنوها إلى قوتِهم وبأسهِم، فإذا ما أَرادتْ قتالَ سليمان فبإمكانِها أنْ تعتمدَ عليهم.

أما قرارُ الحرب أَو عدمُها فتركُوه لها، وفوَّضوها فيه: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾. وما هم إلا منفذون لأمرها، مؤيدون لقرارها.

عندَ ذلك قالت ملكةُ سبأ: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: ٣٤].

وقولُها هذا صادرٌ عن عدمِ رغبتها في الحربِ والقتال، وفتحِ

جبهةٍ مع سليمان عليه السلام، ويكشفُ عن ميلِها إلى المسالمةِ والمصالحة، وإنهاءِ المشكلة بالاتفاقِ والتفاوض.

وهي بقولها تريدُ تعميقَ قناعةِ الملأ بقرارِها، وهم مقتنعون به أصلاً، سامعونَ مطيعون لَها، وقد أوكلوا وفَوَّضوا الأمرَ إليها، ولكنها تريدُ تعميقَ قناعتهم بما ستُقْدِمُ عليه.

إنها تريدُ تجنيبَ بلادِها ويلاتِ الحرب، وتجنُّبَ المواجهةِ العسكرية مع سليمان عليه السلام، لماذا؟

ذكَّرَت الملأَ بطبيعةِ الحرب، فإذا حاربَتْ دولة، وهُزمتْ أَمامَ أعدائها، فإنَّ أولئك الأعداء سيحتلّون تلك الدولة، وعند ذلك يُفسدونَها ويخربونها، ويجعلونَ أعزةَ أهلِها أذلة.

ومعنى كلامِها هذا أَنها لا تريدُ أنْ تحاربَ جيشَ سليمان عليه السلام، رغمَ أنَّ قومَها أولو قوة وأُولو بأسٍ شديد. لأَنها تخشى أنْ تُهزمَ أمامَ سليمان، وإذا هُزمتْ فسوف تكونُ الكارثة، حيث سيدخلُ جيشُ سليمانَ بلادَها، وسيُفسدون ويُخربون ويُدمرون، وسَيَتحكمون في قوم سبأ، ويُحولونهم من أَعزةٍ إلى أذلة.

تقولُ هذا وهي تعرفُ مَنْ هو سليمان، وما هي قوتُه، وما هي فِرَقُ جيشِه، جيشِه الكبير المكَوَّنِ من الجنّ والإنس والطير. وكأَنها تريدُ أنْ تقولَ للملأ: لا طاقةَ لها بسليمان وجنوده، ولا قدرةَ لها على قتالهم، ولهذا ستختارُ خيارَ المسالمة والمصالحة والمفاوضة، لإنهاءِ المشكلة.

وردَ في تفسيرِ الإمام ابن كثير عن الحوارِ بينها وبين الملأ ما يلي: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ واعتزّوا أمامَها بعددِهم وقوتهم، ثم فَوَّضوا إليها الأمرَ بعد ذلك، فقالوا لها: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: نحنُ ليس لنا عاقة، ولا بِنا بأس، إنْ شئتِ أنْ

تَقْصديه وتُحاربيه فما لنا عاقةٌ عنه. وبعدَ هذا فالأمْرُ إليك، مُري فينا رأيَك، نمتثلُه ونطيعُه.

قال الحسنُ البصري رحمه الله: فَوَّضوا أمرهم إلى علجة، تضطربُ ثَدْياها!!

فلما قالوا لها ما قالوا، كانتْ هي أَحزمَ رأياً منهم، وأعلَمَ بسليمان، وأنه لا قِبَلَ لها بجنودِه وجيوشِه، وما سُخِّرَ له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدَتْ من قضيةِ الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً.

فقالت لهم: إني أخشى أنْ نُحاربَه ونمتنعَ عليه، فيقصدَنا بجنوده، ويهلكَنا بمن معه، ويخلصَ إليَّ وإليكم الهلاكُ والدمار: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾.

قالَ ابنُ عباس: ﴿إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾: أي: إذا دخلوا بلداً عنوةً أَفسدوه وخَرَّبوه ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾. أي: وقصدوا مَنْ فيها من الولاةِ والجنود، فأهانوهم غايةَ الهوان، إما بالقتل أو بالأسر..

وقالَ ابنُ عباس: قالت ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ فقالَ اللّهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1].

كلام ملكة سبأ عن الملوك وطرفة عن ملك وشاعر شيخ:

ورغمَ أنَّ ملكةَ سبأ أَرادَتْ بكلامها هذا عن الملوك سليمانَ النبيَّ الملكَ عليه الصلاة والسلام، وأرادتْ بذلك أنْ تبررَ عدمَ قتالِها له، إلاَّ أنَّ بعضَ المسلمين يريدُ أنْ يعممَ كلامَ ملكة سبأ على كلِّ الملوك في الماضي والحاضر، ويستشهدَ به على الفسادِ والإفسادِ الملازمِ لنظام حكم الملوك.

وتُروىٰ في هذا المقام طُرفةٌ معاصرة، قالوا: إنَّ أحدَ الملوكِ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٣٥٠.

المعاصرين، كان مَلِكاً على مملكة، وزارَ هذا الملكُ أحدَ الشيوخ الشعراء، وكان بين الملك والشيخِ الشاعرِ تنافر، وكانَ كلٌّ منهما ذكياً حصيفاً.

فلما جلسَ الملكُ في مجلسِ الشيخِ الشاعر، وسطَ جمهورِ الجالسين، خاطبَ الملكُ الشيخَ بحرفٍ واحد، وهو حرفُ الواو! قال له: وَ...!!

وفهمَ الشيخُ مقصودَ الملك، فردَّ عليه بحرفٍ: «إنًّ». قال له: إنًّ.

وسكتَ الملكُ والشيخُ الشاعرُ وسطَ دهشة الحاضرين.

ولما غادرَ الملكُ المجلسَ، طلبَ الحاضرون من الشيخ تفسيرَ اللغز. فقال لهم: شتمني بآيةٍ من القرآن ذكَرَ أولَ حرفٍ منها، فشتمتُه بآيةٍ أخرى، ذكرتُ له أولَ حرفٍ منها.

لما قالَ لي: «و»، يعني أنني شاعر، وأنَّ اللّهَ ذمَّ الشعراءَ بقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

فرددتُ عليه بحرف «إنًّ»، وأَعني أنه ملك، وأنَّ اللّهَ ذمَّ الملوكَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا...﴾.

فعجبَ الحاضرون من ذكاءِ وفطنةِ كلٍّ من الملكِ والشيخِ الشاعر.

ولسْنا من أَنصارِ تعميم كلام ملكة سبأ على كلِّ الملوك، ليس تبرئةً لهم، ولكن لأنها تقصِدُ بكلَامِها نبياً رسولاً، وملكاً مصلحاً، وحاكماً عادلاً، هو سليمانُ عليه السلام.

أمّا الملوكُ فهم نوعان:

نوعٌ ينطبقُ عليهم كلامُ ملكة سبأ، وهم الذين لا يُطيعونَ الله، ولا يَحكمونَ الناسَ بشرع، فالإِفسادُ ملازمٌ لهم.

ونوعٌ لا ينطبقُ عليهم كلامُ ملكة سبأ، وهم الملوكُ الصالحون، المطيعون لله، الذين يحكمونَ الناسَ بشرعِ الله، وقليلٌ ما هم!!.

ملكة سبأ ترشي سليمان بهدية ورفضه لها:

قررتْ ملكةُ سبأ عدمَ محاربةِ سليمان، واختارت المسالمةَ والمهادنة، وأبلغت الملأ بذلك.

ثم أَخبرتْهم أَنها تريدُ امتحانَ سليمان عليه السلام، لتعرفَ هل هو ملكٌ داعيةٌ جادٌّ في دعوتِه لها، أم هو رجلُ مصلحة، امتحنتْه بهديةٍ أَرسلَتْها له. قال تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٥].

قالَ ابنُ عباس: قالت لقومها: إنْ قبلَ الهديةَ فهو ملك، فقاتِلوه، وإنْ لم يقبلْها فهو نبيٌّ فاتَّبِعوه.

وقال قتادة: ما كانَ أعقلَها في شركِها وإِسلامها، علمتْ أنَّ الهديةَ تقعُ موقعاً من الناس[1].

جهزتْ ملكةُ سبأ هديةً ثمينةً لسليمان عليه السلام، ولا تَعنينا معرفةُ أَصنافِ الهدية ومحتوياتِها، لعدمِ وجودِ نصوصٍ صحيحة تخبرُنا بذلك، ولا يضرُّنا الجهلُ به، كلُّ ما نَقولُه: كانت هديةً ثمينة، هديةَ ملكةٍ غنية، لملكٍ كريم، تَستعطفُه وتَسترضيه، وتَدعوه إِلى المسالمةِ والمهادنة.

وحملَ وفدٌ من قومِها الهدية، وغادروا اليمن متوجِّهين إِلى سليمان عليه السلام بفلسطين. وكانت الملكةُ تنتظرُ نتيجةَ زيارةِ الوفد، وردَّ سليمانَ على تلك الهدية.

أَمّا الهدهدُ فلم تخبرْنا الآياتُ عنه شيئاً بعدَ توصيلِه الكتاب، ومن خلالِ أَوامرِ سليمانَ له عليه السلام: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ فيبدو أَنه بقيَ عند قصرِ الملكة، وأَنه شاهَدَ اجتماعَ الملكة مع الملأ، وسمعَ الحوارَ بينهم وبينها، ووقفَ على قرارِها بإرسالِ هديةٍ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٣٥٠.

لسليمان، ولما توجَّهَ الوفدُ بالهدية إلى سليمان عليه السلام، سبقَهم الهدهدُ بالقدومِ إلى سليمان، ليقدِّمَ له تقريرَه، ويخبرَه بما جرى. والله أعلم!!.

سليمان يهدد الوفد بغزو سبأ:

وصلَ الوفدُ إلى بيت المقدس، ودَخلوا على سليمان عليه السلام، وقدموا الهدية له. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٦ - ٣٧].

فاعل «جاءَ» يعودُ على الوفد. أي: لما جاءَ الوفدُ سليمان، وقدَّموا له الهدية، ووَضعوها أَمامه، رفضَ قبولَها، واستعلى عليها، وأنكرَ عليهم تقديمَها، واعتبر هذا رشوةً من ملكةِ سبأ له، ولهذا لم يأخذْها.

قالَ لهم: أَتمدونَنِ بمال؟ أَترشونني بهذا المال؟ اعلموا أَنني لستُ بحاجةٍ إلى مالِكم وهديتِكم ورشوتكم، فما آتانيَ اللّهُ خيرٌ مما آتاكم.

اعترفَ أَمامهم بأنَّ فضلَ اللّهِ عليه كبير، أنعمَ اللّهُ عليه بالنعمِ الكثيرة، والخيرِ الجزيل الجميل، النحاس والريح والجن والإنس والطير.

وكأَنه يقول لهم: أَنا لستُ ممن تقدَّمُ له الرشوةُ باسم الهدية، لأَنَّ اللّهَ أَغناني عنها بما آتاني ومنحني. أَنتم الذين تأخذون الرشاوى والهدايا ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

ثم هَدَّدهم بغزوِ بلادهم، وأَخبرهم بتصحيحِه على موقفه، فإمّا أَنْ يُسلموا معه ويدخلوا في دينه، وإمّا أَنْ يُخرجهم من بلادِهم ويُذلهم.

قال تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وهذا الخطابُ منه للوفدِ حاملِ الهدية، أو لزعيمِ الوفد، يقولُ له: ارجع إلى قومك سبأ، وخذْ هديتَك معك، وانتظَروا هجومي على بلادكم، وحَربي لكم، لآتينَّ قومَك بجنودٍ لا طاقَة لهم بحربها، ولا قدرةَ لهم على قتالها، وسوفَ نهزمُهم ونحتلُّ بلادَهم، ونُخرجُهم أذلةً صاغرين مُهانين.

قالَ الإمامُ ابنُ كثير: «والظاهرُ أنَّ سليمانَ عليه السلام لم يَنظرْ إلى ما جاءوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أَعرضَ عنه، وقال منكراً عليهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾؟. أي: أَتُصانعونَني بمال، لأتركَكُم على شِركِكم ومُلكِكم؟ ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾. أي: الذي أَعطاني اللّهُ من الملكِ والمال والجنود، خيرٌ مما أنتم فيه ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾. أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبلُ إلاّ الإسلامَ أو السيف»[1].

وعادَ الوفدُ إلى سبأ، يحملُ معه هديةَ الملكة، بعد أنْ رفضَها سليمانُ عليه السلام، وأخبرَ الوفدُ الملكةَ والملأَ بما شاهدَ في مقرِّ سليمان من مظاهرِ القوةِ والخيرِ والتمكين، كما أخبروهم بعزةِ سليمان عليه السلام وعفَّتِه، وترفُّعِه عن هديتهم، وتصميمِه على قتالِهم واحتلالِ بلادهم إنْ لم يدخلوا في دينه.

توجه الملكة لزيارة سليمان:

عند ذلك عرفت الملكةُ حقيقةَ ما عليه سليمان عليه السلام، وأيَّ نوعٍ من الملوك هو، وأَيقنتْ هي وملؤُها أنَّ سليمانَ رجلُ دعوةٍ وليس جامعَ مال، وأَنه قادمٌ لحربهم لا محالة، وأنه لا قُدرةَ لهم على قتاله.

واقتنعت الملكةُ بأنَّ سليمانَ على حق، وأنَّ دينَه هو الحق، وأنَّ اللّهَ معه بالتأييدِ والتمكين، وأنَّ الشمسَ التي تعبدُها هي وقومُها لا

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٣٥١.

تضرُّ ولا تنفع، ولا تدفعُ عنهم الشرَّ والأذى، ولا تقدمُ لهم الخيرَ والنصر، واقتنعَ الملأُ من قومِها بما اقتنعتْ هي به، وأَصبحوا قريبين جداً من الإسلام.

وكان الخيارُ الذي أَمامَها أنْ تأتيَ هي بنفسها، ومعها كبارُ قومِها، وأنْ تزورَ معهم سليمان عليه السلام، وأنْ يلتقوا به في بيتِ المقدس، وأنْ يَدخلوا في دينه.

وتجهَّزَ الوفدُ بقيادةِ الملكة، ليقوموا برحلتِهم الإيمانية، ثم ساروا من عاصمةِ سبأ في اليمن، إِلى بيتِ المقدس في فلسطين!!.

هدف سليمان من إحضار عرش ملكة سبأ:

وعلمَ سليمانُ عليه السلام بتوجُّهِ ملكةِ سبأ مع الوفد، للإسلامِ بين يديه، وأَرادَ أنْ يريها آيةً ربانيةً باهرة، تدلُّ على أنَّ اللّهَ معه، يمنحه من القوةِ والتمكين والتأييد الكثير. إنَّ الآيةَ هي إِحضارُ عرشِ الملكة. قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النمل: ٣٨].

تنصُّ الآيةُ أَنه كانَ لسليمان عليه السلام ملأ، وهم فريقٌ من المستشارين حولَه، يُشيرون عليهِ بالخير، ويساعدونَه في شؤون الحكم.

وَعَرَضَ سليمانُ عليه السلام على أُولئك الملأ، أنْ يتكفَّلَ أَحدُهم بإِحضارِ عرش ملكة سبأ، قبلَ أنْ تصلَ مع الوفدِ إليه.

لقد تركتْ ملكةُ سبأ عرشَها العظيمَ خلْفَها في قصرها، تحتَ الحراسةِ الأمنيةِ الشديدةِ اليقظةِ من الحراس، وسليمانُ يريدُ من أحدِ رجالِ الملأ إِحضارَ ذلك العرش قبلَ وصولِ الملكة.

وهدفُ سليمانَ عليه السلام من ذلك أَنْ يُريَ الملكة ووفدَها مزيداً من مظاهرِ قوته، وعظمةِ نفوذه، وضخامةِ سلطانه وإِمكاناته، وذلك ليقضيَ على أيِّ وساوس في نفوسِ الوفد بالمواجهةِ أو المقاومة،

وليزيلَ أيَّ شكوكٍ في نفوسهم عن الإيمانِ والإسلام، وليزدادوا قناعةً بعدمِ نفع معبوداتهم لهم، ويَزدادوا يقيناً بأنه لا إله إلا الله، وذلكَ ليؤمنوا بسليمانَ عليه السلام نبياً رسولاً، ويَدخلوا في دينه.

إنه يوقنُ أَنهم قادمون إليه، وأَنهم سيُسلمون بينَ يديه، وحركةُ إِحضارِ العرش تساعدُ على تقريبهم من الإسلام، وتُعجلُ دخولَهم فيه.

وقد أَوشكُ تحقيقُ طلبِ سليمان لهم في رسالته السابقة، حيثُ قالَ لهم: «لا تعلوا علي، وأتوني مسلمين». فها هم في طريقِهم إِليه ليُسلموا: «قبل أن يأتوني مسلمين».

على مَنْ يتكفلُ بإِحضارِ العرش أنْ يكونَ أسرعَ من الملكة ووفدِها، فقد غادروا عاصمةَ سبأ من فترة، وهم قريبونَ من عاصمةِ سليمان عليه السلام، وعلى ذلك الشخصِ أنْ يذهبَ إِلى عاصمةِ سبأ، ويُحضرَ العرشَ، ويَدخلَ به على سليمان، كلُّ هذا في وقتٍ قصير، قبلَ وصول الوفد!!

وقُدِّمَ لسليمانَ عرضان لإحضارِ العرش: الأولُ من عفريتٍ من الجن، والثاني من شخصٍ عنده علمٌ من الكتاب.

عرض الجني العفريت إحضار العرش خلال ساعات:

عَرْضُ العفريتِ من الجن، أخبرَنا اللّهُ عنه بقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٩].

تكفلَ ذلك العفريتُ بإِحضارِ العرش قبلَ أنْ يقومَ سليمان عليه السلام من مقامه!

وهذا خارقٌ من الخوارق، يُجريه اللّهُ على يدي العفريتِ الجني، كرامةً له، لأنَّ المسافةَ بعيدةٌ جداً بين اليمن وفلسطين، تحتاجُ إِلى شهورٍ ذهاباً، وشهورٍ إياباً، فكيفَ سيذهبُ ذلك العفريتُ إِلى اليمن،

ويعودُ بعرشِ الملكة، خلالَ ساعات؟ وقبلَ أنْ يقومَ سليمانُ من مقامه؟!

إنَّ هذا الخارقَ كرامةٌ من الكرامات، أكرمَ اللّهُ بها ذلك العفريتَ المؤمن، فأَجراها على يديه، وهي من فعْلِ اللّهِ في الحقيقة.

وأعلنَ العفريتُ عن قدرتِه في المحافظةِ على العرش، فقال: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾.

وصفَ نفسَه بصفتيْن: القوة والأمانة، وهما صفتان ضروريتان لإحضارِ العرش، ويجب توفُّرهما في مَنْ يُكلفُ بإحضاره.

لا بدَّ لمن يحضره أنْ يكونَ قوياً في بدنه، ليتمتعَ بالقدرةِ على حملِ العرش الكبير، والسيرِ به مسافاتٍ طويلة، والعرشُ ثقيلُ الوزن، لا يقدرُ على حمله إلاّ القويُّ القادر.

ولا بدَّ أنْ يكونَ أميناً أيضاً، والأمانةُ قوةٌ أَخلاقية، تُضافُ إلى القوةِ الخَلْقِية، وهذه الأمانةُ تعصمهُ من أنْ يمدَّ يدَه إلى زينةِ العرش، من الذهبِ والجواهر واللآلئ، ومَنْ لم يكن أَميناً فسيختلسُ تلك الزينة.

إنَّ ذلك العفريتَ قويٌّ أمينٌ، لأَنه مؤمن، جنديٌّ في جيش سليمان، ومِن الملأ المقرَّبين عنده، وهو ثمرةٌ من ثمارِ تربيةِ سليمان عليه السلام الإيمانية لأَتْباعه.

وهذا العِفريتُ الجنيُّ مبهمٌ من مبهمات القرآن، فلا نَعرفُ اسمَه، ولا نعرفُ وظيفتَه عند سليمان، ولا نعرفُ مركزَه في الجن.

معنى العفريت والفرق بينه وبين الشيطان:

لكن ما معنى «عفريت»؟

قالَ الإمامُ السمينُ الحلبي في «عمدة الحفاظ» عن معنى العِفْريت: «العِفريت هو: المتمرِّدُ من الجن، الخبيثُ منها. وقيل: هو من الجنِّ النافذُ القويُّ مع خُبث. ويُستعارُ ذلك للآدميين استعارةَ الشيطانِ لهم. قالَ ابنُ قتيبة: هو من قولهم: رجلٌ عِفريت، وهو الموثقُ الخَلْق.

وأَصله من «العَفرِ»: وهو التراب. يقال: عافَرَه. إِذا صارَعَه فألقاه في العَفر.

وعلى هذا فنسبةُ هذه الصفةِ إلى الإنس أَولى من الجن، لأنَّ الإِنسَ خُلقوا من التراب، والجنَّ من النار.

ويقال: رجلٌ عِفرٌ نِفرٌ. وعِفريت نِفريت..»[1].

العِفريت هو الجنيُّ القويُّ المتين المسيطر، كثيرُ الحركة، واشتقاقُه من العَفَر وهو التراب، فكأنَّه بحركتِه الكثيرة المستمرة يُثيرُ الترابَ والغبار.

ولم تَرِدْ كلمةُ «عِفريت» إلاّ في هذا الموضع من القرآن.

وقَيَّدت الآيةُ كونَ العفريتِ من الجن، ولا يُطلقُ على الإنسانِ إلاّ من بابِ الاستعارة.

وهناكَ فرقٌ بين العفريتِ الجني والشيطانِ الجني، لأنَّ الكلمتين وردَتا في القرآن، ونعلمُ أنه لا ترادفَ في القرآن.

الشيطانُ الجنيُّ هو الجنيُّ الكافرُ المتمرد، المتشيطنُ البعيدُ عن رحمةِ الله.

والعفريتُ هو الجنيُّ المؤمنُ التقيُّ القوي، كثيرُ الحركة والنشاط. بدليلِ أنَّ العفريتَ الجنيَّ كان مقرَّباً عند سليمان عليه السلام، ولا يُقَرِّبُه سليمانُ إلا إذا كان مؤمناً، وهو قويٌّ أَمين، كما عَرَّفَ على نفسه، ولا يكونُ كذلك إلاّ إذا كان مؤمناً أيضاً!.

عرض صاحب العلم بالكتاب إحضار العرش في لحظات:

وإِذا كانَ عرضُ العفريتِ الجنيِّ أَنْ يُحضرَ عرشَ ملكة سبأ قبلَ أَنْ يقومَ سليمانُ عليه السلام من مقامه، فقد قَدَّمَ الذي عنده علمٌ من الكتاب عَرْضاً آخرَ أسرع.

---

(١) عمدة الحفاظ للسمين ٣:١١٦.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

قالَ لسليمانَ عليه السلام: أَستطيعُ أنْ آتيكَ بعرشِها قبلَ أنْ يرتدَّ إليكَ طَرْفُك.

والطَّرْفُ هو تحريكُ جَفْنِ العين.

وردَ في المعجمِ الوسيط: «طَرَفَ البصر، يَطْرِفُ، طَرْفاً، إذا تحرَّكَ جَفْناه. ويقال: ما بقيتْ منهم عينٌ تَطْرِف. أي: ما بقيَ لهم جفنٌ يتحرك. ويقال: طرفَ بعينيْه: حَرَّكَ جفنيه.

والطَّرْف: تحريكُ الجفنِ. والعينِ. والنظرِ.

والطَّرَف: النهايةُ. والطَّرَفُ من كلِّ شيء: منتهاه»[1].

فمعنى قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: امدُدْ بصرَك، وانظرْ إلى شيءٍ بعيد، يصلُه نظرُك، ومُدَّ طَرْفَك إليه، فإنه لا يرتدُّ إليك طرفُك، إلا وعرشُه حاضرٌ عندك، موجودٌ بين يديك!!

فإذا كان العِفريتُ يقدرُ على إحضارِ العرش خلالَ ساعات، فإنَّ الذي عنده علمٌ من الكتاب يَقدرُ على إحضارِه خلال ثواني معدودات!!. لأنَّ مدَّ البصرِ إلى شيء بعيد، وإرسالَ الطرف إليه، ثم إعادتَه لا يستغرقُ إلاّ ثواني قليلة.

فهذا الذي عنده علمٌ من الكتاب سَيطوي المسافةَ الطويلةَ من اليمن إلى بيت المقدس، وسيقطعُها في لحظات!!.

إنه لن يفعلَ ذلك بنفسه، وإنما سيفعلُه بأمرِ الله، فالله هو الذي سيأتي بالعرشِ في الحقيقة، ولكنه سيُجريه على يدِ الذي عنده علمٌ من

---

(١) المعجم الوسيط: ٥٥٥.

الكتاب، وستكونُ هذه الخارقة كرامةً من الله لهذا الرجل الصالحِ العالِم.

وبما أَنه من فعلِ الله في الحقيقة، فلا غرابةَ في هذا ولا استحالة، فاللّهُ سبحانه فعّالٌ لما يريد، ولا يُعجزهُ شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

إبهام الذي عنده علم من الكتاب وإبهام كيفية إحضاره العرش:

وقد أَبهمَ القرآنُ هذا الشخصَ الذي سيُحضرُ العرش في لحظات، ولم يصفْه إلاّ بأنه ﴿عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. ولا يوجَدُ حديثٌ صحيحٌ مرفوعٌ للنبي ﷺ يتحدثُ عنه، ويضيفُ جديداً إلى ما في القرآن.

ولا نقولُ فيه إِلاّ أَنه رجلٌ عنده علمٌ من الكتاب، فلا نعرفُ اسْمَه، ولا نسبَه، ولا جنسَه أَهو من الجنِّ أم من الإنس، ولا وظيفتَه وعملَه عند سليمان عليه السلام!!

و«الكتاب» هو كتابُ الله الذي يحكمُ به سليمانُ عليه السلام، ونعلمُ أنَّ أنبياءَ وحكامَ بني إسرائيل كانوا يُطبقون على قومِهم أحكامَ التوراة، كما نعلمُ أنَّ اللّهَ أنزلَ الزبورَ على داود عليه السلام، وجعلَه مكمِّلاً للتوراة.

وهذا معناهُ أنَّ سليمان عليه السلام كان عنده كتابان، وهما: التوراة، والزبور. وتنطبقُ عليهما كلمةُ «الكتاب».

فهذا الرجلُ كان ﴿عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: علمٌ أَخذه من التوراةِ والزبور، عَلَّمَهُ اللّهُ إِياه، وكان بهذا العلمِ المستمدِّ من الكتاب قادراً ـ بإذنِ اللّهِ ـ على إِحضارِ العرشِ في لحظاتَ.

ولم يتحدث القرآنُ عن العلم الذي أَخذه هذ الرجلُ من كتابِ الله، وعبَّرَ عنه بكلمة «علم»، وهي نكرة، والتنكيرُ هنا مقصود، فهو دعوةٌ لنا كي لا نخوضَ في تحديدِ هذا العلم، لأنَّ الآياتِ والأحاديث الصحيحة لا تحدِّدُه، وتحديدُه أمرٌ غيرُ علميٍّ ولا منهجي.

كان عند الرجلِ علمٌ خاص، خصَّه اللّهُ به، واستمدَّه من التوراة والزبور، وبهذا العلمِ اللَّدُنّيِّ الربانيِّ استعدَّ لإحضارِ العرش في لحظات!!

وطلبَ سليمانُ عليه السلام من هذا العالِم إحضارَ العرش، لأنه قدمَ أسرعَ العروض، وأقلَّها زماناً!!

وأَرسلَ سليمانُ عليه السلام طَرْفَه، وهو جالسٌ مكانه، ونظرَ إلى بعيد، وقامَ الذي عنده علمٌ من الكتابِ بإحضارِ العرش، ومرَّتْ لحظاتٌ قصيرة، وما أنْ أعادَ سليمانُ عليه السلام طَرْفَه حتى رأى العرشَ مستقرّاً عنده!!

كيفَ أَحضرهُ في لحظات؟

الأمْرُ ليس خاضِعاً لمقاييسِ البشر، ولا لطاقاتِهم وقدراتِهم وإمكاناتِهم، وهو بالحسابِ البشريِّ مستحيل!

لكنَّ الأمْرَ أمْرُ الله سبحانه، واللّهُ فَعّالٌ لما يُريد، وليس عليه شيء مستحيل، وإذا أَراد شيئاً يأمُرُهُ أنْ يكون، فيكون كما أرادَ سبحانه.

اللّهُ هو الذي أحضرَ عرشَ ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين في لحظة، وما دورُ الذي عندَه علمٌ من الكتاب إلاّ ظاهريٌّ خارجيٌّ سببي، فاللّهُ أَجرى هذه الخارقة على يديه، تكريماً له.

فلا مجالَ للاستغرابِ أَو الدهشة أو الإنكار إذن، وبما أنَّ اللّهَ أَخبرنا في القرآن أنه حصل، فلا بدَّ أنْ نؤمنَ أنه حصل، وأنْ نصدِّقَ إخبارَ اللّهِ عنه في القرآن! ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾؟ لا أحد.

دعاء سليمان لما رأى العرش أمامه:

لما رأى سليمانُ عليه السلام عرشَ ملكة سبأ أمامَه ماذا قال؟

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ

﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

أَقبلَ سليمان على اللّهِ حامداً شاكراً، واعتبرَ إِحضارَ العرش فضلاً من الله عليه، يُضافُ إِلى أَفضالِه الكثيرة، ونعمةً من الله عليه تُضافُ إِلى نعمه الغامرة.

وعرفَ أنَّ إِنعامَ اللّهِ عليه بهذا إنما هو ابتلاءٌ وامتحان له، يريدُ اللّهُ أنْ يبلوَه ويختبرَه، والنتيجةُ هي أَنه إِمّا أنْ يشكرَ اللّهَ على هذا، وإِمّا أنْ يكفرَه ويجحدَه وينكرَ فضلَه.

وما سليمانُ عليه السلام إلاّ عبدٌ شاكرٌ ذاكرٌ لله، منيبٌ أَوّاهٌ أَوّابٌ إليه، لكنه هنا يقررُ اختلافَ موقفِ الناس من نعم الله، فمنهم مَنْ يشكرُ اللّهَ عليها، ومنهم مَنْ يكفرُها ويجحدُها.

سبحان من لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية:

وذكَّرَ سليمانُ عليه السلام في هذه المناسبة بغِنى اللّهِ عن عبادِه، فالشاكرُ لا ينفعُ اللّهَ بشكرِه، والجاحدُ لا يضرُّ اللّهَ بجحوده، فأَثَرُ الشكرِ الطيبِ يعودُ على صاحبه، وهو بذلك يشكرُ لنفسه، وأثرُ الجحودِ السيء يعودُ على صاحبِه، وهو الذي يخسر.

أمّا الله، فإنّه غنيٌّ كريم، غنيٌّ عن شكرِ الشاكرين، كريم لا يضرُّه كفرُ الكافرين.

وهذه حقيقةٌ إيمانيةٌ اعتقادية جاءَ جميعُ الأنبياءِ والرسلِ بها، وقرروها بوضوحٍ تام.

وبَيَّنها لنا رسولُ الله ﷺ بأَلْفاظه، فيما يرويه عن ربِّه. فقد روى مسلمٌ والترمذيُّ وغيرُهما عن أَبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، فيما يَرويه عن ربه، أنه قال: «يا عبادي: إِنّي حرَّمْتُ الظلمَ على نفسي، وجعَلتُه بينكم محرَّماً، فلا تظالَموا.

يا عبادي: كلُّكم ضالٌّ إلاّ مَنْ هديتُه، فاستهدوني أَهْدِكم.

يا عبادي: كلُّكم جائعٌ إلاّ مَنْ أَطعمتُه، فاستطعموني أُطْعِمْكم.

يا عبادي: كلُّكم عارٍ إلا مَنْ كسوتُه، فاستكسوني أَكْسُكُم.

يا عبادي: إنكم تخطئونَ بالليلِ والنهار، وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغفرْ لكم.

يا عبادي: إنكم لن تبلُغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلُغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي: لو أنَّ أولَكم وآخرَكُم وإنسَكُم وجنَّكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما زادَ ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي: لو أنَّ أولَكم وآخرَكُم وإنسَكُم وجنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما نقصَ ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي: لو أن أوّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني، فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألَتَه، ما نقصَ ذلك مما عندي إلا كَمَا ينقصُ المِخْيَطُ إذا أُدخلَ البحر.

يا عبادي: إنما هي أعمالُكم، أُحصيها لكم، ثم أُوفيكم إيّاها، فمن وجدَ خيراً فليحمدِ الله. ومَنْ وجدَ غيرَ ذلك، فلا يلومَنّ إلاّ نفسه»[(١)].

وشكْرُ سليمانَ لربِّه لما رأى العرشَ مستقراً أمامَه، يذكِّرُ بذكْرِه وشكْرِه لله لما سمعَ كلامَ النملة في وادي النمل: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٥٧٧. والترمذي برقم: ٢٤٩٥. وانظر شرح هذا الحديث الجامع في «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي، بتحقيق الشيخ إبراهيم باجس ٢: ٣٢ ـ ٥٥.

إنه أَوّاهٌ منيبٌ لله، وكلّما أنعمَ اللّهُ عليه بنعمة، عرفَ أَنها منه سبحانه، فازدادَ إيماناً وذكْراً وشكْراً لله.

وهو في هذا أُسوةٌ حسنةٌ لمن بعده، وبخاصةٍ الذين يمنُّ اللّهُ عليهم بالتمكينِ والحكمِ والسلطان والجاه والزعامة، فهو لم تفتنْهُ النعمة، ولم تَغُرّه القوة، ولم يتحوَّلْ بمظاهرِ السلطان والحكم إلى جبارٍ متكبرٍ متسلطٍ باطش، ولم يطغَ ويبطرْ ويستبدّ، وحاشاه من ذلك.

وهكذا يجبُ أنْ يكونَ أصحابُ الجاهِ والسلطان والزعامة والقوة، فلا تقودُهم هذه الأمورُ إلى أمراضِ الزعامة وآفاتِ القيادة ونقائصِ القوةِ الاستبدادية، وإنما يعتبرونَ أنَّ هذه الأمورَ نِعَمٌ من الله، فيزدادون بها ذكراً وحمداً وشكراً لله، ويستخدمونها في نفعِ عبادِ الله، ودفعِ الضرِّ عنهم، ويستفيدونَ بها مزيداً من التواضعِ والإخباتِ والإنابةِ إلى الله. ويقتَدون في ذلك بسليمان عليه الصلاة والسلام.

سليمان يمتحن الملكة بتنكير عرشها:

وبعد أنْ رأى سليمانُ عليه السلام عرشَ ملكةِ سبأ عنده، قبلَ وصولِ الوفد إليه، أرادَ أنْ يمتحنَ ملكةَ سبأ، ليعرفَ مدى ذكائِها وفطنتها، فهي ستكونُ عندَه بعدَ قليل، وسترى العرشَ عنده، عرشَها هي، فهل ستعرفُه أم لا؟

قال تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النمل: ٤١].

طلبَ سليمانُ عليه السلام من رجاله أنْ «يُنَكِّروا» لملكةِ سبأ عرشَها، وتنكيرُ عرشِها بإجراءِ بعض التغييراتِ عليه، تغييراتٍ شكليةٍ ظاهريةٍ جزئية، لا تمسُّ حقيقةَ العرش، ولا تغيِّرُ صورتَه الحقيقية.

وصرحَ سليمانُ عليه السلام بأَنَّ هدفَه من هذا التنكيرِ والتغييرِ الجزئي، هو امتحانُ ذكاءِ ملكةِ سبأ، واختبارُ فطنتِها وقوةِ ملاحظتها،

فعندما تنظرُ إلى العرش هل ستعرفُه أنه عرشُها رغم ذلك التغيير، أمْ ستعجزُ عن معرفتِهِ: ﴿نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾.

قامَ رجالُ سليمانَ بتنكيرِ عرشِ ملكة سبأ، وإجراءِ بعض التغييراتِ الشكليةِ عليه، ووضعوه في القصر، بانتظارِ قدومِها.

ووصلتْ ملكةُ سبأ مع وفدها بيتَ المقدس، ودَخلوا على سليمان، وأكرمَ وفادتَهم وأحسنَ إليهم.

تحليل السؤال: أهكذا عرشك؟:

وجاءَ دورُ امتحانِ فطنةِ وذكاء ملكة سبأ. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤٢ ـ ٤٣].

أَوْقفوا ملكةَ سبأ أمامَ العرشِ المنَكَّرِ، وسألوها قائلين: أهكذا عرشك؟

وكان السؤالُ في قمةِ النباهةِ والفطنة، فلم يقولوا: أَهذا عرشُك!

لو كان السؤالُ: أَهذا عرشُك؟ لكان فيه نوعٌ من التلقينِ والإيحاءِ بالجواب، وإِشارةٌ خفيةٌ إلى أَنهم أَحضروا عرشها في غيبتها. وسوفَ يكون جوابُها: نعم. هو عرشي.

و«أَهكذا» مكوَّنةٌ من ثلاثةِ أَحرف داخلةِ على اسم الإشارة.

الأول: همزةُ الاستفهام.

الثاني: هاءُ التنبيه.

الثالث: كافُ التشبيه، التي هي حرفُ جرّ.

واسمُ الإشارة «ذا».

وشبهُ الجملة «أهكذا» في محلِّ رفعِ خبرٍ مقدَّم، و«عرشُك» مبتدأُ مؤخَّر.

وقُدِّمَتْ هاءُ التنبيه على كافِ التشبيه: «أهكذا»، مع أنَّ الأصلَ تقديمُ الكاف.. لأنَّ أصلَ الكلمة: هذا. وعند إِدخالِ حرفِ الجرِّ عليها، تصير: كهذا. ومعَ دخولِ همزة الاستفهام عليها تصير: أَكَهذا.

والكافُ بمعنى: مثل. والتقدير: أَمِثْلُ هذا العرشِ عرشُك؟

والسؤالُ في غايةِ الفطنة، وكأَنَّ معناه دعوتُها إِلى إِمعان النظرِ في العرشِ الموجودِ أمامها، وملاحظةِ أوجُهِ الشبَهِ بينه وبين عرشها، الذي تركَتْهُ وراءَها في قصرها: أَعرشُك مثلُ عرشنا؟ انظري أينَ يتشابَهُ عرشُنا مع عرشك!!

ذكاء الملكة في جوابها: كأنه هو:

نظرتْ ملكةُ سبأ بإِمعانٍ إِلى العرش. إِنه عرشها! وإِنَّ مظاهرَ التنكيرِ والتغييرِ عليه لم توقعْها في اللبس، إِنها تعرفُه عن يقين.

ووقعت الملكةُ في الحيرةِ والتساؤل: هل من الممكن أنْ يكونَ عرشُها؟ لقد خلَّفَتْهُ وراءَها، وعليه الحراسُ والحفّاظُ الأُمناء! فهلْ من الممكنِ أنْ يكونَ هنا؟ ومَن الذي أَتى به؟ وكيفَ أَتى به؟

ولْنفترضْ أَنه ليسَ عرشَها، وأَنه عرشُ سليمان عليه السلام، فهل من الممكنِ أنْ يتشابَهَ العرشان ويتماثَلا إِلى هذه الدرجة؟

لو قالَتْ هكذا عرشي لأَخطأَتْ! ولو قالَتْ: هذا عرشي لأَخطَأَتْ حسبَ الظاهر. فبماذا تجيبُ على السؤال.

أَمامَها ثلاثُ إِجابات:

الأُولى: هذا عرشي. ولو أَجابتْ بهذه الإِجابةِ لكانت ساذجة، لأَنها ستتهمُ رجالَ سليمان بأَخذِ العرش من قصرِها ونهبِه وإِحضارِه إِلى هنا، وهذا الاتهامُ لا يتفقُ مع «الكياسةِ» الرسميةِ بين ملكةٍ قادمةٍ لزيارةِ ملك. فكيفَ تبدأُ زيارتَها باتهامِ رجالِ الملكِ بسرقة عرشها؟

الثانية: ليس هو: ولو أجابتْ بها لما كانت فطنة، إذْ يشبهُ هذا العرشُ عرشَها في معظم الأمور، فكيف تقول: ليس هو؟

لا يمكنها أنْ تقولَ: هو هو، ولا أنْ تقول: ليس هو.

فما هو المخرج؟ وما هو الجوابُ المناسبُ الذي يقودُ إلى حسن التخلص؟

الثالثة: كأنه هو، وهذه هي الإجابةُ المتفقةُ مع الحكمةِ والفطنة.

إنَّ حرفَ التشبيه «كأنَّ» يدلُّ على الشبهِ الكبير بين العرشين، حتى كأنه لا فرقَ بينهما.

إنَّ قولَها «كأنه هو» معناه: كأنَّ عرشي هو هذا العرش!!

و«كأنه هو» قريبةٌ جداً من: هو هو. لكنها تخلو من ذلكَ المحذور الذي يؤدّي إلى الاتهام وادعاءِ الملكية لعرشِ ملكٍ قادمةٍ لزيارته.

ولم تُجبْ بعبارةِ «هكذا هو» المطابقةِ للسؤال، لأنها تدلُّ على وضوحِ التغايرِ بين العرشين، وهي لا تكادُ تجدُ ذلك التغايرَ واضحاً.

لقد كان جوابُها «كأنه هو» في غايةِ الحصافةِ والفطنةِ والكياسة، فلا هي اعترفَتْ أنه هو، ولا هي نفَتْ أنه هو، وإنما حفظتْ خَطَّ الرجعة، وأبقت البابَ مفتوحاً لكلِّ الاحتمالات القادمة.

قالَ الإمامُ الزمخشريُّ عن جوابِ الملكة: «﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾: لم تَقُلْ: هو هو. ولا: ليسَ هو. وذلكَ من رجاحةِ عقْلِها، حيثُ لم تقعْ في المحتمل».

أمّا ابنُ المنيِّرِ الإسكندري فيبينُ في حاشيتِه على الكشاف حكمةَ جوابها «كأنه هو» بقوله: إنَّ جملةَ «كأنه هو» عبارةُ مَنْ قَرُبَ عندَه الشَّبَه، حتى شَكَّكَ نفسَه في التغايرِ بين الأَمرين، فكادَ يقول: هو هو. وتلك حالُ ملكة سبأ. وأمّا جملةُ «هكذا هو» فعبارةُ جازمٍ بتغايُرِ

الأمرين، حاكم بوقوع الشَّبَهِ بينهما لا غير. ولهذا عَدَلَتْ ملكةُ سبأ إلى العبارةِ المذكورة في القرآن، لمطابقتها لحالِها...»[1].

تعليق سليمان على جواب الملكة الحائر:

وعلَّقَ سليمانُ عليه السلام على دهشةِ ملكةِ سبأ وحيرتِها بقوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤٢ ـ ٤٣].

يبينُ سليمانُ عليه السلام في هذا التعقيبِ الفرقَ الجوهريَّ بين الحالتين: بينَ حالتِه هو، وحالةِ ملكة سبأ، ويوضحُ سرَّ تفوُّقِه عليها.

هو مسلمٌ خاضعٌ لله، وآتاه اللّهُ العلمَ نعمةً ومِنَّةً منه، فأحسنَ الاستفادةَ مِن هذا العلم الذي آتاهُ اللّهُ إيّاه. وهذا العلمُ يشملُ العلمَ المعنويَّ القائمَ على المعرفة والتحصيل، وإِعمالِ العقلِ والذهن، وإِدراكِ الأمورِ والحقائق، كما يشملُ العلمَ الماديَّ المبنيَّ عليه، الذي هو الاختراعاتُ والصناعات.

أما ملكةُ سبأ فلم تُؤتَ العلمَ ولا الإسلام، فقد صَدَّها عن الإسلامِ والإيمان الآلهةُ الباطلةُ التي كانت تعبدُها من دون الله، كالشمس، وعبادتُها للشمس جعَلَتْها كافرةً من قوم كافرين.

وكُفْرُها حرمَها الإسلامَ، وسلبَها العلمَ، وجعلَها تنهزمُ أمامَ سليمان عليه السلام العالمِ المسلم، رغمَ أَنَّها أُوتيتْ من كل شيء، لكن ما أُوتيَتْه كان قليلاً ضئيلاً أَمامَ ما أُوتيه سليمانُ عليه السلام.

سليمان يفاجئ ملكة سبأ بالصرح الممرد من قوارير:

وبينما كانتْ ملكةُ سبأ تحتَ تأثيرِ الدهشةِ والحيرةِ من العرش

---

(١) تفسير الكشاف ٣:٣٦٩، مع حاشية الصفحة رقم (١).

الذي شاهدَتْه وسئلَتْ عنه، وهي في طريقِها إلى قصرِ سليمان عليه السلام للالتقاءِ به، وعندما وقفتْ على بابِ القصر تهمُّ بدخولِه، وجدتْ سليمانَ عليه السلام قد أعدَّ لها مفاجأةً أُخرى مذهلة.

وقد أخبرَنا اللّهُ عنها في قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤].

لم يكن القصرُ من حجارةٍ وطين، وإنما كان قَصْراً من بلّورٍ زجاجي، وقد جُهِّزَ مدخلُه بطريقةٍ عجيبةٍ مثيرة، حيث كان مدخلُه من زجاجٍ متينٍ سميك، وهذا الزجاجُ بنيَ على عينِ ماءٍ أو بركة ماء، فإذا نَظَرَ له القادمُ لم يَرَ الزجاج، وظنَّ أنه مقبلٌ على خوضِ الماء ليصلَ إلى القصر، فيستعدّ لخوضِ الماء برفعِ ثيابه والكشفِ عن ساقيه.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾: كان سليمانُ عليه السلام واقفاً على بابِ القصر لاستقبالِها، فدَعَوْها إلى المسيرِ إليه، ودخولِ الصَّرْحِ عليه.

والصَّرْحُ هو القصرُ العالي.

تقول: صَرُحَ الشيء، يَصْرُحُ، صَراحة: إذا صَفا وخَلَصَ مما يشوبُه[1].

وبيَّنَ الإمامُ الراغبُ حكمةَ تسميةِ القصْرِ صَرْحاً، فقال: «الصَّرْحُ: بيتٌ عالٍ مُزَوَّق، سميَ بذلك اعتباراً بكونه صَرْحاً عن الشَّوْب. أي: خالِصاً»[2].

ظنت الملكة الزجاج لجة بحر فكشفت عن ساقيها:

لما دُعيتْ ملكةُ سبأ لدخولِ الصرح رأت الماءَ بينها وبين مدخله، وتحيَّرَتْ: كيفَ ستصلُ إلى سليمانَ الواقفِ على باب الصرح؟ إذن

---

(١) المعجم الوسيط: ٥١١.

(٢) المفردات: ٤٨٢.

لا بدَّ أنْ تخوضَ الماء، فاستعدَّتْ لذلك، وكشفَتْ عن ساقيها، ورفعتْ ثوبَها: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ..﴾.

واللُّجَّةُ هو موجُ البحر.

قال الإمامُ الراغب: «اللّجاج: التّمادي والعنادُ في تعاطي الفعلِ المزجورِ عنه.. ومنه: لَجَّةُ الصوت: تَرَدُّدُه.

ولُجةُ البحر: تردُّدُ أَمواجه. ولُجَّةُ الليل: تردُّدُ ظلامه.

والبحرُ اللُّجيُّ منسوبٌ إلى لُجة البحر..»[١].

ولْنتصوَّرْ سخريةَ الواقفين مع سليمان، العارفين بحقيقةِ هذا الماء، من الملكة، وهي ترفعُ ثوبَها وتكشفُ عن ساقيها، لتقطعَ ما حسبتْه لُجة.

هذه الملكةُ القويةُ الغنيةُ الذكية، التي تملكُ دولةً غنية، حيث أُوتيتْ من كلِّ شيء، ولها عرشٌ عظيم. وتتمتعُ بفطنةٍ وحصافة، لكنها الآن صارَتْ مجالاً للسخرية، وأَصبحتْ حركتُها شبهَ ساذجة، لأنها لا تعرفُ حقيقةَ الماءِ الذي أَمامَها.

وقبلَ أنْ تخطوَ قدماها خطوتَهما الساذجة خاطَبها سليمانُ عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾!!. وهذه الإجابةُ زادتْ من استغرابِ ودهشةِ ومفاجأةِ هذه الملكة، التي مرتْ بسلسلةٍ من المفاجآت المثيرة.

ومعنى «مُمَرّد» أملس.

يقال: مَرَدَ الشيءَ: ليَّنَهُ وصَقَلَه ومَلَّسَه.

قال السمين الحلبي: «صرحٌ ممرد: أَملس، ومنه: الأمردُ: لملاسَةِ وجهه من الشعر، وشجرٌ أَمرد: لا ورقَ به»[٢].

---

(١) المرجع السابق: ٧٣٦.

(٢) عمدة الحفاظ ٤: ٩٢.

والقوارير: الزجاج. مفردُها: قارورة. وهي: وعاءٌ من الزجاج تُحفظُ فيه السوائل وغيرها[١].

والراجحُ أنَّ القارورةَ مشتقةٌ من «قَوَرَ». والتقويرُ معروف، وهو خَرْقُ الشيء من وسطِه. تقول: قَوَّرَ الشيءَ: جعلَ في وسطه خَرْقاً مستديراً[٢].

وسُميت القارورة بهذا الاسم لأنها مخروقةٌ من وسطها، فهي مقورة.

والصرحُ الممردُ من قوارير: هو القصرُ المبنيُّ من الزجاج المقوَّرِ في وسطه.

إذن معنى قولِ سليمان عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾: إنه قصرٌ أملسُ مبنيٌّ من زجاج.

وقد أَزالَ سليمانُ عليه السلام الظنَّ عند الملكة، عندما بيَّن لها أَنَّ ما أَمامَها ليس لجةَ ماء، ومن ثَمَّ لا داعيَ لكشفِها عن ساقيها. إنَّ الذي أَمامها مَمَرٌّ من الزجاج بُنِيَ على بركةِ ماء، فعليها أنْ تعبرَه بأمان.

ملكة سبأ تفتح قلبها للإيمان وتدخل في الإسلام:

فكَّرَتْ ملكةُ سبأ في المفاجآتِ المثيرةِ المدهشةِ التي فاجأَها بها سليمانُ عليه السلام، وآخرُها هذه المفاجأة: قصرٌ عالٍ مرتفع، مبنيٌّ من الزجاج الصافي الأملس، ليسَ فيه طين أو حجر، وأَمامَ القصرِ بركةٌ من الماء، مغطاةٌ بطبقةٍ من الزجاجِ السميك الآمِن، يسيرُ فوقَها الإنسان بأمانٍ والماءُ تحته.

إذنْ تمتعَ سليمانُ بقوةٍ كبيرة، وتوفرتْ له الكثيرُ من أسبابِ ومظاهرِ وألوانِ هذه القوة، وقوتُها هي لا تساوي شيئاً أمامَ قوتِه هو!!

---

(١) المعجم الوسيط: ٧٢٥.

(٢) المرجع السابق: ٧٦٥.

ودخلتْ ملكةُ سبأ القصرَ الزجاجيَّ المنيف، والتقتْ بسليمانَ عليه السلام، وحدَّثَها وحدثَته، وعرضَ عليها سليمانُ عليه السلام الدخولَ في الإسلام، وأَثبتَ لها وحدانيةَ الله، ونفيَ أُلوهيةِ غيره، وقدَّمَ لها الدعوة، وأَقامَ عليها الحجة.

وفتحتْ ملكةُ سبأ عقلَها وقلبَها لكلامِه، واستعرضَتْ مسلسلَ الأحداثِ مع سليمانَ عليه السلام منذُ البداية: تذكرتْ كتابَ سليمانَ لها، الذي حمله الهدهدُ بطريقةٍ مثيرة، وتذكَّرَتْ إِحضارَ عرشِها إلى سليمان بطريقةٍ معجزة مدهشة، وتذكَّرَتْ الصرحَ الممردَ من قوارير، وكيفَ أُحرجتْ عندما حسبته لجةً من الماء، وتذكرتْ جيشَ سليمان المكوَّنَ من الجن والإنس والطير، والصناعاتِ الحديديةَ والنحاسية والزجاجية، التي يصنعها له الجن...

وخرجَتْ بنتيجةٍ قاطعة: هذه القوةُ ليست بجهدِ سليمان الشخصي، ولا بقدرتِه الذاتية. إِنها تدلُّ على أَنَّ اللّهَ معه، سخرَ له هذه الطاقات والإمكانات، وَوَهَبَهُ هذه القوى والقدرات.

ثم فكَّرَتْ في كلامِ سليمان في بيانِ الحق والإيمانِ والوحدانية، ونفيِ الشرك وأُلوهية غير الله. وعرفَتْ أَنَّ كلامَه صواب، وأَنه على حق، وأَنَّ دينَه هو الحق، أَما ما كانت عليه هي وقومُها فهو باطل.

وشرحَ اللّهُ صدرَها للإيمان. فأعلَنَتْها صريحةً واضحة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾: ظلمتُ نفسي بالكفر، والسجودِ للشمس، وعبادةِ غير الله، وآنَ الأوانُ للتخلي عن الكفر، والخروجِ من هذا الظلم.

والطريقُ الوحيدُ هو الإسلام. ولهذا قررْتُ أَنْ أُسلمَ مع سليمان لله رب العالمين.

وهكذا دخل قوم سبأ في الإسلام:

وتحولَتْ ملكةُ سبأ من كافرةٍ معاديةٍ لسليمان عليه السلام، إلى امرأةٍ مؤمنة بالله، مسلمةٍ معه لله، تشاركه العبوديةَ والطاعة والاستسلامَ لله، رب العالمين!

ولما أسلمت، أسلمَ الوفدُ القادمُ معها، وصاروا عابدين خاضعين لله رب العالمين.

وخرجَ الجميعُ من قصرِ سليمان مسلمين، وعادوا إلى «سبأ» دعاةً إلى الإسلام، ودخلَ أهلُ سبأ في دين الله، وصاروا مسلمين.

وتوقَّف عَرْضُ القرآنِ لقصةِ سليمان مع ملكة سبأ عند هذه اللقطةِ الختامية، وسكتَ عما تلا ذلك من مشاهدَ وأحداث، كما سكتَتْ عن ذلك السنة، فلا يوجَدُ حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ يتحدثُ عن ذلك.

فلا نَدري: هل تزوجَ سليمانُ ملكةَ سبأ أم لا؟ ولا ندري كيفَ كانت نهايتُها. وعلينا أنْ نقفَ عند ما وقفَ عندَه القرآنُ، وأن نسكتَ عنْ ما سكتَ عنه القرآن!!

[٨]
وفاة سليمان عليه السلام

جعل الله موت سليمان عبرة ودرساً:

في القرآن إشارةٌ مبهمةٌ إلى موت سليمان عليه السلام، وهي في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

ولا يوجَدُ حديثٌ صحيحٌ عن رسولِ الله ﷺ، يُزيلُ ما في الآيةِ

من إبهام، أو يقدِّمُ إضافاتٍ تفصِّلُ في كيفيةِ موتِ سليمان عليه السلام. ولذلك سنبقى مع الآيةِ نحللُ كلماتِها، ونبيِّنُ معناها، ونأخذُ دلالتَها، ولا نلتفتُ للرواياتِ الواردةِ في كتب التفسير والتاريخ، لأنها لا تستندُ إلى حديثٍ صحيح.

لقد جعلَ اللّهُ الحكيمُ موتَ سليمان عليه السلام عبرةً للإنس والجن، ودليلاً عقيدياً إيمانياً لهؤلاءِ الذين كانوا في زمنه، وللذين يأتون من بعدهم.

إننا نعلمُ أنَّ سليمانَ عليه السلام قد حكمَ الجنَّ والإنس، سخرَهم اللّهُ له، وجعلَهم طوعَ أمره، وكانوا ينهمكون في الأعمالِ والصناعات التي يكلفُهم بها. وكان سليمانُ حازماً شديداً معهم، وكلُّ مَنْ يخالفُ يقيِّدُه بالأصْفاد، سواءٌ كان من الإنسِ أم من الجن، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٧ ـ ٣٨].

وكان صالحو الجنِّ والإنس الذين معه مؤمنين مسلمين، لكن كانَ شياطينُ الجنِّ والإنسِ كفاراً، وكانوا يثيرون الشبهاتِ حولَ سليمان عليه السلام، ويُطلقون الإشاعاتِ حول الجن والإنس.

ومن الإشاعاتِ التي كان يطلقُها هؤلاء الشياطينُ والمتأثِّرون بهم، أنَّ الجنَّ يعلمون الغيب، لأنَّ اللّهَ وهبهم طاقاتٍ وقدراتٍ خارقة، يتحرَّكون أَينما شاءوا، ويذهبون إلى أيِّ مكانٍ أَرادوا، فلا يقفُ أَمامهم شيء، ولا يَعجزون عن أي شيء. ولهذا كانوا يعلمونَ الغيب.

وبما أنَّ الجنَّ يعلمون الغيب، فإنَّ سليمانَ عليه السلام قد استفادَ منهم ومن علمِهم بالغيب في حكمِه وسلطانه، حيث كانوا يقدِّمون له أَخبارَ الغيب التي يعلمونها، فيستفيدُ منها في إخضاعِ الآخرين والتحكم فيهم.

وكانت هذه الإشاعاتُ الشيطانيةُ تصدرُ عن الشياطين وسليمانُ حيٌّ

عليه الصلاة والسلام. وكان سليمانُ يفنِّدُها ويُبطلُها، لكنها كانت موجودة، وكان ضعافُ الإيمان من الجنِّ والإنس يصدِّقونها ويردِّدونها.

وأَرادَ اللّهُ الحكيمُ أنْ يجعلَ موتَ سليمان عليه السلام إبطالاً عملياً لهذه الإشاعات، وتقريراً لحقيقةٍ إيمانيةٍ جازمة، وهي أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيب، وأنَّ اللّهَ وحده هو الذي اختصَّ بعلمه.

هذا ما تخبرُنا عنه آيةُ سورةِ سبأ، التي تحدثَتْ عن موته. ولا ننسى أنَّ تلكَ الآية خاتمةُ آياتٍ تتحدثُ عن سليمان عليه السلام، حيث كان الكلامُ قبلَها عن الجن الذين يعملون بين يدي سليمان بإذنِ ربه، وعن حزمِه في حكمهم، وعن بعضِ الصناعاتِ الحديدية والنحاسية التي يَصنعونها، كالمحاريبِ والتماثيلِ والجفانِ والقدور الراسيات.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٢ ـ ١٤].

وبما أنَّ اللّهَ يخيِّرُ الأنبياءَ عند موتهم تكريماً لهم، فيختارونَ لقاءَه، فيقبضُ أَرواحَهم ويتوفاهم، كما مَرَّ مَعَنا من قبل، فقد خيَّرَ اللّهُ سليمانَ عليه السلام لمّا جاءَه الأجل، فاختارَ لقاءَ الله، ولا توجَدُ أَحاديثُ صحيحةٌ تبيِّنُ كيفيةَ تخييرِ اللّهِ له، كما حصلَ مع موسى وداود عليهما السلام.

وبعدما اختارَ سليمانُ لقاءَ الله، قضى اللّهُ عليه الموت: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾.

ومعنى ﴿قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾: أَوْقَعْنا عليه الموت، وكلَّفْنا مَلَكَ الموتِ بالذهابِ إليه لقبضِ روحه.

مات سليمان وهو متوكئ على عصاه أمام الجن:

وتشيرُ الآيةُ إِلى أَنَّ الجنَّ كانوا يقومون بأَعمالِهم التي كلَّفهم سليمانُ بها، وهي أعمالٌ شاقةٌ متعبة، ويبدو أنَّ سليمانَ عليه السلام كان واقفاً أمامَهم، مراقِباً لهم، متكئاً على عصاه.

وبما أنَّ سليمانَ كان حازِماً شديداً معهم، فقد كانوا يَهابونَه ويَخافونَ منه، ولعلَّهم كانوا أَثناءَ عملهم لا يرفعون رؤوسَهم، ولا يَنظرونَ إِليه، هيبةً له وخوفاً منه.

في هذا الجوِّ الحازم شاءَ اللّٰهُ الحكيمُ أنْ يَقبضَ روحَ سليمانَ عليه السلام، ليبيِّنَ للجنِّ الخائفين المنهمكين في العمل، ولمن بعدهم، أَنهم لا يعلمونَ الغيب.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾.

كان سليمانُ عليه السلام واقِفاً متكئاً على عصاه، وكان الجنُّ مُقبلين على أَعمالهم، منهمكين فيها، وأَرسلَ اللّٰهُ مَلَكَ الموتِ لقبضِ روحِ سليمان عليه السلام، ففاضَتْ روحُه وهو متكئٌ على عصاه، وبقيَ الجنُّ مُقبلين على العمل، على اعتبارِ أنَّ سليمانَ متكئٌ على عصاه مراقبٌ لهم، وهم لا يَرفعون رؤوسَهم خوفاً منه، ولا يَنظرون إِليه هيبةً له.

وأَرسلَ اللّٰهُ ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ إِلى عصا سليمان عليه السلام، وهي «الأَرَضَةُ» المعروفةُ بأكلِ الأخشاب، وصارتْ هذه الدابةُ تأكلُ العصا من الداخلِ وتنخرُها، فلما نُخِرت العصا لم تَحملْ جسمَ سليمان الميت عليه السلام، فانكسرتْ وخَرَّ جَسَدُ سليمان عليه السلام على الأرض!

ونظرَ الجنُّ إِليه، وفوجئوا بما حصل، إذنْ سليمانُ عليه السلام ماتَ منذُ فترة، وكان جسدُه على العصا، وهم لا يعلمون أَنه جسدٌ بدون روح، ولو كانوا يَعلمون الغيب، لاكتشفوا موتَه، إِنهم لا يعلمونَ الحاضرَ البارزَ الظاهرَ أمامهم، فكيف يعلمون الغيب؟

إنَّ سليمانَ أمامَهم ميت، وهم لا يعلمون أنه ميت، وجسدُه على العصا بدون روح، وهم يظنُّونَ أَنَّ روحَه فيه! فكيف يزعمونَ العلمَ بالغيب، وهم لا يعلمونَ الحاضر؟ ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

معنى «دابة الأرض» ومعنى «منسأته»:

و﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ هي: الأَرَضَةُ. وهي: «دودَةٌ أَوْ دُوَيْبَةٌ تأكلُ الخَشَب ونحوه. يقال: خَشَبَةٌ مَأْروضَة: أكلَتْها الأَرَضَة»[1].

وهذه الأَرَضَةُ السّوسَةُ معروفةٌ في أكل الخشب، حيث تنخرُه من الداخل، وتأكلُ لُبَّه، وتَبقىٰ الخشبةُ من الخارج كأنها سليمة، مع أَنها في الداخل منخوبةٌ «مُسَوَّسَة»، وتَنكسرُ عند أولِ حادثة.

و﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾: عَصاهُ التي كان يتوكأُ عليها. وهي لم ترِدْ في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

وهي اسمُ آلَة، على وزن «مِفْعَلَة». مثل: المِكْنَسَة: آلَةُ الكَنْس. والمِكْسَحَة: آلَةُ الكَسْح. والمِبْشَرَة: آلة البَشْر.

والمِنْسَأَةُ مشتقةٌ من «النَّسْء»، وهو التأخير.

وسميت العصا مِنْسَأَةً لأنَّ حامِلَها يستعملُها في الزجر، فإذا استعملَها الراعي مع الغنم، وزجرها بها، فإنه يؤَخِّرُها بذلك ويوقفُها على ما يريد، ويوجِّهُها إلى ما يريد.

وفي «منسأَته» في الآية ثلاثُ قراءات:

الأُولى: قراءةُ ابن عامر: «مِنْسَأْتَه». بإسكان الهمزة. وهي لغةٌ فيها.

---

(١) المعجم الوسيط: ١٤.

الثانية: قراءةُ نافع وأبي عمرو وأبي جعفر: «مِنْساتَه» بتسهيلِ الهمزة، وتحويلِها إلى ألف.

ومن الشواهدِ على إبدالِ الهمزة أَلِفاً قولُ الشاعر:

إذا دَبَبْتَ عَلى المِنْساةِ مِنْ كِبَرٍ ... فَقَدْ تَباعَدَ عَنْكَ اللَّهْوُ وَالغَزَلُ

أي: إذا دببتَ على العصا.

والشاهد فيه كلمة «المِنْساة» بدونِ همزة، بل بالألف.

الثالثة: قراءةُ الباقين: «مِنْسَأَتَه» بالهمزةِ المفتوحة، على الأصلِ في تصريفِ الكلمة، لأنَّ الهمزةَ فيها أصلية. تقول: نَسَأَ، يَنْسَأُ، نَسْأً، ونَسيئَةً، ومِنْسَأَةً.

ومن الشواهدِ على ذلك قولُ الشاعر:

أَمِنْ أَجْلِ حَبْلٍ لا أَباكَ ضَرَبْتَهُ ... بِمِنْسَأَةٍ قَدْ جَرَّ حَبْلُكَ أَحْبُلا[1]

وإِضافةُ المنسأةِ إلى سليمانَ عليه السلام: «منسأتَه» تدلُّ على أنَّ سليمانَ عليه السلام كان يستخدمُ العصا، ويستعملُها في أَعمالِه وحركاتِه ونشاطاتِه، يحملُها أثناءَ سيره، ويتوكأُ عليها أَحياناً، ويزجرُ بها جنودَه وموظفيه أَحياناً.

وهو في استعمالِه للعصا يُذَكِّرُنا بموسى عليه السلام، عندما كانَ يستخدمُ العصا في التوكؤ عليها، والهشِّ بها على غنمه، وفي تحقيقِ مآربه الأُخرى. قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٧ ـ ١٨].

لم يعلم الجن بموت سليمان إلا بعد ما خر على الأرض:

لقد اتكأَ سليمانُ عليه السلام على منسأته، بينما كانَ الجنُّ

---

(١) انظر تفسير الدر المصون للسمين الحلبي ٩: ١٦٣ ـ ١٦٦.

منهمكين في أَعمالِهم وصناعاتِهم، وقبضَ اللّهُ روحَه وهو على هذه الحالة، وبقيَ جسمُه مستنداً معتمداً على المنسأة، وهو بدونِ روح، وكلما نظرَ له جنيٌّ من الجنِّ العاملين بطرفِ عينه رآهُ معتمداً على عصاه، فأقبلَ على عمله بنشاطٍ وتفاعل.. واستمرَّ الجنُّ في عملهم فترةً من الزمن، وهم لا يَعلمون أنَّ سليمانَ عليه السلام قد مات، وأنَّ الذي أَمامهم هو جسمُ سليمانَ الميت.

لقد حكمَ سليمانُ الجنَّ مَيْتاً كما حكمَهم حياً! ولقد حكمهم جسَدُه الهامد، كما حكمَهُم جسمُه الحيُّ المتحرك!! وكانوا يهابونَه ويخافونَه وهو ميت، كما كانوا يهابونَه ويخافونَه وهو حي، لأنهم لم يعلموا أَنه ميت.

وأرسلَ اللّهُ دابةَ الأرض «الأَرَضَة» إِلى منسأةِ سليمان، وبدأَتْ تنخرُ فيها وتأكلُها من الداخل، فأكلَتْ لُبَّها وفرَّغَتْها، وحوَّلَتْها إِلى هيكلٍ خارجي مفرَّغٍ من الداخل.

ولم تَستطع المِنْسَأَةُ المفرَّغَةُ حمْلَ جسدِ سليمان عليه السلام، فانكسرت، وبذلك هوى جسدُه إلى الأرض، وخَرَّ عليها!

وسمعَ الجنُّ صوتَ جسدِه وهو يخرُّ على الأرض، وشاهَدوه وهو يهوي إِليها، ونظروا إِليه فإِذا به ميْت، ونَظروا إِلى عصاه فإذا بها «مُسَوَّسَة» مَنخورة، وهذا معناه أَنه قد مضتْ فترةٌ من الزمن على وفاته.

كانت الفترة بين موته وسقوط منسأته قصيرة:

كم كانت الفترةُ بين وفاتِه وهو متوكئٌ على عَصاه، وبين خرورِه بعدما انكسرت العصا؟

ذهبَ بعضُهم إِلى تقديرِها بسنوات، أَو عشراتِ السنين! لأَنَّ تَسَوُّسَ العصا. وَنَخْرَها بالسوس، وأَكْلَ لبِّها، يحتاجُ إِلى سنوات!

فهل يعقلُ هذا؟ هل يبقى سليمانُ عليه السلام مَيْتاً متكئاً على العصا سنواتٍ عديدة؟ أَلم يكتشفْ أَحدٌ غيابَه هذه المدة؟ أَلَم يبحثوا

عنه؟ وهو ليسَ رجلاً عادياً، بل مَلِكٌ يحكمُ مَمْلَكةً قوية كبيرة! وهل يُعقلُ أنْ يغيبَ الملكُ عن مملكته سنواتٍ عديدة دونَ أنْ يبحثَ عنه رجالُه؟

وهل يُعقلُ أنْ يبقى الجنُّ منهمكين في الصناعةِ والعمل طيلةَ هذه السنين، لا يَرفعون رؤوسهم، ولا يذهبونَ إلى الطعامِ والشرابِ والراحةِ والنوم؟ أَلم يَجوعوا ويَعطشوا وينعسوا خلالَ هذه السنوات؟.

الذي نَراهُ أَنَّ دابةَ الأرض لم تأكلْ منسأةَ سليمان عليه السلام لما ماتَ أكلاً طبيعياً، ولم يستغرقْ ذلك مدةً زمنيةً طويلةً امتدت سنوات.

الذي نراه أَنَّ أكلَ دابةِ الأرض للمنسأة كان خارقةً من الخوارق، ومعجزةً من المعجزات، ولم يستغرقْ ذلك أكثرَ من عدةِ أيام، وهي المدةُ المعقولةُ ما بين موتِ سليمانَ عليه السلام وهو متوكِّئ على العصا، وما بين انكسارِها بعدَ أكلِ الأَرَضَة للُبِّها.

أمرَ اللّهُ دابةَ الأرض بأكْلِ لبِّ العصا في فترةٍ قصيرة ففعَلَتْ، وكان هذا معجزةً منه سبحانه، ليقدِّمَ دليلاً للجنِّ على أنهم لا يَعلمون الغيب.

وقد وقعَتْ في حياةِ سليمان عليه السلام معجزاتٌ عديدة عرفْنا منها:

الجنُّ الذين سخرهم اللّهُ له. والريحُ التي كانت تقطعُ مسافةَ الشهرين في يومٍ واحد. والمائةُ امرأة اللواتي جامعهنَّ سليمانُ في ليلةٍ واحدة، وسماعُه وفهمُه لمنطقِ الطير، ومحاورتُه للنملةِ والهدهد. وإسالةُ عينِ النحاسِ له. وذهابُ الهدهدِ من فلسطينَ إلى اليمنِ في فترةٍ قصيرة. وإحضارُ عرشِ ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين في لحظات!!

فلماذا لا يكونُ أكلُ دابةِ الأرض لِمنْسَأَةِ سليمانَ عليه السلام من هذا الباب؟ ولماذا لا نعتبرهُ معجزةً من المعجزات، تمَّ في فترةٍ زمنية قصيرة؟

هذا ما نرجحُه ونميلُ إليه. والله أعلم.

نقض علم الجن بالغيب لأنه خاص بالله:

والمهمُّ هو ما جَرى بعدما خرَّ على الأرض: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

تعجَّبَ الجنُّ لما سمعوا صوتَ خرورِه وسقوطِه على الأرض، وعَرَفوا أَنه قد مضى على وفاتِه ساعاتٌ أو أيام، بينما لم يَعلموا هم بذلك.

ولو عرفوا بموتِه ساعةَ موتِه ما لبثوا هذه الساعاتِ والأيامِ في العذابِ المُهينِ الشاقِّ المتعب، ولَتركوا ذلك العمل، وذَهبوا إلى الراحة.

إذن: هؤلاء الجنُّ لا يَعلمون الغيب، ولا يعلمونَ بعض الحاضرِ المشاهد!!

هذا ما أرادَ اللّهُ الحكيمُ إِقرارَه وتوضيحَه وترسيخَه من اختيارِه موتَ سليمانَ عليه السلام على هذه الطريقة. والجنُّ والشياطينُ كاذبون عندما يُشيعونَ أَنهم يعلمون الغيب، وهذا هو الدليلُ على كذبهم.

إنَّ اللّهَ سبحانَه هو الذي يعلمُ الغيبَ وحدَه، ولا يعلمَ أحدٌ من خلقِه من الغيب إلا ما عَلَّمَه اللّهُ إياه وأَظهرُه عليه. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٥ ـ ٢٧].

وبعدَما تبيَّنَ لرجالِ الدولة وفاةُ سليمان عليه السلام دَفَنوه مكانَ وفاته، لأنَّ كلَّ نبيٍّ يُدْفَنُ حيث مات.

ولا نَعرفُ عمرَ سليمان عليه السلام عندما مات، كما لا نعرفُ مقدارَ سنواتِ حكمه، ملكاً وخليفةً على بني إسرائيل.

انهيار دولة اليهود بعد سليمان:

وبوفاةِ سليمانَ عليه السلام انتهى العصرُ الذهبيُّ المشرقُ لبني إسرائيل، المتمثلُ في دولتِهم القوية وخلافتهم الإيمانية.

بدأت الدولةُ على يدِ ملكهم المؤمن «طالوت»، ثم قويتْ وتمكَّنَتْ على عهدِ النبيِّ الملكِ والخليفةِ الرسول داودَ عليه السلام، ثم توسَّعَت الدولةُ وامتدتْ وترسختْ واستقرتْ على يدِ النبيِّ الملك والخليفة الرسول سليمانَ عليه السلام.

وكانت الدولةُ دولةً إسلامية، وخلافةً إيمانية، روحُها المسجدُ الأقصى الذي بناه ـ أو جدَّدَ بناءَه ـ سليمانُ في مقرِّ خِلَافَتِهِ بيت المقدس. ووصلت الدولةُ الإيمانيةُ في عهدِ سليمان إلى اليمن، حيث أسلمَ قومُ سبأ، وانضمّوا مع ملكتهم مسلمين، وصاروا جزءاً من هذه الدولة.

وكان من رعايا دولةِ سليمان الإسلامية: الجنّ والشياطين والطير.

ولهذا وصلتْ هذه الدولة أَوْجَها وذروَتَها في عهدِ سليمانَ عليه السلام.

ولم تخبرْنا مصادرُنا الإسلامية، عن من استلمَ الحكمَ بعد سليمان عليه السلام، ولا عن ما حَلَّ بالدولةِ من بعده.

كلُّ ما نعرفُه من التاريخ أنَّ أَمْرَ قوةِ ورفعةِ الدولة لم يستمرَّ طويلًا، إذ سرعانَ ما دبت فيها الفرقةُ والاختلاف، فانفصلتْ سبأ عن الدولة، ثم زادَ الاختلافُ حتى انقسمت الدولةُ في الأرضِ المقدسة إلى أَقسام، وحكَمَها ملوكٌ ضعفاء، ووقعَ اليهودُ في المخالفات والمعاصي، وكفروا بالله، وكذَّبوا رسلَه، وقَتَلوا أنبياءَه، واتَّبعوا الباطل.

وكان نتيجةُ ذلك أنْ أوقعَ اللّهُ بهؤلاء اليهود غضبَه وعذابَه، فأزالَ دولتَهم، ودمَّرَ كيانَهم، ومكَّنَ أَعداءَهم منهم، فأخرجَهم من الأرضِ المقدسة، وشَتَّتَهُم في مختلفِ بقاعِ الأرض..

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة